
الجامع لأحكام القرآن الكريم


تفسير القرطبي
٥


لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري


Bibliotheca Alexandrina
0129285



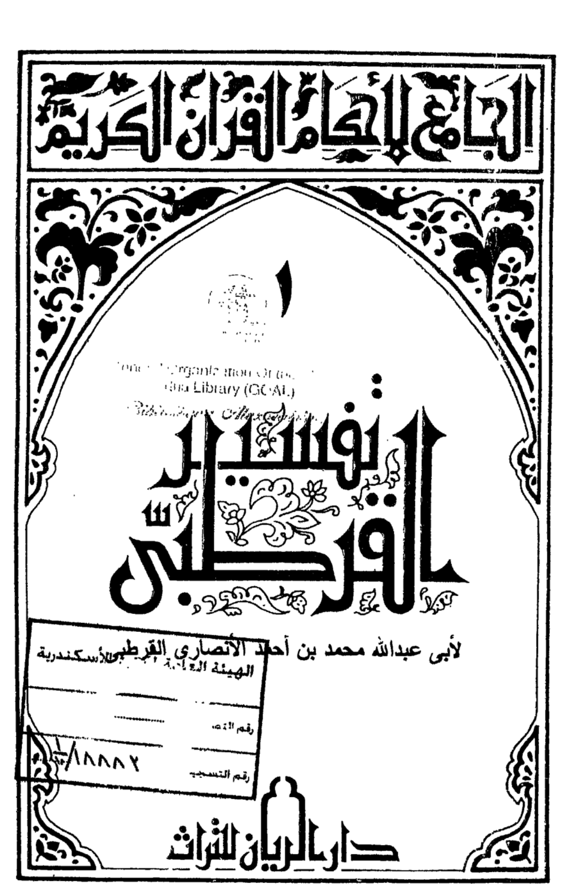
طبعة خاصة

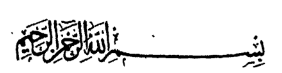
بتصريح من دار الشعب

يطلب من : دار الريان للتراث

● دار الريان للتراث ١٧٧ شارع الهرم . ت : ٥٣٦٥٩٩

● مصر الجديدة: ٢٠ شارع الاندلس . ت : ٢٥٩١٨٩٢/ ٢٥٩١١٩١


الجامع لأحكام القرآن الكريم
١
تفسير القرطبي
لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
دار الريان للتراث


بسم الله الرحمن الرحيم



وبه نستعين

وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العامل العلّامة المحدّث أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي رضي الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربّ الصمد الواحد، الحيّ القيوم الذي لا يموت؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهب العظام؛ والمتكلم بالقرآن، والخالق للإنسان، والمنعم عليه بالإيمان، والمرسل رسوله بالبيان، محمداً صلى الله عليه وسلم ما اختلف الملوان، وتعاقب الجديدان، أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشك واليقين؛ الذي أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الألباء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . جعل أمثاله عبرا لمن تدبّرها، وأوامره هدى لمن استبصرها؛ وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرّر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال وقص فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا؛ فقرّاءُ القرآن حملةُ سرّ الله المكنون، وحفظةُ علمه المخزون، وخلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصّته وخيرته وأصفياؤه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ لله أهلِينَ منّا » قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال : « هم أهل القرآن هم أهل الله وخاصّته » أخرجه ابن ماجه في سننه، وأبو بكر البزار في مسنده . فما أحقّ من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ما شرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه؛ فإنه قد حُمّل أعباء الرسل، وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل . قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ . ألا وإنّ الحجة على من علمه فأغفله،

أوكد منها على من قصر عنه وجهله . ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع؛ وارتكب من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فضوحا؛ كان القرآن حجة عليه، وخصما لديه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القرآن حجةٌ لك أو عليك » خرّجه مسلم . فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته، ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه؛ قال الله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ . جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته ، ويتدبره حق تدبره؛ ويقوم بقسطه، ويوفى بشرطه ، ولا يلتمس الهدى فى غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل الى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مشكلا ، وتحقيق ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض اليه . قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . ثم جعل الى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم آستنباط ما نبه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم . قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا، واستنباط العلماء إيضاحا وتبيانا؛ فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوعية كتابه، وآذاننا موارد سنن نبيه؛ وهممنا مصروفة إلى تعلمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما؛ طالبين بذلك رضا رب العالمين، ومتدرّجين به إلى علم الملة والدّين .

(وبعد) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذى آستقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء الى أمين الأرض؛ رأيت أن أشتغل به مدى عمرى، وأستفرغ فيه مُنّتى؛ بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا ، يتضمن نكتا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات ؛ والرّد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات؛ جامعا بين معانيهما، ومبينا ما أشكل منهما؛ بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف ؛ وعملته تذكرة لنفسى، وذخيرة ليوم رمسى؛ وعملا صالحا بعد موتى . قال الله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلا من ثلاث صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتفعُ به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» .

وشرطي في هذا الكتاب إضافةُ الأقوال إلى قائليها ، والأحاديث إلى مصنّفيها ؛ فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ، وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما ، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم ، ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ، ولا الاستدلال حتى يضيفه الى من خرّجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الإسلام . ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب ؛ وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا ما لا بدّ منه ولا غَناء عنه للتبيين ، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها ، وترشد الطالب إلى مقتضاها ، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد ، مسائل تبيّن فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم ؛ فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ، هكذا إلى آخر الكتاب .

(وسمّيته بالجامع لأحكام القرآن ، والمبيّن لما تضمنه من السنّة وآي الفرقان) ، جعله الله خالصا لوجهه ، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراده بمنّه ؛ إنه سميع الدعاء قريب مجيب آمين .

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير ، ألف فيه العلماء كتبا كثيرة ، نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله ، وما أعدّ الله لأهله ، اذا أخلصوا الطلب لوجهه ، وعملوا به . فأوّل ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام ربّ العالمين غير مخلوق ، كلام من ليس كمثله شيء ، وصفة من ليس له شبيه ولا ندّ ، فهو من نور ذاته جلّ وعز ؛ وأن القراءة أصوات القرّاء ونغماتهم ، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حال ، إيجابا في بعض العبادات ، وندبا في كثير من الأوقات ؛ ويزجرون عنها اذا أجنبوا ، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق ونطقت به

الآثار، ودل عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتى بيانه . ولولا أنه ـ سبحانه ـ جعل فى قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله ليتدبّروه وليعتبروا وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكت بثقله، أو لتضعضعت له وأنى تطيقه؛ وهو يقول ـ تعالى جدّه ـ وقوله الحق : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ . فأين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلا منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار فى هذا الباب ـ فأول ذلك، ما خرّجه الترمذىّ عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الربّ تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » قال : « وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمد الدارمىّ السمرقندىّ فى مسنده عن عبد الله قال: السبع الطوال مثل التوراة، والمئون مثل الإنجيل، والمثانى مثل الزبور ، وسائر القرآن بعدُ فضلٌ . وأسند عن الحارث عن علىّ رضى الله عنه وخرّجه الترمذى ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم » قلت : يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا تشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الردّ ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم خذها اليك يا أعور » الحارث رماه الشعبىّ بالكذب وليس بشىء ، ولم يبنّ من الحارث كذب ، وانما نقم عليه إفراطه فى حب علىّ وتفضيله له على غيره؛ ومن هاهنا والله أعلم كذبه الشعبىّ لأن الشعبىّ يذهب الى تفضيل أبى بكر، والى أنه أول من أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظن الشعبىّ عوقب لقوله فى الحارث الهمدانى: حدّثنى الحارث وكان أحد الكذابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى النحوى اللغوى في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هـذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم إن هـذا القرآن هو حبل الله النور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ونجاة من اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن رد فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول الم حرف ولا ألفين أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فان الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله . وقال أبو عبيد في غريبه عن عبد الله قال : إن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن . قال : وتأويل الحديث، أنه شبه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيـه خير ومنافع، ثم دعاهم إليـه ، يقال : مأدُبة ومأدَبة ، فمن قال : مأدُبة ، أراد الصنيع يصنعه الانسان فيدعو اليه الناس، ومن قال : مأدَبة فانه يذهب به الى الأدب ، يجعله مفعلة من الأدب ويحتج بحديثه الآخر : « إن هذا القرآن مأدبة الله عز وجل فتعلموا من مأدبته » وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنى واحد، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره ، والتفسير الأول أعجب إلى .

وروى البخارى عن عثمان بن عفان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . وروى مسلم عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثـل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثـل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر » . وفي رواية مثل الفاجر بدل المنـافق . وقال البخارى : مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة، طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة، وذكر الحديث .

وذكر أبو بكر الأنبارى وقد أخبرنا أحمـد بن يحيى الحلوانى حدثنا يحيى بن عبد الحميـد حدثنا هشيم ح : وأنبأنا إدريس حدثنا خلف حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب : أن أبا عبد الرحمن السلمى كان اذا ختم عليـه الخاتم القرآن أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه ، وقال له : يا هذا اتق الله فما أعرف أحدا خيرا منك ان عملت بالذى علمت ! وروى الدارمى عن وهب الذمارى قال :

من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار ، وعمل بما فيه ومات على الطاعة، بعثه الله يوم القيامة مع السفرة والأحكام[1] . قال سعد : السفرة : الملائكة، والأحكام : الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» التتعتع : التردد في الكلام عيا وصعوبة، وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة، ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه، ثم ترقى عن ذلك الى أن شبه بالملائكة. والله أعلم . وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » . قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد روى موقوفا . وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في الصفة، فقال : « أيكم يحب أن يغدو كل يوم الى بُطحانَ أو العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم » فقلنا : يا رسول الله كلنا نحب ذلك، قال : « أفلا يغدو أحدكم الى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل » .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

وروى أبو داود والنسائي والدارمي والترمذي عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » قال الترمذي : حديث حسن غريب . وروى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) والأحكام هكذا في النسخ التي رأيناها ولعل الغرض وذوي الأحكام . أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال .

قال : « يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول يارب حله فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب ارض عنه فيرضى عنه فيقول له اقرأ وارق و يزاد لكل آية حسنة» قال : حديث صحيح . وروى أبوداود عن عبد الله ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبي سعيد الخدرى، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فيقرأ و يصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه» .

وأسند أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوة كلها غير أنه لا يوحى اليه و يقال له يوم القيامة اقرأ وارق فيقرأ آية و يصعد درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال له اقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم » .

حدثنا ادريس بن خلف حدثنا اسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوة ومن أخذ نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوة ومن أخذ القرآن كله فقد أخذ النبوة كلها » . قال

وحدثنا محمد بن يحيي المروزى أنبأنا محمد وهو ابن سعدان حدثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضمرة عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار» . وقالت أم الدرداء : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه ممن دخل الجنة ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن عدد آى القرآن على عدد درج الجنة ، فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن، ذكره أبو محمد مكى . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ . قال ابن عباس : فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، ذكره مكى أيضا . وقال الليث : يقال : ما الرحمة الى

أحد بأسرع منها الى مستمع القرآن لقول الله جل ذكره : ﴿ وإذا قُرِئَ القُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا له وأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ولعل من الله واجبة .

وفى مسند أبى داود الطيالسى وهو أول مسند أُلف فى الإسلام (١) عن عبدالله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين» . والآثار فى معنى هذا الباب كثيرة وفيما ذكرنا كفاية والله الموفق للهداية .

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم واختلاف الناس فى ذلك

روى البخارى عن قتادة قال : سألت أنسا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كان يمد مدا [إذا] قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم .

وروى الترمذى عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته يقول : الحمدُ لِلهِ ربِّ العالمين ثم يقف ، الرَّحمنِ الرَّحيمِ ثم يقف ، وكان يقرأ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين . قال : حديث غريب . وأخرجه أبو داود بنحوه .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحسن الناس صوتا من اذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى» وروى عن زياد النميرى : أنه جاء مع القراء الى أنس بن مالك فقيل له : اقرأ فرفع صوته وطرب وكان رفيع الصوت ، فكشف أنس عن وجهه وكان على وجهه خرقة سوداء ، فقال : يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون ، وكان اذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه . وروى عن قيس ابن عباد أنه قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصوت عند الذكر . وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والقاسم ابن محمد والحسن وابن سيرين والنخعى وغيرهم ، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب فيه . روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم الناس فطرب فى قراءته ، فارسل اليه سعيد يقول : — أصلحك الله — إن الأئمة لا تقرأ هكذا ، فترك عمر التطريب بعدُ . وروى عن القاسم بن محمد : أن رجلا قرأ فى مسجد النبى

(١) يصح هذا إذا كان أبو داود هو الذى ألفه ولكن الذى ألفه تلميذه ابن حبيب فابن هو أول مسند ألف فى الاسلام .

صلى الله عليه وسلم فطرب، فأنكر ذلك القاسم وقال: يقول الله عز وجل: ﴿ وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ الآية.

وروى عن مالك: أنه سئل عن النبر فى قراءة القرآن فى الصلاة فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة، وأنكر رفع الصوت به. وروى ابن القاسم عنه: أنه سئل عن الألحان فى الصلاة فقال: لايعجبنى، وقال: إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم. وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به، وذلك لأنه إذا حسن الصوت به كان أوقع فى النفوس وأسمع فى القلوب، واحتجوا بقوله عليه السلام: « زينوا القرآن بأصواتكم » رواه البراء بن عازب. أخرجه أبو داود والنسائى؛ وبقوله عليه السلام: « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » أخرجه مسلم. وبقول أبى موسى للنبىّ صلى الله عليه وسلم: لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبّرته لك تحبيرا؛ وبما رواه عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فى مسير له سورة الفتح على راحلته فرجع فى قراءته. وممن ذهب الى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ وابن المبارك والنضر بن شميل، وهو اختيار أبى جعفر الطبرى وأبى الحسن بن بطال والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم. قلت: القول الأوّل أصح لما ذكرناه ويأتى. وأما ما احتجوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره، وإنما هو من باب المقلوب أى زينوا أصواتكم بالقرآن. قال الخطابىّ: وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث: زينوا أصواتكم بالقرآن؛ وقالوا: هو من باب المقلوب كما قالوا: عرضت الحوض على الناقة، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض؛ قال: ورواه معمر عن منصور عن طلحة، فقدّم الأصوات على القرآن وهو الصحيح؛

قال الخطابىّ: ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « زينوا القرآن بأصواتكم » أى ألهجوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة؛ وقيل: معناه الحض على قراءة القرآن والدءوب عليه. وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه [أنه] قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « زينوا أصواتكم بالقرآن » وروى عن عمر أنه قال: « حسنوا أصواتكم بالقرآن » قلت: والى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام: « ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن » أى ليس منا من لم يحسّن صوته بالقرآن؛ كذلك تأوّله عبد الله بن أبى مليكة. قال عبد الجبار ابن الورد: سمعت ابن أبى مليكة يقول: قال عبد الله بن أبى يزيد: مرّ بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى

دخل بيته فإذا رجل رث الهيئة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع - ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى للنبيّ صلى الله عليه وسلم: إني لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسنت صوتي بالقرآن وزيّنته ورتلته؛ وهذا يدل أنه كان يهذّ[1] في قراءته مع حسن صوته الذي جبل عليه ، والتحبير : التزيين والتحسين ، فلو علم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يسمعه لمدّ في قراءته ورتلها كما كان يقرأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأوّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : إن القرآن يزين بالأصوات أو بغيرها ، فمن تأول هذا فقد واقع أمرا عظيما أن يحوج القرآن الى من يزيّنه ، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه ؛ وقد قيل : إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك أي زينوا القراءة بأصواتكم فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعالى : ﴿وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي قراءة الفجر، وقوله : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا أي قراءة . وقال الشاعر[2] في عثمان رضي الله عنه :

ضحّوا بأشمط عنوانُ السجود به * يقطّع الليل تسبيحا وقرآنا

أي قراءة، فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدّها على ما نبينه فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنى به يستغني به من الاستغناء الذي هو ضدّ الافتقار ، لا من الغناء، يقال : تغنيت وتغانيت بمعنى استغنيت . وفي الصحاح : تغنّى الرجل بمعنى استغنى، وأغناه الله وتغانوا أي استغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن حبناء التميميّ :

كلانا غنيّ عن أخيه حياته * ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا

وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح، ورواه سفيان عن سعد بن أبي وقاص، وقد روى عن سفيان أيضا وجه آخر؛ ذكره اسحاق بن راهويه أي يستغني به عما سواه من الأحاديث

(١) الهذ في القراءة : الاسراع فيها . (٢) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

والى هذا التأويل ذهب البخارى محمد بن اسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم، قاله أهل التأويل . وقيل : إنّ معنى يتغنّى به يتحزن به أى يظهر على قارئه الحزن الذى هو ضد السرور عند قراءته وتلاوته ، وليس من الغنية لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ولم يقل يتغنّى به . وذهب الى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد بن حبان البستى، واحتجوا بما رواه مطرف بن عبد الله ابن الشخير عن أبيه، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء . الأزيز بزايين : صوت الرعد وغليان القدر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزن، وعضدوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال: قال لى النبيّ صلى الله عليه وسلم : « اقرأ عليّ » فقرأت عليه سورة النساء حتى اذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ فنظرت اليه فاذا عيناه تدمعان . فهذه أربعة تأويلات ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها . وقال أبو سعيد بن الأعرابيّ فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » قال : كانت العرب تولع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجيراهم مكان الغناء، فقال : « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » .

التأويل الخامس ما تأوله من استدل به على الترجيع والتطريب فذكر عمر بن شبّة قال : ذكرت لأبى عاصم النبيل تأويل ابن عيينة فى قوله : يتغنّ يستغنى، فقال : لم يصنع ابن عيينة شيئا . وسئل الشافعى عن تأويل ابن عيينة فقال : نحن أعلم بهذا ، لو أراد النبيّ صلى الله عليه وسلم الاستغناء لقال : من لم يستغن، ولكن لما قال : « يتغنّ » علمنا أنه أراد التغنّى . قال الطبرىّ : المعروف عندنا فى كلام العرب أن التغنّى انما هو الغناء الذى هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تغنّ بالشعر مهما كنت قائله ✽ إن الغناء لهذا الشعر مضمار

قال : وأما ادّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى استغنيت فليس فى كلام العرب وأشعارها ، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله، وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنت امرءًا زمنا بالعراق ✽ خفيف المناخ طويل التغنّ

وزعم أنه أراد الاستغناء فانه غلط منه، وانما غنى الأعشى فى هذا الموضع الاقامة، من قول العرب : غنى فلان بمكان كذا أى أقام. ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ وأما استشهاده بقوله :

* ونحن إذا متنا أشد تغانيا *

فإنه إغفال منه، وذلك أن التغانى تفاعل من نفسين إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه، كما يقال تضارب الرجلان إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه . ومن قال هذا فى فعل الاثنين لم يجز أن يقول مثله فى الواحد . غير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمرو؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى استغنى .

قلت : ما آدعاه الطبرى من أنه لم يرد فى كلام العرب تغنّى بمعنى استغنى، فقد ذكره الجوهرى كما ذكرنا ، وذكره الهروى أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل انما تكون من اثنين فقد جاءت من واحد فى مواضع كثيرة : منها قول ابن عمر : وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام . وتقول العرب : طارقت النعل وعاقبت اللص وداويت العليل، وهو كثير، فيكون تغانى منها . واذا احتمل قوله عليه الصلاة والسلام : « يتغنّ » الغناء والاستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الاستغناء أولى، لو لم يكن لنا تأويل غيره ، لأنه مروى عن صحابى كبير كما ذكر سفيان . وقد قال ابن وهب فى حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عيينة ، ومعلوم أنه رأى الشافعى وعاصره .

وتأويل سادس وهو ما جاء من الزيادة فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أذن الله لشئ أَذَنه لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » : قال الطبرى: ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى . قلنا : قوله : يجهر به لا يخلو أن يكون من قول النبى صلى الله عليه وسلم أو من قول أبى هريرة أو غيره ، فإن كان الأول وفيه بعد فهو دليل على عدم التطريب والترجيع لأنه لم يقل : يطرّب به، وإنما قال : يجهر به أى يسمع نفسه ومن يليه ؛ بدليل قوله عليه السلام للذى سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : « أيها الناس آربَعُوا على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا » الحديث . وسيأتى وكذلك إن كان من صحابى أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه؛ وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا

أشبه لأن العرب تسمى كل من رفع صوته ووالى به غانيا ، وفعله ذلك غناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء؛ قال : وعلى هذا فسره الصحابي وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد احتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعي فقال : وقد رفع الإشكال فى هذه المسألة ما رواه ابن أبى شيبة؛ قال : حدثنا زيد بن الحباب قال حدثنا موسى بن على بن رباح عن أبيه عن عقبة ابن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا القرآن وغنوا به واكتبوه فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفصيا من المخاض من العُقُل » قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيرده ما يسلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن تلقينا متواترة عن كافة المشايخ جيلا بجيل الى العصر الكريم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلحين ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين فى مخارج الحروف وفى المد والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفية القراءات . ثم إن فى الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومد ما ليس بممدود، فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة(1) الواحدة شبهات فيؤدى ذلك الى زيادة فى القرآن وذلك ممنوع ، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيروها نبرات وهمزات ، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هى همزة واحدة لا غير؛ إما ممدودة وإما مقصورة . فان قيل : وقد روى عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير له سورة الفتح على راحلته فرجع فى قراءته؛ وذكره البخارى وقال فى صفة الترجيع : آء آء آء ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المد فى موضعه ، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هز الراحلة كما يعترى رافع صوته اذا كان راكبا من انضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب؛ واذا احتمل هذا فلا حجة فيه . وقد خرج أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن ابن أبى بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المد ليس فيها ترجيع . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يطرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا وإلا فلا تؤذن » أخرجه الدارقطنى فى سننه . فاذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك فى الأذان فأحرى ألا يجوزه فى القرآن الذى حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

(1) لعل أصل العبارة — والشين الواحدة شينات ، أو والشدة الواحدة شدات .

قلت : وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات ، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز ، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز ، ضل سعيهم ، وخاب عملهم ، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله ، ويهونون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه ، جهلا بدينهم ومروقا عن سنة نبيهم ، ورفضا لسير الصالحين فيه من سلفهم ، ونزوعا إلى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فهم في غيهم يترددون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

ذكر الامام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث حذيفة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» . اللحون : جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : ويشبه أن يكون هذا الذي يفعله قراء زماننا بين يدي الوعاظ وفي المجالس من اللحون الأعجمية التي يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والترجيع في القراءة ترديد الحروف كقراءة النصارى ، والترتيل في القراءة هو التأني فيها والتمهل وتبيين الحروف والحركات تشبيها بالثغر المرتل وهو المشبه بنور الأقحوان وهو المطلوب في قراءة القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ . وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته فقالت : ما لكم وصلاته ! ثم نعتت قراءته فإذا هي نعت، قراءة مفسرة حرفا حرفا . أخرجه النسائي، وأبو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ . روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت ليقال جرىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » . وقال الترمذى فى هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتى ، فقال : « يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة » . أبو هريرة اسمه عبد الله وقيل : عبد الرحمن ، وقال : كنيت أبا هريرة لأنى حملت هرة فى كمى فرآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ما هذه » قلت : هرة ، فقال : « يا أبا هريرة » . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يرد بعمله وعلمه وجه الله تعالى . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » .

وخرج ابن المبارك فى رقائقه عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا من أقرأ منا من أعلم منا » ثم التفت الى أصحابه فقال : « هل ترون فى أولئكم من خير » قالوا : لا قال : « أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار » . وروى أبو داود والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » يعنى ريحها . قال الترمذى : حديث حسن . وروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعوذوا بالله من جب الحزن » قالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : « واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم فى كل يوم مائة مرة » قيل : يا رسول الله ، ومن يدخله ؟ قال : « القراء

المراءون بأعمالهم » قال : هذا حديث غريب . وفى كتاب أسد بن موسى : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « إن فى جهنم لواديا إن جهنم لتتعوّذ من شرّ ذلك الوادى كل يوم سبع مرات وإن فى ذلك الوادى لجبا إن جهنم وذلك الوادى ليتعوّذان بالله من شرّ ذلك الجبّ وإن فى الجبّ لحية وإن جهنم والوادى والجب ليتعوّذون بالله من شرّ تلك الحية سبع مرات أعدّها الله للأشقياء من حملة القرآن الذين يعصون الله » فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقى الله فى نفسه ويخلص العمل لله ، فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة ، وليبتدئ الإخلاص فى التوبة وعمله ، فالذى يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . روى الترمذى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزل الله فى بعض الكتب أو أوحى إلى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصّبر : إياى يخادعون وبى يستهزءون لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران » .

وخرّج الطبرىّ فى كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كريب محمد[1] بن العلاء حدّثنا المحاربىّ عن عمرو بن عامر البجلىّ عن ابن صدقة عن رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أو من حدّثه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسه يخدع لو يشعر » قالوا : يارسول الله وكيف يخادع الله ؟ قال : « تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره واتقوا الرياء فإنه الشرك وإن المرائى يدعى يوم القيامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يافاجر ياغادر ياخاسر ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع » . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم الكبير وتتخذ سنة مبتدعة يجرى عليها الناس فإذا غير منها شيء قيل : قد غيرت السنة قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إذا كثر قرّاؤكم ، وقل فقهاؤكم ، وكثر أمراؤكم ، وقل أمناؤكم ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة ، وتفقه لغير الدين . وقال سفيان بن عيينة : بلغنا عن ابن عباس أنه قال : لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهم الله ، ولكن طلبوا به الدنيا

---

(١) فى بعض النسخ « أبو بكر بن محمد » والصواب ما أثبتناه .

فأبغضهم الله، وهانوا على الناس . وروى عن أبى جعفر محمد بن على فى قول الله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ قال : قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم ، وخالفوه الى غيره . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يخلص فى طلبه لله جل وعز كما ذكرنا ، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن فى ليله ونهاره فى الصلاة أو فى غير الصلاة لئلا ينساه . روى مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره ، وإن لم يقم به نسيه » وينبغى له أن يكون لله حامدا ، ولنعمه شاكرا ، وله ذاكرا ، وعليه متوكلا ، وبه مستعينا ، وإليه راغبا ، وبه معتصما ، وللموت ذاكرا ، وله مستعدا . وينبغى له أن يكون خائفا من ذنبه ، راجيا عفو ربه ؛ ويكون الخوف فى صحته أغلب عليه ، إذ لا يعلم بما يختم له ؛ ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى فى نفسه ، لحسن الظن بالله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتن احدكم إلا وهو يحسن بالله الظن » أى أنه يرحمه ويغفر له . وينبغى له أن يكون عالما بأهل زمانه ، متحفظا من سلطانه ، ساعيا فى خلاص نفسه ، ونجاة مهجته ، مقدما بين يديه ما يقدر عليه من عرض دنياه ، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما استطاع . وينبغى له أن يكون أهم أموره عنده الورع فى دينه ، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه . وقال ابن مسعود : ينبغى لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس مستيقظون ، وببكائه اذا الناس يضحكون ، وبصمته اذا الناس يخوضون ، وبخشوعه اذا الناس يختالون ، وبحزنه اذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغى لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض ، ولا يجهل مع من يجهل ، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن ، لأن فى جوفه كلام الله تعالى . وينبغى له أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طرق الشبهات ، ويقل الضحك والكلام فى مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه ، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار ؛ وينبغى له أن يتواضع للفقراء ويتجنب التكبر والإعجاب ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة ، ويترك الجدال والمراء ، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب . وينبغى له أن يكون ممن يؤمن شره ،

ويرجى خيره ويسلم من ضره، وألا يسمع ممن نم عنده ، ويصاحب من يعاونه على الخير ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق، ويزينه ولا يشينه . وينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو . فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه . وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا . وينبغى له أن يعرف المكى من المدنى ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده فى أول الإسلام، وما ندبهم اليه فى آخر الاسلام، وما افترض الله فى أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض فى آخره . فالمدنى هو الناسخ للمكى فى أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكى المدنى لأن المنسوخ هو المتقدم فى النزول قبل الناسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب ، فذلك مما يسهل عليه معرفة ما يقرأ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو . وقد قال أبو جعفر الطبرى : سمعت الجرمى يقول : أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه ؛ قال محمد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجرمى كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه فى الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير . ثم ينظر فى السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبها يصل الطالب الى مراد الله عز وجل فى كتابه ، وهى تفتح له أحكام القرآن فتحا ، وقد قال الضحاك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ . قال : حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر ابن أبى الحوارى قال : أتينا فضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة ، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول، فقال بعض القوم : إن كان خارجا لشىء فسيخرج لتلاوة القرآن، فأمرنا قارئا فقرأ فاطلع علينا من كوة، فقلنا : السلام عليك ورحمة الله ؛ فقال : وعليكم السلام ؛ فقلنا : كيف أنت يا أبا على، كيف حالك ؟ فقال : أنا من الله فى عافية ومنكم فى أذى، وإن ما أنتم فيه حدث فى الإسلام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ما هكذا كنا نطلب العلم ، ولكنا كنا نأتى المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلا للجلوس معهم ، فنجلس دونهم ونسترق السمع ، فإذا مر الحديث سألناهم إعادته وقيدناه ، وأنتم تطلبون العلم بالجهل ، وقد ضيعتم كتاب الله ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون ، قال : قلنا قد تعلمنا القرآن ، قال : إن فى تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم ؛

وأعمار أولادكم، قلنا : كيف يا أبا علي؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومحكمه من متشابهه، وناسخه من منسوخه، فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرا بالقرآن ، وعالما بالفرقان، وهو قريب على من قربه الله عليه ، ولا ينتفع بشيء مما ذكرنا حتى يخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبين أنه على خطأ في اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى ، فينتفع بذلك ويحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا فجرنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثوري . وقال حبيب بن أبي ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد .

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معربا

قال أبو بكر بن الأنباري : جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم من تفضيل إعراب القرآن ، والحض على تعليمه ، وذم اللحن وكراهيته ما وجب به على قراء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه .

- من ذلك ما حدثنا يحيى بن سليمان الضبي قال حدثنا محمد - يعني ابن سعيد - قال حدثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المقبري عن أبيه عن جده عن أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » . حدثني أبي قال حدثنا إبراهيم بن الهيثم قال حدثنا آدم - يعني ابن أبي إياس - قال حدثنا أبو الطيب المروزي قال حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فلم يعربه وكل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وكل به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أعربه وكل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة » . وروى جويبر عن الضحاك قال : قال عبد الله بن مسعود : جردوا القرآن وزينوه بأحسن

الأصوات ، وأعربوه فإنه عربي وإنه يحب أن يعرب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد قال : قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ حروفه . وعن الشعبي قال: قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغني أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب العرب لثلاث لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي » . وروى سفيان عن أبي حمزة قال : قيل للحسن في قوم يتعلمون العربية قال : أحسنوا، يتعلمون لغة نبيهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماما يلحن؛ قال : أخروه .

وعن ابن أبي مليكة قال : قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من يقرئني مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : فأقرأه رجل براءة؛ فقال : أن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر؛ فقال الأعرابي : أو قد برئ الله من رسوله ! فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه، فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورة براءة، فقال : أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فقلت : أو قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي، قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه ، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود فوضع النحو .

وعن علي بن الجعد قال : سمعت شعبة يقول : مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية مثل الحمار عليه مخلاة لا علف فيها . وقال حماد بن سلمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال العربية فهو كمثل الحمار تعلق عليه مخلاة ليس فيها شعير . قال ابن عطية : إعراب القرآن أصل في الشريعة ، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع .

قال ابن الأنباري : وجاء عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم ، من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر ما بين صحة مذهب النحويين في ذلك ، وأوضح

فساد مذاهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ماحدّثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدثنا ابن أبي مريم قال : أنبأنا ابن فروخ، قال أخبرني أسامة قال أخبرني عكرمة : أن ابن عباس قال : إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب . وحدّثنا إدريس ابن عبد الكريم قال حدّثنا خلف قال حدّثنا حماد بن زيد عن عليّ بن زيد بن جدعان قال سمعت سعيد بن جبير ويوسف بن مهران يقولان : سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا. وعن عكرمة عن ابن عباس، وسأله رجل عن قول الله جل وعز : ﴿ وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : لاتلبس ثيابك على غدر، وتمثل بقول غيلان الثقفيّ :

فإني بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ   لَبِستُ ولا من سَوْءَةٍ أتقنَّعُ (١)

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنا، وتمثل ببيت شعر :

زنيمٌ ليس يُعرَفُ مَنْ أبوه   بَغِيُّ الأم ذو حسبٍ لئيمِ

وعنه أيضا الزنيم : الدعيّ الفاحش اللئيم، ثم قال :

زنيمٌ تداعاهُ الرجالُ زيادةً   كما زِيدَ في عَرْضِ الأَديمِ أكارِعُهْ

وعنه في قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال : ذواتا ظل وأغصان، ألم تسمع الى قول الشاعر:

ما هاج شوقَكَ من هَديلِ حمامةٍ   تدعو على فَنَنِ الغصونِ حَماما

تدعو أبا فَرخَينِ صادفَ طائرًا   ذا مِخلَبينِ من الصُّقُورِ قَطَاما

وعن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال: الأرض، قال ابن عباس؛ وقال أمية بن أبي الصلت : «عندهم لحم بحر ولحم ساهرة» (٢) . قال ابن الأنباريّ والرواة يروون هذا البيت :

وفيها لحمُ ساهِرَةٍ وبَحْرٍ   وما فاهُوا به لَهُمُ مُقيمُ

---

(١) أورد الألوسي في تفسيره روح المعاني هذا البيت عند قوله تعالى « وثيابك فطهر » برواية أخرى هكذا :

فاني بحمد الله لا ثوب فاجر   لبست ولا من غدرة أتقنع

(٢) كذا في الأصول ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذي قاله أمية والذي ذكره ابن الأنباري فيما يلي وقد عزى قول ابن الأنباري صاحب اللسان في مادة سهر وصاحب تفسير روح المعاني ج ١ ص ٢٨٦ طبع بولاق .

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس: أخبرني عن قول الله جل وعز: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ما السِّنة؟ قال: النعاس؛ قال زهير بن أبي سلمى:

لا سِنَةٌ في طِوال الليل تأخذُه • ولا يَنامُ ولا في أمره فَنَدُ[1]

باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم:

وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين، فمن ذلك: أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم؛ فقال له رجل: — جعلت فداءك — تصف جابرا بالعلم وأنت أنت! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. وقال مجاهد: أحب الخلق الى الله تعالى أعلمهم بما أنزل. وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية الا أحب أن يعلم فيما أنزلت وما يعني بها. وقال الشعبيّ: رحل مسروق الى البصرة في تفسير آية، فقيل له إن الذي يفسرها رحل الى الشام؛ فتجهز ورحل الى الشام حتى علم تفسيرها. وقال عكرمة: في قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته. وقال ابن عبد البر: هو ضمرة بن حبيب وسيأتي. وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يمنعني الا مهابته، فسألته فقال: هي حفصة وعائشة. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب؛ ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب.

باب ما جاء في حامل القرآن ومن هو وفيمن عاداه

قال أبو عمر: روى من وجوه فيها لين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة، الامام المقسط، وذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه»

---

(١) الفند: العجز.

وقال أبو عمر : وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والعاملون بما فيه . وروى أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « القرآن أفضل من كل شيء فمن وقر القرآن فقد وقر الله ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله تعالى » .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول : فمن حرمة القرآن ألا يمسه إلا طاهرا . ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة . ومن حرمته أن يستاك ويتخلل فيطيب فاه ، إذ هو طريقه . قال يزيد بن أبي مالك : إن أفواهكم طرق من طرق القرآن ، فطهروها ونظفوها ما استطعتم . ومن حرمته أن يتلبس كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج (١) . ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته . وكان أبو العالية إذا قرأ اعتم ولبس وارتدى واستقبل القبلة . ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع . روى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه تور اذا تنخع مضمض ثم أخذ في الذكر وكان كلما تنخع مضمض . ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه اذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج ، والتثاؤب من الشيطان . قال مجاهد : اذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك . قال عكرمة : يريد أن في ذلك الفعل إجلالا للقرآن . ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم ، ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتداء قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ . ومن حرمته اذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة . ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه ، لأنه اذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذي استعاذ في البدء . ومن حرمته أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل . ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به . ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب الى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه . ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيتمثلها ، ومن حرمته أن يلتمس غرائبه . ومن حرمته أن يؤدي لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما ، فإن

---

(١) يقال : تلبس بالثوب يعني لبسه .

له بكل حرف عشر حسنات. ومن حرمته اذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ويشهد بالبلاغ لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول : صدقت ربنا وبلغ رسولك . ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم اجعلنا من شهداء الحق، القائمين بالقسط، ثم يدعو بدعوات، ومن حرمته اذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأ، فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا فامره أن يقرأ على السور أو كما قال . ومن حرمته اذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشورا وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب، علما كان أو غيره . ومن حرمته أن يضعه فى حجره اذا قرأه أو على شىء بين يديه ولا يضعه بالأرض . ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء . ومن حرمته اذا غسله بالماء أن يتوقى النجاسات من المواضع التى توطأ ، فان لتلك الغسالة حرمة ، وكان من قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته. ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة اذا بليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالماء. ومن حرمته ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرة . وكان أبو موسى يقول : إنى لأستحى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرة . ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه فإن العين تؤدى الى النفس وبين النفس والصدر حجاب، والقرآن فى الصدر فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدى الى النفس، فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد اشتركا فى الأداء وذلك أوفر للأداء، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن . روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة» قالوا : يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : « النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه » . وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظرا» . ومن حرمته ألا يتأوله عند ما يعرض له شىء من أمر الدنيا . حدثنا عمرو بن زياد الحنظلى قال حدثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن ابراهيم قال : كان يكره أن يتأول بشىء من القرآن عند ما يعرض له شىء من أمر الدنيا، والتأويل مثل قولك للرجل اذا جاءك : جئت على قدر يا موسى؛ ومثل قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا . ومن حرمته ألا يقال: سورة كذا كقولك: سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء ولكن يقال : السورة التى يذكر فيها كذا . قلت : هذا يعارضه

قوله صلى الله عليه وسلم : « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما فى ليلة كفتاه » خرجه البخارى ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود . ومن حرمته ألا يتلى منكوسا كفعل معلمى الصبيان يلتمس أحدهم بذلك أن يرى الحذق من نفسه والمهارة، فان تلك مخالفة . ومن حرمته ألا يقعر فى قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين فى إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلفا ، فإن ذلك محدث ألقاه اليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية ، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدم . ومن حرمته أن يجلل تخطيطه اذا خطه . وعن أبى حكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة ، فمر علىّ رضى الله عنه فنظر الى كتابته ، فقال له : أجل قلمك، فأخذت القلم فقططته من طرفه قطا ، ثم كتبت وعلىّ رضى الله عنه قائم ينظر الى كتابتى، فقال : هكذا نوره كما نوره الله عز وجل . ومن حرمته ألا يجهر بعض على بعض فى القراءة فيفسد عليه حتى يبغض اليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة . ومن حرمته ألا يمارى ولا يجادل فيه فى القراءات، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن، فيكون قد جحد كتاب الله . ومن حرمته ألا يقرأ فى الأسواق ولا فى مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم اذا مرّوا باللغو مرّوا كراما، هذا لمروره بنفسه ، فكيف اذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ولا يرمى به الى صاحبه اذا أراد أن يناوله . ومن حرمته ألا يصغر المصحف ، روى الأعمش عن ابراهيم عن علىّ رضى الله عنه قال : لا يصغر المصحف . قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فى يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فضربه بالدرة ، وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مسيجد أو مصيحف . ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينة الدنيا . وروى مغيرة عن ابراهيم : أنه كان يكره أن يحلى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عند رءوس الآى أو يصغر . وعن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدبار[1] عليكم » وقال ابن عباس ورأى مصحفا قد زين بفضة : تغرون به السارق، وزينته فى جوفه .

(١) الدبار : الهلاك . وفى رواية «فالدمار» بالميم بدل الباء الموحدة .

ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل بهذه المساجد المحدثة . حدثنا محمد بن علي الشقيق عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدث قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب فى أرض ، فقال لشاب من هذيل : «ما هذا» قال : من كتاب الله كتبه يهودي ؛ فقال : «لعن الله من فعل هذا ، لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه» . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه اذا اغتسل بكتابته مستشفيا من سقم ألا يصبه على كناسة ، ولا فى موضع نجاسة ولا على موضع يوطأ ، ولكن ناحية من الأرض فى بقعة ، لا يطؤه الناس ، أو يحفر حفيرة فى موضع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات ، لئلا يكون فى هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال : «عليك بالحال المرتحل» قال : وما الحال المرتحل؟ قال : «صاحب القرآن يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ثم يضرب من أوله كلما حل ارتحل» .

قلت : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنباري أنبأنا إدريس حدثنا خلف حدثنا وكيع عن مسعر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان اذا ختم القرآن جمع أهله ودعا . وأخبرنا ادريس حدثنا خلف حدثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعبدة بن أبي لبابة وقوم يعرضون المصاحف ، فاذا أرادوا أن يختموا وجهوا الينا أحضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن . وأخبرنا ادريس حدثنا خلف حدثنا هشيم العوام عن ابراهيم التيمي قال : من ختم القرآن أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي ، ومن ختم أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح ؛ قال : فكانوا يستحبون أن يختموا أول الليل وأول النهار . ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به فى الخلاء إلا أن يكون فى غلاف من أدم أو فضة أو غيره ، فيكون كأنه فى صدرك . ومن حرمته إذا كتبه وشربه سمى الله على كل نفس وعظم النية فيه فإن الله يؤتيه على قدر نيته . وروى ليث عن مجاهد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبي جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوة فليكتب «يس» فى جام بزعفران ثم يشربه . قلت : ومن حرمته ألا يقال : سورة صغيرة ، وكره

أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ، وقال لمن سمعه قالها : أنت أصغر منها ، وأما القرآن فكله عظيم ذكره مكيّ رحمه الله . قلت : وقد روى أبو داود ما يعارض هذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنه قال : ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم بها الناس فى الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى والجرأة على ذلك ومراتب المفسرين .

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد علمه إياهن جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هذا الحديث فى مغيبات القرآن ، وتفسير مجمله ونحو هذا، مما لا سبيل اليه إلا بتوقيف من الله تعالى . ومن جملة مغيباته ما لم يُعلِم الله به، كوقت قيام الساعة ونحوها، مما يستقرى من ألفاظه كعدد النفخات فى الصور، وكرتبة خلق السموات والأرض . روى الترمذيّ عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « اتقُوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » . وروى أيضا عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » . قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود وتُكُلِّم فى أحد رواته . وزاد رَزِينٌ : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم ابن بشار بن محمد الأنبارىّ النحوىّ اللغوىّ فى كتاب الرد : فُسّر حديث ابن عباس تفسيرين : أحدهما من قال فى مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله . والجواب الآخر وهو أثبت القولين وأصحهما معنى : من قال فى القرآن قولا يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار . ومعنى يتبوأ : ينزل ويحلّ، قال الشاعر :

وبُوِّئَتْ فى صَميم مَعْشَرِها فَتَمَّ فى قومها مُبَوَّؤُها[1]

وقال فى حديث جندب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى : من قال فى القرآن قولا يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ لحكمه [illegible]

(١) جاء فى لسان العرب مادة بوأ تفسيرا لهذا البيت : أى نزلت من الكرم فى صميم النسب .

بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال ابن عطية : ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى من كتاب الله عز وجل فيتسوّر (١) عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل فى هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبنىّ على قوانين علم ونظر ؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا لمجرّد رأيه . قلت : هذا صحيح وهو الذى اختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنح فى وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ وهذا فاسد لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط ، أو المراد به أمرا آخر ، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس وقال : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي ٱلدِّينِ وَعَلِّمْهُ ٱلتَّأْوِيلَ » فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك . وهذا بيّن لا إشكال فيه ؛ وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة النساء إن شاء الله تعالى . وإنما النهى يحمل على أحد وجهين : أحدهما أن يكون له فى الشىء رأى ؛ وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأوّل القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى ؛ وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن مقصوده أن يُلبّس على خصمه ؛ وتارة يكون مع الجهل ، وذلك اذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه الى الوجه الذى يوافق غرضه ، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسّر برأيه أى رأيه حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، كمن يدعو الى مجاهدة القلب القاسى ، فيقول : قال

(١) من قولهم : تسوّر الحائط اذا صعد عليه ويعنى به هنا التهجم والإقدام بغير بصيرة ولا تدبر .

الله تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ويشير الى قلبه ويومئ الى أنه المراد بفرعون ، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغة ، وذلك غير جائز . وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم الى مذاهبهم الباطلة ، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى . الوجه الثانى أن يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة[1] ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ؛ فمن لم يُحكِم ظاهر التفسير وبادر الى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل فى زمرة من فسر القرآن بالرأى ، والنقل والسماع لا بد له منه فى ظاهر التفسير أولا ليتقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط ؛ والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ولا مطمع فى الوصول الى الباطن قبل إحكام الظاهر ، ألا ترى أن قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر الى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهى اليه والله أعلم .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كسعيد بن المسيب وعامر الشعبى وغيرهما يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم . قال أبو بكر الأنبارى : وقد كان الأئمة من السلف الماضى يتورعون عن تفسير المشكل من القرآن ، فبعض يقدر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحجم عن القول ، وبعض يُشفق من أن يُجعل فى التفسير إماما يُبنى على مذهبه ويُقتفى طريقه ، فلعل متأخرا أن يفسر حرفا برأيه ويخطئ فيه ، ويقول : إمامى فى تفسير القرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن ابن أبى مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أى سماء تُظلنى ، وأى أرض تُقلنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! اذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

---

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن وهم أبقوا[1] على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم ؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرد فيه للأمر وكمله وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما ، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب ، وكان علي رضي الله عنه يثني على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه ، وكان ابن مسعود يقول: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس . وقال عنه علي رضي الله عنه : ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من ستر رقيق . ويتلوه عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص ؛ وكل ما أخذ عن الصحابة فحسن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم . وعن عامر بن واثلة قال : شهدت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخطب فسمعته يقول في خطبته : سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون الى يوم القيامة إلا حدثتكم به ، سلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل نزلت أم في جبل ؛ فقام إليه ابن الكواء[2] فقال : يا أمير المؤمنين ما الذاريات ذروا ؟ وذكر الحديث . وعن المنهال بن عمرو قال : قال عبد الله بن مسعود : لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه المطي لأتيته ؛ فقال له رجل : أما لقيت علي بن أبي طالب ؟ فقال : بلى قد لقيته . وعن مسروق قال : وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل الإخاذ يروي الواحد والإخاذ يروي الإثنين ، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم ، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ ؛ ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباري في كتاب الرد ، وقال : الإخاذ عند العرب : الموضع الذي يحبس الماء كالغدير . قال أبو بكر حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدثنا سلام عن زيد العمي[3] عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرحم أمتي بها أبو بكر وأقواهم في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علي وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل

(١) من قولهم : أبقيت على فلان اذا أشفقت عليه ورحمته .

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أوفى اليشكري كما في تاريخ الطبري في عدة مواضع .

(٣) جاء في حاشية بهامش الأصل : أنه سمي زيدا العمي لأنه كان ينادي من رآه ياعم . وجاء في تهذيب التهذيب عند الكلام على اسم زيد المذكور : أنه لقب بذلك لأنه كان اذا سئل عن الشيء يقول : حتى أسأل عمي .

أبيّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وأبو هريرة وعاء من العلم وسلمان بحر من علم لا يدرك وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء — أو قال — : البطحاء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر" .

قال ابن عطية : ومن المبرزين فى التابعين الحسن البصرى ومجاهد وسعيد بن جبير وعلقمة، قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية؛ ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبير؛ وأما السدى فكان عامر الشعبى يطعن عليه وعلى أبى صالح(1) لأنه كان يراهما مقصرين فى النظر . قلت : وقال يحيى بن معين : الكلبى ليس بشىء . وعن يحيى ابن سعيد القطان عن سفيان قال : قال الكلبى : قال أبو صالح : كل ما حدثتك كذب . وقال حبيب بن أبى ثابت : كنا نسميه الدروغ زن — يعنى أبا صالح — مولى أم هانئ، والدروغ زن : هو الكذاب بلغة الفرس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف، كما قال صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » خرّجه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن على البغدادى : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف، والانتحال للباطل، ورد تأويل الأبله الجاهل، وأنه يجب الرجوع إليهم، والمعول فى أمر الدين عليهم، رضى الله عنهم .

قال ابن عطية : وألف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضل وعلى بن أبى طلحة والبخارى وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير رحمه الله جمع على الناس أشتات التفسير، وقرب البعيد منها وشفى فى الإسناد . ومن المبرزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو على الفارسى ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما استدرك الناس عليهما، وعلى سننهما مكى بن أبى طالب رضى الله عنه وأبو العباس المهدوى متقن التأليف، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله ونضر وجوههم .

(1) اسمه باذام ويقال باذان، تابعى، يروى عن مولاته أم هانئ كما فى الخلاصة فى أسماء الرجال .

باب تبيين الكتاب بالسنة وما جاء في ذلك

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن ابن يزيد : أنه رأى محرما عليه ثيابه فنهى المحرم ، فقال : ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي ، قال : فقرأ عليه ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وعن هشام بن حجير[(١)] قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر ، فقال ابن عباس : اتركهما ، فقال : إنما نهي عنهما أن تتخذا سنة ، فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدري أتعذب عليهما أم تؤجر ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ . وروى أبو داود عن المقدام بن معديكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » .

قال الخطابي : قوله « أتيت الكتاب ومثله معه » يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أن معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو ، مثل ما أعطي من الظاهر المتلو ، والثاني أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى ، وأوتي من البيان مثله أي أذن له أن يبين ما في الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما في الكتاب ، فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن ؛ وقوله : « يوشك رجل شبعان » الحديث ، يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التي سنها مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت اليه الخوارج والروافض ، فانهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد ضمنت بيان الكتاب ، قال : فتحيروا وضلوا ، قال والأريكة : السرير ، ويقال : إنه لا يسمي

(١) حجير بمهملة وجيم مصغر كما في الخلاصة في أسماء الرجال .

أريكة حتى يكون فى حجلة ، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا العلم من مظانه ؛ وقوله : «إلا أن يستغنى عنها صاحبها» معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها ، كقوله : ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ معناه تركهم الله استغناء عنهم ؛ وقوله : «فله أن يعقبهم بمثل قراه» هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه ، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قراه عوض ما حرموه من قراه . ويعقبهم يروى مشددا ومخففا من المعاقبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قراه ؛ قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث الى أن يعرض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه ؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : «إذا جاءكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فاتركوه» فانه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجمل فى الكتاب ، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى تؤخذ منه من الأموال ، وبيانه لمناسك الحج ، قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : «خذوا عنى مناسككم» وقال : «صلوا كما رأيتمونى أصلى» أخرجه البخارى . وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل : إنك رجل أحمق ، أتجد الظهر فى كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد هذا فى كتاب الله تعالى مفسرا ! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا ، وإن السنة تفسر هذا .

وروى الأوزاعى عن حسان بن عطية قال : كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعى عن مكحول قال : القرآن أحوج الى السنة من السنة الى القرآن . وبه عن الأوزاعى قال : قال يحيى ابن أبى كثير : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب بقاض على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعنى أحمد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذى روى أن السنة قاضية على الكتاب ، فقال : ما أجسر على هذا ان أقوله ، ولكنى أقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبينه .

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك ، على ما يأتى بيانه ان شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما جاء أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له باسناده عن عثمان وابن مسعود وأبى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها الى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل ، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : كنا اذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التى بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفى موطإ مالك : أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها . وذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمى[1] فى ذكر أسماء من روى عن مالك : عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعرى قال : حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال : تعلم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبارى : حدثنى محمد بن شهرياز حدثنا حسين بن الأسود حدثنا عبد[2] الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمرو عن زياد بن مخراق قال : قال عبد الله بن مسعود : إنا يصعب علينا حفظ ألفاظ القرآن ، ويسهل علينا العمل به ، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ ألفاظ القرآن ، ويصعب عليهم العمل به .

حدثنا ابراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا الفضل بن دكين حدثنا اسماعيل بن ابراهيم ابن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن ابن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ، ورزقوا العمل بالقرآن ، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبى والأعمى ولا يرزقون العمل به . حدثنى حسن ابن عبد الوهاب أبو محمد بن أبى العنبر حدثنا أبو بكر بن حماد المقرى قال : سمعت خلف بن هشام

---

(١) هكذا فى ال[illegible] [illegible]نا عليها .   (٢) فى بعض النسخ « عبد الله » .

البزارى يقول : ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا ، وذلك أنا روينا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة ، فلما حفظها نحر جزورا شكرا لله ، و إن الغلام فى دهرنا هـذا يجلس بين يدى فيقرأ ثلث القـرآن لا يسـقط منه حرفا ، فما أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهـل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتبه ، دون معرفته وفهمه ، فيكون قـد أتعب نفسـه من غير أن يظفر بطائل ، وليكن تحفظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليـالى والأيام . وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شـعبة وابن عُلَيَّـة ومعمر ، قال معمر : سمعت الزهرى يقول : من طلب العلم جملة فاته جملة ، و إنما يدرك العلم حديثا وحديثين والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . قال ابن عبـد البر : وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مثل قول معاذ من رواية عباد بن عبد الصمد ، وفيـه زيادة أن العلماء همتهم الدراية ، وأن السفهاء همتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا ، وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يحتج به ، ولقد أحسن القائل فى نظمه فى فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسنة الغراء :

إن العـلوم وإن جلت محاسنها ... فتاجها مابه الإيمـان قد وجبا
هو الكتاب العـزيز الله يحفظه ... وبعـد ذلك علم فـرّج الكربا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه ... نور النبوة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هـذا علوم لا انتهاء لهـا ... فاختر لنفسك يامن آثر الطلبا
والعـلم كنز تجـده فى معادنه ... ياأيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أتت ... كل العـلوم تدبره تر العجبا
واقرأ هديت حديث المصطفى وسل ... مولاك ما تشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعم علوم الدين سرّ به ... اذا تزيد منـه قال واطـربا

باب معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»

روى مسلم عن أبيّ بن كعب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة[1] بني غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف ، فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين ؛ فقال : « أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك» ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف؛ فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك" ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذي عنه قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل ، فقال :"يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميّة منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتابا قط فقال لي يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف" قال : هذا حديث حسن صحيح ، وثبت في الأمهات : البخاري ومسلم والموطأ وأبي داود والنسائي وغيرها من المصنفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسيأتي بكماله في آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

ـ وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد ابن حبان البستيّ ، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال :

ـ الأول وهو الذي عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبري والطحاوي وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو أقبل وتعال وهلم . قال الطحاوي : وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال : جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ على حرف ؛ فقال ميكائيل : استزده ، فقال : اقرأ على حرفين فقال ميكائيل : استزده حتى بلغ إلى سبعة أحرف ؛ فقال : اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب أو آية

(١) الأضاة : غدير صغير وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير ، وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار ، قبيلة من كنانة .

عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل. وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب : أنه كان يقرأ : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا ﴾ للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخرونا، للذين آمنوا ارقبونا . وبهذا الاسناد عن أبيّ كان يقرأ : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ ﴾ مروا فيه، سعوا فيه . وفي البخاري ومسلم قال الزهري: إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام .

قال الطحاوي : إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ؛ لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول الى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة، فوسع لهم في اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال ابن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت الى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أبيّ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبيّ إني أقرئت القرآن فقيل لي على حرف أو حرفين فقال الملك الذي معي قل على حرفين فقيل لي على حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذي معي قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها الا شاف كاف إن قلت سميعا عليما، عزيزا حكيما، ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب" . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه . قال القاضي ابن الطيب : واذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أبيّ — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسما لله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثاني قال قوم : هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها : يمنها ونزارها ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها، وكان قد أوتي جوامع الكلم، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن. قال الخطابي : على أن في القرآن

قرئ بسبعة أوجه، وهو قوله : ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ . وقوله : ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ وذكر وجوها كأنه يذهب الى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله، والى هذا القول بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف على سبع لغات، ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام واختاره ابن عطية قال أبو عبيد : و بعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض ، وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف : ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فانه نزل بلغتهم . ذكره البخاري وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبين كعب قريش وكعب خزاعة قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لان الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعني أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضي ابن الطيب رضي الله عنه : معنى قول عثمان : فإنه نزل بلسان قريش ، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف وهي خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ولم يقل قرشيا ، وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قرشيا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عدنان دون قحطان ، أو ربيعة دون مضر ، لان اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ابن عبد البر : قول من قال : إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندي في الأغلب، والله أعلم ، لأن غير لغة قريش موجود في صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ابن عطية : معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي فيه عبارة سبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن ، فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هذيل ، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز في اللفظ ؛ ألا ترى أن فطر معناه عند غير قريش ابتدأ فجاءت في القرآن فلم تتجه لابن عباس ، حتى اختصم اليه أعرابيان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موقع قوله تعالى : ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . وقال أيضا : ما كنت أدري معنى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك أي أحاكمك ، وكذلك قال عمر بن الخطاب : كان لا نفهم معنى قوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ

عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ ذكره مسلم في باب القراءة في صلاة الفجر إلى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هذه اللغات السبع انما تكون فى مضر قاله قوم ، واحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر ، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكنانة ، ومنها لأسد ، ومنها لهذيل ، ومنها لتيم ، ومنها لضبة ، ومنها لقيس ؛ قالوا : فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب ؛ وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها فى مضر ، وقالوا : فى مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها ، مثل كشكشة قيس ، وتمتمة تميم ؛ فأما كشكشة قيس فانهم يجعلون كاف المؤنث شينا فيقولون فى : ﴿ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ . جعل ربش تحتش سريا ؛ وأما تمتمة تميم فيقولون فى الناس : النات ، وفى أكياس : أكيات ، قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحلق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجلة واحتجوا بقراءة ابن مسعود : ليسجننه عتى حين . ذكرها أبو داود ، وبقول ذى الرمة :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها • ولونك إلا عنها غير طائل

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء وحكى نحوه القاضى ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدتها سبعا : منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته ، مثل : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ وأطهرَ ، ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى ﴾ ويضيقَ ؛ ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب : مثل ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ وباعَدَ ؛ ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : ﴿ نُنْشِزُهَا ﴾ وننشرها ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه : ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ وكالصوف المنفوش ؛ ومنها ما تتغير صورته ومعناه ، مثل : ﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ وطلع منضود ؛ ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجاءت سكرة الحق بالموت ؛ ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين وقوله : فان الله من بعد اكراههن لهن غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى ، وهي أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالاجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغيير شيء من المعاني . وذكر القاضي ابن الطيب في هذا المعنى حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هي التي أجاز لهم القراءة بها ، وانما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ فكذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » القراءات السبع التي قرأ بها القراء السبعة ، لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه على ما يأتي .

(فصل) قال كثير من علمائنا كالداودي وابن أبي صفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنما هي راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره ؛ وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء ، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعرف به ونسب اليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير ، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر وكل صحيح ، وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا في ذلك مصنفات ، فاستمر الاجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب ؛ وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضي أبي بكر بن الطيب والطبري وغيرهما . قال ابن عطية ؛ ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلى لأنها ثبتت بالاجماع ؛ وأما شاذ القراءات فلا يصلى به لأنه لم يجمع الناس عليه ، أما أن المروى منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا تعتقد فيه إلا أنهم رووه ، وأما ما يؤثر عن أبي السمال ومن قارنه فإنه لا يوثق به ، قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن ، ولا يعمل بها على أنها منه ،

وأحسن محاملها أن تكون بيان تأويل مذهب من نسبت اليه كقراءة ابن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات، فأما لو صرح الراوى بسماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين : النفى والاثبات، ووجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن. ولم يثبت فلا يثبت، والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الاحاد .

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام. قال ابن عطية : أباح الله تعالى لنبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الإعجاز وجودة الرصف، ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام : « فاقرءوا ما تيسر منه » بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرضا أن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبى صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته، فاقرأ مرة لأبى بما عارضه به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضا، وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان، وقراءة هشام بن حكيم لها، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى كل قراءة منهما، وقد اختلفتا : « هكذا أقرأنى جبريل » هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأصوب قيلا فقيل له : إنما نقرأ وأقوم قيلا. فقال أنس : وأصوب قيلا وأقوم قيلا وأهيأ واحد، فانما معنى هذا أنها مروية عن النبى صلى الله عليه وسلم، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها، فكدت أن أعجل عليه ، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أرسله ، اقرأ" فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"هكذا أنزلت" ثم قال لى : "اقرأ" فقرأت فقال : "هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه".

قلت : وفى معنى حديث عمر هذا، ما رواه مسلم عن أبى بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ،فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما النبى صلى الله عليه وسلم ، فقرآ فحسّن النبى صلى الله عليه وسلم شأنهما، فسقط فى نفسى من التكذيب ولا اذ كنت فى الجاهلية، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ما قد غشينى، ضرب فى صدرى ففضت عرقا . وكأنى أنظر الى الله تعالى فرقا ، فقال: "يا أبى أرسل الى أن أقرأ القرآن على حرف فرددت اليه أن هوّن على أمتى فرد الى الثانية أن اقرأه على حرفين فرددت اليه أن هوّن على أمتى فردّ الى الثالثة أن اقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها فقلت : اللهم اغفر لأمتى وأخرت الثالثة ليوم يرغب الى فيه الخلق كلهم حتى ابراهيم عليه السلام".

قول أبى رضى الله عنه فسقط فى نفسى معناه اعترتنى حيرة ودهشة أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله ، ويكدر عليه وقته؛ فانه عظم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه والا فأى شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النسخ الذى هو أعظم، فكيف بالقراءة !

ولما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ماأصابه من ذلك الخاطر نبهه بأن ضربه فى صدره، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنور باطنه ، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة ؛ ولما ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم ـ حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ـ قال : "وقد وجدتموه" قالوا : نعم قال: "ذلك صريح الإيمان" أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وسيأتى الكلام عليه فى سورة الأعراف ان شاء الله تعالى .

باب ذكر جمع القرآن وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم

كان القرآن فى مدة النبي صلى الله عليه وسلم متفرقا فى صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه فى صحف وفى جريد وفى لِخاف وظُرَر وفى خزف وغير ذلك — قال الأصمعى : اللخاف : حجارة بيض رقاق واحدتها لَخْفة . والظرر : حجر له حد كحد السكين والجمع ظِرار، مثل رُطب ورِطاب، ورُبَع ورِباع، وظِرّان أيضا مثل صرد وصردان — فلما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه ، وقتل منهم فى ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء، كأُبَىّ وابن مسعود وزيد ، فندبا زيد بن ثابت الى ذلك، فجمعه غير مرتب السور، بعد تعب شديد، رضى الله عنه، روى البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإنى لأرى أن تجمع القرآن؛ قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى، ورأيت الذى رأى عمر؛ قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لى أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن؛ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو بكر : هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف (1) والعسب (2) وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع

---

(1) الأكتاف [illegible] كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم .

(2) العسب [illegible] عسيب وهو جريد النخل إذا نزع عنه خوصه .

غيره : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ إلى آخرها . فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثني عبد الرحمن بن غالب عن ابن شهاب وقال : مع أبي خزيمة الأنصاري ، وقال أبو ثابت حدثنا ابراهيم وقال : مع خزيمة أو أبي خزيمة ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقال الترمذي في حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ . قال : حديث حسن صحيح .

وفي البخاري عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . وقال الترمذي عنه : فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة ، فألحقتها في سورتها . قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر براءة في الجمع الأول ، على ما قاله البخاري والترمذي ، وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة الأحزاب . وحكى الطبري : أن آية براءة سقطت في الجمع الأخير ، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر الى ذلك وفرغ منه ؛ قيل له : إن عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل الى حفصة : أن أرسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك على ما يأتي ؛ وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءات بسبب تفرق الصحابة في البلدان واشتد الأمر في ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبثهم ؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه ، وذلك أنهم اجتمعوا في غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما روي لها ؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض ، والبراءة منه وتلاعنوا ، فأشفق حذيفة مما رأى منهم ؛ فلما قدم حذيفة المدينة فيما ذكر البخاري

والترمذي دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى بيته ، فقال أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ، قال : فيماذا ؟ قال : في كتاب الله ، إني حضرت هذه الغزوة وجمعت ناسا من العراق والشام والحجاز ، فوصف له ما تقدم وقال : إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة ، لأن الحق لا يختلف فيه ، وقد روى سويد بن غفلة عن علي بن أبي طالب أن عثمان قال : ما ترون في المصاحف فإن الناس قد اختلفوا في القراءة حتى إن الرجل ليقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وقراءتي أفضل من قراءتك ، وهذا شبيه بالكفر ، قلنا : ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين ؟ قال : الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة ، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا ، قلنا : الرأي رأيك يا أمير المؤمنين . فأرسل عثمان الى حفصة : أن أرسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت بها اليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصي وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين : اذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الاسلام وشاورهم في ذلك ، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت من القراءات المشهورة عن النبي صلى الله عليه وسلم واطراح ما سواها ، واستصوبوا رأيه وكان رأيا سديدا موفقا رحمة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الطبري فيما روى : إن عثمان قرن بزيد أبان ابن سعيد بن العاصي وحده وهذا ضعيف . وما ذكره البخاري والترمذي وغيرهما أصح ، وقال الطبري أيضا : إن الصحف التي كانت عند حفصة جعلت إماما في هذا الجمع الأخير ، وهذا صحيح .

قال ابن شهاب : وأخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يامعشر المسلمين ، أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل ، والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر ! — يريد زيد بن ثابت — ولذلك قال عبد الله بن مسعود : يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلوها ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ

يوم القيامة ﴾ فالقوا الله بالمصاحف، خرجه الترمذي . وسيأتي الكلام في هذا في سورة آل عمران ان شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنباري : ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله ابن مسعود في جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل ، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ والذي حفظ منه عبد الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وسبعون سورة ، ثم تعلم الباقي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار، ولا ينبغي أن يظن جاهل أن في هذا طعنا على عبد الله بن مسعود، لأن زيدا اذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرا منهما ولا مساويا لهما في الفضائل والمناقب. قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشيء نتجه الغضب، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم، فالشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل: أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون : المعوذتان بمنزلة البقرة وآل عمران من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم ، فقيل له : فقول عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال : لا خلاف بين المسلمين في أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله . قلت : هذا فيه نظر وسيأتي، وروى اسماعيل بن اسحاق وغيره قال حماد : أظنه عن أنس بن مالك، قال : كانوا يختلفون في الآية فيقولون أقرأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلان بن فلان، فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيرسل اليه فيجاء به، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كذا وكذا ؟ فيكتبون كما قال . قال ابن شهاب : واختلفوا يومئذ في التابوت، فقال زيد: التابوه، وقال ابن الزبير وسعيد بن العاصي التابوت، فرفع اختلافهم الى عثمان فقال : اكتبوه بالتاء، فإنه نزل بلسان قريش أخرجه البخاري والترمذي . قال ابن عطاء

قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء وكتبت المصاحف على ما هو عليه غابر الدهر، ونسخ منها عثمان نسخا، قال غيره : قيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر، ووجه بها الى الآفاق ، فوجه للعراق والشام ومصر بأمهات، فاتخذها قراء الأمصار معتمد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال ابن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تحرق أو تخرق، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن؛ ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد عن سويد بن غفلة قال : سمعت علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : يامعشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم : حراق المصاحف، فوالله ما حرقها الا عن ملإ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن سعيد قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لوكنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان ، قال أبو الحسن بن بطال : وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام، وطرحها فى ضياع من الأرض . وروى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف اذا اجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عروة بن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحرة، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف اذا كان فيها ذكر الله تعالى، وقول من حرقها أولى بالصواب، وقد فعله عثمان، وقد قال القاضى أبو بكر لسان الأمة : جائز للامام تحريق الصحف التى فيها القرآن، اذا أداه الاجتهاد الى ذلك .

فصل — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وفى فعل عثمان رضى الله عنه رد على الحلولية[1] والحشوية القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الايمان قديم، والروح قديم؛

(١) الحلولية : فرقة من المتصوفة تقول : إن الله حال فى كل شئ وفى كل جزء منه متحد به حتى يجوزوا أن يطلق على كل شئ أنه الله. والحشوية طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا الى التجسيم وغيره .

وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كل ملحد وموحد أن القديم لا يفعل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب ، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير محدثا ؛ والمحدث لا يصير قديما ، وأن القديم مالا أول لوجوده ، وأن المحدث هو ما كان بعد أن لم يكن ، وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم ؛ فقالوا : يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد اذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك اذا نحت حروفا من الآجر والخشب ، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة ، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما ، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما ؛ فيقال لهم : ما تقولون فى كلام الله تعالى : أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق ؟ فان قالوا : نعم ، فارقوا الدين ، وان قالوا : لا ، قيل لهم : فما قولكم فى حروف مصورة آية من كتاب الله تعالى من شمع ، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت فى النار فذابت واحترقت فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فان قالوا : نعم ، تركوا قولهم ؛ وإن قالوا : لا قيل لهم : أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت ؛ فان قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق ، رجعوا الى الحق والصواب ودانوا بالجواب ؛ وهو الذى قاله النبى صلى الله عليه وسلم ، منبها على ما يقوله أهل الحق : «ولو كان القرآن فى إهاب ثم وقع فى النار ما احترق» وقال الله عز وجل : "أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث أخرجه مسلم فثبت بهذا أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول وتتميمها فى كتب الأصول ، وقد بيناها فى «الكتاب الأسنى» فى شرح أسماء الله الحسنى» .

فصل — وقد طعن الرافضة — قبحهم الله تعالى — فى القرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحرف كما فعلتم ، فانكم اثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة براءة ، وقوله : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة التوبة ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئا أو لا فالآية انما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان انما ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى قرينة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية

الاحزاب فان تلك ثبتت بشهادة زيد وأبي خزيمة لسماعهما إياها من النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمة غير أبي خزيمة ، وأن أبا خزيمة الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه ، والتي في الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض ، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : أبو خزيمة لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته ، وهو أبو خزيمة بن أوس بن يزيد بن أصرم بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ، وتوفى فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس ، قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبي خزيمة الأنصارى وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة[1] نسب إلا اجتماعهما فى الأنصار ، أحدهما أوسى والآخر خزرجى . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال : جمع القرآن على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارى أيضا عن أنس قال : مات النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد ، وأبو زيد ، ونحن ورثناه . وفى أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عقبا ، وكان بدريا ، واسم أبى زيد سعد بن عبيد . قال ابن الطيب رضى الله عنه : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلى وتميم الدارى وعبادة بن الصامت وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير تلك الجماعة ، فان أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره ، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم الى الاسلام ، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم . قلت : لم يذكر القاضى ، عبد الله بن

(١) فى الأصل الحارث بن خزيمة أبي خزيمة ولفظ أبي خزيمة مزيد والحارث بن خزيمة هذا قيل أنه هو الذى وجد معه آخر سورة التوبة . فلعله ذكرها للإشارة الى ذلك .

مسعود وسالما مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما فيما رأيت، وهما ممن جمع القرآن . روى جرير عن عبد الله بن يزيد الصهباني عن كميل قال :

قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله ، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من هذا الذي يقرأ القرآن". فقيل له : هذا عبد الله بن أم عبد، فقال : "إن عبد الله يقرأ القرآن غضا كما أنزل" . الحديث ، قال بعض العلماء: معنى قوله : «غضا كما أنزل» أي أنه كان يقرأ الحرف الأول الذي أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التي رخص لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه في كل رمضان . وقد روى وكيع وجماعة معه عن الأعمش عن أبي ظبيان قال :

قال لي عبد الله بن عباس : أي القراءتين تقرأ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة ابن أم عبد ؟ فقال لي : بل هي الآخرة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نسخ من ذلك وما بدل . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد» . فبدأ به : «ومعاذ ابن جبل وأبي بن كعب وسالم مولى أبي حذيفة» . قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدم، والله أعلم .

وقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد : حدثنا محمد بن شهريار حدثنا حسين بن الأسود حدثنا يحيى بن آدم عن أبي بكر عن أبي إسحاق قال : قال عبد الله بن مسعود : قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين وسبعين سورة أو ثلاثا وسبعين سورة، وقرأت عليه من البقرة الى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ . قال أبو إسحاق : وتعلم عبد الله بقية القرآن من مجمع ابن جارية الأنصاري . قلت : فإن صح هذا صح الإجماع الذي ذكره يزيد بن هارون فلذلك لم يذكره القاضي أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم .

قال أبو بكر الأنباري : حدثني ابراهيم بن موسى الخوزي حدثنا يوسف بن موسى حدثنا مالك بن اسماعيل حدثنا زهير عن أبي إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟

فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة؛ قال : وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوذتين، فلهذه العلة لم توجدا فى مصحفه، وقيل : غير هذا على ما يأتى بيانه آخر الكتاب عند ذكر المعوذتين ان شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذى حدثناه ابراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عمر بن هارون الخراسانى عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القرظى قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم، إنما هو مقصور على محمد بن كعب فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعول عليه . قلت : قوله عليه السلام : «خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد» . يدل على صحته ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق كل منهم عزا قراءته التى اختارها الى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يستثن من جملة القرآن شيئا، فأسند عاصم قراءته الى على وابن مسعود، وأسند ابن كثير قراءته الى أبى، وكذلك أبو عمرو ابن العلاء أسند قراءته الى أبى، وأما عبد الله بن عامر فانه أسند قراءته الى عثمان؛ وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات قاله الخطابى .

باب ما جاء فى ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال ابن الطيب : إن قال قائل : قد اختلف السلف فى ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب فى مصحفه السور على تاريخ نزولها، وقدم المكى على المدنى، ومنهم من جعل فى أول مصحفه الحمد، ومنهم من جعل فى أوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وهذا أول مصحف على رضى الله عنه؛ وأما مصحف ابن مسعود فإن أوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ثم البقرة ثم النساء على ترتيب مختلف؛ ومصحف أبى كان أوله الحمد لله ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ثم كذلك على اختلاف شديد . قال القاضى أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هى عليه اليوم فى المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكى رحمه الله فى تفسير سورة

براءة، وذكر أن ترتيب الآيات فى السور ووضع البسملة فى الأوائل هو من النبى صلى الله عليه وسلم، ولما لم يأمر بذلك فى أول سورة براءة تركت بلا بسملة، هذا أصح ما قيل فى ذلك وسيأتى .

وذكر ابن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة: قد قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ينتهى إليه، ولا يسأل عنه . وقد ذكر سنيد قال حدثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال : قال ابن مسعود : " من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم " . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبى صلى الله عليه وسلم، وأما ما روى من اختلاف مصحف أُبَىّ وعلىّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال : سمعت مالكا يقول : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فرق على النبى صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، فكله عن محمد خاتم النبيين، عليه السلام عن رب العالمين، فمن أخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغيّر الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب، وهو كان يقول : " ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن " . وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات .

حدثنا حسن بن الحباب حدثنا أبو هشام حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبى إسحاق عن البراء قال : آخر ما نزل من القرآن : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ ﴾ . قال أبو بكر بن عياش :

وأخطأ أبو إسحاق لأن محمد بن السائب حدثنا عن أبي السائب عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . فقال جبريل للنبي عليهما السلام : يا محمد ضعها في رأس ثمانين ومائتين من البقرة .

قال أبو الحسن بن بطال : ومن قال بهذا القول لا يقول : إن تلاوة القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقّف عليه في المصحف، بل إنما يجب تأليف سوره في الرسم والخط خاصة ، ولا يُعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه ،وأنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف،ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها للذي سألها : لا يضرك أيّة قرأت قبل ؛ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة السورة في ركعة ، ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها ؛ وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا ؛ وقالا : ذلك منكوس القلب، فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، ويبتدئ من آخرها الى أولها لأن ذلك حرام محظور ؛ ومن الناس من يتعاطى هذا في القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك ويقدر على الحفظ ، وهذا حظره الله تعالى ومنعه في القرآن، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لما قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته في المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع في السورة المكية، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها : وما نزلت سورة البقرة والنساء الا وأنا عنده — تعني بالمدينة — وقد قدّمتا في المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة، ولو ألفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السور .

قال أبو بكر الانبارى حدثنا اسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والاحزاب، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر، والممتحنة ، والصف، والجمعة، والمنافقون ، والتغابن، والطلاق، ويأيها النبي لم تحرم الى رأس العشر ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلن بالمدينة ؛ وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السور على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس في موضع نزولها، ويضطر إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ؛ ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به ، ورد على محمد صلى الله عليه وسلم ما حكاه عن ربه تعالى ؛ وقد قيل : إن علة تقديم المدني على المكي هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها ، وما يعرف من أفانين خطابها ومحاورتها ؛ فلما كان فن من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدم خوطبوا بهذا المعنى في كتاب الله تعالى الذي لو فقدوه من القرآن لقالوا ما باله عرى من هذا الباب الموجود في كلامنا المستحلى من نظامنا . قال عَبيد ابن الأبرص :

أن بُدّلتْ منهم وحوشا * وغيّرتْ حالَها الخطوبُ
عيناكَ دمعهما سَرُوب * كأن شأنيهما شَعيب

أراد عيناك دمعهما سروب لأن تبدلت من أهلها وحوشا ، فقدم المؤخر وأخر المقدم ؛ ومعنى سروب : منصب على وجه الأرض ، ومنه السارب، قال الشاعر :

* أنَّى سربتِ وكنتِ غيرَ سَرُوب *

وقوله شأنيهما، الشأن : واحد الشؤون وهي مواصل قبائل الرأس وملتقاها، ومنها يجيء الدمع . شعيب : متفرق .

فصل ـــ وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله ، فتجرد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والي العراق الحسن ويحيى بن يَعْمَر بذلك ، وألف إثر ذلك بواسط كتابا في القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط ، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه في القراءات .

وأسند الزبيدي في كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي ؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر .

فصل ـــ وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية : مرّ بي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك ، وقيل إن الحجاج فعل ذلك . وذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له عن عبد الله

ابن مسعود أنه كره التعشير فى المصحف ، وأنه كان يحكه . وعن مجاهد أنه كره التعشير والطيب فى المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسئل عن العشور التى تكون فى المصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك، وقال : تعشير المصحف بالحبر لا بأس به ، وسئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السور فى كل سورة ما فيها من آية، قال : إنى أكره ذلك فى أمهات المصاحف أن يكتب فيها شىء أو يشكل ، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلينا مصحفا لجده، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر، ورأيته معجوم الآى بالحبر . وقال قتادة : بدءوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا . وقال يحيى بن أبى كثير : كان القرآن مجردا فى المصاحف ، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء والثاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له ، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم . وعن أبى حمزة قال : رأى إبراهيم النخعى فى مصحفى فاتحة سورة كذا وكذا ، فقال لى : امحه فان عبد الله بن مسعود قال : لاتخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبى بكر السراج قال . قلت لأبى رزين : أأكتب فى مصحفى سورة كذا وكذا ؛ قال : إنى أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن .

قال الدانى رضى الله عنه : وهذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم ، قادهم إلى عمله الاجتهاد ؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمرة والصفرة وغيرهما ؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

فصل — وأما عدد حروفه وأحزابه فروى سلام أبو محمد الحمانى أن الحجاج بن يوسف جمع القراء والحفاظ والكتاب، فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو . قال : وكنت فيهم فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا ، قال : فأخبرونى الى أى حرف ينتهى نصف القرآن، فاذا هو فى الكهف «وليتلطف» فى الفاء ، قال : فأخبرونى بأثلاثه فاذا الثلث الأول رأس مائة من براءة ، والثلث الثانى رأس مائة وإحدى

من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقي من القرآن، قال : فأخبروني بأسباعه على الحروف، فإذا أول سبع في النساء ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ﴾ في الدال، والسبع الثاني في الأعراف ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ﴾ في التاء، والسبع الثالث في الرعد ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ في الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع في الحج ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ في الألف، والسبع الخامس في الأحزاب ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ في الهاء، والسبع السادس في الفتح ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ في الواو، والسبع السابع ما بقي من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه في أربعة أشهر، وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربعا ، فأول ربعه خاتمة الأنعام، والربع الثاني في الكهف "وَلْيَتَلَطَّفْ"، والربع الثالث خاتمة الزمر، والربع الرابع ما بقي من القرآن؛ وفي هذه الجملة خلاف مذكور في كتاب البيان لأبي عمرو الداني، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

فصل ــ وأما عدد آي القرآن في المدني الأول، فقال محمد بن عيسى : جميع عدد آي القرآن في المدني الأول ستة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العدد الذي رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة ولم يسموا في ذلك أحدا بعينه يسندونه اليه .

وأما المدني الأخير فهو في قول اسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل: عدد آي القرآن في قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد ابن عيسى: وجميع عدد آي القرآن في قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات، وهو العدد الذي رواه مسلم والكسائي عن حمزة وأسنده الكسائي الى علي رضي الله عنه . قال محمد: وجميع عدد آي القرآن في عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات ، وهو العدد الذي مضى عليه سلفهم حتى الآن ؛ وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذماري : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون، في رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون نقص آية . قال ابن ذكوان : فظننت أن يحيى لم يعد (بسم الله الرحمن الرحيم) . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التي يتداولها الناس تأليفا، ويعدون بها في سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن فى قول عطاء بن يسار : سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا .
قلت : هذا يخالف ما تقدم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن ، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عد حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة فى كلام العرب الابانة لها من سورة أخرى وانفصالها عنها ، وسميت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة الى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى منزلة شرف ارتفعت اليها عن منزل الملوك . وقيل : سميت بذلك لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده ، كسور البناء ، كله بغير همز . وقيل : سميت بذلك لأنها قطعت من القرآن على حدة ، من قول العرب للبقية : سؤر ، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم ، فعلى هذا يكون الأصل سؤرة بالهمز ثم خففت فأبدلت واوا لانضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سورة ، وجمع سورة سور بفتح الواو . وقال الشاعر :

* سُود المحاجر لا يَقْرَأْنَ بالسور *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وانفصاله ، أى هى بائنة من أختها ومنفردة ، وتقول العرب : بينى وبين فلان آية ، أى علامة ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ ﴾ وقال النابغة :

توهمت آيات لها فعرفتها * لستة أعوام وذا العام سابع

وقيل : سميت آية لأنهـا جماعة حروف من القرآن وطائفة منـه ، كما يقال : خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم . قال برج بن مسهر الطائى :

خرجنا من النقبين لاحىّ مثلنا ٭ بآيتنا نزجى اللقـاح المطافلا

وقيل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . واختلف النحويون فى أصل آية ، فقال سيبويه أيية على فعلة مثـل أكمة وشجرة ، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائى : أصلها آيية على وزن فاعلة مثل آمنة فقلبت الياء ألفـا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لالتباسها بالجمع . وقال الفراء : أصلها أيّة بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآياء وآيات . وأنشد أبو زيد :

لم يبق هذا الدهر من آيائه ٭ غير أثافيـــه وأرمـدائه

وأما الكلمة فهى الصورة القائمة بجميع ما يختلط بهـا من الشبهات[(1)] أى الحروف ، وأطول الكلم فى كتاب الله عز وجل ما بلغ عشرة أحرف ، نحو قوله تعالى : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ . ﴿وَأَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ وشبههما ، فأما قوله : ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾[(2)] فهو عشرة أحرف فى الرسم وأحد عشر فى اللفظ ؛ وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله وما أشبه ذلك . ومن حروف المعـانى ما هو على كلمة واحدة ، مثل همزة الاستفهام وواو العطف ، إلا أنه لا ينطق به مفردا . وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى : ﴿والفجر﴾ . ﴿والضحى﴾ . ﴿والعصر﴾ . وكذلك ﴿آلم﴾ . و ﴿آلمص﴾ . و ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾ . و ﴿حم﴾ فى قول الكوفيين ، وذلك فى فواتح السـور ، فأما فى حشوهن فلا . قال أبو عمرو الدانى : ولا أعلم كلمة هى وحدها آية الا قوله فى الرحمن : ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ لا غير ، وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان ، وذلك فى قوله : ﴿حم عسق﴾ على قول الكوفيين لا غير . وقد تكون الكلمة فى غير هذا ، الآية التامة ، والكلام القائم بنفسه ، وإن كان أكثر أو أقل ، قال الله عز وجل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قيل إنما يعنى بالكلمة ههنا ، قوله تبارك وتعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الى آخر الآيتين ، وقال عز وجل : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ

(١) لم أر هذا التعبير لغير المؤلف وحسبناه فى صفحة ١٠٣ غلطا فعلقنا عليه .

(٢) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى فى الرسم فقط .

كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ : قال مجاهد : لا إله إلا الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" وقد تسمى العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها، كلمة فيقولون: قال قُسٌّ في كلمته كذا، أي في خطبته، وقال زهير في كلمته كذا، أي في قصيدته، وقال فلان في كلمته يعني في رسالته، فتسمى جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها، على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ماهو منه وما قاربه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا .

وأما الحرف فهو الشبهة القائمة وحدها من الكلمة وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجاز — قال أبو عمرو الداني : فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من حروف الهجاء في الفواتح على حرف واحد نحو . ﴿ص﴾ و﴿ق﴾ و﴿ن﴾ حرفا أو كلمة؟ قلت : كلمة لا حرفا، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليه، ولا ينفرد وحده في الصورة، ولا ينفصل مما يختلط به؛ وهذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصلة كانفراد الكلم وانفصالها ، فلذلك سميت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف في غير هذا، المذهب والوجه، قال الله عز وجل : ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ أي على وجه ومذهب، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : «انزل القرآن على سبعة أحرف» أي سبعة أوجه من اللغات والله أعلم .

باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلاما لمن لسانه غير لسان العرب : كاسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط؛ واختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب ، فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب والطبري وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه، وأن القرآن عربي صريح، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا، ولا رسول الله عن كونه متكلما بلسان قومه، فالمشكاة : الكوة، ونشأ : قام من الليل، ومنه ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ و﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ أي ضعفين . و﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ أي الأسد، كله بلسان الحبشة . والغساق:

البارد المنتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان بلغة الروم . والسجيل : الحجارة والطين بلسان الفرس . والطور : الجبل . واليم : البحر بالسريانية . والتنور : وجه الأرض بالعجمية .

قال ابن عطية فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعربتها فهى عربية بهذا الوجه ، وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتى قريش ، وكسفر مسافر[١] بن أبى عمرو إلى الشام ، وكسفر عمر بن الخطاب ، وكسفر عمرو بن العاصى ، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغة ؛ فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة واستعملتها فى أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربى الصحيح ، ووقع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن ، فان جهلها عربى ما فكجهله الصريح بما فى لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر إلى غير ذلك .

قال ابن عطية : وما ذهب اليه الطبرى رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا فى لفظة لفظة فذلك بعيد بل إحداهما أصل والأخرى فرع ، لا أنا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا ، قال غيره : والأول أصح . وقوله : هى أصل فى كلام غيرهم دخيلة فى كلامهم ، ليس بأولى من العكس ، فان العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أولا ، فان كان الأول فهى من كلامهم إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وقد قال ذلك الامام الكبير أبو عبيدة .

فان قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه ، قلنا : ومن سلم لكم انكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان كلام العرب ورد هذه الأسماء اليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم والله أعلم .

---

(١) هو ابن عم أبى سفيان بن حرب بن أمية لأنه مسافر بن أبى عمرو (ذكوان) بن أمية .

باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الاتيان بمثلها، وشرائطها خمسة، فان اختل منها شرط لا تكون معجزة .

فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه، وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت في زمان يصح فيه مجئ الرسل وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذى ادعاه معجزة له، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وانشقاق القمر، وما شاكلها مما لا يقدر عليه البشر .

والشرط الثاني هو أن تخرق العادة، وانما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدعى للرسالة : آيتى مجئ الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها لم يكن فيما ادعاه معجزة، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله، وقد كانت قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه، ودعواه في دلالتها على نبوته كدعوى غيره، فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول الدليل على صدق أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة، فيقلب هذه العصا ثعبانا، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة، أو ينبع الماء من بين أصابعي كما ينبعه من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التي ينفرد بها جبار الأرض والسموات، فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه، لو أسمعنا كلامه العزيز، وقال : صدق، أنا بعثته، ومثال هذه المسألة ولله ولرسوله المثل الأعلى؛ ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض، وقال أحد رجاله وهو بمرأى ومسمع منه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا، ودليل ذلك أن الملك يصدقني بفعل من أفعاله؛ وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديق، فاذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم، ثم عمل ما استشهد به على صدقه، قام ذلك مقام قوله لو قال: صدق فيما ادعاه على؛ فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يدى الرسول، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه، وقال : صدق عبدى في دعوى الرسالة، وأنا أرسلته اليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بهـا مدعى الرسالة على الله عز وجل؛ فيقول : آيتى أن يقلب الله سبحانه هذا المـاء زيتا أو يحرك الأرض عند قولى لها تزلزلى، فاذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به .

الشرط الرابع هو أن يقع على وفق دعوى المتحدى بها المستشهد بكونها معجزة له، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة: آية نبوتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هذه الدابة فنطقت يده أو الدابة، بأن قالت : كذب وليس هو نبى، فان هذا الكلام الذى خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة، لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه؛ وكذلك ما يروى أن مسيلمة الكذاب لعنـه الله تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البـئر وذهب ما كان فيها من المـاء، فما فعل الله سبحانه من هذا، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدى على وجه المعارضة، فان تم الأمر المتحدى به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة، فهى معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده، فان أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيا، وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه، ولهذا قال المولى سبحانه : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ كأنه يقول : إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سـور من جنس نظمه، فاذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال: إن المعجزات المقيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين، وهذا المسيح الدجال فيما رويتم عن نبيكم صلى الله عليه وسلم يظهر على يديه من الآيات العظام، والأمور الجسام، ما هو معروف مشهور؛ فانا نقول : ذلك يدعى الرسالة، وهذا يدعى الربوبية وبينهما من الفرقان، ما بين البصراء والعميان، وقد قام الدليـل العقلى على أن بعثة بعض الخلق إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة ، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدجال فيه التصوير والتغيير من حال إلى حال ، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدثات ، تعالى رب البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شيء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هذا فاعلم أن المعجزات على ضربين : الأول ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والثاني ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله ، واستفاضت بثبوته و وجوده ، و وقع لسامعها العلم بذلك ضرورة ؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجما غفيرا ، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا ، وأن يستوي في النقل أولهم وآخرهم ووسطهم في كثرة العدد ، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب ؛ وهذه صفة نقل القرآن ، ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام ، لأن الأمة رضي الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة ، وصدقه بالأدلة المعجزات ، والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه جل وعز ، فنقل القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان ، ونقله الينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه ، لكثرة العدد ، ولذلك وقع لنا العلم الضروري بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ومن ظهور القرآن على يديه وتحديه به ؛ ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجود البلدان : كالبصرة والشام والعراق وخراسان والمدينة ومكة ، واشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة ، فالقرآن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم الباقية بعده الى يوم القيامة ، ومعجزة كل نبي انقرضت بانقراضه ، أو دخلها التبديل والتغيير ، كالتوراة والانجيل .

ووجوه اعجاز القرآن الكريم عشرة .

منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها ، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء ، وكذلك قال رب العزة الذي تولى نظمه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ وفي صحيح مسلم أن أنيسا أخا أبي ذر ، قال لأبي ذر : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت : فما يقول الناس ؛ قال يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء ، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون ؛ وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر

ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : «حم» فصلت، على ما يأتى بيانه هناك، فإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان فى هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه .

ومنها : الاسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال ، وتأمل ذلك فى سورة ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلى آخرها، وقوله سبحانه : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ إلى آخر السورة . قال ابن الحصار : فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره، ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» ، ولا أن يقول : «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمة كل سورة ، بل هى لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدى والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف اليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سورة «الكوثر» ثلاث آيات قصار، وهى أقصر سورة فى القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين، أحدهما : الإخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من اتباع سائر الرسل، والثانى : الإخبار عن الوليد بن المغيرة ، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد ، على ما تقتضيه قوله الحق : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ ثم أهلكه الله سبحانه، ماله وولده، وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى ؛ حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على اصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله من أمى ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية فى دهرها،

وذكر ماسأله أهل الكتاب عنه، وتحدوه به، من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذى القرنين، بفاءهم — وهو امى من أمة أمية، ليس لها بذلك علم — بما عرفوا من الكتب السالفة صحته، فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا مما لا سبيل اليه إلا عن تعلم، وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا مترددا إلى المتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه، علم أنه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحى.

ومنها : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس فى العيان، فى كل ما وعد الله سبحانه، وينقسم : إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعد مقيد بشرط، كقوله : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ و ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ وشبه ذلك .

ومنها : الإخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يُطلع عليها إلا بالوحى، فمن ذلك : ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الآية . ففعل ذلك ، وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنجح، وكان عمر يفعل ذلك ، فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا، برا وبحرا ، قال الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وقال : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ . وقال : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ . وقال : ﴿الم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ . فهذه كلها أخبار عن الغيوب التى لا يقف عليها إلا رب العالمين، أو من أوقفه عليها رب العالمين، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام، فى الحلال والحرام ، وفى سائر الأحكام .

ومنها : الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى .

ومنها : التناسب فى جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النظام وبعض القدرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصَّرْفَةُ عند التحدى بمثله ؛ وأن المنع والصرفة هو المعجزة ، دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا : إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ؛ وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك ، عُلِمَ أن نفس القرآن هو المُعجز ، لأن فصاحتَهُ وبلاغتَهُ أمرٌ خارقٌ للعادة ؛ إذ لم يُوجَد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلمّا لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادًا منهم ، دلّ على أن المنعَ والصرفةَ لم يكن مُعجزا ، واختلف من قال بهذه الصرفة على قولين :

أحدهما : أنهم صُرِفوا عن القُدْرة عليه ، ولو تعرّضوا له لَعَجَزوا عنه .

الثانى : أنهم صرفوا عن التعرض له مع كونه فى مقدورهم ؛ ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليـه .

قال ابن عطية : وجه التحدى فى القرآن إنما هو بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ؛ ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطته أىّ لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك ، من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صُرِفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم ، يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى ، لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره، ذكر فى آية واحدة أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية، وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم استثنى استثناء بعد استثناء، ثم أخبر عن حكمته وقدرته، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وأنبأ سبحانه عن الموت : وحسرة الفوت، والدار الآخرة وثوابها وعقابها، وفوز الفائزين، وتردى المجرمين، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية، وأنبأ أيضا عن قصص الأولين والآخرين، ومآل المترفين، وعواقب المهلكين، فى شطر آية، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾، وأنبأ جل وعز عن أمر السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة، واستقرار السفينة واستوائها، وتوجيه أوامر التسخير الى الأرض والسماء بقوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله، وقالت : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم تقوّله، أنزل الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ . فلما عجزوا حطهم عن هذا المقدار، إلى مثل سورة من السور القصار، فقال جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ . فأفحموا عن الجواب، وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد، وآثروا سبي الحريم والأولاد ؛ ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيرا، وأبلغ فى الحجة وأشد تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن .

فبلاغة القرآن فى أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ؛ بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة، إلى حيز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أوتى من جوامع الكلم، واختص به من غرائب الحكم ؛ إذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم فى صفة الجنان، وإن كان فى نهاية الإحسان، وجدته منحطا عن رتبة القرآن، وذلك فى قوله عليه السلام : " فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر " فأين ذلك من قوله عز وجل :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾. وقوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. هذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا ، وأعذب لفظا ، وأقل حروفا؛ على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية، لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف؛ وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة؛ كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة ، فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره ؛ فكان السحر في زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته ؛ وكذلك الطب في زمن عيسى عليه السلام، والفصاحة في زمن محمد صلى الله عليه وسلم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره

لا التفات لما وضعه الواضعون، واختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة ، في فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال؛ قد ارتكبها جماعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم في ارتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة، مثل : المغيرة بن سعيد الكوفي، ومحمد بن سعيد الشامي، المصلوب في الزندقة، وغيرهما ، وضعوا أحاديث وحدثوا بها ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك في قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي إلا ما شاء الله"، فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة . قلت : وقد ذكره ابن عبد البر في كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا ؛ فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لهوى يدعون الناس إليه؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : إن هذه الأحاديث دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم ، فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حسبة كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال، كما روي عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم المروزي ، ومحمد بن عكاشة الكرماني ، وأحمد بن عبد الله الجويباري[1]، وغيرهم . قيل لأبي عصمة : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل سور القرآن سورة سورة؟ فقال : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي محمد

---

(١) نسبة الى جويبار .

ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن الصلاح فى كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذى يروى عن أبى بن كعب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه ، وإن أثر الوضع عليه لبين. وقد أخطأ الواحدى المفسر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم.

ومنهم قوم من السؤال والمكدين يقفون فى الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد ، قال جعفر ابن محمد الطيالسى : صلى أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، فى مسجد الرصافة، فقام بين أيديهما قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يخلق من كل كلمة منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان؛ وأخذ فى قصة نحو من عشرين ورقة؛ فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال : أنت حدثته بهذا فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة، قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين؛ فقال أنا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل،ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان ولا بد من الكذب فعلى غيرنا ، فقال له :أنت يحيى بن معين؟ قال : نعم، قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا، قال : فوضع أحمد كمه على وجهه وقال : دعه يقوم، فقام كالمستهزئ بهما ؛ فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجرى مجراهم . يذكر : أن الرشيد كان يعجبه الحمام واللهو به ، فأهدى إليه حمام وعنده أبو البخترى القاضى، فقال : روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سبق إلا فى خف أو حافر أو جناح" فزاد : "أو جناح"، وهى لفظة وضعها للرشيد، فأعطاه جائزة سنية ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب ، وأمر بالحمام أن يذبح، فقيل له : وما ذنب الحمام؟ قال: من أجله كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فترك العلماء حديثه لذلك، وغيره من موضوعاته، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو اقتصر الناس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم فى ذلك غنية، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال: "اتقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"(١) ـ الحديث ـ .

فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيكذب عليه . فحذار مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك، وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد ، وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا، فيقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركونا إليهم، فضلوا وأضلوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة، ولا بين الأئمة، أهل السنة، أن القرآن اسم لكلام الله تعالى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم معجزة له ، على ما تقدم، وأنه محفوظ فى الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب فى المصاحف ، معلومة على الاضطرار سوره وآياته، مبرأة من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته ؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحد، ولا فى حصره بعد، فمن ادعى زيادة عليه، أو نقصانا منه، فقد أبطل الإجماع، وبهت الناس، ورد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزل عليه، ورد قوله تعالى : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ وأبطل آية رسوله عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شيب بالباطل، ولما قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيه زيادة ونقصان راد لكتاب الله ولما جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت فى الدين ، فإذا رد هذا بالإجماع ، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

---

(١) فى الجامع الصغير : ١ ص ٤

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى: ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن، وعلو منزلتـه، ما يوجبه الحق والانصاف والديانة، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسها، وينمى فرعها، ويحرسها من معايب أولى الحيف والجور، ومكايد أهل العداوة والكفر.

فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه ـ باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل ـ لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف، قد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها، فمنها: «والعصر ونوائب الدهر» فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين «ونوائب الدهر» ومنها: «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها»، فادعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن: «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها»، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة.

وادعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه، فقرأ فى صلاة الفرض والناس يسمعون: «الله الواحد الصمد» فأسقط من القرآن «قل هو» وغير لفظ «أحد» وادعى أن هذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ فى صلاة الفرض: «قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون» وطعن على قراءة المسلمين.

وادعى أن المصحف الذى فى أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة، منها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فادعى أن الحكمة والعزة لا يشاكلان المغفرة، وأن الصواب: «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم». وترامى به الغى فى هذا وأشكاله حتى ادعى أن المسلمين يصحفون: ﴿وكان عند الله وجيها﴾ والصواب الذى لم يغير عنده: «وكان عبد الله وجيها»، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه: «لا تحرك به لسانك إن علينا جمعه وقراءته فإذا قرأناه فاتبع قراءته ثم إن علينا نبأ به»، وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ: «ولقد نصركم الله ببدر بسيف على وأنتم أذلة»، وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال:

« هذا صراط علىّ مستقيم » ، وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ فقرأ : « أليس قت للناس » فى موضع : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ وهذا لا يعرف فى نحـو المعربين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين ؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت ، فأما : لست قمت ، بالتاء فشاذ قبيح خبيث ردىء ، لأن ليس لا تجحد الفعل الماضى ، ولم يوجد مثل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم ، وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

وادعى أن عثمان رضى الله عنه لما أسند جمع القرآن الى زيد بن ثابت لم يصب لأن عبد الله ابن مسعود وأُبَىّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أقرأ أمتى أُبَىّ ابن كعب » ولقوله عليه السلام : « من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبد » ، وقال هذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء ، فقرأ : « إن هذين » ، « فأصـدق وأكون » ، « وبشر عبادى الذين » بفتح اليـاء ، « فما آتانى الله » بفتح اليـاء ، والذى فى المصحف : ﴿ إِنَّ هَذَانِ ﴾ بالألف ، ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ بغير واو ، ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ ، ﴿ فَمَا آتَانِ اللَّهُ ﴾ بغير ياءين ، فى الموضعين . وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بإثبـات نونين ، يفتح الثانيـة بعضهم ويسكنها بعضهم ، وفى المصحف نون واحدة ؛ وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أتمدونى بمـال » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدهما ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : « ألا إن ثمودا كفروا ربهم » بغير تنوين ، وإثبات الألف يوجب التنوين ؛ وكل هذا الذى شنع به على القراء ما يلزمهم به خلاف للمصحف .

قلت : قد أشرنا إلى العد فيما تقدم مما اختلف فيه المصاحف ، وسيأتى بيان هـذه المواضع فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أبىّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ؛ لأن عبـد الله بن كثير قرأ على مجاهد ، ومجاهد قرأ على ابن عباس ، وابن عباس قرأ القرآن على أبىّ بن كعب ﴿ حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ

مُتَّصِلُ الْآيَاتِ﴾، فى رواية وقرأ أبىّ القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهذا الإسناد متصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العدالة والصيانة ، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر لم يؤخذ بحديث يخالفه ، وقال يحيى بن المبارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد، وقرأ مجاهد على آبن عباس ، وقرأ ابن عباس على أبىّ بن كعب ، وقرأ أبىّ على النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس فيها « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدثنى أبى نبأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يروى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدها الخاصة دون العامة فيما نقلوا فيه عن أبى : «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها»؛ وعن آبن عباس «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » ، ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : « غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحل، ولا على أنها معارض بها مصحف عثمان ، لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ؛ والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا، حكمه حكم المرتد، يستتاب؛ فإن تاب و إلا ضربت عنقه. وقال أبو عبيد: لم يزل صنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتَدُّ له بأنه من مناقبه العظام؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزيغ فانكشف عواره، ووضحت فضائحه؛ وقال أبو عبيد: وقد حدثت عن يزيد بن زريع عن عمران بن جرير عن أبى مجلز قال : طعن قوم على عثمان رحمه الله بحمقهم جمع القرآن، ثم قرءوا ما نسخ؛ قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر: وفى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ دلالة على كفر هذا الانسان؛ لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان، فإذا قرأ قارئ : «تبت يدى أبى لهب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومريته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف» فقد كذب على الله جل وعلا وقوّله ما لم يقل، وبدّل كتابه وحرّفه، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من آختلاطه به؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد، ليُدخلوا فى القرآن ما يحلّون به عُرا الإسلام ، وينسبونه إلى قوم

كهؤلاء القوم الذين أحال هـذا بالأباطيل عليهم ؛ وفيه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإسلام، وبثباته تقام الصلوات، وتؤدى الزكوات، وتتحرى المتعبدات . وفى قول الله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ دلالةٌ على بدعة هـذا الانسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى « أحكمت آياته » : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها، أو يعارضوها بمثلها ، وقد وجدنا هذا الانسان زاد فيها وكفى الله المؤمنين القتال، بعلى- وكان الله قويا عزيزا، فقال فى القرآن هجرا، وذكر عليا فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحد، وحكم عليه بالقتل، وأسقط من كلام الله « قل هو» وغير أحد فقرأ الله الواحد الصمد وإسقاط ما أسقطه نفى له وكفر ، ومن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كلّه وأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربّك ؛ أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر ؟ فقال الله جل وعز ردّا عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ففى هو دلالةٌ على موضع الردّ ومكان الجواب فإذا سقط بطل معنى الآية، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويقال لهذا الإنسان ومن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى نقرؤه ولا نعرف نحن ولا من كان قبلنا من أسلافنا سواه؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، صحيح الألفاظ والمعانى عارٍ من الفساد والخلل؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدمين من أهل ملتنا؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شىء، صحيح اللفظ والمعانى، سليمها من كل زلل وخلل ؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم ههنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلين من عين تجرى من تحت الجحيم » فأى زيادة فى القرآن أوضح من هذه، وكيف يخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مفتر ومبطل من أن يلحق به مثلها، وإذا تؤملت وبحث عن معناها وجدت فاسدة غير صحيحة، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تختلط به، ولا توافق معناه، وذلك أن بعدها، «لا يأكله إلا الخاطئون» فكيف يؤكل الشراب والذى أتى به قبلها « فليس له اليوم ههنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلا الخاطئون» فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا؛ لأن الشراب لا يؤكل، ولا تقول العرب: أكلت الماء، لكنهم يقولون: شربته وذقته وطعمته، ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة

فى القرآن الذى من خالف حرفا منه كفر : ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أفواههم من الشحم وما يتعلق به من الصديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البلية والنقمة، والشراب محال أن يؤكل ؛ فإن ادّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» وتلى هذه الآية من القرآن لتصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن . وحسبك بهذا كله ردّا لقوله، وخزيا لمقاله . وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير لا أن ذلك قرآن يتلى، وكذلك ما نسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ إن شاء الله تعالى .

القول فى الاستعاذة

وفيها اثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أول كل قراءة فقال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أى إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضى موقع المستقبل كما قال الشاعر :

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ واستئناف ما كان فى غد

أراد ما يكون فى غد ؛ وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ المعنى فتدلى ثم دنا ؛ ومثله : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وهو كثير .

الثانية — هذا الأمر على الندب فى قول الجمهور وحكى النقّاش عن عطاء : إن الاستعاذة واجبة فى صدر كل قراءة فى غير الصلاة ، واختلفوا فيه فى الصلاة ، وكان ابن سيرين والنخعى وقوم يتعوّذون فى الصلاة فى كل ركعة ، ويمتثلون أمر الله فى الاستعاذة على العموم ؛ وأبو حنيفة والشافعى يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلّها كقراءة واحدة ؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان .

الثالثة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه ، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه لفظ كتاب الله

تعالى . وروى عن ابن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ فقال لى النبيّ صلى الله عليه وسلم : « يا بن أمّ عبد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنى جبريل عن اللوح عن القلم » .

الرابعة ــ روى أبو داود وابن ماجه فى سننهما عن جبير بن مُطْعِم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة فقال عمرو[(١)] : لا أدرى أىّ صلاة هى؟ فقال : الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا، أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه؛ قال عمرو : همزه المُوتَةُ، ونفثه الشعر، ونفخه الكبر. وقال ابن ماجه : الموتة يعنى الجنون . والنفث : نفخ الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه . والكبر : التيه . وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل كبّر ثم قال : «سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك» ثم يقول : «لا إله إلا الله ثلاثا»؛ ثم يقول : «الله أكبر كبيرا ثلاثا أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ابن[(٢)] القاسم رحمه الله : أن الاستعاذة أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابن عطيّة : وأما المقرئون فأكثروا فى هذا من تبديل الصفة فى اسم الله تعالى، وفى الجهة الأخرى، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد، من الشيطان المريد؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه : نعمت البدعة، ولا أقول : إنه لا يجوز .

الخامسة ــ قال المهدوىّ : أجمع القرّاء على إظهار الاستعاذة فى أوّل قراءة سورة "الحمد" إلا حمزة فانه أسرّها . وروى السدىّ عن أهل المدينة : أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدىّ عن بعض المفسرين : أن التعوّذ فرض، واذا نسيه القارئ وذكره فى بعض الحزب قطع وتعوّذ، ثم ابتدأ من أوّله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع الى موضعه الذى وقف فيه؛ وبالأوّل قال أسانيد الحجاز والعراق؛ وبالثانى قال أسانيد الشام ومصر .

---

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور فى سند هذا الحديث (أنظر سنن بن ماجه ج ١ ص ١٣٩ وسنن أبى داود ج ١ ص ٧٧ طبع مصر) .

(٢) فى بعض النسخ : « أبى القاسم » .

السادسة — حكى الزهراوىّ قال : نزلت الآية فى الصلاة وندبنا إلى الاستعاذة فى غير الصلاة وليس بفرض؛ قال غيره : كانت فرضا على النبىّ صلى الله عليه وسلم وحده، ثم تأسينا به .

السابعة — رُوى عن أبى هُرَيرة أن الاستعاذة بعد القراءة؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربى انتهى النبىّ بقوم إلى أن قالوا : إذ أفرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . وقد روى أبو سعيد الخُدْرى: أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة، وهذا نصّ . فإن قيل : فما الفائدة فى الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة؟ قلنا : فائدتها امتثال الأمر، وليس للشرعيّات فائدة إلا القيام بحقّ الوفاء لها بامتثالها أمرا واجتنابها نهيا؛ وقد قيل: فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ . قال ابن العربى: ومن أغرب ما وجدناه قولُ مالك فى المجموعة فى تفسير هذه الآية : فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، قال : ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ فى الصلاة . وهذا قول لم يرد به أثرٌ، ولا يعضده نظر؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستعاذة بعد القراءة ، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن فى الصلاة دعوى عريضة، ولا يشبه أصل مالك ولا فهمه؛ فالله أعلم بسرّ هذه الرواية .

الثامنة — فى فضل التعوّذ . رَوَى مُسلم عن سليمان بن صُرَد قال : استبّ رجلان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما يغضب ويحمرّ وجهه وتنتفخ أوداجه؛ فنظر إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" . فقام الى الرجل رجل ممع النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال: هل تدرى ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفا؟ قال "إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فقال له الرجل : أمجنونا ترانى ! أخرجه البخارىّ أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبى العاص الثقفىّ : أنه أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى، وقراءتى يلبسها علىّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا" قال : ففعلت فأذهبه الله عنى . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل عليه الليل قال : "يا أرض ربى وربك الله،

أعوذ بالله من شرك ومن شر ما خلق فيك ومن شر ما يدب عليك ومن أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكني البلد و والد وما ولد" . وروت خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ؛ لم يضره شيء حتى يرتحل " أخرجه في الموطأ ومسلم والترمذي وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يتعوذ منه كثير، ثابت في الأخبار، والله المستعان .

التاسعة - معنى الاستعاذة في كلام العرب الاستجارة، والتحيز الى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه، يقال : عذت بفلان واستعذت به، أي لجأت اليه، وهو عياذي ، أي ملجئي وأعذت غيري به وعوذته بمعنى، ويقال : عوذٌ بالله منك، أي أعوذ بالله منك، قال الراجز :

قالت وفيها حيدةٌ وذُعْرُ * عوذٌ بربي منكم وحُجْرُ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره] (١) : حجرا له بالضم أي دفعا، وهو استعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنى، وأصل أعوذ : أعوذ نقلت الضمة الى العين لاستثقالها على الواو فسكنت .

العاشرة - الشيطان واحد الشياطين على التكسير والنون أصلية، لأنه من شطن إذا بعد عن الخير، وشطنت داره أي بعدت، قال الشاعر (٢) :

نأت بسعادَ عنك نوًى شَطُونُ * فبانت والفؤادُ بها رهينُ

وبئر شطون أي بعيدة القعر . والشطن : الحبل، سمي به لبعد طرفيه وامتداده . ووصف أعرابي فرسا [لا يحفى] (٣) فقال : كأنه شيطان في أشطان . وسمي الشيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرده، وذلك أن كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان، قال جرير :

أيام يدعونني الشيطانَ من غزلٍ * وهنّ يهوينني إذ كنت شيطانا

وقيل : إن شيطانا مأخوذ من شاط يشيط إذا بطل فالنون زائدة . وشاط اذا احترق . وشيطت اللحم ، اذا دخنته ولم تُنضجه ، واشتاط الرجل ، إذا احتد غضبا . وناقة مشياط التي يطير فيها السِّمَن . واشتاط، إذا هلك، قال الأعشى :

(١) الزيادة عن لسان العرب مادة (حجر) . (٢) هو النابغة الذبياني كما في لسان العرب مادة (شطن) .
(٣) الزيادة عن لسان العرب مادة (شطن) .

قد خضب العير فى مكنون فائله[1] * وقد يسيط على أرماحنا البطل

أى يهلك .

ويُرَدّ على هذه الفرقة ، أن سيبويه حكى أن العرب تقول : تشيطن فلان اذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيّن أنه تفيعل من شطن ولو كان من شاط لقالوا : تشيط . ويرد عليهم أيضا بيت أمية ابن أبى الصلت :

أيما شاطن عصاه عكاه[2] * ورماه فى السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لاشك فيه .

الحادية عشرة — الرجيم أى المبعد من الخير المهان . وأصل الرجم : الرمى بالحجارة، وقد رجمته أرجمه، فهو رجيم ومرجوم . والرجم : القتل واللعن والطرد والشتم، وقد قيل هذا كله فى قوله تعالى : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ وقول أبى ابراهيم : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، وسيأتى إن شاء الله تعالى .

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال : قال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم عند الصفا وهو مقبل على شخص فى صورة الفيل وهو يلعنه، قلت : ومن هذا الذى تلعنه يا رسول الله؟ قال : " هذا الشيطان الرجيم " فقلت : يا عدوّ الله والله لأقتلنك ولأريحنّ الأمة منك؛ قال : ما هذا جزائى منك؛ قلت : وما جزاؤك منى ياعدوّ الله؟ قال : والله ما أبغضك أحد قط إلا شركت أباه فى رحم أمه .

البسملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء : بسم الله الرحمن الرحيم، قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده : إن هذا الذى وضعت لكم ياعبادى فى هذه السورة حق، وإنى أوفى لكم بجميع ما ضمنت فى هذه السورة من وعدى ولطفى وبرى . و" بسم الله الرحمن الرحيم " مما أنزله الله تعالى فى كتابنا وعلى

(١) الفائل : عرق فى الفخذين يكون فى خربة الورك . (٢) عكاه فى الحديد والوثاق إذا شده .

هذه الأمة خصوصا، بعد سليمان عليه السلام، وقال بعض العلماء: إن بسم الله الرحمن الرحيم تضمنت جميعَ الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات، وهذا صحيح .

الثانية ــ قال سعيد بن أبي سكينة : بلغني ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظر الى رجل يكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفر له ، قال سعيد : وبلغني أن رجلا نظر إلى قرطاس فيه "بسم الله الرحمن الرحيم" فقبله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هذا المعنى قصة بِشْر الحافي فإنه لما رفع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها . طيب آسمه ، ذكره القشيري . وروى النسائي عن أبي المليح عن ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فانه يتعاظم حتى يصير مثل البيت ويقول: بقوّتي صنعته، ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم، فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب" . وقال علي ابن الحسين في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ قال معناه : إذا قلت "بسم الله الرحمن الرحيم" وروى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جنة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم : ﴿ عليها تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ وهم يقولون في كل أفعالهم : "بسم الله الرحمن الرحيم" فمن هنا لك هي قوتهم ، وببسم الله استضلعوا . قال ابن عطية : ونظير هذا قولهم في ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين مراعاة للفظة هي من كلمات سورة إنا انزلناه . ونظيره أيضا قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، فإنها بضعة وثلاثون حرفا، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول" . قال ابن عطية : وهذا من ملح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثة ــ روى الشعبي والأعمش : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب "باسمك اللهم" حتى أمر أن يكتب "بسم الله" فكتبها، فلما نزلت : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ : كتب "بسم الله الرحمن" فلما نزلت : ﴿ إنه مِن سليمان وإنه بِسم اللهِ الرحمنِ الرحيم ﴾ كتبها . وفي مصنف أبي داود : قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الرابعة — روى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السور قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها .

وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، وهو قول مالك .

(الثانى) أنها آية من كل سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعىّ : هى آية فى الفاتحة ؛ وتردّد قوله فى سائر السور ؛ فمرّة قال : هى آية من كل سورة ، ومرّة قال : ليست بآية إلا فى الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم فى أنها آية من القرآن فى سورة النمل .

وآحتج الشافعى بما رواه الدارقطنى من حديث أبى بكر عبد الحميد بن جعفر الحنفى عن نوح آبن أبى بلال عن سعيد بن أبى سعيد المقبرىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين، فآقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم ، إنها أم القرآن، وأمّ الكتاب، والسبع المثانى، و بسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها » . رفع هذا الحديث عبد الحميد بن جعفر، وعبد الحميد هذا وثقه أحمد بن حنبل، ويحيى بن سعيد، ويحيى بن معين ؛ وأبو حاتم يقول فيه : محله الصدق؛ وكان سفيان الثورىّ يضعّفه ويحمل عليه . ونوح بن أبى بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبارك وأحد قولى الشافعىّ ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : « نزلت علىّ آنفا سورة فقرأ » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَآنْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلأَبْتَرُ ﴾ . وذكر الحديث؛ وسيأتى بكماله فى سورة الكوثر إن شاء الله تعالى .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعىّ الذى لا يختلف فيه . قال آبن العربىّ : ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف الناس فيه . والأخبار الصحاح التى لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، إلا فى النمل وحدها . روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عز وجل قسمت الصلاة بينى وبين عبدى

نصفين ، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ . قال الله تعالى حمدني عبدي ، وإذا قال العبد ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ . قال الله أثنى علي عبدي ، وإذا قال العبد ﴿ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال مجدني عبدي — وقال مرة فوض إلى عبدي — وإذا قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . قال هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل، فإذا قال ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾ . قال هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل » . فقوله سبحانه قسمت الصلاة؛ يريد الفاتحة، وسماها صلاة، لأن الصلاة لا تصح إلا بها ؛ فجعل الثلاث الآيات الأول لنفسه؛ واختص بها تبارك اسمه، ولم يختلف المسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبده؛ لأنها تضمنت تذلل العبد وطلب الاستعانة منه؛ وذلك يتضمن تعظيم الله تعالى . ثم ثلاث آيات تتمة سبع آيات . ومما يدل على أنها ثلاث قوله : "هؤلاء لعبدي" أخرجه مالك؛ ولم يقل : "هاتان" فهذا يدل على أن ﴿ أنعمت عليهم ﴾ آية . قال ابن بكير قال مالك : ﴿ أنعمت عليهم ﴾ آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهذه القسمة التي قسمها الله تعالى . وبقوله عليه السلام لأبي : « كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة » قال : فقرأت ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ حتى أتيت على آخرها : أن البسملة ليست بآية منها، وكذا عد أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة ؛ وأكثر القراء عدوا ﴿ أنعمت عليهم ﴾ آية ، وكذا روى قتادة عن أبي نضرة عن أبي هريرة قال : الآية السادسة ﴿ أنعمت عليهم ﴾ وأما أهل الكوفة من القراء والفقهاء فإنهم عدوا فيها "بسم الله الرحمن الرحيم" ولم يعدوا ﴿ أنعمت عليهم ﴾ .

فإن قيل : فإنها ثبتت في المصحف وهي مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت في النمل؛ وذلك متواتر عنهم .

قلنا : ما ذكرتموه صحيح ، ولكن لكونها قرآنا؟ أو لكونها فاصلة بين السور، كما روي عن الصحابة كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل "بسم الله الرحمن الرحيم" أخرجه أبو داود . أو تبركا بها، كما قد اتفقت الأمة على كتبها في أوائل الكتب والرسائل؟ كل ذلك محتمل . وقد قال الجريري : سئل الحسن عن "بسم الله الرحمن الرحيم"، قال : في صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل "بسم الله الرحمن الرحيم" في شيء من القرآن إلا في طس ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ والفيصل

أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعي الاضطراري . ثم قد اضطرب قول الشافعي فيها في أول كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة، والحمد لله .

فإن قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها، وقد تولى الدارقطني جمع ذلك في جزء صححه .

قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا اليها، ولنا أخبار ثابتة في مقابلتها، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات . روت عائشة في صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين، الحديث ، وسيأتي بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين؛ لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم لا في أول قراءة ولا في آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجح في ذلك بوجه عظيم ، وهو المعقول، وذلك أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة انقرضت عليه العصور، ومرت عليه الأزمنة والدهور، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك، ولم يقرأ أحد فيه قط «بسم الله الرحمن الرحيم» اتباعا للسنة . وهذا يرد أحاديثكم؛

بيد أن أصحابنا استحبوا قراءتها في النفل : وعليه تحمل الآثار الواردة في قراءتها أو على السعة في ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها في النافلة ومن يعرض القرآن عرضا .

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها، ولا يقرأ بها المصلي في المكتوبة ولا في غيرها لا سرا ولا جهرا؛ ويجوز أن يقرأها في النوافل . هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . وعنه رواية أخرى : أنها تقرأ أول السورة في النوافل، ولا تقرأ أول أم القرآن . وروى عنه ابن نافع : ابتداء القراءة بها في الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهل المدينة من يقول : إنه لابد فيها من «بسم الله الرحمن الرحيم» منهم ابن عمر، وابن شهاب؛ وبه قال الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وأبو عبيد . وهذا يدل على أن المسألة مسألة اجتهادية ، لا قطعية، كما ظنه بعض الجهال من المتفقهة الذي يلزم على قوله تكفير المسلمين؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء الى الإسرار بها مع الفاتحة، منهم : أبو حنيفة، والثوري؛ وروي ذلك عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وعمار، وابن الزبير؛ وهو قول الحكم، وحماد؛ وبه قال أحمد بن حنبل

وأبو عبيد؛ وروى عن الأوزاعيّ مثل ذلك؛ حكاه أبو عمر بن عبد البرّ في «الاستذكار». واحتجوا من الأثر في ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم». وبما رواه عمار بن رزيق (1) عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر، وعمر، فلم أسمع أحدا منهم يجهر بسم الله الرحمن الرحيم.

قلت: هذا قول حسن وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد، ويخرج به من الخلاف في قراءة البسملة. وقد روى عن سعيد بن جبير قال: كان المشركون يحضرون المسجد؛ فاذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بسم الله الرحمن الرحيم» قالوا: هذا محمد يذكر رحمان اليمامة ــ يعنون مسيلمة ــ فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم، ونزل: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾. قال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله: فبقي ذلك الى يومنا هذا على ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقي الرمَل في الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة في صلاة النهار وإن زالت العلة.

السادسة ــ اتفقت الأمة على جواز كتبها في أوّل كل كتاب من كتب العلم والرسائل، فإن كان الكتاب ديوان شعر؛ فروى مجالد عن الشعبيّ قال: أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» وقال الزهريّ: مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم». وذهب الى رسم التسمية في أوّل كتب الشعر سعيد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين. قال أبو بكر الخطيب: وهو الذى نختاره ونستحبه.

السابعة ــ قال الماورديّ ويقال لمن قال: بسم الله مبسمل، وهي لغة مولدة. وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة:

لقد بسملت ليلى غداة لقيتها ٭ فيا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

قلت: المشهور عن أهل اللغة بسمل. قال يعقوب بن السكيت والمطرز والثعالبيّ وغيرهم من أهل اللغة: بسمل الرجل، إذا قال: بسم الله. يقال: قد أكثرت من البسملة، أى من قول بسم الله. ومثله حوقل الرجل، إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وهلل، إذا قال: لا إله

(1) كذا في تهذيب التهذيب. ورزيق بتقديم الراء على الزاى مصغرا. وفى الأصول: «عمار عن زريق» وهو خطأ.

إلا الله . وسبحل، إذا قال: سبحان الله . وحمدل، إذا قال : الحمد لله . وحيصل، إذا قال: حيّ على الصلاة . وجعفل، إذا قال : جعلت فداك . وطلبقل، إذا قال : أطال الله بقاءك . ودمعز، إذا قال : أدام الله عزك . وحيعل، إذا قال : حيّ على الفلاح . ولم يذكر المطرز : الحيعلة، إذا قال : حيّ على الصلاة .

الثامنة — ندب الشرع إلى ذكر البسملة فى أول كل فعل ، كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال، قال الله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أغلق بابك واذكر اسم الله ، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وخمر إناءك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله" وقال: "لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا " وقال لعمر بن أبى سلمة: "يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك" وقال : "إن الشيطان ليستحل الطعام إلا أن يذكر اسم الله عليه" وقال : "من لم يذبح فليذبح باسم الله" وشكا إليه عثمان بن أبى العاص وجعا يجده فى جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذى يألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . هذا كله ثابت فى الصحيح . وروى ابن ماجه والترمذى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ستر ما بين [أعين](1) الجن وعورات بنى آدم إذا دخل [أحدهم] الكنيف أن يقول بسم الله" . وروى الدرقطنى عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سمى الله تعالى، ثم يفرغ الماء على يديه .

التاسعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَدَرِيَّة وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك : أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك ، كما ذكرنا .

فمعنى بسم الله أى بالله، ومعنى بالله أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله، بسم الله يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه

(1) الزيادة عن الجامع الصغير .

وبركته ؛ وهـذا تعليم من الله تعالى عباده ، ليذكروا اسمـه عند افتتاح القراءة وغيرها ، حتى يكون الافتتاح ببركة الله جل وعز .

العاشرة ــ ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن « اسم » صلة زائدة، واستشهد بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم الســلام عليكما • ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فذكر اسم زيادة، وإنما أراد ثم السلام عليكما

وقد استدل علماؤنا بقول لبيد هذا على أن الاسم هو المسمى . وسيأتي الكلام فيه في هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة ــ اختلف في معنى زيادة « اسم » ؛ فقـال قطرب : زيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرك ؛ لأن أصل الكلام بالله .

الثـانية عشرة ــ اختلفوا أيضـا في معنى دخول الباء عليـه، هل دخلت على معنى الأمر؟ ؛ والتقدير: ابدأ بسم الله، أو معنى الخبر؟ والتقدير: ابتدأت بسم الله، قولان : الأول للفراء، والثاني للزجاج . فبسم في موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى ابتدائي بسم الله؛ فبسم الله في موضع رفع خبر الابتداء . وقيل : الخبر محـذوف، أي ابتدائي مستقر أو ثابت بسم الله،فإذا أظهرته كان بسم الله في موضع نصب بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولك: زيد في الدار . وفي التنزيل :﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ فعنده في موضع نصب ،روى هذا عن نحاة أهل البصرة . وقيل التقدير، ابتدائي ببسم الله موجود أو ثابت، فبسم في موضع نصب بالمصدر الذي هو ابتدائي .

الثالثة عشرة ــ بسم الله، تكتب بغير ألف استغناء عنهـا بباء الإلصاق في اللفظ والخط لكثرة الاستعمال ؛ بخلاف قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فإنها لم تحذف لقلة الاستعمال . واختلفوا في حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائي وسعيد الأخفش ، تحذف الألف . وقال يحيى بن وثاب : لا تحذف إلا مع بسم الله فقط، لأن الاستعمال إنما كثر فيه .

الرابعـة عشرة ــ واختلف في تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان ؛ فقيل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمـا كانت البـاء لا تدخل إلا على الأسمـاء خصت بالخفض الذي لا يكون

إلا فى الأسماء . الثالث : ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف اسما ، نحو الكاف فى قول الشاعر :

* ورحنا بكا بن الماء تجنب وسطنا *

أى بمثل ابن الماء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — اسم ، وزنه افع ، والذاهب منه الواو ، لأنه من سموت وجمعه أسماء وتصغيره سمى . واختلف فى تقدير أصله ، فقيل : فِعل ، وقيل : فُعل . قال الجوهرى : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جذع وأجذاع ، وقفل وأقفال ؛ وهذا لاتدرك صيغته إلا بالسماع . وفيه أربع لغات : اسم بالكسر ، واسم بالضم ، قال أحمد بن يحيى : من ضم الألف أخذه من سموت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقال : سِمٌ وسُمٌ وينشد :

والله أسماك سما مباركا * آثرك الله به إيثاركا

وقال آخر :

وعامنا أعجبنا مُقَدَّمُه * يدعى أبا السمح وقرضاب سُمُه

* مبتركا[1] لكل عظم يلحمه *

قرضب الرجل : إذا أكل شيئا يابسا فهو قرضاب . سمه بالضم والكسر جميعا .

ومنه قول الآخر :

* باسم الذى فى كل سورة سِمُه *

وسكنت السين من بسم اعتلالا[2] على غير قياس ، وألفه ألف وصل ، وربما جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة ، كقول الأحوص :

وما أنا بالمخسوس فى جذم مالك * ولا من تسمى ثم يلتزم الإسما

السادسة عشرة — تقول العرب فى النسب إلى الاسم : سُمَوِىٌّ ، وإن شئت : اسمى تركته على حاله ، وجمعه أسماء ، وجمع الأسماء أسام . وحكى الفراء : أعيذك بأسماوات الله .

(١) التصويب عن اللسان مادة « برك ، سما » . ورجل مبترك : معتمد على الشىء ملح ويلحمه : ينزع عنه اللحم .

(٢) كان الأصل اسم نقلت حركة الهمزة الى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت الباء به سكنت السين تخفيفا .

السابعة عشرة ــ اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين؛ فقال البصريون : هو مشتق من السمو وهو العلو والرفعة، فقيل اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره . وقيل انما سمي الاسم اسما لأنه علا بقوته على قسمي الكلام : الحرف والفعل؛ والاسم أقوى منهما بالاجماع لأنه الأصل؛ فلعلوه عليهما سمي اسما؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهي العلامة ، لأن الاسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل اسم على هذا «وسم» والأوّل أصح، لأنه يقال في التصغير سمي وفي الجمع أسماء؛ والجمع والتصغير يردّان الأشياءَ إلى أصولها؛ فلا يقال : : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهي :

الثامنة عشرة ــ فإن من قال الاسم مشتق من العلو يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق و بعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السنة. ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول : كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة ، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، فاذا أفناهم بقي بلا اسم ولا صفة؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة؛ وهو أعظم في الخطإ من قولهم : إن كلامه مخلوق ، تعالى الله عن ذلك ، وعلى هذا الخلاف وقع الكلام في الاسم والمسمى وهي :

التاسعة عشرة ــ فذهب أهل الحق فيما نقل القاضي أبو بكر بن الطيب : إلى أن الاسم هو المسمى وارتضاه ابن فورك؛ وهو قول أبي عبيدة وسيبويه . فإذا قال قائل : الله عالم، فقوله دال على الذات الموصوفة بكونه عالما ، فالاسم كونه عالما وهو المسمى بعينه . وكذلك إذا قال : الله خالق، فالخالق هو الرب، وهو بعينه الاسم . فالاسم عندهم هو المسمى بعينه من غير تفصيل .

قال ابن الحصار : من ينفي الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذاتُ . ولذلك يقولون : الاسم غير المسمى، ومن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هي أوصاف الذات وهي غير العبارات وهي الأسماء عندهم . وسيأتي لهذه مزيد بيان في البقرة والأعراف إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين ــ قوله : ﴿الله﴾ هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره؛ ولذلك لم يثن ولم يجمع؛ وهو أحد تأويلي قوله تعالى:

(﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾) أى من تسمى باسمه الذى هو "الله" . فالله اسم للوجود الحق الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيق، لا إله الا هو سبحانه. وقيل: معناه الذى يستحق أن يعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — واختلفوا فى هذا الاسم ،هل هو مشتق؟ أو موضوع للذات، علم. فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم . واختلفوا فى اشتقاقه وأصله . فروى سيبويه عن الخليل : أن أصله إلاه، مثل فِعَال فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة "لاه" وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيبويه. وأنشد :

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب • عنّى ولا أنت ديانى فتخزونى

كذا الرواية : فتخزونى، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفراء : معنى بسم الله؛ بسم الاله؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لاما مشددة كما قال عز وجل : ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ ومعناه : لكن أنا ، كذلك قرأها الحسن . ثم قيل هو مشتق من « وله » إذا تحير، والوله : ذهاب العقل. يقال: رجل واله وامرأة والهة ووالهة، وماء موله : أرسل فى الصحارى. فالله سبحانه تحير الألباب وتذهب فى حقائق صفاته والفكر فى معرفته . فعلى هذا أصل " إلاه " « ولاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح، وإسادة ووسادة . وروى عن الخليل، وروى عن الضحاك أنه قال : إنما سمى "الله" إلها، لأن الخلق يتألهون إليه فى حوائجهم، ويتضرعون اليه عند شدائدهم. وذكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يألَهون اليه بنصب اللام ويألِهون أيضا بكسرها وهما لغتان . وقيل : إنه مشتق من الارتفاع ، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع : لاها، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس : لاهت . وقيل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبد . وتأله إذا تنسك . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ﴾ : على هذه القراءة ؛ فان ابن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فاسم الله مشتق من هذا، فالله سبحانه معناه : المقصود بالعبادة، ومنه قول الموحدين: لا إله الا الله، معناه : لا معبود غير الله . وإلا فى الكلمة بمعنى غير، لا بمعنى الاستثناء . وزعم

بعضهم أن الأصل فيه «الهاء» التي هي الكناية عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجودا في فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام الملك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار «له» ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثاني : ذهب إليه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعيّ، وأبو المعالي، والخطابي، والغزالي، والمفضل، وغيرهم . وروى عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابي : والدليل على أن الألف واللام من بنية هذا الاسم، ولم يدخلا للتعريف : دخول حرف النداء عليه، كقولك : يا ألله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ؛ ألا ترى أنك لا تقول : يا ألرحمن ولا يا ألرحيم، كما تقول : يا ألله فدل على أنهما من بنية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون – واختلفوا أيضا في اشتقاق اسم الرحمن . فقال بعضهم : لا آشتقاق له، لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه، ولأنه لو كان مشتقا من الرحمة لاتصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال : الله رحمن بعباده، كما يقال : رحيم بعباده. وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم؛ وقد قال الله عز وجل : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الآية. ولما كتب عليّ رضي الله عنه في صلح الحديبية بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال سهيل بن عمرو : ما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللهم، الحديث . قال آبن العربي : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف، واستدل على ذلك بقوله : وما الرحمن؟ ولم يقولوا : ومن الرحمن؟ قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ . وذهب الجمهور من الناس الى أن الرحمن مشتق من الرحمة مبنيّ على المبالغة؛ ومعناه ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها، فلذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى الرحيم ويجمع . قال ابن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما خرّجه الترمذيّ وصححه عن عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله عز وجل أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها آسما من اسمي ؛ فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته " وهذا نص في الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرّد فيما ذكر ابن الأنبارى فى كتاب « الزاهر » له : أن الرحمن اسم عبرانىّ بجاء معه بالرحيم ، وأنشد :

لن تُدركوا المجدَ أو تشروا عباءكم ✽ بالخزّ أو تجعلوا اليَنْبوتَ ضمْرانا
أو تتركون الى القَسَّيْن هجرتكم ✽ ومَسْحَكم صُلْبهم رَحمان قُربانا

قال أبو اسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : الرحيم عربىّ والرحمن عبرانىّ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : النعت قد يقع للمدح كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مطرّف عن قتادة . فى قول الله عز وجل : بسم الله الرحمن الرحيم قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق : وهذا قول حسن . وقال قطرب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو اسحاق : وهذا قول حسن ، وفى التوكيد أعظم الفائدة ، وهو كثير فى كلام العرب ، ويستغنى عن الاستشهاد ، والفائدة فى ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضل بعد تفضل ، وإنعام بعد إنعام ، وتقوية لمطامع الراغبين ، ووعد لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فقيل : هما بمعنى واحد كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة : وقيل : ليس بناء فَعلان كفعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك : رجل غضبان ، للممتلئ غضبا . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عملس[1] :

فأما إذا عضت بك الحرب عضة ✽ فإنك معطوف عليك رحيم

فالرحمن خاص الاسم عام الفعل . والرحيم عام الاسم خاص الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو علىّ الفارسىّ : الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله ، والرحيم إنما هو فى جهة المؤمنين كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ . وقال العرزمىّ[2] : الرحمن بجميع خلقه فى الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة ، والرحيم بالمؤمنين فى الهداية لهم ، واللطف بهم . وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسئل غضب . وروى ابن ماجه فى سننه والترمذىّ فى جامعه

---

(١) هو عملس بن عقيل كما فى لسان العرب مادة رحم .
(٢) هو عبد الملك بن أبى سليمان العرزمىّ كما فى الخلاصة .

عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يسأل الله يغضب عليه» لفظ الترمذي . وقال ابن ماجه : « من لم يدع الله غضب عليه » وقال : سألت أبا زرعة عن أبي صالح هذا ، فقال : هو الذي يقال له : الفارسي وهو خوزي[1] ولا أعرف اسمه . وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

الله يغضب إن تركت سؤاله * وبني آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان ، أحدهما أرق من الآخر أي أكثر رحمة .

قال الخطابي : وهذا مشكل ، لأن الرقة لا مدخل لها في شيء من صفات الله تعالى . وقال الحسين بن الفضل البجلي : هذا وهم من الراوي ، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى في شيء ، وإنما هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر ، والرفق من صفات الله عز وجل قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف » .

- الخامسة والعشرون – أكثر العلماء على أن الرحمن مختص بالله عز وجل ، لا يجوز أن يسمى به غيره ، ألا تراه قال : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ فعادل الاسم الذي لا يشركه فيه غيره . وقال : ﴿ وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة جل وعز . وقد تجاسر مسيلمة الكذاب لعنه الله ، فتسمى برحمان اليمامة وما قرع سامعه ، حتى ألزمه الله تعالى نعته بالكذاب لذلك ، وإن كان كل كافر كاذباً فقد صار هذا الوصف لمسيلمة علماً يعرف به ، ألزمه الله إياه . وقد قيل في اسمه الرحمن : إنه اسم الله الأعظم ، ذكره ابن العربي .

- السادسة والعشرون – الرحيم صفة مطلقة للمخلوقين ، ولما في الرحمن من العموم ، قدم في كلامنا على الرحيم ، مع موافقة التنزيل ، قاله المهدوي . وقيل : إن معنى الرحيم أي بالرحيم وصلتم إلى الله وإلى الرحمن ، فالرحيم نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نعته تعالى بذلك فقال : ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن وبالرحيم ، أي وبمحمد صلى الله عليه وسلم وصلتم إلي ، أي باتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابي وكرامتي والنظر إلى وجهي والله أعلم .

---

(١) نسبة الى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة وفي بعض النسخ خوزي بالراء المهملة نسبة الى خور قرية ببلخ .

السابعة والعشرون — روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال فى قوله : بسم الله شفاء من كل داء، وعون على كل دواء، وأما الرحمن، فهو عون لكل من آمن به، وهو اسم لم يسم به غيره، وأما الرحيم، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسره بعضهم على الحروف ؛ فروى عن عثمان ابن عفان : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم، فقال : أما الباء فبلاء الله وروحه ونصره وبهاؤه، وأما السين فسناء الله . وأما الميم فملك الله ، وأما الله ، فلا إله غيره وأما الرحمن ، فالعاطف على البرّ والفاجر من خلقه ، وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة . وروى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه ، والسين سناؤه فلا شىء أعلى منه، والميم ملكه، وهو على كل شىء قدير، فلا شىء يعازّه . وقد قيل : إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه ، فالباء مفتاح اسمه بصير، والسين مفتاح اسمه سميع، والميم مفتاح اسمه مليك ، والألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والهاء مفتاح اسمه هادى، والراء مفتاح اسمه رازق ، والحاء مفتاح اسمه حليم، والنون مفتاح اسمه نور ، ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند افتتاح كل شىء .

الثامنة والعشرون — واختلف فى وصل الرحيم بالحمد لله، فروى عن أم سلمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، الرحيم بتسكين الميم ويقف عليها، ويبتدئ بألف مقطوعة، وقرأ به قوم من الكوفيين، وقرأ جمهور الناس الرحيم الحمد، بعرب الرحيم بالخفض وبوصل الألف من الحمد . وحكى الكسائىّ عن بعض العرب أنها تقرأ الرحيمَ الحمد ، بفتح الميم وصلة الألف كأنها سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال ابن عطية: ولم ترو هذه قراءةً عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد فى قوله تعالى الم الله .

تفسير سورة الفاتحة

بحول الله وكرمه، وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

فى فضائلها وأسمائها وفيه سبع مسائل

الأولى ــ روى الترمذى عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أمّ القرآن، وهى السبع المثانى، وهى مقسومة[1] بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل" أخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب: أن أبا سعيد مولى [ابن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أُبَىّ بن كعب وهو يصلى؛ فذكر الحديث. قال ابن عبد البر: أبو سعيد لا يوقف له على اسم وهو معدود فى أهل المدينة، روايته عن أبى هريرة وحديثه هذا مرسل؛ وقد روى هذا الحديث عن أبى سعيد بن المعلى رجل من الصحابة لا يوقف على اسمه أيضا؛ رواه عنه حفص بن عاصم، وعبيد بن حنين.

قلت: كذا قال فى التمهيد: لا يوقف له على اسم. وذكر فى كتاب الصحابة الاختلاف فى اسمه. والحديث خرجه البخارى عن أبى سعيد بن المعلى قال: كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إنى كنت أصلى؛ فقال: ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ثم قال: "إنى لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد" ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن، قال: "الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته". قال ابن عبد البر وغيره: أبو سعيد بن المعلى من جلة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرد به البخارى؛ واسمه رافع ويقال: الحارث بن نفيع بن المعلى، ويقال: أوس بن المعلى، ويقال: أبو سعيد بن أوس بن المعلى؛ توفى سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وستين [سنة][2]، وهو أوّل من صلى الى القبلة

---

(١) لعل هنا سقطا بينه ما رواه مسلم عن أبى هريرة «يقول الله تعالى قسمت الصلاة (أى الفاتحة) بينى وبين عبدى».

(٢) قال فى الاصابة وهو غلط فانه يستلزم أن تكون قصته مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو صبى وسياق الحديث يأبى ذلك.

بين حولت . وسيأتي . وقد أسند حديث أُبَيّ يزيد بن زريع قال : حدثنا رَوْحُ بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال . خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي وهو يصلي، فذكر الحديث بمعناه .

وذكر ابن الأنباري في كتاب الرد له : حدثني أبي حدثني أبو عبيد الله الوراق حدثنا أبو داود، حدثنا شيبان عن منصور عن مجاهد قال . إن إبليس لعنه الله رنّ أربع رنات، حين لعن ، وحين أهبط من الجنة، وحين بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين نزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة.

الثانية — اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض . فقال قوم : لا فضل لبعض على بعض، لأن الكلام كلام الله ، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها؛ ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي، وجماعة من الفقهاء . وروى معناه عن مالك قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها . وقال عن مالك في قول الله تعالى : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ . قال: محكمة مكان منسوخة . وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك . واحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يشعر بنقص المفضول، والذاتية في الكل واحدة، وهي كلام الله ، وكلام الله تعالى لا نقص فيه . قال البستي : ومعنى هذه اللفظة (ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن) ، أن الله تعالى لا يعطي لقارئ التوراة والانجيل مثل ما يعطي لقارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة القرآن كلامه، أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال : ومعنى قوله : أعظم سورة، أراد به في الأجر لا أن بعض القرآن أفضل من بعض. وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودا مثلا في ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وما كان مثلها .

والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، وهذا هو الحق . وممن قال بالتفضيل إسحاق بن راهويه ، وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو اختيار القاضي أبي بكر بن العربي، وابن

الحصار لحديث أبي سعيد بن المعلى وحديث أبيّ بن كعب أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبيّ أيّ آية معك في كتاب الله أعظم" قال : فقلت : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال : فضرب في صدري وقال : "ليهنك العلم يا أبا المنذر" أخرجه البخاري ومسلم .

قال ابن الحصار : عجبي ممن يذكر الخلاف مع هـذه النصوص .

وقال ابن العربي : قوله : "ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها" وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزلة والزبور وغيرها؛ لأن هذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشيء أفضل الأفضل، صار أفضل الكل، كقولك زيد أفضل العلماء، فهو أفضل الناس .

وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القربة إلا بها، ولا يلحق عمل بثوابها، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم، كما صارت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، إذ القرآن توحيد وأحكام، ووعظ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التوحيد كله، وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه السلام لأبيّ : "أي آية في القرآن أعظم" قال : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ . وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له" أفضل الذكر، لأنها كلمات حوت جميع العلوم في التوحيد، والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى .

الثالثة ـــ روى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، وشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، هذه الآيات معلقات بالعرش، ليس بينهن وبين الله حجاب" . أسنده أبو عمرو الداني في كتاب (البيان) له .

الرابعة ـــ في أسمائها وهي اثنا عشر اسما :

(الأول) الصلاة، قال الله[1] تعالى: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين" الحديث وقد تقدم.

(١) أي في الحديث القدسي .

(الثانى) الحمد، لأن فيها ذكر الحمد كما يقال : سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها.

(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء، وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظا، وتفتتح بها الكتابة فى المصحف خطا، وتفتتح بها الصلوات.

(الرابع) أم الكتاب، وفى هذا الاسم خلاف، جوّزه الجمهور، وكرهه أنس، والحسن، وابن سيرين، قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى : ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. وقال أنس، وابن سيرين : أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ. قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾.

(الخامس) أم القرآن، واختلف فيه أيضا، فجوّزه الجمهور، وكرهه أنس، وابن سيرين، والأحاديث الثابتة تردّ هذين القولين. روى الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثانى» قال : هذا حديث حسن صحيح. وفى البخارى قال : وسميت أم الكتاب لأنه يبتدأ بكتابتها فى المصاحف، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة. وقال يحيى ابن يعمر : أم القرى مكة. وأم خراسان : مَرْوُ. وأم القرآن : سورة الحمد. وقيل : سميت أم القرآن لأنها أوّله ومتضمنة لجميع علومه، وبه سميت مكة أم القرى لأنها أوّل الأرض ومنها دحيت، ومنه سميت الأم أمًّا لأنها أصل النسل، والأرض أُمًّا، فى قول أمية بن أبى الصّلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا * فيها مقابرنا وفيها نولد

ويقال لراية الحرب : أم، لتقدمها واتباع الجيش لها، وأصل أم أمهة، ولذلك يجمع على أمهات قال الله تعالى : ﴿وأمهاتكم﴾. ويقال : أمات بغير هاء. قال :

* فرجت الظلام بأماتكا *

وقيل : إن أمهات فى الناس، وأمات فى البهائم، حكاه ابن فارس فى المجمل.

(السادس) المثانى، سميت بذلك لأنها تثنى فى كل ركعة. وقيل : سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخرا لها.

(السابع) القرآن العظيم، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عز وجل بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز

عن القيام بشيء منها إلا بإعانته تعالى ، وعلى الابتهال اليه ، فى الهداية الى الصراط المستقيم ، وكفاية أحوال الناكثين ، وعلى بيان عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء ، روى الدارمي[1] عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فاتحة الكتاب شفاء من كل سم » .

(التاسع) الرقية ، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدري وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذى رقى سيد الحي : « ما أدراك أنها رقية » فقال : يا رسول الله شيء ألقى فى رُوعى . الحديث خرجه الأئمة وسيأتى بتمامه .

(العاشر) الأساس ، شكا رجل الى الشعبي وجع الخاصرة ، فقال : عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب ، سمعت ابن عباس يقول : لكل شيء أساس ، وأساس الدنيا مكة ، لأنها منها دحيت ، وأساس السموات غريب ، وهى السماء السابعة ، وأساس الأرض عجيب ، وهى الأرض السابعة السفلى ، وأساس الجنان جنة عدن ، وهى سرة الجنان عليها أسست الجنة ، وأساس النار جهنم ، وهى الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات ، وأساس الخلق آدم ، وأساس الأنبياء نوح ، وأساس بنى إسرائيل يعقوب ، وأساس الكتب القرآن ، وأساس القرآن الفاتحة ، وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى .

(الحادى عشر) الوافية قاله سفيان بن عيينة : لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال ، ولو قرأ من سائر السور نصفها فى ركعة ، ونصفها الآخر فى ركعة ، لأجزأ ؛ ولو نصفت الفاتحة فى ركعتين لم يجزء .

(الثانى عشر) الكافية ، قال يحيى بن أبي كثير : لأنها تكفى عن سواها ولا يكفى سواها عنها . يدل عليه ماروى محمد بن خلاد الاسكندرانى قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوضا " .

الخامسة ـ قال المهلب : إن موضع الرقية منها إنما هو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقيل : السورة كلها رقية ، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : "وما أدراك أنها رقية" ولم يقل : إن فيها رقية . فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية ، لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه ، ومتضمنة لجميع علومه ، كما تقدم والله أعلم .

(١) فى بعض الأصول : «الدارقطنى» .

السادسة — ليس فى تسميتها بالمثانى وأم الكتاب، ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عز وجل : ﴿ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ ﴾ فاطلق على كتابه : مثانى، لأن الأخبار تثنى فيه . وقد سميت السبع الطوال أيضا مثانى، لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال ابن عباس : أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا من المثانى . قال : السبع الطوال . ذكره النسائى، وهى من البقرة إلى الأعراف ست واختلفوا فى السابعة، فقيل : يونس، وقيل الأنفال والتوبة، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلجوا المسجد وادعوا ربكم * وادرسوا هذى المثانى والطول

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة الحجر إن شاء الله تعالى .

السابعة — المثانى جمع مثنى، وهى التى جاءت بعد الأولى، والطول جمع أطول . وقد سميت الأنفال من المثانى لأنها تتلو الطول فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتها على المفصل وتنقص عن المئين . والمئون : هى السور التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى

فى نزولها وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة

الأولى — أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات، إلا ما روى عن حسين الجعفى : أنها ست، وهذا شاذ . وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد . أنه جعل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ آية، وهى على هذا ثمان آيات وهذا شاذ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي ﴾ وقوله : " قسمت الصلاة " الحديث يرد هذين القولين . وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه . ولما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن، كالمعوذتين عنده .

الجواب ما ذكره أبو بكر الأنبارى قال : حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا سليمان بن الأشعث حدثنا ابن أبى قدامة حدثنا جرير عن الأعمش قال : أظنه عن ابراهيم قال : قيل لعبد الله بن مسعود : لم لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها، فقال : اختصرت باسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل سورة، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانيـة ـــ اختلفوا أهي مكية أم مدنية ؟ . فقال ابن عباس، وقتادة، وأبو العالية الرياحي ــ واسمه رفيع ــ وغيرهم : هي مكيـة . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري وغيرهم : هي مدنية . ويقال : نزل نصفها بمكة، ونصفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي في تفسيره . والأول أصح لقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ والحجر مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير الحمد لله رب العالمين، يدل على هذا قوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " وهذا خبر عن الحكم، لا عن الابتداء والله أعلم .

وقد ذكر القاضي ابن الطيب اختلافَ الناس في أول ما نزل من القرآن ، فقيل : المدثر ، وقيل : إقرأ، وقيل : الفاتحة . وذكر البيهقي في دلائل النبوة : عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة :" إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا " قالت : معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمَّ ، ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : يا عتيق، اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده، فقال : انطلق بنا إلى ورقة، فقال : ومن أخبرك . قال خديجة، فانطلقا إليه ، فقصا عليه ، فقال : " إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد ، فأنطلق هاربا في الأرض " فقال : لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني . فلما خلا، ناداه : يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين قل : لا إله إلا الله . فأتى ورقة، فذكر ذلك له ، فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به عيسى ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، وإن يدركني ذلك لأجاهدن معك . فلما توفي ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت القَسّ في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدّقني" يعني ورقة . قال البيهقي رضي الله عنه : هذا منقطع يعني هذا الحديث، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزل عليه ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ و﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

الثالثة — قال ابن عطية : ظن بعض العلماء أن جبريل عليـه السلام لم ينزل بسورة الحمـد ؛ لمـا رواه مسـلم عن ابن عباس قال : بينا جبريل قاعد عند النبيّ صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً[1] من فوقه، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل إلا اليوم؛ فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم ســورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيتــه . قال ابن عطية : وليسَ كما ظن، فان هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدم الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُعْلِمًا به و بما ينزل معه؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك فى نزولها والله أعلم .

قلت : الظـاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم بشىء من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة، نزل بها جبريل عليه السلام، لقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ وهذا يقتضى جميع القرآن، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة، ونزل الملك بثوابها بالمدينة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكية مدنية، نزل بها جبريل مرتين؛ حكاه الثعلبي . وما ذكرناه أولى، فإنه جمع بين القرآن والسنة، ولله الحمد والمنة .

الرابعة — قد تقدم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح، و إذا ثبت ذلك فحكم المصلى إذا كبر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت، ولا يذكر توجيها، ولا تسبيحا، لحديث عائشة، وأنس المتقدمين وغيرهما، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه، والتسبيح، والسكوت، قال بها جماعة من العلماء، فروى عن عمر ابن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهما : أنهما كانا يقولان إذا افتتحا الصلاة : سبحانك اللهـم وبحمدك ، تبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك؛ و به قال سفيان ، وأحمد، و إسحاق وأصحاب الرأى . وكان الشافعيّ يقول بالذى روى عن على عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا افتتح الصلاة كبر ثم قال : " وَجَّهْتُ وَجْهِى " الحديث، ذكره مسلم، وسيأتى بتمامه فى آخر سورة الأنعام، وهناك يأتى القول فى هذه المسألة مستوفى . إن شاء الله .

قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر فى الصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ يقول : " اللهم باعد بينى و بين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من

(١) النقيض : الصوت الخفى .

خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد " واستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فاغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعى، وسعيد بن عبد العزيز، وأحمد بن حنبل، يميلون الى حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامسة – واختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة، فقال مالك وأصحابه : هى متعينة للإمام والمنفرد فى كل ركعة . قال ابن خواز منداذ البصرى المالكى : لم يختلف قول مالك انه من نسيها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . واختلف قوله، فيمن تركها ناسيا فى ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ؛ فقال مرة : يعيد الصلاة، وقال مرة أخرى : يسجد سجدتى السهو؛ وهى رواية ابن عبد الحكم، وغيره، عن مالك . قال ابن خواز منداذ وقد قيل: إنه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام . قال ابن عبد البرّ : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ويأتى بركعة بدلا منها، كمن أسقط سجدة سهوا . وهو اختيار ابن القاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهل البصرة، والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومى المدنى : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصلاة أجزأه ولم يكن عليه إعادة؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن؛ وهى تامة لقوله عليه السلام : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن " وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعة، وهو الصحيح، على ما يأتى، ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم .

وقال أبو حنيفة، والثورى، والأوزاعى : إن تركها عامدا فى صلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه، على اختلاف عن الأوزاعى فى ذلك . وقال أبو يوسف، ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدين . وعن محمد بن الحسن أيضا ؛ قال : أسوّغ الاجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة؛ نحو : ﴿ الحمد لله ﴾ . ولا أسوّغه فى حرف لا يكون كلاما .

قال الطبرى : يقرأ المصلى بأم القرآن فى كل ركعة، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن فى عدد آيها، وحروفها . قال ابن عبد البرّ : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها

بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجيء بالبـدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها، وإنما عليه أن يجيء بها ويعود اليها، كسائر المفروضات المتعينات فى العبادات .

السادسة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعا فالإمام يحمل عنه القراءة؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعا أنه يكبر ويركع ولا يقرأ شيئا، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ وهى المسئلة

السابعة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صلاة السر، فإن فعل فقـد أساء ولا شيء عليه عند مالك، وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهى المسئلة

الثامنة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك، لقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مالى أنازع القرآن" وقوله فى الإمام : "إذا قرأ فأنصتوا" وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة".

وقال الشافعى فيما حكى عنه البويطى، وأحمد بن حنبل: لا تجزئ أحدا صلاة حتى يقرأ بفاتحة الكتاب فى كل ركعة، إماما كان أو مأموما، جهر إمامه أو أسر . وكان الشافعى بالعراق يقول فى المأموم : يقرأ إذا أسر ولا يقرأ إذا جهر ؛ كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر فيما يجهر فيـه الإمام بالقراءة قولان : أحدهمـا أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ ويكتفى بقراءة الإمام . حكاه ابن المنـذر . وقال ابن وهب، وأشهب، وابن عبد الحكم، وابن حبيب، والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئا، جهر إمامه أو أسر؛ لقوله عليه السلام: " فقراءة الامام له قراءة " وهذا عام؛ ولقول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل، إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال : قول الشافعى، وأحمد، ومالك، فى القول الآخر، وأن الفاتحة متعينة فى كل ركعة لكل أحد على العموم لقوله صلى الله عليه وسلم . « لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب » وقوله : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج ثلاثا وقال أبو هريرة : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى أنه : " لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد " أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعـة أخرى ؛ فكذلك لا تنوب قراءة ركعـة عن غيرها؛ وبه قال عبد الله بن عون، وأيوب السختيانى، وأبو ثور، وغيره من أصحاب الشافعى، وداود بن على . وروى مثـله عن الأوزاعى ؛ وبه قال مكحول .

ورُوى عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وأبى هريرة، وأبىّ بن كعب، وأبى أيوب الأنصارى ، وعبد الله بن عمرو بن العاصى ، وعبادة بن الصامت، وأبى سعيد الخدرى، وعثمان بن أبى العاصى ،وخوات بن جبير، أنهم قالوا: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعىّ ؛ فهؤلاء الصحابة بهم القدوة، وفيهم الأسوة، كلهم يوجبون الفاتحة فى كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينىّ فى سننه ما يرفع الخلاف ويزيل كل احتمال، فقال: حدّثنا أبو كريب حدّثنا محمد بن فضيل، وحدّثنا سويد بن سعيد حدّثنا على بن مسهر جميعا عن أبى سفيان[1] السعدىّ عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة الحمد وسورة فى فريضة أو غيرها » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه عليه السلام قال للذى علمه الصلاة : « وافعل ذلك فى صلاتك كلها » وسيأتى . ومن الحجة فى ذلك أيضا : ما رواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال: أبطأ عبادة بن الصامت عن صلاة الصبح ؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصلاة فصلى أبو نعيم بالناس، وأقبل عبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبى نعيم ؛ وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عبادة يقرأ بأمّ القرآن ؛ فلما انصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأمّ القرآن وأبو نعيم يجهر ؛ قال : أجل ! صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصلوات التى يجهر فيها بالقراءة فالتبست عليه ؛ فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال : « وهل تقرءون إذا جهرت بالقراءة » فقال بعض : إنا نصنع ذلك ، قال : « فلا وأنا أقول مالى ينازعنى القرآن فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جهرت إلا بأمّ القرآن » . وهذا نص صريح فى المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذىّ من حديث محمد بن إسحاق بمعناه؛ وقال حديث حسن . والعمل على هذا الحديث فى القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم والتابعين؛ وهو قول مالك بن أنس ،وابن المبارك، والشافعى، وأحمد و إسحاق، يرون القراءة خلف الإمام. وأخرجه أيضا الدارقطنى وقال : هذا إسناد حسن، ورجاله كلهم ثقات ؛ وذكر : أن محمود بن الربيع كان يسكن ايلياء، وأن أبا نعيم أول من أذن فى بيت المقدس . وقال أبو محمد عبد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخارىّ فى تاريخه ولا ابن أبى حاتم ولا أخرج له

(١) اسمه طريف بن شهاب.

البخاري ومسلم شيئا . وقال فيه أبو عمر : مجهول . وذكر الدارقطني عن يزيد بن شريك قال سألت عمر عن القراءة خلف الإمام . فأمرني أن أقرأ، قلت : وإن كنت أنت؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرت . قال الدارقطني : هذا إسناد صحيح . وروى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإمام ضامن فما صنع فاصنعوا" قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسي أن يقرأ بها في نفسه حين قال له : إني أحيانا أكون وراء الإمام، ثم استدل بقوله تعالى[1] : "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين" الحديث .

العاشرة — أمّا ما استدل به الأوّلون بقوله عليه السلام : "وإذا قرأ فأنصتوا" أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري ؛ وقال : وفي حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة "وإذا قرأ فأنصتوا" قال الدارقطني : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمي فيها عن قتادة ؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها، منهم شعبة، وهشام، وسعيد بن أبي عروبة، وهمام، وأبو عوانة، ومعمر، وعدي بن أبي عمارة. قال الدارقطني : فإجماعهم يدل على وَهْمه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمي ؛ ولكن ليس هو بالقوي . تركه القطان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبي هريرة وقال هذه الزيادة " إذا قرأ فأنصتوا " ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صحح حديث أبي هريرة، وقال : هو عندي صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها في كتابه من حديث أبي موسى وإن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وابن المنذر .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾ فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام في الصلاة نزل بالمدينة ، كما قال زيد بن أرقم ، فلاحجة فيها ؛ فإن المقصود كان المشركين ، على ماقال سعيد بن المسيب . وقد روى الدارقطني عن أبي هريرة : أنها نزلت في رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام: "مالي أنازع القرآن" فأخرجه مالك عن ابن شهاب عن ابن أكيمة الليثي ، واسمه فيما قال مالك : عمرو

(١) أي في الحديث القدسي .

وغيره يقول : عامر، وقيل : يزيد، وقيل : عمارة، وقيل : عباد، يكنى أبا الوليد توفي سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وسبعين سنة، لم يرو عنه الزهري إلا هذا الحديث الواحد، وهو ثقة، وروى عنه محمد بن عمرو[1] وغيره ، والمعنى في حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج ، اقرءوا في أنفسكم . يبينه حديث عبادة، وفتيا الفاروق، وأبي هريرة الراوي للحديثين . فلو فهم المنع جملة من قوله : "مالي أنازع القرآن" لما أفتى بخلافه ، وقول الزهري في حديث ابن أكيمة : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يريد بالجهر على ما بينا، وبالله توفيقنا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك، وأبو حنيفة[2] وهو ضعيف؛ كلاهما عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر. أخرجه الدارقطني ، وقال: رواه سفيان الثوري ، وشعبة ، وإسرائيل بن يونس وشريك ، وأبو خالد الدالاني ، وأبو الأحوص ، وسفيان بن عيينة ، وجرير بن عبد الحميد ، وغيرهم عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء امام ؛ فرواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر قوله ، قال ابن عبد البر ورواه يحيى بن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبي نعيم وهب ابن كيسان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وصوابه موقوف على جابر، كما في الموطأ . وفيه من الفقه إبطال الركعة التي لا يقرأ فيها بأم القرآن ؛ وهو يشهد لصحة ما ذهب اليه ابن القاسم ، ورواه عن مالك في إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتد المصلي بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة ؛ وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

الحادية عشرة ــ قال ابن العربي لما قال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " واختلف الناس في هذا الأصل هل يحمل هذا النفي على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟

---

(١) في نسخة : « محمد بن عمر »

(٢) قد ترجمه ابن حجر في التهذيب وابن خلكان في الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا في الحديث ولكن ابن سعد في الطبقات قد وصفه بذلك .

اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر . ولما كان الأشهر فى هـذا الأصل والأقوى أن النفى على العموم؛ كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة فى صلاته بطلت . ثم نظرنا فى تكرارها فى كل ركعة ؛ فمن تأول قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "افعـل ذلك فى صلاتك كلها" لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة ــ ما ذكرناه فى هذا البـاب من الأحاديث والمعـانى فى تعيين الفاتحة؛ يردّ على الكوفيين قولهم : فى أن الفاتحة لا تتعين، وأنها وغيرها من آى القرآن سواء؛وقد عينها النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله، كما ذكرنا، وهو المبيِّن عن الله تعالى مراده فى قوله :﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. وقد روى أبو داود عن أبى سعيد الخدرى قال : أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر . فدل هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابيّ: "اقرأ ما تيسر معك من القرآن" مازاد على الفاتحة، وهو تفسير قوله تعالى : ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ . وقد روى مسلم عن عبادة بن الصامت:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرءان" زاد فى رواية "فصاعدا". وقوله عليه السلام: "هى خداج ثلاثا غير تمام" أى غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخـداج : النقص والفسـاد . قال الاخفش : خدجت الناقة ، اذا ألقت ولدها لغير تمام، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وان كان تام الخلق .

والنظر يوجب فى النقصان ألا تجوز معه الصـلاة؛ لأنهـا صلاة لم تتم؛ ومن خرج من صلاته وهى لم تتم فعليه إعادتها كما أمر، على حسب حكمها . ومن ادعى أنهـا تجوز مع اقراره بنقصها فعليه الدليل، ولا سبيل اليه من وجه يلزم، والله أعلم .

الثالثة عشرة ــ روى عن مالك أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة؛ وكذلك كان الشافعيّ يقول بالعراق فيمن نسيها، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن فاتحة الكتاب إلا بها؛ ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صلاته ، و إن قرأ بغيرها . وهذا هو الصحيح فى المسئلة . وأما ما روى عن عمر رحمه الله أنه صلى المغرب فلم يقرأ فيها، فذُكر ذلك له ؛ فقال : كيف كان الركوع والسجود؟ قالوا : حسن، قال : لا بأس إذًا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمى عن عمر؛ ومرة يرويه إبراهيم عن أبى سـلمة

ابن عبد الرحمن بن عمر، وكلاهما منقطع لا حجة فيه، وقد ذكره مالك فى الموطأ ، وهو عند بعض الرواة ، وليس عند يحيي وطائفة معه ، لأنه رماه مالك من كتابه بأخرة(١) : وقال ليس عليه العمل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج" وقد روى بن عمر أنه أعاد تلك الصلاة، وهو الصحيح عنه . روى يحيي بن يحيي النيسابورى قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعي عن همام بن الحارث : أن عمر نسي القراءة فى المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شهده همام من عمر روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سئل مالك عن الذى نسي القراءة : أيعجبك ما قال عمر؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمر فعله — وأنكر الحديث — وقال: يرى الناس عمر يصنع هذا فى المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة، على ما تقدم من أصولهم فى ذلك، وأجمعوا على أن لا توقيت فى ذلك بعد فاتحة الكتاب ، إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر مما جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال مالك : وسنة القراءة أن يقرأ فى الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة ، وفى الأخريين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعى : يقرأ بأم القرآن فان لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه، وقال: وإن نسي أن يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد . وقال الثورىّ : يقرأ فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ويسبح فى الأخريين إن شاء وإن شاء قرأ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت صلاته، وهو قول أبى حنيفة وسائر الكوفيين . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : اقرأ فى الأوليين، وسبح فى الأخريين، وبه قال النخعىّ . قال سفيان: فان لم يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة . قال : وكذلك إن نسي أن يقرأ فى ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فى كل ركعة، كقول الشافعى المصرى، وعليه جماعة أصحاب الشافعى. وكذلك قال ابن خواز منداذ المالكىّ : قراءة الفاتحة واجبة عندنا فى كل ركعة، وهذا هو الصحيح فى المسألة . روى مسلم عن أبى قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بنا فيقرأ فى الظهر والعصر فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويسمعنا الآية أحيانا، وكان يطول

(١) أى بتأخر وبعد عن الخير .

فى الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك فى الصبح . وفى رواية : ويقرأ فى الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك، ونص فى تعيين الفاتحة فى كل ركعة، خلافا لمن أبى ذلك، والحجة فى السنة، لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور الى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبى هريرة قال : فى كل صلاة قراءة، فما أسمعنا النبيّ صلى الله عليه وسلم أسمعناكم، وما أخفى منا أخفيناه منكم، فمن قرأ بأم القرآن فقد أجزأت عنه، ومن زاد فهو أفضل . وفى البخارىّ : «وإن زدت فهو خير» . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة، منهم عمران بن حصين، وأبو سعيد الخدرى، وخوّات بن جبير، ومجاهد، وأبو وائل، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشىء معها من القرآن ؛ فمنهم من حدّ آيتين، ومنهم من حدّ آية، ومنهم من لم يحدّ، وقال : شىء من القرآن معها ؛ وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عبادة، وأبى سعيد الخدرى، وغيرهما . وفى المدوّنة : وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال : حدّثنى من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشىء معها . واختلف المذهب فى قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة، فضيلة، واجبة .

السادسة عشرة — من تعذر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شىء من القرآن ولا علق منه بشىء، لزمه أن يذكر الله فى موضع القراءة بما أمكنه، من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا صلى وحده، أو مع إمام فيما أسرّ فيه الإمام ؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبى أوفى قال : جاء رجل الى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا، فعلمنى ما يجزئنى منه ؛ قال : قل "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله" ؛ قال : يا رسول الله، هذا لله، فمالى ؟ قال : قل "اللهم ارحمنى وعافنى واهدنى وارزقنى" .

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شىء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده ؛ فالامام يحمل ذلك عنه إن شاء الله ؛ وعليه أبدا أن يجهد نفسه فى تعلم فاتحة الكتاب فما زاد، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله .

الثامنة عشرة — من لم يؤاته لسانه إلى التكلم بالعربيــة من الأعجميين وغيرهم ترجم له الدعاء العربى بلسانه الذى يفقه لاقامة صلاته ؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية فى قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارســية و إن أحسن العربية، لأن المقصود إصابة المعنى . قال ابن المنذر : لا يجزئه ذلك ؛ لأنه خلاف ما أمر الله به ، وخلاف ما علم النبىّ صلّى الله عليه وسلم، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية العشرين — من افتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة ، فطرأ عليه العلم بها فى أثناء الصلاة ، و يتصوّر ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعلقت بحفظه من مجرد السماع فلا يســتأنف الصلاة؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أمر به ، ولا وجه لإبطاله . قاله فى كتاب ابن سحنون .

الباب الثالث

فى التأمين ، وفيه ثمان مسائل

الأولى — ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون ﴿ولا الضالين﴾ آمين، ليتميز ما هو قرآن مما ليس بقرآن .

الثانية — ثبت فى الأمهات من حديث أبى هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمّن الإمام فأمّنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه" قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدمات أربع ، تضمنها هذا الحديث؛ الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين من خلفه ، الثالثة : تأمين الملائكة، الرابعة : موافقــة التأمين؛ قيل : فى الإجابة ، وقيل : فى الزمن، وقيل : فى الصفة ، من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام : " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه " .

الثالثة — روى أبو داود عن أبى مصبح المقرائى قال : كنا نجلس إلى أبى زهير النميرى وكان من الصحابة ، فيحدث أحسن الحديث ، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة ؛ قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك ، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات ليلة ، فأتينا على رجل قد ألح فى المسئلة ، فوقف النبى صلى الله عليه وسلم يسمع منه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "أوجب إن ختم" فقال له رجل من القوم : بأى شىء يختم ؟ قال : "بآمين فانه إن ختم بآمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذى سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتى الرجل فقال له : اختم يافلان وأبشر . قال ابن عبد البر : أبو زهير النميرى اسمه يحيى بن نفير روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : "لا تقتلوا الجراد فانه جند الله الأعظم" وقال وهب بن منبه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف ملكا يقول : اللهم اغفر لكل من قال آمين . وفى الخبر : "لقننى جبريل آمين عند فراغى من فاتحة الكتاب ، وقال : إنه كالخاتم على الكتاب" وفى حديث آخر : "آمين ، خاتم رب العالمين" . قال الهروى : قال أبو بكر : معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم][(1)] الآفات ، والبلايا ؛ فكان كخاتم الكتاب الذى يصونه ، ويمنع من إفساده ، وإظهار ما فيه . وفى حديث آخر : "آمين درجة فى الجنة" ؛ قال أبو بكر : معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهم استجب لنا ، وضع موضع الدعاء . وقال قوم : هو اسم من أسماء الله ، روى عن جعفر بن محمد ، ومجاهد ، وهلال بن يساف ، ورواه ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يصح ؛ قاله ابن العربى . وقيل : معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهرى : وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما معنى آمين ؟ قال : "رب افعل" وقال مقاتل : هو قوة للدعاء ، واستنزال للبركة . وقال الترمذى : معناه لا تخيب رجاءنا .

الخامسة — وفى آمين لغتان : المد على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين . قال الشاعر فى المد :

يارب لا تسلبنى حبها أبدا * ويرحم الله عبدا قال آمينا

وقال آخر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حتى أبلغها ألفين آمينا

---

(1) الزيادة عن اللسان مادة (أمن) .

وقال آخر فى القصر :

تباعد منى فطحل إذ سألته ، أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

وتشديد الميم خطأ؛ قاله الجوهرى . وقد روى عن الحسن، وجعفر الصادق ، التشديد؛ وهو قول الحسين بن الفضل؛ من أمّ إذا قصد أى نحن قاصدون نحوك؛ ومنه قوله : ﴿ وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى .

قال الجوهرى : وهو مبنى على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمّن فلان تأمينا .

السادسة ــ واختلف العلماء : هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؟ فذهب الشافعى ومالك فى رواية المدنيين إلى ذلك . وقال الكوفيون وبعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبرى ؛ وبه قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو مخير . وروى ابن القاسم عن مالك : أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك من خلفه ؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك؛ وحجتهم: حديث أبى موسى الأشعرى،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا فقال : «إذا صليتم فأقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبر فكبروا، وإذا قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فقولوا آمين يجبكم الله » وذكر الحديث، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَيّ عن أبى هريرة ؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأول لحديث وائل بن حجر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ : ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ . قال : « آمين» يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدار قطنى .

قال أبو بكر : هذه سنة تفرد بها أهل الكوفة ــ هذا صحيح ــ والذى بعده؛ ترجم له البخارى باب جهر الإمام بالتأمين .

وقال عطاء : آمين دعاء؛ أمّن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للمسجد للجة . قال الترمذى : وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، ومن بعدهم، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لايخفيها . وبه يقول الشافعى، وأحمد، وإسحاق . وفى الموطأ، والصحيحين،قال ابن شهاب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « آمين » . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال : ترك الناس آمين؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأوّل فيرتج بها المسجد . وأما حديث أبي موسى وسُمَيّ فمعناهما التعريف بالموضع الذى يقال فيــه آمين ؛ وهو إذا قال الإمام : ﴿ ولا الضالين ﴾ — ليكون قولهما معا ولا يتقدموه بقول: آمين، لمــا ذكرناه، والله أعلم . ولقوله عليه السلام: « إذا أمّن الإمام فأمنوا » وقال ابن نافع فى كتاب ابن الحارث : لا يقولهــا المأموم إلا أن يسمع الإمام يقول: ﴿ ولا الضالين ﴾ . وإذا كان ببعد لا يسمعه فلا يقل .

وقال ابن عبدوس : يتحرى قدر القراءة ويقول : آمين .

السابعة — قال أصحاب أبي حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بهــا لأنه دعاء، وقد قال الله تعالى : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَــةً ﴾ . قالوا : والدليل عليه ما روى فى تأويل قوله تعالى : ﴿ قَــدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمن؛ فسماهما الله داعين .

والجواب : أنّ إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لمــا يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شعار ظاهر، وإظهار حق يندب العباد إلى إظهاره . وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء، والتأمين فى آخرها ؛ فإذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجار مجراه وهذا بين .

الثامنة — كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السـلام . ذكر الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) : حدّثنا عبد الوارث بن عبـد الصمد قال حدّثنا أبى قال حدّثنا رزين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى أمتى ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام، وهو تحية أهل الجنة، وصفوف الملائكة، وآمين إلا ما كان من موسى وهارون" قال أبو عبدالله: معناه أن موسى دعا على فرعون، وأمن هارون، فقال الله تبارك اسمه عند ما ذكر دعاء موسى فى تنزيله : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ ولم يذكر مقالة هارون؛ وقال موسى ربنا، فكان من هارون التأمين، فسماه داعيا فى تنزيله، إذ صير ذلك منه دعوة . وقد قيل: إن آمين خاص لهذه الأمة، لمــا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على السلام والتأمين" أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن عائشة أن النبى صلى الله عليــه وسلم قال الحديث . وأخرج أيضا من حديث ابن

عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين ، فأكثروا من قول آمين " . قال علماؤنا[1] رحمة الله عليهم : إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمد الله وثناء عليه ثم خضوع له واستكانة، ثم دعاء لنا بالهداية والصراط المستقيم، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين .

الباب الرابع

فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ست وثلاثون مسئلة

الأولى ــ قوله سبحانه وتعالى : ﴿الحمد لله﴾ . روى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمد لى " وروى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها " وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ " . وفى (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك قال أبو عبد الله : معناه عندنا أنه قد أُعطى الدنيا، ثم أُعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية ، والكلمة باقية، من الباقيات الصالحات . وقال : هو «خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا» . وقيل فى بعض الروايات : لكان ما أعطى أكثر مما أخذ . فضمير الكلمة أعطى من العبد والدنيا أخذ من الله فهذا فى التذكير، كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله، وكلاهما من الله ؛ فى الأصل الدنيا منه ، والكلمة منه ، أعطاه

---

(١) هذا حل متهم لحديث على الفاتحة مع آمين فى آخرها .

الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشرفه بها في الآخرة . وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم : "أن عبدا من عباد الله قال: يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فَعَضَّلَتْ بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا الى السماء فقالا يا ربنا إن عبدنا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال الله ــ وهو أعلم بما قال عبده ــ ماذا قال عبدى، فقالا يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها" .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر : اشتد واستغلق ؛ والمعضلات بتشديد الضاد ، الشدائد . وعضلت المرأة والشاة، إذا نشب ولدها فلم يسهل مخرجه ؛ بتشديد الضاد أيضا ؛ فعلى هذا يكون: أعضلت الملكين أو عضلت الملكين بغير باء . والله أعلم . وروى عن مسلم عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانية ــ اختلف العلماء : أيما أفضل ؛ قول العبد: الحمد لله رب العالمين ، أو قول: لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل؛ لأن فى ضمنه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ؛ ففى قوله توحيد وحمد ؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك، وعليها يقاتل الخلق ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" واختار هذا القول ابن عطية؛ قال : والحاكم بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبل لا إله إلا الله وحده لا شريك له" .

الثالثة ــ أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه ؛ وأن مما أنعم الله به الإيمان؛ فدل على أن الإيمان فعله وخلقه ؛ والدليل على ذلك قوله : ﴿ رب العالمين ﴾ . والعالمون جملة المخلوقات ؛ ومن جملتها الإيمان . لا كما قال القَدَرِيَّةُ : إنه خَلْقٌ لهم على ما يأتى بيانه .

الرابعة — الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل؛ والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا؛ وقد جمع لفظ الحمد جمع القلة فى قول الشاعر :

وأبلج محمود الثناء خصصته * بأفضل أقوالى وأفضل أحمُدى

فالحمد : نقيض الذم ؛ تقول : حمدت الرجل أحمده حمدا فهو حميد ومحمود ؛ والتحميد أبلغ من الحمد : والحمد أعم من الشكر، والمحمد : الذى كثرت خصاله المحمودة . قال الشاعر :

* إلى الماجد القرم الجواد المحمد *

وبذلك سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الشاعر :

فشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

والمحمدة : خلاف المذمة ؛ وأحمد الرجل : صار أمره الى الحمد ؛ وأحمدته : وجدته محمودا؛ تقول : أتيت موضع كذا فأحمدته؛ أى صادفته محمودا موافقا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه؛ ورجل حُمَدَةٌ — مثل همزة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها . وحَمَدَةُ النار — بالتحريك — : صوت التهابها .

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء . وليس بمرضى . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمى فى كتاب " الحقائق " له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء : معناه الشكر لله إذا كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه ، واستدل الطبرى على أنهما بمعنى بصحة قولك : الحمد لله شكرا . قال ابن عطية : وهو فى الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه ؛ لأن قولك شكرا ؛ إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم . وقال بعض العلماء : إن الشكر أعم من الحمد ، لأنه باللسان و بالجوارح والقلب ؛ والحمد إنما يكون باللسان خاصة . وقيل : الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح ؛ وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد . وروى عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمة كل شاكر ، وإن آدم عليه السلام قال حين عطس : الحمد لله . وقال الله لنوح عليه السلام :

﴿ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّانَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾. وقال فى قصة داود وسليمان : ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ . وقال أهل الجنة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ . ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ . فهى كلمة كل شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان . وعلى هذا الحد قال علماؤنا (١) : الحمد أعم من الشكر ، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد ، وعلى الشكر ، والجزاء مخصوص ، إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا ، فصار الحمد أعم فى الآية ، لأنه يزيد على الشكر . ويذكر الحمد بمعنى الرضا ؛ يقال : بلوته فحمدته ، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ وقال عليه السلام : "أحمد إليكم غسل الإحليل" أى أرضاه لكم .

ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله : ﴿ الحمد لله ﴾ من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد ؛ لأن الحمد حاء وميم ودال ؛ فالحاء من الوحدانية ، والميم من الملك ، والدال من الديمومية ؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه ، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن ابراهيم فى تفسير ﴿ الحمد لله ﴾ قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث مادامت قوته فى جسدك ألّا تعصيه ؛ فهذه شرائط الحمد .

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه ، وافتتح كتابه بحمده ، ولم يأذن فى ذلك لغيره ؛ بل نهاهم عن ذلك فى كتابه ، وعلى لسان نبيه عليه السلام ، فقال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ وقال عليه السلام : "احثوا فى وجوه المداحين التراب" رواه المقداد وسيأتى القول فيه فى النساء ان شاء الله تعالى .

فمعنى الحمد لله رب العالمين : أى سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدنى أحد من العالمين ، وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة ، وحمد الخلق مشوب بالعلل . قال علماؤنا : فيستقبح من المخلوق الذى لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار . وقيل : لما

(١) عقب ذلك ابن عطية فى تفسيره بقوله فالحامد من الناس قسمان الشاكر والمثنى بالصفات وبه يصح كلام المؤلف .

علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل؛ فاستفراغ طوق عباده، هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أحصي ثناء عليك" وأنشدوا:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح * فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المنة.

✓ السابعة ــ وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من ﴿ الحمد لله ﴾. وروى عن سفيان بن عيينة، ورؤبة بن العجاج. الحمدَ لله؛ بنصب الدال وهذا على إضمار فعل. ويقال: الحمد لله بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمدا؛ إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله؛ والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه. إنما يتكلم بهذا تعرضا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفي الحديث: "من شغل بذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين". وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه، وثناءه عليها، ليعلم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري: الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال: قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجيء قولوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه؛ كما قال الشاعر:

وأعلم أنني سأكون رمسا * إذا سار النواعج لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لهم وزير

المعنى المحفور له وزير فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير. وروى عن ابن أبي عبلة[(١)] الحمدُ لُله، بضم الدال واللام على اتباع الثاني الأول، وليتجانس اللفظ، وطلب التجانس في اللفظ كثير في كلامهم، نحو أخوك وهو منحدر من الجبل، بضم الدال والجيم[(٢)]. قال:

* اضرب الساقينُ أُمك هابل *

(١) اسمه ابراهيم. (٢) لعله اتباعا للميم.

بضم النون لأجل ضم الهمزة . وفي قراءة لأهل مكة "مردفين" بضم الراء اتباعا للميم ، وعلى ذلك «مقتلين» بضم القاف . وقالوا : لأمك فكسروا الهمزة اتباعا للام؛ وأنشد النعمان بن بشير :

ويل أمها في هـواء الجو طالبـة ، ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب

الأصل : ويل لأمها؛ فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم اتبع اللام الميم . وروى عن الحسن بن أبي الحسن، وزيد بن علي : الحمد لله ؛ بكسر الدال على اتباع الأول الثاني .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . أي مالكهم وكل من ملك شيئا فهو ربه؛ فالرب: المالك . وفي الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة؛ وقد قالوه في الجاهلية للملك، قال الحارث بن حلزة :

وهو الرب والشهيد على يو م الحيارين والبلاء بلاء

والرب : السيد؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾. وفي الحديث: "أن تلد الأمة ربتها" أي سيدتها؛ وقد بيناه في كتاب (التذكرة) . والرب: المصلح، والمدبر، والجابر، والقائم . قال الهروي وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه، قد ربه يربه فهو رب له وراب؛ ومنه سمي الربانيون لقيامهم بالكتب . وفي الحديث : "هل لك من نعمة تربها عليه" أي تقوم بها وتصلحها . والرب: المعبود؛ ومنه قول الشاعر :

أرب يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه ، لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ويقال على التكثير: رباه وربيه وربته؛ حكاه النحاس . وفي الصحاح : ورب فلان ولده يربه ربا وربيه وتربيه بمعنى؛ أي رباه . والمربوب : المربَّى .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم ، لكثرة دعوة الداعين به ، وتأمل ذلك في القرآن، كما في آخر آل عمران، وسورة ابراهيم، وغيرهما ؛ ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال . واختلف في اشتقاقه، فقيل : إنه مشتق من التربية؛ فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه، ومربيهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل ؛ وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد ، يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على رب ، اختص الله تعالى به لأنها للعهد ؛ وإن حذفتا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده ، فيقال : الله رب العباد ، وزيد رب الدار ؛ فالله سبحانه رب الأرباب ؛ يملك المالك والمملوك ، وهو خالق ذلك ورازقه ، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق ، وكل مملوك فمملك بعد أن لم يكن ، ومنتزع ذلك من يده ، وإنما يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعاني ، فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ . اختلف أهل التأويل في العالمين اختلافا كثيرا ؛ فقال قتادة : العالمون جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالم ؛ قاله الحسين بن الفضل لقوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي من الناس . وقال العجاج :

* فَخِنْدِفٌ هامة هذا العالم *

وقال جرير بن الخَطَفَى :

تنصفه البرية وهو سام * ويضحي العالمون له عيالا

وقال ابن عباس : العالمون الجن والإنس ؛ دليله قوله تعالى ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفراء ، وأبو عبيدة : العالم ، عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس ، والجن ، والملائكة ، والشياطين . ولا يقال للبهائم عالم لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة . قال الأعشى :

* ما إن سمعت بمثلهم في العالمينا *

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء : هم الروحانيون ، وهو معنى قول ابن عباس أيضا : كل ذي روح دب على وجه الأرض . وقال وهب بن منبه : إن الله عز وجل ثمانية عشر ألف عالم ؛ الدنيا عالم منها . وقال أبو سعيد الخدري : إن لله أربعين ألف عالم ؛

الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد . وقال مقاتل : العالمون ثمانون ألف عالم؛ أربعون الف عالم فى البر، وأربعـون ألف عالم فى البحر . وروى الربيع بن أنس عن أبى العالية قال : الجن عالم، والإنس عالم؛ وسوى ذلك للأرض أربع زوايا فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالم، خلقهم لعبادته .

قلت والقول الأوّل أصح هـذه الأقوال ؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ثم هو مأخوذ من العَلَم والعلامة، لأنه يدل على موجده كذا قال الزجاج قال: العالم كل ما خلقه الله فى الدنيا والآخرة . وقال الخليل: العلم، والعلامة، والمعلم: ما دل على الشيء؛ فالعالم دال على أن له خالقا ومدبرا، وهذا واضح . وقد ذكر أن رجلا قال بين يدى الجنيد : الحمد لله؛ فقال له : أتمها كما قال الله؛ قل: رب العالمين؛ فقال الرجل : ومن العالمين حتى تذكر مع الحق ؟ قال قل يا أخى، فإن المحدث إذا قرن مع القـديم لا يبقى له أثر.

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب فى رب؛ والنصب على المدح، والرفع على القطع؛ أى هو رب العالمين .

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين، بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لمـا كان فى اتصافه برب العالمين ترهيب، قرنه بالرحمن الرحيم، لمـا تضمن من الترغيب ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع؛ كما قال: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ . وقال: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عنـد الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد" وقد تقدّم ما فى هذين الاسمين من المعانى، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . قرأ محمـد بن السميقع : بنصب مالك ؛ وفيه أربع لغات : مَالِكُ ومَلِك ومَلْك — مخففة من مَلِك — ومَليك؛ وقال الشاعر[1] :

وأيام لنـا غر طـوال * عصينا الملك فيها أن ندينا

(١) هو عمرو بن كلثوم .

وقال آخــر[1] :

فاقنع بمـا قسم المليك فإنما * قسم الخلائق بيننا علامها

الخـلائق : الطبائع التي جبل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة في ملك ، فيقرأ ملكى على لغــة من يشبع الحركات ، وهي لغة للعرب ذكرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة ـ اختلف العلماء أيما أبلغ : ملك أو مالك ؟ والقراءتان مرويّتان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر ، ذكرهما الترمذى ؛ فقيل : ملك أعم وأبلغ من مالك ؛ إذ كل ملك مالك ، وليس كل مالك ملكا ، ولأن أمر الملك نافذ على المـالك في ملكه ، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيــل : مالك أبلغ ؛ لأنه يكون مالكا للنـاس وغيرهم ؛ فالمـالك أبلغ تصرفا وأعظم ، إذ اليه إجراء قوانين الشرع ، ثم عنده زيادة التملك .

وقال أبو على حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من آختار القراءة بملك : أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله : ﴿ رب العالمين ﴾ فلا فائدة في قراءة من قرأ مالك لأنها تكرار . قال أبو على : ولا حجة في هذا لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة ، تقدّم العام ثم ذكر الخاص كقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ فالخالق يعم ، وذكر المصور ، لمـا فيه من التنبيه على الصنعة ، ووجود الحكمة ، وكما قال تعالى : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بعد قوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ والغيب يعم الآخرة وغيرها ، ولكن ذكرها لعظمها ، والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والرد على الكفرة الجاحدين لها ؛ وكما قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فذكر الرحمن الذى هو عام وذكر الرحيم بعده ، لتخصيص المؤمنين به في قوله : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ . وقال أبو حاتم : إن مالكا أبلغ في مدح الخـالق من ملك ، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك ، والفرق بينهما أن المـالك من المخلوقين قـد يكون غير ملك وإذا كان الله تعـالى مالكا كان ملكا ، واختار هذا القول القاضى أبو بكر بن العربي ؛ وذكر ثلاثة أوجه ؛ الأول : أنك تضيفه إلى الخاص والعام فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ، كما تقول : مالك الملوك . الثانى : أنه يطلق على مالك القليل والكثير ؛ وإذا تأملت هـذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلك ؛ ولا تقول : ملك المُلك . قال ابن الحصار : إنـما كان

---

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرىّ .

ذلك، لأن المراد من مالك الدلالة على الملك بكسر الميم وهو لا يتضمن الملك بضم الميم، وملك يتضمن الأمرين جميعا، فهو أولى بالمبالغة، ويتضمن أيضا الكمال، ولذلك استحق الملك على من دونه؛ ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، ولهذا قال عليه السلام: "الإمامة فى قريش" وقريش أفضل قبائل العرب، والعرب أفضل من العجم وأشرف؛ ويتضمن الاقتدار، والاختيار، وذلك أمر ضرورى فى الملك إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره، قهره عدوه، وغلبه غيره، وازدرته رعيته؛ ويتضمن البطش والأمر والنهى والوعد والوعيد؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إلى غير ذلك من الأمور العجيبة، والمعانى الشريفة، التى لا توجد فى المالك.

قلت: وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك. قلت: هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى، وقد ثبتت القراءة بملك، وفيه من المعنى ما ليس فى مالك، على ما بينا والله أعلم.

السادسة عشرة — لا يجوز أن يتسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى؛ روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟" وعنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم: "إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك" زاد مسلم: «لا مالك إلا الله عز وجل» قال سفيان: مثل: شاهان شاه. وقال أحمد بن حنبل: سألت أبا عمرو الشيبانى عن أخنع؛ فقال: أوضع. وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه". قال ابن الحصار: وكذلك ملك يوم الدين، ومالك الملك؛ لا ينبغى أن يختلف فى أن هذا محرم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء، وأما الوصف بمالك وملك وهى:

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومهما؛ قال الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾. وقال صلى الله عليه وسلم: "ناس من أمتى عرضوا علىّ غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة".

الثامنة عشرة ــ إن قال قائل : كيف قال « مالك يوم الدين» ويوم الدين لم يوجد بعد ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا، كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاج بيت الله في العام المقبل، تأويله سيحج في العام المقبل؛ أفلا ترى أن الفعل قد ينسب إليه وهو لم يفعله بعد، وإنما أريد به الاستقبال ؛ فكذلك قوله عز وجل : ﴿مالك يوم الدين﴾ على تأويل الاستقبال، أى سيملك يوم الدين أو في يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المالك راجعا إلى القدرة ؛ أى أنه قادر في يوم الدين، أو على يوم الدين وأحداثه، لأن المالك للشيء هو المتصرف في الشيء والقادر عليه ؛ والله عز وجل مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيء .

والوجه الأول أمس بالعربية وأنفذ في طريقها؛ قاله أبو القاسم الزجاجى .

ووجه ثالث : فيقال لم خصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا منازعين في الملك، مثل : فرعون، ونمروذ، وغيرهما، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه، وكلهم خضعوا له، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فأجاب جميع الخلق: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فلذلك قال: مالك يوم الدين؛ أى في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مجاز غيره؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة ــ إنْ وُصف الله سبحانه بأنه ملك كان ذلك من صفات ذاته ، وإنْ وُصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين ــ اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر الى وقت غروب الشمس ، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما، وقد يطلق اليوم على الساعة منه؛ قال الله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وجمع يوم أيام؛ وأصله أيوام فأدغم؛ وربما عبروا عن الشدة باليوم، يقال : يوم أيوم، كما يقال : ليلة ليلاء . قال الراجز[1] :

* نعم أخو الهيجاء في اليوم اليَمِى *

(١) هو أبو الأخزر الحمانى كما في اللسان مادة «يوم» .

وهو مقلوب منه؛ أخر الواو وقدم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طرفا؛ كما قالوا : أدل فى جمع دلو .[1]

الحادية والعشرون — الدين : الجزاء على الأعمال والحساب بها؛ كذلك قال ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وقتادة، وغيرهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ . أى حسابهم . وقال : ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ و﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . وقال : ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ . أى مجزيون محاسبون . وقال لبيد :

حصادك يوما ما زرعت وإنما * يدان الفتى يوما كما هو دائن

آخر :

إذا ما رمونا رميناهم * ودناهم مثل ما يقرضونا

آخر :

واعلم يقينا أن ملكك زائل * واعلم بأن كما تدين تدان[2]

وحكى أهل اللغة : دنته بفعله دينا بفتح الدال ودينا بكسرها جزيته؛ ومنه الديان فى صفة الرب تعالى أى المجازى؛ وفى الحديث : "الكيس من دان نفسه" أى حاسب؛ وقيل : القضاء . روى عن ابن عباس أيضا، ومنه قول طرفة :

لعمرك ما كانت حكومة معبد * على جدها حربا لدينك من مضر

ومعانى هذه الثلاثة متقاربة . والدين أيضا : الطاعة؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غر طوال * عصينا الملك فيها أن ندينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى

---

(١) وهو آى ألجمع .

(٢) فى اللسان مادة (دين) : « قال خويلد بن نوفل الكلابى ، للحارث بن أبى شمر الغسانى وكان قد اغتصبه ابنته :

ياحار أيقن أن ملكك زائل * ... ... الخ

الثانية والعشرون ـ قال ثعلب : دان الرجل إذا أطاع ؛ ودان إذا عصى ، ودان إذا عز ، ودان إذا ذل ، ودان إذا قهر، فهو من الأضداد . ويطلق الدين على العادة والشأن ، كما قال :

* كدينك من أم الحويرث قبلها *

وقال المثقب :

تقول إذا درأت لها وضيني * أهـذا دينه أبدا وديني

والدين : سيرة الملك . قال زهير .

لئن حللت بجو في بني أسـد * في دين عمرو وحالت بيننا فدك

أراد في موضع طاعة عمرو ، والدين : الداء، عن اللحياني وأنشد .

* يادين قلبك من سلمى وقد دينا *

الثالثة والعشرون ـ قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . رجع من الغيبة الى الخطاب على التلوين؛ لأن من أول السورة إلى هاهنا خبرا عن الله تعالى وثناء عليه كقوله :﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾. ثم قال : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾. وعكسه: ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ على ما يأتي . و« نعبد » : معناه نطيع؛ والعبادة: الطاعة والتذلل، وطريق معبد، إذا كان مذللا للسالكين؛ قاله الهروي . ونطق المكلف به إقرار بالربوبية، وتحقيق لعبادة الله تعالى ؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . أي نطلب العون والتأييد والتوفيق .

قال السلمي في حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغاني يقول : من أقر بإياك نعبد وإياك نستعين، فقد برئ من الجبر والقدر .

الرابعة والعشرون ـ إن قيل : لم قدم المفعول على الفعل؟ قيل له : قدم اهتماما؛ وشأن العرب تقـديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سب آخر فاعرض المسبوب عنه ، فقال له الساب : إياك أعني فقال له الآخر : وعنك أعرض ، فقدما الأهم ؛ وأيضا لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيقدم الفعل على كناية المفعول، وانما يتبع لفظ القرآن . وقال العجاج :

إياك أدعـو فتقبـل ملقي * واغفر خطاياي وكثر ورقي

د يروى ويمر . وأما قول الشاعر :

* اليك حتى بلغت إياكا *

فشاذ لا يقاس عليه . والورق بكسر الراء من الدراهم وبفتحها : المال، وكرر الاسم لئلا يتوهم إياك نعبد ونستعين غيرك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القراء والعلماء على شد الياء من إياك فى الموضعين؛ وقرأ عمرو ابن واقد : إياك بكسر الهمزة وتخفيف الياء وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها، وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير شمسك نعبد أو ضوءك؛ وإياة الشمس بكسر الهمزة : ضوءها وقد تفتح . وقال[1] :

سقته إياةُ الشمس إلا لثاته * أُسِفَّ فلم تَكْدِمْ عليه بإثمد

فان أسقطت الهاء مددت . ويقال : الإياة للشمس، كالهالة للقمر، وهى الدارة حولها . وقرأ الفضل الرقاشي : أياك بفتح الهمزة وهى لغة مشهورة، وقرأ أبو السوّار الغنوى : هياك فى الموضعين وهى لغة، قال :

فَهِيَّاكَ والأمرَ الذى إن توسعت * موارده ضاقت عليك مصادره

السادسة والعشرون — ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عطف جملة على جملة؛ وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش: نستعين بكسر النون، وهى لغة تميم، وأسد، وقيس، وربيعة، ليدل على أنه من استعان، فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل . وأصل نستعين نستعون، قلبت حركة الواو إلى العين، فصارت ياء، والمصدر استعانة؛ والأصل استعوان؛ قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفا ولا يلتقى ساكنان فحذفت الألف الثانية، لأنها زائدة، وقيل الأولى، لأن الثانية للمعنى، ولزمت الهاء عوضا .

السابعة والعشرون — قوله تعالى: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ﴾. اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب ؛ والمعنى دلنا على الصراط المستقيم، وأرشدنا اليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك . قال بعض العلماء : فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجملته موضوعا فى هذه السورة، نصفها فيه مجمع الثناء، ونصفها فيه مجمع الحاجات، وجعل هذا الدعاء الذى فى هذه السورة أفضل من

(١) قائله طرفة بن العبد .

الذى يدعو به [الداعى] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين؛ فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به؛ وفى الحديث : "ليس شىء أكرم على الله من الدعاء" وقيل المعنى أرشدنا باستعمال السنن فى أداء فرائضك؛ وقيل الأصل فيه الإمالة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ . أى ملنا؛ وخرج عليه السلام فى مرضه يتهادى بين آثنين: أى يتمايل؛ ومنه الهدية لأنها تمال[1] من ملك إلى ملك . ومنه الهدى للحيوان الذى يساق إلى الحرم؛ فالمعنى مل بقلوبنا الى الحق . وقال الفضيل بن عياض : الصراط المستقيم طريق الحج وهـذا خاص، والعموم أولى ؛ قال محمد بن الحنفية فى قوله عز وجل : إهدنا الصراط المستقيم : هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحول عن أبى العالية : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحباه من بعده؛ قال عاصم : فقلت للحسن : إن أبا العالية يقول : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ، قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون ـــ أصل الصراط فى كلام العرب : الطريق؛ قال عامر بن الطفيل :

شحنّا أرضهم بالخيـل حتى * تركناهم أذل من الصراط

وقال جرير :

أمير المؤمنـين على صراط * إذا آعوجّ الموارد مستقيم

وقال آخـــر :

* فصدّ عن نهج الصراط الواضح *

وحكى النقاش : الصراط : الطريق بلغة الروم؛ قال ابن عطية : وهذا ضعيف جدًّا، وقرئ : السراط بالسين من الاسـتراط بمعنى الابتلاع ؛ كأن الطريق يسترط من يسلكه . وقرئ بين الزاى والصاد؛ وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل؛ وحكى سلمة[2] عن الفرّاء قال: الزراط بإخلاص الزاى: لغة لعذرة، وكلب، وبنى القين قال: وهؤلاء يقولون [فى أصدق] : أزدق . وقد قالوا: الأزد فى الأسد والأُزد [فى الأُسد]، ولزق به فى لصق به . والصراط نصب على المفعول الثانى لأن الفعل من الهداية يتعدّى إلى المفعول الثانى بحرف جر؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾. و بغير حرف كما

(١) فى نسخة : «تهادى» . (٢) فى نسخة : «مسلمة» .

فى هذه الآية . المستقيم صفة للصراط، وهو الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ومنه قوله تعالى : ﴿وأنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ . وأصله مستقوم، نقلت الحركة إلى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

التـاسعة والعشرون — ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ . صراط بدل من الأول بدل الشىء من الشىء، كقولك : جاءنى زيد أبوك ؛ ومعناه[1] : أدم هـدايتنا، فإن الإنسان قد يهدى إلى الطريق ثم يقطع به، وقيل : هو صراط آخر ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه ؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن الذين فى الرفع والنصب والجر، وهذيل تقول: اللذون فى الرفع، ومن العرب من يقول: اللذون، ومنهم من يقول : الذى[2] وسيأتى .

وفى عليهم عشر لغات : قرئ بعامتها عليهُمْ بضم الهاء وإسكان الميم، وعليهِمْ بكسر الهاء وإسكان الميم ، وعليهِمِى بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة، وعليهِمُو بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة، وعليهُمُو بضم الهاء والميم كلتيهما وإدخال واو بعد الميم ، وعليهُمُ بضم الهاء والميم من غير زيادة واو ؛ وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القراء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب، غير محكية عن القراء : عليهُمِى بضم الهـاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم، حكاها الحسن[3] البصرى عن العرب، وعليهُمِ بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء، وعليهِمُ بكسر الهـاء وضم الميم من غير إلحاق واو، وعليهِمِ بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم ؛ وكلها صواب قاله ابن الأنبارى .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب، وابن الزبير رضى الله عنهما صراط من أنعمت عليهم، واختلف الناس فى المنعم عليهم ؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ؛ وانتزعوا ذلك من قوله تعـالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ . فالآية تقتضى أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب فى آية الحمد ؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — فى هذه الآية ردّ على القدرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه ؛ طاعة كانت أو معصية ؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله ، فهو غير

(١) أى قوله تعالى اهدنا وما بعده . (٢) أى افرادا وجمعا فى الرفع والنصب والجر كما يؤخذ من لسان العرب .
(٣) فى نسخة : « الأخفش البصرى » .

محتاج فى صدورها عنه إلى ربه، وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية، إذ سألوه الهداية الى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر اليهم، والاختيار بيدهم دون ربهم، لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم اليه فى دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ﴾؛ فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألّا يضلهم، وكذلك يدعون فيقولون : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ الآية .

الثانية والثلاثون ــ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ﴾ . اختلف فى المغضوب عليهم والضالين، من هم ؟ فالجمهور . أن المغضوب عليهم : اليهود، والضالين : النصارى ؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث عدىّ بن حاتم، وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، والترمذى فى جامعه، وشهد لهذا التفسير أيضا قوله سبحانه فى اليهود : ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقال : ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. وقال فى النصارى : ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ . وقيل : المغضوب عليهم، المشركون . والضالين، المنافقون . وقيل : المغضوب عليهم، هو من أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة؛ والضالين عن بركة قراءتها ، حكاه السلمىّ فى حقائقه، والماوردىّ فى تفسيره ــ وليس بشىء ــ قال الماوردى : وهذا وجه مردود، لأن ما تعارضت فيه الأخبار ، وتقابلت فيه الآثار، وانتشر فيه الخلاف، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : المغضوب عليهم باتباع البدع ، والضالين عن سنن الهدى . قال الشيخ المؤلف رحمه الله : وهذا حسن؛ وتفسير النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأعلى وأحسن. وعليهم فى موضع رفع، لأن المعنى غضب عليهم؛ والغضب فى اللغة: الشدة؛ ورجل غضوب أى شديد الخلق. والغضوب: الحيّة الخبيثة، لشدّتها والغضبة: الدرقة من جلد البعير يطوى بعضها على بعض؛ سميت بذلك لشدّتها. ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة ، فهو صفة ذاته ، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته؛ أو نفس العقوبة ومنه الحديث : "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب" فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون ــ ﴿وَلَا ٱلضَّالِّينَ﴾ الضلال فى كلام العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق ، ومنه : ضل اللبن فى الماء أى غاب . ومنه : ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. أى غبنا بالموت وصرنا ترابا؛ قال :

ألم تسأل فتخبرك الديار * عن الحىّ المضلل أين ساروا

والضلضلة : حجر أملس يردّده الماء فى الوادى ؛ وكذلك الغضبة : صخرة فى الجبل مخالفة لونه ، قال :

* وغضبة فى هضبة ما أمنعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب ، وأبىّ بن كعب ﴿غير المغضوب عليهم وغير الضالين﴾ وروى عنهما فى الراء النصب والخفض فى الحرفين ؛ فالخفض على البدل من الذين أو من الهاء والميم فى عليهم ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف ، إلا أنّ الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إنى لأمُرّ بمثلك فأكرمه ؛ أو لأن غير تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما ، كما تقول : الحىّ غير الميت ، والساكن غير المتحرك ، والقائم غير القاعد ، قولان : الأوّل للفارسىّ ، والثانى للزمخشرىّ . والنصب فى الراء على وجهين : على الحال من الذين ، أو من الهاء والميم فى عليهم ، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم أو على الاستثناء ؛ كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى وحكى عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — لا ، فى قوله ﴿ولا الضالين﴾ اختلف فيها ، فقيل هى زائدة قاله الطبرىّ . ومنه قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ وقيل : هى تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين ، حكاه مكىّ ، والمهدوىّ . وقال الكوفيون : لا ، بمعنى غير وهى قراءة عمر وأبىّ وقد تقدّم .

السادسة والثلاثون — الأصل فى الضالين : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام فى اللام فاجتمع ساكنان مدّة الألف واللام المدغمة . وقرأ أيوب السختيانىّ : ولا الضألين بهمزة غير ممدودة كأنه فرّ من التقاء الساكنين وهى لغة . حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عبيد يقرأ : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَأْنٌّ﴾ . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبّة وشأبّة ؛ قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثَيِّر :

* إذا ما الغوالى بالعبيط احمأرّت *

تمّ تفسير سورة الحمد ، ولله الحمد والمنة .

تفسير سورة البقرة

بحول الله، وكرمه لاربّ سواه .

وأول مبدوء به، الكلام فى نزولها، وفضلها، وما جاء فيها؛ وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك؛ فنقول :

سورة البقرة مدنية،نزلت فى مدد شتّى؛ وقيل: هى أول سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فإنه آخر آية نزلت من السماء؛ ونزلت يوم النحر فى حجة الوداع بمنى؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم؛ ويقال لها: فسطاط القرآن؛ قاله خالد بن مَعْدَان؛ وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها؛ وتعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى اثنتى عشرة سنة، وابنه عبد الله فى ثمانى سنين كما تقدم .

قال ابن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألف أمر، وألف نهى، وألف حكم، وألف خبر؛ وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثهم سنا، لحفظه سورة البقرة؛ وقال له: "اذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة، وصححه. وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة " قال معاوية : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر(١) من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة" وروى الدارمى عن عبد الله قال : ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال : إن لكل شىء سناما، وإن سنام القرآن سورة البقرة ؛ وإن لكل شىء لُبابا وإن لباب القرآن المفصّل ؛ قال أبو محمد الدارمى : اللُّباب : الخالص. وفى صحيح البستى عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لكل شىء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها فى بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث

(١) فى رواية : «يفر» .

ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام ". قال أبو حاتم البستي : قوله صلى الله عليه وسلم : "لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" أراد : مردة الشياطين . وروى الدارمي في مسنده عن الشعبي قال : قال عبد الله : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح ؛ أربعا من أولها وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها ، أولها : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ . وعن الشعبي عنه لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرأن على مجنون إلا أفاق . وقال : المغيرة بن سبيع : — وكان من أصحاب عبد الله — لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قد حفظ . قال أبو محمد الدارمي : منهم من يقول : المغيرة بن سميع .

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لبيد بن ربيعة [بن عامر][1] بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ؛ أدرك الإسلام فحسن إسلامه وترك قول الشعر في الإسلام ، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشده ؛ فقرأ : سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال : ما كنت لأقول بيتا من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران ؛ فأعجب عمر قوله ؛ وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل في الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي * حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقردة بن نفاثة السلولي ، وهو أصح عندي ، وقال غيره : بل البيت الذي قاله في الإسلام :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه * والمرء يصلحه القرين الصالح

وسيأتي ماورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة ، ويأتي في أول سورة آل عمران زيادة بيان لفضل هذه السورة إن شاء الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن .

قوله تعالى : ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الآية . اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور ؛ فقال عامر الشعبي ، وسفيان الثوري ، وجماعة من المحدثين : هي سر الله في القرآن ، ولله في كل كتاب

---

(١) الزيادة عن كتاب الاستيعاب (ج ١ ص ٢٣٥) طبع الهند .

من كتبه سر، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه؛ ولا يجوز أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت؛ وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق، وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما . وذكر ابو الليث السَّمَرْقندي عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور؛ ولا ندري ما أراد الله جل وعز بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباري : حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا أبو بكر بن أبي طالب حدثنا أبو المنذر الواسطي عن مالك بن مِغْوَل عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خثيم قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فٱستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء؛ فأما ما ٱستأثر به لنفسه فلستم بنائليه، فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه، وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون . قال أبو بكر : فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم، اختبارا من الله عز وجل وامتحانا؛ فمن آمن بها أثيب وسعد، ومن كفر وشك أثم وبعد . حدثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضي حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حريث بن ظُهَيْر عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب؛ ثم قرأ : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ .

قلت : هذا القول في المتشابه وحكمه، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه في آل عمران إن شاء الله تعالى . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيها، ونلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها؛ واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة؛ فروى عن ابن عباس وعليّ أيضا : أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قطرب والفراء وغيرهما : هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم؛ إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قطرب : كانوا ينفرون عند استماع القرآن؛ فلما سمعوا : ﴿الۤمۤ﴾ و﴿الۤمۤصۤ﴾؛ استنكروا هذا اللفظ؛ فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا : ﴿لَا تَسْمَعُوا

لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيستمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها، كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح اسم الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد . وروى أبو الضحى عن ابن عباس في قوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ قال : أنا الله أعلم . ﴿ الٓرٰ ﴾ أنا الله أرى . ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ أنا الله أفصل . فالألف تؤدّي عن معنى أنا، واللام تؤدّي عن اسم الله ، والميم تؤدّي عن معنى أعلم . واختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب الى أن كل حرف منها يؤدّي عن معنى ؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التي الحروف منها؛ كقوله :

* فقلت لها قفي فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخير خيرات وإن شراً فا * ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد : وإن شرا فشر . وأراد : إلا أن تشاء .

وقال :

نادوهم ألا الجموا ألاتا * قالوا جميعا كلهم ألافا

أراد : ألا تركبون، قالوا : ألا فاركبوا . وفي الحديث : "من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة" قال شقيق : هو أن يقول في اقتل : اق كما قال عليه السلام: "كفى بالسيف شا" معناه : شافيا.

وقال زيد بن أسلم : هي أسماء للسور . وقال الكلبي : هي أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها؛ وهي من أسمائه عن ابن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقال : لا يصح أن يكون قسما لأن القسم معقود على حروف مثل: إن وقد ولقد وما؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يمينا[1]. والجواب أن يقال: موضع القسم قوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لا ريب فيه ؛ لكان الكلام سديدا ؛ وتكون لا، جواب القسم : فثبت أن قول الكلبي وما روي عن ابن عباس سديد صحيح .

(١) في نسخة : «قسما» .

فإن قيل : ما الحكمة فى القسم من الله تعالى ؟ وكان القوم فى ذلك الزمان على صنفين : مصدق، ومكذب؛ فالمصدق يصدق بغير قسم، والمكذب لا يصدق مع القسم .

قيل له : القرآن نزل بلغة العرب؛ والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ؛ والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة، فأقسم أن القرآن من عنده . وقال بعضهم : ﴿ الٓمٓ ﴾ أى أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ قال : اسم من أسماء القرآن . و روى عن محمد بن علىّ الترمذىّ أنه قال : إن الله تعالى أودع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أول السورة ؛ ولا يعرف ذلك إلا نبىّ أو ولىّ، ثم بين ذلك فى جميع السور ليفقه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال؛ فالله أعلم .

والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها ؛ واختلف : هل لها محل من الإعراب؟ فقيل : لا، لأنها ليست أسماء متمكنة، ولا أفعالا مضارعة؛ وإنما هى بمنزلة حروف التهجى فهى محكية؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه . ومن قال : إنها أسماء السور فموضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ابتداء مضمر ؛ أى هذه ﴿ الٓمٓ ﴾ كما تقول هذه سورة البقرة، أو تكون رفعا على الابتداء والخبر ذلك ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ابن كيسان النحوى : ﴿ الٓمٓ ﴾ فى موضع نصب؛ كما تقول : اقرأ ﴿ الٓمٓ ﴾ أو عليك ﴿ الٓمٓ ﴾ وقيل : فى موضع خفض بالقسم لقول ابن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ قيل : المعنى هذا الكتاب، وذلك قد تستعمل فى الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعا للإشارة إلى غائب، كما قال تعالى فى الإخبار عن نفسه جل وعز : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ؛ ومنه قول خفاف بن ندبة :

أقول له والرمح يأطر متنه * تأمل خفافا إننى أنا ذلكا

أى انا هذا، فذلك إشارة إلى أن القرآن، موضوع موضع هذا؛ تلخيصه : الٓمٓ هذا الكتاب لا ريب فيه ؛ وهذا قول أبى عبيدة، وعكرمة، وغيرهما ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى هذه ؛ لكنها لما انقضت صارت كأنها بعدت ؛ فقيل

تلك . وفى البخارى وقال معمر : ذلك الكتاب ، هـذا القرآن هدى للمتقين بيـان ودلالة كقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ . هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء هـذا بمعنى ذلك ، ومنه قوله عليه السلام فى حديث أم حرام : " يركبون ثبج هذا البحر " أى ذلك البحر ، والله أعلم . وقيل هو على بابه إشارة على غائب .

واختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة ، فقيل : ذلك الكتاب ، أى الكتاب الذى كتبت على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق لا ريب فيه أى لا مبدل له . وقيل : ذلك الكتاب ، أى الذى كتبت على نفسى فى الأزل ، أن رحمتى سبقت غضبى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتى تغلب غضبى " فى رواية : « سبقت » . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد نبيه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماء ، فأشار الى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهـل الكتاب وقال انما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليـك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظانا " الحديث . وقيل : الإشارة الى ما قد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لما أنزل على نبيه صلى الله عليـه وسلم بمكة : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ لم يزل رسـول الله صلى الله عليه وسـلم مستشرفا لإنجاز هذا الوعد من ربه عز وجل ؛ فلمـا أنزل عليه بالمدينة : ﴿الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ كان فيه معنى : هذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة ، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه اليك بمكة . وقيل : إن ذلك إشارة الى ما فى التوراة والإنجيل ؛ و﴿الٓمٓ﴾ اسم للقرآن ؛ والتقدير هذا القرآن : ذلك الكتاب المفسر فى التوراة والإنجيل ؛ يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته ويستغرق ما فيهما ويزيد عليهما ما ليس فيهما . وقيل : إن ذلك الكتاب إشارة الى التوراة والإنجيل كليهما ؛ والمعنى : الٓمٓ ذانك الكتابان أو مثـل ذينك الكتابين ؛ أى هذا القرآن جامع لمـا فى ذينك الكتابين فعبر بذلك عن الاثنين ، بشاهد من القرآن ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أى عوان بين تينك : الفارض ، والبكر ؛ وسيأتى . وقيل : إن ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ ؛ وقال الكسائى : ذلك إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم ينزل بعـد .

وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أنه ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم كتابا؛ فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرد : المعنى هذا القرآن، ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : ﴿ الٓمٓ ﴾ الحروف التى تحديتكم بالنظم منها .

والكتاب مصدر من كتب يكتب إذا جمع ؛ ومنه قيل : كتيبة لاجتماعها، وتكتبت الخيل ، صارت كتائب ؛ وكتبت البغلة، إذا جمعت بين شفرى رحمها بحلقة أو سير ؛ قال :

لا تأمنن فزاريا حللت به * على قلوصك واكتبها بأسيار

والكُتْبَة (بضم الكاف) : الخُرْزَة، والجمع كُتَب، والكَتْب : الخرز . قال ذو الرمة :

وفراء غرفية اثأى خوارزها * مشلشل ضيعته بينها الكتب

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أو متفرقة ؛ وسمى كتابا وإن كان مكتوبا كما قال الشاعر :

تؤمل رجعة منى وفيها * كتاب مثل ما لصق الغراء

والكتاب : الفرض والحكم والقدر؛ قال الجعدى :

يا ابنة عمى كتاب الله أخرجنى * عنكم وهل أمنعن الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿لا ريب﴾ نفى عام ؛ ولذلك نصب الريب به . وفى الريب ثلاثة معان .

أحدها : الشك ؛ قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أميمة ريب * إنما الريب ما يقول الجهول

وثانيها : التُّهَمَة؛ قال جميل :

بثينة قالت يا جميل أربتنى * فقلت كلانا يا بثين مريب

وثالثها : الحاجة؛ قال[1] :

قضينا من تهامة كل ريب * وخيبر ثم أجممنا السيوفا

فكتاب الله تعالى لاشك فيه ولا ارتياب؛ والمعنى أنه فى ذاته حق، وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته، غير مخلوق ولا محدث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى،

(١) هو كعب بن مالك الأنصارى؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

أى لا ترتابوا، وتم الكلام، كأنه قال: ذلك الكتاب حقا، وتقول: رابنى هذا الأمر إذا أدخل عليك شكا وخوفا، وأراب: صار ذا ريبة فهو مريب ورابنى أمره، وريبُ الدهر: صروفه.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه ست مسائل.

الأولى — قوله تعالى: ﴿فيه﴾ الهاء فى فيه فى موضع خفض بفى. وفيه خمسة أوجه، أجودها: فيهِ هُدى، ويليه فيه هُدى بضم الهاء بغير واو(1) وهى قراءة الزهرى وسلام أبى المنذر، ويليه فِيهِى هدى باثبات الياء وهى قراءة ابن كثير، ويجوز فيهُو هدى بالواو، ويجوز فيهْ هُدى مدغما، وارتفع هدى على الابتداء والخبر فيه، والهدى فى كلام العرب معناه الرشد والبيان، أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان وهدى.

الثانية — الهدى هديان: هدى دلالة، وهو الذى تقدر عليه الرسل واتباعهم، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فالهدى على هذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. والهدى: الاهتداء ومعناه راجع الى معنى الإرشاد كيفما تصرفت، قال أبو المعالى: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها، من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين: ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ معناه فاسلكوهم اليها.

الثالثة — الهدى لفظ مؤنث. قال الفراء: بعض بنى أسد تؤنث الهدى فتقول: هذه هدى حسنة. وقال اللحيانى: هو مذكر، ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرك، ويتعدى بحرف وبغير حرف، وقد مضى فى الفاتحة تقول: هديته الطريق وإلى الطريق، والدار وإلى الدار أى عرفته، الاولى لغة أهل الحجاز والثانية حكاها الأخفش. وفى التنزيل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾. وقيل: إن الهدى اسم من أسماء النهار، لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم، ومنه قول ابن مقبل:

---

(1) أى بعد الهاء من (فيه).

[حتى[1] استبلت الهدى والبيد هاجمة * يخشعن فى الآل غلفا أو يصلينا]

الرابعة ـــ قوله تعالى : ﴿ للمتقين ﴾ خص الله تعالى المتقين بهدايته وإن كان هدى للخلق أجمعين تشريفا لهم، لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه . وروى عن أبى رَوْق أنه قال : هدى للمتقين، أى كرامة لهم، يعنى إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامة لهم وبيانا لفضلهم . وأصل للمتقين : للموتقيين بياءين مخففتين حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى اجتماع الواو والتاء وأدغمت التاء فى التاء فصار للمتقين .

الخامسة ـــ التقوى يقال أصلها فى اللغة : قلة الكلام؛ حكاه ابن فارس. قلت : ومنه الحديث: " التقى ملجم والمتقى فوق المؤمن والطائع " وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك وبينه؛ كما قال النابغة :

سقط النَّصيفُ ولم ترد إسقاطه * فتناولتــــه واتقتـــنا باليـــد

وقال آخر :

فألقت قنـاعا دونه الشمس واتقت * بأحسن موصولين كف ومعصم

وخرج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبى أبى عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرّ بن حُبَيش عن ابن مسعود قال: قال يوما لابن أخيه : يابن أخى ترى الناس ما أكثرهم؟ قال: نعم؛ قال : لا خير فيهم إلا تائب أو تقى، ثم قال : يابن أخى ترى الناس ما أكثرهم؟ قلت : بلى؛ قال: لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم . وقال أبو يزيد البسطامى : المتقى من إذا قال قال لله، ومن إذا عمل عمل لله . وقال أبو سليمان الدارانى : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات . وقيل : المتقى الذى اتقى الشرك وبرئ من النفاق . قال ابن عطية : وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبَيًّا عن التقوى؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال : نعم؛ قال : فما عملت فيه؟ قال : تشمرت وحذرت؛ قال : فذاك التقوى؛ وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه :

---

(١) هذا البيت ساقط فى جميع الأصول؛ والزيادة عن اللسان مادة هدى .

خلّ الذنوب صغــيرها ✽ وكبــيرها ذاك التــقىَ

واصــنع كماش فوق أر ✽ ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغــيرة ✽ إن الجبــال من الحصى

السادســة — التقوى، فيها جماع الخير كله، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين، وهى خير ما يستفيده الإنسان؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظ عنك شىء؛ فقال:

يريد المــرء أن يؤتى مناه ✽ ويــأبى الله إلا ما أرادا

يقول المــرء فائدتى ومالى ✽ وتقوى الله أفضل ما آستفادا

وروى ابن ماجه فى سننه عن أبى أُمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: "ما استفاد المرء[1] بعــد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحــة إن أمرها أطاعتــه وإن نظر إليهــا سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله".

والأصل فى التقوى: وقوى على وزن فعلى فقلبت الواو تاء من وقيته أقيــه أى منعته؛ ورجل تقى أى خائف، أصــله وقى؛ وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة كما قالوا: تجاه وتراث، والأصل وجاه ووراث.

قوله تعــالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فيها ست وعشرون مسئلة.

الأولى — قوله: ﴿الذين﴾ فى موضــع خفض نعت للمتقين، ويجوز الرفع على القطع أى هم الذين، ويجوز النصب على المدح. ﴿يؤمنون﴾ يصدقون؛ والإيمان فى اللغة: التصديق؛ وفى التنزيل: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أى بمصدق؛ ويتعدى بالباء واللام؛ كما قال: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ وروى حجاج بن حجاج الأحول — ويلقب بزق العســل — قال سمعت قتادة يقول: يا آبن آدم، إن كنت لا تريد أن تأتى الخير إلا عن نشــاط فإن نفســك مائلة إلى السآمة والفترة والملة؛ ولكن المؤمن هو المتحامل، والمؤمن هو المتقوى، والمؤمن هو المتشدد، وإن المؤمنين

(١) فى الجامع الصغير: «المؤمن».

هم العجاجون إلى الله الليل والنهـار ؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربنا ربنا فى السر والعلانية حتى استجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك، وهو من ذوات الياء؛ يقال منه : غابت الشمس تغيب ؛ والغيبة معروفة ، وأغابت المرأة فهى مغيبة إذا غاب عنها زوجها؛ ووقعنا فى غيبة وغيابة، أى هبطة من الأرض؛ والغيابة : الأجمة، وهى جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب، لأنه غاب عن البصر .

الثالثة ــ واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية : الله سبحانه . وضعفه ابن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون الغيب : كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة، وعذاب القبر، والحشر والنشر، والصراط والميزان، والجنة والنار . قال ابن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم : "فأخبرنى عن الإيمان" قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره ؛ قال : "صدقت" وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

قلت : وفى التنزيل : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ وقال : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾. فهو سبحانه غائب عن الأبصار، غير مرئى فى هذه الدار، غير غائب بالنظر والاستدلال؛ فهم يؤمنون أن لهم ربا قادرا يجازى على الأعمال ، فهم يخشونه فى سرائرهم، وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس ، لعلمهم باطلاعه عليهم؛ وعلى هذا تتفق الآى ولا تتعارض؛ والحمد لله .

وقيل بالغيب، أى بضمائرهم وقلوبهم، بخلاف المنافقين ؛ وهذا قول حسن. وقال الشاعر :

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا * يصلون للأوثان قبل محمـــد

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوف جملة على جملة ؛ وإقامة الصلاة أداؤها بأركانهـا وسننها وهيآتهـا فى أوقاتها على ما يأتى بيانه ؛ يقـال : قام الشىء أى دام وثبت ؛ وليس من القيام على الرجل ؛ وإنما هو من قولك : قام الحق أى ظهر وثبت ؛ قال الشاعر :

* وقامت الحرب بنا على ساق *

وقال آخر :

وإذا يقـال أتيتم لم يبرحـوا * حتى تقيم الخيل سوق طعان

وقيل: يقيمون: يديمون، وأقامه: أى أدامه ؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لمـا سواها أضيع .

الخـامسـة — إقامة الصلاة معـروفة ؛ وهى سنة عنـد الجمهور ، ولا إعادة على تاركهـا ؛ وعند الأوزاعى، وعطاء، ومجاهد، وابن أبى ليلى، هى واجبة وعلى من تركها الإعادة؛ وبه قال أهل الظاهر . وروى عن مالك، واختاره ابن العربى قال : لأن فى حديث الأعرابى : "وأقم" فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والاستقبال والوضوء .

قال : فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحديث ؛ فقد تعين عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض . قال ابن عبـد البر قوله صلى الله عليـه وسلم : "وتحريمها التكبير" دليل على أنه لم يدخل فى الصلاة من لم يحرم ، فمـا كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منـه الصـلاة إلا أن يجمعوا على شىء فيسلم للإجماع كالطهارة والقبـلة والوقت ونحو ذلك ؛ وقال بعض علمائنـا : من تركها عمدا أعاد الصـلاة ، وليس ذلك لوجوبها إذ لو كان ذلك لا ستوى سهوها وعمدها ، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن والله أعلم .

السـادسـة — واختلف العلمـاء فيمن سمع الإقامة هل يسرع أو لا ؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام : "إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون عليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا" رواه أبو هريرة أخرجه مسلم، وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا ثُوِّب بالصلاة فلا يسعى إليهـا أحدكم ولكن ليمش وعليه السكينة والوقار، صَلِّ ما أدركت واقْضِ ما سبقك" وهـذا نص ؛ ومن جهـة المعنى أنه

إذا أسرع انبهر فشوش عليه دخوله فى الصلاة وقراءتها وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم ابن عمر، وابن مسعود، على اختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع ؛وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة؛ وروى عن مالك نحوه؛ وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرك الفرس؛وتأوله بعضهم على الفرق بين الماشي والراكب لأن الراكب، لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر الماشي .

قلت : واستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل حال أولى، فيمشي كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار، لأنه فى صلاة؛ ومحال ان يكون خبره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل فى الصلاة يلزم الوقار والسكون، كذلك الماشي، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه؛ومما يدل على صحة هذا ماذكرناه من السنة، وما خرجه الدرامى فى مسنده،وقال حدثنا محمد بن يوسف قال حدثنا سفيان عن محمد بن عجلان عن المقبرى عن كعب بن عُجْرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا توضأت فعمدت إلى المسجد فلا تشبكن بين أصابعك فإنك فى صلاة " فمنع صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع،وجعله كالمصلي؛ وهذه السنن تبين معنى قوله تعالى : ﴿ فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام ؛ وإنما عنى العمل والفعل ؛ هكذا فسره مالك، وهو الصواب فى ذلك والله أعلم .

السابعة — واختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام : "وما فاتكم فأتموا" وقوله : "واقض ما سبقك" هل هما بمعنى واحد أولا ؟ فقيل: هما بمعنى واحد وأن القضاء قد يطلق ويراد به التمام، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ وقال: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ ﴾. وقيل: معناهما مختلف وهو الصحيح؛ويترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل، هل هو أول صلاته أو آخرها؟ فذهب الى الأول جماعة من أصحاب مالك؛ منهم ابن القاسم ولكنه يقضى مافاته بالحمد وسورة، فيكون بانيا فى الأفعال قاضيا فى الأقوال . قال ابن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال ابن خواز منداذ : وهو الذى عليه أصحابنا، وهو قول الأوزاعى، والشافعى، ومحمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل، والطبرى، وداود بن على . وروى أشهب وهو الذى ذكره ابن عبد الحكم عن مالك، ورواه عيسى عن ابن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضيا فى الأفعال والأقوال ؛ وهو قول الكوفيين . قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال ابن عبد البر: من

جعل ما أدرك أوّل صلاته فأظنهم راعوا الإحرام لأنه لا يكون إلا فى أوّل الصلاة، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها ؛ فمن هنا قالوا : إن ما أدرك فهو أوّل صلاته، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : "فأتموا" والتمام هو الآخر.

واحتج الآخرون بقوله : "فاقضوا" والذى يقضيه هو الفائت، إلا أن رواية من روى : فأتموا أكثر، وليس يستقيم على قول من قال : إن ما أدرك أوّل صلاته ويطرد، إلا ماقاله عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون، والمزنى، وإسحاق، وداود، من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه ؛ وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها ؛ فهؤلاء اطرد على أصلهم قولهم وفعلهم ؛ رضى الله عنهم.

الثامنة — الإقامة تمنع من ابتداء صلاة نافلة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" خرجه مسلم وغيره ؛ فأما إذا شرع فى نافلة فلا يقطعها لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ وخاصة إذا صلى ركعة منها ؛ وقيل : يقطعها ، لعموم الحديث فى ذلك والله أعلم.

التاسعة — واختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر، ثم أقيمت الصلاة، فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما ؛ وإن كان لم يدخل المسجد، فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد، ولا يركعهما فى شىء من أفنية المسجد — التى تصلى فيها الجمعة — اللاصقة بالمسجد ؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه، ثم يصليهما إذا طلعت الشمس، أحب إلىّ وأفضل من تركهما ؛ وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد، ثم يدخل مع الإمام ؛ وكذلك قال الأوزاعى ؛ إلا أنه يجوز ركوعهما فى المسجد ما لم يخف فوت الركعة الأخيرة ؛ وقال الثورى : إن خشى فوت ركعة دخل معهم ولم يصلهما ، وإلا صلاهما وإن كان قد دخل المسجد . وقال الحسن بن حى ويقال ابن حيان : إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد ؛ وكذلك قال الطبرى وبه قال أحمد بن حنبل ؛ وحكى عن مالك وهو الصحيح فى ذلك لقوله عليه السلام : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" . وركعتا الفجر

إما سنة، وإما فضيلة، وإما رغيبة، والحجة عند التنازع حجة السنة، ومن حجة قول مالك المشهور وأبي حنيفة، ماروى عن ابن عمر: أنه جاء والإمام يصلي صلاة الصبح فصلاهما في حجرة حفصة، ثم إنه صلى مع الإمام. ومن حجة الثوري والأوزاعي ما روى عن عبد الله بن مسعود: أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة فصلى إلى اسطوانة في المسجد ركعتي الفجر، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبي موسى رضي الله عنهما. قالوا: وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك في المسجد، روى مسلم عن عبد الله بن مالك ابن بحينة[(١)] قال: أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلي والمؤذن يقيم، فقال: "أتصلي الصبح أربعا"! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل، لصلاته ركعتي الفجر في المسجد والإمام يصلي؛ ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتي الفجر إن وقعت في تلك الحال صحت؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته، مع تمكنه من ذلك، والله أعلم.

العاشرة ــ الصلاة أصلها في اللغة: الدعاء، مأخوذة من صلى يصلي إذا دعا، ومنه قوله عليه السلام: "إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فيصل" أي فليدع. وقال بعض العلماء: إن المراد الصلاة المعروفة، فيصلي ركعتين وينصرف؛ والأول أشهر، وعليه من العلماء الأكثر. ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ قالت أسماء: ثم مسحه وصلى عليه، أي دعا له. وقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ادع لهم.

وقال الأعشى:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا * يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي * نوما فإن لجنب المرء مضطجعا

وقال الأعشى أيضا:

وقابلها الريح في دنها * وصلى على دنها وارتسم

ارتسم الرجل: كبر ودعا، قاله في الصحاح. وقال قوم: هي مأخوذة من الصلا وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العجب فيكتنفه؛ ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل، لأنه يأتي في الحلبة

(١) بحينة أمه وهي بنت الحارث بن عبد المطلب، وأبوه مالك بن القشب بن نضلة الأزدي.

ورأسه عند صلوى السابق؛ فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلي من الخيل، وإما لأن الراكع تثنى صلواه. والصلا مغرز الذنب من الفرس، والاثنان صلوان؛ والمصلي، تالى السابق، لأن رأسه عند صلاه. وقال علىّ رضى الله عنه: سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى أبو بكر وثلث عمر. وقيل: هى مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صلي بالنار إذا لزمها؛ ومنه: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ قال الحارث بن عباد:

لم أكن من جناتها علم الله * ـه وإنى بحرها اليوم صال

أى ملازم لحرها، وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذى أمر الله تعالى به. وقيل: هى مأخوذة من صليت العود بالنار إذا قومته ولينته بالصلاء؛ والصلاء: صلاء النار بكسر الصاد ممدود، فإن فتحت الصاد قصرت، فقلت صلا النار، فكأنّ المصلى يقوم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع؛ قال الخارزنجى[1]:

فلا تعجل بأمرك واستدمه * فما صلى عصاك[2] كمستديم

والصلاة: الدعاء؛ والصلاة: الرحمة، ومنه: "اللهم صل على محمد" الحديث. والصلاة: العبادة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ ﴾ الآية، أى عبادتهم. والصلاة: النافلة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾. والصلاة: التسبيح؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أى من المصلين. ومنه: سبحة الضحى. وقد قيل فى تأويل: ﴿ نسبح بحمدك ﴾ نصلى. والصلاة: القراءة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فهى لفظ مشترك. والصلاة: بيت يصلى فيه، قاله ابن فارس. وقد قيل: إن الصلاة اسم علم وضع لهذه العبادة فإن الله تعالى لم يخل زمانا من شرع، ولم يخل شرعا من صلاة؛ حكاه أبو نصر القشيرى.

قلت: فعلى هذا القول لا اشتقاق لها؛ وعلى قول الجمهور وهى:

الحادية عشرة — اختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام، وعلى تلك الزيادة من الشرع

(١) كذا فى جميع الأصول، وفى اللسان مادة (صلا): «... قيس بن زهير». (٢) كذا فى جميع الأصول؛ وفى اللسان: «عصاه».

يصيرها موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع ؛ هنا اختلافهم ، والأول أصح ، لأن الشريعة ثبتت بالعربية ؛ والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين ؛ ولكن للعرب تحكم فى الأسماء ، كالدابة وضعت لكل ما يدب ؛ خصصها العرف بالبهائم ؛ فكذلك لعرف الشرع تحكم فى الأسماء والله أعلم .

الثانية عشرة ــ واختلف فى المراد بالصلاة هنا ؛ فقيل : الفرائض ؛ وقيل : الفرائض والنوافل معا ؛ وهو الصحيح لأن اللفظ عام والمتقى يأتى بهما .

الثالثة عشرة ــ الصلاه سبب للرزق ؛ قال الله تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ الآية على ما يأتى بيانه فى طه إن شاء الله تعالى ، وشفاء من وجع البطن وغيره ؛ روى ابن ماجه عن أبى هريرة قال : هَجَّر النبي صلى الله عليه وسلم فَهَجَّرْتُ فصليت ثم جلست ؛ فالتفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "اشكَمت دَرْدَ" قلت : نعم يارسول الله ؛ قال : " قم فصل فإن فى الصلاة شفاء" فى رواية : " اشكِمت درد " يعنى تشتكى بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة ــ الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض ؛ فمن شروطها : الطهارة ، وسيأتى بيان أحكامها فى سورة النساء والمائدة ، وستر العورة ، يأتى فى الأعراف القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها : فاستقبال القبلة ، والنية ، وتكبيرة الإحرام ، والقيام لها ، وقراءة أم القرآن ، والقيام لها ، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من السجود ، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه ، والسجود الثانى والطمأنينة فيه . والأصل فى هذه الجملة حديث أبى هريرة فى الرجل الذى علمه النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخل بها ، فقال له : "إذا قمت الى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، ثم كبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها " خرجه مسلم ؛ ومثله حديث رفاعة بن رافع ، أخرجه الدارقطني وغيره . قال علماؤنا : فبين قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ، ورفع اليدين ، وعن حد القراءة ، وعن تكبير الانتقالات ، وعن التسبيح فى الركوع والسجود ، وعن الجلسة

الوسطى، وعن التشهد، وعن الجلسة الأخيرة، وعن السلام؛ أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما؛ وأما رفع اليدين فليس بواجب عند جماعة العلماء، وعامة الفقهاء، لحديث أبي هريرة، وحديث رفاعة ابن رافع؛ وقال داود وبعض أصحابه بوجوب ذلك عند تكبيرة الإحرام؛ وقال بعض أصحابه: الرفع عند الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب، وإن من لم يرفع يديه فصلاته باطلة وهو قول الحميدي، ورواية عن الأوزاعي، واحتجوا بقوله عليه السلام: "صلوا كما رأيتموني أصلي" أخرجه البخاري؛ قالوا: فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل، لأنه المبلغ عن الله مراده؛ وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور، وكان ابن قاسم صاحب مالك يقول: من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبل السلام، وإن لم يسجد بطلت صلاته، وإن نسي تكبيرة واحدة أو اثنتين سجد أيضا للسهو، فإن لم يفعل فلا شيء عليه؛ وروي عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها، وهذا يدل على أن عظم التكبير وجملته عنده فرض، وأن اليسير منه متجاوز عنه. وقال أصبغ بن الفرج، وعبد الله بن عبد الحكم: ليس على من لم يكبر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا سجد للسهو، فإن لم يسجد فلا شيء عليه؛ ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامدا، لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء، ولا شيء عليه، وصلاته ماضية.

قلت: هذا هو الصحيح وهو الذي عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهل الحديث، والمالكيين غير من ذهب مذهب ابن القاسم. وقد ترجم البخاري رحمه الله "باب إتمام التكبير في الركوع والسجود" وساق حديث مُطَرِّف بن عبد الله قال: صليت خلف عليّ بن أبي طالب أنا وعمران بن حصين، فكان إذا سجد كبر، وإذا رفع رأسه كبر، وإذا نهض من الركعتين كبر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدي عمران بن حصين فقال: لقد ذكرني هذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم، أو قال: لقد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم. وحديث عكرمة قال: رأيت رجلا عند المقام يكبر في كل خفض ورفع، وإذا قام وإذا وضع؛ فأخبرت ابن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لا أم لك! فدلك البخاري رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم. روى أبو إسحاق السبيعي عن يزيد بن أبي مريم عن أبي موسى الأشعري قال:

صلى بنا على يوم الجمل صلاة أذكرنا بها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكبر فى كل خفض ورفع ، وقيام وقعود ؛ قال أبو موسى : فإما نسيناها وإما تركناها عمدا .

قلت : أتراهم أعادوا الصلاة ! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته ! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض ، والشيء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه ؛ وبالله التوفيق .

الخامسة عشرة ـــ وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور ؛ وأوجبه إسحاق بن راهويه ، وأن من تركه أعاد الصلاة ، لقوله عليه السلام : "أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء ، فقمن أن يستجاب لكم" .

السادسة عشرة ـــ وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء فى ذلك ، فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأول والتشهد له سنتان ؛ وأوجب جماعة من العلماء الجلوس الأول وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعرايا من المزابنة ، والقراض من الإجارات ، وكالوقوف بعد الاحرام لمن وجد الإمام راكعا ؛ واحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان العامد لتركه تبطل صلاته كما لا تبطل بترك سنن الصلاة ؛ احتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصلاة لرجع الساهى عنه إليه حتى يأتى به ، كما لو ترك سجدة أو ركعة ؛ ويراعى فيه ما يراعى فى الركوع والسجود من الولاء والرتبة ؛ ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفى حديث عبد الله ابن بُحَيْنَة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يتشهد فسبح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائما فقاموا ؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدتى السهو قبل التسليم ؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو ؛ لأن الفرائض فى الصلاة يستوى فى تركها السهو والعمد إلا فى المؤتم . واختلفوا فى حكم الجلوس الأخير فى الصلاة وما الفرض من ذلك . وهى

السابعة عشرة ـــ على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض ، والتشهد فرض ، والسلام فرض ، وممن قال ذلك الشافعى وأحمد ابن حنبل فى رواية ؛ وحكاه أبو مصعب فى مختصره عن مالك وأهل المدينة ، وبه قال داود . قال الشافعى : من ترك التشهد الأول والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه ، وعليه سجدتا السهو لتركه ؛ وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد ؛ واحتجوا بأن بيان النبى صلى الله عليه

وسلم فى الصلاة فرض، لأن أصل فرضها مجمل يفتقر إلى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : "صلوا كما رأيتمونى أصلى" .

القول الثانى : ان الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب، وإنما ذلك كله سنة مسنونة ؛ هذا قول بعض البصريين ، وإليه ذهب ابراهيم بن عُلَيّة، وصرح بقياس الجلسة الاخيرة على الأولى، فخالف الجمهور وشذ، إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيأ من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدة فى صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته" وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر، وقد بيناه فى كتاب المقتبس (١) . وهذا اللفظ إنما يسقط السلام لا الجلوس .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضا . قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين ، واحتجوا بحديث ابن المبارك عن الإفريقى عبد الرحمن ابن زياد، وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إذا جلس أحدكم فى آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلم فقد تمت صلاته" قال ابن العربى : وكان شيخنا فخر الإسلام ينشدنا فى الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضرطة * أين الضراط من السلام عليكم

قال ابن العربى : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين، أما أحدهما : فروى عبد الملك بن عبد الملك : أن من سلم من ركعتين متلاعبا، فخرج البيان أنه كان على أربع، أن يجزئه ؛ وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثانى : فوقع فى الكتب المنبوذة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئ من خلفه ؛ وهذا مما لا ينبغى أن يلتفت إليه فى الفتوى؛ وإن عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس والسلام فرض ، وليس التشهد بواجب ؛ وممن قال هذا مالك ابن أنس، وأصحابه، وأحمد بن حنبل فى رواية؛ واحتجوا بأن قالوا : ليس شىء من الذكر يجب إلا تكبيرة الإحرام، وقراءة أم القرآن .

(١) فى بعض الأصول: «المقتبن» .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن راهويه، واحتج إسحاق بحديث ابن مسعود حين علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك" قال الدارقطني : قوله : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك" أدرجه بعضهم عن زهير في الحديث، ووصله بكلام النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شبابة عن زهير، وجعله من كلام ابن مسعود، وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه في حديث النبي صلى الله عليه وسلم . وشبابة ثقة وقد تابعه غسان بن الربيع على ذلك . جعل آخر الحديث من كلام ابن مسعود، ولم يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة ـ واختلف العلماء في السلام ؛ فقيل : واجب؛ وقيل : ليس بواجب؛ والصحيح وجوبه لحديث عائشة وحديث علي الصحيح خرجه أبو داود والترمذي ورواه سفيان الثوري عن عبد الله ابن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم " وهذا الحديث أصل في إيجاب التكبير والتسليم، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها باتفاق ، قال عبد الرحمن ابن مهدي : لو افتتح رجل صلاته بسبعين أسما من أسماء الله عز وجل ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه، وإن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه، وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهدي لحديث علي، وهو إمام في علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحسبك به !

وقد اختلف العلماء في وجوب التكبير عند الافتتاح وهي :

التاسعة عشرة ـ فقال ابن شهاب الزهري، وسعيد بن المسيب، والأوزاعي، وعبد الرحمن ، وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة ؛ وقد روي عن مالك في المأموم ما يدل على هذا القول ؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصلاة ؛ وهو الصواب وعليه الجمهور، وكل من خالف ذلك فمحجوج بالسنة :

الموفية عشرين ـ واختلف العلماء في اللفظ الذي يدخل به في الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير ، لا يجزئ منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد؛ هذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين؛ ولا يجزئ عند مالك إلا : " الله أكبر" لا غير ذلك؛ وكذلك قال الشافعي

وزاد : ويجزئ " الله الأكبر" و"الله الكبير" . والحجة لمالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ . وحديث عليّ : وتحريمها التكبير، وحديث الأعرابي : فكبر، وفى سنن ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلى بن محمد الطنافسى قالا : حدثنا أبو أسامة قال: حدثنى عبد الحميد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن عمرو ابن عطاء قال: سمعت أبا حميد الساعدى يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام الى الصلاة استقبل القبلة ورفع يديه، وقال : "الله أكبر" وهذا نص صريح، وحديث صحيح، فى تعيين لفظ التكبير؛ قال الشاعر :

رأيت الله أكبر كل شيء * محاورة وأعظمه جنودا

ثم أنه يتضمن القدم، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم، فكان أبلغ فى المعنى والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن افتتح بلا إله إلا الله يجزيه، وإن قال : اللهم اغفر لى لم يجزه، وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم بن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلل وكبر ولم يقرأ أن صلاته فاسدة، فمن كان هذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها ؛ وقال أبو حنيفة : يجزئه التكبير بالفارسية وإن كان يحسن العربية . قال ابن المنذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين، وخلاف ما علّم النبيّ صلى الله عليه وسلم أمته، ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال والله أعلم .

الحادية والعشرون — واتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيأ روى عن بعض أصحابنا يأتى الكلام عليه فى آية الطهارة، وحقيقتها قصد التقرب الى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال ابن العربى : والأصل فى كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنويّ بها، أو قبل ذلك بشرط استصحابها، فان تقدمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة فى تلك الحالة لم يعتد بها ، كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل ؛ وقد رخص فى تقديمها فى الصوم لعظم الحرج فى اقترانها به . قال ابن العربيّ : وقال لنا أبو الحسن القرويّ بثغر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية، ويجرد النظر

فى الصانع وحدوث العالم والنبوات حتى ينتهى نظره الى نيـة الصلاة؛ قال : ولا يحتاج ذلك الى زمان طويل، وإنما يكون ذلك فى أوحى لحظة، لأن تعلم الجمل يفتقر الى الزمان الطويل، وتذكارها يكون فى لحظة؛ ومن تمام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها، إلا أن ذلك لما كان أمرا يتعذر سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائها؛ سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول : قال محمد بن سحنون : رأيت أبا سحنون ربما يكمل الصلاة فيعيدها، فقلت له ما هذا؟ فقال : عزبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى، فيأتى ذكر الركوع، وصلاة الجماعة، والقبلة، والمبادرة الى الأوقات، وبعض صلاة الخوف، فى هذه السورة، ويأتى ذكر قصر الصلاة، وصلاة الخوف، فى "النساء"، والأوقات، فى "هود وسبحان والروم"، وصلاة الليل، فى "المزمل"، وسجود التلاوة، فى "الأعراف"، وسجود الشكر، فى "ص"، كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ رزقناهم : أعطيناهم، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به، حلالا كان أو حراما؛ خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام، وإنما يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك.

قالوا : فلو نشأ صبى مع اللصوص ولم يأكل شيأ إلا ما أطعمه اللصوص الى أن بلغ وقوى وصار لصا، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ما تلصصه الى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئا، إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التى ترتع فى الصحراء، ولا السخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولما اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء لأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون ، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين؛ فعلم أن الرزق ما قلناه، لا ما قالوه، والذى يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ

ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ وقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وهذا قاطع، فالله تعالى رازق حقيقة، وابن آدم رازق تجوزا، لأنه يملك ملكا منتزعا، كما بيناه في الفاتحة، مرزوق حقيقة، كالبهائم التي لا ملك لها؛ إلا أن الشيء إذا كان مأذونا له في تناوله فهو حلال حكما، وما كان منه غير مأذون له في تناوله فهو حرام حكما؛ وجميع ذلك رزق .

وقد خرّج بعض النبلاء من قوله تعالى : ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ قال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الرزق مصدر رزق يرزق رَزقا، فالرزق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم، وجمعه أرزاق؛ والرزق : العطاء . والرازقية : ثياب كتان [بيض][1] . وارتزق الجند: أخذوا أرزاقهم . والرَّزقة: المرة الواحدة؛ هكذا قال أهل اللغة. وقال ابن السكيت: الرزق بلغة أزدشنوءة: الشكر؛ وهو قوله عز وجل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقني أى شكرني .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿يُنفِقُونَ﴾ ينفقون : يخرجون؛ والإنفاق : إخراج المال من اليد؛ ومنه نفق البيع: أى خرج من يد البائع إلى المشترى . ونفقت الدابة: خرجت روحها؛ ومنه النافقاء لجحر اليربوع الذى يخرج منه إذا أُخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه ؛ ونيفق السراويل معروفة وهو مخرج الرجل منها . ونفق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم؛ ومنه قوله تعالى : ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ .

الخامسة والعشرون — واختلف العلماء في المراد بالنفقة ههنا؛ فقيل : الزكاة المفروضة — روى عن ابن عباس — لمقارنتها الصلاة . وقيل: نفقة الرجل على أهله — روى عن ابن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة؛ روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك" وروى عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الزيادة عن اللسان مادة (رزق) .

" أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله عز وجل ،ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله " قال أبو قلابة : وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قلابة: وأى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل: المراد صدقة التطوع ــ روى عن الضحاك ــ نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى الا بلفظها المختص بها ، وهو الزكاة، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت الفرض والتطوع ، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقربون بها الى الله جل وعز على قدر جهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات[(١)] في «براءة» . وقيل: إنه الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ما عدا الزكاة، لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضا، ولما عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل: هو عام، وهو الصحيح، لأنه خرج مخرج المدح في الإنفاق مما رزقوا، وذلك لا يكون إلا من الحلال : أى يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وغيرها مما يعن في بعض الأحوال مع ما ندبهم إليه . وقيل : الإيمان بالغيب : حظ القلب، وإقام الصلاة : حظ البدن ، ومما رزقناهم ينفقون : حظ المال، وهذا ظاهر . وقال بعض المتقدمين في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أى مما علمناهم يعلمون، حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، قيل: المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام وفيه نزلت، ونزلت الأولى في مؤمنى العرب، وقيل: الآيتان جميعا في المؤمنين، وعليه فإعراب الذين خفض على العطف ، ويصح أن يكون رفعا على الاستئناف أى وهم الذين ؛ ومن جعلها في صنفين فإعراب الذين رفع بالابتداء وخبره أولئك على هدى؛ ويحتمل الخفض عطفا .

قوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعنى القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعنى الكتب السالفة، بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم في قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ الآية . ويقال : لما نزلت هذه الآية : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ . قالت اليهود والنصارى : نحن آمنا بالغيب؛ فلما قال: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ . قالوا : نحن نقيم الصلاة ،

(١) مثل قوله تعالى : خذ من أموالهم صدقة الآية فقد قال ابن العربي أنها ناسخة لآية : والذين يكنزون الذهب والفضة الآية — أنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأول من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز .

فلما قال : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قالوا : نحن ننفق ونتصدق؛ فلما قال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ . نفروا من ذلك . وفى حديث أبى ذر قال : قلت يارسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : "مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ (1) ثلاثين صحيفة، وعلى ابراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان" الحديث . أخرجه الحسين الآجُرّى، وأبوحاتم البُستىّ .

وهنا مسئلة، إن قال قائل : كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافى أحكامها ؟ قيل له فيه جوابان أحدهما : أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله، وهو قول من أسقط التعبد بما تقدم من الشرائع . الثـانى : أن الإيمان بمالم ينسخ منها ، وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدمة على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ . أى وبالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشـك؛ يقال منـه : يقنت الأمر بالكسر يقنا، وأيقنت واستيقنت وتيقنت كله بمعنى؛ وأنا على يقين منه . وانما صارت الياء واوا فى قولك : موقن ، للضمة قبلها واذا صغرته رددته الى الأصل، فقلت مييقن . والتصغير يرد الأشياء الى أصولها وكذلك الجمع، وربمـا عبروا باليقين عن الظن، ومنه قول علمائنا فى اليمين اللغو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه، ثم يتبين له أنه خلاف ذلك، فلا شىء عليه ؛ قال الشاعر :

تَحَسَّبَ هَوَّاسٌ وَأَيْقَنَ أَنَّنِي * بِهَا مُفْتَدٍ مِنْ وَاحِدٍ لَا أُغَامِرُهْ

يقول : تشمم الأسد ناقتى، يظن أننى مفتد بها منـه ، واستحمى نفسى فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته . فأما الظن بمعنى اليقين فورد فى التنزيل وهو فى الشعر كثير وسيأتى . والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قال النحاس أهل نجد يقولون : أولاك ، وبعضهم يقـول : ألاك، والكاف للخطاب . قال الكسائى : من قال أولئك فواحده ذلك، ومن قال ألاك فواحده ذاك، وألالك مثل أولئك، وأنشد ابن السكيت :

---

(1) أخنوخ هو ادريس عليه السلام .

الالك قومى لم يكونوا أشابة * وهل يعظ الضليل الا الالكا

وربما قالوا : أولئك فى غير العقلاء؛ قال الشاعر :

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعـــد أولئك الأيام

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾ وقال علماؤنا إن فى قوله تعالى : ﴿مِن ربهم﴾ ، ردّا على القدرية فى قولهم : يخلقون إيمانهم وهداهم ، تعالى الله عن قولهم؛ ولو كان كما قالوا لقال : «من أنفسهم» ؛ وقد تقدم الكلام فيه وفى الهدى فلا معنى لإعادة ذلك .

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . هم ، يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره المفلحون،والثانى وخبره خبر الأول ؛ ويجوز أن تكون هم زائدة — يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا — والمفلحون خبر أولئك .

والفلح أصله فى اللغة الشق والقطع؛ قال الشاعر :

* إن الحـــديد بالحـــديد يفلح *

أى يشق ، ومنه فلاحة الأرضين إنما هو شقها للحرث ، قاله أبو عبيد ، ولذلك سمى الأكّار فلاحا ، ويقال للذى شقت شفته السفلى أفلح ، وهو بين الفلحة ، فكأن المفلح قــد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقــد يستعمل فى الفوز والبقاء ، وهو أصله أيضا فى اللغة ، ومنه قول الرجل لامرأته : استفلحى بأمرك ، معناه فوزى بأمرك ؛ وقال الشاعر :

لو كان حىّ مدرك الفلاح * أدركه ملاعب الرماح

وقال الأضبط بن قريع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لكل هم من الهموم سعه * والمُسْىُ والصبح لا فلاح معه

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء؛ وقال آخر :

نحــل بلادا كلها حلّ قبلنــا * ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير

أى البقاء ؛ وقال عبيد :

أفلح بمــا شئت فقد يدرك بالضعـ * ـف وقــد يُخــدّع الأريب

أى أبق بما شئت من كيس وحمق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل . فمعنى وأولئك هم المفلحون : أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال آبن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ، والمعنى واحد . وقد استعمل الفـلاح فى السحور ؛ ومنه الحديث : حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وما الفلاح؟ قال : السحور، أخرجه أبو داود؛ فكأن معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سماه فلاحا . والفلاّح بتشديد اللام : المكارى فى قول القائل[1] .

لهـا رطل تكيل الزيت فيـه * وفـلاح يسـوق لهـا حمارا

ثم الفلاح فى العرف : الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب .

مسئلة — إن قال قائل كيف قـرأ حمزة : عليهُم وإليهُم ولديهُم ، ولم يقرأ من ربهم ولا فيهم ولا جنتيهم ؟ فالجواب أن عليهم وإليهم ولديهم اليـاء فيه منقلبة من ألف، والأصل علاهم ولداهم وإلاهم فأقرت الهاء على ضمها ؛ وليس ذلك فى فيهم ولا من ربهم ولا جنتيهم ووافقه الكسـائى فى عليهم الذلة وإليهم اثنين على ما هو معروف من القراءة عنهما .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية، لمـا ذكر المؤمنين وأحوالهم، ذكر الكافرين ومآلهم ؛ والكفر ضد الإيمان وهو المراد فى الآية ؛ وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ، ومنه قوله عليه السلام فى النساء فى حديث الكسوف : "ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء قيل بم يا رسول الله ؟ قال : "بكفرهن"؛ قيل أيكفرن بالله ؟ قال : "يكفرن العشير ويكفرن الإحسـان لو أحسنت الى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط" أخرجه البخارى وغيره .

وأصل الكفر فى كلام العرب : الستر والتغطية، ومنه قول الشاعر :

* فى ليلة كفر النجوم غمامها *

أى سترها ، ومنه سمى الليل كافرا لأنه يغطى كل شيء بسواده ؛ قال الشاعر[2] :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا رَثِيدًا بَعْدَمَا * أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا فِى كَافِرِ

---

(١) هو عمرو بن أحمر الباهلى؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

(٢) هو ثعلبة بن صعيرة المازنى ، يصف الظليم والنعامة ورواحهما الى بيضهما عند غروب الشمس . اللسان مادة (كفر) .

ذكاء بضم الذال والمدّ اسم للشمس، ومنه قول الآخر :

فوردت قبل انبلاج الفجر * وابن ذكاء كامن فى كفر

أى فى ليل . والكافر أيضا ، البحر، والنهر العظيم ، والكافر : الزارع والجمع كفار ، قال الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ . يعنى الزراع لأنهم يغطون الحب، ورماد مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بعد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمر به أحد ؛ ومن حل بتلك المواضع فهم أهل الكفور، ويقال الكفور : القرى .

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ؛ أى سواء عليهم هذا؛ وجىء بالاستفهام من أجل التسوية، ومثله قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ .

وقال الشاعر :

وليـل يقول الناس من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ ءَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ الإنذار: الإبلاغ والإعلام، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يسع زمانه الاحتراز، فان لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ قال الشاعر :

أنذرت عمرا وهو فى مهـل * قبل الصباح فقد عصى عمرو

وتناذر بنو فلان هذا الأمر إذا خوفه بعضهم بعضا .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، فقيل : هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقت عليه كلمة العذاب، وسبق فى علم الله انه يموت على كفره ؛ أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس من هذه حاله، دون أن يعين أحدا . وقال ابن عباس والكلبي : نزلت فى رؤساء اليهود، منهم حُيَيّ ابن أخطب ، وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتـل يوم بدر من قادة الأحزاب؛ والأول أصح ، فإن من عين أحدا فإنما مثل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . موضعه رفع خبر إن، أى إن الذين كفروا لا يؤمنون، وقيل خبر إن سواء، وما بعده يقوم مقام الصلة؛ قاله ابن كيسان . وقال محمد بن يزيد : سواء رفع بالابتداء،

ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، والجملة خبر إنّ . قال النحاس : أى أنهم يتألمون فلم تغن فيهم النذارة شيئا . واختلف القراء فى قراءة ءأنذرتهم ، فقرأ أهل المدينة ، وأبو عمرو ، والأعمش ، وعبد الله بن أبى إسحاق : آنذرتهم بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، واختارها الخليل وسيبويه ، وهى لغة قريش وسعد بن بكر، وعليها قول الشاعر[1] :

أياظبية الوعساء بين جُلَاجِل * وبين النقا آنت أم أُمُّ سالم

هذا «أنت ألف واحدة»، وقال الآخر :

تطـالت فاستشرفته فعرفته * فقلت له آنت زيد الأرانب

وروى عن ابن محيصن أنه قرأ : ﴿أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ بهمزة لا ألف بعدها، فحذف لالتقاء الهمزتين أو لأن أم تدل على الاستفهام كما قال الشاعر :

تروح من الحيّ أم تبتكـر * وماذا بضيرك لو تنتظــر

أراد : أتروح فاكتفى بأم من الألف . وروى عن ابن أبى إسحاق أنه قرأ : ءاءنذرتهم، فحقق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفف الثانية، وأبو عمرو، ونافع، يفعلان ذلك كثيرا، وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائى بتحقيق الهمزتين : أأنذرتهم وهو اختيار أبى عبيد، وذلك بعيد عند الخليل، وقال سيبويه : يشبه فى الثقل ضننوا، قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك ردىء لأنهم إنما يخففون بعد الاستثقال، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا، فهذه سبعة أوجه من القراءات ووجه ثامن يجوز فى غير القرآن، لأنه مخالف للشواذ ، قال الأخفش سـعيد : تبدل من الهمزة هاء تقـول : ها أنذرتهم ، كما يقال هياك وإياك ، وقال الأخفش فى قول الله تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ ﴾ إنما هو أأنتم .

قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية فيها عشر مسائل .

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ بين سبحانه فى هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : ختم الله ، والختم مصدر ختمت الشىء ختما فهو مختوم ومختّم شدّد للمبالغة ، ومعناه التغطية على الشىء

(١) هو ذو الرمة كما فى معجم البلدان لياقوت .

والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء ، ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعاني : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم، والطبع، والضيق، والمرض ، والرين، والموت، والقساوة ، والانصراف، والحمية، والإنكار؛ فقال في الإنكار : ﴿ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ . وقال في الحمية : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ﴾ . وقال في الانصراف : ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ . وقال في القساوة : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾، وقال: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ . وقال في الموت: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ . وقال في الرين : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . وقال في المرض : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾. وقال في الضيق : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ . وقال في الطبع : ﴿ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ . وقال : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ . وقال في الختم : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ . وسيأتي بيانها كلها في مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانية ــ الختم يكون محسوسا كما بينا، ومعنى كما في هذه الآية؛ فالختم على القلوب: عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته ؛ وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أودعوا إلى وحدانيته ؛ وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته، وعجائب مصنوعاته ؛ هذا معنى قول ابن عباس، وابن مسعود، وقتادة، وغيرهم .

الثالثة ــ في هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل ، على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال، والكفر والإيمان؛ فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم ؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا؛ وقد طبع على قلوبهم، وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون؟ أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾. وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم، لا ما وجب لهم ؟

فإن قالوا ، إن معنى الختم والطبع والغشاوة : التسمية والحكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل .

قلنا : هذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما ، ولا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم ، ألا ترى أنه إذا قيل فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقته أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم ؛ هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين ، مجازاة لكفرهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام ، والملائكة ، والمؤمنين ، ممتنع ؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون ، لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها ، وأنهم فى ضلال لا يؤمنون ، ويحكمون عليهم بذلك ؛ فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم ؛ وإنما هو معنى يخلقه الله فى القلب يمنع من الإيمان به ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ . أى لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعة — قوله : ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح ؛ والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شىء وأشرفه قلبه ؛ فالقلب موضع الفكر ؛ وهو فى الأصل مصدر قلبت الشىء أقلبه قلبا ، إذا رددته على بداءته ؛ وقلبت الإناء : رددته على وجهه ؛ ثم نقل هذا اللفظ فسمى به هذا العضو ، الذى هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه ؛ كما قيل :

ما سمى القلب إلا من تقلبه ... فاحذر على القلب من قلب وتحويل

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف ، التزمت فيه تفخيم قافه ، تفريقا بينه وبين أصله ؛ روى ابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مثل القلب ريشة تقلبها الرياح بفلاة" ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : "اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك" فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول مع عظيم قدره ، وجلال منصبه ، فنحن أولى بذلك ، اقتداء به ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ . وسيأتى .

الخامسة ــ الجوارح وإن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب ــ وإن كان رئيسها وملكها ــ بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إن الرجل ليصدق فتنكت فى قلبه نكتة بيضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه" وروى الترمذى وصححه عن أبي هريرة: "أن الرجل ليصيب الذنب فيسود قلبه فان هو تاب صقل قلبه" قال : وهو الرين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هذا، وقوله عليه السلام : "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" دليل على أن الختم يكون حقيقيا والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصنوبرة؛ وهو يعضد قول مجاهد . والله أعلم .

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا : "أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة" ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبرا وليس فيه شىء، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه علىّ دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه علىّ ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا" .

ففى قوله : الوكت وهو الأثر اليسير؛ ويقال للبسر إذا وقعت فيه نكتة من الأرطاب قد وكت، فهو موكت . وقوله : المجل، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء ؛ وقد فسره النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : "كجمر دحرجته" أى دورته على رجلك فنفط، فتراه منتبرا أى مرتفعا ؛ مايدل على أن ذلك كله محسوس فى القلب يفعل فيه، وكذلك الختم والطبع والله أعلم . وفى حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا

فأى قلب أُشربها نكت نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا إلا ما أُشرب من هواه" وذكر الحديث . مجخيا : يعنى مائلا .

السادسة — القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر؛ قال الله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. وقال : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعنى فى الموضعين قلبك ، وقد يعبر به عن العقل قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى عقل ؛ لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين ، والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ استدل بها من فضّل السمع على البصر لتقدمه عليه ، وقال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ . وقال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ . قال : والسمع يدرك به الجهات الست، وفى النور والظلمة، ولا يدرك بالبصر إلا من الجهة المقابلة ، وبواسطة من ضياء وشعاع . وقال أكثر المتكلمين بتفضيل البصر على السمع لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضل؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنة — إن قال قائل : لم جمع الأبصار ووحد السمع؟ قيل له : إنما وحده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير، يقال : سمعت الشيء أسمعه سمعا وسماعا ، فالسمع مصدر سمعت ؛ والسمع أيضا اسم للجارحة المسموع بها سميت بالمصدر . وقيل : إنه لما أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة؛ كما قال الشاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظامها * فبيض وأما جلدها فصليب

إنما يريد جلودها، فوحد لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر فى مثله :

لا تنكر القتل وقد سبينا * فى حلقكم عظم وقد شجينا

يريد في حلوقكم، ومثله قول الآخر:

كأنه وجه تركيين قد غضبا * مستهدف لطعان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين، فقال وجه تركيين لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد، ومثله كثير جدا . وقرئ : وعلى أسماعهم، ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم، لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقد يكون السمع بمعنى الاستماع؛ يقال : سمعك حديثي ـ أي استماعك إلى حديثي ـ يعجبني ، ومنه قول ذي الرمة ، يصف ثورا تسمّع إلى صوت صائد وكلاب :

وقد توجس ركزا مقفر ندس * بنبأة الصوت ما في سمعه كذب

أي ما في استماعه كذب ، أي هو صادق الاستماع ، والندس : الحاذق . والنبأة : الصوت الخفي ، وكذلك الركز . والسمع بكسر السين وإسكان الميم : ذِكْر الإنسان بالجميل ، يقال : ذهب سمعه في الناس أي ذكره . والسِّمْع أيضا : ولد الذئب من الضبع . والوقف هنا : وعلى سمعهم . وغشاوة رفع على الابتداء وما قبله خبره . والضمائر في قلوبهم وما عطف عليه لمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود ، وقيل من الجميع ، وهو أصوب، لأنه يعم . فالختم على القلوب والأسماع . والغشاوة على الأبصار . والغشاء : الغطاء . وهي :

التاسعة ـ ومنه غاشية السرج، وغشيت الشيء أغشيه قال النابغة :

هلّا سألت بني ذبيان ما حسبي * إذا الدخان تغشى الأشمط البرما

وقال آخر[1]:

صحبتك إذ عيني عليها غشاوة * فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

قال ابن كيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهاء . وحكى الفراء : غشاوى مثل أداوى وقرئ : غشاوة بالنصب على معنى وجعل ، فيكون من باب قوله : علفتها تبنا وماء باردا، وقول الآخر :

يا ليت زوجك في الوغا * متقلدا سيفا ورمحا

---

(١) هو الحارث بن خالد المخزومي، كما في اللسان مادة (غشا) .

المعنى وأسقيتها ماء ، وحاملا رمحا ؛ لأن الرمح لا يتقلد . قال الفارسي : ولا تكاد تجد هـذا الاستعمال فى حال سعة واختيار؛ فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من الغشاوة فعـلا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين : الغشـاوة على الأسماع والأبصار ؛ والوقف على قلوبهـم . وقال آخرون : الختم فى الجميع ، والغشاوة هى الختم فالوقف على هـذا على غشاوة؛ وقرأ الحسن غشاوة بضم الغين، وقرأ أبو حيوة : بفتحها؛ وروى عن أبى عمرو : غشوة رده إلى أصل المصدر؛ قال ابن كيسان : ويجوز غَشوة وغُشوة وأجودها غشاوة ؛ كذلك تستعمل العرب فى كل ما كان مشتملا على الشىء ، نحو عمامة وكنانة وقلادة وعصابة وغير ذلك .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أى للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعته ؛ والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد ، إلى غير ذلك ممـا يؤلم الإنسان . وفى التنزيل : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو مشتق من الحبس والمنع ؛ يقال فى اللغة : أعذبه عن كذا أى أحبسـه وأمنعه ، ومنه سمى عذوبة المـاء لأنها قـد أعذبت ، واستعذب بالحبس فى الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه ؛ ومنه قول على رضى الله عنـه : أعذبوا نساءكم عن الخروج ، أى احبسوهن . وعنه رضى الله عنه وقد شيع سرية فقال : أعذبوا عن ذكر النساء فإن ذلك يكسركم عن الغزو ؛ وكل من منعته شيئا فقد أعذبته ؛ وفى المثل : « لألجمنك لجاما معذبا » أى مانعا عن ركوب الناس ؛ ويقال : أعذب أى امتنع . وأعذب غيره فهو لازم ومتعد ؛ فسمى العـذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ابن جريج عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة فى المؤمنين ، واثنتان فى نعت الكافرين، وثلاث عشرة فى المنافقين . وروى أسباط عن السدى فى قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس اسم جنس، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانية — واختلف النحاة فى لفظ الناس ، فقيل : هو اسم من أسماء الجموع جمع إنسان وإنسانة، على غير اللفظ، وتصغيره نويس . فالناس من النوس وهو الحركة يقال : ناس ينوس أى

تحرك ، ومنه حديث أم زرع : « أناس من حلى أذنى » ، وقيل : أصله من نسى فأصل ناس نسى قلب فصار نيس تحركت الياء فانفتح ما قبلها فانقلبت ألفا ، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس . قال ابن عباس : نسى آدم عهد الله فسمى إنسانا . وقال عليه السلام : " نسى آدم فنسيت ذريته " وفى التنزيل : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ . وسيأتى ، وعلى هذا فالهمزة زائدة ؛ قال الشاعر :

لا تنسين تلك العهود فإنما * سميت إنسانا لأنك ناسى

وقال آخر :

فإن نسيت عهودا منك سالفة * فاغفر فأول ناس أول الناس

وقيل : سمى إنسانا لأنسه بحواء . وقيل : لأنسه بربه ، فالهمزة أصلية ؛ قال الشاعر :

وما سمى الانسان إلا لأنسه * ولا القلب إلا أنه يتقلب

الثالثة — لما ذكر الله جل وتعالى المؤمنين أولا ، و بدأ بهم لشرفهم وفضلهم ، ذكر الكافرين فى مقابلتهم ؛ إذ الكفر والإيمان طرفان ، ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم ، لنفى الايمان عنهم بقوله الحق : ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . ففى هذا رد على الكرامية حيث قالوا : إن الايمان قول باللسان و إن لم يعتقد بالقلب ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ﴾ . ولم يقل : بما قالوا وأضمروا ؛ وبقوله عليه السلام : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم " وهذا منهم قصور وجمود ، وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان " أخرجه ابن ماجه فى سننه ، فما ذهب إليه محمد بن كرام السجستانى وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق ؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد .

الرابعة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله و يواليه ، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه ، بل يبغضه و يعاديه ؛ فكل من علم الله أنه يوافى بالإيمان ، فالله محب له ، موال له ، راض عنه ، وكل من علم الله أنه يوافى بالكفر ، فالله مبغض له ، ساخط عليه ، معاد له ، لا لأجل إيمانه ، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافى به ؛ والكافر ضربان : كافر يعاقب لا محالة ، وكافر لا يعاقب ؛

فالذى يعاقب هو الذى يوافى بالكفر، فالله ساخط عليــه معادٍ له ؛ والذى لا يعاقب هو المـــوافى بالإيمان، فالله غير ساخط على هـــذا، ولا باغض له، بل محب له، موالٍ، لا لكفره لكن لإيمـــانه الموافى به؛ فلا يجوز أن يطلق القول وهى :

الخامسـة — بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافاة، ولأجل هـــذا قلنا إن الله راضٍ عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام، ومريد لثوابه ودخوله الجنة، لا لعبادته الصنم، لكن لإيمانه الموافى به ؛ وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته لكفره الموافى به .

وخالفت القدرية فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم؛ وهذا فاسد لمـا ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر؛ ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علمـــاء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزين به العبد قولا وفعلا؛ لكن الإيمان جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل؛ وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريًا، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره، عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليــه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرســـل الله الملك فينفخ فيـــه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهـــل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" فإن قيل وهى :

السادســة — فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمــد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة ، وهو محمد بن أبى قيس ؛ عن سليمان بن موسى وهو الأشـــدق ،

عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رزين العقيلي قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه" قال: قلت : "كيف يحيي الله الموتى؟ قال: " أما مررت بأرض لك مجدبة ثم مررت بها مخصبة، ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة " قلت: بلى، قال : "كذلك النشور" قال قلت: كيف لي أن أعلم أني مؤمن؟ قال: " ليس أحد من هذه الأمة ــ قال ابن أبي قيس أو قال من أمتي ــ عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن" .

قلت : وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوي فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ابن مسعود؛ فان ذلك موقوف على الخاتمة؛ كما قال عليه السلام : " وإنما الأعمال بالخواتيم" وهذا إنما يدل على أنه مؤمن في الحال والله أعلم .

السابعة ــ قال علماء اللغة : إنما سمي المنافق منافقا لإظهاره غير ما يضمر تشبيها باليربوع له جحر يقال له : النافقاء ، وآخر يقال له : القاصعاء ؛ وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرق التراب؛ فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج؛ فظاهر جحره تراب، وباطنه حفر؛ وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر؛ وقد تقدم هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ . قال علماؤنا : معنى يخادعون الله أي يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لعملهم عمل المخادع . وقيل : في الكلام حذف، تقديره : يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن الحسن وغيره ؛ وجعل خداعهم لرسوله خداعا له؛ لأنه دعاهم برسالته ؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله ، ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر ، ليحقنوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا ؛ قاله جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغة : أصل الخدع في كلام العرب : الفساد ، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي وأنشد :

أبيض اللون لذيذ طعمه * طيب الريق إذا الريق خدع [1]

---

(١) قاله سويد بن أبي كاهل، يصف ثغر امرأة؛ كما في اللسان مادة (خدع) .

قلت : فيخادعون الله على هذا، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسرا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يأتى؛ وفى التنزيل : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ . وقيل : أصله الإخفاء ؛ ومنه مخدع البيت الذى يُحرَزُ فيه الشيء حكاه ابن فارس وغيره ؛ وتقول العرب : انخدع الضب فى جحره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ نفى وإيجاب أى ما تحل عاقبة الخدع إلا بهم؛ ومن كلامهم : من خدع من لا يخدع فانما يخدع نفسه . وهـذا صحيح لان الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن ؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يخدع نفسه، ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ؛ وقد تقدّم من قوله عليه السلام أنه قال : "لا تخادع الله، فإنه من يخادع الله يخدعه الله، ونفسه يخدع لو يشعر" قالوا : يا رسول الله، وكيف يخادع الله ؟ قال : "تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره" . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ يُخَادِعُونَ ﴾ فى الموضعين ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائى ، وابن عامر : ﴿ يَخْدَعُونَ ﴾ الثانى ؛ والمصدر خدع بكسر الخاء وخديعة حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مورق العجلى : ﴿ يُخَدِّعُونَ ٱللَّهَ ﴾ بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبدالسلام بن شدّاد والجارود بضم الياء وإسكان الخاء وفتح الدال على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم؛ فحذف حرف الجر كما قال تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ ﴾ . أى من قومه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ . أى يفطنون أن وبال خدعهم راجع عليهم؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا، وإنما ذلك فى الدنيا، وفى الآخرة يقال لهم : ﴿ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا ﴾ على ما يأتى . قال أهل اللغة : شعرت بالشيء أى فطنت له؛ ومنه الشاعر لفطنته لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره من غريب المعانى .

ومنه قولهم : ليت شعرى أى ليتنى علمت .

قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ . ابتداء وخبر ؛ والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم، وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا، وإما جحدا وتكذيبا ؛ والمعنى قلوبهم مرضى لخلوها

عن العصمة والتوفيق، والرعاية والتأييد ؛ قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة ، من علة ، أو نفاق ، أو تقصير فى أمر . والقراء مجمعون على فتح الراء من مرض إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكن الراء .

قوله تعالى: ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾. قيل: هو دعاء عليهم، ويكون معنى الكلام زادهم الله شكا ونفاقا، جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار، وعجزا عن القدرة، كما قال الشاعر :

يامرسل الريح جنوبا وصبا * إذ غضبت زيد فزدها غضبا

أى لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه ؛ وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم . لأنهم شر خلق الله ، وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم أى فزادهم الله مرضا الى مرضهم، كما قال فى آية أخرى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ . وقال أرباب المعانى : فى قلوبهم مرض أى بسكونهم الى الدنيا، وحبهم لها ، وغفلتهم عن الآخرة ، وإعراضهم عنها . وقوله : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ أى وكلهم الى أنفسهم، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك الى اهتمام بالدين ولهم عذاب أليم بما يفنى عما يبقى . وقال الجنيد : علل القلوب من اتباع الهوى، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . أليم فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجع ، مثل السميع بمعنى المسمع ؛ قال ذو الرمة يصف إبلا :

ونرفع من صدور شمردلات * يصك وجوهها وهج أليم

وألم اذا أوجع، والإيلام : الإيجاع، والألم : الوجع، وقد ألم يألم ألما، والتألم : التوجع ، ويجمع أليم على ألاما وألماء مثل : كريم وكرماء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ ، ما مصدرية أى بتكذيبهم الرسل، وردهم على الله جل وعز، وتكذيبهم بآياته، قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائى بالتخفيف؛ ومعناه بكذبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة — واختلف العلماء في إمساك النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأول — قال بعض العلماء : إنمـا لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سـواه . وقد اتفق العلماء على بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه، وإن اختلفوا في سائر الأحكام؛ قال ابن العربي: وهذا منتقض، فقد قتل بالمجذر بن زياد، الحارث بن سويد بن الصامت لأن المجذَر قتل أباه سويدا يوم بعاث؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أحد فقتله ؛ فأخبر به جبريل النبيّ صلى الله عليـه وسلم فقتله به لأن قتله كان غيلة[1]؛ وقتل الغيلة حد من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام، لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بمـا ذكر؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحي ؛ وعلى هذا فتكون تلك قضية في عين، بوحي، فلا يحتج بها أو منسوخة بالاجماع والله أعلم .

القول الثاني — قال أصحاب الشافعي : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان يستتاب ولا يقتل . قال ابن العربي : وهذا وهم ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لم يستتبهم ولا نقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن استتابة الزنديق واجبة ؛ وقـد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم معرضا عنهم مع علمه بهم . فهذا المتأخر من أصحاب الشافعي الذي قال : إن استتابة الزنديق جائزة قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحة، لتأليف القلوب عليه، لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر :"معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتـل أصحابي" أخرجه البخاري ومسلم . وقد كان يعطي للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألفا؛ وهذا هو قول علمائنا وغيرهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك رحمـه الله في كف رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن المنافقين؛ نص على هذا محمد بن الجهم، والقاضي اسماعيل، والأبهري؛ وابن المـاجشون، واحتج بقوله تعالى : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الى قوله . ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمـه الله : النفاق في عهد رسول الله صلى الله

---

(١) راجع هذه القصة في سيرة ابن هشام (ص ٣٥٦، ٥٩٧) طبع أوربا . وكتاب الاستيعاب، في اسم المجذر .

عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم؛ فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة؛ وهو أحد قولي الشافعي. قال مالك : وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذ لم يشهد على المنافقين . قال القاضي إسماعيل : لم يشهد على عبد الله بن أبيّ إلا زيد بن أرقم وحده، ولا على الجلاس بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقال الشافعي رحمه الله محتجا للقول الآخر : السنة فيمن شهد عليه بالزندقة فجحد وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام إن ذلك يمنع من إراقة دمه؛ وبه قال أصحاب الرأي وأحمد والطبري وغيرهم . قال الشافعي وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ، لأن ما يظهرونه يَجُبُّ ما قبله . وقال الطبري : جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر ، لأنه حكم بالظنون ، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكل سرائرهم إلى الله؛ وقد كذب الله ظاهرهم بقوله : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ . قال ابن عطية : ينفصل المالكيون عما لزموه من هذه الآية بأنها لم تعين أشخاصهم فيها وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالنفاق، وبقي لكل واحد منهم أن يقول : لم أرد بها وما أنا إلا مؤمن، ولو عين أحد لما جب كذبه شيئا .

قلت : هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه، وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبي عليه السلام إياه حتى كان عمر رضي الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع ـــ وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيه عليه السلام بكونه ثبتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفسدوا دينهم فلم يكن في تبقيتهم ضرر، وليس كذلك اليوم ؛ لأنا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية ، إذا في موضع نصب على الظرف والعامل فيها قالوا ؛ وهي تؤذن بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهري : إذا اسم يدل على زمان

مستقبل ولم تستعمل إلا مضافة إلى جملة، تقول : أجيئك إذا احمر البسر و إذا قدم فلان؛ والذى يدل على أنهـا اسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يقدم فلان ؛ فهى ظرف وفيهـا معنى المجازاة . وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء و إذا؛ فالفعل قولك : إن تأتنى آتك،والفاء إن تأتنى فأنا أحسن إليـك؛ و إذا كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَـا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها * خطانا إلى أعدائنا فنضـارب

فعطف فنضارب بالجزم على موضـع كان لأنه مجزوم، ولو لم يكن مجزوما لقال فنضارب بالنصب . وقد تزاد على إذا ، ما تأكيدا فيجزم بها أيضا؛ ومنه قول الفرزدق :

فقام أبو ليـلى إليه ابن ظالم * وكان إذا ما يسلل السيف يضرب

قال سيبويه : والجيد ما قال كعب بن زهير :

وإذا ما تشـاء تبعث منهـا * مغرب الشمس ناشطا مذعورا

يعنى أن الجيـد ألا يجزم بإذا كما لم يجزم فى هـذا البيت . وحكى عن المبرد : أنهـا فى قولك فى المفاجأة خرجت فإذا زيد ظرف مكان لأنهـا تضمنت جثة، وهـذا مردود لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان؛ ومنه قوله : «اليوم خمر وغدا أمر» فمعناه وجود خمر ووقوع أمر .

قوله : ﴿ قِيلَ ﴾ من القول وأصله قُوِل نقلت كسرة الواو الى القاف فانقلبت الواو ياء؛ ويجوز: قيل لهم، بإدغام اللام فى اللام، وجاز الجمع بين ساكنين لأن الياء حرف مدّ ولين؛ قال الأخفش : ويجوز قيل بضم القاف والياء ؛ وقال الكسائى : ويجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لمـا لم يسم فاعله ، وهى لغة قيس؛ وكذلك جىء وغيض وحيل وسيق وسىء وسيئت؛ وكذلك روى هشام عن ابن عباس[1]، ورويس[2] عن يعقوب؛ وأشم منها نافع سىء وسيئت خاصة؛ وزاد ابن ذكوان : حيل وسيق وكسر الباقون فى الجميع . فأما هذيل وبنو دبير من أسد وبنى فقعس فيقولون : قول بواو ساكنة.

(١) فى نسخة : «ابن عامر» .

(٢) رويس (كزبير) لقب محمد بن المتوكل القارئ، راوى يعقوب بن إسحاق . «القاموس المحيط» .

قوله : ﴿ لَا تُفْسِدُوا ﴾ لا نهى، والفساد ضدّ الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدّها . فسد الشيء يفسد فسادا وفسودا وهو فاسد وفسيد . والمعنى فى الآية لا تفسدوا فى الأرض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيل : كانت الأرض قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيها الفساد، ويفعل فيها بالمعاصى؛ فلما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد وصلحت الأرض؛ فاذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ؛ كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ .

قوله : ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ الأرض مؤنثة وهى اسم جنس ، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرضة، ولكنهم لم يقولوا، والجمع أرضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم : عُرُسات، ثم قالوا أرضون فجمعوا بالواو والنون ، والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون، عوضا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سكنت، وقد تجمع على أروض؛ وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون: أرض وآراض، كما قالوا : أهل وآهال ؛ والأراضى أيضا على غير قياس كأنهم جمعوا أرضا ؛ وكل ما سفل فهو أرض ؛ وأرض أرضة أى زكية بينة الأراضة، وقد أرُضت بالضم أى زكت. قال أبو عمرو : نزلنا أرضا أريضة أى معجبة للعين؛ ويقال : لا أرض لك، كما يقال : لا أم لك . والأرض أسفل قوائم الدابة؛ قال حميد يصف فرسا :

ولم يقلب أرضها البيطار * ولا لحبليه بها حبار

أى أثر؛ والارض: النفضة والرعدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبدالله بن الحارث قال : زلزلت الأرض بالبصرة، فقال ابن عباس: والله ما أدرى؟ أزلزلت الأرض بى أم بى ارض؟ أى أم بى رعدة؛ وقال ذو الرمة يصف صائدا :

إذا توجس ركزا من سنابكها * أوكان صاحب أرض أو به الموم

والأرض : الزكام، وقد آرضه الله إيراضا، أى أزكمه فهو مأروض؛ وفسيل مستأرض، وودية مستأرضة بكسر الراء وهو أن يكون له عرق فى الأرض؛ فأما إذا نبت على جذع النخل فهو الراكب. والإراض بالكسر: بساط ضخم من صوف أو وبر، ورجل أريض، أى متواضع خليق للخير؛ قال

الأصمعي يقال : هو آرضهم أن يفعل ذلك أى أخلقهم ؛ وشئ عريض أريض اتباع له ؛ وبعضهم يفرده ويقول : جدى أريض أى سمين .

قوله : ﴿ نَحْنُ ﴾ أصـل نحن نَحُنْ قلبت حركة الحـاء على النون وأسكنت الحاء ؛ قاله هشام آبن معاوية النحوى . وقال الزجاج : نحن لجـاعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ؛ فلمـا اضطروا إلى حركة نحن لالتقاء السـاكنين حركوها بما يكون للجاعة . قال ولهـذا ضموا واو الجمع فى قوله عز وجل : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾ . وقال محمد بن يزيد : نحن مثل قبلُ و بعـدُ لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر، فأنا للواحد، ونحن للتثنية والجمع، وقـد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن قمنا ، قال الله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ . والمؤنث فى هذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر؛ تقول المرأة : قمت وذهبت ، وقمنا وذهبنا ، وأنا فعلت ذاك ، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فآعلم .

قوله تعالى : ﴿مُصْلِحُونَ﴾ اسم فاعل من أصلح ؛ والصلاح: ضد الفساد، وصلح الشيء بضم اللام وفتحها لغتان قاله ابن السـكيت . والصلوح بضم الصاد مصدر صلح بضم اللام ؛ قال الشاعر :

فكيف بإطـــراقى إذا ما شمتنى * وما بعـــد شتم الوالدين صـلوح

وصـلاح من أسماء مكة ؛ والصلح بكسر الصاد : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ، لأن إفسادهم عندهم إصلاح ، أى إن ممالأتنا الكفار إنمـا نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله آبن عباس وغيره .

قوله عز وجل : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ ردّا عليهم وتكذيبا لقولهم ؛ قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب ، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ . وهذا صحيح. وكسرت إنّ لأنها مبتدأة ، قاله النحاس . وقال علىّ بن سليمان : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق ، بمعنى ألا (١) . وهم يجوز أن يكون مبتدأ والمفسدون خبره والمبتدأ وخبره خبر إنّ ؛ ويجوز أن تكون هم توكيدا للهاء والميم فى إنهم ، ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمـادا — والمفسدون خبر إنّ ؛ والتقدير : ألا إنهم المفسدون ، كما تقدّم فى قوله : ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

---

(١) فى العبارة غموض . ولعل الصواب : « ... يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أما أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأما بمعنى ألا » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ . قال ابن كيسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد أن يذم، إنما يذم إذا علم أنه مفسد، ثم أفسد على علم ؛ قال : ففيه جوابان ؛ أحدهما : أنهم كانوا يعملون الفساد سرا و يظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا، وهم لا يشعرون أن ذلك فساد، وقد عصوا الله ورسوله فى تركهم تبين الحق واتباعه . ولكن حرف تأكيد واستدراك، ولا بد فيه من نفى و إثبات ؛ إن كان قبله نفى، كان بعده إيجاب، و إن كان قبله إيجاب، كان بعده نفى ؛ ولا يجوز الاقتصار بعده على اسم واحد إذا تقدم الإيجاب، ولكنك تذكر جملة مضادة لما قبلها كما فى هذه الآية، وقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يجئ، ولا يجوز جاءنى زيد لكن عمرو ثم تسكت، لأنهم قد استغنوا ببل فى مثل هذا الموضع عن لكن، و إنما يجوز ذلك إذا تقدم النفى كقولك : ما جاءنى زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين، فى قول مقاتل وغيره، ﴿ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ أى صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشرعه، كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب . وألف آمنوا ألف قطع لإنك تقول : يؤمن، والكاف فى موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف أى إيمانا كإيمان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ . يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، عن ابن عباس ؛ وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب ؛ وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه فى خفاء واستهزاء ، فأطلع الله نبيه والمؤمنين على ذلك، وقرر أن السفه، ورقة الحلوم، وفساد البصائر، إنما هى فى حيزهم، وصفة لهم ؛ وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرين الذى على قلوبهم . وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : أنها نزلت فى شأن اليهود أى و إذا قيل لهم يعنى اليهود آمنوا كما آمن الناس عبد الله بن سلام وأصحابه، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ! يعنى الجهال والخرقاء . وأصل السفه فى كلام العرب : الخفة والرقة ، يقال : ثوب سفيه إذا كان ردىء النسج خفيفه ؛ أو كان باليا رقيقا . وتسفهت الريح الشجر : مالت به ؛ قال ذو الرمة :

مشين كما اهتزت رماح تسفهت [1] * أعاليها مر الرياح النواسم

---

(١) كذا فى الأصول، واللسان مادة (سفه) . وفى ديوانه : «رويدا» .

وتسفهت الشيء : استحقرته . والسفه : ضد الحلم، ويقال : إن السّفه أن يكثر الرجل شرب الماء فلا يروى . ويجوز في همزتي السفهاء[1] أربعة أوجه، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة، وهي قراءة أهل المدينة، والمعروف من قراءة أبي عمرو؛ وإن شئت خففتهما جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة؛ وإن شئت خففت الأولى وحققت الثانية؛ وإن شئت حققتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ . مثل ولكن لا يشعرون؛ وقد تقدم . والعلم معرفة المعلوم على ما هو به؛ تقول : علمت الشيء أعلمه علما عرفته، وعالمت الرجل فعلمته أعلُمه بالضمة في المستقبل غلبته بالعلم .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ . أنزلت هذه الآية في ذكر المنافقين . أصل لقوا : لقيوا نقلت الضمة إلى القاف وحذفت الياء لالتقاء الساكنين؛ وقرأ محمد بن السميقع اليماني : لاقوا الذين آمنوا . والأصل لاقيوا تحركت الياء وقبلها فتحة انقلبت ألفا، اجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ثم حركت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضمت الواو في لاقوا في الإدراج، وحذفت من لقوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التي في لقوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها، وحركت في لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ﴾ . إن قيل : لم وصلت خلوا بإلى وعرفها أن توصل بالباء؟ قيل له : خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا؛ ومنه قول الفرزدق :

كيف تراني قالبا مجني * قد قتل الله زيادا عني

لما أنزله منزلة صرف؛ وقال قوم : إلى بمعنى مع وفيه ضعف . وقال قوم : الى بمعنى الباء، وهذا يأباه الخليل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم، فإلى على بابها . والشياطين جمع شيطان على التكسير وقد تقدم القول في اشتقاقه ومعناه من الاستعاذة . واختلف المفسرون في المراد بالشياطين هنا ، فقال ابن عباس والسدي : هم رؤساء الكفر . وقال الكلبي :

(١) أي مع كلمة ألا التي بعدها

هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع من ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ . أى مكذبون بما ندعى إليه، وقيل : ساخرون . والهزء : السخرية واللعب؛ يقال : هزئ به واستهزأ؛ قال الراجز :

قد هزئت منى أم طيسله * قالت أراه معدما لا مال له

وقيل : أصل الاستهزاء : الانتقام؛ كما قال الآخر :

قد استهزءوا منهم بألفى مدجج * سراتهم وسط الصحاصح جثم

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ . أى ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم ؛ فسمى العقوبة باسم الذنب، هذا قول الجمهور من العلماء ، والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلا ؛ والجهل لا يفتخر به ذو عقل؛ وإنما قاله ليزدوج الكلام فيكون ذلك أخف على اللسان من المخالفة بينهما ؛ وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة؛ وقال الله عز وجل : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ . وقال : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ . والجزاء لا يكون سيئة، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق وجب؛ ومثله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ . و﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ . و﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ . وليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ . ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا يمل حتى تملوا ولا يسأم حتى تسأموا" قيل حتى بمعنى الواو أى وتملوا؛ وقيل : المعنى وأنتم تملون ؛ وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل؛ وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا

هى فى تأمل البشر هزء وخدع ومكر، حسب ما روى : « إن النـار[1] تجمد كما تجمد الإهالة فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتنخسف بهم » وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ هم منافقو أهل الكتاب ؛ فذكرهم وذكر استهزاءهم، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم يعنى رؤساءهم فى الكفر — على ما تقدّم — قالوا : إنا معكم على دينكم إنما نحن مستهزئون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ الله يستهزئ بهـم فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنـة ، ثم يقال لهم : تعـالوا فيقبلون يسبحون فى النـار ، والمؤمنون على الأرائك وهى السرر فى الحجـال ينظرون اليهم ، فإذا انتهوا إلى الباب سـدّ عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِـمْ ﴾ أى فى الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين غلقت دونهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعـالى : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ . إلى أهل النار : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . وقال قوم : الخداع من الله والاستهزاء هو استدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان فى الدنيا، خلاف ما يغيب عنهم، ويستر عنهم من عذاب الآخرة، فيظنون أنه راض عنهم، وهو تعالى قد حتم عذابهم ؛ فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكر وخداع ؛ ودل على هـذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم[2] الله عز وجل يعطى العبـد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج » ثم نزع بهذه الآية : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال بعض العلماء فى قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ . أى يطيل لهم المدة ويمهلهم ويملى لهم ؛ كما قال : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ وأصله الزيادة ؛ قال يونس بن حبيب : يقال مدّ فى الشر، وأمدّ فى الخير ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ . وقال : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ . وحكى

---

(١) فى نسخة « تخمد » بالخاء .

(٢) فى الجامع الصغير : « إذا رأيت » .

عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيتــه . وعن الفراء واللحياني : مددت، فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مدّ النهر [النهر][(1)]، وفي التنزيل: ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾؛ وأمددت فيما كانت زيادته من غيره كقولك : أمددت الجيش بمــدد ، ومنه : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ وأمدّ الجرح لأن المدّة من غيره أي صارت فيه مدة .

قوله تعالى : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ كفرهم وضلالهم؛ وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ . أي ارتفع وعلا وتجاوز المقــدار الذي قدرته الخزان؛ وقوله في فرعون : ﴿ إِنَّهُ طَغَى ﴾ . أي أسرف في الدعوى حيث قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ . والمعنى في الآية يمدهم بطول العمر حتى يزيدوا في الطغيان فيزيدهم في عذابهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون؛ وقال مجاهد : أي يترددون متحيرين في الكفر؛ وحكى أهل اللغــة : عمه الرجل يعمه عموها وعمها فهو عمــه وعامه إذا حار؛ ويقال : رجل عامه وعمِه : حائر متردد ، وجمعه عُمَّه ؛ وذهبت إبله العمهى إذا لم يدر أيـن ذهبت . والعمى في العين ، والعمه في القلب؛ وفي التنزيل : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾. قال سيبويه : ضمت الواو في اشتروا فرقا بينها وبين الواو الأصلية، نحو : ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ . وقال ابن كيسان : الضمة في الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حركت بالضم كما فعل في نحن . وقرأ ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر بكسر الواو على أصــل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصاري عن قعنب أبي السمال العدوي : أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة وأن ما قبلهـا مفتوحا؛ وأجاز الكسائي همز الواو وضمها كأدؤر . واشتروا من الشراء، والشراء هنا مستعار؛ والمعنى استحبوا الكفر على الإيمان كما قال: ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ . فعبر عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه؛ فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهــدى؛ ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان؛ وإنمـا

---

(1) الزيادة عن اللسان مادة (مد) .

أخرجه بلفظ الشراء توسعا لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال؛ والعرب تستعمل ذلك فى كل من استبدل شيئا بشىء؛ قال أبو ذؤيب :

وإن تزعمينى كنت أجهل فيكم * فإنى اشتريت الحلم بعدك بالجهل

وأصل الضلالة : الحيرة ؛ ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة ؛ قال جل وعز : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ ﴾ . أى الناسين ؛ ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عز وجل : ﴿ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ . أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : ربح بيعك، وخسرت صفقتك؛ وقولهم : ليل قائم، ونهار صائم؛ والمعنى ربحت وخسرت فى بيعك، وقمت فى ليلك وصمت فى نهارك؛ أى فما ربحوا فى تجارتهم؛ وقال الشاعر :

نهارك هائم وليلك نائم * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

ابن كيسان : ويجوز تجارة وتجائر، وضلالة وضلائل .

﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فى اشترائهم الضلالة؛ وقيل : فى سابق علم الله . والاهتداء ضد الرشاد ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ . فمثلهم رفع بالابتداء والخبر فى الكاف، فهى اسم كما هى فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن ينهى ذوى شطط * كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

وقول امرئ القيس :

ورحنا بكابن الماء يجنب وسطنا * تصوب فيه العين طورا وترتقى

أراد مثل الطعن ، وبمثل ابن الماء؛ ويجوز أن يكون الخبر محذوفا تقديره مثلهم مستقر كمثل فالكاف على هذا حرف . والمثل والمثل والمثيل واحد ومعناه الشبه؛ والمتماثلان : المتشابهان هكذا قال أهل اللغة .

قوله : ﴿ ٱلَّذِى ﴾ يقع للواحد والجمع ؛ قال ابن الشجرى هبة الله بن على : ومن العرب من يأتى بالجمع بلفظ الواحد كما قال :

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقيل فى قول الله تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ . إنه بهذه اللغة . وكذلك قوله : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي﴾ . قيل : المعنى كمثل الذين استوقدوا ، ولذلك قال : ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ . فحمل أول الكلام على الواحد ، وآخره على الجمع ؛ فأما قوله تعالى : ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ . فإن الذى ها هنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا . وقيل : إنما وحد الذى واستوقد لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولى الإيقاد لهم ، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال بنورهم ؛ واستوقد بمعنى أوقد ؛ مثل استجاب بمعنى أجاب ؛ فالسين والتاء زائدتان قاله الأخفش ؛ ومنه قول الشاعر :

وداع دعا يامن يجيب إلى الندا * فلم يستجبه عنـــد ذاك مجيب

أى يجبه ؛ واختلف النحاة فى جواب لما ، وفى عود الضمير من نورهم ؛ فقيل : جواب لما محذوف وهو طفئت ، والضمير فى نورهم على هذا للمنافقين ، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة كما قال تعالى : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ وقيل : جوابه ذهب ، والضمير فى نورهم عائد على الذى ؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد لأن بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردده ؛ والمعنى المراد بالآية ضرب مثل للمنافقين ، وذلك أن ما يظهرونه من الإيمان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتوارث والغنائم ، والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليلة مظلمة فاستضاء بها ، ورأى ما ينبغى أن يتقيه وأمن منه ؛ فإذا طفئت عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى وبقى متحيرا ؛ فكذلك المنافقون لما آمنوا اغتروا بكلمة الإسلام ، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم ؛ كما أخبر التنزيل : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ويذهب نورهم ؛ ولهذا يقولون : ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ . وقيل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار ؛ وانصرافهم عن مودتهم وارتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غير هذا .

قوله : ﴿نَارًا﴾ النـار مؤنثة وهى من النور وهو أيضا الإشراق ، وهى من الواو ؛ لأنك تقول فى التصغير : نويرة ، وفى الجمع نور وأنور ، ونيران انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها ؛ وضاءت

وأضاءت لغتان، يقــال : ضاء القمر يضوء ضــوءاً وأضاء يضيء، ويكون لازما ومتعــديا ؛ وقرأ محمد بن السميقع : ضاءت بغير ألف والعامة بالألف؛ قال الشاعر :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم * دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

﴿ مَا حَوْلَهُ ﴾ ما زائدة مؤكدة؛ وقيل : مفعولة بأضاءت ؛ وحوله ظرف مكان والهاء فى موضع خفض بإضافته اليها . و﴿ ذَهَبَ ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشيء . ﴿ وَتَرَكَهُمْ ﴾. أى أبقاهم . ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ جمع ظلمة، وقرأ الأعمش : ظلمات بإسكان اللام على الأصل ؛ ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت ؛ وقرأ أشهب العقيلى : ظلمات بفتح اللام ؛ قال البصريون أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف . وقال الكسائى: ظلمات، جمع الجمع، جمع ظُلَم . ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال؛ كأنه قال : غير مبصرين ، فلا يجوز الوقف على هذا، على ظلمات.

قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ صم أى هم صم ، فهو خبر ابتداء مضمر ، وفى قراءة عبد الله بن مسعود وحفصة : صما بكما عميا، فيجوز النصب على الذم؛ كما قال تعالى : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ . وكما قال : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ . وكما قال الشاعر :

سقونى الخمــر ثم تكنفونى * عداةَ الله من كذب وزور

فنصب عداة الله على الذم، فالوقف على يبصرون على هذا المذهب صواب حسن ؛ ويجوز أن ينصب صما بتركهم؛ كأنه قال : وتركهم صما بكما عميا ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على يبصرون. والصمم فى كلام العرب: الانسداد؛ يقال: قناة صماء إذا لم تكن مجوّفة؛ وصممت القارورة إذا سددتها، فالأصم: من انسدت خروق مسامعه؛ والأبكم: الذى لاينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس ؛ وقيــل : الأخرس والأبكم واحد ؛ ويقــال رجل أبكم و بكيم أى أخرس بين الخــرس والبكم قال :

فليت لسانى كان نصفين منهما * بكيم ونصف عند مجرى الكواكب

والعمى : ذهاب البصر وقد عمى فهو أعمى، وقوم عمى، وأعماه الله، وتعامى الرجل أرى ذلك من نفسه، وعمى عليه الأمر إذا التبس؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ .

وليس الغرض مما ذكرناه نفي الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها في جهة ما؛ تقول . فلان أصم عن الخنا ؛ ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

* أصم عما ساءه سميع *

وقال آخـــر :

وعوراء الكلام صممت عنها * ولو أني أشاء بهـا سميع

وقال الدارمي :

أعمى إذا ما جارتي خرجت * حتى يواري جارتي الجـدر

وقال بعضهم في وصاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أُدخـل إذا ما دخلت أعمى * واخرج إذا ما خرجت أخرس

وقال قتادة : صم عن استماع الحق، بكم عن التكلم به، عمي عن الإبصار له .

قلت : وهـذا المعنى هو المراد في وصف النبي صلى الله عليـه وسلم ولاة آخر الزمان في حديث جبريل " وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها " والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم ؛ يقال : رجع بنفسه رجوعا، ورجعه غيره؛ وهذيل تقـول : أرجعه غيره ؛ وقوله تعالى : ﴿ يَرْجِـعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ . أي يتلاومون فيما بينهم حسب ما بينه التنزيل في سورة سبأ .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ . قال الطبري : أو بمعنى الواو؛ وقاله الفراء وأنشد :

وقد زعمت ليـــلى بأني فاجر * لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وقال آخـــر :

نال الخلافة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

أي وكانت ، وقيل: أو للتخيير أي مثلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحد الأمرين ؛ والمعنى أو كأصحاب صيب ؛ والصيب : المطر، واشتقاقه من صاب يصوب إذا نزل؛ قال علقمة :

فلا تعـدلى بيني وبين معمر * سقتك روايا المزن حيث تصـوب

وأصله : صيْوب اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ؛ كما فعلوا في ميت وسيد وهين ولين ؛ وقال بعض الكوفيين : أصله صويب على مثـال فعيل ؛ قال

النحاس: لو كان كما قالوا لما جاز إدغامه، كما لا يجوز إدغام طويل؛ وجمع صيب صيايب، والتقدير في العربية مثلهم كمثل الذى استوقد نارا أو كصيب .

قوله تعالى: ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السماء تذكر وتؤنث، وتجمع على أسمية وسموات وسمى ، على فعول ؛ قال العجاج :

* تلفــه الرياح والســمى *

والسماء : كل ما علاك فأظلك ، ومنه قيل لسقف البيت : سماء؛ والسماء: المطر سمى به لنزوله من السماء، قال حسان بن ثابت :

ديار من بنى الحسحاس قفر * تعفيها الروامس والسماء

وقال آخــر (١) :

إذا سقط السماء بأرض قوم * رعيناه وإن كانوا غضابا

ويسمى الطين والكلأ أيضا سماء ؛ يقال : ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم ، يريدون الكلأ والطين ؛ ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه ؛ قال (٢) :

وأحمر كالديباج أما سماؤه * فريا وأما أرضــه فمحول

والسماء : ما علا، والأرض : ما سفل، على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ ابتــداء وخبر؛ ورعد وبرق معطوف عليه؛ وقال ظلمــات بالجمع إشارة الى ظلمــة الليل وظلمة الدجن : وهو الغيم، ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت؛ وقد مضى ما فيه من اللغات فلا معنى للإعادة، وكذا كل ما تقدم ان شاء الله تعالى .

واختلف العلماء فى الرعد؛ ففى الترمذى عن ابن عباس قال : سألت اليهود النبى صلى الله عليــه وسلم عن الرعد ما هو ؟ قال : "ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله" قالوا : فما هذا الصوت الذى يسمع ؟ قال : "زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهى الى حيث أمر الله" قالوا : صدقت ، الحديث بطوله . وعلى هذا التفسير أكثر العلماء ؛ فالرعد : اسم الصوت المسموع، وقاله على رضى الله عنه، وهو المعلوم فى لغة العرب؛ وقد قال لبيد فى جاهليته :

فجعنى الرعد والصواعق بالـ * ـفارس يوم الكريهة النجد

---

(١) هو معاوية بن مالك .   (٢) القائل هو طفيل الغنوى ، كما فى اللسان مادة (سما) .

وروى عن ابن عباس أنه قال : الرعد : ريح تختنق بين السحاب : فتصوّت ذلك الصوت . واختلفوا في البرق ، فروى عن علي ، وابن مسعود ، وابن عباس رضوان الله عليهم : البرق : مخراق حديد بيد الملك يسوق به السحاب .

قلت: وهو الظاهر من حديث الترمذي ، وعن ابن عباس أيضا هو سوط من نور بيد الملك ، يزجر به السحاب ، وعنه أيضا البرق : ملك يتراءى . وقالت الفلاسفة : الرعد صوت اصطكاك أجرام السحاب ، والبرق مما ينقدح من اصطكاكها ؛ وهذا مردود لا يصح به نقل والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة ، ومنه الرعديد للجبان ، وارتعد : اضطرب ؛ ومنه الحديث : "فجيء بهما ترعد فرائصهما " الحديث أخرجه أبو داود . والبرق أصله من البريق والضوء ؛ ومنه البراق دابة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله ؛ ورعدت السماء من الرعد ، وبرقت من البرق ؛ ورعدت المرأة وبرقت تحسنت وتزينت ؛ ورعد الرجل وبرق تهدد وأوعد ؛ قال ابن أحمر :

يا جل ما بعدت عليك بلادنا * وطلابنا فابرق بأرضك وارعد

وأرعد القوم وأبرقوا : أصابهم رعد وبرق ؛ وحكى أبو عبيدة ، وأبو عمرو : أرعدت السماء وأبرقت ، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدد وأوعد ؛ وأنكره الأصمعي . واحتُجّ عليه بقول الكميت :

أبرق وأرعد يا يزيـ * ـد فما وعيدك لي بضائر

فقال : ليس الكميت بحجة .

فائدة : روى ابن عباس قال : كنا مع عمر بن الخطاب في سفرة بين المدينة والشام ، ومعنا كعب الأحبار ، قال : فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد ، وفرق الناس ، قال : فقال لي كعب : إنه من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، عوفي مما يكون في ذلك السحاب والبرد والصواعق ؛ قال : فقلتها أنا وكعب ، فلما أصبحنا واجتمع الناس ؛ قلت لعمر : يا أمير المؤمنين ، كأنا كنا في غير ما كان فيه الناس ، قال : وما ذاك ؟ قال : فحدثته حديث كعب ؛ قال : سبحان الله ! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم ! في رواية فإذا بردة قد أصابت أنف عمر

فأثرت به؛ وستأتى هـــذه الرواية فى سورة الرعد إن شاء الله؛ ذكر الروايتين أبو بكر أحمـد بن على بن ثابت الخطيب فى روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال: "اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك".

قوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ . جعلهم أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليـه السلام؛ وذلك عنـدهم كفر والكفر موت . وفى واحد الأصابع خمس لغات : إصبع بكسر الهمزة وفتح البـاء، وأصبع بفتح الهمزة وكسر الباء، ويقال بفتحهما جميعا، وضمهما جميعا، وبكسرهما جميعا؛ وهى مؤنثـة، وكذلك الأذن وتخفف وتثقل وتصغر، فيقال : أذينة ولو سميت بها رجلا ثم صغرته قلت : اذين؛ فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر؛ فأما قولهم : أذينة فى الاسم العلم فإنمـا سمى به مصغرا . والجمع آذان، وتقول : أذنتــه إذا ضربت أذنه؛ ورجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد؛ يستوى فيه الواحد والجمع؛ وأذانى : عظيم الأذنين؛ ونعجة أذناء، وكبش آذن؛ وأذنت النعل وغيرها تأذينا؛ إذا جعلت لهـا أذنا، وأذنت الصبى عركت أذنه .

قوله تعالى : ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ أى من أجل الصواعق، والصواعق جمع صاعقة؛ قال ابن عباس ومجاهد، وغيرهما : إذا اشتد غضب الرعد الذى هو الملك طار النار من فيه وهى الصواعق، وكذا قال الخليل قال : هى الواقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة : نار تسقط من السماء فى رعد شديد . وحكى الخليل عن قوم : الساعقة بالسين، وقال أبو بكر النقاش يقال : صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنى واحد؛ وقرأ الحسن : من الصواقع بتقديم القاف، ومنه قول أبى النجم :

يحكون بالمصقولة القـــواطع * تشقق البرق عن الصــواقع

قال النحاس : وهى لغـة تميم وبعض بنى ربيعـة؛ ويقال : صعقتهم السماء إذا ألقت عليهـم الصاعقة، والصاعقة أيضا صيحة العذاب؛ قال الله عز وجل : ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ . ويقال : صعق صعقة وتصعاقا أى غشى عليــه؛ ومنه قوله تعالى : ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ فأصعقه غيره، قال ابن مقبل :

ترى النعرات الزرق(١) تحت لبانه * أحادى ومثنى أصعقتها صواهله

وقوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ . أى مات ، وشبه الله تعالى فى هذه الآية أحوال المنافقين بما فى الصيب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق ؛ فالظلمات مثل لما يعتقدونه من الكفر، والرعد والبرق مثل لما يخوفون به ؛ وقيل : مثل الله تعالى القرآن بالصيب لما فيه من الإشكال عليهم . والعمى : هو الظلمات ، وما فيه من الوعيد ، والزجر : هو الرعد ؛ وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تبهرهم : هو كالبرق . والصواعق مثل لما فى القرآن من الدعاء إلى القتال فى العاجل ، والوعيد فى الآجل . وقيل : الصواعق : تكاليف الشرع التى يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ . حذر وحذار بمعنى ؛ وقرئ بهما ؛ قال سيبويه : هو منصوب لأنه مفعول له أى مفعول من أجله ؛ وحقيقته أنه مصدر ؛ وأنشد سيبويه :

وأغفر عوراء الكريم إدخاره * وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وقال الفراء : هو منصوب على التمييز . والموت : ضد الحياة ، وقد مات يموت ويمات أيضا قال الراجز :

بنيتى سيدة البنات * عيشى ولا يؤمن أن تماتى

فهو ميّت وميْت ، وقوم موتى وأموات وميّتون وميْتون ، والموات بالضم : الموت ، والموات بالفتح : مالا روح فيه ، والموات أيضا الأرض التى لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بها أحد ، والموتان بالتحريك خلاف الحيوان ؛ يقال : اشتر المَوَتان ، ولا تشتر الحيوان ؛ أى اشتر الأرضين والدور ، ولا تشتر الرقيق والدواب ، والموتان بالضم : موت يقع فى الماشية ؛ يقال : وقع فى المال موتان ، وأماته الله وموته شدد للمبالغة ، وقال :

فعروة مات موتا مستريحا * فهأنذا أُمَوَّتُ كل يوم

وأماتت الناقة إذا مات ولدها فهى مميت ومميتة ؛ قال أبو عبيد : وكذلك المرأة وجمعها مماويت ؛ قال ابن السكيت : أمات فلان إذا مات له ابن أو بنون ، والمتماوت من صفة الناسك المرائى ؛

(١) فى اللسان مادة (صعق) : «الخضر» .

وموت مائت؛ كقولك : ليل لائل؛ يؤخذ من لفظه ما يؤكد به، والمستميت للأمر المسترسل له؛ قال رؤبة :

وزبد البحـــر له كتيت ⁘ والليل فوق المـاء مستميت،

والمستميت أيضا : المستقتل الذى لا يبالى فى الحرب من الموت؛ وفى الحديث : "أرى القوم مستميتين" وهم الذين يقاتلون على الموت؛ والموتة بالضم : جنس من الجنون والصرع يعترى الإنسان؛ فإذا أفاق عاد إليه كمال عقـله كالنائم والسكران ؛ ومؤتة بضم الميم وهمز الواو : اسم أرض قتل بها جعفر بن أبى طالب عليه السـلام .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ . ابتـداء وخبر، أى لا يفوتونه، يقـال : أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة، قال الشاعر :

أحطنا بهـم حتى إذا ما تيقنوا * بما قد رأوا مالوا جميعا إلى السلم

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ . وأصله محيط نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت . فالله سبحانه محيـط بجميع المخلوقات، أى هى فى قبضته وتحت قهره؛ كما قال : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . وقيل : محيط بالكافرين، أى عالم بهم؛ دليله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ . وقيل : مهلكهم وجامعهم، دليله قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ . أى إلا أن تهلكوا جميعا ؛ وخص الكافرين بالذكر لتقدّم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ . الآية يكاد معناه يقارب؛ يقال : كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل؛ ويجوز فى غير القرآن يكاد أن يفعل، كما قال رؤبة :

* قد كاد من طول البلا أن يمصحا *

مشتق من المصح وهو الدرس؛ والأجود أن تكون بغير أن لأنها لمقاربة الحـال، وأن تصرف الكلام إلى الاستقبال وهذا متناف؛ قال الله عز وجل : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ . ومن كلام العرب : كاد النعام يطير، وكاد العروس يكون أميرا ، لقربهما من تلك الحـال ؛ وكاد فعل متصرف على فعل يفعل ؛ وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل ، قال : وما كدت آئبا . ويجرى مجرى

كاد : كَرَب وجعل وقارب وطَفِق؛ في كون خبرها بغير أن، قال الله عز وجل : ﴿وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة، والحال لا يكون معها أن فاعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ الخطف : الأخذ بسرعة، ومنه سمي الطير خطافا لسرعته، فمن جعل القرآن مثلا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يذهب أبصارهم ، ومن جعله مثلا للبيان الذي في القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما يبهرهم ؛ ويخطَف ويخطِف لغتان قرئ بهما ؛ وقد خَطِفه بالكسر يَخْطَفُهُ خطفا ، وهي اللغة الجيدة ، واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خَطَف يَخْطِف ؛ الجوهري : وهي قليلة رديئة لا تكاد تعرف، وقد قرأ بها يونس في قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ . وقال النحاس : في يخطف سبعة أوجه، القراءة الفصيحة : يَخْطَفُ؛ وقرأ عليّ بن الحسين، ويحيى بن وثاب : يخطف بكسر الطاء . قال سعيد الأخفش : هي لغة؛ وقرأ الحسن وقتادة ، وعاصم الجحدري، وأبو رجاء العطاردي : بفتح الياء وكسر الخاء والطاء؛ وروى عن الحسن أيضا : أنه قرأ بفتح الخاء؛ قال الفراء : وقرأ بعض أهل المدينة بإسكان الخاء وتشديد الطاء؛ قال الكسائي والأخفش والفراء : يجوز يخطف بكسر الياء والخاء والطاء، فهذه ستة أوجه موافقة للخط، والسابعة حكاها عبد الوارث قال : رأيت في مصحف أبيّ بن كعب يتخطف، وزعم سيبويه والكسائي : أن من قرأ يخطف بكسر الخاء والطاء فالأصل عنده يختطف ثم أدغم التاء في الطاء فالتقى ساكنان فكسرت الخاء لالتقاء الساكنين ؛ قال سيبويه : ومن فتح الخاء ألقى حركة التاء عليها؛ وقال الكسائي : ومن كسر الياء فلأن الألف في اختطف مكسورة؛ فأما ما حكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولا يجوز لأنه جمع بين ساكنين قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبي رجاء يَخَطِّف . قال ابن مجاهد : وأظنه غلطا، واستدل على ذلك بأن خَطِفَ الخَطْفة لم يقرأه أحد بالفتح .

﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ جمع بصر وهي حاسة الرؤية، والمعنى : تكاد حجج القرآن وبراهينه الساطعة تبهرهم ومن جعل البرق مثلا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يذهب أبصارهم .

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ ﴾ . كلما منصوب لأنه ظرف ؛ واذا كان كلما بمعنى إذا . فهى موصولة والعامل فيه مشوا وهو جوابه ؛ ولا يعمل فيه أضاء لأنه فى صلة ما ؛ والمفعول فى قول المبرد محذوف ، التقدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريق ، وقيل : يجوز أن يكون فعل وأفعل بمعنى ، كسكت وأسكت ؛ فيكون أضاء وضاء سواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول ، قال الفراء : يقال ضاء وأضاء وقد تقدّم ، والمعنى : أنهم كلما سمعوا القرآن وظهرت لهم الحجج أنسوا ومشوا معه ، فإذا نزل من القرآن ما يعمون فيه ويضلون به أو يكلفونه قاموا ؛ أى ثبتوا على نفاقهم ، عن ابن عباس ؛ وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم فى زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا : دين محمد دين مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة ، سخطوه وثبتوا فى نفاقهم ، عن ابن مسعود ، وقتادة ؛ قال النحاس : وهذا قول حسن ويدل على صحته : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ . وقال علماء الصوفية : هذا مثل ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الارادة بدءًا ، فارتقى من تلك الأحوال بالدعاوى إلى أحوال الأكابر كان تضيء عليه أحوال الإرادة لو صححها بملازمة آدابها ، فلما مزجها بالدعاوى أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقى فى ظلمات دعاويه لا يبصر طريق الخروج منها . وروى عن ابن عباس أن المراد اليهود لما نُصر النبي صلى الله عليه وسلم ببدر طمعوا ، وقالوا : هذا والله النبي الذى بشرنا به موسى لا ترد له راية ، فلما نُكب بأحد ارتدوا وشكوا ؛ وهذا ضعيف . والآية فى المنافقين ، وهذا أصح عن ابن عباس ؛ والمعنى يتناول الجميع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ . لو حرف تمنى وفيه معنى الجزاء ؛ وجوابه اللام . والمعنى : ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب منهم عز الاسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم ؛ وخص السمع والبصر لتقدّم ذكرهما فى الآية أولا ، أو لأنهما أشرف ما فى الانسان . وقرئ بأسماعهم على الجمع ؛ وقد تقدّم الكلام فى هذا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عموم ، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه ؛ وأجمعت الأمة على تسمية الله تعالى بالقدير ، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر ، والقدير أبلغ فى الوصف من القادر ؛ قاله الزجاجى . وقال الهروى : والقدير والقادر بمعنى واحد ؛ يقال :

قدرت على الشيء أقدر قدرا وقدَرا ومقدَرة ومقدِرة وقُدرانا أي قدرة؛ والاقتدار على الشيء: القدرة عليه؛ فالله جل وعز قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم؛ فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر، له قدرة بها فعل ويفعل ما يشاء على وفق علمه واختياره؛ ويجب عليه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجرى العادة، وأنه غير مستبد بقدرته؛ وإنما خص هنا تعالى صفته التي هي القدرة بالذكر دون غيرها؛ لأنه تقدم ذكر فعل مضمنه الوعيد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسبا لذلك والله أعلم .

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات في وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان في ذكر الكافرين، وبقيتها في المنافقين، وقد تقدمت الرواية فيها عن ابن جريج، وقاله مجاهد أيضا .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ . قال علقمة ومجاهد : كل آية أولها : ﴿ يأيها النَّاس ﴾ . فإنما نزلت بمكة، وكل آية أولها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهذا يرده أن هذه السورة، والنساء مدنيتان وفيهما (يأيها الناس) وأما قولهما في ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فصحيح . وقال عروة بن الزبير : ما كان من حد أو فريضة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة؛ وهذا واضح . ويا – في قوله : (يأيها) حرف نداء؛ (أي) منادى مفرد مبني على الضم لأنه منادى في اللفظ، وها، للتنبيه . الناس مرفوع صفة لأي عند جماعة النحويين ماعدا المازني فإنه أجاز النصب قياسا على جوازه في : يا هذا الرجل؛ وقيل : ضمت أي كما ضم المقصود المفرد؛ وجاءوا (بها) عوضا عن ياء أخرى، وإنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام؛ فجاءوا (بها) حتى يبقى الكلام متصلا . قال سيبويه : كأنك كررت يا مرتين وصار الاسم بينهما؛ كما قالوا : ها هو ذا؛ وقيل : لما تعذر عليهم الجمع بين حرفي تعريف؛ أتوا في الضرورة بمنادى مجرد عن حرف تعريف، وأجروا عليه المعرّف باللام المقصود بالنداء، والتزموا رفعه لأنه المقصود بالنداء؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التي كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى، فاعلمه .

واختلف من المراد بالناس هنا على قولين؛ أحدهما : الكفار الذين لم يعبدوه؛ يدل عليه قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ . الثاني أنه عام في جميع الناس فيكون خطابه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها؛ وهذا حسن [illegible]

قوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا ﴾ أمر بالعبادة له ، والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه وأصل العبادة : الخضوع والتذلل ، يقال : طريق معبدة إذا كانت موطوءة بالأقدام ، قال طرفة :

* وظيفا وظيفا فوق مورٍ معبد *

والعبادة : الطاعة ، والتعبد : التنسك ، وعبّدت فلانا : اتخذته عبدا .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ . خص تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته ، إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها ، فذكر ذلك حجة عليهم وتقريعا [لهم] ، وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم . وفي أصل الخلق وجهان ، أحدهما : التقدير ، يقال : خلقت الأديم للسقاء إذا قدرته قبل القطع ، قال الشاعر :

ولا أنت تفرى ما خلقت وبعـ * ـض القـوم يخلق ثم لا يفرى

وقال الحجاج : ما خلقت إلا فريت ، ولا وعدت إلا وفيت . الثاني : الإنشاء والاختراع والإبداع ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ . فيقال إذا ثبت عندهم خلقهم ، ثبت عندهم خلق غيرهم ، فالجواب : أنه إنما يجرى الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ في العظة ، فذكرهم من قبلهم ليعلموا أن الذى أمات من قبلهم وهو خلقهم يميتهم ، وليفكروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا ، وعلى أى الأمور مضوا من إهلاك من أهلك ، وليعلموا أنهم يبتلون كما ابتلوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . لعل متصلة باعبدوا ، لا بخلقكم ، لأن من ذرأه الله لجهنم لم يخلق ليتقى ، وهذا وما كان مثله فيما ورد في كلام الله تعالى من قوله ، ﴿ لعلكم تعقلون ، لعلكم تشكرون ، لعلكم تذكرون ، لعلكم تهتدون ﴾ . فيه ثلاث تأويلات :

الأول — أن لعل على بابها من الترجى والتوقع ، والترجى والتوقع إنما هو في حيز البشر ، فكأنه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تتقوا ، هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان ، قال سيبويه في قوله عز وجل : ﴿ ٱذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ . قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكر أو يخشى ، واختار هذا القول أبو المعالى .

الثاني ـ أن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى لام كى ؛ فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا، وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا * نكف ووثقتم لنا كل موثق

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم * كلمع سراب فى الملا متألق

المعنى : كفوا الحروب لنكف : ولو كانت لعل هنا شكا لم يوثقوا لهم كل موثق ؛ وهذا القول عن قطرب والطبرى .

الثالث ـ أن تكون لعل بمعنى التعرض للشيء، كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا، والمعنى فى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . أى لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار، وهذا من قول العرب : اتقاه بحقه إذا استقبله به، فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة، ومنه قول علي رضى الله عنه : كنا إذا احمر البأس اتقينا بالنبي صلى الله عليه وسلم، أى جعلناه وقاية لنا من العدو، وقال عنترة :

ولقد كررت المهر يدمى نحره * حتى اتقتنى الخيل بابنى حذيم

قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿الذى جعل﴾ معناه هنا صير لتعديه إلى مفعولين ؛ ويأتى بمعنى خلق ومنه قوله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ . وقوله : ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ . ويأتى بمعنى سمى، ومنه قوله تعالى : ﴿ حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ . ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ أى سموهم، ويأتى بمعنى أخذ كما قال الشاعر :

وقد جعلتْ نفسى تطيب لضغمةٍ * لضغميهما ها يقرع العظمَ نابُها

وقد تأتى زائدة كما قال الآخر :

وقد جعلت أرى الاثنين أربعة * والأربع اثنين لما هدنى الكبر

وقد قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ إنها زائدة، وجعل واجتعل بمعنى واحد، قال الشاعر :

ناط أمر الضعاف واجتعل الليـ . ـل كحبـــل العادية الممـــدود

﴿ فِرَاشًا ﴾ ؛ أي وطاء يفترشونها ويستقرون عليها؛ وماليس بفراش كالجبال والأوعار والبحار فهي من مصالح ما يفترش منها؛ لأن الجبال كالأوتاد كما قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا . وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ . والبحار تركب إلى سائر منافعها، كما قال : ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ .

الثـانية — قال أصحاب الشافعي : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أولا يستسرج بسراج فبات على الأرض، وجلس في الشمس لم يحنث، لأن اللفظ لا يرجع إليهما عرفا . وأما المـالكية فبنوه على أصلهم في الأيمان أنها محمولة على النية أو السبب أو البساط الذي جرت عليه اليمين، فإن عدم ذلك فالعرف .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ السماء للأرض كالسقف للبيت، ولهذا قال وقوله الحق: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ . وكل ما علا فأظل، قيل له : سماء، وقد تقدم القول فيه. والوقف على «بناء» أحسن منه على «تتقون»، لأن قوله : ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ نعت للرب، ويقال : بنى فلان بيتا، وبنى على أهله بناء فيهما أي زفها، والعامة تقول : بنى بأهله، وهو خطأ، وكأن الأصل فيه : أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قبة ليلة دخوله بها، فقيل لكل داخل بأهله : بان، وبنى مقصورا، شـدد للكثرة، وابتنى دارا وبنى بمعنى، ومنه بنيان الحائط، وأصله : وضع لبنة على أخرى حتى تثبت .

وأصل المـاء : موه، قلبت الواو ألفا لتحركها وتحرك ما قبلها فقلت ماه، فالتقى حرفان خفيفان فأبدلت من الهاء همزة ؛ لأنها أجلد، وهي بالألف أشبه فقلت : ماء ؛ الألف الأولى عين الفعل ، وبعدها الهمزة التي هي بدل من الهاء، وبعد الهمزة ألف بدل من التنوين. قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين، وإن شئت بثلاث ؛ فاذا جمعوا أو صغروا ردوا إلى الأصل، فقالوا : مويه وأمواه ومياه، مثل : جمال وأجمال .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ . الثمرات جمع ثمرة، ويقال : ثمر مثل شجر، ويقال : ثُمُر مثل خُشُب، ويقال : ثُمْر مثل بدن، وثمار مثل إكام جمع ثمرة . وسيأتي لهذا مزيد بيان في الأنعام إن شاء الله، وثمار السياط : عقد أطرافها .

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات ، وأنواعا من النبات ؛ رزقا، طعاما لكم، وعلفا لدوابكم؛ وقد بين هذا قوله تعالى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ . وقد مضى الكلام فى الرزق مستوفى والحمد لله .

فإن قيل : كيف اطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملك ؟ قيل له : لأنها معدّة لأن تملك، ويصح بها الانتفاع، فهى رزق .

الخامسة — قلت : ودلت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرا إلى هذا المعنى : "والله لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه" أخرجه مسلم ؛ ويدخل فى معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة فى زخرف الدنيا ؛ فقد أخذ بطرف من جعل لله ندا . وقال علماء الصوفية : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وطاء، والسماء غطاء، والماء طيبا والكلأ طعاما، ولا تعبد أحدا فى الدنيا من الخلق بسبب الدنيا؛ فان الله عز وجل قد أباح لك ما لا بد لك منه، من غير منة فيه لأحد عليك. وقال نوف البكالي : رأيت علىّ بن أبى طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا نوف، أراقد أنت أم رامق؟ قلت : بل رامق يا أمير المؤمنين؛ قال : طوبى للزاهدين فى الدنيا، الراغبين فى الآخرة؛ أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا، وترابها فراشا، وماءها طيبا، والقرآن والدعاء دثارا وشعارا ؛ فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام . وذكر باقى الخبر وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ﴾ إن شاء الله تعالى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ نهى . ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء وأمثالا ونظراء ، واحدها ند؛ وكذلك قرأ محمد بن السميقع : نداء قال الشاعر :

نحمد الله ولا ند له ... عنده الخير وما شاء فعل

وقال حسان :

أتهجوه ولست له بند ... فشركما لخيركما الفداء

ويقال ندو نديد ونديدة على المبالغة؛ قال لبيد :

لكيلا يكون السندرىّ نديدتى * وأجعـــل أقواما عمـــوما عماعما

وقال أبو عبيدة : أندادا : أضـــدادا . النحاس : أندادا مفعول أوّل، ولله فى موضع الثانى . الجوهرى : والند بفتح النون : التل المرتفع فى السماء، والندين الطيب ليس بعربى؛ وند البعير يند ندا وندادا وندودا : نفر وذهب على وجهه؛ ومنه قرأ بعضهم : ﴿ يَوْمَ التَّنَادِّ ﴾ . وندّد به أى شهّره وسمّـــع به .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر، والجملة فى موضع الحـــال، والخطاب للكافرين والمنافقين؛ عن ابن عباس .

فان قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع والصمم والعمى ؟

فالجواب من وجهين، أحدهمـــا : وأنتم تعلمون ، يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل المـــاء وأنبت الرزق ، فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد . الثانى : أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم ؛ والله أعلم . وفى هـــذا دليل على الأمر باستعمال حجج العقول، و إبطال التقليد، وقال ابن فورك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين ؛ فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعد علمكم الذى هو نفى الجهل بأن الله واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ . أى فى شك ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعنى القرآن، والمراد المشركون الذين تُحُدُّوا ، فانهم لما سمعوا القرآن قالوا ما يشبه هذا كلام الله ، و إنا لفى شك منه؛ فنزلت الآية . ووجه اتصالها بمـــا قبلها أن الله سبحانه لمـــا ذكر فى الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ، ذكر بعدها الدلالة على نبوة نبيـــه ، وأن ما جاء به ليس مفترى من عنده .

قوله : ﴿ عَلَى عَبْدِنَا ﴾ . يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، والعبد مأخوذ من التعبد وهو التذلل ؛ فسمى المملوك من جنس ما يفعله عبدا، لتذلله لمولاه ؛ قال طرفة :

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها * وأفردت إفراد البعير المعبَّد

أى المذلل ، قال بعضهم : لما كانت العبادة أشرف الخصال ، والتسمى بها أشرف الخطط ، سمى نبيه عبدا ، وأنشدوا :

ياقوم قلبي عند زهراء * يعرفه السامع والرائى

لاتدعنى إلا بيا عبدها * فانه أشرف أسمائى

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط ، أتوا مقصور لأنه من باب المجىء قاله ابن كيسان ، وهو أمر معناه التعجيز لأنه تعالى علم عجزهم عنه . والسورة واحدة السور ... الكلام فيها وفى إعجاز القرآن ، فلا معنى للإعادة . ومن ... فى قوله : ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ ــ زائدة كما قال ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ . والضمير فى مثله عائد على القرآن عند الجمهور من العلماء ، كقتادة ، ومجاهد ، ... ما ، وقيل : يعود على التوراة والإنجيل . فالمعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فانها ... صدق ما فيه ، وقيل : يعود على النبى صلى الله عليه وسلم . المعنى من بشر أمى مثله لايكتب ولا يقرأ . فمن على هذين التأويلين ستبعيض . والوقف على مثله ليس بتام ، لأن وادعوا نسق عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفراء : آلهتكم ، وقال ابن كيسان : فان قيل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، وإنما يكون الشهداء ليشهدوا أمرا ، أو ليخبروا بأمر شهدوه ، وإنما قيل لهم . فأتوا بسورة من مثله ؟ فالجواب أن المعنى استعينوا بمن وجدتموه من علمائكم ، وأحضروهم ليشاهدوا ما ... ون به ، فيكون الرد على الجميع أ... فى الحجة ... هم .

قلت : هذا هو معنى قول مجاهد ، قال مجاهد ... معنى وادعوا شهداءكم ، أى ادعوا ناسا يشهدون لكم أى يشهدون أنكم عارضتموه . النحاس : شهداءكم نصب بالفعل جمع شهيد ، يقال : شاهد وشهيد مثل ، قادر وقدير .

وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ . أى من غيره ، ودون نقيض فوق ، وهو تقصير عن الغاية ، ويكون ظرفا . والدون : الحقير الخسيس ، قال :

إذا ماعلا المرء رام العلاء * ويقنع بالدون من كان دونا

ولا يشتق منه فعل ، وبعضهم يقول منه : دان يدون دونا ، ويقال : هذا دون ذاك ، أى أقرب منه ، ويقال فى الإغراء بالشىء : دونكه ، قال تميم للحجاج : أقبرنا صالحا ـــ وكان قد صلبه ـــ فقال : دونكموه .

قوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ . فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة، لقولهم فى آية أخرى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ . والصدق: خلاف الكذب، وقد صدق فى الحديث، والصدق : الصلب من الرماح؛ ويقال : صدقوهم القتال. والصدّيق : الملازم للصدق؛ ويقال : رجل صدق، كما يقال : نعم الرجل. والصداقة مشتقة من الصدق فى النصح والود .

قوله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ يعنى فيما مضى . ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ أى تطيقوا ذلك فيما يأتى . والوقف على هذا على «صادقين» تام. وقال جماعة من المفسرين: معنى الآية وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار. فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على «صادقين».

فإن قيل : كيف دخلت إن على لم ؛ ولا يدخل عامل على عامل ؟ فالجواب أنّ إنْ هاهنا غير عاملة فى اللفظ، فدخلت على لم كما تدخل على الماضى، لأنها لا تعمل فى لم كما لا تعمل فى الماضى؛ فمعنى إن لم تفعلوا إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ نصب بلن ، ومن العرب من يجزم بها، ذكره أبو عبيدة، ومنه بيت النابغـــة .

* فلن أُعرِّضْ أبيت اللعن بالصفد[1] *

وفى حديث ابن عمر حين ذهب به الى النار فى منامه فقيل لى : لن ترع، هذا على تلك اللغة وفى قوله : ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبـــل وقوعها . وقال ابن كيسان : ولن تفعلوا، توقيفا لهم على أنه الحق، وأنهم ليســوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب، وأنه مفترى، وأنه سحر، وأنه شـعر، وأنه أساطير الأولين؛ وهم يدعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ جواب فان لم تفعلوا، أى اتقوا النار بتصديق النبى صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى . وقد تقـدم معنى التقوى فلا معنى لإعادتها . ويقال : إن لغة تميم وأسد، فتقوا النار . وحكى سيبويه : تقى يتقى، مثل : قضى يقضى . النار مفعولة، التى، من نعتها، وفيها ثلاث

---

[1]) فى اللسان مادة (صفد)، وشعراء النصرانية (ص ٦٦٨) طبع بيروت : «فلم» . وفى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٦١٧ أدب) : «فما عرضت» .

لغات ، التي واللت بكسر التاء واللت بإسكانها ، وهي اسم مبهم للمؤنث ، وهي معرفة ، ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير ، ولا تتم إلا بصلة . وفي تثنيتها ثلاث لغات أيضا ، اللتان واللتا بحذف النون واللتان بتشديد النون . وفي جمعها خمس لغات ، اللاتي وهي لغة القرآن ، واللات بكسر التاء بلا ياء ، وأنشد أبو عبيدة :

من اللواتي والتي واللاتي ✽ زعمن أن قد كبرت لداتي

واللوا بإسقاط التاء ، هذا ما حكاه الجوهري . وزاد ابن الشجري : اللائي بالهمز وإثبات الياء ، واللاء بكسر الهمزة وحذف الياء ، واللا بحذف الهمزة ، فإن جمعت الجمع قلت في اللاتي : اللواتي ، وفي اللائي : اللوائي . قال الجوهري : وتصغير التي اللتيا بالفتح والتشديد ، قال الراجز :

بعد اللتيا واللتيا والتي ✽ إذا علتها أنفس تردت

وبعض الشعراء أدخل على التي حرف النداء ، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا في قولنا : يا الله ، وحده ، فكأنه شبهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها ، وقال :

من أجلك يا التي تيمت قلبي ✽ وأنت بخيلة بالود عني

ويقال : وقع فلان في اللتيا والتي ، وهما اسمان من أسماء الداهية . والوقود بالفتح : الحطب ، وبالضم : التوقد . والناس ، عموم ، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطبا لها ، أجارنا الله منها . والحجارة ، هي حجارة الكبريت الأسود ـــ عن ابن مسعود والفراء ـــ وخصت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب ، سرعة الاتقاد ، نتن الرائحة ، كثرة الدخان ، شدة الالتصاق بالأبدان ، قوة حرها إذا حميت ، وليس في قوله تعالى : ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة بدليل ما ذكره في غير موضع من كون الجن والشياطين فيها . وقيل : المراد بالحجارة الأصنام ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي حطب جهنم ، وعليه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار ، وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس . وعلى التأويل الأول يكونون معذبين بالنار والحجارة ، وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل مؤذ في النار " . وفي تأويله وجهان ، أحدهما : أن كل من آذى الناس في الدنيا عذبه الله في الآخرة بالنار . الثاني : أن كل ما يؤذي الناس في الدنيا من

السباع والهوام وغيرها فى النار، معد لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هى نار الكافرين خاصة . والله أعلم .

وروى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال : " نعم وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح" فى رواية "ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار" . وقودها مبتدأ، الناس خبره، والحجارة عطف عليهم. وقرأ الحسن، ومجاهد، وطلحة بن مصرف: وقودها بضم الواو، وقرأ عبيد[1] بن عمير : وقيدها الناس. قال الكسائى والأخفش : والوقود بفتح الواو : الحطب، وبالضم الفعل؛ يقال : وقدت النار تقد وقودا بالضم ووقدا ووقدة ووقدانا أى توقدت، وأوقدتها أنا واستوقدتها أيضا، والاتقاد مثل التوقد، والموضع موقد، مثل مجلس، والنار موقدة، والوقدة : شدّة الحر، وهى عشرة أيام أو نصف شهر. قال النحاس : يجب على هذا ألا يقرأ إلا وقودها لأن المعنى حطبها؛ إلا أن الأخفش قال : وحكى أن بعض العرب يجعل الوَقود والوُقود بمعنى الحطب والمصدر . قال النحاس : وذهب إلى أن الأوّل أكثر، قال، كما أن الوَضوء الماء، والوُضوء المصدر .

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك، بدليل ما ذكره فى غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة فى الشفاعة على ما يأتى ؛ وفيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ؛ خلافا للمبتدعة فى قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن ؛ وهو القول الذى سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البلوطى الأندلسى . روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وجبة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "تدرون ما هذا" قال قلنا : الله ورسوله أعلم، قال : "هذا حجر رمى به فى النار منذ سبعين خريفا فهو يهوى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها" وروى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احتجت النار والجنة فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلنى الضعفاء والمساكين فقال الله لهذه أنت عذابى أعذب بك من أشاء وقال لهذه أنت رحمتى أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها" وأخرجه مسلم بمعناه . يقال : احتجت

(١) فى نسخة : «أبو عبيد» .

يعنى تحتج، للحديث المتقدم حديث ابن مسعود؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أريهما فى صلاة الكسوف، ورآهما أيضا فى إسرائه ودخل الجنة؛ فلا معنى لما خالف ذلك . وبالله التوفيق .

و﴿أُعِدَّتْ﴾ . يجوز أن يكون حالا للنار على معنى معدّة، وأضمرت معه قد؛ كما قال : ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ . فمعناه : قد حصرت صدورهم ، فمع حصرت قد مضمرة لأن الماضى لا يكون حالا إلا مع قد؛ فعلى هذا لا يتم الوقف على الحجارة . ويجوز أن يكون كلاما منقطعا عما قبله ؛ كما قال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ . وقال السجستانى: أعدّت للكافرين من صلة التى ؛ كما قال فى آل عمران : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ . ابن الأنبارى : وهذا غلط لأن التى فى سورة البقرة قد وصلت بقوله : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ . فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ؛ وفى آل عمران ليس لها صلة غير أعدت .

قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ لما ذكر الله عز وجل جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا ، والتبشير : الإخبار بما يظهر أثره على البشرة وهى ظاهر الجلد لتغيرها بأول خبر يرد عليها ؛ ثم الغالب أن يستعمل فى السرور مقيدا بالخير المبشر به ، وغير مقيد أيضا؛ ولا يستعمل فى الغم والشر إلا مقيدا منصوصا على الشر المبشر به ؛ قال الله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . ويقال : بشَرته وبشّرته مخفف ومشدد بشارة بكسر الباء فأبشر واستبشر، وبشر يبشر إذا فرح، ووجه بشير إذا كان حسنا بين البشارة بفتح الباء، والبُشرى : ما يعطاه المبشر، وتباشير الشىء : أوله .

الثانيــة ــ أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال من بشرنى من عبيدى بكذا فهو حر، فبشره واحد من عبيده فأكثر فإن أولهم يكون حرا دون الثانى واختلفوا إذا قال : من أخبرنى من عبيدى بكذا فهو حر فهل يكون الثانى مثل الأول ؟ فقال أصحاب الشافعى : نعم ، لأن كل واحد منهم مخبر وقال علماؤنا : لا، لأن المكلف إنما قصد خبرا يكون بشارة؛ وذلك يختص بالأول ، وهذا معلوم عرفا فوجب صرف القول إليه . وفرق محمد بن الحسن بين قوله : أخبرنى ، وحدثنى؛ فقال : إذا قال الرجل أى غلام لى أخبرنى بكذا، أو أعلمنى بكذا وكذا ، فهو حر ــ ولا نية له ــ فأخبره غلام له بذلك بكتاب ، أو كلام، أو رسول؛ فإن الغلام يعتق لأن هذا خبر ، وإن أخبره بعد ذلك

غلام له عتق؛ لأنه قال: أى غلام أخبرنى فهو حر، ولو أخبروه كلهم عتقوا؛ وإن كان عنى بالخبر، كلام مشافهة لم يعتق واحد منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر. قال: وإذا قال أى غلام لى حدثنى، فهذا على المشافهة، لا يعتق واحد منهم.

الثالثـة — قوله تعالى: ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾. ردّ على من يقول: إن الإيمان بمجرده يقتضى الطاعات، لأنه لو كان ذلك ما أعادها؛ فالجنة تنال بالإيمـان والعمل الصالح؛ وقيـل: الجنة تنال بالإيمـان، والدرجات تستحق بالأعمال الصالحات. والله أعلم.

﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ فى موضع نصب ببشر، والمعنى وبشر الذين آمنو بأن لهم، أو لأن لهم؛ فلمـا سقط الخافض عمل الفعل؛ وقال الكسائى وجماعة من البصريين: أنّ فى موضع خفض بإضمار البـاء.

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ فى موضع نصب اسم أن، وأن وما عملت فيه فى موضع المفعول الثانى. والجنات: البساتين؛ وإنما سميت جنات لأنها تجن من فيها أى تستره بشجرها؛ ومنه: المجن والجنين والجنة.

﴿ تَجْرِى ﴾ فى موضع النعت لجنات، وهو مرفوع لأنه فعل مستقبل حذفت الضمة من اليـاء لثقلها معها.

﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت أشجارها، ولم يجر لها ذكر لأن الجنات دالة عليها.

﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ أى ماء الأنهار؛ فنسب الجرى إلى الأنهار توسعا، وإنما يجرى المـاء وحده فحذف اختصارا، كما قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾. أى أهلها، وقال الشاعر:

نبئت أن النـار بعـــدك أوقدت * واستب بعـــدك يا كليب المجلس

أراد: أهل المجلس فحذف. والنهر: مأخوذ من أنهرت أى وسعت؛ ومنه قول قيس بن الخطيم:

ملكت بهـا كفى فأنهرت فتقها * يرى قائم من دونهـا ما وراءها

أى وسعتها، يصف طعنة؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسـلم: "ماأنهر الدمَ وذكر اسم الله عليه فكلوه" معناه: ما وسع الذبح حتى يجرى الدم كالنهر؛ وجمع النهر: نهر وأنهار؛ ونَهِرٌ نَهِر: كثير المـاء؛ قال أبو ذؤيب:

أقامت به فابتنت خيمـــة * على قصبٍ وفرات نهـــر

روى : أن أنهار الجنة ليست فى أخاديد، إنما تجرى على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها . والوقف على الأنهار حسن وليس بتام ؛ لأن قوله : ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ﴾ من وصف الجنات . .

﴿ رِزْقًا ﴾ مصدر، وقد تقدم القول فى الرزق . ومعنى ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعنى فى الدنيا، وفيه وجهان، أحدهما : أنهم قالوا : هـذا الذى وعدنا به فى الدنيا . الثانى : هـذا الذى رزقنا فى الدنيا؛ لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك. وقيل : «من قبل» يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون؛ فإذا أتوا بطعام وثمار فى أول النهار فأكلوا منها ، ثم أتوا منها فى آخر النهار ؛ قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل، يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ؛ فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعما غير طعم الأول .

﴿ وَأُتُوا ﴾ فُعِلُوا من أتيت ، وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء، وقرأ هارون الأعور : وأَتَوا ؛ بفتح الهمزة والتاء فالضمير فى القراءة الأولى لأهل الجنة ؛ وفى الثانية للخدام .

﴿ بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ حال من الضمير فى به، أى يشبه بعضه بعضا فى المنظر ويختلف فى الطعم . قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم. وقال عكرمة : يشبه ثمر الدنيا ويباينه فى جلّ الصفات . ابن عباس : هذا على وجه التعجب، وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة، وعظم خلقها . وقال قتادة : خيارا لارذل فيه، كقوله تعالى : ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ . وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه ؛ لأن فيها خيارا وغير خيار .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ ﴾ . ابتداء وخبر؛ وأزواج : جمع زوج؛ والمرأة : زوج الرجل؛ والرجل، زوج المرأة . قال الأصمعى : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفراء أنه يقال : زوجة ، وأنشد الفرزدق :

وإن الذى يسعى ليفسد زوجتى (١) ... كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقال عمار بن ياسر فى شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : والله إنى لأعلم أنها زوجته فى الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم . ذكره البخارى، واختاره الكسائى .

(١) فى اللسان مادة (زوج) : «يحرش».

﴿ مُطَهَّرَةٌ ﴾ . نعت للأزواج؛ ومطهرة فى اللغة : أجمع من طاهرة وأبلغ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبصاق وسائر أقذار الآدميات . ذكر عبد الرزاق قال أخبرنى الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد : مطهرة ، قال : لايبلن ولا يتغوطن ولا يلدن ولا يحضن ولا يمنين ولا يبصقن . وقد أتينا على هذا كله فى وصف أهل الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . هم مبتدأ، خالدون خبره، والظرف ملغى، ويجوز فى غير القرآن نصب خالدين على الحال . والخلود : البقاء، ومنه جنة الخلد؛ وقد تستعمل مجازا فيما يطول ، ومنه قولهم فى الدعاء : خلّد الله ملكه ، أى طوّله . قال زهير :

ألا لا أرى على الحوادث باقيا * ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا

وأما الذى فى الآية فهو أبدىّ حقيقة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ . قال ابن عباس فى رواية أبى صالح : لما ضرب الله سبحانه هذين المثلين للمنافقين : يعنى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾، وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾، قالوا : الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال، فأنزل الله هذه الآية . وفى رواية عطاء عن ابن عباس قال : لما ذكر الله آلهة المشركين، فقال : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ . وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت ، قالوا : أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أىّ شىء يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتادة : لما ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه، وضرب للمشركين به المثل؛ ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله؛ فأنزل الله الآية . ﴿ وَيَسْتَحْيِي ﴾ . أصله يستحيىُ عينه ولامه حرفا علة ؛ أعلت اللام منه بأن استثقلت الضمة على الياء فسكنت ؛ واسم الفاعل على هذا : مستحيى ، والجمع مستحيون ومستحيين ؛ وقرأ ابن محيصن يستحى بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة . وروى عن أبى كثير[1] وهى لغة تميم ، وبكر بن وائل ؛ نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ؛ ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت ؛ فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ واسم الفاعل مستح ، والجمع مستحون

(١) فى نسخة « وروى ابن كثير » .

ومستحين . قاله الجوهري . واختلف المتأولون في معنى يستحي في هــذه الآية ؛ فقيل : لا يخشى ورجحه الطبري ؛ وفي التنزيل : ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ بمعنى تستحي ؛ وقال غيره : لا يترك ؛ وقيــل : لا يمتنع . وأصل الاســتحياء : الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفا من مواقعة القبيح ؛ وهــذا محال على الله تعالى . وفي صحيح مسلم عن أم ســلمة رضي الله عنها قالت : جاءت أم سليم إلى النبي صلى الله عليه وســلم فقالت : يارسول الله ، إن الله لا يستحي من الحق ؛ المعنى لا يؤمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعــالى : ﴿ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ . معناه يبين ، وأن مع الفعــل في موضع نصب بتقدير حذف من . ﴿ مَثَلًا ﴾ . منصوب بيضرب : ﴿ بَعُوضَةً ﴾ . في نصبها أربعة أوجه :

الأول ــ تكون ما زائدة وبعوضة بدلا من مثلا .

الثاني ــ تكون ما نكرة في موضع نصب على البدل من قوله : مثلا ؛ وبعوضة نعت لما فوصفت ما بالجنس المنكر لإبهامها ؛ لأنها بمعنى قليل ؛ قاله الفراء ، والزجاج ، وثعلب .

الثالث ــ نصبت على تقدير إسقاط الجار ، المعنى أن يضرب مثلا ما بين بعوضة ؛ فحذفت بين وأعربت بعوضة بإعرابها ؛ والفاء بمعنى إلى ، أي إلى ما فوقها وهذا قول الكسائي والفراء أيضا ؛ وأنشد أبو العباس :

يا أحسن النــاس قرنا إلى قدم * ولا حبــال محب واصل تصل

أراد ما بين قرن فلما أسقط بين ، نصب .

الرابع ــ أن يكون يضرب بمعنى يجعل ، فتكون بعوضة المفعول الثاني . وقرأ الضحاك ، وإبراهيم ابن أبي علية ، ورؤبة بن العجاج : بعوضة بالرفع وهي لغة تميم ؛ قال أبو الفتح : ووجه ذلك ، أن ما اسم بمنزلة الذي ، وبعوضة رفع على إضمــار المبتدأ ؛ التقــدير : لا يستحي أن يضرب الذي هو بعوضة مثــلا ؛ فحذف العــائد على الموصول وهو مبتدأ ومثله قــراءة بعضهم : ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِي أَحْسَنُ ﴾ . أي على الذي هو أحسن ، وحكى سيبويه : ما أنا بالذي قائل لك شيئا ؛ أي هو قائل . قال النحاس : والحذف في ما أقبح منه في الذي ، لأن الذي ، إنماله وجه واحد والاسم معه أطول . ويقال : إن معنى ضربت له مثــلا ، مثلت له مثلا ؛ وهــذه الأبنية على ضرب واحد ، وعلى مثال ،

واحد، ونوع واحد؛ والضرب للنوع . والبعوضة : فعولة ، من بعض إذا قطع اللحم ، يقال : بضع وبعض بمعنى، وقد بعضته تبعيضا أى جزأته فتبعض؛ والبعوض : البق، الواحدة بعوضة، سميت بذلك لصغرها . قاله الجوهرى، وغيره .

قوله تعالى : ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾. قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى ، ومن جعل ما الأولى صلة زائدة ، لما الثانية عطف عليها؛ وقال الكسائى، وأبوعبيدة، وغيرهما : معنى فما فوقها — والله أعلم — : ما دونها، أى أنها فوقها فى الصغر . قال الكسائى : وهذا كقولك فى الكلام : أتراه قصيرا ؟ فيقول القائل : أو فوق ذلك، أى هو أقصر مما ترى . وقال قتادة، وابن جريج : المعنى فى الكبر؛ والضمير فى (أنه) عائد على المثل؛ أى أن المثل حق، والحق خلاف الباطل ؛ والحق : واحد الحقوق ؛ والحقة بفتح الحاء أخص منه يقال : وهذه حقتى، أى حقى .

قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ . لغة بنى تميم وبنى عامر فى أمّا : أيما، يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف؛ وعلى هذا ينشد بيت عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أيما إذا الشمس عارضت ✽ فيضحى وأيما بالعشىّ فيخصر

قوله تعالى : ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ . اختلف النحويون فى « ماذا »، فقيل : هى بمنزلة اسم واحد بمعنى أى شىء اراد الله ؛ فيكون فى موضع نصب بأراد . قال ابن كيسان : وهو الجيد . وقيل : « ما » اسم تام فى موضع رفع بالابتداء؛ و« ذا » بمعنى الذى وهو خبر الابتداء؛ ويكون التقدير : ما الذى أراده الله بهذا مثلا ، ومعنى كلامهم هذا ، الانكار بلفظ الاستفهام . ومثلا منصوب، على القطع؛ التقدير : أراد مثلا؛ قاله ثعلب . وقال ابن كيسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعالى : ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ قيل : هو من قول الكافرين ، أى ما مراد الله بهذا المثل الذى يفرق به الناس إلى ضلالة وإلى هدى؟ وقيل : بل هو خبر من الله عزّ وجل، وهو أشبه؛ لأنهم يُقرّون بالهدى أنه من عنده؛ فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا ويهدى به كثيرا؛ أى يوفق ويخذل؛ وعليه فيكون فيه رد على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم؛ فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعنى ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ . التسمية هنا؛ أى يسميه ضالا؛

كما يقال : فسّقت فلانا ، يعنى سميته فاسقا ، لأن الله تعالى لا يضل أحدا ؛ هذا طريقهم فى الإضلال وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغة ؛ لأنه يقال : ضلّله إذا سماه ضالاّ ؛ ولا يقال : أضله إذا سماه ضالا ؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهل التأويل من الحق أنه يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ . أنه من قول الله تعالى ؛ والفاسقين نصب بوقوع الفعل عليهم ؛ والتقدير : وما يضل به أحدا إلا الفاسقين الذى سبق فى علمه أنه لا يهديهم ؛ ولا يجوز أن تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام . وقال نَوْف البِكَالىّ قال قال عزير فيما يناجى ربه عزّ وجل : إلهى تخلق خلقا فتضل من تشاء ، وتهدى من تشاء ؛ قال فقيل : يا عزير أعرض عن هذا ! وإلا محوتك من النبوة ، إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون . والضلال أصله : الهلاك يقال منه : ضل الماء فى اللبن ، إذا استهلك ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ ﴾ . وقد تقدم فى الفاتحة . والفسق أصله فى كلام العرب : الخروج عن الشيء ؛ يقال : فسقت الرطبة : إذا خرجت عن قشرها ؛ والفأرة من جحرها ؛ والفُوَيسقة : الفأرة ؛ وفى الحديث : "خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم الحية والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحُدَيّا" رونه عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أخرجه مسلم . وفى رواية "العقرب" مكان الحية ؛ فأطلق صلى الله عليه وسلم عليها اسم الفسق لأذيتها ؛ على ما يأتى بيانه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . وفسَق الرجل يفسِق ويفسُق أيضا عن الأخفش فِسقا وفُسوقا أى فجر . فأما قوله تعالى : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ . فمعناه خرج . وزعم ابن الأعرابى أنه لم يسمع قط فى كلام الجاهلية ولا فى شعرهم فاسق[1] . قال : وهذا عجب ، هو كلام عربى حكاه عنه ابن فارس ، والجوهرى .

قلت : قد ذكر أبو بكر بن الأنبارى فى كتاب الزاهر له ، لما تكلم عن معنى الفسق ، قول الشاعر[2] :

يذهبن فى نجد وغورا غائرا ＊ فواسقا عن قصدهم جوائرا

والفِسّيق : الدائم الفسق ؛ ويقال فى النداء : يافسق ويا خبث ، يريد : يأيها الفاسق ، ويأيها الخبيث . والفسق فى عرف الاستعمال الشرعى : الخروج من طاعة الله عز وجل ، فقد يقع على من خرج بكفر ، وعلى من خرج بعصيان .

(١) أى بمعنى الخارج من طاعة الله وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية . (٢) هو رؤبة .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ الذين، فى موضع نصب على النعت للفاسقين، وإن شئت جعلته فى موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف أى هم الذين؛ وقد تقدّم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ يَنقُضُونَ ﴾ النقض : إفساد ما أبرمته من بناء أو حبل أو عهد . والنقاضة : ما نقض من حبل الشعر ؛ والمناقضة فى القول : أن تتكلم بما تناقض معناه ؛ النقيضة فى الشعر : ما ينقض به ؛ والنقض : المنقوض . واختلف الناس فى تعيين هذا العهد ؛ فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه عن معصيته فى كتبه على ألسنة رسله ؛ ونقضهم ذلك، ترك العمل به . وقيل : بل نصب الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض، وسائر الصنعة، هو بمنزلة العهد ؛ ونقضهم ترك النظر فى ذلك . وقيل : هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوّة محمد عليه السلام ، ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا فى أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج : عهده جل وعز، ما أخذه على النبيين ومن اتبعهم ألا يكفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ ودليل ذلك : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ أى عهدى .

قلت : وظاهر ما قبل وما بعد يدل على أنها فى الكفار ؛ فهذه خمسة أقوال ؛ والقول الثانى يجمعها .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ . الميثاق : العهد المؤكد باليمين، مفعال من الوثاقة والمعاهدة ، وهى الشدّة فى العقد والربط ونحوه ، والجمع المواثيق على الأصل لأن أصل ميثاق موثاق، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها؛ والمياثق والمياثيق أيضا؛ وأنشد ابن الأعرابى :

حِمًى لا يحل الدهر إلا بإذننا * ولا نسأل الأقوام عهد المياثق[1]

والموثق : الميثاق . والمواثقة : المعاهدة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ ﴾ .

(١) فى اللسان مادة (وثق) : « عقد » .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ ﴾ . القطع معروف، والمصدر ــ فى الرحم ــ القطيعة؛ يقال : قطع رحمه قطيعة فهو رجل قطع، وقُطعة مثال هُمزة، وقطعت الحبل قطعا، وقطعت النهر قطوعا، وقطعت الطير قُطوعا وقُطاعا وقطاعا إذا خرجت من بلد إلى بلد، وأصاب النــاس قطعة إذا قلت مياههم، ورجل به قطع أى انبهار .

الخامسة ــ قوله : ﴿ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ . ما، فى موضع نصب بيقطعون، وأن، إن شئت كانت بدلا من ما، وإن شئت من الهاء فى به وهو أحسن؛ ويجوز أن يكون لئلا يوصل، أى كراهة أن يوصل . واختلف، ما الشيء الذى أمر بوصله؟ فقيل : صلة الأرحام؛ وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا؛ وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه ، فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم ؛ وقيــل : الإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده[1] ، فهى عامة فى كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل؛ هذا قول الجمهور . والرحم جزء من هذا .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ . أى يعبدون غير الله تعالى ، ويجورون فى الأفعال، إذ هى بحسب شهواتهم؛ وهذا غاية الفساد .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . ابتداء وخبر، وهم زائدة؛ ويجوز أن تكون هم ابتداء ثان، الخاسرون خبره، والثانى وخبره خبر الأول كما تقدم . والخاسر : الذى نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز؛ والخسران : النقصان كان فى ميزان أو غيره؛ قال جرير :

إن سَليطا فى الخسار إنّهْ * أولاد قوم خلقوا أَقِنّهْ

يعنى بالخسار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم ؛ قال الجوهرى : وخسرت الشيء بالفتح وأخسرته نقصته؛ والخسار والخسارة والخيسرى : الضلال والهلاك ؛ فقيل للهالك : خاسر، لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومنع منزله من الجنة .

السابعة ــ فى هذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهد جائز ألزمه المرء نفسه ، فلا يحل له نقضه ، سواء أكان بين مسلم أم غيره لذم الله تعالى من نقض عهده ؛ وقد قال :

---

(١) فى نسخة : « عهوده » .

﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ وقد قال لنبيه عليه السلام : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ فنهاه عن الغدر ، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد على ما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ الآية . كيف ، سؤال عن الحال وهي اسم في موضع نصب بتكفرون ، وهي مبنية على الفتح ، وكان سبيلها أن تكون ساكنة ، لأن فيها معنى الاستفهام الذي معناه التعجب فأشبهت الحروف ، أو اختير لها الفتح لخفته ؛ أي هؤلاء ممن يجب أن يتعجب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيل : كيف يجوز أن يكون هذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لما لم يثبتوا أمر محمد عليه السلام ولم يصدقوه فيما جاء به ؛ فقد أشركوا لأنهم لم يقروا بأن القرآن من عند الله ؛ ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد . وقيل : كيف ، لفظه لفظ الاستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ، أي كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه ! قال الواسطي : وبخهم بهذا غاية التوبيخ ، لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه في شيء ، وإنما المنازعة من الهياكل الروحانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ . هذه الواو واو الحال ، وقد مضمرة ، قال الزجاج : التقدير وقد كنتم ، ثم حذفت قد ؛ وقال الفراء : أمواتا خبر كنتم .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ . هذا وقف التمام ، كذا قال أبو حاتم . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ . واختلف أهل التأويل في ترتيب هاتين الموتتين والحياتين ، وكم من موتة وحياة للإنسان ؟ فقال ابن عباس وابن مسعود : أي كنتم أمواتا معدومين قبل أن تخلقوا فأحياكم أي خلقكم ، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . قال ابن عطية : وهذا القول هو المراد بالآية ، وهو الذي لا محيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ؛ وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين ، ثم للإحياء في الدنيا ، ثم للإماتة فيها قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا ، وقيل : لم يعتد بها كما لم يعتد بموت من أماته في الدنيا ثم أحياه في الدنيا . وقيل : كنتم أمواتا أي نطفا في ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذر ، ثم يميتكم موت الدنيا ، ثم يبعثكم . وقيل : كنتم أمواتا أي نطفا في أصلاب الرجال وأرحام النساء ،

ثم نقلكم من الأرحام فأحياكم، ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم في القبر للمسئلة، ثم يميتكم في القبر، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر؛ وهي الحياة التي ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هـذا التأويل هي ثلاث موتات، وثلاث إحياءات؛ وكونهم موتى في ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم، غير كونهم نطفا في أصلاب الرجال وأرحام النساء؛ فعلى هذا يجيء أربع موتات، وأربع إحياءات . وقـد قيل : إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء، ثم أماتهم، فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات، وموتة سادسـة للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا النار، لحديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم — أو قال — بخطاياهم فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيـل يا أهل الجنـة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبـة تكون في حميل السـيل " فقال رجل من القوم كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية . أخرجه مسلم .

قلت — فقوله : " فأماتهم الله " حقيقة في الموت لأنه أكده بالمصدر وذلك تكريما لهم . وقيل : يجوز أن يكون أماتهم، عبارة عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتا على الحقيقة، والأول أصح . وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا، وإنما هو على الحقيقة؛ ومثله : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ . على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : المعنى وكنتم أمواتا بالخمـول فأحياكم، بأن ذكرتم وشرفتم بهـذا الدين والنبي الذي جاءكم، ثم يميتـكم فيموت ذكركم، ثم يحييكم للبعث .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . أي إلى عذابه مرجعكم لكفركم . وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ . فإعادتهم كابتدائهم، فهو رجوع . و﴿ تُرْجَعُونَ ﴾، قراءة الجماعة . ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق ومجاهد وابن محيصن وسلام بن يعقوب، يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ . فيه عشر مسائل :

الأولى ـــ خلق، معناه اخترع وأوجد بعد العدم؛ وقد يقال فى الإنسان : خلق عند إنشائه ١
شيئا؛ ومنه قول الشاعر :

من كان يخلق ما يقــو * ل فحيلتى فيــه قليـله

وقد تقدم هــذا المعنى . وقال ابن كيسان : خلق لكم، أى من أجلكم . وقيـل : المعنى أن جميع ما فى الأرض منعم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والاعتبار .

قلت : وهذا هو الصحيح على ما نبينه؛ ويجوز أن يكون عنى به ماهم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانية ـــ استدل من قال : إن أصل الأشياء التى ينتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها؛ كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ . الآية، حتى يقوم الدليـل على الحظر؛ وعضّـد هذا بأن قال : إن المآكل الشهية خلقت مع إمكان ألا تخـلق فلم تخـلق عبثا؛ فلا بد لهذا من منفعة، وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائه بذاته، فهى راجعة إلينا، ومنفعتنا إما فى نيل لذتها أو فى اجتنابها لنختبر بذلك، أو فى اعتبارنا بها؛ ولا يحصل شىء من تلك الأمور إلا بذوقها؛ فلزم أن تكون مباحة وهذا فاسد، لأنا لانسـلم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليـه أصل المنفعة، بل هو الموجب، ولا نسـلم حصر المنفعـة فيما ذكروه، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق، بل قد يستدل على الطعوم بأمور أخر، كما هو معروف عند الطبائعيين؛ ثم هو معارض بمـا يخاف أن تكـون سموما مهلكة؛ ومعارضون بشـبهات أصحاب الحظر . وتوقف آخرون وقالوا : ما من فعـل لا ندرك منه حسـنا ولا قبحا إلا ويمكن أن يكون حسنا فى نفســه؛ ولا معين قبـل ورود الشرع، فتعين الوقف إلى ورود الشرع . وهــذه الأقاويل الثلاثة للمعـتزلة . وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحـابه وأكثر المـالكية والصيرفى فى هذه المسئلة القول بالوقف؛ ومعناه عندهم أن لا حكم فيها فى تلك الحـال، وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بمـا شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوب ولا بغيره، وإنمـا حظه تعرف الأمور على ما هى عليه . قال ابن عطية : وحكى ابن فورك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يخل العقل قط من السمع، ولا نازلة إلا وفيها سمع، أولها تعلق به، أولها حال تستصحب؛ قال : فينبغى أن يعتمد على هذا، ويغنى عن النظر فى حظر وإباحة ووقف .

الثالثة ـ الصحيح فى معنى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ ﴾ الاعتبار. يدل عليه ماقبله وما بعده من نصب العبر : الإحياء، والإماتة، والخلق، والاستواء الى السماء وتسويتها، أى الذى قدر على إحيائكم وخلقكم وخلق السموات والأرض، لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى لكم الانتفاع ، أى لتنتفعوا بجميع ذلك؛ قلنا : المراد بالانتفاع الاعتبار لما ذكرنا؛ فإن قيل : وأى اعتبار فى العقارب والحيات؛ قلنا : قد يتذكر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدّ الله للكفار فى النار من العقوبات، فيكون سببا للإيمان وترك المعاصى؛ وذلك أعظم الاعتبار . قال ابن العربى : وليس فى الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضى حظرا ولا إباحة ولا وقفا؛ وإنما جاء ذكر هذه الآية فى معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته .

وقال أرباب المعانى فى قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ لتبقوا على طاعته، لا لتصرفوه فى وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وهب لك الكل وسخره لك لتستدل به على سعة جوده ، وتسكن الى ما ضمن لك من جزيل عطائه فى المعاد، ولا تستكثر كثير بره على قليل عملك، فقد ابتدأك بعظيم النعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعة ـ روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عندى شىء ولكن ابتع علىّ فإذا جاء شىء قضينا » فقال له عمر : هذا أعطيت اذا كان عندك فما كلفك الله ما لا تقدر؛ فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قول عمر؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله :

* أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرف السرور فى وجهه لقول الأنصارى؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بذلك أمرت » قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فخوف الإقلال من سوء الظن بالله، لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم؛ وقال فى تنزيله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ . فهذه الأشياء مسخرة للآدمى قطعا لعذره وحجة عليه، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا؛ فاذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ .

وقال : ﴿ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : « سبقت رحمتى غضبى يابن آدم أنفق أنفق عليك يمين الله ملأى سحا لا يغيضها شىء الليل والنهار » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » وكذا فى المساء عند الغروب يناديان أيضا؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن استنار صدره، وعلم غنى ربه وكرمه، أنفق ولم يخف الإقلال؛ وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا، واجترأ باليسير من القوت المقيم لمهجته، وانقطعت مشيئته لنفسه؛ فهذا يعطى من يسره وعسره، ولا يخاف إقلالا، وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة فى الأشياء؛ فاذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة فى شىء خاف ألا يصيب غدا، فيضيق عليه الأمر فى نفقة اليوم لمخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انفحى أو انضحى أو أنفق ولا تحصى فيحصىَ الله عليك ولا توعى فيوعىَ الله عليك » . وروى النسائى عن عائشة قالت : دخل علىّ سائل مرة، وعندى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرت له بشىء ثم دعوت به فنظرت اليه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما تريدين ألا يدخل بيتك شىء ولا يخرج إلا بعلمك » قلت : نعم؛ قال : « مهلا يا عائشة لا تحصى فيحصى الله عليك » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾ . ثم لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر فى نفسه . والاستواء فى اللغة : الارتفاع والعلو على الشىء؛ قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ وقال : ﴿ لِتَسْتَوُوا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾؛ وقال الشاعر :

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة * وقد حلق النجم اليمانى فاستوى

أى ارتفع وعلا، واستوت الشمس على رأسى، واستوت الطير على قمة رأسى، بمعنى علا . وهذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه، قال بعضهم : نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها؛ وذهب إليه كثير من الأئمة، وهذا كما روى عن مالك رحمه الله : أن رجلا سأله عن قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ . قال مالك : الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأراك رجل سوء! أخرجوه . وقال بعضهم : نقرؤها

ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة؛ وهـذا قول المشبهة . وقال بعضهم : نقرؤها ونتأولها ونحيـل حملها على ظاهرها . وقال الفرّاء في قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ ﴾ قال : الاستواء في كلام العرب على وجهين، أحدهما : أن يستوى الرجل وينتهى شبابه وقوته ؛ أو يستوى من اعوجاج ؛ فهذان وجهان . ووجه ثالث أن تقول : كان مقبـلا علىّ يشاتمنى ، وإلىّ سواء ؛ على معنى أقبـل إلىّ وعلىّ . فهذا معنى قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ والله أعلم . قال وقد قال ابن عباس : ثم استوى الى السماء : صعد؛ وهذا كقولك : كان قاعدا فاستوى قائمـا ، وكان قائمـا فاستوى قاعدا ؛ وكلّ ذلك في كلام العرب جائز . وقال البيهقى أبو بكر أحمـد بن على بن الحسين : قوله : ﴿ ٱسْتَوَىٰٓ ﴾ بمعنى أقبل صحيح لأن الإقبال هو القصد الى خلق السماء؛ والقصد هو الإرادة ، وذلك جائز في صفات الله تعالى . ولفظة ثم، تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن ابن عباس فإنمـا أخذه عن تفسير الكلبي ، والكلبي ضعيف . وقال سـفيان بن عيينة وابن كيسان في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ قصد إليها أى بخلقه واختراعه؛ فهذا قول ؛ وقيل : على دون تكييف ولا تحديد واختاره الطبرى . ويذكر عن أبى العالية الرياحى في هذه الآية أنه يقال : استوى بمعنى أنه ارتفع . قال البيهقى : ومراده من ذلك ـــ والله أعلم ـــ : ارتفاع أمره وهو بخار المـاء الذى وقع منه خلق السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال ابن عطية : وهذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنى استولى؛ كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مُهْراق

قال ابن عطية : وهذا إنمـا يجيء في قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ .

قلت : قد تقدّم في قول الفرّاء على والى بمعنى ؛ وسيأتى لهـذا الباب مزيد بيان في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى . والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة .

السادسة ـــ يظهر من هذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء؛ وكذلك في حم السجدة . وقال في النازعات : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾ فوصف خلقها؛ ثم قال : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ . فكأن السماء على هذا خلقت قبل الأرض؛ وقال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ . وهـذا قول قتادة : إن السماء خلقت أولا ؛ حكاه عنه الطبرى . وقال مجاهد وغيره

من المفسرين : إنه تعالى أيبس المـاء الذى كان عرشه عليه، بجعله أرضا وثار منه دخان فارتفع، بجعله سمـاء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء ، ثم قصد أمره الى السماء فسوّاهنّ سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وكانت إذ خلقها غير مدحوّة .

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أولا دخان السماء، ثم خلق الأرض، ثم استوى الى السماء وهى دخان فسواها، ثم دحا الأرض بعد ذلك .

وممـا يدل على أن الدخان خلق أولا قبل الأرض، ما رواه السدى عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس؛ وعن مُرّة الهمدانى عن ابن مسعود ؛ وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى قوله عز وجل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ﴾ قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على المـاء ولم يخلق شيئا قبل المـاء، فلما أراد أن يخلق الخلق؛ أخرج من المـاء دخانا فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسماه سماء ؛ ثم أيبس المـاء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين، فى الأحد والاثنين ؛ فجعـل الأرض على حوت ، والحوت هو النون الذى ذكر الله تبارك وتعـالى فى القرآن بقـوله : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾ والحوت فى المـاء على صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على الصخرة، والصخرة فى الريح؛ وهى الصخرة التى ذكر لقمان : ليست فى السماء ولا فى الأرض؛ فتحرك الحوت فاضطرب؛ فتزلزلت الأرض؛ فأرسل عليها الجبال فقرّت؛ فالجبال تفخر على الأرض وذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَهَـا رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها ، وما ينبغى لهـا فى يومين ، فى الثلثاء والأربعـاء ، وذلك حين يقول : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . وَجَعَـلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ . يقول : من سأل فهكذا الأمر ، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ وكان ذلك الدخان من تنفس المـاء حين تنفس ؛ فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين ، فى الخميس والجمعة ؛ وإنمـا سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيـه خلق السموات والأرض ، ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَـآءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال : خلق فى كل سمـاء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعـلم ؛ ثم زيّن السماء الدنيا بالكواكب ، فجعلها زينة وحفظا تحفظ من

الشياطين؛ فلما فرغ من خلق ما أحبّ؛ استوى على العرش؛ قال : فذلك حين يقول ، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ يقول : ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ وذكر القصّة في خلق آدم عليه السلام، على ما يأتي بيانه في هذه السورة إن شاء الله تعالى .

وروى وكيع عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: إن أوّل ما خلق الله عز وجل من شيء القلم فقال له : اكتب فقال : يارب وما أكتب قال : اكتب القدر فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة؛ قال : ثم خلق النون فدحا الأرض عليها فارتفع بخار الماء ففتق منه السموات واضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال فان الجبال تفخر على الأرض الى يوم القيامة . ففي هذه الرواية، خلق الأرض قبل ارتفاع بخار الماء الذي هو الدخان؛ خلاف الرواية الأولى. والرواية الأولى عنه وعن غيره أولى؛ لقوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ والله أعلم بما فعل ؛ فقد اختلفت فيه الأقاويل وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار : أن إبليس تغلغل الى الحوت الذي على ظهره الأرض كلها، فألقى في قلبه، فقال: هل تدرى ما على ظهرك يالوثيا(1) من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال؟ لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع، قال: فهم لوثيا بفعل ذلك؛ فبعث الله دابة فدخلت في منخره؛ فعج الى الله منها فخرجت؛ قال كعب : والذي نفسي بيده إنه لينظر اليها بين يديه وتنظر اليه إن همّ بشيء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعة ــ أصل خلق الأشياء كلها من الماء لما رواه ابن ماجة في سننه ، وأبو حاتم البستى في صحيح مسنده عن أبي هريرة، قال قلت : يارسول الله إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عيني ، أنبئني عن كل شيء؛ قال : « كل شيء خلق من الماء » فقلت : أخبرني عن شيء إذا عملت به دخلت الجنة ، قال : « أطعم الطعام وأفش السلام وصل الأرحام وقم الليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام » قال أبو حاتم قول أبي هريرة : أنبئني عن كل شيء، أراد به عن كل شيء خلق من الماء ، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام إياه حيث قال : « كل شيء خلق من الماء » وإن لم يكن مخلوقا . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أول شيء خلقه الله القلم وأمره فكتب كل شيء يكون » . وروى

(1) في نسخة : « لويثاء » .

ذلك أيضا عن عبادة بن الصامت مرفوعا . قال البيهقي : وإنما أراد — والله أعلم — أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش، القلم؛ وذلك بين في حديث عمران بن حصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكي عن حميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله ، مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب؛ قال الرجل : فمم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدري؛ قال : ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله ، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، قال : فأتى الرجل عبد الله بن عباس فسأله فقال : مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب؛ قال الرجل : فمم خلق هؤلاء؟ فتلا عبد الله بن عباس : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ فقال الرجل : ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم . قال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه، أي من خلقه وإبداعه واختراعه . خلق الماء أولا، أو الماء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق، ثم جعله أصلا لما خلق بعد؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه، سبحانه جل وعز .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ . ذكر تعالى أن السموات سبع، ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ وقد اختلف فيه؛ فقيل : ومن الأرض مثلهن أي في العدد لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار؛ فتعين العدد . وقيل : ومن الأرض مثلهن أي في غلظهن وما بينهن . وقيل : هي سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض؛ قاله الداودي . والصحيح الأول؛ وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من أخذ شبرا من الأرض ظلما طوّقه إلى سبع أرضين» وعن عائشة رضي الله عنها مثله إلا أن فيه «من» بدل «إلى» . ومن حديث أبي هريرة : «لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه إلا طوّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة][1]» . وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال موسى عليه السلام يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إله إلا الله

(١) الزيادة عن صحيح مسلم

قال موسى يارب كل عبادك يقول هـذا قال قل لا إله إلا الله قال لا إله إلا أنت إنما أريد شيئا تخصني به قال يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهن لا إله إلا الله » وروى الترمذى عن أبى هريرة قال: بينا نبى الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب؛ فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم: « هـل تدرون ما هـذا » قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : « هـذا العنان هذه روايا الأرض يسوقها الله الى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » ثم قال : « هـل تدرون ما فوقكم » قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : « فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال : « هـل تدرون ما بينكم وبينها » قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : « بينكم وبينها خمسمائة عام » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : « سماءين بعد ما بينهما خمسمائة سنة » ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض؛ ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : « إن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين » ثم قال : « هل تدرون ما الذى تحتكم » قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : « إنهـا الأرض » ثم قال : «هل تدرون ما تحت ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : « إن تحتها أرضا أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ؛ ثم قال : « والذى نفس محمد بيـده لو أنكم دليتم بحبـل الى الأرض السـفلى لهبط على الله » ثم قـرأ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ؛ قال أبو عيسى : قراءة رسـول الله صلى الله عليـه وسلم الآية تدل على أنه أراد لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسـه فى كتابه؛ قال هـذا حديث غريب؛ والحسن لم يسمع من أبى هريرة؛ والآثار بأن الأرضين سـبع كثيرة ؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقد روى أبو الضحا — واسمه مسلم — عن ابن عباس أنه قال : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : سبع أرضين فى كل أرض نبى كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى . قال البيهقى : إسناد هذا عن ابن عباس صحيح، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبى الضحا عليه دليلا؛ والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . ابتداء وخبر، ما، في موضع نصب، ﴿ جَمِيعًا ﴾ . عند سيبويه نصب على الحال . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ ﴾ . أهل نجد يميلون ليدلوا على انه من ذوات الياء، وأهل الحجاز يفخمون . ﴿ سَبْعَ ﴾ . منصوب على البدل من الهاء والنون . أى فسوّى سبع سموات، ويجوز أن يكون مفعولا على تقدير يسوى بينهن سبع سموات، كما قال الله جل وعز : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ أى من قومه؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : انتصب على الحال . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . ابتداء وخبر، والأصل فهو تحريك الهاء، والإسكان استخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنثة ، مثل : عنان ، وتذكيرها شاذ، وتكون جمعا لسماوة فى قول الأخفش ، وسماءة فى قول الزجاج، وجمع الجمع سماوات وسماءات؛ فجاء سواهن إما على أن السماء جمع وإما على أنها مفرد اسم جنس . ومعنى سواهن سوّى سطوحهن بالإملاس؛ وقيل : جعلهن سواء .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . أى بما خلق، وهو خالق كل شيء؛ فوجب أن يكون عالما بكل شيء؛ وقد قال : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلى واحد قائم بذاته ؛ ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العلمية . وقالت الجهمية : عالم بعلم قائم لا فى محل تعالى الله عن قول أهل الزيغ والضلالات ؛ والرّد على هؤلاء فى كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ ، وقال : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية؛ واستدل على ثبوت علمه وسائر صفاته فى هذه السورة عند قوله : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ إن شاء الله تعالى .

وقرأ الكسائى وقالون عن نافع بإسكان الهاء من هو، وهي، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثم؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثم ؛ وزاد أبو عون عن الحلوانى عن قالون إسكان الهاء من ﴿ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ ، والباقون بالتحريك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ، إذ وإذا حرفا توقيت؛ فإذ للماضى، وإذا للمستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضع الأخرى ؛ وقال المبرد : إذا جاء إذ مع مستقبل كان

معناه ماضيا ؛ نحو قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ معناه إذ مكروا ، وإذ قلت ؛ وإذا جاء إذا مع الماضى كان معناه مستقبلا كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ﴾ ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ و ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ أى يجىء . وقال معمر بن المثنى أبو عبيدة : إذ زائدة والتقدير : وقال ربك ؛ واستشهد بقوله الأسود بن يعفر :

فإذ وذلك لا مهاه لذكره * والدهر يعقب صالحا لفساد

وأنكر هذا القول الزجاج والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس : وهذا خطأ لأن إذ اسم وهى ظرف زمان ليس مما تزاد . وقال الزجاج : هذا اجترام من أبى عبيدة . ذكر الله عز وجل خلق الناس وغيرهم ؛ فالتقدير وابتداء خلقكم إذ قال فكان هذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ؛ كما قال :

فإن المنية من يخشها * فسوف تصادفه أينما

يريد أينما ذهب ؛ ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدر تقديره واذكر إذ قال ؛ وقيل : هو مردود إلى قوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة ؛ وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم ؛ وهكذا الباب كله فى أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته ؛ وهذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ؛ وهو الذى ارتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والرب : المالك والسيد والمصلح والجابر ؛ وقد تقدم بيانه .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ . الملائكة واحدها ملك ؛ قال ابن كيسان وغيره : وزن ملك فعل من الملك ؛ وقال أبو عبيدة : هو مفعل من لاك إذا أرسل ؛ والألوكة والمألكة والمألكة : الرسالة ؛ قال لبيد :

وغلام أرسلته أمه * بألوك فبذلنا ما سأل

وقال آخر[1] :

أبلغ النعمان عنى مألكا * إنه قد طال حبسى وانتظارى

(١) هو عدى بن زيد ؛ كما فى اللسان مادة (ألك) .

ويقال : ألكنى أى أرسلنى؛ فأصله على هـذا مألك ، الهمزة فاء الفعل فانهم قلبوها إلى عينه فقالوا : ملأك : ثم سهلوه فقالوا : ملك . وقيل : أصـله ملأك من ملك يملك ، نحو شمأل من شمل ، فالهمزة زائدة عن ابن كيسان أيضا ؛ وقد تأتى فى الشعر على الأصل ؛ قال الشاعر :

فلستَ لإنسيّ ولكن لِمَـلأَكٍ ﴿ تنزّل من جوّ السماء يصوب

وقال النضر بن شميل : لا اشتقاق للملك عند العرب . والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع ؛ ومثله الصلادمة والصـلادم : الخيل الشـداد ، واحدها صلدم . وقيل : هى للمبـالغة ، كعلّامة ونسّابة . وقال أرباب المعانى : خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لاستخراج ما فيهـم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس ، ثم ردهم إلى قيمتهم ؛ فقال عز وجل : ﴿ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ .

الثالثـة ــ قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَـةً﴾ . جاعل هنا بمعنى خالق ، ذكره الطبرىّ عن أبى روق ؛ ويقضى ذلك تعديها إلى مفعول واحد وقد تقدّم . والأرض ، قيل : إنها مكة . روى ابن سابط عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " دحيت الأرض من مكة " ولذلك سميت أمّ القرى ؛ قال : وقبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام . وخليفـة ، يكون بمعنى فاعل أى يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض ، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما روى ؛ ويجوز أن يكون خليفـة بمعنى مفعول أى مخلف ؛ كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة ؛ والخلف بالتحريك من الصالحين ، و بتسكينها من الطالحين ، هذا هو المعروف وسيأتى له مزيد بيان فى الأعراف إن شاء الله . وخليفة بالفاء ، قراءة الجمـاعة إلا ما روى عن زيد بن علىّ فإنه قرأ خليقـة بالقاف ؛ والمعنى بالخليفـة هنا فى قول ابن مسـعود وابن عباس وجميع أهـل التأويل آدم عليه السلام ، وهو خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره ؛ لأنه أول رسـول إلى الأرض ؛ كما فى حديث أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله أنبيا كان مرســلا ؟ قال : " نعم " الحديث . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا فى كل بطن ذكر وأنثى ، وتوالدوا حتى كثروا ؛ كما قال الله تعالى : ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ . وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ؛ وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ هكذا ذكر أهل التوراة ، وروى عن وهب بن منبّه أنه عاش ألف سنة والله أعلم .

الرابعة ــ هذه الآية أصل فى نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روى عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه، قال : إنها غير واجبة فى الدين بل يسوغ ذلك، وإن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك. ودليلنا قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ . وقوله تعالى : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ . وقال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى يجعل منهم خلفاء . الى غير ذلك من الآى . وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى التعيين حتى قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ؛ فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش، ورووا لهم الخبر فى ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا فى قريش ولا فى غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها ولقال قائل : إنها ليست بواجبة لا فى قريش ولا فى غيرهم فما لتنازعكم وجه ولا فائدة فى أمر ليس بواجب . ثم إن الصديق رضى الله عنه لما حضرته الوفاة عهد الى عمر فى الإمامة ، ولم يقل له أحد : هذا أمر غير واجب علينا ولا عليك؛ فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذى به قوام المسلمين والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا وإن السمع إنما ورد على جهة التأكيد لقضية العقل، فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرك من جهة السمع دون العقل . وهذا فاسد، لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يقبح ولا يحسن : واذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل، وهذا واضح .

فإن قيل وهى الخامسة : إذا سلم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، فخبرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، أم من جهة اختيار أهل الحل والعقد له ، أم بكمال خصال الأئمة فيه ودعاؤه مع ذلك الى نفسه كاف فيه ؟.

فالجواب أن يقال : اختلف الناس فى هذا الباب، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للاختيار فيه . وعندنا النظر طريق إلى معرفة الإمام، وإجماع أهل الاجتهاد طريق أيضا إليه؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بنوه على أصلهم، أن القياس والرأى والاجتهاد باطل لا يعرف به شيء أصلا ، وأبطلوا القياس أصلا وفرعا؛ ثم اختلفوا على ثلاث فرق؛ فرقة تدعى النص على أبى بكر، وفرقة تدعى النص على العباس، وفرقة تدعى النص على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم؛ والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه، هو أنه صلى الله عليه وسلم لو فرض على الأمة طاعة إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله فى غير معين، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف؛ وإذا وجب العلم به لم يخل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلة العقول أو الخبر، وليس فى العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معين، وكذلك ليس فى الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معين؛ لأن ذلك الخبر، اما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورة أو استدلالا، أو يكون من أخبار الآحاد؛ ولا يجوز أن يكون طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورة أو دلالة ، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعين وأن ذلك من دين الله عليه ، كما أن كل مكلف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات، وصوم رمضان ، وحج البيت ونحوها؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة؛ فبطلت هذه الدعوى، وبطل أن يكون معلوما بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به؛ وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأى وجه كان وجب إثبات إمامة أبى بكر والعباس ؛ لأن لكل واحد منهما قوما ينقلون النص صريحا فى إمامته ؛ وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنص فى وقت واحد على ما يأتى بيانه، كذلك الواحد إذ ليس أحد الفرق أولى بالنص من الآخر؛ وإذا بطل ثبوت النص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد؛ فإن تعسف متعسف، وادعى التواتر والعلم الضرورى بالنص فينبغى أن يقابلوا على الفور بنقيض دعواهم فى النص على أبى بكر وبأخبار فى ذلك كثيرة تقوم أيضا من جهتها مقام النص؛ ثم لا شك فى تصميم من عدا الإمامية على نفى النص؛ وهم الخلق الكثير والجم الغفير؛ والعلم الضرورى

لا يجتمع على نفيه من يخط عن معشار أعداد مخالفي الإمامية ؛ ولو جاز ردّ الضروري في ذلك لجاز أن ينكر طائفة بغداد والصين الأقصى وغيرهما .

السادسة — في ردّ الأحاديث التي احتج به الإمامية في النص على عليّ رضي الله عنه ، وأن الأمة كفرت بهذا النص وارتدت ، وخالفت أمر الرسول عنادا ؛ منها : قوله عليه السلام : "من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" قالوا : والمولى في اللغة بمعنى أولى ؛ فلما قال : "فعليّ مولاه" بفاء التعقيب علم أن المراد بقوله مولى أنه أحق وأولى ؛ فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة ؛ وقوله عليه السلام لعليّ : "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبيّ بعدي" قالوا : ومنزلة هارون معروفة ، وهو أنه كان مشاركا له في النبوّة ولم يكن ذلك لعليّ وكان أخاله ولم يكن ذلك لعليّ ، وكان خليفة ؛ فعلم أن المراد به الخلافة إلى غير ذلك مما احتجوا به على ما يأتي ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

والجواب عن الحديث الأوّل : أنه ليس بمتواتر ، وقد اختلف في صحته ، وقد طعن فيه أبو داود السجستاني وأبو حاتم الرازي واستدلا على بطلانه بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مزينة وجهينة وغفار وأسلم موالٍ دون الناس كلهم ليس لهم مولًى دون الله ورسوله" قالوا : فلو كان قد قال : "من كنت مولاه فعليّ مولاه" لكان أحد الخبرين كذبا .

جواب ثان — وهو أن الخبر وإن كان صحيحا رواه ثقة عن ثقة فليس فيه ما يدل على إمامته ، وإنما يدل على فضيلته ، وذلك أن المولى بمعنى الولي ، فيكون معنى الخبر من كنت وليه فعليّ وليه ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾ أي وليه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر عليّ كباطنه ، وذلك فضيلة عظيمة لعليّ .

جواب ثالث — وهو أن هذا الخبر ورد على سبب ، وذلك أن أسامة وعليّا اختصما ، فقال عليّ لأسامة : أنت مولاي ، فقال : لست مولاك ، بل أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « من كنت مولاه فعليّ مولاه » .

جواب رابع — وهو أن عليّا عليه السلام لما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في قصة الإفك في عائشة رضي الله عنها : النساء سواها كثير ، شق ذلك عليها ، فوجد أهل النفاق مجالا فطعنوا

عليــه وأظهروا البراءة منه، فقال النبي صـلى الله عليه وسـلم هذا المقال ردّا لقولهم، وتكذيبا لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيــه ؛ ولهذا ماروى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ببغضهم لعليّ عليه السلام . وأما الحديث الثانى فلا خلاف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام على ما يأتى من بيان وفاتهما فى سورة المـائدة ؛ وما كان خليفة بعده وإنمـا كان خليفة يوشع بن نون؛ فلو أراد بقوله : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » الخلافة؛ لقال : أنت مني بمنزلة يوشع من موسى، فلما لم يقل هذا دل على أنه لم يرد هذا ؛ وإنمـا أراد أنى استخلفتك على أهلى فى حياتى وغيبوبتى عن أهلى ؛ كما كان هارون خليفــة موسى على قومه لمـا خرج إلى مناجاة ربه . وقد قيل إن هذا الحديث خرج على سبب، وهو أن النبي صلى الله عليه وسـلم لمـا خرج إلى غزوة تبوك استخلف عليّا عليه السـلام فى المدينة على أهله وقومه ؛ فأرجف أهل النفاق وقالوا : إنمـا خلفه بغضا وقلًى له ، فخرج عليّ فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا، فقال : « كذبوا بل خلفتــك كما خلف موسى هارونــ » وقال : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » وإذا ثبت أنه أراد الاستخلاف على زعمهــم فقد شارك عليّا فى هذه الفضيلة غيره لأن النبي صـلى الله عليه وسـلم استخلف فى كل غزاة غزاها رجلا من أصحابه، منهم : ابن أم مكتوم ، ومحمد بن مسلمة وغيرهما من أصحابه، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبى وقاص وهو خبر واحد . وروى فى مقابلته لأبى بكر وعمر ما هو أولى منه ، وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا أنفذ معاذ بن جبل الى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر، فقال : « إنهما لا غنى بى عنهما إنــ منزلتهما من الرأس بمنزلة السمع والبصر » وقال : « همـا وزيراى فى أهــل الأرض » . وروى عنــه عليه السـلام أنه قال : « أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى » وهــذا الخبر ورد ابتـداء، وخبر عليّ ورد على سبب ، فوجب أن يكون أبو بكر أولى منه بالإمامة والله أعلم .

السابعة — واختلف فيما يكون به الإمام إماما وذلك ثلاث طرق، أحدها: النص، وقد تقدم الخلاف فيه؛ وقال به أيضا الحنابلة ، وجماعة من أصحاب الحديث ، والحسن البصرى ، وبكر ابن

أخت عبد الواحد وأصحابه، وطائفة من الخوارج ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على أبي بكر بالإشارة، وأبو بكر على عمر، فاذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصديق ، أو على جماعة كما فعل عمر، وهو الطريق الثاني ويكون التخيير اليهم في تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضى الله عنهم . الطريق الثالث : إجماع أهل الحل والعقد، وذلك أن الجماعة في مصر من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا استخلف ، فأقام أهل ذلك المصر الذي هو حضرة الإمام وموضعه إماما لأنفسهم اجتمعوا عليه ورضوه فان كل من خلفهم وأمامهم من المسلمين في الآفاق يلزمهم الدخول في طاعة ذلك الإمام، إذا لم يكن معلنا بالفسق والفساد، لأنها دعوة محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لما في إقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات البين ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لا يُغل عليهن قلب مؤمن إخلاص العمل لله ولزوم الجماعة ومناصحة ولاة الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة » .

الثامنة ــ فإن عقدها واحد من أهل الحل والعقد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله خلافا لبعض الناس حيث قال : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحل والعقد ؛ ودليلنا أن عمر رضى الله عنه عقد البيعة لأبي بكر ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك ؛ ولأنه عقد فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود، قال الإمام أبو المعالي : من انعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ولا يجوز خلعه من غير حدث وتغير أمر؛ قال : وهذا مجمع عليه .

التاسعة ــ فإن تغلب من له أهلية الإمامة وأخذها بالقهر والغلبة فقد قيل إن ذلك يكون طريقا رابعا؛ وقد سئل سهل بن عبد الله التستري : ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام ؟ قال : تجيبه وتؤدي اليه مايطالبك من حقه، ولا تنكر فعاله ولا تفر منه، وإذا ائتمنك على سر من أمر الدين لم تفشه . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ولو ثبت على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمت له البيعة، والله أعلم .

العاشرة ــ واختلف في الشهادة على عقد الإمامة ؛ فقال بعض أصحابنا : إنه لا يفتقر إلى الشهود لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع، وليس هاهنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة .

ومنهم من قال : يفتقر إلى شهود؛ فمن قال بهذا احتج بأن قال : لو لم تعقد فيه الشهادة أدّى الى أن يدعى كل مدّع أنه عقد له سرا ، ويؤدّى الى الهرج والفتنة ، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفى فيها شاهدان خلافا للجبائى حيث قال باعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له ؛ لأن عمر حيث جعلها شورى فى ستة دل على ذلك . ودليلنا أنه لا خلاف بيننا وبينه أن شهادة الاثنين معتبرة وما زاد مختلف فيه ولم يدل عليه الدليل فيجب ألّا يعتبر .

الحادية عشرة — فى شرائط الإمام وهى أحد عشر :

الأوّل — أن يكون من صميم قريش لقوله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش » وقد اختلف فى هذا .

الثانى — أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره فى الاستفتاء فى الحوادث، وهذا متفق عليه .

الثالث — أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسد الثغور وحماية البيضة وردع الأمة والانتقام من الظالم والأخذ للمظلوم .

الرابع — أن يكون ممن لا تلحقه رقة فى إقامة الحدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار ؛ والدليل على هذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهم لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمعا فيه، ولأنه هو الذى يولى القضاة والحكام، وله أن يباشر الفصل والحكم، ويتفحص أمور خلفائه وقضاته ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالما بذلك كله قيما به . والله أعلم .

الخامس — أن يكون حرا، ولا خفاء باشتراط حرية الإمام وإسلامه وهو السادس .

السابع — أن يكون ذكرا، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما وإن اختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما يجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر — أن يكون بالغا عاقلا، ولا خلاف فى ذلك .

الحادى عشر — أن يكون عدلا لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق؛ ويجب أن يكون من أفضلهم فى العلم، لقوله عليه السلام: « أئمتكم شفعاؤكم فانظروا بمن تستشفعون »

وفى التنزيل فى وصف طالوت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ . فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدل على القوّة وسلامة الأعضاء؛ وقوله : ﴿ ٱصْطَفَاهُ ﴾ . معناه اختاره وهذا يدل على شرط النسب ؛ وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ ، ولا عالما بالغيب ، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم ،ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش؛فإن الإجماع قد انعقد على إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة ؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدوّ وحماية البيضة وسدّ الخلل واستخراج الحقوق و إقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها؛ فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل إلى المفضول ؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشورى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول وقد أجاز العقد لكل واحد منهم اذا أدّى المصلحة الى ذلك واجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — الإمام اذا نصب ثم فسق بعد انبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فى أمورهم إلى غير ذلك مما تقدّم ذكره ؛ وما فيه من الفسق يقعده عن القيام بهذه الأمور والنهوض فيها ؛ فلو جوزنا أن يكون فاسقا أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى فى الابتداء إنما لم يجز أن يعقد للفاسق لأجل أنه يؤدّى الى إبطال ما أقيم له وكذلك هذا مثله . وقال آخرون : لا يخلع الا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك الى دعائها أو شىء من الشريعة؛ لقوله عليه السلام فى حديث عبادة : «وألا ننازع الأمر أهله [قال][1] إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان» وفى حديث عوف بن مالك : «لا ما أقاموا فيكم الصلاة» الحديث أخرجهما مسلم . وعن أم سلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنه يستعمل عليكم

(١) الزيادة عن صحيح مسلم (ج ٦ ص ١٧) طبع الأستانة .

أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضى وتابع » قالوا : يارسول الله ألا نقاتلهم؟ قال : «لا ما صلّوا» أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه؛ أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصا يؤثر فى الإمامة ، فأما اذا لم يجد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره؟ اختلف الناس فيه ؛ فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وان فعل لم تنخلع إمامته؛ ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك ؛ والدليـل على أن الإمام اذا عزل نفسه انعزل قول أبى بكر الصـدّيق رضى الله عنه : أقيلونى أقيـلونى ؛ وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك، قدّمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فمن ذا يؤخرك! رضيك رسول الله صلى الله عليه وسـلم لديننا أفلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليـه ولقالت له : ليس لك أن تقول هـذا ، وليس لك أن تفعله؛ فلما أقرته الصحابة على ذلك علم أن للامام أن يفعل ذلك ولأن الإمام ناظر للغيب (1) فيجب أن يكون حكمه حكم الحـاكم ؛ والوكيل اذا عزل نفسه فان الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ولما اتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره فى شيء له أن يعزل نفسـه، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحل والعقد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافة مبايعته على السمع والطاعة وإقامة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن تأبى عن البيعة لعذر عذر، ومن تأبى بغير عذر جبر وقهر لئلا تفترق كلمة المسلمين؛ وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأول وقتل الآخر، واختلف فى قتله هل هو محسوس، أو معنى فيكون عزله قتله وموته؟ والأول أظهر؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » رواه أبو سعيد الخدرى أخرجه مسلم . وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : « ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبـه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» رواه مسلم أيضا؛ ومن حديث عرفجة : «فاضربوه بالسيف كائنا من كان» وهـذا أدل دليل على منع إقامة إمامين؛ ولأن ذلك يؤدى إلى النفاق والمخالفـة والشقاق وحدوث

(1) فى بعض الأصول : «للغير» ...

الفتن وزوال النعم ؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة ـ لو خرج خارجيّ على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده ؛ فإن كان الإمام فاسقا والخارجيّ مظهر للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجيّ حتى يتبين أمره فيما يظهر من العدل، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأول وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة ـ فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا لما ذكرنا. قال الامام أبو المعالي : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين في طرفي العالم ؛ ثم قالوا: لو اتفق عقد الإمامة لشخصين نزل ذلك منزلة تزويج وليين امرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر؛ قال : والذي عندي فيه أن عقد الإمامة لشخصين في صقع واحد متضايق الخطط والمخاليف غير جائز وقد حصل الإجماع عليه ؛ فأما إذا بعد المدى وتخلل بين الإمامين شسوع النوى فللاحتمال في ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوّز ذلك في إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكرامية إلى جواز نصب إمامين من غير تفصيل ويلزمهم إجازة ذلك في بلد واحد وصاروا إلى أن عليا ومعاوية كانا إمامين ؛ قالوا : وإذا كانا اثنين في بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما في يديه وأضبط لما يليه ولأنه لما جاز بعثة نبيين في عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة كانت الإمامة أولى، ولا يؤدى ذلك إلى إبطال الإمامة ؛ والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منه ، لقوله : « فاقتلوا الآخر منهما » ولأن الأمة عليه ، وأما معاوية فلم يدع الإمامة لنفسه وإنما ادعى ولاية الشام بتولية من قبله من الأئمة، ومما يدل على هذا إجماع الأمة في عصرهما على أن الإمام أحدهما، ولا قال أحدهما : أني إمام ومخالفي إمام؛ فإن قالوا : العقل لا يحيل ذلك وليس في السمع ما يمنع منه ؛ قلنا : أقوى السمع الإجماع وقد وجد على المنع .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ . قد علمنا قطعا أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تسبق بالقول وذلك عامّ في جميع الملائكة لأن قوله : ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ خرج على جهة

المدح لهم، فكيف قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ فقيل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمموا الحكم على الجميع بالمعصية ، فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييبا لقلوبهم : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ ﴾ وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء، وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء، وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العزة فجاء قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾ على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا ؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقال ابن زيد وغيره : إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه أو من عصيان الله من يستخلفه فى أرضه وينعم عليه بذلك ، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعا ، الاستخلاف والعصيان . وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء فسألوا حين قال : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أهو الذى أعلمهم أم غيره؟ وهذا قول حسن، رواه عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ قال : كان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء فلذلك قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ وفى الكلام حذف على مذهبه ؛ والمعنى إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا ويفعل كذا، فقالوا : أتجعل فيها الذى أعلمتنا أم غيره ؟ والقول الأول أيضا حسن جدا لأن فيه استخراج العلم واستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء، وما بين القولين حسن فتأمله . وقد قيل : إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله : "كيف تركتم عبادى" على ما ثبت فى صحيح مسلم وغيره إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال : أتجعل فيها، وإظهار لما سبق فى معلومه إذ قال لهم : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ . من، فى موضع نصب على المفعول بتجعل والمفعول الثانى يقوم مقامه فيها . يفسد على اللفظ، ويجوز فى غير القرآن يفسدون على المعنى؛ وفى التنزيل : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ على اللفظ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ ﴾ على المعنى . ويسفك عطف عليه ويجوز فيه الوجهان، وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ: ﴿ وَيَسْفِكَ الدِّمَاءَ ﴾ بالنصب يجعله جواب الاستفهام بالواو كما قال :

ألم أك جاركم وتكون بينى * وبينكم المودّة والإخاء

والسفك : الصب، سفكت الدم أسفكه سفكا : صببته ، وكذلك الدمع حكاه ابن فارس والجوهرى ؛ والسفاك : السفاح وهو القادر على الكلام قال المهدوى : ولا يستعمل السفك إلا فى الدم، وقد يستعمل فى نثر الكلام؛ يقال: سفك الكلام إذا نثره . وواحد الدماء دم، محذوف اللام؛ وقيل : أصله دَمْىٌ، وقيل : دَمَىٌ ، ولا يكون اسم على حرفين إلا وقد حذف منه والمحذوف منه ياء وقد نطق به على الأصل قال الشاعر :

فلو أنا على حجر ذبحنا * جرى الدميان بالخبر اليقين

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ . أى ننزهك عما لا يليق بصفاتك، والتسبيح فى كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم؛ ومنه قول أعشى بنى ثعلبة :

أقول لما جاءنى فخره * سبحان من علقمة الفاخر

أى براءة من علقمة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحان الله فقال : «هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء» . وهو مشتق من السبح وهو الجرى والذهاب ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ فالمسبح جار فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السوء ، وقد تقدم الكلام فى نحن، ولا يجوز إدغام النون فى النون لئلا يلتقى ساكنان .

مسألة : واختلف أهل التأويل فى تسبيح الملائكة، فقال ابن مسعود وابن عباس : تسبيحهم: صلاتهم، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أى المصلين ؛ وقيل : تسبيحهم رفع الصوت بالذكر قاله المفضل، واستشهد بقول جرير :

قبح الإله وجوه تغلب كلما * سبح الحجيج[1] وكبروا إهلالا

(١) فى ديوان جرير : «شبح» وعلق عليها الشيخ الشنقيطى أن الشبح رفع الأيدى بالدعاء؛ وعلى هذا يكون الاستشهاد بهذا البيت فى غير محله .

وقال قتادة : تسبيحهم سبحان الله، على عرفه فى اللغة وهو الصحيح لما رواه أبو ذرّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أىّ الكلام أفضل؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته [أو لعباده] [1] سبحان الله وبحمده » أخرجه مسلم ؛ وعن عبد الرحمن بن قرط : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به سمع تسبيحا فى السموات العلا، سبحان العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى، ذكره البيهقى .

قوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ . أى وبحمدك نخلط التسبيح بالحمد ونصله به؛ والحمد : الثناء وقد تقدّم ؛ ويحتمل أن يكون قولهم : بحمدك اعتراضا بين الكلامين كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدس ثم اعترضوا على جهة التسليم أى وأنت المحمود فى الهداية إلى ذلك والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نعظمك ونمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون؛ قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : نقدس لك معناه نصلى، والتقديس : الصلاة، قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح فإن الصلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » روته عائشة أخرجه مسلم، وبناء قدس كيفما تصرف فإن معناه التطهير، ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ أى المطهرة، وقال : ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ يعنى الطاهر، ومثله : ﴿ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾، وبيت المقدس سمى به لأنه المكان الذى يتقدس فيه من الذنوب أى يتطهر، ومنه قيل للسطل : قدس لأنه يتوضأ فيه ويتطهر، ومنه القادوس وفى الحديث : « لا قدست أمة لا يؤخذ من ضعيفها لقويها » يريد لا طهرها الله أخرجه ابن ماجه فى سننه، فالقدس : الطهر من غير خلاف؛ وقال الشاعر [2] :

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا ٭ كما شبرق الولدانُ ثوبَ المُقَدَّسِى

أى المطهر؛ فالصلاة طهرة للعبد من الذنوب، والمصلى يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال والله أعلم .

(١) زيادة عن صحيح مسلم (ج ٨ ص ٨٦ طبع الآستانة) . (٢) هو امرؤ القيس كما فى اللسان مادة (قدس) .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . أعلم فيه تأويلان قيل : إنه فعل مستقبل، وقيل : إنه اسم بمعنى فاعل، كما يقال : الله أكبر بمعنى كبير، وكما قال :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل * على أينا تعـدو المنيـة أول

فعلى أنه فعل تكون ما فى موضع نصب بأعلم ويجوز إدغام الميم فى الميم ، وإن جعلته اسما بمعنى عالم تكون ما فى موضع خفض بالإضافة، قال ابن عطية : ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة، وإنما الخلاف فى أفعل إذا سمى به وكان نكرة، فسيبويه والخليل لا يصرفانه، والأخفش يصرفه؛ قال المهدوى : يجوز أن تقدر التنوين فى أعلم إذا قدرته بمعنى عالم، وتنصب ما به فيكون مثل حواج بيت الله، قال الجوهرى : ونسوة حواجّ بيت الله بالإضافة إذا كن قد حججن، وإن لم يكن حججن قلت : حواج بيت الله فتنصب البيت لأنك تريد التنوين فى حواج .

قوله : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . اختلف علماء التأويل فى المراد بقوله تعالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . فقال ابن عباس : كان إبليس ــ لعنه الله ــ قد أعجب ودخله الكبر لما جعله خازن السماء وشرفه فاعتقد أن ذلك لمزية له ، فاستخف الكفر والمعصية فى جانب آدم عليه السلام؛ وقالت الملائكة : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ وهى لا تعلم أن فى نفس إبليس خلاف ذلك؛ فقال الله تعالى لهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وقال قتادة : لما قالت الملائكة أتجعل فيها وقد علم الله أن فيمن يستخلف فى الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إنى أعلم ما لا تعلمون مما كان ومما يكون ومما هو كائن؛ فهو عام .

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ صَادِقِينَ ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . علم معناه عرف، وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورة، ويحتمل أن يكون بواسطة ملك وهو جبريل عليه السلام على ما يأتى، وقرئ : ﴿ وَعُلِّمَ ﴾ غير مسمى الفاعل، والأول أظهر على ما يأتى؛ قال علماء الصوفية : علمها بتعليم الحق إياه وحفظها بحفظه عليه ونسى ما عهد إليه لأنه وكله فيه إلى نفسه فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ . وقال ابن عطاء : لو لم يكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة فى الإخبار عنها وهذا واضح . وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر، وقيل : أبا محمد؛ كنى بمحمد خاتم

الأنبياء صلوات الله عليهم قاله السهيلى؛ وقيل : كنيته فى الجنـة أبو محمد، وفى الأرض أبو البشر؛ وأصله بهمزتين لأنه أفعل إلا أنهم لينوا الثانية فإذا احتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت : أوادم فى الجمع لأنه ليس لها أصل فى الياء معروف، فجعلت الغالب عليها الواو عن الأخفش .

واختلف فى اشتقاقه فقيـل هو مشتق من أدمة الأرض وأديمها وهو وجهها فسمى بما خلق منـه، قاله ابن عباس؛ وقيـل : إنه مشتق من الأدمة وهى السـمرة ؛ واختلفوا فى الأدمة فزعم الضحاك أنها السـمرة، وزعم النضر أنها البياض، وأن آدم عليه السلام كان أبيض، مأخوذ من قولهم: ناقة أدماء اذا كانت بيضاء، وعلى هذا الاشتقاق جمعه أدم وأوادم كحمر وأحامر ولا ينصرف بوجه؛ وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشـتق من أديم الأرض؛ قال سـعيد بن جبير : إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وإنمـا سمى إنسانا لأنه نسى، ذكره ابن سعد فى الطبقات . وروى السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمـدانى عن ابن مسعود فى قصـة خلق آدم عليـه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام الى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منـك أن تنقص منى أو تشينى[1]؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنها عاذت بك، فأعذتها؛ فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل؛ فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفـذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ــ ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض ــ فصعد به، فقال الله تعالى له : "أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك" فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها، فقال: "أنت تصلح لقبض أرواح ولده" فبلّ التراب حتى عاد طينا لازبا؛ اللازب : هو الذى يلتصق بعضه ببعض ثم ترك حتى أنتن فذلك حيث يقول : ﴿ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ قال : منتن، ثم قال للملائكة : ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾. فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه يقول: أتتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه!

(1) فى نسـخة : «أن تقبض منى او تشينى» . وفى تاريخ الطبرى (ص ٨٧ ج ١ قسم أول طبع أوربا) : «... منى شيئا وتشينى» .

فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة فذلك حين يقول : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ويقول : لأمر مّا خلقت! . ودخل من فمه وخرج من دبره؛ فقال إبليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكنّه؛ ويقال: إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هذا الذى لم تروا من الخلائق يشبهه أن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون؟ قالوا: نطيع أمر ربنا؛ فأسرّ إبليس فى نفسه لئن فضّل علىّ فلا أطيعه، ولئن فضّلت عليه لأهلكنّه ؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس ؛ فقالت له الملائكة : قل الحمد لله؛ فقال : الحمد لله، فقال الله له : رحمك ربك؛ فلما دخل الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ وذكر القصة . و روى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب» قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح ، أَديم : جمعه أُدُم؛ قال الشاعر :

الناس أخياف وشتّى فى الشِّيَمْ * وكلهم يجمعهم وجه الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأدم لا من الأدمة — والله أعلم — ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى خلق آدم فى الأنعام وغيرها إن شاء الله تعالى . وآدم لا ينصرف؛ قال أبو جعفر النحاس : آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجماع النحويين لانه على أفعل وهو معرفة ولا يمتنع شيء من الصرف عند البصريين إلا لعلتين، فان نكرته ولم يكن نعتا لم يصرفه الخليل وسيبويه، وصرفه الأخفش سعيد لأنه إنما منعه من الصرف لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل، فاذا لم يكن نعتا صرفه؛ قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه لا يفرق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ . الأسماء هنا بمعنى العبارات فإن الاسم قد يطلق و يراد به المسمى كقولك : زيد قائم، والأسـد شجاع ، وقد يراد به التسمية ذاتهـا كقولك : أسد ثلاثة أحرف؛ ففي الأول يقال : الاسم هو المسمى بمعنى يراد به المسمى ؛ وفى الثانى لا يراد به المسمى؛ وقد يجرى اسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من استعمالها؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ على أشهر التأويلات ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسـلم : "إن لله تسعة وتسعين اسما" ويجرى مجرى الذات يقال : ذات ونفس وعين واسم بمعنى؛ وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ .

الثالثة — واختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علمها لآدم عليه السلام، فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها . وروى عاصم بن كليب عن سـعد مولى الحسن بن علىّ قال : كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط، قال ابن عباس : وعلم آدم الأسماء كلها .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى وهو الذى يقتضيه لفظ "كلها" اذ هو اسم موضـوع للاحاطة والعموم ؛ وفى البخارى من حديث أنس عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم قال : "ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو النـاس خلقك الله بيده وأسجدلك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء" . الحديث . قال ابن منداد : فى هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفا وأن الله تعالى علمها آدم عليه السـلام جمـلة وتفصيلا ؛ كذلك قال ابن عباس: علمه أسماء كل شىء حتى الجفنة والمحلب ؛ وروى شيبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه مالم يعلم الملائكة، وسمى كل شىء باسمه وأنحى منفعة كل شىء الى جنسه؛قال النحاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا؛ والمعنى علمه أسماء الأجناس وعرفه منافعها، هذا كذا وهو يصلح لكذا . وقال الطبرى : علمه أسماء الملائكة وذريته واختار هذا ورجحه بقوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ . وقال ابن زيد : علمه أسماء ذريته كلهم . الربيع بن خثيم[1] : أسماء الملائكة خاصة . القتبى : أسماء ما خلق فى الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

---

(١) فى نسخة : « خثم » .

قلت : القول الأول أصح لما ذكرناه ولما نبينه آنفا إن شاء الله تعالى .

الرابعة — واختلف المتأولون أيضا هل عرض على الملائكة أشخاص الأسماء أو الأسماء دون الأشخاص ؟ فقال ابن مسعود وغيره : عرض الأشخاص لقوله تعالى : ﴿ عَرَضَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ﴾ . وتقول العرب : عرضت الشيء فأعرض أي أظهرته فظهر ؛ ومنه : عرضت الشيء للبيع ؛ وفي الحديث : « إنه عرضهم أمثال الذر » وقال ابن عباس وغيره : عرض الأسماء . وفي حرف ابن مسعود : عرضهن ؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص لأن الهاء والنون أخص بالمؤنث . وفي حرف أبيّ : عرضها . مجاهد : أصحاب الاسماء ؛ فمن قال في الأسماء إنها المسميات فاستقام على قراءة أبيّ " عرضها " وتقول في قراءة من قرأ " عرضهم " إن لفظ الأسماء يدل على أشخاص فلذلك ساغ أن يقول : الأسماء عرضهم ، وقال في " هؤلاء " المراد بالاشارة الى أشخاص الأسماء لكن وإن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسبب وذلك أسماؤها . قال ابن عطية : والذي يظهر أن الله تعالى علم آدم الاسماء وعرضهن عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن مسمياتها التي قد تعلمها ، ثم إن آدم قال لهم : هذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا ؛ وقال الماوردي : وكان الأصح توجه العرض الى المسمين ؛ ثم في زمن عرضهم قولان : أحدهما — أنه عرضهم بعد أن خلقهم . الثاني — أنه صورهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم .

الخامسة — واختلف في أول من تكلم باللسان العربيّ ، فروى عن كعب الأحبار : أن أول من وضع الكتاب العربيّ والسريانيّ والكتب كلها وتكلم بالألسنة كلها آدم عليه السلام ؛ وقاله غير كعب الأحبار .

فإن قيل : قد روى عن كعب الأحبار من وجه حسن قال : أول من تكلم بالعربية جبريل عليه السلام وهو الذي ألقاها على لسان نوح عليه السلام وألقاها نوح على لسان ابنه سام ؛ رواه ثور ابن يزيد عن خالد بن معدان عن كعب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن عشر سنين » وقد روى أيضا : أن أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان ، وقد روى غير ذلك .

قلنا : الصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام والقرآن يشهد له ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ واللغات كلها أسماء فهي داخلة تحته وبهذا جاءت السنة ؛

قال صلى الله عليه وسلم : « وعلم آدم الأسماء كلها حتى القصعة والقصيعة » وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أوّل من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيل عليه السلام، وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أوّل من تكلم من قبيلته بالعربيـة بدليل ما ذكرنا والله أعلم . وكذلك جبريل أوّل من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعـد أن علمها الله آدم أو جبريل على ما تقدّم والله أعلم .

قوله : ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ . لفظ مبنى على الكسر، ولغـة تميم وبعض قيس وأسـد فيه القصر، قال الأعشى :

هؤلا ثم هؤلا كلا أعطيـ ـت نعالا محذوة بمثـال

ومن العرب من يقول : هَوُلَاءِ، فيحذف الألف والهمزة .

السادسة — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . شرط والجواب محذوف تقـديره إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الارض فأنبئونى، قاله المبرد : ومعنى صادقين عالمين ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا : سبحانك ! حكاه النقاش قال : ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق فى الإنباء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قال له : ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ فلم يشترط عليه الإصابة فقال ولم يصب ولم يعنف، وهذا بيّن لا خفاء فيه . وحكى الطبرى وأبو عبيد : أن بعض المفسرين قال : إن معنى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ إذ كنتم وقالا : هذا خطأ . و ﴿ أَنْبِئُونِي ﴾ معناه أخبرونى، والنبأ : الخبر، ومنه النبىء بالهمز وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعة — قال بعض العلماء يخرج من هـذا الامر بالإنباء تكليف مالا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون، وقال المحققون من أهل التأويل : ليس هذا على جهة التكليف وإنما هو على جهة التقرير والتوقيف، وسيأتى القول فى تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا؟ — فى آخر السورة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ . فيه ثلاث مسائل .

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيها لك عن أن يعلم الغيب أحد سواك، وهذا جوابهم عن قوله : ﴿ أَنْبِئُونِي ﴾ فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوا ما لا علم لهم به

كما يفعله الجهال منا ؛ و«ما» فى ما علمتنا بمعنى الذى أى إلا الذى علمتنا ، ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانيــة ــ الواجب على من سـئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدرى ، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء ؛ لكن قد أخبر الصادق أن بموت العلماء يقبض العلم فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون ؛ وأما ما ورد من الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بعدهم فى معنى الآية فروى البستى (١) فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى البقاع شر؟ قال : « لا أدرى حتى أسأل جبريل» فسأل جبريل ؛ فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل؛ فجاء فقال : خير البقاع المساجد، وشرها الأسواق . وقال الصديق للجدة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان علىّ يقول : وابردها على الكبد ثلاث مرات، قالوا: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يسئل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم . وسأل ابن عمر رجل عن مسئلة فقال : لا علم لى بها ، فلما أدبر الرجل قال ابن عمر : نعم ما قال ابن عمر ، سئل عما لا يعلم فقال لا علم لى به ! وذكره الدارمى فى مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبى عقيل يحيى بن المتوكل صاحب بهية قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيم أن يسأل عن شيء من أمر هـذا الدين فلا يوجد عنـدك منه علم ولا فرج ، أو علم ولا مخرج ! فقال له القاسم : وعمّ ذاك ؟ قال : لأنك ابن إمامى هـدى؛ ابن أبى بكر وعمر؛ قال : يقول له القاسم أقبح من ذلك عنـد من غفل (٢) عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقـة؛ فسكت فمـا أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت ابن هرمز (٣) يقول : ينبغى للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا فى أيديهم؛ فإذا سـئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهيثم بن جميـل قال : شهدت مالك بن أنس سئل من ثمـان وأربعين مسئلة فقال فى اثنتين وثلاثين منها : لا أدرى .

---

(١) فى نسخة : «النسائى» .

(٢) فى نسخة : «عقل» .

(٣) فى نسخة : «أبا هريرة» .

قلت : ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنمـا يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف فى العـلم . قال ابن عبد البر : من بركة العلم وآدابه الانصاف فيه ، ومن لم ينصف لم يفهـم ولم يتفهم . روى يونس بن عبـد الأعلى قال سمعت ابن وهب يقـول سمعت مالك بن أنس يقول : ما فى زماننا شيء أقل من الإنصاف . قلت : هـذا فى زمن مالك فكيف فى زماننـا اليوم الذى عم فينا الفساد وكثر فيه الطغام! وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية بل للظهور فى الدنيـا وغلبـة الأقران بالمراء والجدال الذى يقسى القلب و يورث الضغن، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما روى عن عمر رضى الله عنه وقد قال : لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذى العصبة — يعنى يزيد بن الحصين الحارثى — فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المـال، فقامت امرأة من صوب النساء طويلة فيها فطس فقالت : ماذلك لك ! قال : ولم ؟ قالت : لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْـهُ شَيْئًا ﴾ فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وكيع عن أبى معشر عن محمـد بن كعب القرظى قال : سأل رجل عليـا رضى الله عنـه عن مسئلة فقال فيهـا ، فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا ، فقال علىّ : أصبتَ وأخطأتُ وفوق كل ذى علم عليم . وذكر أبو محمـد قاسم بن أصبغ قال : لمـا رحلت الى المشرق نزلت القيروان فأخذت على بكر بن حمـاد حديث مسدّد، ثم رحلت الى بغـداد ولقيت الناس، فلما انصرفت عدت اليه لتمـام حديث مسدّد فقرأت عليه فيه يوما حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : « أنه قدم عليه قوم من مضر مجتابى النمار » فقال : إنمـا هو مجتابى الثمـار، فقلت : إنما هو مجتابى النمـار، هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق، فقال لى : بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا أو نحو هذا! ثم قال لى : قم بنا الى ذلك الشيخ — لشيخ كان فى المسجد — فأن لنا بمثل هـذا علما! فقمنا اليه فسألناه عن ذلك فقال : إنمـا هو مجتابى النمـار كما قلت، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهـم أمامهم . والنمـار جمع نمرة، فقال بكر بن حماد : وأخذ بأنفه رغم أنفى للحق وانصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن :

إذا ما تحــدّثت فى مجلس * تناهى حديثى الى ما علمت

ولم أعــد علمى الى غيره * وكان إذا ما تناهى سكت

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ . سبحان منصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، يؤدّى عن معنى نسبحك تسبيحا ؛ وقال الكسائى : هو منصوب على أنه نداء مضاف . والعليم فعيل للمبالغة والتكثير فى المعلومات فى خلق الله تعالى . والحكيم معناه الحاكم وبينهما مزيد المبالغة ، وقيل : معناه المحكم، ويجيء الحاكم(١) على هذا من صفات الفعل صرف عن مفعل الى فعيل كما صرف عن مسمع الى سميع ومؤلم الى أليم قاله ابن الأنبارى ؛ وقال قوم : الحكيم المانع من الفساد، ومنه سميت حكمة اللجام لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد؛ قال جرير :

أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم * إنى أخاف عليكم أن أغضبا

أى امنعوهم من الفساد؛ وقال زهير :

القائد الخيل منكوبا دوابرها * قد أُحكِمت حكَمات القِدّ والأبَقَا

القدّ : الجلد . والأبق : القنب ؛ والعرب تقول : أحكم اليتيم عن كذا وكذا يريدون منعه ؛ والسورة المحكمة : الممنوعة من التغيير وكل التبديل وأن يلحق بها ما يخرج عنها، ويزاد عليها ما ليس منها؛ والحكمة من هذا ، لأنها تمنع صاحبها من الجهل؛ ويقال : أحكم الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد فهو محكم وحكيم على التكثير .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ . فيه خمس مسائل .

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ أمره أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيها على فضله وعلو شأنه ، فكان أفضل منهم بأن قدمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلموا منه فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن حصل مسجودا(٢) له مختصا بالعلم .

الثانية ــ فى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله؛ وفى الحديث: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم » ؛ أى تخضع وتتواضع ؛ وإنما تفعل ذلك لأهل العلم خاصة من بين سائر عمال(٣) الله

---

(١) فى نسخة : « الحكيم » .

(٢) فى نسخة : « سجودا » .

(٣) فى نسخة : « عياله »

لأن الله تعالى ألزمها ذلك فى آدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب ، فكلما ظهر لها علم فى بشر خضعت له وتواضعت وتذللت إعظاما للعلم وأهله رضى منهم بالطلب له والشغل به . هذا فى الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربانيين منهم ! جعلنا الله منهم وفيهم إنه ذو فضل عظيم .

الثالثة — اختلف العلماء فى هذا الباب، أيما أفضل الملائكة أو بنو آدم؟ على قولين، فذهب قوم الى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة ؛ وذهب آخرون الى أن الملأ الأعلى أفضل . احتج من فضل الملائكة بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ . وفى البخارى يقول الله عز وجل: «من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم» وهذا نص . واحتج من فضل بنى آدم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ ﴾ بالهمز من برأ الله الخلق ، وقوله عليه السلام : « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم » الحديث أخرجه أبو داود، وبما جاء فى أحاديث من أن الله تعالى يباهى بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهى إلا بالأفضل، والله أعلم . وقال بعض العلماء: ولا طريق الى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم، لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة ؛ وليس هاهنا شيء من ذلك، خلافا للقدرية والقاضى أبى بكر رحمه الله حيث قالوا: الملائكة أفضل . قال : وأما من قال من أصحابنا والشيعة : إن الأنبياء أفضل لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فيقال لهم : المسجود له لا يكون أفضل من الساجد، ألا ترى أن الكعبة مسجود لها والانبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الانبياء خير من الكعبة باتفاق الأمة ؛ ولا خلاف أن السجود لا يكون إلا لله تعالى لان السجود عبادة، والعبادة لا تكون الا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود الى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد، وهذا واضح وسيأتى له مزيد بيان فى الاية بعد هذا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ دليل على أن أحدا لا يعلم من الغيب الا ما أعلمه الله كالانبياء أو من أعلمه الله تعالى؛ فالمنجمون والكهان وغيرهم كذبة وسيأتى بيان هذا فى الأنعام إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أى من قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ حكاه مكى والماوردى؛ وقال الزهراوى : ما أبدوه هو بدارهم بالسجود لآدم .

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ . قال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير : المراد ما كتمه إبليس فى نفسه من الكبر والمعصية ؛ قال ابن عطية : وجاء تكتمون للجماعة؛ والكاتم واحد فى هذا القول، على تجوز العرب واتساعها ، كما يقال لقوم قد جنى سفيه منهم : أنتم فعلتم كذا، أى منكم فاعله ، وهذا مع قصد تعنيف ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وانما ناداه منهم عيينة، وقيل الأقرع . وقالت طائفة : الإبداء والمكتوم، ذلك على معنى العموم فى معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدى بن ميمون : كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دينار ما الذى كتمت الملائكة؟ قال: ان الله جل وعز لما خلق آدم رأت الملائكة خلقا عجبا وكأنهم دخلهم من ذلك شيء قال : ثم أقبل بعضهم على بعض وأسروا ذلك بينهم ،ما يهمكم من هذا المخلوق! ان الله لم يخلق خلقا الا كنا أكرم عليه منه . وما، فى قوله :﴿ مَا تُبْدُونَ ﴾ يجوز أن ينتصب بأعلم على أنه فعل، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنصب به ما، فيكون مثل حواج بيت الله، وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ الى قوله : ﴿ الْكَافِرِينَ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ أى واذكر، وأما قول أبى عبيدة : إن إذ زائدة فليس بجائز لأن إذ ظرف وقد تقدم؛ وقال : ﴿ قلنا ﴾ ولم يقل قلت لان الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعل الجماعة تفخيما و إشادة بذكره؛ والملائكة جمع ملك ؛ وقد تقدم القول أيضا فى آدم واشتقاقه فلا معنى لإعادته ؛ وروى عن أبى جعفر بن القعقاع أنه ضم تاء التأنيث من الملائكة اتباعا لضم الجيم فى اسجدوا ونظيره الحمد لله .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ اسْجُدُوا ﴾ . السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع ؛ قال الشاعر :

بجمع تضل البلق فى حجراته ＊ ترى الاكم فيها سجدا للحوافر

الأكم : الجبال الصغار جعلها سجدا للحوافر لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها ؛ وعين ساجدة أى فاترة عن النظر؛ وغايتــه وضع الوجه بالارض؛ قال ابن فارس : سجد اذا تطامن وكل ما سجد فقد ذل؛ والإسجاد : إدامة النظر؛ قال أبو عمرو : وسجد اذا طأطأ رأسه ؛ قال(١) :

فضــول أزمتها أسجــدت * سجود النصارى لأحبارها

قال أبو عبيد : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

* فقلن له أسجد لليلى فأسجدا *

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه؛ ودراهم الإسجاد: دراهم كانت عليها صور كانوا يسجدون لها؛ قال:

* وافى بها كدراهم الإسجاد *

الثالثة — استدل من فضل آدم وبنيه بقوله تعالى للملائكة : ﴿ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ . قالوا: وذلك يدل على أنه كان أفضل منهــم ؛ والجواب أن معنى اسجدوا لآدم اسجدوا لى مستقبلين وجه آدم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ أى عند دلوك الشمس؛ وكقوله : ﴿وَنَفَخْتُ فِيــهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ . أى فقعوا لى عند إتمـام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين ؛ وقد بينا أن المسجود له لا يكون أفضل من الساجد بدليل القبلة

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضل منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له؟ قيل له : إن الملائكة لما استعظموا بتسبيحهم وتقــديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليريهم استغناءه عنهم وعن عبادتهم . وقال بعضهم: عيّروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به فأمروا بالسجود له تكريما؛ ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبة لهم على قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ لما قال لهم:﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وكان علم منهم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هذا، فقال لهم:﴿ إِنِّى خَالِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ . وجاعله خليفة فإذا نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين، والمعنى ليكون ذلك عقوبة لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد استدل ابن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ . وأمنه من العذاب بقوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ

(١) هو حميد بن ثور يصف نساء؛ اللسان مادة (سجد)

الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ . وقال للملائكة : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ﴾ . قيل له إنما لم يقسم بحياة الملائكة كما لم يقسم بحياة نفسه سبحانه فلم يقل : لعمرى ؛ وأقسم بالسماء والأرض ولم يدل على أنهما أرفع قدرا من العرش والجنان السبع ، وأقسم بالتين والزيتون؛ وأما قوله سبحانه : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ . فهو نظير قوله لنبيه عليه السلام : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ . فليس فيه إذا دلالة، والله أعلم .

الرابعة ـ واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن السجود عبادة ؛ فقال الجمهور: كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع ، وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله ، وطاعة لله تعالى ، وكان آدم كالقبلة لنا ومعنى لآدم : إلى آدم ، كما يقال : صلى للقبلة : أى إلى القبلة . وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم : الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مبقى على أصل اللغة فهو من التذلل والانقياد أى أخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل فسجدوا : أى امتثلوا ما أمروا به .

واختلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى ، أو كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام لقوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ﴾ فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين ؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحا الى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ؛ فقال لهم : « لا ينبغى أن يسجد لأحد إلا لله رب العالمين » روى ابن ماجه في سننه والبستي في صحيحه عن واقد قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هذا » فقال : يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم ، فأردت أن أفعل ذلك بك ؛ قال : « فلا تفعل فإنى لو أمرت شيئا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها حتى لو سألها نفسها وهى على قتب لم تمنعه » لفظ البستي ، ومعنى القتب أن العرب يعز عندهم وجود كرسي للولادة فيحملون نساءهم على القتب عند الولادة . وفى بعض طرق معاذ ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة .

قلت : وهـذا السجود المنهى عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادة فى سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحـال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه؛ ضل سعيهم وخاب عملهم .

الخامسة — قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾. نصب على الاستثناء المتصل لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور. ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيب وقتادة وغيرهم ؛ وهو اختيار الشيخ أبى الحسن، ورجحه الطبرى وهو ظاهر الآية . قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من أولى الأجنحة الأربعة ثم ابلس بعد؛ روى سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان إبليس من الملائكة فلمـا عصى الله غضب عليــه فلعنه فصار شيطانا . وحكى المـاوردى عن قتادة : أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجِنّـة . وقال سعيد بن جبير : إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار و إبليس منهـم ، وخلق سائر الملائكة من نور . وقال ابن زيد والحسن وقتادة أيضا : إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملكا ؛ وروى نحوه عن ابن عبـاس وقال : اسمـه الحارث . وقال شهر بن حوشب و بعض الأصوليين : كان من الجن الذين كانوا فى الأرض وقاتلهم الملائكة فسبوه صغيرا وتعبــد مع الملائكة وخوطب؛ وحكاه الطبرى عن ابن مسعود . والاستثناء على هــذا منقطع مثل قوله تعالى : ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ . وقوله : ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ فى أحد القولين؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطش ولا جوع * إلا الرقاد والرقاد ممنــوع

واحتج بعض أصحاب هـذا القول بأن الله جل وعز وصف الملائكة فقال : ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وقوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ والجنّ غير الملائكة؛ أجاب أهـل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جمـلة الملائكة لمـا سبق فى علم الله بشقائه عدلا منـه، لا يسئل عما يفعل. وليس فى خلقه من نار ولا فى تركيب الشهوة حين غضب عليــه ما يدفع أنه من الملائـكة ، وقول من قال : إنه كان من جن الأرض فسبي ؛ فقــد روى فى مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجن فى الأرض مع جند من الملائكة؛ حكاه المهدوى وغيره . وحكى الثعلبي عن ابن عباس : أن إبليس كان من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من

نار السموم ، وخلقت الملائكة من نور ، وكان اسمه بالسريانية عزازيل ، وبالعربية الحارث ، وكان من خزان الجنة وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الارض ، وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما ، وكان يسوس مابين السماء والأرض ؛ فرأى لنفسه بذلك شرفا وعظمة ، فذلك الذى دعاه الى الكفر فعصى الله فمسخه شيطانا رجيما ؛ فاذا كانت خطيئة الرجل فى كبر فلا ترجه ، وإن كانت خطيئته فى معصية فارجه ؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية ، وخطيئة إبليس كبرا . والملائكة قد تسمى جنا لاستتارها ؛ وفى التنزيل : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ ؛ وقال الشاعر فى ذكر سليمان عليه السلام :

وسخر من جن الملائك تسعة * قياما لديه يعملون بلا أجر

وأيضا لما كان من خزان الجنة نسب اليها فاشتق اسمه من اسمها والله أعلم . وإبليس وزنه إفعيل مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى ؛ ولم ينصرف لانه معرفة ولا نظير له فى الاسماء فشبه بالأعجمية قاله أبو عبيد وغيره ؛ وقيل : هو أعجمى لا اشتقاق له فلم ينصرف للعجمة والتعريف ، قاله الزجاج وغيره .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَبَىٰ ﴾ معناه امتنع من فعل ما أمر به ؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا قرأ ابن آدم السجدة [فسجد][1] اعتزل الشيطان يبكى يقول يا ويله — وفى رواية يا ويلى[2] — أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار » خرّجه مسلم . يقال : أبى يأبى إباء ، وهو حرف نادر جاء على فعل يفعل ليس فيه حرف من حروف الحلق ؛ وقد قيل : إن الألف مضارعة لحروف الحلق ؛ قال الزجاج : سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضى يقول : القول عندى أن الألف مضارعة لحروف الحلق ؛ قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحوا غير هذا الحرف .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ الاستكبار : الاستعظام فكأنه كره السجود فى حقه ، واستعظمه فى حق آدم ، فكان ترك السجود لآدم تسفيها لامر الله وحكمته ، وعن هذا الكبر عبر

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٢) فى مسلم : « ياويل » .

عليه السلام بقوله : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » فى رواية، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال : «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس » أخرجه مسلم؛ ومعنى بطر الحق تسفيهه وإبطاله، وغمط الناس الاحتقار لهم والازدراء بهم؛ ويروى : « وغمص » بالصاد المهملة والمعنى واحد، يقال : غمصه يغمصه غمصا واغتمصه أى استصغره ولم يره شيئا؛ وغمص فلان النعمة اذا لم يشكرها؛ وغمصت عليه قولا قاله أى عبته عليه، وقد صرح اللعين بهذا المعنى فقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ ﴿ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ فكفره الله بذلك؛ فكل من سفه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حكمه حكمه، وهذا ما لا خلاف فيه؛ و روى ابن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أوّل معصية كانت الحسد والكبر، حسد إبليس آدم، وشح آدم فى أكله من شجرة؛ وقال قتادة : حسد إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارى وهذا طينى، وكان بدء الذنوب الكبر، ثم الحرص، حتى أكل آدم من الشجرة، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ . قيل : كان هنا بمعنى صار، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾، وقال الشاعر :

بتيهاء قفــر والمطى كأنهــا * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

أى صارت؛ وقال ابن فورك : كان هنا بمعنى صار خطأ ترده الأصول، وقال جمهور المتأوّلين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهذا صحيح لقوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى : « وإنما الأعمال بالخواتيم » وقيل : إن إبليس عبد الله تعالى ثمانين ألف سنة، وأعطى الرياسة والخزانة فى الجنة على الاستدراج، كما أعطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم، وكما أعطى بلعام الاسم الأعظم على على طرف لسانه . فكان فى رياسته والكبر فى نفسه متمكن . قال ابن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده، فلذلك قال : أنا خير منه؛ ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن

تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين ﴾ أى استكبرت ولا كبر لك، ولم أتكبر أنا حين خلقته بيدى والكبر لى! فلذلك قال : ﴿وكان من الكافرين﴾. وكان أصل خلقته من نار العزة ولذلك حلف بالعزة فقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ فالعزة أورثته الكبر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خلقت الملائكة من نور العزة، وخلق إبليس من نار العزة .

التاسعة ــ قال علماؤنا ــ رحمة الله عليهم ــ : ومن أظهر الله على يديه ممن ليس بنبى كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته خلافا لبعض الصوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه ولى إذ لو لم يكن وليا ما أظهر الله على يديه ما أظهر؛ ودليلنا أن العلم بأن الواحد منا ولى لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكنا أن نقطع على أنه ولى لله تعالى لأن الولى لله تعالى من علم الله تعالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان، ولما اتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافى بالإيمان، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافى بالإيمان، علم أن ذلك ليس يدل على ولايته لله؛ قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشعرى وغيره . وذهب الطبرى إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بنى آدم وهم اليهود الذى كفروا بمحمد عليه السلام، مع علمهم بنبوته، ومع قدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العاشرة ــ واختلف هل كان قبل إبليس كافر أو لا ؟ فقيل : لا، وإن إبليس أول من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا فى الأرض . واختلف أيضا هل كفر إبليس جهلا أو عنادا على قولين بين أهل السنة، ولا خلاف أنه كان عالما بالله تعالى قبل كفره؛ فمن قال إنه كفر جهلا قال : إنه سلب العلم عند كفره، ومن قال كفر عنادا قال: كفر ومعه علمه . قال ابن عطية: والكفر مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندى جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ إلى قوله : ﴿ من الظالمين ﴾ فيه ثلاث عشرة مسئلة .

الاولى — قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ لاخلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدم اسكن أى لازم الإقامة واتخذها مسكنا وهو محل السكون، وسكن إليه يسكن سكونا؛ والسكن : النار؛ قال الشاعر :

* قد قومت بسكن وأدهان *

والسكن : كل ما سكن إليـه ؛ والسكين معروفة سمى به لانه يسكن حركة المذبوح ؛ ومنـه المسكين لقلة تصرفه وحركته؛ وسكان السفينة عربى لانه يسكنها عن الاضطراب .

الثانية — فى قوله تعالى : ﴿اسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج لأن السكنى لا تكون ملكا ولهذا قال بعض العارفين : السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع، فدخولهما فى الجنة كان دخول سكنى لا دخول ثواب .

قلت: وإذا كان هـذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء : إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسكنى ، وأن له أن يخرجه منـه اذا انقضت مدة الإسكان؛ وكان الشعبى يقول : اذا قال الرجل دارى لك سكنى حتى تموت فهى له حياته وموته ، واذا قال : دارى هذه اسكنها حتى تموت فإنها ترجع الى صاحبهـا اذا مات . ونحو من السكنى العمرى إلا أن الخلاف فى العمرى أقوى منه فى السكنى ، وسيأتى الكلام فى العمرى فى هود إن شاء الله تعالى . قال الحربى : سمعت ابن الأعرابى يقول : لم يختلف العرب فى أن هـذه الأشياء على ملك أربابهـا ومنافعها لمن جعلت له العمرى والرقبى والإفقار والإخبال والمنحة والعرية والسكنى والاطراق؛وهذا حجة مالك وأصحابه فى أنه لا يملك شىء من العطايا إلا المنافع دون الرقاب؛ وهو قول الليث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قسيط .

العمرى هو اسكانك الرجل فى دار لك مدة عمرك أو عمره ومثله الرقبى وهو أن يقول : إن مت قبلى رجعت إلى، وإن مت قبلك فهى لك؛ وهى من المراقبة . والمراقبة : أن يرقب كل واحد منهما موت صاحبه ، ولذلك اختلفوا فى إجازتهـا ومنعها ، فأجازها أبو يوسف والشافعى وكأنها وصية عنـدهم ؛ ومنعها مالك والكوفيون لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدرى هل يحصل له ، ويتمنى كل واحد منهما موت صاحبه ؛ وفى البـاب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجه فى سننه؛ الأول رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «العمرى جائزة لمن

أعمرها والرقبى جائزة لمن أرقبها» ففي هذا الحديث التسوية بين العمرى والرقبى في الحكم . الثاني رواه ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا رقبى فمن أرقب شيئا فهو له حياته ومماته» . قال : والرقبى أن يقول هو للآخر مني ومنك موتا، فقوله : لا رقبى، نهي يدل على المنع؛ وقوله : «من أرقب شيئا فهو له» يدل على الجواز؛ وأخرجهما أيضا النسائي . وذكر عن ابن عباس قال : العمرى والرقبى سواء . وقال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العمرى جائزة لمن أعمرها والرقبى جائزة لمن أرقبها » فقد صحح الحديث ابن المنذر؛ وهو حجة لمن قال : بأن العمرى والرقبى سواء . وروى عن علي، وبه قال الثوري وأحمد، وأنها لا ترجع الى الأول أبدا؛ وبه قال إسحاق . وقال طاوس : من أرقب شيئا فهو سبيل الميراث . والإفقار مأخوذ من فقار الظهر؛ أفقرتك ناقتي : أعرتك فقارها لتركبها ؛ وأفقرك الصيد اذا أمكنك من فقاره حتى ترميه . ومثله الإخبال، يقال : أخبلت فلانا اذا أعرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه؛ قال زهير :

هنالك إن يُستخبَلوا المالَ يُخبِلوا * وإن يُسئلوا يُعطوا وإن ييسروا يَغلُوا

والمنحة : العطية ؛ والمنحة : منحة اللبن؛ والمنيحة : الناقة أو الشاة يعطيها الرجل آخر يحتلبها ثم يردها؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «العارية مؤداة والمنحة مردودة والدين مقضي والزعيم غارم» رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذي، والدارقطني، وغيرهما وهو صحيح . والإطراق : إعارة الفحل، استطرق فلان فلانا فحله، اذا طلبه ليضرب في إبله ؛ وأطرق الفحل الناقة يطرق طروقا أي قعا عليها؛ وطروقة الفحل : أنثاه؛ يقال : ناقة طروقة الفحل للتي بلغت أن يطرقها الفحل .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ . أنت، تأكيد للضمير الذي في الفعل ؛ ومثله فاذهب أنت وربك؛ ولا يجوز اسكن وزوجك، ولا اذهب وربك الا في ضرورة الشعر؛ كما قال :

قلت اذ أقبلت وزهر تهادى * كنعاج الملا تعسفن رملا

فزهر معطوف على المضمر في أقبلت ولم يؤكد ذلك المضمر ؛ ويجوز في غير القرآن على بعد قم وزيد .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿وَزَوْجُكَ﴾ . لغة القرآن زوج بغير هاء وقد تقدم القول فيه، وقد جاء في صحيح مسلم زوجة، حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني

عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه، فمرّ به رجل فدعاه فجاء فقال : « يا فلان هذه زوجتي فلانة » فقال : يا رسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم » . وزوج آدم عليه السلام هي حوّاء عليها السلام ، وهو أول من سماها بذلك حين خلقت من ضلعه من غير أن يحس آدم عليـه السلام بذلك؛ ولو ألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته؛ فلما انتبه قيـل : له من هذه ؟ قال : امرأة؛ قيـل : وما اسمها ؟ قال : حوّاء؛ قيل : ولم سميت امرأة؟ قال : لأنها من المرء أخذت؛ قيل : ولم سميت حوّاء؟ قال : لأنها خلقت من حيّ . روى أن الملائكة سألت عن ذلك لتجرب علمـه، وأنهـم قالوا له : أتحبها يا آدم ؟ قال : نعم؛ قالوا لحوّاء : أتحبينه يا حواء ؟ قالت : لا؛ وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حبـه؛ قالوا : فلو صدقت امرأة في حبها لزوجها لصـدقت حواء . وقال ابن مسعود، وابن عباس : لمـا أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشا فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن اليها و يأنس بها؛ فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟! قالت : امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إليّ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عوجاء لأنها خلقت من أعوج وهو الضلع . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المرأة خلقت من ضلع — في رواية — وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه لن تستقيم لك على طريقة واحدة فإن استمتعت بها استمتعت [بها] [1] وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها» وقال الشاعر:

هي الضلع العوجاء لست تقيمها * ألا أن تقويم الضلوع انكسارها

أتجمع ضعفا واقتـدارا على الفتى * أليس عجيبا ضعفها واقتـدارها

ومن هذا الباب استدل العلماء على ميراث الخنثى المشكل اذا تساوت فيه علامات النساء والرجال من اللحية والثـدي والمبال ببعض الأعضاء ، فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المرأة أعطي نصيب رجل؛ روى ذلك عن علي رضي الله عنه لخلق حواء من أحد أضلاعه، وسيأتي في المواريث بيان هذا ان شاء الله تعالى .

(١) الزيادة عن كتاب الجامع الصغير .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ ٱلْجَنَّةَ ﴾ . الجنة : البستان وقد تقدم القول فيها ولا التفات لما ذهب إليه المعتزلة، والقدرية، من أنه لم يكن في جنة الخلد و إنما كان في جنة بأرض عدن، واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليه إبليس، فإن الله يقول: ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ . ولا يخرج منها أهلها لقوله : ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ . وأيضا فإن جنة الخلد هي دار القدس قدست عن الخطايا والمعاصي تطهيرا لها، وقد لغى فيها إبليس وكذب وأخرج منها آدم وحواء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يجوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد والملك الذي لا يبلى؟

فالجواب : أن الله تعالى عرف الجنة بالألف واللام ؛ ومن قال : أسأل الله الجنة لم يفهم منه في تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد ؛ ولا يستحيل في العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم؛ وقد لقي موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى : أنت أشقيت ذريتك وأخرجتهم من الجنة ؛ فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد المعروفة، فلم ينكر ذلك آدم ولو كانت غيرها لرد على موسى فلما سكت آدم على ما قرره موسى صح أن الدار التي أخرجهم الله عز وجل منها بخلاف الدار التي أخرجوا إليها . وأما ما احتجوا به من الآي فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة، ولا يمتنع أن تكون دار خلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قضى عليه بالفناء ؛ وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منه بعد المعصية ؛ وقد دخلها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها هي جنة الخلد حقا ؛ وأما قولهم : إن الجنة دار القدس وقد طهرها الله تعالى من الخطايا فجهل منهم ، وذلك أن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة وهي الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدسها وقد شوهد فيها المعاصي والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي فكذلك دار القدس . قال أبو الحسن ابن بطال : وقد حكى بعض المشايخ أن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها

آدم عليه السلام فلا معنى لقول من خالفهم ؛ وقولهم : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو فى دار الخلد ! فيعكس عليهم ، ويقال : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد فى دار الفناء ! هـذا ما لا يجوز على من له أدنى مسكة من عقـل ، فكيف بآدم الذى هو أرجح الخلق عقلا على ما قال أبو أمامة على ما يأتى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ . قراءة الجمهور رغدا بفتح الغين ، وقرأ النخعىّ وابن وثاب بسكونها ، والرغد : العيش الدارّ الهنىّ الذى لا عناء فيه ؛ قال :

بينما المـــرء تراه ناعمـا * يأمن الأحداث فى عيش رغد

ويقال : رغد عيشهم ورغد بضم الغين وكسرها ، وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا فى رغد من العيش ؛ وهو منصوب على الصفة لمصـدر محذوف . وحيثُ وحيثَ وحيثِ ، وحَوْثُ وحَوْثَ وحَوْثِ وحَاثَ ، كلها لغات ذكرها النحاس ، وغيره .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ (١) . أى لا تقرباها بأكل لأن الإباحة فيه وقعت ؛ قال ابن العـربى : سمعت الشاشىّ فى مجلس النظر يقول : إذا قيل لا تقرب بفتح الراء كان معناه لا تَلَبَّس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء فإن معناه لا تدن منه ؛ وفى الصحاح : قرب الشىء يقرب قربا أى دنا ، وقربتـه بالكسر أقربه قربانا أى دنوت منـه ؛ وقربتُ أقرب قرابة — مثل كتبت أكتب كتابة — إذا سرت إلى المـاء وبينك وبينه ليلة ؛ والاسم القرب . قال الأصمعى : قلت لأعرابىّ ما القرب ؟ فقال : سير الليـل لورد الغـد . وقال ابن عطية قال بعض الحذاق : إن الله تعالى لمـا أراد النهى عن أكل الشجرة نهى عنـه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليـه وهو القـرب ؛ قال ابن عطية : وهـذا مثال بين فى سـد الذرائع ؛ وقال بعض أرباب المعـانى قوله : ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ إشعار بالوقوع فى الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيهـا لا يدوم لأن المخلد لا يحظر عليـه شىء ولا يؤمر ولا ينهى ، والدليـل على هذا قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فدل على خروجه منها .

(١) أى من غير تلك الشجرة .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ . الاسم المبهم ينعت بما فيه الألف واللام لا غير، كقولك : مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهذه الشجرة ؛ وقرأ ابن محيصن : « هذى الشجرة » بالياء وهو الأصل لأن الهاء في هـذه بدل من ياء ولذلك انكسر ما قبلها، وليس في الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها وذلك لأن أصلها الياء .

والشجرة والشِّجرة والشيرة ثلاث لغات وقرئ الشجرة بكسر الشين ؛ والشجر والشجرة ما كان على ساق من نبات الأرض ؛ وأرض شجيرة وشجراء أى كثيرة الأشجار، وواد شجير ولا يقال : واد أشجر ؛ وواحد الشجراء شجرة ولم يأت من الجمع على هـذا المثال إلا أحرف يسيرة ، شجرة وشجراء ، وقصبة وقصباء ، وطَرفة وطرفاء ، وحلقة وحلفاء ؛ وكان الأصمعي يقول : في واحد الحلفاء حلفة بكسر اللام مخالفة لأخواتها . وقال سيبويه : الشجراء واحد وجمع وكذلك القصباء والطرفاء والحلفاء . والمشجر موضع الأشجار ؛ وأرض مشجرة ، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجرا ؛ قاله الجوهري .

التاسعة — واختلف أهل التأويل في تعيين هذه الشجرة التي نهى عنها فأكل منها ؛ فقال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وجعدة بن هبيرة : هي الكرم ولذلك حرمت علينا الخمر ؛ وقال ابن عباس أيضا ، وأبو مالك، وقتادة : هي السنبلة ، والحبة منها ككلى البقر أحلى من العسل وألين من الزبد ؛ قاله وهب ابن منبه ؛ ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه ؛ وقال ابن جريج عن بعض الصحابة : هي شجرة التين كذا روى سعيد(1) عن قتادة ولذلك تعبر في الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها ذكره السهيلي ؛ قال ابن عطية : وليس في شيء من هـذا التعيين ما يعضده خبر وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها ؛ وقال القشيري أبو نصر : وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : يعلم على الجملة أنها كانت شجرة المحنة .

العاشرة — واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ؟ فقال قوم : أكلا من غير التي أشير إليها فلم يتأولا النهى واقعا على جميع جنسها ، فإن إبليس غره بالظاهر ؛ قال ابن العربي : وهي أول معصية عصى الله بها على هذا القول ؛ قال :

(1) في نسخة : «شعبة» .

وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنث . وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لا حنث فيه؛ وقال مالك وأصحابه : إن اقتضى بساط اليمين تعيين المشار اليه لم يحنث بأكل جنسه، وان اقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حمل عليه وحنث بأكل غيره؛ وعليه حملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عينت له وأريد به جنسها فحمل القول على اللفظ دون المعنى . وقد اختلف علماؤنا في فرع من هذا وهو أنه إذا حلف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزا منها على قولين؛ قال في الكتاب يحنث لأنها هكذا تؤكل؛ وقال ابن الموّاز : لا شيء عليه لأنه لم يأكل حنطة إنما أكل خبزا فراعى الاسم والصفة، ولو قال في يمينه : لا آكل من هذه الحنطة لحنث بأكل الخبز المعمول منها، وفيما اشترى بثمنها من طعام؛ وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأولا النهي على الندب؛ قال ابن العربي : وهذا وإن كان مسئلة من أصول الفقه فقد سقط ذلك هاهنا لقوله : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ فقرن النهي بالوعيد، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ . وقال ابن المسيب : إنما أكل آدم بعد أن سقته حواء الخمر فسكر وكان في غير عقله؛ وكذلك قال يزيد بن قسيط وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل؛ قال ابن العربي : وهذا فاسد نقلا وعقلا، أما النقل فلم يصح بحال وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة فقال : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوة معصومون عما يؤدي إلى الإخلال بالفرائض واقتحام الجرائم .

قلت : قد استنبط بعض العلماء نبوة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ فأمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جل وعز . وقيل : أكلها ناسيا ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد؛ قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه بذلك حتما وجزما فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ . لكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعا صار به عاصيا أي مخالفا . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بني آدم منذ خلق الله الخلق الى يوم القيامة وضعت في كفة ميزان ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ .

قلت : قول أبي أمامة هذا عموم فى جميع بنى آدم . وقد يحتمل أن يخص من ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كان أوفر الناس حلما وعقلا . وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بنى آدم من غير الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقول الأول أيضا حسن ؛ فظنّا أن المراد العين وكان المراد الجنس ؛ كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أخذ ذهبا وحريرا فقال : « هذان حرامان على ذكور أمتى » . وقال فى خبر آخر : « هذان مهلكان أمتى » وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة ـ يقال : إن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها ، على ما يأتى بيانه ، وإن أول كلامه كان معها لأنها وسواس المخدة ، وهى أول فتنة دخلت على الرجال من النساء ، فقال : ما منعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد ، لأنه علم منهما أنهما كانا يحبان الخلد ، فأتاهما من حيث أحبا . « حبك الشيء يعمى ويصم » . فلما قالت حواء لآدم أنكر عليها وذكر العهد ؛ فألحّ على حواء وألحت حواء على آدم الى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابنى شيء سلمت أنت ؛ فأكلت فلم يضرها ، فأتت آدم فقالت : كل فإنى قد أكلت فلم يضرنى ؛ فأكل فبدت لهما سوآتهما وحصلا فى حكم الذنب لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ فجمعهما فى النهى ، فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وجد المنهى عنه منهما جميعا ، وخفيت على آدم هذه المسئلة . ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجتيه أو أمتيه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حرتان ، إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما . وقد اختلف علماؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال ابن القاسم : لا تطلقان ولا تعتقان إلا باجتماعهما فى الدخول حملاً على هذا الأصل وأخذًا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سحنون . وقال ابن القاسم مرة أخرى : تطلقان جميعا وتعتقان جميعا بوجود الدخول من إحداهما لأن بعض الحنث حنث ؛ كما لو حلف ألا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لقمة منهما . وقال أشهب : تعتق وتطلق التى دخلت وحدها ، لأن دخول كل واحدة منهما شرط فى طلاقها أو عتقها . قال ابن العربى : وهذا بعيد لأن بعض الشرط لا يكون شرطا إجماعا .

قلت : الصحيح الأوّل، وإن النهي إذا كان معلقا على فعلين لا تتحقق المخالفة إلا بهما؛ لأنك إذا قلت : لا تدخلا الدار فدخل أحدهما ما وُجدت المخالفة منهما ؛ لأن قول الله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ نهى لهما ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ جوابه، فلا يكونا من الظـالمين حتى يفعلا ؛ فلمـا أكلت لم يصبها شيء لأن المنهي عنه ما وجد كاملا . وخفي هذا المعنى على آدم فطمع ونسي هذا الحكم وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ ﴾ . وقيل : نَسِي قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ . والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف العلماء في هذا الباب هل وقع من الأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين، صغائر من الذنوب يؤاخذون بها و يعاتبون عليها أم لا ، بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعا : عند القاضي أبي بكر وعند الأستاذ أبي بكر أن ذلك مقتضى دليل المعجزة ، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليـل العقل على أصولهم ؟ فقـال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين : تقع الصغائر منهم؛ خلافا للرافضة حيث قالوا : إنهم معصومون من جميع ذلك، واحتجوا بمـا وقع من ذلك في التنزيل وثبت من تنصلهم من ذلك في الحديث، وهذا ظاهر لا خفاء فيه . وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي : إنهـم معصومون من الصـغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها ؛ لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسـيرهم أمرا مطلقا من غير التزام قرينـة ؛ فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القـربة والإباحة أو الحظر أو المعصـية ، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين . قال الأستاذ أبو إسحاق الأسـفرايني : واختلفوا في الصغائر، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها . ولا أصل لهذه المقالة، وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأوّل : الذي ينبغي أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها وأشفقوا منهـا وتابوا؛ وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك آحادها ؛ وكل ذلك مما لا يُزري بمناصبهم؛ وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهـة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان أو تأويل دعا إلى ذلك فهي

بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفى حقهم سيئات [بالنسبة] إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس ؛ فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح فى رتبهم، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. الظلم أصله وضع الشيء فى غير موضعه ؛ والأرض المظلومة : التى لم تحفر قط ثم حفرت . قال النابغة :

وقفت فيها أُصيلالًا أُسائلها * عيّت جوابًا وما بالربع من أحد

إلا الأوارِيّ لأيًا ما أبيّنها * والنؤى كالحوض بالمظلومة الجَلَد

ويسمى ذلك التراب الظليم . قال الشاعر :

فأصبح فى غبراء بعد إشاحة * على العيش مردود عليها ظليمها

وإذا نحر البعير من غير داء به فقد ظلم ؛ ومنه : "ظلامون للجزر". ويقال : سقانا ظليمة طيبة إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه . وقد ظلم وَطْبه إذا سقى منه قبل أن يروب ويخرج زبده . واللبن مظلوم وظليم . قال :

وقائلة ظلمتُ لكم سقائى * وهل يخفى على العَكَدِ الظليمُ

ورجل ظليم : شديد الظلم . والظلم : الشرك . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾. حذفت النون من كلا لأنه أمر، وحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وحذفها شاذ. قال سيبويه : من العرب من يقول أؤكل فيتم . يقال منه : أكلت الطعام أكلا ومأكلا ؛ والأكلة بالفتح : المرة الواحدة حتى تشبع ؛ والأُكلة بالضم : اللقمة ؛ تقول : أكلت أُكلة واحدة أى لقمة، وهى القرصة أيضا ؛ وهذا الشيء أُكلة لك أى طعمة لك . والأُكل أيضا ما أكل . ويقال : فلان ذو أُكل إذا كان ذا حظ من الدنيا ورزق واسع . ﴿رَغَدًا﴾ نعت لمصدر محذوف أى أكلا رغدا ؛ قال ابن كيسان : ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . وقال مجاهد : رغدا أى لا حساب

عليهم . والرغد في اللغة : الكثير الذي لا يعنيك ؛ ويقال : أرغد القوم إذا وقعوا في خصب وسعة. وقد تقدم هذا المعنى . و﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم لأنها خالفت أخواتها الظروف في أنها لا تضف فأشبهت قبل وبعد إذا أفردتا فضمت؛ قال الكسائي : لغة قيس وكنانة الضم ، ولغة تميم الفتح؛ قال الكسائي : وبنو أسد يخفضونها في موضع الخفض وينصبونها في موضع النصب ؛ قال الله تعالى : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتضم وتفتح . ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الهاء من هذه بدل من ياء الأصل لأن الأصل هذي . قال النحاس : ولا أعلم في العربية هاء تأنيث مكسورا ما قبلها إلا هاء هذه . ومن العرب من يقول : هاتا هند، ومنهم من يقول : هاتي هند؛ وحكى سيبويه : هذه هند بإسكان الهاء . وحكى الكسائي عن العرب : ولا تقربا هذي الشجرة : وعن شبل بن عباد قال : كان ابن كثير وابن محيصن لا يثبتان الهاء في هذه في جميع القرآن. وقراءة الجماعة رغدا بفتح الغين ؛ وروى عن ابن وثاب والنخعي أنهما سكنا الغين ؛ وحكى سلمة عن الفراء قال يقال : هذه فعلت، وهذي فعلت بإثبات ياء بعد الذال، وهذ فعلت بكسر الذال من غير إلحاق ياء ولا هاء، وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تا فعلت . وأنشد :

خليلي لولا ساكن الدار لم أقم * بتا الدار إلا عابر ابن سبيل

قال ابن الأنباري : وتا بإسقاط ها بمنزلة ذي بإسقاط ها من هذي ، وبمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفراء : من قال هذ قامت لا يسقط ها لأن الاسم لا يكون على ذال واحدة . ﴿فَتَكُونَا﴾ . عطف على تقربا فلذلك حذفت النون؛ وزعم الجرمي أن الفاء هي الناصبة. وكلاهما جائز.

قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ . فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ قرأ الجماعة فأزلهما بغير ألف، من الزلة وهي الخطيئة أي استزلهما وأوقعهما فيها؛ وقرأ حمزة: فأزالهما بألف، من التنحية أي نحاهما. يقال : أزلته فزال. قال ابن كيسان : فأزالهما من الزوال أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى. يقال منه : أزللته فزل. ودل على هذا قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ ، وقوله : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ . والوسوسة إنما هي إدخالهما في الزلل بالمعصية ، وليست للشيطان قدرة على زوال

أحد من مكان إلى مكان، [إذا] قدرته [على] إدخاله فى الزلل، فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه . وقيل : إن معنى أزلهما من زل عن المكان إذا تنحى، فيكون فى المعنى كقراءة حمزة من الزوال . قال امرؤ القيس :

يَزِلّ الغلامُ الخِفُّ عن صَهواته * ويُلوِى بأثواب العَنيف المثقَّل

وقال أيضا :

كُمَيتٌ يَزِلّ اللِّبْدُ عن حال متنه * كما زلّت الصَّفْواء بالمتنزَّل

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾. إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا ﴾ تأكيد وبيان للزوال، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض، لأنهما خلقا منها، وليكون آدم خليفة فى الأرض. ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أبعد هو، فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سخنة عين وغيظ نفس وخيبة ظن. قال الله جل ثناؤه : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ فصار عليه السلام خليفة الله فى أرضه بعد أن كان جارا له فى داره؛ فكم بين الخليفة والجار ! صلى الله عليه وسلم . ونسب ذلك إلى إبليس لأنه كان بسببه وإغوائه. ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولى إغواء آدم، واختلف فى الكيفية، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾، والمقاسمة ظاهرها المشافهة. وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن منبه : دخل الجنة فى فم الحية وهى ذات أربع كالبختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية ؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التى نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بها إلى حواء فقال: انظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها ! وأطيب طعمها ! وأحسن لونها ! فلم يزل يغويها حتى أخذتها حواء فأكلتها، ثم أغوى آدم، وقالت له حواء : كل فإنى قد أكلت فلم يضرنى ؛ فأكل منها فبدت لهما سوآتهما وحصلا فى حكم الذنب ؛ فدخل آدم فى جوف الشجرة فناداه ربه : أين أنت ؟ فقال : أنا هذا يا رب ؛ قال : ألا تخرج ؟ قال : أستحى منك يا رب ؛ قال : اهبط إلى الأرض

التي خلقت منها؛ ولُعنت الحية وردّت قوائمها في جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بنى آدم؛ ولذلك أمرنا بقتلها، على ما يأتى بيانه . وقيل لحوّاء: كما أدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا . زاد الطبرى والنقاش: وتكونى سفيهة وقد كنت حليمة . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنـة إلى آدم بعدما أخرج منها وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواســه التي أعطاه الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وسـلم : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم» . والله أعلم . وسيأتى في الأعراف أنه لمـا أكل بقى عريانا وطلب مايستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبكتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التين، فأخذ من ورقه فاستتر به، فبلى بالعرى دون الشجر. والله أعلم . وقيل : إن الحكمة في إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا .

الثالثـة — يذكر أن الحيـة كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك؛ فلما أهبطوا تأكدت العداوة وجعل رزقها التراب، وقيل لها: انت عدوّ بنى آدم وهم أعداؤك وحيث لقيك منهم أحد شدخ رأسك . روى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خمس يقتلهن المحرم » فذكر الحية فيهن . وروى أن إبليس قال لهـا : أدخلينى الجنة وأنت فى ذمتى؛ فكان ابن عباس يقول : اخفروا ذمة إبليس . وروت ساكنة بنت الجعد عن سرية بنت نبهان الغنوية قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اقتلوا الحيات صـغيرها وكبيرها وأسودها وأبيضها فإن من قتلها كانت له فداء من النار ومن قتلته كان شهيدا » . قال علماؤنا: وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانته على ضرر آدم وولده؛ فلذلك كان من قتل حية فكأنما قتل كافرا . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبدا » . أخرجه مسلم وغيره .

الرابعـة — روى ابن جريج عن عمرو بن دينـار عن أبى عبيدة بن عبـد الله بن مسعود قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى فمرّت حية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقتلوها" فسبقتنا إلى جحر فدخلته؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هاتوا بسعفة ونار فأضرموها عليها نارا » .

قال علماؤنا : وهـذا الحديث يخص نهيه عليه السـلام عن المثلة وعن أن يعذب أحد بعذاب الله تعالى؛ قالوا : فلم يبق لهذا العدو حرمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر (١)

فإن قيل : قد روى عن إبراهيم النخعي أنه كره أن تحرق العقرب بالنار، وقال : هو مثلة . قيل : يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعمل على الأثر الذى جاء ألّا تعذبوا بعذاب الله؛ فكان على هذا سبيل العمل عنده .

فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى غار وقد أنزلت عليه : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فنحن نأخذها من فيه رطبة إذ خرجت علينا حية، فقال : "اقتلوها"، فابتدرناها لنقتلها فسبقتنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وقاها الله شركم كما وقاكم شرها"، فلم يضرم نارا ولا احتال فى قتلها، قيل له : يحتمل أن يكون لم يجد نارا فتركه أو لم يكن الجحر بهيئة ينتفع بالنار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان . والله أعلم . وقوله : "وقاها الله شركم" أى قتلكم إياها "كما وقاكم شرها" أى لسعها .

الخامسة ـ الأمر بقتل الحيات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المخوفة من الحيات، فما كان منها متحقق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله؛ لقوله : "اقتلوا الحيات واقتلوا ذا الطُّفيتين(1) والأبتر فإنهما يخطفان البصر ويسقطان الحبل"؛ فخصهما بالذكر مع أنهما دخلا فى العموم ونبه على ذلك بسبب عظم ضررهما . وما لم يتحقق ضرره، فما كان منها فى غير البيوت قتل أيضا لظاهر الأمر العام ولأن نوع الحيات غالبه الضرر، فيستصحب ذلك فيه، ولأنه كله مروع بصورته و بما فى النفوس من النفرة عنه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية"؛ فشجع على قتلها . وقال فيما خرجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا : "اقتلوا الحيات [كلهن](2) فمن خاف ثارهن فليس منى" . والله أعلم .

السادسة ـ ما كان من الحيات فى البيوت فلا يقتل حتى يؤذن ثلاثة أيام لقوله عليه السلام : "إن بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام" . وقد حمل بعض العلماء هذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجن بها؛ قالوا : ولا نعلم هل أسلم من جن غير المدينة أحد أو لا .

(1) ذو الطفيتين : الذى له خطان أسودان على ظهره قال الأصمعى : أراه شبه الخطين اللذين على ظهره بخوصتين من خوص المقل وهما الطفيتان .

(2) الزيادة عن الجامع الكبير .

قاله ابن نافع . وقال مالك : نهى عن قتل جِنّان[1] البيوت فى جميع البلاد ؛ وهو الصحيح ؛ لأن الله عز وجل قال : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ الآية. وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أتانى داعى الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن" وفيه : وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة، الحديث؛ وسيأتى بكماله فى سورة الجن إن شاء الله تعـالى . وإذا ثبت هـذا فلا يقتل شىء منها حتى يحرّج عليـه وينذر على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعـالى .

السابعة — روى الأئمة عن أبى السائب مولى هشام بن زهرة أنه دخل على أبى سعيد الخدرىّ فى بيته، قال: فوجدته يصلى، فجلست أنتظر حتى يقضى صلاته، فسمعت تحريكا فى عراجين فى ناحية البيت، فالتفت فإذا حية، فوثبت لقتلها؛ فأشار إلىّ أن اجلس فجلست؛ فلما انصرف أشار إلى بيت فى الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم؛ قال : كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس ؛ قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق ؛ فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع الى أهله ؛ فاستأذنه يوما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خذ عليك سلاحك فإنى أخشى عليك قُرَيظة"؛ فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع؛ فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى اليها بالرمح ليطعنها به وأصابته غيرة؛ فقالت له : اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى! فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى اليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه فى الدار فاضطربت عليه؛ فما يدرى أيهما كان أسرع موتا، الحية أم الفتى! قال : فجئنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له، وقلنا له : ادع الله يحييه [لنا][2]؛ فقال: "استغفروا لأخيكم"[3] ثم قال : " إن بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان". وفى طريق أخرى: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم شيئا منها فحرّجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر". وقال لهم : "اذهبوا

---

(١) جنان جمع جان ضرب من الحيات أكحل العينين يضرب الى الصفرة لا يؤذى يكثر فى البيوت .

(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٣) فى صحيح مسلم : «لصاحبكم» .

فادفنوا صاحبكم" . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يفهم من هذا الحديث أن هذا الجان الذى قتله هذا الفتى كان مسلما وأن الجن قتلته به قصاصا؛ لأنه لو سلّم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون فى العمد المحض؛ وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمد قتل نفس مسلمة؛ إذ لم يكن عنده علم من ذلك، وإنما قصد إلى قتل ما سوّغ قتل نوعه شرعا؛ فهذا قتل خطأ ولا قصاص فيه . فالأولى أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عدوا وانتقاما . وقد قتلت سعد بن عبادة رضى الله عنه؛ وذلك أنه وجد ميتا فى مغتسله وقد اخضر جسده، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرون أحدا :

قد قتلنا سيد الخز * رج سعد بن عباده
ورميناه بسهمين * فلم نخط فؤاده

وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن بالمدينة جنا قد أسلموا" ليبين طريقا يحصل به التحرز من قتل المسلم منهم ويتسلط به على قتل الكافر منهم . روى من وجوه أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قتلت جانا فأريت فى المنام أن قائلا يقول لها : لقد قتلت مسلما؛ فقالت : لو كان مسلما لم يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك؛ فأصبحت فأمرت باثنى عشر ألف درهم فجعلت فى سبيل الله . وفى رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة فتصدقت وأعتقت رقابا . وقال الربيع بن بدر : الجان من الحيات التى نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنة — فى صفة الإنذار؛ قال مالك : أحب إلىّ أن ينذروا ثلاثة أيام . وقاله عيسى بن دينار : وإن ظهر فى اليوم مرارا، ولا يقتصر على إنذاره ثلاث مرار فى يوم واحد حتى يكون فى ثلاثة أيام . وقيل : يكفى ثلاث مرار؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثا"، وقوله : "حرّجوا عليه ثلاثا" ولأن ثلاثا للعدد المؤنث؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثة أيام"؛ وهو نص صحيح مقيد لتلك المطلقات؛ ويحمل ثلاثا على إرادة ليالى الأيام الثلاث، فغلبت الليلة على عادة العرب فى باب التاريخ فإنها تغلب فيها التأنيث . قال مالك : ويكفى فى الإنذار أن يقول : أحرّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدو لنا ولا تؤذينا . وذكر ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى

أنه ذكر عنده حيّات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم نوح عليـه السلام، وأنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم سليمان عليه السلام؛ فإذا رأيتم منهن شيئا بعدُ فاقتلوه .

قلت : وهـذا يدل بظاهره أنه يكفى فى الإذن مرة واحدة، والحديث يردّه . والله أعلم . وقد حكى ابن حبيب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه يقول : " أنشدكن بالعهد الذى أخذ عليكن سليمان عليه السلام ألّا تؤذيننا وألّا تظهرن علينا " .

التاسعة — روى جبير بن نفير عن أبى ثعلبة الخشنى — واسمه جرثوم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجن على ثلاثة أثلاث فثلث لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وثلث حيات وكلاب وثلث يحلون ويظعنون " . وروى أبو الدرداء — واسمه عويمر — قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلق الجن ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيات وخشاش الأرض وثلث ريح هفافة وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله " .

العاشرة — ما كان من الحيوان أصـله الأذاة فإنه يقتل ابتداء لأجل أذاته من غير خلاف كالحية والعقرب والفأر والوزغ وشبهه . وقد قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " خمس فواسق يُقتلن فى الحل والحرم " وذكر الحديث؛ فالحية أبدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فكيها؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به؛ وقال لها إبليس أنت فى ذمتى؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وقال : " اقتلوها وإن كنتم فى الصلاة " يعنى الحية والعقرب . والوزغة نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت . وهـذا من نوع ما يروى فى الحية؛ وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " من قتل وزغة فكأنما قتل كافرا " وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من قتل وزغة فى أول ضربة كتبت له مائة حسنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثـة دون ذلك " . وفى رواية أنه قال : " فى أول ضربة سبعون حسنة " . والفأرة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها .

وروى عبد الرحمن بن أبي نعم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقتل المحرم الحية والعقرب والحدأة والسبع العادي والكلب العقور والفويسقة» . واستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذت فتيلة لتحرق البيت فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها . والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبي الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض، فترك أمره وأقبل على جيفة . هذا كله في معنى الحية؛ فلذلك ذكرناه . وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في التعليل في المائدة وغيرها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا﴾ . حذفت الألف من «اهبطوا» في اللفظ لأنها ألف وصل . وحذفت الألف من «قلنا» في اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعدها . وروى محمد بن مصفّى عن أبي حَيْوَة ضم الباء في «اهبطوا» وهي لغة يقويها أنه غير متعدّ، والأكثر في غير المتعدّى أن يأتي على يَفْعُل . والخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان في قول ابن عباس؛ وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة؛ وقال مجاهد والحسن أيضا: بنو آدم وبنو إبليس . والهبوط: النزول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم بسَرَنْدِيب من الهند بجبل يقال له «بوذ»[1] ومعه ريح الجنة فعلق بشجرها وأوديتها فامتلأ ما هنالك طيبا؛ فمن ثَمّ يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام . وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع؛ فأورث ولده الصلع . وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا» الحديث؛ وأخرجه مسلم وسيأتي . وأُهبطت حواء بجُدّة، وإبليس بالأبلّة، والحية ببيسان، وقيل : بسجستان، وسجستان أكثر بلاد الله حيات ولولا العربد ما يأكلها ويفني كثيرا منها لأُخليت سجستان من أجل الحيات؛ ذكره أبو الحسن المسعودي .

الثانية ـ قوله تعالى : ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ . بعضكم مبتدأ، عدو خبره، والجملة في موضع نصب على الحال؛ والتقدير وهذه حالكم . وحذفت الواو من «وبعضكم» لأن في الكلام عائدا؛ كما يقال: رأيتك السماء تمطر عليك . والعدوّ : خلاف الصديق؛ وهو من عدا إذا ظلم؛ وذئب عدوان: يعدو على

(١) في اللسان والقاموس ومعجم البلدان : «راهون» .

الناس . والعُدوان : الظلم الصراح ، وقيل : هو مأخوذ من المجاوزة، من قولك : لا يعدوك هذا الأمر أى لا يتجاوزك، وعداه إذا جاوزه؛ فسمى عدوّا لمجاوزة الحد فى مكروه صاحبه ، ومنه العَدْوُ بالقَدَم لمجاوزة الشيء، والمعنيان متقاربان؛ فان من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : ﴿ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ . على الإنسان نفسه،وفيه بعد و إن كان صحيحا معنى يدل عليــه قوله عليه السلام : " إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه : اتق الله فينا؛ فإنك إن استقمت استقمنا، و إن اعوججت اعوججنا". فإن قيل: كيف قال عدو ولم يقل أعداء، ففيه جوابان . أحدهمــا : أن بعضا وكلّا يخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك فى القرآن قال الله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ على اللفظ . وقال تعالى: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ على المعنى . والجواب الآخر: أن عدوّا يفرد فى موضع الجمع؛ قال الله عز وجلّ : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ بمعنى أعداء،وقال تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ ﴾. وقال ابن فارس : العدوّ اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع .

الثالثة — لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة و إهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته، وإنمــا أهبطه إما تأديبا و إما تغليظا للحنة . والصحيح فى إهباطه وسكناه فى الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية فى ذلك وهى نشر نسله فيها ليكلّفهم و يمتحنهم و يرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروىّ. إذ الجنــة والنار ليست بدار تكليف، فكانت تلك الأ كلة سبب إهباطه من الجنة. ولله أن يفعل ما يشاء . وقد قال: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . وهذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفــة ؛ وقد تقدّمت الإشارة إليها مع أنه خلق من الأرض . و إنمــا قلنا إنمــا أهبطه بعد أن تاب عليه لقوله ثانية : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ . وسيأتى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ . ابتداء وخبر أى موضع استقرار، قاله أبو العالية وابن زيد؛ وقال السُّدّىّ : مستقر يعنى القبور .

قلت : قول الله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ يحتمل المعنيين . والله أعلم .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ . المتاع : ما يستمتع به من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس وغير ذلك ؛ ومنه سميت متعة النكاح لأنها تمتع به . وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه :

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ * متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقِ

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ . اختلف المتأولون فى الحين على أقوال ؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهذا قول من يقول : المستقر هو المقام فى الدنيا ؛ وقيل : إلى قيام الساعة ؛ وهذا قول من يقول : المستقر هو فى القبور ؛ وقال الربيع : الى حين : إلى أجل . والحين : الوقت البعيد ؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن . قال خُوَيلد :

كابى الرماد عظيم القِـدْرِ جَفْنَتُه * حين الشتاء كحوض المنهل اللقِف

لقف الحوض لقفا أى تهوّر من أسفله واتسع . وربما أدخلوا عليه التاء . قال أبو وَجْزة :

العاطفون تَحِينَ ما مِنْ عاطفٍ * والمُطعِمون زمانَ أينَ المُطعِمُ

والحين أيضا : المدة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ . والحين قال الله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ ﴾ . قال ابن عرفة : الحين : القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها . وقوله : ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أى حتى تفنى آجالهم ؛ وقوله تعالى : ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ أى كل سنة ؛ وقيل : بل كل ستة أشهر ؛ وقيل : بل غدوة وعشيا . قال الأزهرى : الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت ؛ والمعنى أنه ينتفع بها فى كل وقت ولا ينقطع نفعها البتة . قال : والحين : يوم القيامة ؛ والحين : الغدوة والعشية ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ . ويقال : عاملته محاينة ، من الحين ؛ وأحينت بالمكان إذا أقمت به حينا ؛ وحان حين كذا أى قرب . قالت بُثَينة :

وإن سلوِى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ماحانت ولا حان حينُها

السابعة ــ لما اختلف أهل اللسان فى الحين اختلف فيه أيضا علماؤنا وغيرهم ؛ فقال الفراء : الحين حينان : حين لا يوقف على حده ، والحين الذى ذكر الله جل ثناؤه : ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ ستة أشهر . قال ابن العربى : الحين المجهول لا يتعلق به حكم ، والحين المعلوم هو

الذى تتعلق به الأحكام ويرتبط به التكليف؛ وأكثر المعلوم سنة . ومالك يرى فى الأحكام والأيمان أعم الأسماء والأزمنة؛ والشافعى يرى الأقل؛ وأبو حنيفة توسط. فقال : ستة أشهر. ولا معنى لقوله؛ لأن المقدرات عنده لا تثبت قياسا، وليس فيه نص عن صاحب الشريعة ، وإنما المعوّل على المعنى بعد معرفة مقتضى اللفظ لغة . فمن نذر أن يصلّى حيناً فيحمل على ركعة عند الشافعى لأنه أقل النافلة، قياسا على ركعة الوتر. وقال مالك وأصحابه : أقل النافلة ركعتان فيقدر الزمان بتقدير الفعل . وذكر ابن خُوَيْزِمَنْداد فى أحكامه: أن من حلف ألا يكلم فلانا حينا أو لا يفعل كذا حينا، أن الحين سنة . قال : واتفقوا فى الأحكام أن من حلف ألا يفعل كذا حينا أو لا يكلم فلانا حينا أن الزيادة على سنة لم تدخل فى يمينه .

قلت : هذا الاتفاق إنما هو فى المذهب . قال مالك رحمه الله: من حلف ألا يفعل شيئا الى حين أو زمان أو دهر، فذلك كله سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك فى الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عباس، وأصحاب الرأى وعكرمة وسعيد بن جبير وعامر الشعبى وعبيدة فى قوله تعالى : ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أنه ستة أشهر. وقال الأوزاعى وأبو عبيدة : الحين ستة أشهر؛ وليس عند الشافعى فى الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدة الدنيا؛ وقال : لا نحنثه أبدا ، والورع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثور وغيره : الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال : قد جئت من حين ولعله لم يجئ من نصف يوم . قال الكيا[1] الطبرى الشافعى . وبالجملة الحين له مصارف، ولم ير الشافعى تعيين محمل من هذه المحامل؛ لأنه مجمل لم يوضع فى اللغة لمعنى معين . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : ﴿إِلَى حِينٍ﴾ فائدة بشارة إلى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل الى الجنة التى وعد بالرجوع إليها؛ وهى لغير آدم دالة على المعاد فحسب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ . فيه ثمان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ﴾ . تلقى قيل معناه فهم وفطن ؛ وقيل : قبل وأخذ ؛ وكان عليه السلام يتلقى الوحى أى يستقبله ويأخذه ويتلقفه . تقول : خرجنا نتلقى الحجيج أى

(١) فى نسخة : « الحب » .

تستقبلهم. وقيل : معنى تلقى تلقن؛ وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقى من التلقن فى الأصل لأن أحد الحرفين إنما يقلب ياء إذا تجانسا، مثل تظنى من تظنن، وتقصى من تقصص؛ ومثله تسريت من تسررت، وأمليت من أمللت وشبه ذلك؛ ولهذا لا يقال : تقبى من تقبل، ولا تلقى من تلقن؛ فاعلم . وحكى مكى أنه ألهمها فانتفع بها . وقال الحسن : قبولها تعلمه لها وعمله بها .

الثانية ـ واختلف أهل التأويل فى الكلمات؛ فقال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير والضحاك ومجاهد: هي قوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾. وعن مجاهد أيضا: سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ربى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم. وقالت طائفة : رأى مكتوبا على ساق العرش « محمد رسول الله » فتشفع بذلك، فهى الكلمات . وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء، وقيل : الندم والاستغفار والحزن . قال ابن عطية : هذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الاستغفار المعهود. وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب؛ فقال: يقول ما قاله أبواه : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ الآية؛ وقال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾؛ وقال يونس : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾؛ وعن ابن عباس ووهب بن منبه : أن الكلمات « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم». وقال محمد بن كعب هى قوله : « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءا وظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم. لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم. لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أرحم الراحمين». وقيل: الكلمات قوله حين عطس : « الحمد لله » . والكلمات : جمع كلمة . والكلمة تقع على القليل والكثير . وقد تقدم .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾. أى قبل توبته أو وفقه للتوبة؛ وكان ذلك فى يوم عاشوراء فى يوم جمعة، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبد: رجع إلى طاعة ربه. وعبد تواب: كثير الرجوع إلى الطاعة . وأصل التوبة الرجوع؛ يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع .

الرابعة — إن قيل: لم قال عليه ولم يقل عليهما وحوّاء مشاركة له في الذنب بإجماع، وقد قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾، فالجواب أن آدم عليه السلام لما حوطب في أول القصة بقوله: ﴿اسْكُنْ﴾ خصه بالذكر في التلقي؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضا فلأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله الستر لها؛ ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾؛ وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تذكر، كما لم يذكر فتى موسى مع موسى في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾؛ وقيل: إنه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليهما إذ أمرهما سواء؛ قاله الحسن وقيل: إنه مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي التجارة لأنها كانت مقصود القوم، وأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما، والمعنى متقارب. وقال الشاعر:

رماني بأمر كنت منه ووالدي * بريئا ومن فوق الطَّوِيّ رماني

وفي التنزيل: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾؛ فحذف إيجازا واختصارا.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التواب، وتكرر في القرآن معرفا ومنكرا واسما وفعلا. وقد يطلق على العبد أيضا تواب؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. قال ابن العربي: ولعلمائنا في وصف الرب بأنه تواب ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنه يجوز في حق الرب سبحانه وتعالى فيدعى به كما في الكتاب والسنة ولا يتأول. وقال آخرون: هو وصف حقيقي لله سبحانه وتعالى؛ وتوبة الله على العبد رجوعه من حال المعصية إلى حال الطاعة. وقال آخرون: توبة الله على العبد قبوله توبته؛ وذلك يحتمل أن يرجع الى قوله سبحانه وتعالى: قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة.

السادسة — لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى تائب: اسم فاعل من تاب يتوب لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه، أو نبيه عليه السلام، أو جماعة المسلمين، وإن كان في اللغة محتملا جائزا. هذا هو الصحيح في هذا الباب، على ما بيناه في الكتاب "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى". قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾.

وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ . وإنما قيل لله عز وجل : تواب ، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعة ــ اعلم أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة ، لأن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بخلق الأعمال ، خلافا للمعتزلة ومن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علماؤنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله جل وعز ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الحبر أو الراهب فيعطيه شيئا ويحط عنه ذنوبه ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

الثامنة ــ قرأ ابن كثير : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمَ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَاتٌ ﴾ ، والباقون برفع آدم ونصب كلمات . والقراءتان ترجعان الى معنًى لأن آدم اذا تلقى الكلمات فقد تلقته . وقيل : لما كانت الكلمات هي المنقذة لآدم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها كانت الكلمات فاعلة ، وكان الأصل على هذه القراءة «فتلقت آدم من ربه كلمات» ، لكن لما بعد ما بين المؤنث وفعله حسن حذف علامة التأنيث . وهذا أصل يجري في كل القرآن والكلام إذا جاء فعل المؤنث بغير علامة ، ومنه قولهم : حضر القاضيَ اليومَ امرأةٌ . وقيل : إن الكلمات لما لم تكن تأنيثا حقيقيا حمل على معنى الكلم فذكّر . وقرأ الأعمش : ﴿ آدم من ربّه ﴾ مدغما . وقرأ أبو نوفل بن أبي عقرب : ﴿ أَنَّهُ ﴾ بفتح الهمزة ، على معنى لأنه ، وكسر الباقون على الاستئناف . وأدغم الهاء في الهاء أبو عمرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهم ، وقيل : لا يجوز ، لأن بينهما واوا في اللفظ لا في الخط . قال النحاس : أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو وأنشد :

له زجلٌ كأنّهُ صوتُ حادٍ * اذا طلب الوسيقة أو زميرُ

فعلى هذا يجوز الإدغام . وهو رفع بالابتداء ، التواب خبره ، والجملة خبر إن . ويجوز أن يكون هو توكيدا للهاء ، ويجوز أن تكون فاصلة ، على ما تقدم .

وقال سعيد بن جبير : لما أهبط آدم الى الأرض لم يكن فيها شيء غير النسر في البر ، والحوت في البحر ، فكان النسر يأوي الى الحوت فيبيت عنده ، فلما رأى النسر آدم قال : ياحوت ، لقد

أهبط اليوم الى الأرض شيء يمشي على رجليه ويبطش بيديه ؛ فقال الحوت : لئن كنت صادقا مالى منه فى البحر ملجأ ، ولا لك فى البر منه مخلص !

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ . كرر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده ، كما تقول لرجل : قم قم . وقيل : كرر الأمر لما علق بكل أمر منهما حكما غير حكم الآخر : فعلق بالأول العداوة ، وبالثانى إتيان الهدى . وقيل : الهبوط الأول من الجنة إلى السماء ، والثانى من السماء الى الأرض ؛ وعلى هذا يكون فيه دليل على أن الجنة فى السماء السابعة ، كما دل عليه حديث الإسراء على ما يأتى . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . وقال وهب بن منبه : لما هبط آدم عليه السلام الى الأرض ، قال إبليس للسباع : إن هذا عدو لكم فأهلكوه ؛ فاجتمعوا وولوا أمرهم إلى الكلب وقالوا : أنت أشجعنا وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحير فى ذلك ، فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : امسح يدك على رأس الكلب ففعل ؛ فلما رأت السباع أن الكلب ألف آدم تفرقوا ؛ واستأمنه الكلب فأمنه آدم ، فبقى معه ومع أولاده . وقال الترمذى الحكيم نحو هذا ، وإن آدم عليه السلام لما أهبط الى الأرض جاء إبليس الى السباع فأشلاهم على آدم ليؤذوه ؛ وكان أشدهم عليه الكلب ، فأميت فؤاده ؛ فروى فى الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فاطمأن اليه وألفه ، فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وبموت فؤاده يفزع من الآدميين ؛ فلو رمى بمدر ولى هاربا ثم يعود آلفا لهم . ففيه شعبة من إبليس ، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام ؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويهر ويعدو على الآدمى ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذل وانقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولهثه على كل أحواله من موت فؤاده ؛ ولذلك شبه الله سبحانه وتعالى العلماء السوء بالكلب ، على ما يأتى بيانه فى الأعراف إن شاء الله تعالى ؛ ونزلت عليه تلك العصا التى جعلها الله آية لموسى ، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ . اختلف فى معنى قوله : ﴿ هُدًى ﴾ ، فقيل : كتاب الله ، قاله السدى ؛ وقيل : التوفيق للهداية ؛ وقالت فرقة : الهدى : الرسل ، وهى الى آدم من الملائكة ، والى بنيه من البشر ، كما جاء فى حديث أبى ذر ، وخرجه الآجرى . وفى قوله : ﴿ مِّنِّى ﴾ إشارة

إلى أن أفعال العباد خلق لله تعالى، خلافا للقدرية وغيرهم، كما تقدم . وقرأ الجحدري «هُدَيَّ»، وهو لغة هذيل، يقولون : هُدَيَّ وعَصَيَّ ومَحْيَيَّ . وأنشد النحويون لأبي ذؤيب يرثي بنيه :

سبقوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهمُ ۞ فتخرّموا ولكل جنب مصرعُ

قال النحاس : وعلة هذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سبيل ياء الإضافة أن يكسر ما قبلها؛ فلما لم يجز أن تتحرك الألف أبدلت ياء وأدغمت . وإمّا في قوله : ﴿ إِمَّا ﴾ زائدة على إن التي للشرط، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثاني في قوله : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ ﴾ . ومن في موضع رفع بالابتداء، وتبع في موضع جزم بالشرط، ﴿ فَلَا خَوْفٌ ﴾ جوابه . قال سيبويه : الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأول؛ وقال الكسائي : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ جواب الشرطين جميعا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . الخوف هو الذعر، ولا يكون إلا في المستقبل؛ وخاوفني فلان فخفته أي كنت أشد خوفا منه . والتخوف : التنقص، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ . وقرأ الزهري والحسن وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق ويعقوب : ﴿ فَلَا خَوْفَ ﴾ بفتح الفاء على التبرئة، والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأن الثاني معرفة لا يكون فيه إلا الرفع؛ لأن لا لا تعمل في معرفة، فاختاروا في الأول الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون لا في قولك : فلا خوف، بمعنى ليس .

والحُزن والحَزن : ضد السرور، ولا يكون إلا على ماض . وحزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين، وأحزنه غيره وحزَنه أيضا، مثل أسلكه وسلكه، ومحزون بني عليه . قال اليزيدي : حزَنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم؛ وقد قرئ بهما . واحتزن وتحزن بمعنى . والمعنى في الآية فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أشركوا، لقوله : ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ . الصحبة : الاقتران بالشيء في حالة ما، في زمان ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهي كمال الصحبة؛ وهكذا هي صحبة أهل النار لها . وبهذا القول ينفك الخلاف في تسمية الصحابة رضي الله عنهم

إذ مراتبهم متباينة، على ما نبينـه فى « براءة » إن شاء الله ، وباقى ألفاظ الآية تقـدّم معناها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ نداء مضاف ، علامة النصب فيه الياء وحذفت منه النون للإضافة، الواحد ابن، والأصل فيه بَنَيٌ، وقيل : بَنَوٌ؛ فمن قال : المحذوف منه واو احتج بقولهم : البنوّة . وهذا لا حجة فيه؛لأنهم قد قالوا : الفتوة،وأصله الياء. وقال الزجاج : المحذوف منه عندى ياء كأنه من بنيت . الأخفش اختار أن يكون المحذوف منه الواو لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال: ابن بين البنوّة ، والتصغير بنىّ . قال الفراء : يقال : يابُنَىَّ ويابُنَىِّ لغتان مثل يا أبتِ يا أبتَ،وقرئ بهما . وهو مشتق من البناء وهو وضع الشىء على الشىء؛ والابن فرع للأب وهو موضوع عليه .

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجوزى : وليس فى الأنبياء من له اسمان غيره إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن له أسماء كثيرة . ذكره فى كتاب « فهوم الآثار » له .

قلت : وقد قيل فى المسيح: إنه اسم علم لعيسى عليه السلام غير مشتق، وقد سماه روحا وكلمة، وكانوا يسمونه أبيل الأبيلين؛ ذكره الجوهرى فى الصحاح . وذكر البيهقى فى دلائل النبوّة عن الخليل ابن أحمد : خمسة من الأنبياء ذو و اسمين، محمد وأحمد نبينا صلى الله عليه وسلم ، وعيسى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، والياس وذو الكفل، صلى الله عليهم وسلم

قلت : قد ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء ، وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فله أسماء كثيرة بيانها فى مواضعها .

وإسرائيل اسم أعجمى،ولذلك لم ينصرف،وهو فى موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغات : إسرائيل وهى لغة القرآن ، وإسرائيل بمدّة مهموزة مختلسة حكاها شنبوذ عن ورش، وإسرايِيل بمدّة بعد الياء من غير همز وهى قراءة الأعمش وعيسى بن عمر، وقرأ الحسن والزهرى بغير همز ولا مدّ، وإسرائل بغير ياء بهمزة مكسورة، وإسرأَل بهمزة مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائين بالنون . ومعنى إسرائيل عبد الله؛ قال ابن عباس: إسر بالعبرانية هو عبد وإيل هو الله؛ وقيل: إسر هو صفوة الله وإيل هو الله؛وقيل : إسر من الشدّ؛فكأن إسرائيل الذى شدده الله وأتقن خلقه؛ ذكره المهدوى .

وقال السهيلي: سمي إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر الى الله تعالى؛ فسمي إسرائيل أي أسرى الى الله ونحو هذا؛ فيكون بعض الاسم عبرانيا وبعضه موافقا للعرب. والله أعلم

قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾. الذكر اسم مشترك؛ فالذكر بالقلب ضد النسيان، والذكر باللسان ضد الإنصات، وذكرت الشيء بلساني وقلبي ذكرا؛ واجعله منك على ذُكر (بضم الذال) أي لا تنسه. قال الكسائي: ما كان بالضمير فهو مضموم الذال، وما كان باللسان فهو مكسور الذال؛ وقال غيره: هما لغتان، يقال: ذِكْر وذُكْر، ومعناهما واحد. والذكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى. والذِّكْر أيضا الشرف؛ ومنه قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. قال ابن الأنباري: والمعنى في الآية اذكروا شكر نعمتي؛ فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة. وقيل: إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب أي لا تغفلوا عن نعمتي التي أنعمت عليكم ولا تناسوها؛ وهو حسن. والنعمة هنا اسم جنس فهي مفردة بمعنى الجمع؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ أي نعمه. ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهم أنبياء، وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسلوى، وفجّر لهم من الحجر الماء، الى ما استودعهم من التوراة التي فيها صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته؛ والنعم على الآباء نعم على الأبناء لأنهم يشرفون بشرف آبائهم.

تنبيه — قال أرباب المعاني: ربط سبحانه وتعالى بني إسرائيل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى ذكره؛ فقال: ﴿ٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؛ ليكون نظر الأمم من النعمة الى المنعم، ونظر أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المنعم الى النعمة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾؛ أمر وجوابه. وقرأ الزهري: أُوَفِّ (بفتح الواو وشد الفاء) للتكثير، واختلف في هذا العهد ما هو. فقال الحسن: عهده قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾. وقيل: هو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾. وقال الزجاج: أوفوا بعهدي الذي عهدت اليكم في التوراة من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، أوف بعهدكم بما ضمنت لكم على ذلك، إن أوفيتم به فلكم الجنة. وقيل: أوفوا بعهدي في أداء الفرائض على السنة والإخلاص، أوف بقبولها منكم ومجازاتكم عليها. وقال بعضهم: أوفوا بعهدي في العبادات، أوف بعهدكم أي أوصلكم

إلى منازل الرعايات . وقيل : أوفوا بعهدى فى حفظ آداب الظواهر، أوف بعهدكم بتزيين سرائركم .
وقيل : هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه؛ فيدخل فى ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذى فى التوراة وغيره؛ هذا قول الجمهور من العلماء، وهو الصحيح ، وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة .

قلت : وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾، ﴿ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ . وهو كثير ، ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له بل ذلك تفضل منه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أى خافون، والرَّهْب والرُّهْب والرَّهْبة : الخوف . ويتضمن الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية؛ وقرأ ابن أبى إسحاق : فارهبونى بالياء، وكذا فاتقونى على الأصل . وإياى منصوب بإضمار فعل، وكذا الاختيار فى الأمر والنهى والاستفهام؛ التقدير وإياى ارهبوا فارهبون . ويجوز فى الكلام وأنا فارهبون على الابتداء والخبر . وكون فارهبون الخبر على تقدير الحذف، المعنى وأنا ربكم فارهبون .

قوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ أى صدّقوا، يعنى بالقرآن . ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من الضمير فى أنزلت؛ التقدير بما أنزلته مصدقا؛ والعامل فيه أنزلت . ويجوز أن يكون حالا من ما والعامل فيه آمنوا؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون مصدرية، التقدير آمنوا بإنزالى لما معكم يعنى من التوراة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ . الضمير فى به قيل : هو عائد على محمد صلى الله عليه وسلم، قاله أبو العالية؛ وقال ابن جريج : هو عائد على القرآن إذ تضمنه قوله : ﴿ بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ ؛ وقيل : على التوراة إذ تضمنها قوله : ﴿ لِمَا مَعَكُمْ ﴾

فإن قيل : كيف قال كافر ولم يقل كافرين ، قيل : التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر به . وزعم الأخفش والفراء أنه محمول على معنى الفعل لأن المعنى أول من كفر به؛ وحكى سيبويه : هو أظرف الفتيان وأجمله، وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتى وأجمله . وقال : أوّل، وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم فى مثل هذا لأنهم حجة مظنون

بهم علم . وأوّل عند سيبويه نصب على خبر كان . وهو مما لم ينطق منه بفعل . وهو على أفعل، عينُه وفاؤه واو . وإنما لم ينطق منه بفعل لئلا يعتلّ من جهتين العين والفاء؛ وهذا مذهب البصريين . وقال الكوفيون : هو من وأل اذا نجا، فأصله أوْأَل ، خففت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت فقيل أوّل، كما تخفف همزة خطيئة . قال الجوهرى : والجمع الأوائل والأوالى أيضا على القلب . وقال قوم : أصله وَوْءَل على فَوْعَل؛ فقلبت الواو الأولى همزة. وإنما لم يجمع على أواوِل لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع . وقيل : هو أفعل من آل يؤول، فأصله أأْوَل؛ قلب فجاء أعفل مقلوبا من أفعل، فسُهّل وأُبدل وأُدغم .

مسئلة — لا حجة فى هذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب وهم الكوفيون ومن وافقهم ؛ لأن المقصود من الكلام النهى عن الكفر أوّلا وآخرا؛ وخص الأوّل بالذكر لأن التقدم فيه أغلظ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا؛ وهذا واضح .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ . نهاهم عن أن يكونوا أوّل من كفر وألا يأخذوا على آيات الله ثمنا أى على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رِشًى . وكان الأحبار يفعلون ذلك فنهوا عنه؛ قاله قوم من أهل التأويل منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب، فنهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحبار كانوا يعلّمون دينهم بالأجرة فنهوا عن ذلك . وفى كتبهم : يابن آدم علِّم مجّانا كما عُلِّمت مجّانا أى باطلا بغير أجرة، قاله أبو العالية . وقيل : المعنى ولا تشتروا بأوامرى ونواهىّ وآياتى ثمنا قليلا، يعنى الدنيا ومدّتها والعيش الذى هو نزر لا خطر له؛ فسمى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا لأنهم جعلوه عوضا ، فانطلق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمنا . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنت حاولتَ ذنبًا أو ظفرتَ به * فما أصبتَ بترك الحج من ثمن

قلت : وهذه الآية وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل فهى تتناول من فعل فعلهم . فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله ، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه وقد تعين عليه حتى

يأخذ عليه أجرا، فقد دخل فى مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلّم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة » . (يعنى ريحها) .

الثانية — وقد اختلف العلماء فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم لهذه الآية وما كان فى معناها؛ فمنع ذلك الزهرىّ وأصحاب الرأى وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن لأن تعليمه واجب من الواجبات التى يحتاج فيها إلى نية التقرب والإخلاص، فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام. وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ . وروى ابن عباس أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : «معلمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين» . وروى أبو هريرة قال : قلت يارسول الله ما تقول فى المعلمين؟ قال : «درهمهم حرام وثوبهم سحت وكلامهم رياء» . وروى عُبادة بن الصامت قال : علّمت ناسًا من أهل الصُّفّة القرآن والكتابة، فأهدى إلىّ رجل منهم قوسا؛ فقلت : ليست بمال وأرمى عنها فى سبيل الله؛ فسألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال : «إن سرّك أن تطوّق بها طوقا من نار فاقبلها» . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء لقوله عليه السلام فى حديث ابن عباس — حديث الرقية — « إن أحقّ ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله» أخرجه البخارى؛ وهو نص يرفع الخلاف، فينبغى أن يعوّل عليه .

وأمّا ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد؛ لأنه فى مقابلة النص؛ ثم إن بينهما فرقانا ، وهو أن الصلاة والصوم عبادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلم ؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال ابن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة، ويجوّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحا أو شعرا أو غناءً معلوما بأجرٍ معلوم؛ فيجوز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

وأما الجواب عن الآية — فالمراد بها بنو إسرائيل؛ وشرع من قبلنا هل هو شرع لنا ؟ فيه خلاف، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعين عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة فى ذلك . وقد يتعين عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه

على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته . ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدين إعانته ، وإلا فعلى المسلمين ؛ لأن الصديق رضي الله عنه لما ولي الخلافة وعين لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق ، فقيل له في ذلك ، فقال : ومن أين أنفق على عيالي ! فردوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شيء منها يقوم على ساق ، ولا يصح منها شيء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طريف عن عكرمة عنه ؛ وسعيد متروك . وأما حديث أبي هريرة فرواه علي بن عاصم عن حماد بن سلمة عن أبي جرهم عنه ؛ وأبو جرهم مجهول لا يعرف ، ولم يرو حماد بن سلمة عن أحد يقال له أبو جرهم ، وإنما رواه عن أبي المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضا ، وهو حديث لا أصل له . وأما حديث عبادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلي عن عبادة بن نُسَيّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف عند[1] أهل العلم ولكنه له مناكير ، هذا منها ؛ قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العلم ؛ لأنه روي عن عبادة من وجهين ، وروي عن أُبَيّ بن كعب من حديث موسى بن علي عن أبيه عن أبي ، وهو منقطع ؛ وليس في الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ؛ وحديث عبادة وأبي يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علمه لله ثم أخذ عليه أجرا . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير الناس وخير من يمشي على جديد الأرض المعلمون كلما خلق الدين جددوه أعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبي قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبي بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبراءة للمعلم وبراءة لأبويه من النار » .

الثالثة ـ واختلف العلماء في حكم المصلي بأجرة ؛ فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من استؤجر في رمضان يقوم الناس ، فقال : أرجو ألا يكون به بأس ، وهو أشد كراهة له في الفريضة . وقال الشافعي وأصحابه وأبو ثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعي : لا صلاة له . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ، على ما تقدم . قال ابن عبد البر : وهذه المسألة معلقة من التي قبلها وأصلهما واحد . قلت : ويأتي لهذا أصل آخر من الكتاب في براءة إن شاء الله تعالى . وكره

---

(١) في نسخة : « معروف بحمل العلم » .

ابن القاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو . وقال ابن حبيب : لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب ، ويكره من الشعر ما فيه الخمر والخنا والهجاء . قال أبو الحسن اللخمي : ويلزم على قوله أن يجيز الإجارة على كتبه ويجيز بيع كتبه . وأما الغناء والنوح فممنوع على كل حال .

الرابعة — روى الدارمي أبو محمد في مسنده أخبرنا يعقوب بن ابراهيم قال حدثنا محمد بن عمر ابن الكميت قال حدثنا علي بن وهب الهمداني قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال : مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة فأقام بها أياما ، فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم؛ فأرسل إليه؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هذا الجفاء ؟ قال أبو حازم : يا امير المؤمنين وأي جفاء رأيت مني ؟ قال : أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني ؛ قال : يا أمير المؤمنين أُعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عرفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك! قال : فالتفت إلى محمد بن شهاب الزهري فقال : أصاب الشيخ وأخطأت . قال سليمان : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟! قال : لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب ؛ قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غدا على الله تعالى ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعري مالنا عند الله؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله . قال : وأي مكان أجده ؟ قال : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم ؟ قال أبو حازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم فأي عباد الله أكرم؟ قال: أولوا المروءة والنهى . قال له سليمان : فأي الأعمال أفضل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم . قال سليمان : فأي الدعاء أسمع ؟ قال : دعاء المحسن إليه للمحسن . فقال : أي الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس ، وجهد المقل ، ليس فيها من ولا أذى . قال : فأي القول أعدل ؟ قال: قول الحق عند من تخافه أو ترجوه . قال : فأي المؤمنين أكيس؟ قال : رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها . قال : فأي المؤمنين أحمق؟ قال : رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره . قال له سليمان : أصبت، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال : يا أمير المؤمنين أو تعفيني؟ قال له

سليمان : لا ! ولكن نصيحة تلقيها إلىّ ؛ قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضا لهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فقد ارتحلوا عنها فلو شعرت ما قالوه وما قيل لهم ! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم ! قال أبو حازم : كذبت ، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ؛ قال له سليمان : فكيف لنا أن نصلح ؟ قال : تدعون الصلف وتمسّكون بالمروءة وتقسمونَ بالسوية . قال له سليمان : فكيف لنا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه من حلّه وتضعه فى أهله . قال له سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك ؟ قال : أعوذ بالله ! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات . قال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك ؛ قال : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة ؛ قال سليمان : ليس ذاك إلىّ ؛ قال له أبو حازم : فمالى إليك حاجة غيرها . قال : فادع لى ؛ قال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسّره لخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى ؛ قال له سليمان : قط ! قال أبو حازم : قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله ، وإن لم تكن من أهله فما ينبغى أن أرمى عن قوس ليس لها وتر . قال له سليمان : أوصنى ؛ قال : سأوصيك وأوجز ، عظّم ربك ونزّهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار وكتب [إليه](١) أن أنفقها ولك عندى مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياى هزلا أو ردّى عليك بذلا(٢) ، وما أرضاها لك ، فكيف [أرضاها](١) لنفسى ! إن موسى بن عمران لما ورد ماء مدين وجد عليه رعاء يسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان [فسألهما ، فقالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير](١) ؛ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال : رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ؛ وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن ، فسأل ربه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء ، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله ؛ فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هذا رجل جائع ، فقال لإحداهما : اذهبى

---

(١) الزيادة عن مسند الدارمى .

(٢) بذلا أى : راجيا بذلك وعطائك .

فادعيه . فلما أتتـه عظّمته وغطّت وجهها وقالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فشق على موسى حين ذكرت "أجر ما سقيت لنا" ولم يجد بدًّا من أن يتبعها لأنه كان بين الجبال جائعا مستوحشا . فلما تبعها هبّت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصف له عجيزتها — وكانت ذات عجز — وجعل موسى يعرض مرة ويغض أخرى ؛ فلما عيل صبره ناداها : يا أمة الله كونى خلفى ، وأريني السمت بقولك . فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيأ ؛ فقال له شعيب : اجلس ياشاب فتعشّ ؛ فقال له موسى عليـه السلام : أعوذ بالله ! فقال له شعيب : لم ! أما أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكنى أخاف أن يكون هـذا عوضًا لمـا سقيت لهما ، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا ؛ فقال له شـعيب : لا يا شاب ، ولكنها عادتى وعادة آبائى نقرى الضـيف ونطعم الطعام ؛ فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المـائة دينار عوضا لمـا حدثت فالميتـة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحل من هـذه ، وإن كان لحق فى بيت المـال فلى فيها نظراء ، فإن ساويت بيننا ، وإلا فليس لى فيها حاجة .

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . أنظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العـالم كيف لم يأخذ على عمله عوضا ، ولا على وصيته بدلا ، ولا على نصيحته صفدا (١) ، بل بيّن الحق وصدع ، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فزع . قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « لا يمنعن أحدكم هيبة أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان » . وفى التنزيل : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ ﴾ . قد تقدّم معنى التقوى . وقرئ فاتقونى بالياء ، وقد تقدّم . وقال سهل بن عبد الله : قوله : ﴿ وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ ﴾ قال : موضع علمى السابق فيكم : ﴿ وَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (٢) قال : موضع المكر والاستدراج لقول الله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴾ . فما استثنى نبيًا ولا صدّيقا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ . اللّبس : الخلط . لَبَست عليه الأمر ألبسه إذا مزجت بيّنه بمشكله وحقّه بباطله . قال الله تعالى : ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ . وفى الأمر لُبسة

(١) الصفد (بالتحريك) : العطاء . (٢) العبارة هاهنا غير واضحة . وفى تفسير البحر المحيط لأبى حيان عند قوله تعالى : (وإياى فارهبون) . وقال سهل : « وإياى فارهبون موضع اليقين بمعرفته ، وإياى فاتقون موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج » .

أي ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول علي رضي الله عنه للحارث بن حوط : ياحار إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يُعرَف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنساء :

ترى الجليسَ يقول الحقَّ تحسبه * رُشْدًا وهيهات فانظر ما به التبسا

صدِّق مقالتَه واحذَر عداوتَه * والبِسْ عليه أمورا مثلَ ما لَبَسا

وقال العجاج :

لما لَبَسْنَ الحقَّ بالتجنِّي * غَنِينَ واستبدلن زيدًا مني

روى سعيد عن قتادة في قوله : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ ، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :

* وكتيبة لبّستها بكتيبة *

أنه من هذا المعنى ، ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيل هذا في معنى الآية أي لا تغطوا . ومنه لبس الثوب، يقال : لبست الثوب ألبَسه . ولباس الرجل زوجته، وزوجها لباسها . قال الجعدي :

إذا ما الضجيعُ ثنى جيدَها * تثنّتْ عليه فكانت لباسا

وقال الأخطل :

وقد لَبِستُ لهذا الأمر أعصُرَه * حتى تجلّل رأسي الشيبُ فاشتعلا

واللَّبوس : كل ما يلبس من ثياب ودرع ،قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾. ولابست فلانا حتى عرفتُ باطنه . وفي فلان مَلْبَس أي مستمتع . قال :

ألا إنّ بعد العُدْم للمرء قَنْوةً * وبعد المشيب طولَ عمرٍ وملبسا

ولِبْس الكعبة والهودج ما عليهما من لِباس (بكسر اللام) . قوله : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ . الباطل في كلام العرب خلاف الحق ، ومعناه الزائل . قال لبيد :

* ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ *

وبطل الشيء يبطل بُطلا وبُطُولا وبُطْلانا [ذهب ضياعا وخسرا](1)، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بطلا أى هدرا، والباطل : الشيطان، والبطل : الشجاع، سمى بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لهم لواءٌ بأيدى ماجدٍ بطـــلٍ * لا يقطع الخرق إلا طرفُه سامى

والمرأة بطلة . وقد بطل الرجل (بالضم) يبطُل بُطُولة وبَطَالة أى صار شجاعا . وبطَل الأجير بالفتح بَطالة أى تعطّل فهو بطّال . واختلف أهـل التأويل فى المراد بقوله : ﴿ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ . فروى عن ابن عباس وغيره : لا تخلطوا ما عندكم من الحق فى الكتاب بالباطل وهو التغيير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد مبعوث ولكن إلى غيرنا؛ فإقرارهم ببعثه حق، وجحدهم أنه بعث إليهم باطل . وقال ابن زيد : المراد بالحق التوراة، والباطل ما بدلوا فيها من ذكر محمد عليه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة؛ وقد تقدّم .

قلت : وقول ابن عباس أصوب؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ . يجوز أن يكون معطوفا على تلبسوا فيكون مجزوما، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن، التقدير لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه أى وأن تكتموه . قال ابن عباس يعنى كتمانهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد بن سيرين : نزل عصابة من ولد هارون يثرب لما أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدوّ عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم فكفروا به وهم يعرفونه؛ وهو معنى قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال أى أن محمدا عليه السلام حق؛ فكفرهم به كان كفر عناد . ولم يشهد تعالى لهم بعلم، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ الآية .

(1) الزيادة من اللسان .

قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية؛ فيه أربع وثلاثون مسئلة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمر معناه الوجوب، ولا خلاف فيه؛ وقد تقدّم القول فى معنى إقامة الصلاة واشتقاقها، وفى جملة من أحكامها والحمد لله .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أمر أيضا يقتضى الوجوب . والإيتاء : الإعطاء ؛ آتيته : أعطيته؛ قال الله تعالى : ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ . وأتيته ــ بالقصر من غير مد ــ جئته؛ فاذا كان المجيء بمعنى الاستقبال مد؛ ومنه الحديث : « ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه »؛ وسيأتى .

الثالثة ــ الزكاة مأخوذة من زكا الشيء اذا نما وزاد ؛ يقال : زكا الزرع والمال يزكو اذا كثر وزاد؛ ورجل زكى أى زائد الخير. وسمى الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكى. ويقال: زرع زاك: بين الزكاء؛ وزكأت الناقة بولدها تزكأ به اذا رمت به من بين رجليها؛ وزكا الفرد اذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعا . قال الشاعر :

كانوا خسًا أو زكًا من دون أربعة * لم يخلقوا وجدودُ الناس تعتلجُ

أى ترتفع؛ اعتلجت الأرض : طال نباتها؛ خسا الفرد وزكا الزوج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل؛ ومنه زكّى القاضى الشاهد . فكأن من يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير؛ كما يقال : زكا فلان أى طهر من دنس الجرحة والإغفال؛ فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس؛ وقد قال تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ .

الرابعة ــ واختلف فى المراد بالزكاة هنا ؛ فقيل : المراد بالزكاة المفروضة لمقارنتها بالصلاة؛ وقيل : صدقة الفطر؛ قاله مالك فى سماع ابن القاسم .

قلت : فعلى الأول ــ وهو قول أكثر العلماء ــ فالزكاة فى الكتاب مجملة بيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فروى الأئمة عن أبى سعيد الخدرى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « ليس فى حَبٍّ

ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق ولا فيما دون خمس ذود صدقة ولا فيما دون خمس أواق صدقة"، وقال البخاري : « خمس أواق من الورق » . وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وما سقي بالنضح نصف العشر» . وسيأتي بيان هـذا الباب في الأنعام إن شاء الله تعالى ، ويأتي في براءة زكاة العين والماشية ، وبيان المال الذي لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ . وأما زكاة الفطر فليس لها في الكتاب نص عليها إلا ما تأوله مالك هنا؛ وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ . والمفسرون يذكرون الكلام عليها في سورة الأعلى؛ ورأيت الكلام عليها في هـذه السورة عند كلامنا على آي الصيام؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر في رمضان، الحديث. وسيأتي، فأضافها الى رمضان .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَارْكَعُوا ﴾ . الركوع في اللغة : الانحناء في الشخص. وكل منحن راكع . قال لبيد :

أُخبِّر أخبار القرون التي مضت * أدِبّ كأني كلما قمت راكعُ

قال ابن دريد : الركعة الهوة في الأرض، لغة يمانية . وقيل : الانحناء يعم الركوع والسجود. ويستعار أيضا في الانحطاط في المنزلة . قال :

ولا تُعادِ الضعيفَ علّك أن * تركع يوما والدهر قد رفعهْ

السادسة — واختلف الناس في تخصيص الركوع بالذكر؛ فقال قوم : جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت : وهذا ليس مختصا بالركوع وحده؛ فقد جعل الشرع القراءة في الصلاة والسجود عبارة عن الركعة بكمالها؛ فقال : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ أي صلاة الفجر؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة»؛ وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل : إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع . وقيل : لأنه كان أثقل على القوم في الجاهلية؛ حتى لقد قال بعض من أسلم للنبي صلى الله عليه وسلم : على ألا أخِرّ إلا قائما؛ فمن تأويله على ألا أركع؛ فلما تمكن الإسلام من قلبه اطمأنت بذلك نفسه وامتثل ما أمر به من الركوع .

السابعة ــ الركوع الشرعى هــو أن يحنى الرجل صلبه ويمــد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعا يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا ، وذلك أدناه . روى مسـلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه ولكن بين ذلك. وروى البخارى عن أبى حميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسـلم إذا كبر جعـل يديه حذو منكبيه، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره، الحديث .

الثامنة ــ الركوع فرض قرآنا وسنة،وكذلك السجود؛ لقوله تعالى فى آخر الحج : ﴿ ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا ﴾ . وزادت السنة الطمأنينة فيهما والفصل بينهما. وقد تقدم القول فى ذلك وبينا صـفة الركوع آنفا . وأما السجود فقد جاء مبينا من حديث أبى حميد الساعدى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكن جبهته وأنفه من الأرض ونحى يديه عن جنبيه ووضع كفيه حذو منكبيه؛ خرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب » . وعن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك» . وعن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خوى بيديه ــ يعنى جنح حتى يرى وضح إبطيه من ورائه ــ وإذا قعد اطمأن على فخذه اليسرى .

التاسعة ــ واختلف العلماء فيمن وضع جبهته فى السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه؛ وبه قال الثورى وأحمد ، وهو قول النخعى . قال أحمد : لايجزئه السجود على أحدهما دون الآخر؛ وبه قال أبو حنيفة(1) وابن أبى شيبة . قال إسحاق : إن سجـد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعى وسعيد بن عبد العزيز ، وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبى ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة : يجزئ أن يسجد على جبهته دون أنفه؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وابن سيرين والحسن البصرى؛ وبه قال الشافعى وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : وقال قائل: إن وضع جبهته ولم يضع

(١) فى نسخة : « أبو خيثمة » .

أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هـذا قول النعمان . قال ابن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح فى السجود وضع الجبهة والأنف، لحديث أبى حميد ؛ وقد تقدم . وروى البخارى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم الجبهة — وأشار بيده على أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نكفت الثياب ولا الشعر » . وهذا كله بيان لمجمل الصلاة، فتعين القول به . والله أعلم . وروى عن مالك : أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه، كقول عطاء والشافعى . والمختار عنـدنا قوله الأوّل ولا يجزئ عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

العاشرة — ويكره السجود على كور العمامة ؛ وإن كان طاقة أو طاقتين مثل الثياب التى تستر الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليه . فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبل دخوله فى الصلاة، فإن لم يفعل فليمسحه مسحة واحدة . روى عن مسلم عن معيقيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى الرجل يسوّى التراب حيث يسجد قال : « إن كنت فاعلا فواحدة » . وروى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلّى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شدّة الحر، فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحادية عشرة — لما قال تعالى : ﴿ ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا ﴾ قال بعض علمائنا وغيرهم : يكفى منهما ما يسمى ركوعا وسجودا، وكذلك من القيام؛ ولم يشترطوا الطمأنينة فى ذلك، فأخذوا بأقل الاسم فى ذلك؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتة فى إلغاء الصلاة . قال ابن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتدل راكعا وواقفا وساجدا وجالسا، وهو الصحيح فى الأثر، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر، وهى رواية ابن وهب وأبى مصعب عن مالك . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : وقد تكاثرت الرواية عن ابن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة، وهو وهم عظيم؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلّمها،

فإن كان لابن القاسم عذر أن كان لم يطّلع عليها ، فما لكم أنتم وقد انتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم ! روى النسائي والدارقطني وعلي بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلّى، فلما قضى الصلاة جاء فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ » وجعل الرجل يصلي وجعلنا نرمق صلاته لا ندري ما يعيب منها؛ فلما جاء فسلّم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى القوم، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « وعليك ارجع فصل فإنك لم تصل » قال همام : فلا ندري أمره بذلك مرتين أو ثلاثا؛ فقال له الرجل : ما ألوت، فلا أدري ما عبت عليّ من صلاتي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيغسلَ وجهه ويديه الى المرفقين ويمسحَ برأسه ورجليه الى الكعبين ثم يكبر الله تعالى ويُثني عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيه وتيسّر ثم يكبر فيركع فيضع كفيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخي ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوي قائما حتى يقيم صلبه ويأخذ كل عظم مأخذه ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه — قال همام : وربما قال : — جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخي ثم يكبر فيستوي قاعدا على مقعده ويقيم صلبه — فوصف الصلاة «هكذا أربع ركعات حتى فرغ، ثم قال : — لا تتم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك» . ومثله حديث أبي هريرة خرّجه مسلم، وقد تقدّم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة في الكتاب بتعليم النبي عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخل بما فرض عليه الرحمن، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيه عليه السلام كان من جملة من دخل في قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ ، على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى . روى البخاري عن زيد بن وهب قال : رأى حذيفة رجلا لا يتم الركوع ولا السجود، فقال : ما صلّيت ولو متّ لمتّ على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ . «مع» تقتضي المعية والجمعية؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن : إن الأمر بالصلاة أولا لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله : «مع» شهود

الجماعة . وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين؛ فالذي عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة. وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال ابن عبد البر : هذا قول صحيح؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يُجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات. فاذا قامت الجماعة في المسجد فصلاة المنفرد في بيته جائزة؛ لقوله عليه السلام : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا » . وقال داود: الصلاة في الجماعة فرض على كل أحد في خاصته كالجمعة؛ واحتج بقوله عليه السلام : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» خرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق؛ وهو قول عطاء بن أبي رباح وأحمد بن حنبل وأبي ثور وغيرهم . وقال الشافعي : لا أرخص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه ابن المنذر . وروى مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجل أعمى فقال: يارسول الله، إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد، فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له فيصلّى في بيته؛ فرخّص له؛ فلما ولّى دعاه فقال : « [هل][1] تسمع النداء بالصلاة » قال نعم ؛ قال : « فأجب » ، وقال أبو داود في هذا الحديث : « لا أجد لك رخصة » . خرّجه من حديث ابن أم مكتوم؛ وذكر أنه هو كان السائل . وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر » . قالوا : وما العذر ؟ قال : « خوف أو مرض ــ لم تقبل منه الصلاة التي صلى» . قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه مغراء العبدى. والصحيح أنه موقوف على ابن عباس : «من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له» . على أن قاسم بن أصبغ ذكره في كتابه فقال : حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي قال حدّثنا سليمان بن حرب حدّثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من عذر » وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومغراء العبدى روى عنه أبو إسحاق . وقال ابن مسعود : ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

معلوم النفاق . وقال عليه السلام : « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما » .
قال ابن المنذر : ولقد روينا عن غير واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : « من سمع النداء فلم يجب من غير عذر فلا صلاة له » ؛ منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعري . وروى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد هممت أن آمر فتيتي فيجمعوا حزما من حطب ثم آتي قوما يصلون في بيوتهم ليست لهم علة فأحرقها عليهم » . هذا ما احتج به من أوجب الصلاة في الجماعة فرضا ، وهي ظاهرة في الوجوب . وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات في الجماعة؛ بدليل حديث ابن عمر وأبي هريرة ؛ وحملوا قول الصحابة وما جاء في الحديث من أنه لا صلاة له على الكمال والفضل؛ وكذلك قوله عليه السلام لابن أم مكتوم: « فأجب » على الندب . وقوله عليه السلام : « لقد هممت» لا يدل على الوجوب الحتم؛ لأنه هم ولم يفعل ؛ وإنما مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلفون عن الجماعة والجمعة . يبين هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبد الله قال: «من سره أن يلقى الله غدا مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى . ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم. ولو تركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم لضللتم . وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد الى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق . ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف» . فبين رضي الله عنه في حديثه أن الاجتماع سنة من سنن الهدى وتركه ضلال؛ ولهذا قال القاضي أبو الفضل عياض : أختلف في التمالؤ على ترك ظاهر السنن : هل يقاتل عليها أو لا ؛ والصحيح قتالهم ؛ لأن في التمالؤ عليها إماتتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السنة وظهرت، جازت صلاة المنفرد وصحت . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها

خطيئة حتى يدخل المسجد فاذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاةُ هى تحبسه والملائكة يصلُّون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلى فيه يقولون اللهم ارحمه اللهم اغفرله اللهم تب عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يُحدِث فيه » . قيل لأبى هريرة : مايحدث؟ قال : يفسو أو يضرط .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء فى هذا الفضل المضاف للجماعة، هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت ، أو إنما يكون ذلك الفضل للجماعة التى تكون فى المسجد، لما يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء فى الحديث ؟ قولان؛ والأول أظهر لأن الجماعة هو الوصف الذى علّق عليه الحكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخُطا إلى المساجد وقصد الإتيان اليها والمكث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — واختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك : لا ، وقال ابن حبيب نعم ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كثر فهو أحبّ إلى الله » . رواه أبىّ بن كعب أخرجه أبو داود، وفى إسناده لين .

الخامسة عشرة — واختلفوا أيضا فيمن صلى فى جماعة هل يعيد صلاته تلك فى جماعة أخرى؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم : إنما يعيد الصلاة فى جماعة مع الإمام من صلّى وحده فى بيته وأهله أو فى غير بيته؛ وأمّا من صلّى فى جماعة وإن قلّت فإنه لا يعيد فى جماعة أكثر منها ولا أقلّ . وقال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهَوَيْه وداود بن علىّ: جائز لمن صلّى فى جماعة ووجد جماعة أخرى فى تلك الصلاة أن يعيدها معهم إن شاء ، لأنها نافلة وسنة . وروى ذلك عن حذيفة بن اليمان وأبى موسى الأشعرىّ وأنس بن مالك وصلة بن زافر والشعبى والنخعى؛ وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

احتج مالك بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تُصَلَّى صلاةٌ فى يوم مرتين» ومنهم من يقول : لا تصلوا . رواه سليمان بن يسار عن ابن عمر . واتفق أحمد وإسحاق على أن معنى هذا الحديث أن يصلى الإنسان الفريضة ، ثم يقوم فيصليها ثانية ينوى بها الفرض مرة أخرى؛ فأمّا إذا صلّاها مع

الإمام على أنها سنة وتطوع فليس بإعادة الصلاة ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة فى جماعة : "إنها لكم نافلة". من حديث أبى ذر وغيره .

السادسة عشرة — روى مسلم عن أبى مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يؤمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله فان كانوا فى القراءة سواءً فأعلمُهم بالسنة فإن كانوا فى السنّة سواءً فأقدمهم هجرةً فان كانوا فى الهجرة سواءً فأقدمُهم سِلْماً ولا يؤمّنّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه ولا يقعُد فى بيته على تكرِمَته إلا بإذنه» وفى رواية "سِنّاً" مكان "سلما" . وأخرجه أبو داود قال : قال شعبة : فقلت لإسماعيل ما تكرمته ؟ قال : فراشه . وأخرجه الترمذى وقال : حديث أبى مسعود حديث حسن صحيح والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق الناس بالإمامة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسنة . وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامة . وقال بعضهم : إذا أذن صاحبُ المنزل لغيره فلا بأس أن يصلى به ؛ وكرهه بعضهم وقالوا : السنة أن يصلّى صاحبُ البيت . قال ابن المنذر : روينا عن الأشعث بن قيس أنه قدّم غلاما وقال : إنما أُقدّم القرآن . وممن قال : يؤمّ القوم أقرؤهم ابن سيرين والثورىّ وإسحاق وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : بهذا نقول لأنه موافق للسنة . وقال مالك : يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة ، وإن للسن حقّا . وقال الأوزاعىّ : يؤمّهم أفقههم ؛ وكذلك قال الشافعى وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآن ؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بما ينوبه من الحوادث فى الصلاة ؛ وتأولوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه ؛ لأنهم كانوا يتفقهون فى القرآن ، وقد كان من عرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقُرّاء ؛ واستدلوا بتقديم النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه . وقال إسحاق : إنما قدمه النبىّ صلى الله عليه وسلم ليدل على أنه الخليفة بعده . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وروى أبو بكر البزّار بإسناد حسن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا سافرتم فليؤمّكم أقرؤكم وإن كان أصغركم واذا أمّكم فهو أميركم" . قال : لا نعلمه يروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبى هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة اذا كان قارئا . ثبت فى صحيح البخارى عن عمرو بن سلِمة قال : كنا بماء ممرّ الناس وكان يمرّ بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله

أرسله، أوحى إليه كذا! أوحى اليه كذا! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقر فى صدرى؛ وكانت العرب تلوّم بإسلامها فيقولون : اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبى قومى بإسلامهم، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبي الله حقا، قال : صلوا صلاة كذا فى حين كذا، وصلاة كذا فى حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا، فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآنا لما كنت أتلقى من الركبان فقدمونى بين أيديهم وأنا ابن ست أوسبع سنين، وكانت علىّ بردة اذا سجدت تقلصت عنى، فقالت امرأة من الحيّ : ألا تغطون عنا آست قارئكم(١)! فاشتروا فقطعوا لى قميصا، فما فرحت بشىء فرحى بذلك القميص . وممن أجاز إمامة الصبي غير البالغ الحسن البصرى و إسحاق بن راهويه، واختاره ابن المنذر اذا عقل الصلاة وقام بها لدخوله فى جملة قوله صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرؤهم » ولم يستثن، ولحديث عمرو بن سلمة . وقال الشافعى فى أحد قوليه : يؤمّ فى سائر الصلوات ولا يؤمّ فى يوم الجمعة؛ وقد كان قبل يقول : ومن أجزأت إمامته فى المكتوبة أجزأت إمامته فى الأعياد، غير أنى أكره فيها إمامة غير الوالى . وقال الأوزاعىّ : لا يؤمّ الغلام فى الصلاة المكتوبة حتى يحتلم، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شىء فإنه يؤمّهم الغلام المراهق . وقال الزهرى : إن اضطروا إليه أمهم . ومنع ذلك جملة مالك والثورىّ وأصحاب الرأى .

السابعة عشرة ــ الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حرّ على استقامة جائز من غير خلاف، اذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن فى أم القرآن لحنا يخلّ بالمعنى : مثل أن يكسر الكاف من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ويضم التاء فى ﴿ أَنْعَمْتَ ﴾ . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد؛ وإن لم يفرق بينهما لا تصح إمامته لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخّص فى ذلك كله اذا كان جاهلا بالقراءة وأمّ مثله . ولا يجوز الائتمام بامرأة ولا خنثى مشكل ولا كافر ولا مجنون ولا أمىّ، ولا يكون واحد من هؤلاء إماما بحال من الأحوال عند أكثر العلماء، على ما يأتى ذكره، إلا الأمىّ لمثله . قال علماؤنا : لا تصح إمامة الأمى الذى لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره؛ وكذلك قال الشافعى .

---

(١) فى الأصول : « ألا تغطوا ...» بحذف النون، ولا مقتضى له . وفى مسند الامام أحمد بن حنبل (ج ٥ ص ٧١) طبع مصر، فقالت امرأة : «غطوا آست قارئكم» .

وإن أم أميا مثله صحت صلاتهم عندنا وعند الشافعي . وقال أبو حنيفة : اذا صلى الأمي بقوم يقرءون وبقوم أميين فصلاتهم كلهم فاسدة . وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامة . وقالت فرقة : صلاتهم كلهم جائزة لأن كلا مؤدى فرضه وذلك مثل المتيمم يصلى بالمتطهرين بالماء ، والمصلى قاعدا يصلى بقوم قيام صلاتهم مجزئة فى قول من خالفنا لأن كلا مؤدى فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السلام : « ألا ينظر المصلى [إذا صلى](1) كيف يصلى فإنما يصلى لنفسه » أخرجه مسلم . وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام والله أعلم .

وكان عطاء بن أبي رباح يقول : إذا كانت امرأته تقرأ ، كبر هو وتقرأ هى فإذا فرغت من القراءة كبر وركع وسجد وهى خلفه تصلى . وروى هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشل والأقطع والخصي والعبد إذا كان كل واحد منهم عالما بالصلاة . وقال ابن وهب : لا أرى أن يؤم الأقطع والأشل لأنه منتقص عن درجة الكمال ، وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح ، لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقده كالعين . وقد روى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أم مكتوم يؤم الناس وهو أعمى ، وكذلك الأعرج والأقطع والأشل والخصي قياسا ونظرا والله أعلم ، وقد روى عن أنس بن مالك أنه قال فى الأعمى : وما حاجتهم إليه ! وكان ابن عباس وعتبان بن مالك يؤمان وكلاهما أعمى وعليه عامة العلماء .

التاسعة عشرة — واختلفوا فى إمامة ولد الزنا ، فقال مالك : أكره أن يكون إماما راتبا . وكره ذلك عمر بن عبد العزيز ، وكان عطاء بن أبي رباح يقول : له أن يؤم إذا كان مرضيا ، وهو قول الحسن البصري والزهري والنخعي وسفيان الثوري والأوزاعي وأحمد وإسحاق . وتجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأى ، وغيره أحب إليهم . وقال الشافعي : أكره أن ينصب إماما راتبا من لا يعرف أبوه ، ومن صلى خلفه أجزأه . وقال عيسى بن دينار : لا أقول بقول مالك فى إمامة ولد الزنا وليس عليه من ذنب أبويه شيء ونحوه قال ابن عبد الحكم إذا كان فى نفسه أهلا للإمامة . قال ابن المنذر : يؤم لدخوله فى جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرؤهم » وقال

(1) الزيادة عن صحيح مسلم .

أبو عمر : ليس فى شىء من الآثار الواردة فى شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب، وإنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح فى الدين .

الموفية عشرين — وأما العبد، فروى البخارى عن ابن عمر قال: لما قدم المهاجرون الأولون العصبة — موضع بقباء — قبل مقدم النبى صلى الله عليه وسلم، كان يؤمهم سالم مولى أبى حذيفة وكان أكثرهم قرآنا ؛ وعنه قال : كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الأولين وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى مسجد قباء ، فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعامر بن ربيعة ؛ وكانت عائشة تؤمها عبدها ذكوان من المصحف . قال ابن المنذر : وأم أبو سعيد مولى أبى أسيد — وهو عبد — نفرا من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم ، فيهم حذيفة وأبو مسعود .

ورخص فى إمامة العبد ، النخعى والشعبى والحسن البصرى والحكم والثورى والشافعى وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى؛ وكره ذلك أبو مجلز . وقال مالك : لا يؤمهم إلا أن يكون العبد قارئا ومن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون فى عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤمهم فيها ؛ ويجزئ عند الأوزاعى إن صلوا وراءه . قال ابن المنذر : العبد داخل فى جملة قول النبى صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرؤهم » .

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروى البخارى عن أبى بكرة قال : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة" . وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن خلاد عن أم ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها فى بيتها ، قال : وجعل لها مؤذنا يؤذن لها وأمرها أن تؤم أهل دارها ؛ قال عبد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا . قال ابن المنذر : والشافعى يوجب الإعادة على من صلى من الرجال خلف المرأة ؛ وقال أبو ثور : لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المزنى .

قلت : وقال علماؤنا : لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى ابن أيمن[1] جواز إمامتها للنساء .

وأما الخنثى المشكل ، فقال الشافعى : لا يؤم الرجال ويؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

(١) فى نسخة « ابن أبى أيمن » .

الثانية والعشرون ــ الكافر المخالف للشرع كاليهودي والنصراني يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره؛ وكان الشافعي وأحمد يقولان . لا يجزئهم و يعيدون . وقاله مالك وأصحابه لأنه ليس من أهل القربة . وقال الأوزاعي : يعاقب . وقال أبو ثور والمزني : لا إعادة على من صلى خلفه ولا يكون بصلاته مسلما عند الشافعي وأبي ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون ــ وأما أهل البدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخاري عن الحسن : صلِّ وعليه بدعته . وقال أحمد : لا يصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك : ويصلى خلف أئمة الجور، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . قال ابن المنذر : كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة؛ ولا يجوز تقديم من هذه صفته .

الرابعة والعشرون ــ وأما الفاسق بجوارحه كالزاني وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه ؛ فقال ابن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فإنه يعيد أبدا إلا أن يكون الوالي الذي تؤدى إليه الطاعة، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : «لا تؤمَّن امرأة رجلا ولا يؤمَّن أعرابي مهاجرا ولا يؤمَّن فاجر برًّا إلا أن يكون ذا سلطان» . قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه عليّ بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب ، والأكثر يضعّف علي بن زيد . وروى الدار قطني عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن سرّكم أن تزكو صلاتكم فقدموا خياركم » . في إسناده أبو الوليد خالد بن اسماعيل المخزومي وهو ضعيف قاله الدارقطني ؛ وقال فيه أبو أحمد بن عدي : كان يضع الحديث على ثقات المسلمين؛ وحديثه هذا يرويه عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة . وذكر الدارقطني عن سلام ابن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وفد فيما بينكم و بين الله » . قال الدار قطني : عمر هذا هو عندي عمر بن يزيد قاضي المدائن، وسلام بن سليمان أيضا مدائني ليس بالقوي قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه فاذا كبر فكبروا واذا ركع فاركعوا واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا لك الحمد واذا سجد فاسجدوا وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون » . وقد اختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدا على قولين، أحدهما : أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو فى أكثرها ؛ وهو قول أهل الظاهر . وروى عن ابن عمر ذكر سنيد قال حدثنا ابن علية عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى الورد الأنصارى قال : صليت الى جنب ابن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلم الامام أخذ ابن عمر بيدى فلوانى وجذبنى، فقلت : مالك ! قال : من أنت ؟ قلت : فلان ابن فلان؛ قال : أنت من أهل بيت صدق! فما يمنعك أن تصلى ؟ قلت : أو ما رأيتنى الى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله وإنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن حىّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الامام أو يسجد : لم يعتد بذلك ولم يجزه . وقال أكثر الفقهاء : من فعل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته لأن الأصل فى صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة، سنة حسنة، فمن خالفها بعد أن أدى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها وان أسقط بعض سنتها لأنه لوشاء أن ينفرد فصلى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه، وبئس ما فعل فى تركه الجماعة .

قالوا : ومن دخل فى صلاة الامام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن فى ركعة وإمامه فى أخرى فقد اقتدى وإن كان يرفع قبله ويخفض قبله لأنه بركوعه يركع وبسجوده يسجد ويرفع وهو فى ذلك تبع له إلا أنه مسىء فى فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور ينبىء على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام لأن الإتباع الحسى والشرعى مفقود، وليس الأمر هكذا عند أكثرهم، والصحيح فى الأثر والنظر القول الأول ؛ فان الإمام إنما جعل ليؤتم به ويقتدى به بأفعاله؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أى يأتمون بك على ما يأتى بيانه ؛ هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا ، فمن خالف إمامه لم يتبعه ؛ ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم بين فقال : « إذا كبر فكبروا » الحديث ؛ فأتى بالفاء التى توجب التعقيب وهو المبين عن الله مراده ؛ ثم أوعد من رفع أو ركع قبل وعيدا

شديدا فقال : «أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار» . أخرجه الموطأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنما ناصيته بيد شيطان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ» يعنى مردودا . فمن تعمد خلاف إمامه عالما بأنه مأمور باتباعه منهى عن مخالفته فقد استخف بصلاته وخالف أمر ربه ، فواجب أن لا تجزى عنه صلاته تلك والله أعلم .

السادسة والعشرون ـ فان رفع رأسه ساهيا قبل الإمام فقال مالك رحمه الله : السنة فيمن سهى ففعل ذلك فى ركوع أو فى سجود أن يرجع راكعا أو ساجدا وينتظر الإمام ، وذلك خطأ ممن فعله لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه » . قال ابن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامدا لقوله : وذلك خطأ ممن فعله . لأن الساهى الإثم عنه موضوع .

السابعة والعشرون ـ وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام ، أما السلام فقد تقدّم القول فيه ، وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون الا بعد تكبير الإمام ، إلا ما روى عن الشافعىّ فى أحد قوليه أنه إن كبر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه لحديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الى الصلاة فلما كبر انصرف وأومأ اليهم ، أى كما أنتم ، ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلى بهم ، فلما انصرف قال : « إنى كنت جنبا فنسيت أن أغتسل » . ومن حديث أنس فكبر وكبرنا معه ، وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنُبًا ﴾ فى النساء ان شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون ـ روى مسلم عن أبى مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ، قال ابن مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافا . زاد من حديث عبد الله : «وإياكم وهيشات الأسواق» . قوله : «استووا» أمر بتسوية الصفوف وخاصة الصف الأول وهو الذى يلى الامام على ما يأتى بيانه فى سورة الحجر ان شاء الله تعالى ، وهناك يأتى الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — واختلف العلماء في كيفية الجلوس في الصلاة لاختلاف الآثار في ذلك ؛ فقال مالك وأصحابه : يفضي المصلي بأليته إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويثني رجله اليسرى ؛ لما رواه في موطاه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس في التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وركه الأيسر ولم يجلس على قدمه ، ثم قال : أراني هذا عبد الله ابن عمر وحدثني أن أباه كان يفعل ذلك .

قلت : وهذا المعنى قد جاء في صحيح مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوى قائما ، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوى جالسا ، وكان يقول في كل ركعتين التحية وكان يفرش رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى ، وكان ينهى عن عقبة الشيطان ، وينهى أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السبع ، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قلت : ولهذا الحديث — والله أعلم — قال ابن عمر : إنما سنة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثني اليسرى . وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حي : ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى لحديث وائل بن حجر ؛ وكذلك قال الشافعي وأحمد وإسحاق في الجلسة الوسطى . وقالوا في الآخرة من الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء كقول مالك لحديث أبي حميد الساعدي ، رواه البخاري قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم إذا كبر جعل يديه حذو منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره ، فإذا رفع استوى حتى يعود كل فقار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة ، وإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس في الركعة الآخرة قدم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته . وقال الطبري : إن فعل هذا فحسن ؛ كل ذلك قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسلم بن أبي مريم عن علي بن عبد الرحمن المعاوي أنه قال رآني عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء في الصلاة ؛ فلما انصرف نهاني فقال : اصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؛ قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟

قال : كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه كلها وأشار بإصبعه التى تلى الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ؛ وقال : هكذا كان يفعل . قال ابن عبد البر : وما وصفه ابن عمر من وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بها ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع ؛ كل ذلك سنة فى الجلوس فى الصلاة مجمع عليه ، لا خلاف أعلمه بين العلماء فيها وحسبك بهذا ؛ إلا أنهم اختلفوا فى تحريك أصبعه السبابة ؛ فمنهم من رأى تحريكها ، ومنهم من لم يره ؛ وكل ذلك مروى فى الآثار الصحاح المسندة عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وجميعه مباح والحمد لله . وروى سفيان ابن عيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبى مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه ، قال سفيان : وكان يحيى بن سعيد حدثناه عن مسلم ثم لقيته فسمعته منه وزادنى فيه ، قال : « هى مذبة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه ويقول هكذا » .

قلت : روى أبو داود من حديث ابن الزبير أنه عليه السلام كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها ؛ وإلى هذا ذهب بعض العراقيين – فمنع من تحريكها – وبعض علمائنا رأوا أن مدها إشارة إلى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها إلا أنهم اختلفوا فى الموالاة بالتحريك على قولين ؛ تأول من والاه بأن قال : إن ذلك يذكر بموالاة الحضور فى الصلاة ، وبأنها مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عند التلفظ بكلمتى الشهادة ، وتأول فى الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد والله أعلم .

الحادية والثلاثون – واختلفوا فى جلوس المرأة فى الصلاة ؛ فقال مالك : هى كالرجل ، ولا تخالفه فيما بعد الإحرام إلا فى اللباس والجهر . وقال الثورى : تسدل المرأة جلبابها من جانب واحد ، ورواه عن إبراهيم النخعى . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لها . وهو قول الشعبى : تقعد كيف تيسر لها . وقال الشافعى : تجلس بأستر ما يكون لها .

الثانية والثلاثون – روى مسلم عن طاوس قال : قلنا لابن عباس فى الإقعاء على القدمين ؛ فقال : هى السنة ؛ فقلنا له : إنا لنراه جفاء بالرجل ؛ فقال ابن عباس : [بل](1) هى سنة نبيك صلى الله عليه

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

وسلم . وقد اختلف العلماء في صفة الإقعاء ما هو ؛ فقال أبو عبيد : الإقعاء : جلوس الرجل على أليته ناصبا فخذيه مثل إقعاء الكلب والسبع . قال ابن عبد البر : وهذا إقعاء مجتمع عليه لا يختلف العلماء فيه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهل الفقه . وقال أبو عبيد : وأما أهل الحديث فإنهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين . وقال القاضي عياض : والأشبه عندي في تأويل الإقعاء الذي قال فيه ابن عباس إنه من السنة الذي فسر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين ، وكذا جاء مفسرا عن ابن عباس : من السنة أن تمس عقبيك أليتيك . رواه إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عنه ؛ ذكره أبو عمر . قال القاضي : وقد روي عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه ، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسموه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه أنه رأى ابن عمر وابن عباس وابن الزبير يقعون بين السجدتين .

[illegible]

الثالثة والثلاثون ـــ لم يختلف من قال من العلماء بوجوب التسليم وبعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض ، إلا ما روي عن الحسن بن حي أنه أوجب التسليمتين معا : قال أبو جعفر الطحاوي : لم نجد عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا إلى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال ابن عبد البر : ومن حجة الحسن بن صالح في إيجابه التسليمتين جميعا ، وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته ، قوله صلى الله عليه وسلم : « تحليلها التسليم » ، ثم بين كيفية التسليم فكان يسلم عن يمينه وعن يساره ؛ ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : « تحليلها التسليم » قالوا : والواحدة يقع عليها اسم تسليم .

قلت : هذه المسألة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره ، ولما كان الدخول في الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة ، إلا أنه تواترت الأحاديث الثابتة من حديث ابن مسعود وهو أكثرها تواترا ، ومن حديث سعد بن أبي وقاص وحديث وائل بن حجر الحضرمي وحديث عمار وحديث البراء بن عازب [illegible] أبي [illegible] أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين [illegible] ابن جريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز بن محمد الدراوردي كلهم عن عمرو

ابن يحيى المازني عن محمد بن يحيى بن حبان عن عمه واسع بن حبان قال قلت لابن عمر : حدثني

عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره . قال أبو عمر بن عبد البر : وهذا إسناد مدنى صحيح ، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابرا عن كابر ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل فى كل بلد لأنه لا يخفى لوقوعه فى كل يوم مرارا، وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بالتسليمتين متوارث عندهم أيضا، وكل ما جرى هذا المجرى فهو اختلاف فى المباح كالأذان ، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بل ذلك عندهم معروف،وحديث التسليمة الواحدة رواه سعد بن أبى وقاص وعائشة وأنس إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث .

الرابعة والثلاثون — روى الدارقطنى عن ابن مسعود أنه قال : من السنة أن يخفى التشهد . واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو : التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله . واختار الشافعى وأصحابه والليث بن سعد تشهد ابن عباس ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : " التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . واختار الثورى والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد ابن مسعود الذى رواه مسلم أيضا قال : كنا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله السلام على فلان؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيات والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فإذا قالها أصابت كل عبد [لله] (١) صالح فى السماء والأرض — أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء" . وبه قال أحمد وإسحاق وداود . وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره

(١) الزيادة عن مسلم .

ويميل اليه . وروى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا وموقوفا نحو تشهد ابن مسعود . وهـذا كله اختلاف فى مباح ليس شىء منه على الوجوب . والحمد لله وحده ؛ فهـذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمنهـا قوله جل وعز : ﴿ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ ﴾ . وسيأتى القول فى القيام فى الصلاة عند قوله تعـالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ . ويأتى هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصـلاة، ويأتى فى آل عمران حكم صـلاة المريض غير الإمام، ويأتى فى النساء فى صلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل، ويأتى فى سورة مريم حكم الإمام يصلى أرفع من المأموم إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد ؛ وهـذا كله بيان لقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ . وقد تقدّم فى أوّل السورة جملة من أحكامها والحمد لله على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ الآية؛ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ . هذا استفهام معناه التوبيخ، والمراد فى قول أهل التأويل علمـاء اليهود . قال ابن عباس : كان يهود المدينـة يقول الرجل منهـم لصهره ولذى قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسـلمين : اثبتْ على الذى أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل . — يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم — فان أمره حق؛ فكانوا يأمرون النـاس بذلك ولا يفعلونه . وعن ابن عباس أيضا : كان الأحبار يأمرون مقلّديهـم وأتباعهم باتباع التوراة، وكانوا يخالفونهـا فى جحدهم صفة محمد صـلى الله عليه وسـلم . وقال ابن جريج : كان الأحبار يحضـون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصى . وقالت فرقة : كانوا يحضون على الصدقة ويبخلون . والمعنى متقارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعانى وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومهـا !

الثـانية — فى شدّة عذاب من هذه صفته . روى حماد بن سـلمة عن علىّ بن زيد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة أسرِى بى مررتُ على ناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الخطباء من أهـل الدنيا (١) يأمرون الناس بالبر وينسون

(١) كذا فى مسـند الإمام أحمد بن حنبل (ج ٣ ص ٢٣٠) وتفسير الفخر الرازى (ج ١ ص ٤٩٦) وفى الأصول : « من أمتك » .

أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » . وروى أبو أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم يجرون قُصْبهم فى نار جهنم فيقال لهم من أنتم فيقولون نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وننسى أنفسنا » .

قلت : وهذا الحديث وإن كان فيه لين لأن فى سنده الخصيب بن جحدر وكان الإمام أحمد يستضعفه ؛ وكذلك ابن معين يرويه عن أبى غالب عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى ، وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن معين — حزور القرشى مولى خالد بن عبد الله بن أسيد . وقيل : مولى باهلة . وقيل : مولى عبد الرحمن الحضرمى ، كان يختلف الى الشام فى تجارته . قال يحيى بن معين : هو صالح الحديث فقد رواه مسلم فى صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى](1) فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم [تكن](1) تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه » .

القصب بضم القاف : المعى وجمعه أقصاب . والأقتاب : الأمعاء ، وأحدها قتب . ومعنى فتندلق فتخرج بسرعة . وروينا فتنفلق .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه ؛ وإنما ذلك ، لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ، ومستخف بأحكامه ، وهو ممن لا ينتفع بعلمه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » . أخرجه ابن ماجه فى سننه .

الثالثة — اعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذم الله تعالى فى كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها ، ويخهم به توبيخا يتلى على طول الدهر الى يوم القيامة فقال : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إن قوما يأمرونا * بالذى لا يفعلونا

لمجانين وإن هم * لم يكونوا يصرعونا

(1) الزيادة من صحيح مسلم .

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التقى حتى كأنك ذو تقى * وريح الخطايا من ثيابك تسطع

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فان انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى * بالقول منك وينفع التعليم

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان الحيرى الزاهد فخرج وقعد على موضعه الذى كان يقعد عليه للتذكير فسكت حتى طال سكوته ، فناداه رجل كان يعرف بأبى العباس ، ترى أن تقول فى سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى * طبيب يداوى والطبيب مريض

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرابعة — قال إبراهيم النخعى : إنى لأكره القصص لثلاث آيات ، قوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ الآية ، وقوله : ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ . وقال سلم بن عمرو[1] :

ما أقبح التزهيد من واعظ * يزهد الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقا * أضحى وأمسى بيته المسجد
إن رفض الدنيا فما باله * يستمنح الناس ويسترفد
والرزق مقسوم على من ترى * يناله[2] الأبيض والأسود

وقال الحسن لمطرف بن عبد الله : عظ أصحابك ؛ فقال : إنى أخاف أن أقول ما لا أفعل ؛ قال : يرحمك الله ! وأينا يفعل ما يقول ! ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحد بمعروف

---

(١) كذا فى الأصول ، والصحيح أن الأبيات لمجاز ، وهو ابن أخت سلم بن عمرو الخاسر . راجع الأغانى (ج ٤ ص ٧٦) طبع دار الكتب المصرية .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «يسعى له» [illegible] .

ولم ينه عن منكر . وقال مالك عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شىء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . قال مالك : وصدق، من ذا الذى ليس فيه[1] شىء؟

الخامسة ــ قوله تعالى ﴿ بِالْبِرِّ ﴾ البر هنا الطاعة والعمل الصالح؛ والبر : الصدق . والبر : ولد الثعلب . والبر : سوق الغنم؛ ومنه قولهم : "لا يعرف هرا من بر" أى لا يعرف دعاء الغنم من سوقها . فهو مشترك؛ وقال الشاعر :

لا هم رب إن بكرا[2] دونكا * يبرك الناس ويفجرونكا

أراد بقوله : يبرك الناس أى يطيعونك . ويقال : إن البرّ الفؤاد فى قوله :

أكون مكان البرّ[3] منه ودونه * وأجعل مالى دونه وأوامره

والبر بضم الباء معروف، وبفتحها الإجلال والتعظيم؛ ومنه ولد برّ وبارّ أى يعظم والديه ويكرمهما.

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى تتركون . والنسيان بكسر النون يكون بمعنى الترك . وهو المراد هنا وفى قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ . ويكون خلاف الذكر والحفظ؛ ومنه الحديث : «نسى آدم فنسيت ذريته» وسيأتى؛ يقال : رجل نسيان بفتح النون كثير النسيان للشىء . وقد نسيت الشىء نسيانا، ولا تقل نسيانا بالتحريك لأن النسيان إنما هو تثنية نسا : العرق . وأنفس : جمع نفس جمع قلة . والنفس : الروح؛ يقال : خرجت نفسه؛ قال أبو خراش :

نجا سالم والنفس منه بشدقه * ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا

أى بجفن سيف ومئزر . ومن الدليل على أن النفس الروح قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ . يريد الأرواح؛ فى قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتى . وذلك بين فى قول بلال

(١) فى نسخة : «فيه» .

(٢) كذا فى البحر المحيط لأبى حيان . وفى الأصول : «بكرا» بالواو . وفى تفسير الشوكانى : « إن بكرنا» .

(٣) كذا فى الأصول واللسان مادة « برر » . وفى شرح القاموس :

* يكون مكان البرّ منى ودونه *

للنبيّ صلّى الله عليه وسلم فى حديث ابن شهاب : أخذ بنفسي يارسول الله الذى أخذ بنفسك . وقوله عليه السلام فى حديث زيد بن أسلم : « إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا فى حين غير هذا » . رواهما مالك، وهو أولى ما يقال به . والنفس أيضا الدم ؛ يقال : سالت نفسه ؛ قال الشاعر :

تسيل على حدّ السيوف نفوسنا * وليست على غير الظبات تسيل

وقال إبراهيم النخعيّ : ما ليس له نفس سائلة فانه لا ينجس الماء إذا مات فيه . والنفس أيضا الجسد؛ قال الشاعر :

نبئت أن بنى سحيم أدخلوا * أبياتهم تامور نفس المنذر

والتامور أيضا : الدم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ . توبيخ عظيم لمن فهم . وتتلون : تقرءون. الكتاب : التوراة . وكذا من فعل فعلهم كان مثلهم . وأصل التلاوة الاتباع ، ولذلك استعمل فى القراءة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نسقه؛ يقال : تلوته إذا تبعته تلوا، وتلوت القرآن تلاوة . وتلوت الرجل تلوا إذا خذلته . والتلية والتلاوة (بضم التاء) : البقية ؛ يقال : تليت لى من حقى تلاوة وتلية أى بقيت؛ واتليت : أبقيت. وتتليت حقى إذا تتبعته حتى تستوفيه. قال أبو زيد : تلى الرجل إذا كان بآخر رمق .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ . أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المردية لكم . والعقل : المنع ؛ ومنه عقال البعير لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل للدية لأنه يمنع وليّ المقتول عن قتل الجانى . ومنه اعتقال البطن واللسان . ومنه يقال للحصن : معقل . والعقل : نقيض الجهل . والعقل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تغشى به الهوادج؛ قال علقمة :

عقلا ورقما تكاد الطير تخطفه * كأنه من دم الأجواف مدموم

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم الممتلئ شحما من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والعقل من شيات الثياب ما كان نقشه طولا ؛ وما كان نقشه مستديرا فهو الرقم . وقال الزجاج : العاقل من عمل بما أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاسعة — اتفق أهل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم، لأنه لو كان معدوما لما اختص بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض، وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه، إذ الدليل قد قام على ألا قديم إلا الله تعالى على ما تقدم ويأتي بيانه في هذه السورة وغيرها إن شاء الله تعالى .

وقد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم، ثم منهم من صار إلى أنه جوهر لطيف في البدن ينبث شعاعه منه بمنزلة السراج في البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات . ومنهم من قال : إنه جوهر بسيط أي غير مركب . ثم اختلفوا في محله ، فقالت طائفة منهم : محله الدماغ، لأن الدماغ محل الحس . وقالت طائفة أخرى : محله القلب، لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس . وهذا القول في العقل بأنه جوهر فاسد من حيث إن الجواهر متماثلة ، فلو كان جوهر عقلا لكان كل جوهر عقلا . وقيل : إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى . وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحي ، والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا . وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري والأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم، بدليل أنه لا يقال : عقلت وما علمت ، أو علمت وما عقلت . وقال القاضي أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، وهو اختيار أبي المعالي في الإرشاد، واختار في البرهان أنه صفة يتأتى بها درك العلوم . واعترض على مذهب القاضي واستدل على فساد مذهبه . وحكى في البرهان عن المحاسبي أنه قال : العقل غريزة، وحكى الأستاذ أبو بكر عن الشافعي وأبي عبد الله بن مجاهد أنهما قالا : العقل آلة التمييز . وحكي عن أبي العباس القلانسي أنه قال : العقل قوة التمييز . وحكي عن المحاسبي أنه قال : العقل أنوار وبصائر . ثم رتب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال : والأولى ألا يصح هذا النقل عن الشافعي ولا عن ابن مجاهد ، فإن الآلة إنما تستعمل في الآلة المثبتة ، وإطلاقها في الأعراض مجاز . وكذلك قول من قال : إنه قوة ، فإنه لا يعقل من القوة إلا القدرة . والقلانسي أطلق ما أطلقه توسعا في العبارات، وكذلك المحاسبي . والعقل ليس بصورة ولا نور ، ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر . وسيأتي في هذه السورة بيان فائدته في آية التوحيد إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الآية . فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ . الصبر : الحبس في اللغة . وقُتِلَ فلان صبرا أي أُمسِك وحُبِس حتى أُتلف . وصبرت نفسي على الشيء : حبستها . والمصبورة التي نهي عنها في الحديث هي المحبوسة على الموت وهي المُجَثَّمَة . وقال عنترة :

فَصَبَرْتُ عارفــةً لذلك حُرَّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجبان تَطَلَّعُ

الثانية — أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة في كتابه فقال : ﴿وَاصْبِرُوا﴾ . يقال : فلان صابر عن المعاصي . وإذا صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة ؛ هذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر ؛ إنما يقال : صابر على كذا ؛ فاذا قلت : صابر مطلقا فهو على ما ذكرنا ؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ . خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها . وكان عليه السلام إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة ؛ ومنه ما روي أن عبد الله بن عباس نُعِيَ له أخوه قُثَم — وقيل بنت له — وهو في سفر فاسترجع وقال : عورة سترها الله ، ومؤونة كفاها الله ، وأجر ساقه الله . ثم تنحى عن الطريق وصلى ثم انصرف الى راحلته وهو يقرأ : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ . فالصلاة على هذا التأويل هي الشرعية . وقال قوم : هي الدعاء على عرفها في اللغة ؛ فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعالى : ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ . لأن الثبات هو الصبر ، والذكر هو الدعاء . وقول ثالث ، قال مجاهد : الصبر في هذه الآية الصوم ؛ ومنه قيل لرمضان : شهر الصبر ، فجاء الصوم والصلاة على هذا القول في الآية متناسبا في أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهد في الدنيا ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتخشع ويقرأ فيها القرآن الذي يذكر الآخرة . والله أعلم .

الرابعة — الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها ، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين . قال يحيى بن اليمان : الصبر ألا تتمنى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضى بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك . وقال الشعبي : قال علي رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . قال الطبري : وصدق علي رضي الله عنه . وذلك أن

الإيمان معرفة بالقلب و إقرار باللسان وعمل بالجوارح ؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمان بالإطلاق ؛ فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذى لا تمام له إلا به .

الخامسة ــ وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًّا فقال : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ . وجعل جزاء الصدقة فى سبيل الله فوق هذا فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب ومدح أهله فقال : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . وقال : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ . وقد قيل : إن المراد بالصابرين فى قوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ ﴾ . أى الصائمون ، لقوله تعالى فى صحيح السنة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الصيام لى وأنا أجزى به » فلم يذكر ثوابا مقدرا كما لم يذكره فى الصبر . والله أعلم .

السادسة ــ من فضل الصبر وصف الله تعالى نفسه به كما فى حديث أبى موسى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « ليس أحد أو ليس شىء أصبر على أذى سمعه ، من الله تعالى إنهم لَيَدْعُون له ولدا وإنه ليعافيهم ويرزقهم » . أخرجه البخارى . قال علماؤنا : وصف الله تعالى بالصبر إنما هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يرد فى التنزيل وإنما ورد فى حديث أبى موسى ، وتأوله أهل السنة على تأويل الحلم . قاله ابن فُورَك وغيره . وجاء فى أسمائه الصبور للمبالغة فى الحلم عمن عصاه .

السابعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ . اختلف المتأولون فى عود الضمير من قوله : ﴿ وإنها ﴾ فقيل : على الصلاة وحدها خاصة ، لأنها تكبر على النفوس ما لا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم ؛ فالصلاة فيها سجن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ؛ فليس من منع شهوة واحدة أو شهوتين كمن منع جميع الشهوات ؛ فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب ، ثم ينبسط سائر الشهوات من الكلام والمشى والنظر الى غير ذلك من ملاقاة الخلق ، فيتسلى بتلك الأشياء عما منع ، والمصلى يمتنع من جميع ذلك ، فجوارحه كلها مقيدة بالصلاة عن جميع الشهوات . و إذا كان ذلك كانت الصلاة أصعب على النفس ومكابدتها أشدّ فلذلك قال : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ . وقيل : عليهما ، ولكنه كنى عن الأغلب وهو الصلاة كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا

فى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ . فرد الكناية إلى الفضة لأنها الأغلب والأعم، وإلى التجارة لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لما كان داخلا فى الصلاة أعاد عليها كما قال : ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ . ولم يقل : يرضوهما، لأن رضى الرسول داخل فى رضى الله جل وعز؛ ومنه قول الشاعر[(1)] :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ * ـود ما لم يعاص كان جنونا

ولم يقل يعاصيا، ردّ إلى الشباب لأن الشعر داخل فيه؛ وقيل : رد الكناية إلى كل واحد منهما لكن حذف اختصارا؛ قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ ولم يقل آيتين؛ ومنه قول الشاعر[(2)] :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله * فإنى وقيّار بها لغـريب

وقال آخر[(3)] :

لكل هم من الهموم سعه * والصبح والمُسْىُ لا فلاح معه

أراد لغريبان ، لا فلاح معهما . وقيل : على العبادة التى يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر وهى الاستعانة التى يقتضيها قوله : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا ﴾ . وقيل : على إجابة محمد عليه السلام، لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه . وقيل : على الكعبة، لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها . وكبيرة ، معناه ثقيلة شاقة ، خبر إن ويجوز فى غير القرآن وإنه لكبيرة إلا على الخاشعين، فإنها خفيفة عليهم . قال أرباب المعانى : إلا على من أيد فى الأزل بخصائص الاجتباء والهدى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ ﴾ . الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع . والخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع فى القلب وهو الخوف وغض البصر فى الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذى يُرَى أثر الذل والخشوع عليه كخشوع الدار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

رماد ككحل العين لأيا أبينه * ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

---

(1) هو حسان بن ثابت .

(2) هو ضابئ البرجمى؛ كما فى اللسان مادة (قير) . والكامل للبرد (ج ١ ص ١٨١) طبع أوربا .

(3) هو الأضبط بن قريع السعدى؛ اللسان مادة (مسا) .

ومكان خاشع لا يهتدى له . وخشعت الأصوات أى سكنت . وخشعت خراشى صدره إذا ألقى بصاقا لزجا . وخشع ببصره إذا غضه . والخشعة : قطعة من الأرض رخوة ؛ وفى الحديث : «كانت خشعة على الماء ثم دحيت بعد»[1] . وبلدة خاشعة : مغبرة لا منزل بها . قال سفيان الثورى : سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثورى ، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعى عن الخشوع ؛ فقال : أعيمش ! تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنىء فى الحق سواء ، وتخشع لله فى كل فرض افترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب الى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك ، فان الخشوع لا يزيد على ما فى القلب . وقال على بن أبى طالب : الخشوع فى القلب ، وأن تلين كفيك للمرء المسلم ، وألا تلتفت فى صلاتك . وسيأتى هذا المعنى مجودا عند قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ . فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما فى قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شعرة على جسده ؛ لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود ، لأن الخوف اذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقا متأدبا متذللا . وقد كان السلف يجتهدون فى ستر ما يظهر من ذلك ؛ وأما المذموم فتكلفه والتباكى ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال ، وذلك خدع من الشيطان ، وتسويل من نفس الانسان . روى الحسن أن رجلا تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ؛ فلكزه عمر ، أو قال لكمه . وكان عمر رضى الله عنه اذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وكان ناسكا صدقا ، وخاشعا حقا . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقا .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ . الذين فى موضع خفض على النعت للخاشعين ، ويجوز الرفع على القطع . والظن هنا فى قول الجمهور بمعنى اليقين ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ وقوله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ ؛ قال دريد بن الصمة :

(١) الذى فى نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : «كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض» .

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج * سراتهم فى الفارسىّ المسرّد

وقال أبو دؤاد :

رب هم فرّجته بغـريم * وغيوب كشفتها بظنون

وقد قيل : إنـ الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه ويضمر فى الكلام بذنوبهم، فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين ذكره المهدوى والماوردى . قال ابن عطية : وهذا تعسف . وزعم الفراء أن الظنّ قد يقع بمعنى الكذب . ولا يعرف ذلك البصريون . وأصل الظن وقاعدته : الشك مع ميل الى أحد معتقديه ، وقد يوقع موقع اليقين، كما فى هذه الآية وغيرها ، لكنه لا يوقع فيما قـد خرج الى الحس، لا تقول العرب فى رجل مرئىّ حاضر : أظن هذا إنسانا . وإنمـا تجد الاستعمال فيما لم يخرج الى الحس بعد، كهذه الآية والشعر، وكقوله تعالى : ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ وقد يجيء اليقين بمعـنى الظن وقد تقدم بيانه أوّل السورة . وتقول : سـؤت به ظنا، وأسأت به الظن . يدخلون الألف اذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ جزاء ربهم، وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد، مثل عافاه الله . ﴿ وأنهم ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأوّل ، ويجوز وإنهم بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْـهِ ﴾ أى الى ربهم . وقيل الى جزائه ﴿ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى .

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيـلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقدم . ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ بمـا جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ أمر معناه الوعيد، وقد مضى الكلام فى التقوى . ﴿ يَوْمًا ﴾ يريد عذابه وهوله وهو يوم القيامة، وانتصب على المفعول باتقوا، ويجوز فى غير القرآنـ يوم لا تجزى على الاضافة . وفى الكلام حذف بين النحويين فيه اختلاف، قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ثم حذف فيه، كما قال :

* ويوما شهدناه سليما وعامرا *

أى شهدنا فيه . وقال الكسائى : هذا خطأ لا يجوز حذف فيه ولكن التقدير واتقوا يوما لا تجزيه نفس ثم حذف الهاء . وإنما يجوز حذف الهـاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها، قال : لا يجوز

أن تقول: هذا رجلا قصدت، ولا رأيت رجلا أرغب، وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه. قال: ولو جاز ذلك لجاز الذي تكلمت زيد بمعنى تكلمت فيه زيد. وقال الفراء: يجوز أن تحذف الهاء وفيه. وحكى المهدوي أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج. ومعنى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾. أي لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا؛ تقول: جزى عني هذا الأمر يجزي؛ كما تقول: قضى عني. واجتزأت بالشيء اجتزاء اذا اكتفيت به؛ قال الشاعر:

فإن الغدر في الأقوام عار * وأن الحر يجزأ بالكراع

أي يكتفي بها. وفي حديث عمر: «اذا أجريت الماء على الماء جزى عنك» يريد اذا صببت الماء على البول في الأرض فجرى عليه طهر المكان، ولا حاجة بك الى غسل ذلك الموضع، وتنشيف الماء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس. وفي صحيح الحديث عن أبي بردة بن نيار في الأضحية: «ولا تجزي [جذعة][1] عن أحد بعدك» أي لن تغني، فمعنى لا تجزي لا تقضي ولا تغني ولا تكفي إن لم يكن عليها شيء، فان كان فانها تجزي وتقضي وتغني، بغير اختيارها، من حسناتها ما عليها من الحقوق؛ كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه». خرجه البخاري. ومثله حديثه الآخر في المفلس وقد ذكرناه في التذكرة خرجه مسلم. وقرئ تجزئ بضم التاء والهمز. ويقال: جزى وأجزى بمعنى واحد؛ وقد فرق بينهما قوم فقالوا: جزى بمعنى قضى وكافأ: وأجزأ بمعنى أغنى وكفى. أجزأني الشيء يجزئني أي كفاني؛ قال الشاعر:

وأجزأت أمر العالمين ولم يكن * ليجزئ إلا كامل وابن كامل

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾: الشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الاثنان، تقول: كان وترا فشفعته شفعا؛ والشفعة منه؛ لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك. والشفيع: صاحب الشفعة وصاحب الشفاعة. وناقة شافع إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها؛ تقول منه: شفعت الناقة شفعا، وناقة شفوع وهي التي تجمع بين محلبين في حلبة واحدة. واستشفعته الى فلان:

(١) الزيادة عن صحيح مسلم.

سألته أن يشفع لى إليه ، وتشفعت إليه فى فلان فشفعنى فيه ، فالشفاعة إذا ضم غيرك الى جاهك ووسيلتك ، فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وإيصال منفعته للمشفوع .

الرابعة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق ، وأنكرها المعتزلة وخلدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين ، وقد تمسك القاضى عليهم فى الرد بشيئين ، أحدهما : الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقى هذه الأخبار بالقبول ولم يبد من أحد منهم فى عصر من الأعصار نكير ، فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار مثل قوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ . قالوا : وأصحاب الكبائر ظالمون . وقال : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ . قلنا : ليست هذه الآيات عامة فى كل ظالم ، والعموم لا صيغة له ، فلا تعم هذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس ، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة فى ذلك ، وأيضا فإن الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام ، فقال فى صفة الكافرين : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ . النفس الكافرة لا كل نفس . ونحن وإن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص ، فلا نقول : إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التى رويناها ، وبدليل قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

فإن قالوا : فقد قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ . والفاسق غير مرتضى . قلنا : لم يقل لمن لا يرتضى ، وإنما قال : ﴿ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحدون ، بدليل قوله : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ . وقيل للنبى صلى الله عليه

وسلم : ما عهد الله مع خلقه ؟ قال : « أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا » . وقال المفسرون : إلا من قال : لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتضى هو التائب الذى اتخذ عند الله عهدا بالإنابة اليه بدليل أن الملائكة استغفروا لهم، وقال : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هى لأهل التوبة دون أهل الكبائر . قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة، فإذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج الى الشفاعة ولا الى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ . أى من الشرك ﴿ وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ . أى سبيل المؤمنين؛ سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم، كما قال تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

فإن قالوا : جميع الأمة يرغبون فى شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم، فلو كانت لأهل الكبائر خاصة بطل سؤالهم . قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب الى الله فى أن تناله ؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة؛ وقال صلى الله عليه وسلم : «لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى — فقيل: ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال — : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ ﴾ . قرأ ابن كثير وأبو عمرو «تقبل» بالتاء، لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش: حسن التذكير، لأنك قد فرقت؛ كما تقدم فى قوله : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ . أى فداء . والعدل بفتح العين : الفداء، وبكسرها : المثل؛ يقال : عدل وعديل للذى يماثلك فى الوزن والقدر، ويقال، عدل الشىء هو الذى يساويه قيمة وقدرا وإن لم يكن من جنسه؛ والعدل بالكسر هو الذى يساوى الشىء من جنسه وفى جرمه . وحكى الطبرى أن من العرب من يكسر العين من معنى الفدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى يعانون؛ والنصر : العون؛ والأنصار : الأعوان ؛ ومنه قوله : ﴿ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾ . أى من يضم نصرته الى نصرتى؛ وانتصر الرجل : انتقم؛ والنصر : الإتيان؛ يقال : نصرت أرض بنى فلان أتيتها؛ قال الشاعر : إذا دخل الشهر الحرام فودعى

إذا دخل الشهر الحرام فودعي ⁕ بلاد تميم وانتصري أرض عامر

والنصر : المطر؛ يقال : نُصِرت الأرض : مُطِرت . والنصر : العطاء، قال :

إني وأسطارٍ سطرن سطرا ⁕ لقائل يانصر نصرا نصرا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكروا ، أن بني اسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنا آباؤنا . فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فدية. وإنما خص الشفاعة والفدية والنصر بالذكر لأنها هي المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا ؛ فإن الواقع في الشدة لا يتخلص إلا بأن يشفع له أو ينصر أو يفتدى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ الآية ؛ فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ . إذ في موضع نصب عطف على : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ . وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم ؛ أي اذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم ، والخطاب للموجودين والمراد من سلف من الآباء ، كما قال : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ . أي حملنا آباءكم . وقيل : إنما قال نجيناكم لأن نجاة الآباء كانت سببا لنجاة هؤلاء الموجودين ؛ ومعنى نجيناكم ألقيناكم على نجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها . هذا هو الأصل ؛ ثم سمي كل فائز ناجيا . فالناجي من خرج من ضيق إلى سعة . وقرئ : ﴿ وإذ نجيتكم ﴾ على التوحيد .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ . آل فرعون : قومه وأتباعه وأهل دينه . وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملته في عصره وسائر الأعصار ، سواء كان نسيبا له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينه وملته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسيبه وقريبه ؛ خلافا للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة والحسن والحسين فقط . دليلنا قوله تعالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ . أي آل دينه ، إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عصبة ؛ ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا موحد فإنه ليس من آل محمد وإن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله ، وإن كان بينهما وبين النبي صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ ولأجل هذا قال

الله تعالى فى ابن نوح : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سر يقول : "[ألا][١] إن آل أبى — يعنى فلانا — ليسوا [لى][١] بأولياء إنما وليى الله وصالح المؤمنين" وقالت طائفة : آل محمد أزواجه وذريته خاصة، لحديث أبى حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلى عليك ؟ قال : "قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد" رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم، والآل : الأتباع ؛ والأول أصح لما ذكرناه ، ولحديث عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : "اللهم صل عليهم" فأتاه أبى بصدقته فقال : "اللهم صل على آل أبى أوفى" .

الثالثة — اختلف النحاة هل يضاف الآل إلى البلدان أولا؟ فقال الكسائى : إنما يقال: آل فلان وآل فلانة ولا يقال فى البلدان : هو من آل حمص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم نحو : آل محمد صلى الله عليه وسلم وآل فرعون لأنه رئيسهم فى الضلالة . قال : وقد سمعناه فى البلدان، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

الرابعة — واختلف النحاة أيضا هل يضاف الآل الى المضمر أولا؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدى والكسائى ، فلا يقال إلا : اللهم صل على محمد وآل محمد ، ولا يقال : وآله . والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال؛ منهم ابن السيد وهو الصواب، لأن السماع الصحيح يعضده، فانه قد جاء فى قول عبد المطلب :

لا هم ان العبد يمـ * ـنع رحله فامنع حلالك[٢]

وانصر على آل الصليـ * ـب وعابديه اليوم آلك

وقال ندبة : أنا الفارس الحامى حقيقة والدى * وآلى كما تحمى حقيقة آلكا

الحقيقة (بقافين) : ما يحق على الإنسان أن يحميه أى تجب عليه حمايته .

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٢) الحلال : [illegible]

الخامسة — واختلفوا أيضا فى أصل آل؛ فقال النحاس : أصله أهل ثم أبدل من الهاء ألفا، فإن صغرته رددته إلى أصله فقلت : أهيل . وقال المهدوى : أصله أول؛ وقيل : أهل؛ قلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا . وجمعه آلون وتصغيره أويل فيما حكى الكسائى. وحكى غيره أهيل وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كيسان : إذا جمعت آلا قلت : آلون ؛ فإن جمعت آلا الذى هو السراب؛ قلت : آوال؛ مثل : مال وأموال .

السادسة — قوله تعالى : ﴿فِرْعَوْنَ﴾ . فرعون، قيل : إنه اسم ذلك الملك بعينه . وقيل: إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة؛ مثل كسرى للفرس، وقيصر للروم، والنجاشى للحبشة؛ وإن اسم فرعون موسى قابوس فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : اسمه الوليد بن مصعب بن الريان، ويكنى أبا مرة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلى : وكل من ولى القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيا من أهل أصطخر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية . قال الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر؛ وكل عات فرعون؛ والعتاة : الفراعنة؛ وقد تفرعن وهو ذو فرعنة : أى دهاء ومكر . وفى الحديث : « أخذنا فرعون هذه الأمة » . وفرعون فى موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعجمته .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ . قيل : معناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يولونكم؛ يقال : سامه خطة خسف إذا أولاه إياها؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفا * أبينا أن نقر الخسف فينا

وقيل : يديمون تعذيبكم؛ والسوم : الدوام؛ ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعى؛ قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء[1] وإن شئت كان فى موضع نصب على الحال أى سائمين لكم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ . مفعول ثان ليسومونكم؛ ومعناه أشد العذاب؛ ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب؛ وقد يجوز أن يكون نعتا بمعنى سوما سيئا؛ فروى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خدما وخولا وصنفهم فى أعماله؛ فصنف يبنون، وصنف يحرثون ويزرعون،

---

(١) الذى فى البحر لأبى حيان : "هذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ويحتمل أن تكون فى موضع نصب على الحال" .

وصنف يتخدمون. وكان قومه جنداً ملوكا ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضربت عليه الجزية فذلك سوء العذاب .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ . يذبحون بغير واو على البدل من قوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ ؛ كما قال — أنشده سيبويه — :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا * تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

قال الفراء وغيره : يذبحون بغير واو على التفسير لقوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ ؛ كما تقول: أتانى القوم زيد وعمرو ؛ فلا تحتاج الى الواو فى زيد ؛ ونظيره : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ . وفى سورة إبراهيم : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ بالواو لأن المعنى يعذبونكم بالذبح وبغير الذبح . فقوله : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ؛ جنس آخر من العذاب لا تفسير لما قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة البقرة والواو قد تزاد؛ كما قال :

* فلما أجزنا ساحة الحىّ وانتحى *

أى قد انتحى . وقال آخر :

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

أراد الى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة؛ وهو كثير .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ ابن محيصن يذبحون بفتح الباء . والذبح : الشق؛ والذِّبح : المذبوح . والذُّبَاح : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدنّ : بزلته أى كشفته . وسعد الذابح : أحد السعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح جمع مذبح وهو اذا جاء السيل فخدّ فى الأرض فما كان كالشبر ونحوه سمى مذبحا؛ فكان فرعون يذبح الأطفال ويبقى البنات؛ وعبر عنهم باسم النساء بالمآل . وقالت طائفة : يذبحون أبناءكم يعنى الرجال؛ وسموا أبناء لما كانوا كذلك ؛ واستدل هذا القائل بقوله : ﴿ نِسَاءَكُمْ ﴾ . والأول أصح لأنه الأظهر والله أعلم .

الحادية عشرة — نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون؛ وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانه؛ لتوليهم ذلك بأنفسهم؛ وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبرى : ويقتضى أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به .

قلت : وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال ؛ يقتلان جميعا ، هذا بأمره ، والمأمور بمباشرته . هكذا قال النخعى ؛ وقاله الشافعى ومالك فى تفصيل لهما . قال الشافعى : اذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظلما كان عليه وعلى الإمام القود كقاتلين معا ، وإن أكرهه الامام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القود ، وفى المأمور قولان ؛ أحدهما أن عليه القود ؛ والآخر لا قود عليه وعليه نصف الدية . حكاه ابن المنذر . وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقود فى ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيقتل المباشر وحده دون الآمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلم بعض صبيانه ، أو الصانع بعض متعلميه اذا كان محتلما ؛ فان كان غير محتلم فالقتل على الآمر ، وعلى عاقلة الصبى نصف الدية . وقال ابن نافع : لا يقتل السيد اذا أمر عبده — وان كان أعجميا — بقتل انسان .

قال ابن حبيب : وبقول ابن القاسم أقول : إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور فى مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يقتل المأمور دون الآمر ، ويضرب الامر ويحبس . وقال أحمد فى السيد يأمر عبده أن يقتل رجلا : يقتل السيد . وروى هذا القول عن على بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله عنهما . وقال على : ويستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويحبس العبد ويضرب ويؤدب . وقال الثورى : يعزر السيد . وقال الحكم وحماد : يقتل العبد . وقال قتادة : يقتلان جميعا . وقال الشافعى : إن كان العبد فصيحا يعقل ، قتل العبد وعوقب السيد ؛ وإن كان العبد أعجميا فعلى السيد القود . وقال سليمان بن موسى : لا يقتل الآمر ولكن تقطع يداه ثم يعاقب ويحبس — وهو القول الثانى — ويقتل المأمور للمباشرة ؛ كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعى وأحمد وإسحاق فى الرجل يأمر الرجل بقتل الرجل ؛ وذكره ابن المنذر . وقال زفر : لا يقتل واحد منهما — وهو القول الثالث — حكاه أبو المعالى فى البرهان ؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس واحد منهما مستقلا فى القود ؛ فلذلك لا يقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانية عشرة — قرأ الجمهور (يُذَبِّحُونَ) بالتشديد على المبالغة . وقرأ ابن محيصن (يَذْبَحُونَ) بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذبح متكرر . وكان فرعون على ما روى قد رأى فى منامه نارا خرجت

من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر، فأوّلت له رؤياه : أن مولودا من بنى إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا، والمعنى متقارب .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم ﴾ . إشارة الى جملة الامر إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر أى وفى فعلهم ذلك بكم بلاء : أى امتحان واختبار . وبلاء : نعمة، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ . قال أبو الهيثم : البلاء يكون حسنا و يكون سيئا ، وأصله المحنة ، والله عزّ وجلّ يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره ، فقيل للحسن بلاء، وللسيئ بلاء، حكاه الهروى . وقال قوم : الإشارة بذلكم الى التنجية فيكون البلاء على هذا فى الخير أى تنجيتكم نعمة من الله عليكم . وقال الجمهور : الإشارة الى الذبح ونحوه، والبلاء هنا فى الشر، والمعنى وفى الذبح مكروه وامتحان . وقال ابن كيسان : و يقال فى الخير : أبلاه الله و بلاه، وأنشد :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم * وأبلاهما خيرَ البلاء الذى يَبْلُو

فجمع بين اللغتين ، والأكثر فى الخير أبليته ، وفى الشر بلوته ، وفى الاختبار ابتليته و بلوته ، قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴾ . إذ فى موضع نصب . وفرقنا : فلقنا، فكان كل فرق كالطود العظيم أى الجبل . وأصل الفرق الفصل، ومنه فَرْق الشعر، ومنه الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل، ومنه : ﴿ فَٱلْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل، ومنه : ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ يعنى يوم بدر كان فيه فرق بين الحق والباطل، ومنه : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾ أى فصلناه وأحكمناه . وقرأ الزهرى : فرّقنا بتشديد الراء أى جعلناه فرقا . ومعنى بكم أى لكم ، فالباء بمعنى اللام . وقيل : الباء فى مكانها أى فرقنا البحر بدخولكم إياه أى صاروا بين الماءين، فصار الفرق بهم، وهذا أولى يبينه فانفلق .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْبَحْرَ ﴾ : البحر معروف سمى بذلك لاتساعه . ويقال : فرس بحر إذا كان واسع الجرى أى كثيره، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مندوب فرس أبى طلحة : "وإن وجدناه لبحرا" . والبحر الماء الملح، ويقال : أبحر الماء : ملح، قال نُصَيْب :

وقد عاد ماء الأرض بحــرا فزادنى * إلى مرضى أن أبحر المشربُ العذبُ

والبَحْرة : البلدة ؛ يقال : هــذه بحرتنا أى بلدتنا . قاله الأموى . والبَحرُ : الســلال يصيب الإنسان . ويقولون : لقيته صَحرةَ بَحرةَ أى بارزا مكشوفا . وفى الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملكا يقال له : صندفاييل، البحار كلها فى نقرة إبهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور بن يزيد عن خالد بن مَعدان عن كعب . (1)

قوله : ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ أى أخرجناكم منــه ؛ يقال : نجوت من كذا نجاء ، ممــدود ، ونجاة ، مقصور . والصدق مَنجاة . وأنجيت غيرى ونجّيته . وقرئ بهما ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ ﴾ . ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ .

قوله : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ . يقال : غرِق فى المــاء غَرَقا فهو غَرِق وغارق أيضــا ؛ ومنه قول أبى النجم :

* من بين مَقتولٍ وطافٍ غارقِ * (2)

وأغرقه غيره وغرقه فهو مغرَق وغريق . ولجام مغرَق بالفضة أى مُحلًّى . والتغريق : القتل؛ قال الأعشى : (3)

* ألا ليت قيساً غرّقته القوابلُ *

وذلك أن القابلة كانت تغرق المولود فى ماء السَّلى عام القحط، ذكرا كان أو أنثى حتى يموت، ثم جعل كل قتل تغريقا؛ ومنه قول ذى الرمة :

إذا غرّقتْ أرباضُها ثِنْيَ بَكْرةٍ * بتيهاءَ لم تُصبِح رَءوماً سَلُوبُها

والأرباض : الحبال . والبَكْرة : الناقة الفتيــة . وثِنْيُها : بطنها الثانى ؛ وإنمــا لم تعطف على ولدها لمــا لحقها من التعب .

القول فى اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى إسرائيل

فذكر الطبرى أن موسى عليه السلام أوحى إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل، فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلىّ والمتاع من القبط، وأحلّ الله ذلك لبنى إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول

(1) فى حـ: تعجب الرقة أبرز كام [illegible]
(2) صدر البيت : * فأصبحوا فى الماء والخنادق *
(3) الأعشى قيل ابن منظور الشيبانى . وصدر البيت [illegible] عام غزاة [illegible]

الليل؛ فأعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الديكة ؛ فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك ؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الاتباع مشرقين ؛ كما قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ . وذهب موسى الى ناحية البحر حتى بلغه . وكانت عدة بنى إسرائيل نيفا على ستمائة ألف . وكانت عدة فرعون ألف ألف ومائتى ألف . وقيل : إن فرعون أتبعه فى ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل — وهو يعقوب عليه السلام — مصر فى ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده فأنمى الله عددهم وبارك فى ذريته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المُقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال حدثنا شَبابة بن سَوّار عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت؛ ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لى ستمائة ألف من القبط؛ قال: فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ؛ فقال له : افرق؛ فقال له البحر : لقد استكبرت يا موسى ! وهل فَرَقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك ! قال : ومع موسى رجل على حصان له ؛ قال : فقال له ذلك الرجل: أين أمرت يانبىّ الله؟ فقال : ما أمرت إلا بهذا الوجه . قال : فأقحم فرسه فسبح فخرج. فقال : أين أمرت يا نبىّ الله؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه؛ قال : والله ما كَذَبتَ ولا كُذِبتَ؛ ثم اقتحم الثانيــة فسبّح به حتى خرج؛ فقال : أين أمرت يانبىّ الله ؟ فقال : ما أمرت الا بهـذا الوجه ؛ قال : والله مَا كذبت ولا كذبت ؛ قال : فأوحى الله إليه : ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ فضربه موسى بعصاه؛ ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . فكان فيه اثنا عشر فرقا، لاثنى عشر سِبْطًا، لكل سبط طريق يتراءون؛ وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم؛ ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم . وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون . وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك ؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب ؛ فحين أصبح ضرب البحر وكنّاه أبا خالد . ذكره ابن أبى شيبة أيضا . وقد أكثر المفسرون فى قصص هذا المعنى؛ وما ذكرناه كاف وسيأتى فى سورة يونس والشعراء زيادة بيان إن شاء الله تعالى (٦)

فصـــل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق ، ولم يذكر اليوم الذى كان ذلك فيه . فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا اليوم الذى تصومون فقالوا هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرّق فرعون وقومه فصامه موسى شكرا فنحن نصومه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه". وأخرجه البخارىّ أيضا عن ابن عباس ؛ وأن النبى صلّى الله عليه وسلّم قال لأصحابه : " أنتم أحق بموسى منهم فصوموا " .

مسئلة — ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه اقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود، وليس كذلك لما روته عائشة رضى الله عنها قالت : كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه؛ فلما فرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه . أخرجه البخارىّ ومسلم .

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنما صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم، لأنهم كانوا عندهم أهل علم؛ فصامه النبىّ عليه السلام كذلك فى الجاهلية أى بمكة ؛ فلما قدم المدينة ووجد اليهود يصومونه قال : " نحن أحق وأولى بموسى منكم " فصامه اتباعا لموسى . وأمر بصيامه أى أوجبه وأكد أمره، حتى كانوا يصوّمونه الصغار . قلنا هذه شبهة من قال : إن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لعلّه كان متعبّدا بشريعة موسى؛ وليس كذلك على ما يأتى بيانه فى الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ .

مسئلة — اختلف فى يوم عاشوراء، هل هو التاسع من المحرم أو العاشر؟ فذهب الشافعىّ الى أنه التاسع؛ لحديث الحكم ابن الأعرج قال: انتهيت الى ابن عباس رضى الله عنهما وهو متوسّد رداءه فى زمزم، فقلت له : أخبرنى عن صوم عاشوراء، فقال : اذا رأيت هلال المحرّم فاعدُدْ وأصبح يوم التاسع صائما . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال : نعم . خرّجه مسلم .

وذهب سعيد بن المسيب والحسن البصري ومالك وجماعة من السلف إلى أنه العاشر. وذكر الترمذي حديث الحكم ولم يصفه بصحة ولا حسن. ثم أردفه أنبأنا قتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر. قال أبو عيسى[1] : حديث ابن عباس حديث حسن صحيح. قال الترمذي : وروى عن ابن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود. وبهذا الحديث يقول الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق. قال غيره : وقول ابن عباس للسائل : فاعدد وأصبح يوم التاسع صائما. ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسع مضافا الى العاشر. قالوا : فصيام اليومين جمع بين الأحاديث. وقول ابن عباس للحكم لما قال له : هكذا كان محمد صلّى الله عليه وسلّم يصومه ؟ قال : نعم. معناه أن لو عاش، وإلا فما كان النبي صلّى الله عليه وسلّم صام التاسع قط. بيّنه ما خرجه ابن ماجه في سننه ومسلم في صحيحه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لئن بقيت الى قابل لأصومنّ اليوم التاسع ".

فضيلة — روى أبو قتادة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : " صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السنة التي قبله ". أخرجه مسلم والترمذي. وقال : لا نعلم في شيء من الروايات أنه قال : " صيام يوم عاشوراء كفارة سنة " إلا في حديث أبي قتادة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ جملة في موضع الحال. ومعناه بأبصاركم، فيقال : إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا اليهم يغرقون، والى أنفسهم ينجون ففي هذا أعظم المنة. وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم. فهذه منّة بعد منّة. وقيل : المعنى وأنتم تنظرون أي ببصائركم للاعتبار، لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار. وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر، كما تقول : هذا الأمر منك بمرأى ومسمع أي بحال تراه وتسمعه إن شئت. وهذا القول والأول أشبه بأحوال بني إسرائيل، لتوالي عدم الاعتبار فيما صدر من بني إسرائيل بعد خروجهم من البحر، وذلك أن الله تعالى لما أنجاهم وغرّق عدوهم قالوا : ياموسى إن قلوبنا لا تطمئن، إن فرعون قد غرق ! حتى أمر الله البحر فلفظه فنظروا اليه.

(1) أبو عيسى : كنية الإمام الترمذي.

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن قيس بن عباد[1] أن بني إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان يموت أبدا! قال : فلم يعد أن سمع الله تكذيبهم نبيه عليه السلام، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل ؛ فلما اطمأنوا وبعثوا من طريق البر الى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرقوا في النعمة ، رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ؛ أي عالمي زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا الى الأرض المقدسة التي كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدسة في أيدي الجبارين قد غلبوا عليها فاحتاجوا الى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لحمة للجبارين ! فلو أنك تركتنا في يد فرعون كان خيرا لنا . قال : ﴿ يَاقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ الى قوله : ﴿ قَاعِدُونَ ﴾ حتى دعا عليهم وسماهم فاسقين . فبقوا في التيه أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فمن عليهم بالسلوى وبالغمام . على ما يأتي بيانه . ثم سار موسى الى طورسيناء ليجيئهم بالتوراة ؛ فاتخذوا العجل — على ما يأتي بيانه — ثم قيل لهم : قد وصلتم الى بيت المقدس فادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة . على ما يأتي . وكان موسى عليه السلام شديد الحياء ستيرا ؛ فقالوا : إنه آدر . فلما اغتسل وضع على الحجر ثوبه ؛ فعدا الحجر بثوبه الى مجالس بني إسرائيل ، وموسى على أثره عريان وهو يقول : ياحجر ثوبي ! فذلك قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ . على ما يأتي بيانه . ثم لما مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته ؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتي في المائدة — ثم سألوه أن يعلموا آية في قبول قربانهم ؛ فجعلت نار تجيء من السماء فتقبل قربانهم ؛ ثم سألوه أن يبين لنا كفارات ذنوبنا في الدنيا ؛ فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : « عملت كذا ، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسميه له ؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يقرضه ويزيل جلدته من بدنه ؛ ثم بدلوا التوراة وافتروا على الله وكتبوا بأيديهم واشتروا به عرضا ؛ ثم صار أمرهم الى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم . فهذه معاملتهم مع ربهم وسيرتهم في دينهم وسوء أخلاقهم . وسيأتي بيان كل فصل من هذه الفصول مستوفى في موضعه إن شاء الله تعالى .

---

(١) عباد بضم العين وتخفيف الباء الموحدة كما في المشتبه للذهبي وغيره .

وقال الطبري : وفي أخبار القرآن على لسان محمد عليه السلام بهذه المغيّبات التي لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا في حق بني إسرائيل دليل واضح عند بني إسرائيل قائم عليهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلّم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ . فيه ست مسائل .

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ . قرأ أبو عمرو « وعدنا » بغير ألف واختاره أبو عبيد ورجحه، وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر فأما الله جلّ وعزّ فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هذا وجدنا القرآن كقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾، وقوله : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ . قال مكيّ : وأيضا فإن ظاهر اللفظ فيه وعد من الله تعالى لموسى ، وليس فيه وعد من موسى؛ فوجب حمله على الواحد لظاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده ؛ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر؛ وبه قرأ قتادة وابن أبي إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا « وعدنا » بغير ألف ، لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يعِدُ صاحبه . قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع . قال مكيّ : المواعدة أصلها من اثنين، وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب ؛ قالوا : طارقتُ النعل، وداويت العليل ، وعاقبت اللص . والفعل من واحد؛ فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد . والاختيار واعدنا بالألف لأنه بمعنى وعدنا في أحد معنييه، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة . قال النحاس : وقراءة واعدنا بالألف أجود وأحسن ، وهي قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائي ؛ وليس قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ . من هذا في شيء، لأن واعدنا موسى إنما هو من باب الموافاة؛ وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء، وإنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعدك موضع كذا . والفصيح في هذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : واعدنا ها هنا بالألف جيد ، لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة؛ فمن الله جلّ وعزّ وعد، ومن موسى قبول واتباع يجري مجرى المواعدة . قال ابن عطية : ورجح أبو عبيدة وعدنا . وليس بصحيح ، لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى اسم أعجمى لا ينصرف للعجمة والتعريف . والقبط على ما يُروى يقولون للماء : مو ، وللشجر : شا[1] . فلما وجد موسى فى التابوت عند ماء وشجر، سمّى موسى . قال السدّى : لما خافت عليه أمّه جعلتـه فى التابوت وألقته فى اليم — كما أوحى الله إليها فألقته فى اليم — بين أشجار عنـد بيت فرعون ، فخرج جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه فسمّى باسم المكان . وذكر النقاش وغيره : أن اسم الذى التقطته صابوت. قال ابن إسحاق: وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثة — قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ﴾ أربعين نصب على المفعول الثـانى ، وفى الكلام حذف؛ قال الأخفش : التقدير وإذ واعدنا موسى تمـام أربعين ليلة؛ كما قال : ﴿ وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ والأربعون كلها داخلة فى الميعاد .

والأربعون فى قول أكثر المفسرين ذو القعدة وعشر من ذى الحجة ؛ وكان ذلك بعد أن جاوز البحر،وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله،فخرج الى الطور فى سبعين من خيار بنى إسرائيل ، وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمـام أربعين ليلة ؛ فعـدّوا فيما ذكر المفسرون عشرين يوما وعشرين ليلة، وقالوا : قد أخلفنا موعده . فاتخذوا العجل؛ وقال لهم السامرىّ : هذا إلهكم وإله موسى . فاطمأنّوا الى قوله . ونهاهم هارون وقال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ . فلم يتبـع هارون . ولم يطعه فى ترك عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا فيما روى فى الخـبر . وتهـافت فى عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفى ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال ، ألقى الألواح فرفع من جملتها ستة أجزاء وبقى جزء واحد وهو الحلال والحرام وما يحتاجون ؛ وأحرق العجل وذراه فى البحـر، فشربوا من مائه حبًّا للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة وورمت بطونهم؛ فتابوا ولم تقبـل توبتهم دون أن يقتلوا أنفسهم؛ فذلك قوله تعـالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . فقاموا بالخناجر

(١) كذا فى بعض نسخ الأصول؛ وفى بعضها : «سا» بالسين المهملة . وفى القاموس وشرحه «شا» (وهو الشجر) كذا فى سائر النسخ؛ وقال ابن الجواليق : هو بالشين المعجمة .

والسيوف بعضهم إلى بعض من لدن طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى ؛ فقتل بعضهم بعضا لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحد ؛ كل من استقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله ، حتى عج موسى إلى الله صارخا يارباه قد فنيت بنو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله ؛ فقبل توبة من بقي وجعل من قتل في الشهداء ، على ما يأتي .

الرابعة — إن قيل : لم خص الليالي بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأن الليلة أسبق من اليوم فهي قبله في الرتبة ، ولذلك وقع بها التاريخ ؛ فالليالي أول الشهور والأيام تبع لها .

الخامسة — قال النقاش : في هذه الآية إشارة الى صلة الصوم لأنه لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل ، فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين يوما بلياليها . قال ابن عطية : سمعت أبي يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهري رحمه الله يعظ الناس في الخلوة بالله والدنو منه في الصلاة ونحوها ، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب . ويقول : أين حال موسى في القرب من الله ! ووصل ثمانين من الدهر من قوله حين سار لخضر لفتاه في بعض يوم : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ . قلت : وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال ، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتي الكلام في الوصال في آي الصيام من هذه السورة إن شاء الله تعالى ؛ ويأتي في الأعراف زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ﴾ . ويأتي لقصة العجل بيان في كيفيته وخواره هناك وفي طه إن شاء الله تعالى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ ﴾ . أي اتخذتموه إلها من بعد موسى . وأصل اتخذتم ائتخذتم من الأخذ ووزنه افتعلتم ، سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء ايتخذتم فاضطربت الياء في التصريف جاءت ألفا في ياتخذ ، وواوا في موتخذ ، فبدلت بحرف جلد ثابت من جنس ما بعدها وهي التاء وأدغمت ، ثم اجتلبت ألف الوصل للنطق ، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ . فاستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير ، قال الشاعر(١) :

(١) هو ذو الرمة .

أَسْتَحْدَثَ الرَّكْبُ عن أشياعهم خبرًا • أم راجع القلبَ من أطرابه طربُ

ونحوه في القرآن : ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ . ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ ﴾ . ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ ﴾ . مذهب أبي عليّ الفارسيّ أن اتخذتم ، من تخذ لا من أخذ . ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ . جملة في موضع الحال . وقد تقدّم معنى الظلم . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ الآية . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ ﴾ . العفو : عفو الله جلّ وعزّ عن خلقه ، وقد يكون بعد العقوبة وقبلها ، بخلاف الغفران فانه لا يكون معه عقوبة البتّة ، وكل من استحق عقوبة فتركت له فقد عفي عنه . فالعفو : محو الذنب أي محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم ؛ مأخوذ من قولك : عفت الريح الأثر أي أذهبته . وعفا الشيء : كثر . فهو من الأضداد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّى عَفَوْا ﴾ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ . أي من بعد عبادتكم العجل . وسمّي العجل عجلا لاستعجالهم عبادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعِجّول مثله ، والجمع العجاجيل ؛ والأنثى عِجلة . عن أبي الجراح .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . كي تشكرون عفو الله عنكم . وقد تقدّم معنى لعلّ . وأما الشكر فهو في اللغة الظهور من قوله : دابّة شكور ، اذا ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تُعطَى من العلف . وحقيقته الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه . كما تقدّم في الفاتحة . قال الجوهري : الشكر : الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف ؛ يقال : شكرته وشكرت له ؛ وباللام أفصح . والشكران : خلاف الكفران . وتشكّرت له مثل شكرت له . وروى الترمذيّ وأبو داود عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " لا يشكر الله من لا يشكر الناس " . قال الخطّابي[1] : هذا الكلام يتأول على معنيين ، أحدهما : أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعم الله عزّ وجلّ وترك الشكر له . والوجه الآخر : أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه ويكفر معروفهم ، لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

(١) الخطابي هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي ، كان فقيها أديبا محدثا ؛ توفي سنة ثمان وثمانين وثلثمائة بمدينة بست (ابن خلكان)

الرابعة ــ في عبارات العلماء في معنى الشكر . فقال سهل بن عبد الله : الشكر : الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف في تقصير الشكر للنعم ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ . فقال داود : كيف أشكرك يارب ، والشكر نعمة منك ! قال : الآن قد عرفتني وشكرتني ؛ إذ قد عرفت أن الشكر مني نعمة . قال : يا رب فأرني أخفى نعمك عليّ . قال : ياداود تنفّس ! فتنفس داود . فقال الله تعالى : من يحصي هذه النعمة الليل والنهار . وقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدي من نعمك لا يجازي بها عملي كله ! فأوحى الله إليه يا موسى الآن شكرتني . وقال الجنيد : حقيقة الشكر ، العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدي السريّ السّقطيّ ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي : ياغلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا يعصى الله بنعمة . فقال لي : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السريّ لي . وقال الشبليّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسنات ، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبار الأرض والسموات . وقال ذو النون المصريّ أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ . إذ ، اسم للوقت الماضي . وإذا ، اسم للوقت المستقبل . وآتينا : أعطينا . وقد تقدّم جميع هذا . والكتاب : التوراة بإجماع من المتأولين . واختلف في الفرقان ؛ فقال الفرّاء وقُطرُب : المعنى آتينا موسى التوراة ، ومحمدا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هذا خطأ في الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشيء مثله ؛ وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ . قال أبو إسحاق الزجاج : يكون الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره باسمين تأكيدا . وحكى عن الفرّاء ؛ ومنه قول الشاعر[1] :

قدّدت[2] الأديم لراهشيه ... وألفى قولها كذبا ومينا

---

(1) هو عدي بن زيد .

(2) في الأصول : «وقدمت» . والتصويب عن اللسان مادة «مين» .

وقال آخر[(١)]:

ألا حبّذا هند وأرض بها هنـد * وهند أتى من دونها النّأى والبُعدُ

فنسق البعد على النّأى، والمين على الكذب، لاختلاف اللفظين تأكيدا؛ ومنه قول عنترة:

حيّيت من طلل تقادم عهده * أقوى وأقفر بعـد أمّ الهيثم

قال النحاس: وهذا إنما يجئ فى الشعر. وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد؛ فرقا بين الحق والباطل أى الذى علمه إياه. وقال ابن زيد[(٢)]: الفرقان: انفراق البحر له حتى صار فرقا فعبروا. وقيل: الفرقان: الفرج من الكرب لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾. أى فرجا ومخرجا. وقيل: إنه الحجة والبيان. قاله ابن بحر. وقيل: الواو صلة، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان، والواو قد تزاد فى النعوت؛ كقولهم: فلان حسن وطويل؛ وأنشد:

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

أراد الى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة؛ ودليل هذا التأويل قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. أى بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد وغير ذلك. وقيل: الفرقان: الفرق بينهم وبين قوم فرعون؛ أنجى هؤلاء وغرق أولئك. ونظيره: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾. فقيل: يعنى به يوم بدر؛ نصر الله فيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأهلك أبا جهل وأصحابه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. لكى تهتدوا من الضلالة. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾. الى قوله: ﴿هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾. القوم: الجماعة الرجال دون النساء؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾. وقال زهير:

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقـوم آل حصن أم نساء

(١) هو الحطيئة.

(٢) فى أكثر الأصول: «ابن يزيد» بالياء، والتصويب عن تفسير الطبرى والشوكانى.

وقال تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه ﴾ . أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ . وكذا كل نبي مرسل الى النساء والرجال جميعا . قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ . منادى مضاف . وحذفت الياء فى يا قوم، لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها، وهى بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز فى غير القرآن إثباتها ساكنة، فتقول : ياقومى، لأنها اسم وهى فى موضع خفض . وإن شئت فتحتها وان شئت ألحقت معها هاء، فقلت : يا قوميه . وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخف، فقلت : يا قوما، وإن شئت قلت : يا قوم، بمعنى يأيها القوم . وإن جعلتهم نكرة نصبت ونونت . وواحد القوم امرؤ على غير اللفظ . وتقول : قوم وأقوام، وأقاوم، جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عبدة العجل، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ . استغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القلة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ . وقال : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ ﴾ . ويقال لكل من فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأت الى نفسك . وأصل الظلم وضع الشيء فى غير موضعه . ثم قال تعالى : ﴿ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ . قال بعض أرباب المعانى : عجل كل إنسان نفسه؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله . قوله تعالى ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ . لما قال لهم : فتوبوا الى بارئكم . قالوا : كيف؟ قال : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ . قال أرباب الخواطر : ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات . والصحيح أنه قتل على الحقيقة هنا . والقتل : إماتة الحركة ، وقتلت الخمر : كسرت شدتها بالماء . قال سفيان بن عيينة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ، وكانت توبة بنى إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزهرى : لما قيل لهم : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ قاموا صفين وقتل بعضهم بعضا ، حتى قيل لهم : كفوا . فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحى . على ما تقدم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفا ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح

فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلوا إذ لم يعبدوا العجل [مع] من عبد العجل
ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم محتبون فقال : ملعون من حل حبوته أو مدّ طرفه إلى قاتله
أو اتقاه بيد أو رجل . فما حلّ أحد منهم حبوته حتى قتل منهم ؛ يعني من قتل ؛ وأقبل الرجل
يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم —
على القول الأوّل — لأنهم لم يغيّروا المنكر حين عُبِدَ ، وإنما اعتزلوا ، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا
من عبده . وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يغيّر عوقب الجميع . روى جرير قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع لا يغيّرون
إلا عمهم الله بعقاب » . أخرجه ابن ماجه في سننه . وسيأتي الكلام في هذا المعنى إن شاء الله
تعالى . فلما استحرّ فيهم القتل وبلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم . قاله ابن عباس وعليّ رضي الله
عنهما . وإنما رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود في قتل أنفسهم . فما أنعم الله على هذه
الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة . وقرأ قتادة : فأقيلوا أنفسكم . من الإقالة أي
استقيلوها من العثرة بالقتل . قوله تعالى : ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ . البارئ : الخالق ؛ وبينهما فرق وذلك
أن البارئ هو المبدع المحدث . والخالق هو المقدّر الناقل من حال الى حال . والبرية : الخلق ؛
وهي فعيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تهمز . وقرأ أبو عمرو « بارئْكم » بسكون الهمزة — ويشعرْكم
وينصرْكم ويأمرْكم — واختلف النحاة في هذا؛ فمنهم من يسكن الضمة والكسرة في الوصل؛ وذلك
في الشعر . وقال أبو العباس المبرّد : لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب
في كلام ولا شعر . وقراءة أبي عمرو لحن . قال النحاس وغيره : وقد أجاز ذلك النحويون القدماء
الأئمة؛ وأنشدوا :

إذا اعوججن قلت صاحبْ قوّمِ * بالدوّ أمثال السفين العُوّمِ

وقال امرؤ القيس :

فاليوم أشربْ غير مستحقبٍ * إثما من الله ولا واغلِ

وقال آخر :

* قالت سُلَيْمَى اشترْ لنا سَوِيقَا *

وقال الآخـــر :

رُحتِ وفى رجليك ما فيهـــما * وقـد بدا هنْكِ من المئزرِ

فمن أنكر التسكين فى حرف الإعراب فحجته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب .
قال أبو علي : وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة فى جواز تسكينها مع توالى الحركات . وأصـل برأ من تبرّى الشيء من الشيء وهو انفصاله منه . فالخلق قد فصلوا من العدم إلى الوجود؛ ومنه برأت من المرض برْأ بالفتح. كذا يقوله أهل الحجاز . وغيرهم يقول : برئت من المرض بُرأ بالضم؛ وبرئت منك ومن الديون والعيوب براءة؛ ومنه المبارأة للمرأة؛ وقد بارأ شريكه وآمرأته . قوله تعـالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ . فى الكلام حذف تقديره ففعلتم فتاب عليكم أى فتجاوز عنكم أى على الباقين منكم . ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . تقدّم معناه . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ﴾ . الآية . فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ معطوف . يَامُوسَى نداء مفرد . لن نؤمن لك أى نصدّقك حتى نرى الله جهرة . قيل : هم السبعون الذين اختارهم موسى؛ وذلك أنهم لمـا أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ﴾ . والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم؛ ثم دعا موسى ربه فأحياهم؛ كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ . وسـتأتى قصـة السبعين فى الأعراف إن شاء الله تعالى . قال ابن فورك : يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ . وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام .

وقد اختلف فى جواز رؤية الله تعالى؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها فى الدنيـا والآخرة . وأهل السنة والسلف على جوازها فيهما، ووقوعها فى الآخرة . فعلى هـذا لم يطلبوا من الرؤية محالا؛ وقد سألها موسى عليه السلام . وسيأتى الكلام فى الرؤية فى الأنعام والأعراف إن شاء الله تعالى .

الثـانية — قوله تعالى ﴿ جَهْرَةً ﴾ . مصدر فى موضع الحال ومعناه علانية . وقيل : عيانا . قاله ابن عباس . وأصـل الجهر الظهور؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها . والمجاهرة بالمعاصى :

المظاهرة بها . ورأيت الأمير جهارا وجهرة أى غير مستتر بشيء . وقرأ ابن عباس جهرة بفتح الهاء . وهما لغتان مثل : زَهْرة وزَهَرة . وفى الجهر وجهان؛ أحدهما : أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير؛ والتقدير وإذ قلتم جهرة يا موسى . الثانى : أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعيانا؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير . وأكد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ . قد تقدم فى أول السورة معنى الصاعقة . وقرأ عمر وعثمان وعلىّ «الصعقة» وهى قراءة ابن محيصن فى جميع القرآن . ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ جملة فى موضع الحال . ويقال : كيف يموتون وهم ينظرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دُورُ آل فلان تتراءى أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : المعنى وأنتم تعلمون . وقيل : تنظرون أى إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ . أى أحييناكم . قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثم ردوا لاستيفاء آجالهم . قال النحاس : وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش ، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا ، والمعنى لعلكم تشكرون ما فعل بكم من البعث بعد الموت . وقيل : ماتوا موت همود يعتبر به الغير؛ ثم أرسلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل : بل أصله إثارة الشيء من محله؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها أى حركتها ؛ قال امرؤ القيس :

وفتيانِ صدق قد بعثت بسحرة * فقاموا جميعا بين عاثٍ ونشوانِ

وقال عنترة :

وصحابة شمّ الأنوف بعثتهم * ليلا وقد مال الكرى بطلاها

وقال بعضهم : بعثناكم من بعد موتكم : علمناكم بعد جهلكم .

قلت : والأول أصح؛ لأن الأصل الحقيقة وكان موت عقوبة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ على ما يأتى .

الخامسة — قال الماوردى : واختلف فى بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين؛ أحدهما : بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبد . الثانى : سقوط تكليفهم معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار .

قلت : والأول أصح ، فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم؛ وذلك مما اضطرهم إلى الإيمان . وبقاء التكليف ثابت عليهم؛ ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلّفين . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ . الآية . فيه ثمان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أى جعلناه عليكم كالظلّة . والغمام جمع غمامة كسحابة وسحاب . قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويجوز غمائم وهى السحاب لأنها تغم السماء أى تسترها؛ وكل مغطًّى فهو مغموم؛ ومنه المغموم على عقله . وغُمّ الهلال إذا غطاه الغيم . والغين مثل الغيم؛ ومنه قوله عليه السلام: "إنه ليُغانُ على قلبى" . قال صاحب العين: غين عليه: غُطّى عليه . والغين: شجر ملتف . وقال السدّى : الغمام : السحاب الأبيض . وفعل هذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهارا، وينجلى فى آخره ليستضيئوا بالقمر ليلا . وذكر المفسرون أن هذا جرى فى التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم، وقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ . فعوقبوا فى ذلك الفَحْص[1] أربعين سنة يتيهون فى خمسة فراسخ أو ستة . روى أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . وإذ كانوا بأجمعهم فى التيه قالوا لموسى: من لنا بالطعام ! فأنزل الله عليهم المنّ والسّلوى . قالوا : من لنا من حر الشمس ! فظلل عليهم الغمام . قالوا: فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور فى وسط محلتهم . وذكر مكىّ : عمود من نار . قالوا : من لنا بالماء ! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا، ألا يبلى لهم ثوب ولا يخلق ولا يدرن؛ وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان . والله أعلم .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ . اختلف فى المنّ ما هو وتعيينه على أقوال . فقيل : الترنجبين[2] ــ بتشديد الراء وتسكين النون، ذكره النحاس، ويقال : الطّرنجبين بالطاء ــ وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حلوة . وقيل : عسل . وقيل : شراب حلو .

---

(١) الفحص : كل موضع يسكن . وفى حديث كعب : ان الله بارك فى الشام وخص بالتقديس من فحص الأردن الى رفح ، وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه . القاموس ونهاية ابن الأثير .

(٢) الترنجبين : طل يقع من السماء، وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب . عن مفردات ابن البيطار .

وقيل: خبز الرُّقاق، عن وهب بن منبّه. وقيل: المنّ مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع؛ ومنه قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل: "الكمأة من المنّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل، وماؤها شفاء للعين"؛ في رواية "من المنّ الذى أنزل الله على موسى". رواه مسلم. قال علماؤنا: وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل أى مما خلقه الله لهم في التِّيه. قال أبو عبيد: إنما شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقى ولا علاج؛ فهى منه أى من جنس منّ بنى إسرائيل في أنه كان دون تكلّف. روى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج؛ فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه فإن ادّخر منه شيئا فسد عليه إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدّخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم؛ لأن يوم السبت يوم عبادة وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيء.

الثالثة — لما نصّ عليه السّلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين؛ قال بعض أهل العلم بالطب: أما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة، وأما لغير ذلك فمركبة مع غيرها. وذهب أبو هريرة رضى الله عنه إلى استعمالها بحتا في جميع مرض العين. وهذا كما استعمل أبو وَجْزة العسل في جميع الأمراض كلها حتى في الكحل، على ما يأتى بيانه في سورة النحل إن شاء الله تعالى. وقال أهل اللغة: الكَمْءُ واحد، وكَمْأَان اثنان، وأكْمُؤ ثلاثة، فإذا زادوا قالوا: كمأة، بالتاء على عكس شجرة وشجر. والمنّ، اسم جنس لا واحد له من لفظه؛ مثل الخير والشر. قاله الأخفش.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿ والسَّلْوَى ﴾. اختلف في السلوى فقيل: هو السُّمَانَى بعينه. قاله الضحاك. قال ابن عطية: السلوى: طير بإجماع المفسرين؛ وقد غلط الهذلىّ[1] فقال:

وقاسمها بالله جهدا لأنتما ... ألذ من السلوى إذا ما نشورها

ظن السلوى العسل.

قلت: ما ادّعاه من الإجماع لا يصح؛ وقد قال المؤرّج[2] أحد علماء اللغة والتفسير: إنه العسل؛ واستدل ببيت الهذلىّ وذكر أنه كذلك بلغة كنانة، سمى به لأنه يسلى به؛ ومنه عين السُّلوان[3]؛ وأنشد:

(١) هو خالد بن زهير. (٢) هو مؤرج بن عمر السدوسى، ويكنى أبا فيد. كان من أصحاب الخليل بن أحمد؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة.

(٣) عين السلوان: عين نضاخة يتبرك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس. (معجم ياقوت).

لو أشرب السلوان ما سَلِيتُ * ما بى غنًى عنك وإن غَنِيتُ

وقال الجوهرى : والسلوى العسل؛ وذكر بيت الهذلى :

* ألذ من السلوى إذا ما نشورها *

ولم يذكر غلطا . والسُّلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا؛ قال :

شربتُ على سُلوانةٍ ماءَ مُزْنةٍ * فلا وجديدِ العيش يامَىُّ ما أسلو

واسم ذلك الماء السُّلوان . وقال بعضهم : السلوان : دواء يُسقاه الحزين فيسلو؛ والأطباء يسمونه المفرّح؛ يقال : سليت وسلوت لغتان . وهو فى سلوة من العيش أى فى رغد . عن أبى زيد .

الخامسة ــ واختلف فى السلوى هل هو جمع أو مفرد؟ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه؛ مثل الخير والشر؛ وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته، كما قالوا : دِفْلَى (١) للواحد والجماعة، وسُمانى وشُكاعى (٢) فى الواحد والجميع . وقال الخليل : واحده سَلْواة؛ وأنشد :

وإنى لتعرونى لذكراك سلوة * كما انتفض السلواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السلوى : واحدة، وجمعه سلاوى .

السادسة ــ السلوى عطف على المنّ ولم يظهر فيه الإعراب لأنه مقصور ووجب هذا فى المقصور كله، لأنه لا يخلو من أن يكون فى آخره ألف؛ قال الخليل : والألف حرف هوائى لا مستقر له؛ فأشبه الحركة فاستحالت حركته . وقال الفراء : لو حركت الألف صارت همزة .

السابعة ــ قوله تعالى : ﴿ كُلُوا ﴾ . فيه حذف تقديره وقلنا : كلوا؛ فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

الثامنة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ . يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر . ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ . لمقابلتهم النعم بالمعاصى .

(١) الدفلى (كذكرى) : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية .

(٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح) : من دق النبات، وهى دقيقة العيدان صغيرة خضراء، والناس يتداوون بها .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ . الآية . فيه تسع مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ . حذفنا الألف من قلنا لسكونها وسكون الدال بعدها ، والألف التي يبتدأ بها قبل الدال ألف وصل لأنه من يدخل .

الثانية — قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ . أي المدينة ، سميت بذلك لأنها تقرت أي اجتمعت ؛ ومنه قريت الماء في الحوض أي جمعته ؛ واسم ذلك الماء قرى بكسر القاف مقصور . وكذلك ما قرى به الضيف . قاله الجوهري . والمِقراة للحوض . والقَرِيّ لمسيل الماء . والقَرَا للظّهر ؛ ومنه قوله :

* لاحق بطن بقرى سمين *

والمَقارِي : الجفان الكبار ؛ قال :

* عظام المقاري ضيفهم لا يفزع *

وواحد المقاري مِقراة ؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقِرية — بكسر القاف — لغة اليمن ؛ واختلف في تعيينها ؛ فقال الجمهور : هي بيت المقدس . وقيل : أريحاء من بيت المقدس . قال عمر بن شبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . ابن كيسان : الشام . الضحاك : الرَّمْلة والأُرْدُنّ وفلسطين وتَدْمُر . وهذه نعمة أخرى وهي أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التّيه .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ . إباحة . ورغدا : كثيرا واسعا ؛ وهو نعت لمصدر محذوف أي أكلا رغدا . ويجوز أن يكون في موضع الحال على ما تقدّم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغَلّة فلذلك قال : رغدا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ . الباب يجمع أبوابا ؛ وقد قالوا : أبوبة للازدواج ؛ قال الشاعر :

هتّاك أخبية ولّاج أبْوِبة * يخلط بالبِرّ منه الجِدّ واللّينا

ولو أفرده لم يجز ؛ ومثله قوله عليه السلام : " مرحبا بالقوم — أو بالوفد — غير خزايا ولا ندامى " وتبوّبت بوّابا اتخذته . وأبوابٌ مُبوّبة ؛ كما قالوا : أصنافٌ مصنّفة . وهذا شيء من بابتك أي يصلح لك . وقد تقدّم معنى السجود فلا معنى لإعادته . والحمد لله .

والباب الذى أمروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بباب حِطّة؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القُبّة التى كان يصلى إليها موسى وبنو إسرائيل . وسُجّدا، قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لا على هيئة متعينة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا﴾ . عطف على ادخلوا. وقولوا حِطّة بالرفع، قراءة الجمهور؛ على إضمار مبتدإ أى مسئلتنا حطّة أو يكون حكاية . قال الأخفش : وقرئت حِطّةً بالنصب، على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة . قال النحاس : جاء الحديث عن ابن عباس أنه قيل لهم : قولوا لا إله إلا الله . وفى حديث آخر عنه قيل لهم : قولوا مغفرة . تفسير للنصب أى قولوا شيئا يحط ذنوبكم؛ كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع وهو أولى فى اللغة؛ لما حكى عن العرب فى معنى بدّل؛ قال أحمد بن يحيى : يقال بدّلته أى غيّرته ولم أزل عينه، وأبدلته أزلت عينه وشخصه؛ كما قال :

* عَزْل الأمير للأمير المُبْدَل *

وقال الله عزّ وجل : ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ، ولحديث ابن مسعود قالوا : حنطة، تفسير على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : حطّة بمعنى حُطّ ذنوبنا؛ أمروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم . وقال ابن جبير : معناه الاستغفار . أبان بن تغلب : التوبة . قال الشاعر :

فاز بالحطة التى جعل الله * به بها ذنب عبده مغفورا

وقال ابن فارس فى المجمل : حطة، كلمة أمر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم . وقاله الجوهرى أيضا فى الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم [فبدّلوا][1] فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حَبّة فى شَعْرة " . وأخرجه البخارى وقال : " فبدّلوا وقالوا حِطّة حَبّة فى شَعْرة " . فى غير الصحيحين: « حنطة فى شَعْر » . وقيل : قالوا هِطّا سُمْهَاثا ، وهى لفظة عبرانية؛ تفسيرها: حنطة حمراء؛ حكاها ابن قتيبة؛

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

وحكاه المروى عن السدّى ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا واستهزءوا فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . قال ابن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . وروى أن الباب جعل قصيرا ليدخلوه ركّعا فدخلوه متورّكين على أستاههم . والله أعلم .

السادسة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها فى الشريعة لا يخلو أن يقع التعبّد بلفظها أو بمعناها ؛ فان كان التعبّد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها، لذم الله تعالى من بدّل ما أمره بقوله ؛ وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدّى الى ذلك المعنى، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه .

وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى؛ فحكى عن مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله، وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمع كثير من العلماء منهم ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حيوة . وقال مجاهد : انقص من الحديث إن شئت ولا تزد فيه . وكان مالك بن أنس يشدّد فى حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى أنهم يسمعون ملحونا ويعلمون ذلك ولا يغيّرونه . وروى أبو مجلز عن قيس بن عُباد قال قال عمر بن الخطاب : من سمع حديثا فحدّث به كما سمع فقد سلم . وروى نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم؛ وكذا الخلاف فى التقديم والتأخير والزيادة والنقصان؛ فان منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتدّ باللفظ، ومنهم من يشدّد فى ذلك ولا يفارق اللفظ ؛ وذلك هو الأحوط فى الدين والأتقى والأولى؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأسقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه اليكم؛ حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرارة بن أوفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فاختلفوا علىّ فى اللفظ واجتمعوا فى المعنى . وكان النخعىّ والحسن والشعبىّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعانى . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثورىّ رحمه الله : إذا قلت لكم

انى أحدثكم كما سمعت فلا تصدقونى، إنما هو المعنى . وقال وكيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعا فقد هلك الناس . واتفق العلماء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك فى كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف ؛ فقص قصصا ذكر بعضها فى مواضع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربى وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير، والحذف والالغاء، والزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجوز بالعربية أولى . احتج بهذا المعنى الحسن والشافعى وهو الصحيح فى الباب .

فإن قيل : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : "نضر الله آمرأ سمع مقالتى فبلغها كما سمعها" . وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلا أن يقول عند مضجعه فى دعاء علمه : آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت ؛ فقال الرجل : ورسولك الذى أرسلت ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "وبنبيك الذى أرسلت" . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ ؛ وقال : "فأداها كما سمعها" . قيل لهم : أما قوله " فأداها كما سمعها" . فالمراد حكمها لا لفظها، لأن اللفظ غير معتد به . ويدلك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : "فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه" . ثم أن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد . وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبى صلى الله عليه وسلم فى أوقات مختلفة ؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ؛ وذلك أول دليل على الجواز . وأما رده عليه السلام الرجل من قوله : برسولك الى قوله وبنبيك؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم أمدح؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن آسم الرسول يقع على الكافة ، وآسم النبى لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام ! وإنما فضل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوة والرسالة؛ فلما قال : وبنبيك، جاء بالنعت الأمدح ثم قيده بالرسالة بقوله : الذى أرسلت . وأيضا فإن نقله من قوله : وبرسولك إلى قوله وبنبيك، ليجمع بين النبوة والرسالة؛ ومستقبح فى الكلام أن تقول: هذا رسول فلان الذى أرسله ، وهذا قتيل زيد الذى قتله ؛ لأنك تجتزئ بقولك : رسول فلان، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأول؛ وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبدالله الذى أرسله إلى عمرو، وهذا قتيل زيد الذى قتله بالأمس أو فى وقعة كذا . والله ولى التوفيق .

فإن قيل : إذا جاز للراوى الأوّل تغيير ألفاظ الرّسول عليه السّلام جاز للثاني تغيير ألفاظ الأوّل، و يؤدى ذلك إلى طمس الحديث بالكلّية لدقّة الفروق وخفائها . قيل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا ؛ فإن عدمت لم يجز . قال ابن العربيّ : الخلاف فى هذه المسألة إنما يتصور بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم فى معرفة اللّغة الجِبِلّيّة الذوقية؛ وأما من بعدهم فلا نشك فى أن ذلك لا يجوز؛ إذ الطباع قد تغيّرت، والفهوم قد تباينت، والعوائد قد اختلفت؛ وهذا هو الحق. والله أعلم . قال بعض علمائنا : لقد تعاجم ابن العربيّ رحمه الله؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم؛ ولهذا لم يُفصّل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل؛ نعم لو قال : إن المطابقة فى زمنه أبعد كان أقرب . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ . قراءة نافع بالياء مع ضمها . وابن عامر بالتاء مع ضمها وهى قراءة مجاهد . وقرأها الباقون بالنون مع نصبها وهى أبينها ؛ لأن قبلها ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا ﴾ . فجرى نغفر على الإخبار عن الله تعالى، والتقدير وقلنا ادخلوا الباب سجدا نغفر، ولأن بعده ﴿ وَسَنَزِيدُ ﴾ بالنون . وخطاياكم، اتباعا للسّواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا، لأنها جمع خطيئة على التكسير . ووجه القراءة بالياء أنه ذكّر لما حال بين المؤنث وبين فعله ؛ على ما تقدم فى قوله : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ ﴾ . وحسُن الياء والتاء وإن كان قبله إخبار عن الله تعالى فى قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ لأنه قد علم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى ؛ فاستغنى عن النون وردّ الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنة — واختلف فى أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة ؛ فقال الخليل : الأصل فى خطايا أن يقول : خطايئ، ثم قلب فقيل : خطائى بهمزة بعدها ياء؛ ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول: خطاءا؛ فلما اجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات ؛ فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل خطايِئْ ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها فى مدائن فتقول : خطائئ ؛ ولا تجتمع همزتان فى كلمة ؛ فأبدلت من الثانية ياء فقلت : خطائى ؛ ثم عملت كما عملت فى الأوّل . وقال الفرّاء : خطايا جمع

خطية بلا همز، كما تقول : هدية وهدايا . قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائي : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة في الهمزة، كما قلت : دواب .

التاسعة ـ قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . أي نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدم عندهم ؛ وهو اسم فاعل من أحسن . والمحسن : من صحح عقد توحيده، وأحسن سياسة نفسه، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شره . وفي حديث جبريل عليه السلام : " ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال صدقت " . وذكر الحديث خرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ . فيه أربع مسائل .

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ . الذين في موضع رفع أي فبدل الظالمون منهم قولا غير الذي قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حطة، فقالوا : حنطة على ماتقدم، فزادوا حرفا في الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا؛ تعريفا أن الزيادة في الدين والابتداع في الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر؛ هذا في تغيير كلمة هي عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب، فما ظنك بتغيير ماهو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل.

الثانية ـ قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ . تقدم معنى بدل وأبدل، وقرئ ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا ﴾ . على الوجهين . قال الجوهري : وأبدلت الشيء بغيره . وأبدله الله من الخوف أمنا . وتبديل الشيء أيضا تغييره ؛ وان لم يأت ببدل . واستبدل الشيء بغيره . وتبدله به اذا أخذه مكانه . والمبادلة : التبادل . والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر . قال ابن دريد : الواحد بديل . والبديل : البدل . وبدل الشيء : غيره، يقال: بَدَل وبِدْل لغتان، مثل : شَبَه وشِبْه، ومَثَل ومِثْل، ونَكَل ونِكْل . قال أبو عبيد[1] : لم يسمع في فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَل : وجع يكون في اليدين والرجلين، وقد بدِل بالكسر يبدَل بدَلا .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ . كرر لفظ ظلموا ولم يضمره تعظيما للأمر . والتكرير يكون على ضربين، أحدهما : استعماله بعد تمام الكلام كما في هذه الآية، وقوله :

---

(١) في الأصل : «أبو عبيدة» . والتصويب عن اللسان وصحاح الجوهري .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ . ثم قال بعد : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ .
ولم يقل : مما كتبوا . وكرر الويل تغليظا لفعلهم؛ ومنه قول الخنساء :

تعرقني الدهر نهسا وحزا (١) وأوجعني الدهر قرعا وغمزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها .

والضرب الثاني : مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمر قبل أن يتم الكلام؛ كقوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ . ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ . كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم الحاقة ما هي! والقارعة ما هي! ومثله : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ . كرر أصحاب الميمنة تفخيما لما ينيلهم من جزيل الثواب . وكرر لفظ المشأمة لما ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليت الغراب غداة ينعب دائبا * كان الغراب مقطع الأوداج

وقد جمع عدي بن زيد المعنيين فقال :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء * نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا وهو من الضرب الأول؛ ومنه قول الآخر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند * وهند أتى من دونها النأي والبعد

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها .

الرابعة — قوله تعالى ﴿ رِجْزًا ﴾ . قراءة الجماعة رجزا بكسر الراء . وابن محيصن بضم الراء . والرجز : العذاب؛ بالزاي . وبالسين؛ النتن والقذر؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ . أي نتنا إلى نتنهم؛ قاله الكسائي . وقال الفراء : الرجز هو الرجس . قال أبو عبيد : كما يقال : السدغ والزدغ . وكذا رجس ورجز بمعنى . قال الفراء : وذكر بعضهم أن الرجز (بالضم) : اسم صنم كانوا يعبدونه؛ وقرئ بذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ . والرجز (بفتح الراء والجيم) : نوع من الشعر؛ وأنكر الخليل أن يكون شعرا . وهو مشتق من الرَّجَز وهو داء يصيب الإبل في أعجازها؛

(١) ويروى نهشا بالشين المعجمة .

فإذا ثارت ٱرتعشت أفخاذها . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم؛ والفسق : الخروج . وقد تقدّم . وقال ابن وثّاب والنخعىّ : يفسقون بكسر السين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ الى قوله : ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ . فيه ثمان مسائل .

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ . كسرت الذال لالتقاء الساكنين . والسين سين السؤال مثل : استعلم واستخبر واستنصر ونحو ذلك . أى طلب وسأل السّقى لقومه . والعرب تقول : سقيته وأسقيته لغتان بمعنًى؛ قال : (١)

سَقَى قومى بنى مجدٍ وأسقى ٭ نُميرًا والقبائلَ من هــلالِ

وقيل : سقيته من سق الشَّفَة، وأسقيته دللته على المــاء .

الثانية ــ الاستسقاء إنما يكون عند عدم المــاء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبوديّة والفقــر والمسكنة والذلّة مع التوبة النّصوح . وقد استسقى نبيّنا محمد صلّى الله عليــه وسلّم فخرج الى المُصلَّى متواضعا متذلّلا متخشّعا مترسّلا متضرّعا، وحسبك به؛ فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد، ومخالفة رب العباد؛ فأنَّى نسقى ! لكن قد قال صلّى الله عليه وسلّم فى حديث ابن عمر "ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعــوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا" . الحديث وسيأتى بكماله إن شاء الله .

الثالثة ــ سنة الاستسقاء الخروج الى المُصلَّى على الصفة التى ذكرنا، والخطبة والصلاة؛ وبهذا قال جمهور العلماء . وذهب أبو حنيفة الى أنه ليس من سنته صلاة ولا خروج ، وإنمــا هو دعاء لا غير. واحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخارىّ ومسلم. ولا حجة له فيه؛ فإن ذلك كان دعاء عجلت إجابته فاكتفى به عما سواه، ولم يقصد بذلك بيان سنة؛ ولمــا قصد البيان بيّن بفعله حسب ما رواه عبــد الله بن زيد المــازنىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليــه وسلم الى المصلّى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين . رواه مسلم . وسيأتى من أحكام الاستسقاء زيادة فى سورة هود إن شاء الله .

---

(١) البيت للبيــد .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ . العصا : معروف وهو اسم مقصور مؤنث وألفه منقلبة عن واو قال(١) :

* على عصويها سابِرِيٌّ مُشبرَقُ *

والجمع عُصِيّ وعِصِيّ وهو فعول، وإنما كسرت العين لما بعدها من الكسرة؛ وأعص أيضا مثله ؛ مثل : زَمَنٍ وأَزْمُنٍ . وفى المثل : « العصا من العُصَيّة » . أى بعض الأمر من بعض . وقولهم : « ألقى عصاه » أى أقام وترك الأسفار؛ وهو مثل؛ قال :

فألقت عصاها وآستقر بها النوى * كما قر عينا بالإياب المسافرُ

وفى التنزيل : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ . وهناك يأتى الكلام فى منافعها إن شاء الله تعالى . قال الفراء : أول لحن سمع بالعراق هذه عصاتى . وقد يعبر بالعصا عن الاجتماع والافتراق؛ ومنه يقال فى الخوارج : قد شقوا عصا المسلمين أى آجتماعهم وائتلافهم . وانشقت العصا أى وقع الخلاف؛ قال الشاعر :

إذا كانت الهيجاء وانشقّت العصا * فحسبك والضحاكَ سيفٌ مُهنّدُ

أى يكفيك ويكفى الضحاك . وقولهم : لا ترفع عصاك عن أهلك؛ يراد به الأدب . والله أعلم .

والحجر معروف ، وقياس جمعه فى أدنى العدد أحجار ، وفى الكثير حِجار وحِجارة ؛ والحجارة نادر ، وهو كقولنا . جَمَل وجِمالة، وذَكَر وذِكارة؛ كذا قال ابن فارس والجوهرى .

قلت : وفى القرآن ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ﴾ . ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ ﴾ . ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً ﴾ . ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ ﴾ . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ﴾. فكيف يكون نادرا إلا أن يراد أنه نادر فى القياس كثير فى الاستعمال فصيح ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَٱنفَجَرَتْ ﴾ . فى الكلام حذف تقديره فضرب فانفجر . وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب؛ لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمة منه

(١) هو ذو الرمة . وصدر البيت :

* بجاءت بنسج العنكبوت كأنه *

للعباد فى وصولهم الى المراد ، وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم فى المعاد . والانفجار : الانشقاق ؛ ومنه انشق الفجر . وانفجر الماء انفجارا : انفتح . والفُجْرة : موضع تفجّر الماء . والانبجاس أضيق من الانفجار ، لأنه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا . وقيل : انبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق ، بمعنًى واحد ، حكاه الهروىّ وغيره .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ . اثنتا فى موضع رفع بانفجرت ، وعلامة الرفع فيها الألف . وأعربت دون نظائرها لأن التثنية معربة أبدا لصحة معناها . عينا ، نصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى عشِرة بكسر الشين . وهى لغة بنى تميم ، وهذا من لغتهم نادر ، لأن سبيلهم التخفيف . ولغة أهل الحجاز عشْرة ، وسبيلهم التثقيل . قال جميعه النحاس . والعين من الأسماء المشتركة ، يقال : عين الماء ، وعين الإنسان ، وعين الرُّكبة[1] ، وعين الشمس . والعين : سحابة تقبل من ناحية القبلة . والعين : مطر يدوم خمسا أو ستة لا يقلع . وبلد قليل العين أى قليل الناس . وما بها عين محرّكة الياء . والعين : الثقب فى المَزادة . والعين من الماء مشبهة بالعين من الحيوان ، لخروج الماء منها كخروج الدمع من عين الحيوان . وقيل : لما كان عين الحيوان أشرف ما فيه شبهت به عين الماء لأنها أشرف ما فى الأرض .

السادسة : لما استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجرا ؛ قيل : مربعا طوريّا من الطور على قدر رأس الشاة يلقى فى كسر جُوالق ويرحل به ، فاذا نزلوا وضع فى وسط محلتهم . وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه فى كل مرحلة فى منزلته من المرحلة الأولى . وهذا أعظم فى الآية والإعجاز . وقيل : إنه أطلق له اسم الحجر ليضرب موسى أىّ حجر شاء . وهذا أبلغ فى الإعجاز . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجرا بعينه بيّنه لموسى عليه السلام ، ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جبير : هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه لما اغتسل ، وفرّ بثوبه حتى برّأه الله مما رماه به قومه . قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربّعا تطّرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، و إذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفّت العيون .

---

(١) عين الركبة : نقرة فى مقدمها عند الساق ، ولكل ركبة عينان ؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة .

قلت : ما أوتى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من نبع الماء وانفجاره من يده و بين أصابعه أعظم فى المعجزة ؛ فإنا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار ، ومعجزة نبينا عليه السلام لم تكن لنبيّ قبله صلى الله عليه وسلم ؛ يخرج الماء من بين لحم ودم ! . روى الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم نجد ماء فأتى بتور (١) فأدخل يده فيه ؛ فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه و يقول : "حيّ على الطّهور" . قال الأعمش فحدّثنى سالم بن أبى الجعد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال ألفا وخمسمائة . لفظ النسائى .

السابعة : قوله تعالى ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ . يعنى أن لكل سبط منهم عينا قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمَشْرَب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب ، وهم ذرية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليه السلام ، وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعدّاها . قال عطاء : كان للحجر أربعة أوجه يخرج من كل وجه ثلاثة أعين ؛ لكل سبط عين لا يخالطهم سواهم . و بلغنا أنه كان فى كل سبط خمسون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أوّلا ثم يسيل .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ . فى الكلام حذف تقديره وقلنا لهم : كلوا المنّ والسلوى ، واشربوا الماء المنفجر من الحجر المنفصل . ولا تعثوا أى تفسدوا . والعيث : شدّة الفساد . نهاهم عن ذلك ؛ يقال : عَثِيَ يَعْثَى عُثِيًّا ، وعثا يعثو عُثُوّا ، وعاث يعيث عَيْثا وعُيوثا ومَعاثا ؛ والأوّل لغة القرآن . و يقال : عَثّ يَعُثّ فى المضاعف : أفسد ؛ ومنه العُثّة وهى السوسة التى تلحس الصوف . ومفسدين ، حال ؛ وتكرّر المعنى تأكيدا لاختلاف اللفظ . وفى هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقدّم فى المعاصى والنهى عنها .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ . كان هذا القول منهم فى التيه حين ملّوا المنّ والسلوى ، وتذكروا عيشهم الأوّل بمصر . قال الحسن : كانوا نتانى أهل كراث

(١) التور (بالتاء المثناة) : إناء من صفر أو حجارة كالإجانة وقد يتوضأ منه .

وأبصال وأعداس، فنزعوا إلى عِكْرِهم[(١)] عكرِ السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم ؛ فقالوا : لن نصبر على طعام واحد . وكنّوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد وهما اثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فلذلك قالوا : طعام واحد . وقيل : لتكرارهما فى كل يوم غذاء ، كما تقول لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة : هو على أمر واحد، لملازمته لذلك . وقيل : المعنى لن نصبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض؛ لاستغناء كل واحد منا بنفسه، وكذلك كانوا ! فهم أول من اتخذ العبيد والخدم .

قوله تعالى : ﴿عَلَى طَعَامٍ﴾ . الطعام يطلق على ما يُطعم و يشرب، قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ . وقال : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ . أى ما شربوه من الخمر على ما يأتى بيانه . و إن كان السّلوى العسل - كما حكى المؤرج - فهو مشروب أيضا . و ربما خصّ بالطعام البر والتمر كما فى حديث أبى سعيد الخدرى قال : كنا نخرج صدقة الفطر على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صاعا من طعام أو صاعا من شعير؛ الحديث . والعرف جار بأن القائل : ذهبت إلى سوق الطعام؛ فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يشرب . والطّعم (بالفتح) : هو ما يؤدّيه الذوق؛ يقال : طعمه مرّ . والطعم أيضا ما يشتهى منه؛ يقال : ليس له طعم، وما فلان بذى طعم إذا كان غثّا . والطّعم (بالضم) : الطعام؛ قال أبو خراش :

أُرُدّ شجاع البطن لو تعلمينه * وأُوثِر غيرى من عيالك بالطُّعْم
وأغتبق الماء القراح فأنتهى * إذا الزّاد أمسى للمُزلَّج ذا طَعْم

أراد بالأول الطعام، و بالثانى ما يشتهى منه . وقد طَعِم يَطْعَم فهو طاعم إذا أكل وذاق ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ . أى من لم يذقه . وقال : ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ . أى أكلتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمزم : "إنها طَعامُ طُعْمٍ وشفاءُ سُقْم" . واستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن يحدّثه . وفى الحديث : "إذا استطعمكم الإمام فأطعموه" . يقول : إذا استفتح فافتحوا عليه . وفلان ما يطعم النوم إلا قائما؛ وقال :

(١) العكر (بالكسر) : العادة والديدن . و بالتحريك : دردىّ كل شىء .

نعامًا بوجرة صُفْرَ الخدو ٭ د ما تَطْعَم النوم إلا صِياما [1]

قوله تعالى : ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ . لغة بنى عامر فادع بكسر العين لالتقاء الساكنين؛ يجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحذوف . و «يُخْرِجْ» مجزوم على معنى سَلْه وقل له : أخرج يخرج . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف اللام، وضعفه الزجّاج . و«من» فى قوله : «مِمَّا» زائدة فى قول الأخفش ؛ وغير زائدة فى قول سيبويه ، لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا ليُخرج فأراد أن يجعل ما مفعولا . والأولى أن يكون المفعول محذوفا دل عليه سائر الكلام؛ التقدير يخرج لنا مما تنبت الأرض مأكولا . فمن الأُولى على هذا للتّبعيض، والثانية للتّخصيص . و«من بقلها» بدل من ما بإعادة الحرف . «وقِثّائها» عطف عليه ؛ وكذا ما بعده فاعلمه . والبقل : معروف وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ما له ساق . والقِثّاء أيضا معروف، وقد تضم قافه وهى قراءة يحيى بن وثّاب وطلحة بن مصرِّف [2] ، لغتان والكسر أكثر . وقيل فى جمع قثاء : قَثَائِىّ؛ مثل علباء وعَلَابِىّ؛ إلا أن قثاء من ذوات الواو؛ تقول : أَقْثَأْتُ القوم أى أطعمتهم ذلك . [وقَثَأْتُ القِدرَ سكّنت غليانها بالماء؛ قال الجعدى :

تفور علينا قِدرهم فُنُدِيمها ٭ ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمْيُها غَلَا

وقثأت الرجلَ إذا كَسَرْتَه عنك بقول أو غيره، وسكّنت غضبه . وعدا حتى أَفْثَأَ أى أعيا وانبهر . وأفْثأ الحرُّ أى سكَن وفَتَر؛ ومن أمثالهم فى اليسير من البرّ قولهم : « إن الرَّثِيئَةَ تَفْثأُ الغَضَبَ » . وأصله أن رجلا كان غضب على قوم وكان مع غضبه جائعا فسقوه رَثِيئة فسكن غضبه وكفّ عنهم .] [3]

---

(١) كذا فى نسخ الأصل . ووجرة (بفتح وسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذى فى كتب اللغة ومعاجم البلدان :

نعاما بخطمة صعر الخدو ٭ د لا تطعم الماء إلا صياما

وقبله : فأما بنــو عامر بالنسار ٭ غداة لقونا فكانوا نعاما

قائلهما بشر بن أبى خازم . وخطمة (بفتح وسكون) : موضع أعلى المدينة : قال صاحب اللسان بعد البيت المستشهد به : «يقول : هى صائمة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد الماء ولا تطعمه» .

(٢) مصرف : كمحدث . (٣) الكلام الموضوع بين هذين القوسين نقله المؤلف من معاجم اللغة على أنه فى هذه المادة، والواقع أنه من مادة «فثأ» . بالفاء لا بالقاف .

الرثيئة : اللبن المحلوب على الحامض ليخثر . رثأت اللبن رثأ إذا حلبته على حامض تخثر، والاسم الرثيئة . وارتثأ اللبن خثر] . وروى ابن ماجه حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا يونس بن بكير حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كانت أمي تعالجني للسمنة تريد أن تدخلني على رسول الله صلى الله عليه وسلم فما استقام لها ذلك حتى أكلت القثاء بالرطب فسمنت كأحسن سمنة . وهذا اسناد صحيح .

قوله تعالى : ﴿وفومها﴾ . اختلف في الفوم، فقيل : هو الثوم، لأنه المشاكل للبصل، رواه جويبر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا : مغافير ومغاثير[1]، وجدث وجدف للقبر . وقرأ ابن مسعود ثومها بالثاء المثلثة، وروى ذلك عن ابن عباس، وقال أمية بن أبي الصلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة * فيها الفراديس والفومان والبصل

الفراديس واحدها فرديس، وكرم مفردس أي معرش .

وقال حسان :

وأنتم أناس لئام الأصول * طعامكم الفوم والحوقل

يعني الثوم والبصل، وهو قول الكسائي والنضر بن شميل . وقيل : الفوم : الحنطة . روى عن ابن عباس أيضا وأكثر المفسرين، واختاره النحاس : قال : وهو أولى، ومن قال به أعلى ، وأسانيده صحاح ، وليس جويبر بنظير لرواته ، وإن كان الكسائي والفراء قد اختارا القول الأول ، لإبدال العرب الفاء من الثاء، والإبدال لا يقاس عليه، وليس ذلك بكثير في كلام العرب . وأنشد ابن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة، قول أحيحة بن الجلاح :

قد كنت أغنى الناس شخصا واجدا * ورد المدينة عن زراعة فوم

وقال أبو اسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعاما لا بر فيه ؟ والبر أصل الغذاء . وقال الجوهري أبو نصر : الفوم : الحنطة، وأنشد الأخفش .

قد كنت أحسبني كأغنى واجد[2] * نزل المدينة عن زراعة فوم

---

(١) المغافير : قيل : صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست طيبة .

(٢) كذا في بعض نسخ الأصل وشرح القاموس . وفي البعض الآخر واللسان : «واحد» بالحاء .

وقال ابن دريد : الفومة : السنبلة، وأنشد :

وقال رَبِيئهم لمّا أتانا ٭ بكفّه فُومةٌ أو فُومتانِ

والهاء في كفه غير مشبعة . وقال بعضهم : الفوم : الحِمِّص، لغة شامية . وبائعه فاميّ، مغيّر عن فوميّ، لأنهم قد يغيرون في النَّسب ، كما قالوا : سُهْلِيّ ودُهْرِيّ . ويقال : فوِّموا لنا أي اختبزوا . قال الفرّاء : هي لغة قديمة . وقال عطاء وقتادة : الفوم : كل حَبٍّ يُختبز .

مسئلة — اختلف العلماء في أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول، فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك، للأحاديث الثابتة في ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظّاهر القائلين بوجوب الصلاة في الجماعة فرضا إلى المنع، وقالوا : كلما منع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتّشاغل به . واحتجوا بأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سمّاها خبيثة، والله عزّ وجلّ قد وصف نبيّه عليه السلام بأنه يحرّم الخبائث . ومن الحجة للجمهور ماثبت عن جابر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أُتي بقدر فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحا . قال : فأُخبر بما فيها من البقول، فقال قرّبوها إلى بعض أصحابه كان معه، فلما رآه كره أكلها، قال : "كل فإني أناجي من لا تناجي" . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بيّن في الخصوص له والإباحة لغيره . وفي صحيح مسلم أيضا عن أبي أيوب أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نزل على أبي أيوب، فصنع للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم طعاما فيه ثوم، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقيل له : لم يأكل . ففزِع وصَعِد إليه فقال : أحرام هو؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا ولكني أكرهه" . قال : فإني أكره ما تكره أو ما كرهت . قال : وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُؤتَى . يعني يأتيه الوحي . فهذا نصّ على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سعيد الخُدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم حين أكلوا الثوم زمن خَيْبَر وفتحها "أيها الناس إنه ليس لي تحريم ما أحل الله ولكنها شجرة أكره ريحها" . فهذه الأحاديث تشعر بأن الحكم خاص به، إذ هو المخصوص بمناجاة المَلَك، لكن قد علّمنا هذا الحكم في حديث جابر بما يقتضي التسوية بينه وبين غيره في هذا الحكم حيث قال : "من أكل من هذه البقلة الثوم" . وقال مرة : "من أكل البصل والثّوم والكرّاث فلا يقربنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذى منه بنو آدم" وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث فيه طول : أيها الناس، إنكم تأكلون شجرتين لا أراهما

إلا خبيثتين ، هذا البصل والثوم، ولقد رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذ وجد ريحهما من الرجل فى المسجد أمر به فأخرج الى البقيع، فمن أكلهما فليمتهما طبخا . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾. العَدَسُ معروف . والعَدَسة: بَثْرة تخرج بالإنسان، وربما قتلت . وعَدَسْ : زجر للبغال؛ قال :

عَدَسْ ما لعبّادٍ عليـك إمارةٌ * نَجَوتِ وهـذا تحملين طليـق

والعَدْس : شدّة الوطء، والكَدْح أيضا؛ يقال : عدسه . وعَدَس فى الأرض : ذهب فيها . وعَدَستْ إليه المنيّة أى سارت؛ قال الكُميت :

أُكلّفها هَوْلَ الظّـلام ولم أزلْ * أخا الليـل مَعْدُوسًا إلىّ وعادِسًا

أى يسار إلىّ بالليـل . وعَدَسَ : لغـة فى حَدَسَ؛ قاله الجوهرى . ويؤثر عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم من حديث علىّ أنه قال : "عليكم بالعَدَس فإنه مبارك مقدّس وإنه يرقّ القلب ويكثر الدّمعـة فإنه بارك فيـه سبعون نبيّـا آخرهم عيسى بن مريم" . ذكره الثّعلبى وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت : ويوما بلحم[1]، ويوما بعدس . قال الحليمىّ : والعدس والزيت طعام الصالحين؛ ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضيافة ابراهيم عليه السلام فى مدينته لا يخلو منه لكان فيه كفاية؛ وهو مما يخفّف البدن فيَخفّ للعبادة، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم . والحنطة من جملة الحبوب وهى الفوم على الصحيح؛ والشعير قريب منها وكان طعام أهل المدينة؛ كما كان العدس من طعام قرية ابراهيم عليه السلام؛ فصار لكل واحد من الحبّتين بأحد النبيّين عليهما السلام . فضيـلة — وقد روى أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لم يشبع هو وأهله من خُبزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدم المدينة إلى أن توفّاه الله عزّ وجلّ .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ . الاستبدال : وضـع الشىء موضع الآخر، ومنه البدل . وقد تقدّم . وأدنى، مأخوذ عند الزجاج من الدّنوّ أى القرب فى القيمة من قولهم: ثوب مُقارِبٌ أى قليل الثمن . وقال علىّ بن سليمان : هو مهموز من الدنىء البيّن الدناءة بمعنى الأخس، إلا أنه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدون أى الأحط؛ فأصله أدون،

(١) فى بعض نسخ الأصل : « بلح » .

أفعل قلب بخاء أفلع، وحوّلت الواو ألفا لتطرفها . وقرئ في الشواذ أدنِى . ومعنى الآية أتستبدلون البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل الذى هو أدنى بالمنّ والسّلوى الذى هو خير !

واختلف في الوجوه التى توجب فضل المنّ والسّلوى على الشىء الذى طلبوه وهى خمس، الأول: أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسّلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج . الثانى : لما كان المنّ والسلوى طعاما منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان فى استدامة أمرَ الله وشكر نعمته أجر وذُخْر فى الآخرة، والذى طلبوه عارٍ من هذه الخصال، كان أدنى فى هذا الوجه . الثالث : لما كان ما منّ به عليهم أطيب وألذ من الذى سألوه، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة. الرابع: لما كان ما أعطوا لا كُلْفة فيه ولا تعب، والذى طلبوه لا يجىء إلا بالحرث والزراعة والتعب، كان أدنى . الخامس : لما كان ما ينزل عليهم لا مِرْية فى حِلّه وخلوصه لنزوله من عند الله ، والحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصوب، وتدخلها الشُّبه، كانت أدنى من هذا الوجه .

مسئلة — فى هذه الآية دليل على جواز أكل الطيبات والمطاعم المستلذات، وكان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم يحب الحلوى والعسل، ويشرب الماء البارد العذب . وسيأتى هذا المعنى فى المائدة والنحل إن شاء الله مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ . تقدّم معنى الهبوط؛ وهذا أمر معناه التعجيز؛ كقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ . لأنهم كانوا فى التّيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أعطوا ما طلبوه. ومصرا ، بالتنوين منكرا قراءة الجمهور وهو خط المصحف . قال مجاهد وغيره : فمن صرفها أراد مصرا من الأمصار غير معين . وروى عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ . قال : مصرا من هذه الأمصار . وقالت طائفة : ممن صرفها أيضا أراد مصر فرعون بعينها . استدل الأولون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التّيه . واستدل الآخرون بما فى القرآن من أن الله أورث بنى إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائى : لخفتها وشبهها بهند ودعد؛ وأنشد :

لم تَتَلَفَّع بفضل مئزرها * دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ فى العُلَبِ

لجمع بين اللغتين . وسيبويه والخليل والفراء لا يجيزون هذا؛ لأنك لو سميت آمرأة بزيد لم تصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصرف . وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وطلحة : مصر، بترك الصرف . وكذلك هي في مصحف أبي بن كعب وقراءة ابن مسعود . وقالوا : هي مصر فرعون . قال أشهب قال لي مالك : هي عندي مصر قريتك مسكن فرعون؛ ذكره ابن عطية . والمصر أصله في اللغة الحد . ومصر الدار : حدودها . قال ابن فارس ويقال : إن أهل هجر يكتبون في شروطهم "اشترى فلان الدار بمصورها" أي حدودها، قال عدي :

وجاعل الشمس مصرًا لا خفاء به * بين النهار وبين الليـــل قد فصلا

وقـوله تعالى : ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ . ما، نصب بإن . وقرأ ابن وثاب والنخعي سِألتم بكسر السين؛ يقال : سألت وسلت بغير همـز ، وهو من ذوات الواو بدليل قولهم : يتساولان . ومعنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ . أي ألزموهما وقضي عليهم بهما . مأخوذ من ضرب القباب؛ قال الفرزدق في جرير :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها * وقضى عليــك به الكتاب المنزل

وضرب الحاكم على اليد أي حمل وألزم . والذلة : الذل والصغار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهودي وإن كان غنيًا خاليـًا من زي الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذلة فرض الجزية؛ عن الحسن وقتادة . والمسكنة : الخضوع؛ وهي مأخوذة من السكون أي قلل الفقر حركته؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذلة : الصغار . والمسكنة مصدر المسكين . وروى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس وضربت عليهم الذلة والمسكنة قال : هم أصحاب القبالات[1] .

قوله تعالى : ﴿وَبَاءُوا﴾ : أي انقلبوا ورجعوا أي لزمهم ذلك؛ ومنه قوله عليه السلام في دعائه ومناجاته : "أبوء بنعمتك علي" أي أقربها وألزمها نفسي . وأصله في اللغة الرجوع؛ يقال : باء بكذا أي رجع به . وباء الى المباءة — وهي المنزل — أي رجع . والبواء : الرجوع بالقود . وهم في هذا الأمر بواء أي سواء؛ يرجعون فيـه الى معنى واحد؛ وقال الشاعر :

ألا تنتهي عنا ملوك وتتقي * محارمنا لا يبأ الدم بالدم

(١) في كتاب تفسير ابن كثير : «...... القبالات يعني الجزية» .

أي لا يرجع الدم بالدم في القود، وقال :

فآبوا بالنِّهاب وبالسَّبايا * وأُبْنا بالملوك مصفَّدينا (١)

أي رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب في الفاتحة .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ . ذلك، تعليل . ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ . أي يكذبون بآيات الله أي بكتابه ومعجزات أنبيائه . ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ . معطوف على يكفرون . وروى عن الحسن يُقَتِّلُون، وعنه أيضا كالجماعة . وقرأ نافع النبيئين بالهمز حيث وقع في القرآن إلا في موضعين ، في سورة الأحزاب : ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ﴾ . ﴿وَلَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا﴾ . فإنه قرأ بلا مد ولا همز . وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين . وترك الهمز في جميع ذلك الباقون . فأما من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر ، واسم فاعله مُنْبِئ . ويجمع نبيء أنبياء ، وقد جاء في جمع نبيّ نبآء ، قال العبّاس بن مِرْداس السُّلَمِيّ يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلّم :

يا خاتم النُّبآءِ إنك مُرْسَلٌ * بالحق كلُّ هُدَى السبيلِ هُداكا

هذا معنى قراءة الهمز . واختلف القائلون بترك الهمز ؛ فمنهم من اشتق اشتقاق من همز، ثم سهّل الهمز . ومنهم من قال : هو مشتق من نبا ينبو إذا ظهر . فالنّبيّ من النبوة وهي الارتفاع ؛ فمنزلة النّبيّ رفيعة . والنّبيّ بترك الهمز أيضا الطريق، فسُمّي الرسول نبيّا لاهتداء الخلق به كالطريق ؛ قال الشاعر (٢) :

لأصبحَ رَتْمًا دقاقَ الحصَى * مكانَ النّبيِّ من الكاثِبِ

رَتَمْتُ الشيء : كسرته ؛ يقال : رتَمَ أنفه ورثَمَه بالتاء والثاء جميعا . والرَّتْمُ أيضا المَرْتوم أي المكسور . والكاثب : اسم جبل . فالأنبياء لنا كالسبل في الأرض . ويروى أن رجلا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا نبيء الله ؛ وهمز . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لست بنبيء الله — وهمز — ولكني نبيّ الله » ولم يهمز . قال أبو عليّ : ضُعِّف سند هذا الحديث ؛ ومما يقوّي ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المادح :

* يا خاتم النبآء ... * ولم يؤثر في ذلك إنكار .

---

(١) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي ، ولا شاهد فيه ، إذ الرواية فيه : « فآبوا ... وأبنا » بمادة « آب » غير مادة « باء » ، وإن كان معنى المادتين واحدا .

(٢) هو أوس بن حجر ؛ يرثي فضالة بن كلدة الأسدي .

قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ . تعظيم للشنعة والذنب الذى أتوه .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به . قيل له : ليس كذلك؛ وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق؛ فكان هذا تعظيما للشنعة عليهم؛ ومعلوم أنه لا يقتل نبيّ بحق، ولكن يقتل على الحق فصرّح قوله : ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ عن شنعة الذنب ووضوحه؛ ولم يأت نبيّ قطّ بشىء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يُخلّى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة فى منازلهم؛ كمثل من يقتل فى سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك بخذلان لهم . قال ابن عباس والحسن : لم يقتل نبيّ قطّ من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكل من أُمر بقتال نُصر .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ . ذلك، ردّ على الأول وتأكيد للإشارة إليه . والباء فى بما باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . واعتصت النواة إذا اشتدت . والاعتداء : تجاوز الحدّ فى كل شىء؛ وعُرف فى الظلم والمعاصى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية . فيه ثمانى مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ . أى صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال سفيان: المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا فى ظاهر أمرهم؛ فلذلك قرنهم باليهود والنصارى والصابئين ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانية ـ قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ . معناه صاروا يهودا؛ نسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام؛ فقلبت العرب الذال دالا لأن الأعجمية إذا عُرّبت غُيّرت عن لفظها .

وقيل : سُمّوا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والهائد : التائب؛ قال الشاعر :

* إنى امرؤٌ من حبّه هائدُ *

أى تائب؛ وفى التنزيل : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ . أى تبنا . وهاد القوم يهودون هودا وهيادة إذا تابوا . وقال ابن عرفة : هدنا إليك أى سكنّا إلى أمرك . والموادة : السكون والموادعة؛ قال : ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ . وقرأ أبو السمّاك[1] هادَوا، بفتح الدال .

---

(١) كذا فى كتاب البحر لأبى حيان . وفى بعض نسخ الأصل : «ابن السماك» . وفى بعضها : «أبو السمال» ـ باللام .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَالنَّصَارَى﴾ ، جمع ، واحده نصرانيّ . وقيل : نصران بإسقاط الياء ، وهذا قول سيبويه . والأنثى نَصْرانة كندمان وندمانة ، وهو نكرة يعرّف بالألف واللام ؛ قال الشاعر[1] :

صدّت كما صدّ عمّا لا يَحِلُّ له * ساقِي نَصارَى قُبيلَ الفِصْحِ[2] صُوّامِ

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نَصْرِيّ ؛ كمَهْرِيّ ومَهَارَى ؛ وأنشد سيبويه شاهدا على قوله :

تـراه إذا دار العِشَا متحنّفا * ويُضحِي لديه وهو نَصْرانُ شامِسُ

وأنشد :

فكلتاهما خَرّتْ وأَسْجَدَ رأسُها * كما أَسْجَدَتْ نصرانة لم تَحَنَّفِ[3]

يقال أسجد : إذا مال . ولكن لا يستعمل نصران ونصرانة إلا بياءى النسب ، لأنهم قالوا : رجل نصرانيّ وامرأة نصرانيّة . ونَصَّره : جعله نَصْرانيا ؛ وفي الحديث : «فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه» . وقال عليه السلام : «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديّ ولا نصرانيّ ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها ؛ وقياسه النصرانيون . ثم قيل : سُمّوا بذلك لقرية تسمى "ناصرة" كان ينزلها عيسى عليه السلام فنسب إليها ، فقيل : عيسى الناصري ؛ فلما نسب أصحابه إليه قيل : النّصارى ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وقال الجوهري : ونَصْران قرية بالشام ينسب إليها النصارى ، ويقال : ناصرة . وقيل : سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضا ؛ قال الشاعر :

لما رأيت نَبَطًا أنصارًا * شمّرتُ عن رُكبتيَ الإزارًا

* كنتُ لهم من النّصارى جارا *

وقيل : سُمّوا بذلك لقوله : ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ .

---

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته .

(٢) في نسخ الأصل : «الصبح» . بالباء والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح : فطر النصارى ، وهو عيد لهم .

(٣) البيت لأبي الأخزر الحماني ؛ يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء ؛ فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته في صلاتها . شرح القاموس واللسان .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ جمع صابئ . وقيل : صابٍ؛ ولذلك اختلفوا فى هَمْزِه وهَمَزَه الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صَبَأت النجومُ إذا طلعت . وصبأت ثنيةُ الغلام إذا خرجت ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئ فى اللغة من خرج أو مال من دين إلى دين ، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم : قد صبأ . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامسة ــ لا خلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب، ولأجل كتابهم جاز نكاح نسائهم وأكل طعامهم ــ على ما يأتى بيانه فى المائدة ــ وضربُ الجزية عليهم . على ما يأتى فى سورة براءة إن شاء الله . واختلف فى الصابئين، فقال السُّدى : هم فرقة من أهل الكتاب . وقاله إسحاق ابن راهَوَيه . قال ابن المنذر : وقال إسحاق لا بأس بذبائح الصابئين ، لأنهم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذبائحهم ونكاح نسائهم . وقال الخليل : هم قوم يشبه دينُهم دينَ النصارى، إلا أن قِبلتهم نحو مهَبّ الجنوب؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وابن أبى نَجِيح : هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤكل ذبائحهم . ابن عباس : ولا تنكح نساؤهم . وقال الحسن أيضا وقتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القبلة ويقرءون الزّبور ويصلّون الخمس؛ رآهم زياد بن أبى سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة . والذى تحصّل من مذهبهم فيما ذكره بعض علمائنا أنهم موحّدون معتقدون تأثير النجوم وأنها فعّالة . وبهذا أفتى أبو سعيد الإصطخرى القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿مَنْ آمَنَ﴾ . أى صدّق . ومن، فى قوله : ﴿مَنْ آمَنَ﴾ . فى موضع نصب بدل من الذين . والفاء، فى قوله : ﴿فَلَهُمْ﴾ . داخلة بسبب الإبهام الذى فى مَن . ولهم أجرهم، ابتداء وخبر فى موضع خبر إنّ، ويحسن أن يكون فى موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط . وآمن، فى موضع جزم بالشرط . والفاء الجواب . ولهم أجرهم، خبر من، والجملة كلها خبر إنّ والعائد على الذين محذوف؛ تقديره من آمن منهم بالله . وفى الإيمان بالله واليوم الآخر اندراج الإيمان بالرسل والكتب والبعث .

السابعة — إن قال قائل : لم جمع الضمير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ . وآمن لفظ مفرد ليس بجمع ، وإنما كان يستقيم لو قال : له أجره؟ فالجواب أن «من» يقع على الواحد والتثنية والجمع ، فجائز أن يرجع الضمير مفردا ومُثَنَّى ومجموعا ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ . على المعنى . وقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ . على اللفظ ؛ وقال الشاعر :

ألمّا بسلمى عنكما إن عرضتما * وقولا لها عوجى على من تخلّفوا

وقال الفرزدق :

تعالَ فإن عاهدتنى لا تخوننى * نكن مثل مَنْ ياذئبُ يصطحبانِ .

فحمل على المعنى ، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب وتخلف . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ﴾ . فحمل على اللفظ . ثم قال : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ . فحمل على المعنى ، ولو راعى اللفظ لقال : خالدا فيها . وإذا جرى ما بعد «مَنْ» على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما فى هذه الآية . وإذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعد على اللفظ ، لأن الإلباس يدخل فى الكلام . وقد مضى الكلام فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . والحمد لله .

الثامنة — روى عن ابن عباس أن قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ . الآية ؛ منسوخ بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة . وهى فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبىّ عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ . هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ . قال أبو عبيد : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه . قال : وكل شىء قلعتَه فرميتَ به فقد نتقتَه . وقيل : نتقناه رفعناه . قال ابن الأعرابى : الناتق : الرافع . والناتق : الباسط . والناتق : الفاتق . وامرأة ناتقٌ ومِنْتاقٌ : كثيرة الولد . وقال القُتَبىّ : أخذ ذلك من نَتْق السِّقاء وهو نفضه حتى تقتلع الزبدة منه . قال : قوله : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ . قُلع من أصله . واختلف فى الطُّور ؛ فقيل : الطور اسم للجبل الذى كلّم الله عليه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره . رواه ابن جُريج عن ابن عباس . وروى الضّحاك عنه أن الطّور ما أنبت من الجبال خاصة دون ما لم يُنْبِت . وقال مجاهد وقتادة :

أى جبل كان؛ إلا أن مجاهدا قال : هو اسم لكل جبل بالسريانية . وقاله أبو العالية . وقد مضى الكلام هل وقع فى القرآن ألفاظ مفردة غير معربة من غير كلام العرب فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وزعم البكرى أنه سُمى بِطُورَ بن إسماعيل عليه السلام والله تعالى أعلم .

القول فى سبب رفع الطّور

وذلك أن موسى عليه السلام لما جاء بنى إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة؛ قال لهم: خذوها والتزموها . فقالوا : لا ! إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك . فصُعقوا ثم أُحيُوا . فقال لهم: خذوها . فقالوا : لا ! فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ فى مثله ؛ وكذلك كان عسكرهم ، فجُعل عليهم مثل الظُّلة ، وأوتوا ببحر من خلفهم، ونار من قِبَل وجوههم . وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل . فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق . قال الطبرى عن بعض العلماء : لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق. وكان سجودهم على شِقّ لأنهم كانوا يَرْقُبون الجبل خوفا ؛ فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدةَ أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها عباده، فأمروا سجودهم على شِقّ واحد . قال ابن عطية : والذى لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمان ، لا أنهم آمنوا كُرْهًا وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿خُذُوا﴾ . أى فقلنا خذوا، فحذف . ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ . أعطيناكم . ﴿بِقُوَّةٍ﴾ . أى بجِدّ واجتهاد . قاله ابن عباس وقتادة والسدى . وقيل : بنيّة وإخلاص . مجاهد : القوة العمل بما فيه . وقيل : بقوة بكثرة درس . ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ . أى تدبروه واحفظوا أوامره ووعيده، ولا تنسوه ولا تضيعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكتب، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نبذٌ لها على ما قاله الشعبى وابن عيينة . وسيأتى قولهما عند قوله تعالى : ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ . وقد روى النسائى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ من شرّ الناس رجلا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شىء منه » . فبيّن صلّى الله عليه وسلّم أن المقصود العمل كما بيّنا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه . فما لزم إذًا من قبلنا وأخذ

عليهم لازم لنا وواجب علينا . قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ . فأمرنا باتّباع كتابه والعمل بمقتضاه؛ لكن تركنا ذلك كما تركت اليهود والنصارى؛ وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئا لغلبة الجهل وطلب الرئاسة واتّباع الأهواء . روى الترمذيّ عن جُبير بن نُفَير عن أبي الدّرداء قال : كنّا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : « هذا أوانٌ يختلس فيه العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء » . فقال زياد بن لَبِيَد الأنصاريّ : كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن ؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئنّه نساءنا وأبناءنا . فقال : « ثكلتك أمّك يا زياد إن كنت لأعدّك من فقهاء المدينة هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم » . وذكر الحديث . وسيأتي وخرّجه النسائي من حديث جبير بن نفير أيضا عن عوف ابن مالك الأشجعيّ من طريق صحيحة ، وأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لزياد : « ثكلتك أمك زياد هذه التوراة عند اليهود والنصارى » . وفي الموطأ عن عبد الله بن مسعود قال لإنسان : إنك في زمانٍ كثير فقهاؤه، قليل قراؤه تحفظ فيه حدود القرآن وتضيّع حروفه، قليل من يسأل، كثير من يعطي، يطيلون الصلاة ويقصرون الخطبة، يبدّئون فيه أعمالهم قبل أهوائهم . وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه ، كثير قراؤه ، تحفظ فيه حروف القرآن ، وتضيع حدوده ؛ كثير من يسأل، قليل من يعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، يبدّئون فيه أهواءهم قبل أعمالهم . وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا . وقد قال يحيى : سألت ابن نافع عن قوله : يبدّئون أهواءهم قبل أعمالهم . قال: يقول يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذي افترض عليهم . وتقدّم القول في معنى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . فلا معنى لإعادته . وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم ﴾ . تولى، تفعّل وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم؛ ثم استعمل في الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقدات اتساعا ومجازا . وقوله : ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ . أي من بعد البرهان؛ وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل . وقوله : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ . فضل، مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره ، لأن العرب استغنت عن إظهاره إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأن، فإذا جاءوا بها لم يحذفوا الخبر؛ والتقدير فلولا فضل الله تداركَكم . ﴿ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ . عطف على فضل أي لطفه وإمهاله : ﴿ لَكُنتُم ﴾ جواب لولا . ﴿ مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان . وقد تقدّم . وقيل : فضله قبول

التوبة، ورحمته العفو . والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال : فعل ما لم يجب . قال ابن فارس في المجمل الفضل : الزيادة والخير، والإفضال : الإحسان .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ ﴾ الآية . فيه سبع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ﴾ . علمتم، معناه عرفتم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجهة إلى ذات المسمّى . والعلم متوجّه إلى أحوال المسمّى؛ فاذا قلت : عرفت زيدا، فالمراد شخصه . واذا قلت : علمت زيدا ، فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأوّل يتعدى الفعل إلى مفعول واحد وهو قول سيبويه : علمتم بمعنى عرفتم . وعلى الثاني إلى مفعولين . وحكى الأخفش ولقد علمت زيدا ولم أكن أعلمه . وفي التنزيل : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ . كل هذا بمعنى المعرفة فاعلم . ﴿ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ ﴾ صلة الذين . والاعتداء : التجاوز وقد تقدّم .

الثانية ـ روى النسائي عن صفوان بن عسّال قال قال يهودي لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبيّ . فقال له صاحبه : لا تقل نبيّ لو سمعك! فإن له أربعة أعين؛ فأتيا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسألاه عن تسع آيات بينات ، فقال لهم : "لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تمشوا ببريء إلى سلطان ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المحصنة ولا تُولّوا يوم الزّحف وعليكم خاصّة يهودُ ألا تعدوا في السّبت". فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبيّ . قال "فما يمنعكم أن تتّبعوني" . قالوا : إن داود دعا بألّا يزال من ذريته نبيّ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرجه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتي لفظه في سورة سبحان إن شاء الله تعالى .

الثالثة ـ ﴿ فِي ٱلسَّبْتِ ﴾ . معناه في يوم السبت، ويحتمل أن يريد في حكم السبت . والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحيتان على جهة الاستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خيطا ويضع فيه وهقة[1] وألقاها في ذنب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد؛ ثم تطرّق الناس حين رأوا من صنع لا يبتلى

(١) في البحر المحيط : « خزمة » أي حبلا من لحاء شجر تتخذ من لحائه الحبال .

حتى كثر صيد الحوت ومشى به فى الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنهى واعتزلت . ويقال : إن الناهين قالوا لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار ، فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا : إن للناس لشأنا، فعلوا على الجدار فنظروا فإذا هم قردة ، ففتحوا الأبواب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القردة، فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى ، فيقول : ألم أنهكم ! فتقول برأسها : نعم . قال قتادة : صار الشبان قردة، والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم . وسيأتى فى الأعراف قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسبت مأخوذ من السبت وهو القطع ؛ فقيل : إن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقتها . وقيل : هو مأخوذ من السبوت الذى هو الراحة والدعة .

واختلف العلماء فى الممسوخ هل ينسل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه القردة منهم . واختاره القاضى أبو بكر بن العربى . وقال الجمهور : الممسوخ لا ينسل، وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك، والذين مسخهم الله قد هلكوا ولم يبق لهم نسل، لأنه قد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعد ثلاثة أيام . قال ابن عباس : لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال ابن عطية : وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين . وأما ما احتج به ابن العربى وغيره على صحة القول الأول من قوله صلى الله عليه وسلم : " فقدت أمة من بنى إسرائيل لا يدرى ما فعلت ولا أراها إلا الفأر ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته " . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وبحديث الضب رواه مسلم أيضا عن أبى سعيد وجابر؛ قال جابر : أتى النبى صلى الله عليه وسلم بضب فأبى أن يأكل منه ، وقال : " لا أدرى لعله من القرون التى مسخت " . فتأول على ما يأتى . قال ابن العربى : وفى البخارى عن عمرو بن ميمون أنه قال : رأيت فى الجاهلية قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم . ثبت فى بعض نسخ البخارى وسقط

فى بعضها، وثبت فى نص الحديث « قد زنت » وسقط هذا اللفظ عند بعضهم . قال ابن العربى : فان قيل وكأن البهائم بقيت فيهم تعاليم الشرائع حتى ورثوها خلفا عن سلف الى زمان عمرو . قلنا : نعم كذلك كان، لأن اليهود غيّروا الرّجم فاراد الله أن يقيمه فى ممسوخهم حتى يكون أبلغ فى الحجة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه حتى تشهد عليهم كتبهم وأخبارهم وممسوخهم، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، ويحصى ما يبدلون وما يغيرون، ويقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون، وينصر نبيّه عليه السلام وهم لا ينصرون .

قلت : هذا كلامه فى الأحكام ولا حجة فى شىء منه . فأمّا ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدى فى جمع الصحيحين حكى أبو مسعود الدمشقى أن لعمرو بن ميمون الأودىّ فى الصحيحين حكاية من رواية حصين عنه قال : رأيت فى الجاهلية قِرْدَةً اجتمع عليها قِرَدَةٌ فرجموها فرجمتها معهم . كذا حكى أبو مسعود ولم يذكر فى أى موضع أخرجه البخارىّ من كتابه ؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها؛ فذكر فى كتاب أيام الجاهلية . وليس فى رواية النعيمى عن الفربرى أصلا شىء من هذا الخبر فى القردة؛ ولعلها من المقحمات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارىّ فى التاريخ الكبير : قال لى نعيم بن حمّاد أخبرنا هُشيم عن أبى بَلْج وحُصين عن عمرو بن ميمون قال : رأيت فى الجاهلية قردة اجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم . وليس فيه قد زنت ، فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخارىّ دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يبال بظنه الذى ظنه فى الجاهلية . وذكر أبو عمر فى الاستيعاب، عمرو بن ميمون « وأن كنيته أبو عبد الله معدود فى كبار التابعين من الكوفيين ، وهو الذى رأى الرّجم فى الجاهلية من القردة ان صح ذلك ، لأن رواته مجهولون ، وقد ذكر البخارىّ عن نُعيم عن هشيم عن حُصين عن عمرو بن ميمون الأودىّ مختصرا قال : رأيت فى الجاهلية قردة زنت فرجموها — يعنى القِرَدَةَ — فرجمتها معهم . ورواه عباد بن العوام عن حصين كما رواه هشيم مختصرا . وأما القصة بطولها فانها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حطّان؛ وليسا ممن يحتج بهما؛ وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنا الى غير مكلف، وإقامة الحدود فى البهائم، ولو صح لكانوا من الجن لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما » . وأما قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : "ولا أراها إلا الفار" . وفى الضب : "لا أدرى

لعله من القرون التي مسخت". وما كان مثله فإنما كان ظنا وخوفا لأن يكون الضب والفأر وغيرهما مما مسخ، وكان هذا حدسا منه صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى اليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلا؛ فلما أوحى اليه بذلك زال عنه ذلك التخوف، وعلم أن الضب والفأر ليسا مما مسخ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال: "إن الله لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك". وهذا نص صريح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم في كتاب القدر. وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم ينكر، فدل على صحة ما ذكرنا وبالله توفيقنا. وروى عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مسخت قلوبهم فقط، وردت أفهامهم كأفهام القردة. لم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾. قردة، خبر كان. ﴿خَاسِئِينَ﴾ نعت وإن شئت جعلته خبرا ثانيا لكان، أو حالا من الضمير في كونوا. ومعناه مبعدين؛ يقال: خسأته خسأ. وخسئ وانخسأ أي أبعدته فبعد. وقوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾. أي مبعدا. وقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾. أي تباعدوا تباعد سخط. قال الكسائي: خسأ الرجل خسوءا، وخسأته خسأ. ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر القمئ؛ يقال: قَمُؤَ الرجلُ قماء، وقماءة صار قميئا وهو الصاغر الذليل. وأقمأته: صغرته وذللته، فهو قمىء على فعيل.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾. نصب على المفعول الثاني. وفي المجعول نكالا أقاويل؛ قيل: العقوبة. وقيل: القرية؛ إذ معنى الكلام يقتضيها. وقيل: الأمة التي مسخت. وقيل: الحيتان؛ وفيه بعد. والنكال: الزجر والعقاب. والنِّكل والأنكال: القيود. وسميت القيود أنكالا لأنها ينكل بها أي يمنع؛ ويقال للجام الثقيل: نِكْل ونَكْل[(1)]؛ لأن الدابة تمنع به. ونكل عن الأمر ينكُل، ونكِل ينكَل إذا امتنع. والتنكيل: إصابة الأعداء بعقوبة تنكل من وراءهم أي تجبنهم. وقال الأزهري: النكال العقوبة. ابن دريد: والمَنْكَل: الشيء الذي ينكل بالإنسان؛ قال:

* وارم على أقفائهم بمنكل *

(1) هذه الكلمة موجودة في بعض نسخ الأصل؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده، والذي بها إنما هو بالكسر لا غير.

﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ . قال ابن عباس والسدى : لما بين يدى المسخة ، ما قبلها من ذنوب القوم وما خلفها لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب . قال الفراء : جعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ولما يعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال ابن عطية : وهذا قول جيد ، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم . واختاره النحاس ، قال : وهو أشبه بالمعنى ، والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا لما بين يديها وما خلفها من القرى . وقال قتادة : لما بين يديها من ذنوبهم ، وما خلفها من صيد الحيتان .

قوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . عطف على نكال ، ووزنها مفعلة من الاتعاظ والانزجار . والوعظ : التخويف . والعظة الاسم . قال الخليل : الوعظ التذكير بالخير مما يرق له القلب . قال الماوردى : وخص المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفردهم بها عن الكافرين المعاندين . قال ابن عطية : واللفظ يعم كل متق من كل أمة . وقال الزجاج : وموعظة للمتقين ، لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا من حرم الله جل وعز ما نهاهم عنه فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ انتهكوا حرم الله فى سبتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ . فيه أربع مسائل .

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ . حكى عن أبى عمرو أنه قرأ يأمرْكم بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرّد : لا يجوز هذا لأن الراء حرف الإعراب . وإنما الصحيح عن أبى عمرو أنه كان يختلس الحركة . ﴿ أَنْ تَذْبَحُوا ﴾ . فى موضع نصب بيأمركم أى بأن تذبحوا . ﴿ بَقَرَةً ﴾ نصب بتذبحوا . وقد تقدم معنى الذبح فلا معنى لإعادته .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ . مقدم فى التلاوة ، وقوله : ﴿ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ . مقدم فى المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة . ويجوز أن يكون قوله : ﴿ قَتَلْتُمْ ﴾ فى النزول مقدما ، والأمر بالذبح مؤخرا . ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها ، فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل ، فأمروا أن يضربوه ببعضها ، ويكون وإذ قتلتم مقدما فى المعنى على القول الأول حسب ما ذكرنا ، لأن الواو لا توجب

الترتيب ؛ ونظيره فى التنزيل فى قصة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه فى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ . فذكر إهلاك من هلك منهم ثم عطف عليه بقوله : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ . فذكر الركوب متأخرا فى الخطاب ؛ ومعلوم أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا ﴾ . وتقديره أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا؛ ومثله فى القرآن كثير .

الثالثة — لا خلاف بين العلماء أن الذبح أولى فى الغنم ، والنحر أولى فى الإبل ، والتخيير فى البقر . وقيل : الذبح أولى لأنه الذى ذكره الله ، ولقرب المنحر من المذبح . قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا حرم أكل ما نحر مما يذبح ، أو ذبح مما ينحر . وكره مالك ذلك . وقد يكره المرء الشيء ولا يحرمه . وسيأتى فى سورة المائدة أحكام الذبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ مستوفى إن شاء الله تعالى . قال الماوردى : وإنما أمروا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها ، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علة فى ذبح البقرة ، وليس بعلة فى جواب السائل ؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حى ، فيكون أظهر لقدرته فى اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ بَقَرَةً ﴾ . البقرة اسم للأنثى ، والثور اسم للذكر ، مثل ناقة وجمل ، وامرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر ؛ الأنثى والذكر سواء ؛ وأصله من قولك : بقر بطنه أى شقه ؛ فالبقرة تشق الأرض بالحرث وتثيره ؛ ومنه الباقر لأبى جعفر محمد بن على زين العابدين ، لأنه بقر العلم وعرف أصله : أى شقه . والبقيرة : ثوب يشق فتلقيه المرأة فى عنقها من غير كُمَّين . وفى حديث ابن عباس فى شأن الهدهد "فبقر الأرض" . قال شمر : بقر نظر موضع الماء ، فرأى الماء تحت الأرض . قال الأزهرى : البقر اسم للجنس وجمعه باقر (١) . ابن عرفة : يقال بقير وباقر وبيقور . وقرأ عكرمة وابن يعمر "إن الباقر" . والثور : واحد الثيران . والثور : السيد من الرجال . والثور : القطعة من الأقط . والثور : الطُّحْلُب . وثور : جبل . وثور : قبيلة من العرب .

---

(١) فى لسان العرب : فأما بقر وباقر وبقير وبيقور وباقور وباقورة فأسماء للجمع .

وفى الحديث : "ووقت العشاء مالم يغب ثور الشفق" يعنى انتشاره ؛ يقال : ثار يثور ثورا وثورانا إذا انتشر فى الأفق . وفى الحديث : "من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن" . قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ . هـذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . وذلك أنهم وجدوا قتيلا بين أظهرهم ؛ قيل : اسمه عاميل، واشتبه أمر قاتله عليهم، ووقع بينهم خلاف؛ فقالوا : نقتتل ورسول الله بين أظهرنا ؛ فأتوه وسألوه البيان — وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله — فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس فى ظاهره جواب عما سألوه عنه، واحتكموا فيه عنده؛ قالوا : أتتخذنا هزؤا ؟ والهزء : اللعب والسخرية؛ وقد تقدم . وقرأ الجحدرى أيتخذنا بالياء أى قال ذلك بعضهم لبعض ؛ فأجابهم موسى عليه السلام بقوله : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ . لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزؤ جهل . فاستعاذ منه عليه السلام، لأنها صفة تنتفى عن الأنبياء . والجهل : نقيض العلم . فاستعاذ من الجهل كما جهلوا فى قولهم : أتتخذنا هزؤا لمن يخبرهم عن الله تعالى؛ وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله . ولا يصح إيمان من قال لنبى قد ظهرت معجزته، وقال : إن الله يأمرك بكذا. أتتخذنا هزؤا؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبى صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية؛ على نحو ماقال القائل للنبى صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد . وفى هذا كله أدل دليل على قبح الجهل وأنه مفسد للدين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُوًا ﴾ . مفعول ثان، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعلها حفص واوا مفتوحة، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهى تجرى على البدل؛ كقوله : السفهاء ولا يجوز خلف الضمة من الزاى كما تحذفها من عضد فتقول : هُزْوا كما قرأ أهل الكوفة؛ وكذلك ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم ففيه لغتان، التخفيف والتثقيل؛ نحو العسر واليسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعُل

كـكُتُب وكُتب، ورُسُل ورُسْل، وعُوُن وعُوْن . وأما قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ . فليس مثل هزء وكفء، لأنه على فعل من الأصل . على ما يأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

مسئلة : فى الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ،ودين المسلمين، ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد . وليس المزاح من الاستهزاء بسبيل؛ ألا ترى أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم كان يمزح والأئمة بعده . قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : وقد بلغنا أن رجلا تقـدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضى الكوفة فمازحه عبيد الله فقال : جُبّتك هذه من صوف نعجة أو من صوف كبش؟ فقال له : لا تجهل أيهـا القاضى ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلا ! فتلا عليه هذه الآية؛ فأعرض عنـه عبيد الله لأنه رآه جاهلا لا يعرف المَزْح من الاستهزاء ، وليس أحدهمـا من الآخر بسبيل .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَـا رَبَّكَ ﴾ . هـذا تعنيت منهم وقلّة طواعية؛ ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أى بقرة كانت لحصل المقصود، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم . قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما . ونحو ذلك روى الحسن البصرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ولغة بنى عامر ادعِ وقد تقدّم . و﴿يُبَيِّنْ﴾ . مجزوم على جواب الأمر . ﴿مَا هِيَ﴾ . ابتداء وخبر . وماهيّة الشىء : حقيقته وذاته التى هو عليها .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَـا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ . فى هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل، لأنه لمـا أمر ببقرة، اقتضى أى بقرة كانت؛ فلما زاد فى الصفة نسخ الحكم الأوّل بغيره؛ كما لو قال : فى ثلاثين من الإبل بنت مخاض . ثم نسخه بابنة لبون أو حِقّة . وكذلك هاهنا لمـا عيّن الصـفة صار ذلك نسخا للحكم المتقدم . والفارض : المسنة . وقد فَرَضت تَفرِض فروضا أى أسنت؛ ويقال للشىء القديم : فارض؛ قال الراجز :

شَيَّبَ أصداغِى فرأسِى أبيضُ * محـامِلٌ فيهـا رجالٌ فُـرُضُ

يعنى هرِماء؛ وقال آخر :

لعمرك قد أعطيت جارك فارضا * تسـاق إليـه ما تقوم على رِجلِ

أي قديمة؛ وقال آخر :

يا رُبَّ ذي ضِغن عليّ فارِض * له قُروء كقروء الحائض

أي قديم . ولا فارض ، رفع على الصّفة لبقرة . ولا بكر ، عطف . وقيل : لا فارض خبر مبتدإ مضمر؛ أي لا هي فارض، وكذا لا ذلول، وكذلك لا تسقي الحرث، وكذلك مسلّمة. فاعلمه. وقيل: الفارض التي قد ولَدت بطونا كثيرة ، فيتّسع جوفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض في اللغة الواسع . قاله بعض المتأخرين . والبِكْر : الصغيرة التي لم تحمل . وحكى القُتَبِيّ أنها التي ولدت . والبكر : الأوّل من الأولاد؛ قال :

يا بِكْرَ بِكْرَينِ ويا خِلْبَ الكَبِدْ * أصبحتَ منّي كذراع من عَضُدْ

والبكر أيضا في إناث البهائم وبني آدم : ما لم يفتحله الفحل؛ وهي مكسورة الباء . وبفتحها ؛ الفَتِيُّ من الإبل . والعَوان : النَّصَف التي قد ولدت بطنا أو بطنين ؛ وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه بخلاف الخيل؛ قال الشاعر يصف فرسا :

كُمَيْتٌ بَهِيم اللَّوْنِ ليس بفارِض * ولا بِعَوانٍ ذاتِ لون مُخَصَّفِ

فرس أخصف إذا ارتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهد : العَوان من البقر هي التي قد ولدت مرّة بعد مرّة . وحكاه أهل اللغة . ويقال : إن العوان النخلة الطويلة . وهي فيما زعموا لغة يمانية . وحَرْب عَوان : إذا كان قبلها حرب بكر؛ قال زهير :

إذا لَقِحت حربٌ عَوانٌ مُضِرّةٌ * ضَرُوسٌ تُهِرّ الناسَ أنيابُها عُصْلُ

أي لا هي صغيرة ولا هي مسنة أي هي عوان، وجمعها عون بضم العين وسكون الواو ؛ وسمع عون بضم الواو كرُسُل . وقد تقدّم . وحكى الفرّاء من العوان، عَوّنتْ تعوينا .

قوله تعالى : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ . تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنت، فما تركوه؛ وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح، على ما هو مذكور في أصول الفقه، وعلى أن الأمر على الفور؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدل على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمروا به فقال : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . وقيل : لا، بل على التراخي لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة في الخطاب . قاله ابن خُوَيْزِ مَنْداد.

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ . ما، استفهام مبتدأة . ولونها، الخبر .
ويجوز نصب لونها بيُبَيِّن ، وتكون ما زائدة . واللون واحد الألوان، وهو هيئة كالسواد والبياض
والحمرة . واللّون : النوع . وفلان متلوّن إذا كان لا يثبت على خُلُق واحد وحال واحدة؛ قال :

كل يوم تتلوّنْ * غير هـذا بك أجملْ

ولوّنَ البُسْر تلوينا إذا بدا فيه أثر النّضج . واللّون : الدَّقَل ، وهو ضرب من النخل . قال
الأخفش: هو جماعة واحدها لِينَة . قوله: ﴿صَفْرَاءُ﴾ . جمهور المفسرين أنها صفراء اللون من الصّفرة
المعروفة . قال مكّي عن بعضهم : حتى القَرْن والظِّلف . وقال الحسن وابن جبير : كانت صفراء
القرن والظلف فقط . وعن الحسن أيضا صفراء، معناه سوداء ؛ قال الشاعر :

تلك خَيْلي منه وتلك رِكابي * هنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبِيبِ

قلت : والأوّل أصح لأنه الظاهر؛ وهذا شاذ لا يستعمل مجازا إلا في الإبل؛ قال الله تعالى :
﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ . وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة . ولو أراد السواد لما أكّده
بالفُقُوع، وذلك نعت مختص بالصفرة وليس يوصف السواد بذلك ؛ تقول العرب : أسودُ حالكٌ
وحُلْكُوك وحَلَكوك ودَجُوجِيّ وغِرْبِيبٌ . وأحمرُ قانِيٌّ . وأبيضُ ناصعٌ . ولَهِقٌ ولَهاقٌ ويَقَقٌ . وأخضرُ
ناضرٌ . وأصفرُ فاقعٌ؛ هكذا نصّ نقلة اللغة عن العرب . قال الكسائي : يقال فقَع لونُها يفقَع فُقوعا
إذا خَلَصت صفرته . والإفقاع : سوء الحال . وفواقع الدهر : بوائقه . وفقّع بأصابعه إذا صوّت؛
ومنه حديث ابن عباس: نهى عن التفقيع في الصلاة . وهي الفرقعة، وهي غمز الأصابع حتى تُنقِض.(1)
ولم ينصرف صفراء في معرفة ولا نكرة ، لأن فيها ألف التأنيث وهي ملازمة فخالفت الهاء ، لأن
ما فيه الهاء ينصرف في النكرة، كفاطمة وعائشة .

قوله تعالى : ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ . يريد خالصا لونها لا لون فيها سوى لون جلدها . ﴿ تَسُرُّ
النَّاظِرِينَ ﴾ . قال وهب : كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، ولهذا قال ابن عباس : الصفرة
تسر النفس . وحضّ على لباس النّعال الصُّفر حكاه عنه النقاش . وقال عليّ بن أبي طالب رضى الله
عنه : من لبس نعلي جلد أصفرَ قلّ همه، لأن الله تعالى يقول : ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾

(1) النقيض من الأصوات يكون لمفاصل الانسان عن لسان العرب .

حكاه عنه الثعلبي . ونهى ابن الزبير ومحمد بن أبي كثير عن لباس النعال السود، لأنها تُهِمّ . ومعنى تسرّ تُعجِبُ . وقال أبو العالية : معناه في سمتها ومنظرها فهي ذات وصفين والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ . سألوا سؤالا رابعا، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان، وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمع ، ولذلك قال : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ فذكّره للفظ تذكير البقر . قال قطرب : جمع البقرة باقر وباقور وبقر . وقال الأصمعي : الباقر جمع باقرة ، قال : ويجمع بقر على باقورة . حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرأ الحسن، فيما ذكر النحاس ، والأعرج، فيما ذكر الثعلبي، إن البقر تشّابه، بالتاء وشدّ الشين، جعله فعلا مستقبلا وأنّثه . والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء في الشين . وقرأ مجاهد تشّبّه كقراءتهما إلا أنه بغير ألف . وفي مصحف أُبيّ تشابهت بتشديد الشين . قال أبو حاتم : وهو غلط لأن التاء في هذا الباب لا تدغم إلا في المضارعة . وقرأ يحيى بن يَعْمُر إن الباقر يشّابه، جعله فعلا مستقبلا وذكّر البقر وأدغم . ويجوز إن البقر تشابه بتخفيف الشين وضم الهاء . وحكاها الثعلبي عن الحسن . النحاس : ولا يجوز يشابه بتخفيف الشين والياء، وإنما جاز في التاء لأن الأصل تتشابه فحذفت لاجتماع التاءين . والبقر والباقر والبيقور والبقير لغات بمعنًى ، والعرب تذكّره وتؤنّثه والى ذلك ترجع معاني القراءات في تشابه . وقيل : إنما قالوا : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ لأن وجوه البقر تتشابه ، ومنه حديث حذيفة بن اليمان عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه ذكر فتناً كقطع الليل تأتي كوجوه البقر . يريد أنها يشبه بعضها بعضا . ووجوه البقر تتشابه ولذلك قالت بنو إسرائيل : إن البقر تشابه علينا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ . استثناء منهم، وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر . وروى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : « لو ما استثنوا ما اهتدوا إليها أبدا » . وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله . فقدّم على ذكر الاهتداء اهتماما به . وشاء، في موضع جزم بالشرط، وجوابه عند سيبويه الجملة إن وما عملت فيه . وعند أبي العباس المبرّد محذوف .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ . قرأ الجمهور لا ذلول بالرفع على الصفة لبقرة . قال الأخفش : لا ذلول نعته ولا يجوز نصبه . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي لا ذلول بالنصب على

النّفي والخبر مضمر . ويجوز لا هي ذلول ، لا هي تسقي الحرث ، هي مسلمة . ومعنى لا ذلول لم يذللها العمل؛ يقال : بقرة مذلّلة بينة الذّل بكسر الذال . ورجل ذليل بين الذل بضم الذال أي هي بقرة صعبة غير رَيِّضة لم تذلل بالعمل .

قوله تعالى : ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ . تثير، في موضع رفع على الصفة للبقرة أي هي بقرة لا ذلول مثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحشية، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث أي لا يُسنَى بها لسقي الزرع ولا يسقى عليها . والوقف هاهنا حسن . وقال قوم : تثير فعل مستأنف، والمعنى إيجاب الحرث لها، وأنها كانت تحرث ولا تسقي . والوقف على هذا التأويل لا ذلول . والقول الأوّل أصح لوجهين ، أحدهما ما ذكره النحاس عن عليّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون تثير مستأنفا لأن بعده ولا تسقي الحرث ، فلو كان مستأنفا لما جمع بين الواو ولا . الثاني : أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذللتها ، والله تعالى قد نفى عنها الذلّ بقوله : ﴿ لَا ذَلُولٌ ﴾ .

قلت : ويحتمل أن تكون تثير الأرض في غير العمل مرحا ونشاطا، كما قال آمرؤ القيس :

يُهِيلُ ويُذْرِي تربَه ويُثيرُه • إثارةَ نَبَّاثِ الهَواجِرِ مُخْمِسِ

فعلى هذا يكون تثير مستأنفا ، ولا تسقي معطوف عليه فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها، ومنه الحديث : « أثيروا القرآن فإنه علم الأولين والآخرين » . وفي رواية أخرى : « من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن » . وقد تقدّم . وفي التنزيل : ﴿ وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ . أي قلبوها للزراعة . والحرث : ماحرث وزرع . وسيأتي .

مسئلة — في هذه الآية أدلّ دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضبط بالصفة وحصر بها جاز السَّلَم فيه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعي والليث والشافعي . وكذلك كل ما يضبط بالصفة، لوصف الله تعالى البقرة في كتابه وصفا يقوم مقام التعيين؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصف المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها » . أخرجه مسلم ؛ فجعل صلّى الله عليه وسلّم الصفة تقوم مقام الرؤية، وجعل صلّى الله عليه وسلّم دية الخطأ في ذمّة من أوجبها عليه دَيْنًا إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول الكوفيين أبي حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح

حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم في الحيوان . وروى عن ابن مسعود وحذيفة وعبد الرحمن بن سَمُرَة ، لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشي وحركة وكل ذلك يَزيد في ثمنه ويرفع من قيمته . وسيأتي حكم السلم وشروطه في آخر السورة في آية الدين ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ . أي هي مسلمة ، ويجوز أن يكون وصفا أي إنها بقرة مسلّمة من العرج وسائر العيوب . قاله قتادة وأبو العالية . ولا يقال : مسلمة من العمل لنفي الله العمل عنها . وقال الحسن : يعني سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعالى : ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ . أي ليس فيها لون يخالف معظم لونها ، هي صفراء كلّها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ، كما قال : ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ . وأصل شِية وشية حذفت الواو كما حذفت من يشي ، والأصل يوشي ، ونظيره الزِّنة والعِدة والصِّلة . والشّية مأخوذة من وشى الثوب إذا نسج على لونين مختلفين . وثور موشّى : في وجهه وقوائمه سواد . قال ابن عرفة : الشّية اللون . ولا يقال لمن نمّ : واش حتى يغيّر الكلام ويلوّنه فيجعله ضروبا ويزيّن منه ما شاء . والوشي : الكثرة . ووشّى بنو فلان : كثروا . ويقال : فرس أبْلَق ، وكبش أخْرَج ، وتيس أبْرَق ، وغراب أبقع ، وثور أشْيَه . كل ذلك بمعنى البلقة ، هكذا نصّ أهل اللغة .

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودين الله يسر ، والتعمّق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ، نسأل الله العافية . وروى في قصص هذه البقرة روايات تلخيصها : أن رجلا من بني إسرائيل ولد له ابن ، وكانت له عجلة فأرسلها في غَيْضَة وقال : اللّهم إني استودعك هذه العجلة لهذا الصبي . ومات الرجل فلما كبر الصبيّ قالت له أمه ، وكان برًّا بها : إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب فخذها ، فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها — وكانت مستوحشة — فجعل يقودها نحو أمه . فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصّفة التي أمروا بها فساموه فاشتط عليهم . وكان قيمتها على ما روى عن عكرمة ثلاثة دنانير فأتوا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا اشتطّ علينا ، فقال لهم : أرضوه في ملكه ، فاشتروها منه بوزنها مرّة . قاله عبيدة . السدى : بوزنها عشر مرار . وقيل : بملء مَسْكها دنانير . وذكر مكيّ أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱلْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ . أي بيّنت الحق . قاله قتادة . وحكى الأخفش: قالوا ألآن . قطع ألف الوصل؛ كما يقال : يالله . وحكى وجها آخر قالوا لَانَ. بإثبات الواو . نظيره قراءة أهل المدينة وأبي عمرو عادا لُاولى . وقرأ الكوفيون قالوا الآن بالهمز . وقراءة أهل المدينة قالوا لان بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : الآن مبني على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام ، لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى إلى هذا الوقت، فبنيت كما بني هذا . وفتحت النون لالتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين الماضي والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . أجاز سيبويه كاد أن يفعل تشبيها بعسى . وقد تقدّم أول السورة . وهذا إخبار عن تثبيطهم في ذبحها وقلّة مبادرتهم إلى أمر الله . وقال القرظي محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفا من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم . قاله وهب بن منبه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ . هذا الكلام مقدّم على أوّل القصة ، التقدير وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ؛ فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهذا كقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا ﴾ . أي أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا . ومثله كثير وقد بيناه أول القصة . وفي سبب قتله قولان؛ أحدهما لابنة له حسناء أحب أن يتزوجها ابن عمها فمنعه عمه؛ فقتله ، وحمله من قريته إلى قرية أخرى، فألقاه هناك . وقيل : ألقاه بين قريتين . الثاني قتله طلبا لميراثه ؛ فإنه كان فقيرا وادّعى قتله على بعض الأسباط . قال عكرمة : كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منه ؛ فوجدوا قتيلا في سبط من الأسباط فادعى هؤلاء على هؤلاء ، وادعى هؤلاء على هؤلاء، ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ الآية : ومعنى ادّارأتم ، اختلفتم وتنازعتم . قاله مجاهد . وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء في الدال ؛ ولا يجوز الابتداء بالمدغم لأنه ساكن فزيد ألف الوصل . ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾ . ابتداء وخبر . ﴿ مَا كُنْتُمْ ﴾ . في موضع نصب بمخرج ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ﴿ تَكْتُمُونَ ﴾ . جملة في موضع خبر كان ، والعائد محذوف؛ التقدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يرث قاتل عمد من حينئذ . قاله عبيدة السلماني . قال ابن عباس : قتل هذا الرجل عمه ليرثه . قال ابن عطية : وبمثله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله في موطئه أن قصة أحيحة بن الجلاح في عمه هي كانت سبب ألا يرث قاتل ؛ ثم ثبت ذلك الإسلام كما ثبت كثيرا من نوازل الجاهلية . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يرث قاتل العمد من الدية ولا من المال . ولا يرث من الدية في قول مالك والأوزاعي وأبي ثور والشافعي لأنه لا يتهم على أنه قتله ليرثه ويأخذ ماله . وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعي في قول له آخر : لا يرث القاتل عمدا ولا خطأ شيئا من المال ولا من الدية . وهو قول شريح وطاوس والشعبي والنخعي . ورواه الشعبي عن عمر وعلي وزيد قالوا : لا يرث القاتل عمدا ولا خطأ شيئا . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يرث قاتل الخطأ من الدية ومن المال جميعا . حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح على ما يأتي بيانه في آية المواريث إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ . قيل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيل : بعجب الذنب إذ فيه يركب خلق الإنسان . وقيل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها ؛ والمقطوع به عضو من أعضائها ؛ فلما ضرب به حيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان .

مسألة — استدل مالك رحمه الله في رواية ابن وهب وابن القاسم على صحة القول بالقسامة ؛ بقول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلان قتلني . ومنعه الشافعي وجمهور العلماء قالوا : وهو الصحيح ، لأن قول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلان قتلني ، خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدعى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين ، ولا يقين مع الاحتمال ، فبطل اعتبار قول المقتول دمي عند فلان . وأما قتيل بني إسرائيل فكانت معجزة وأخبر تعالى أنه يحييه ، وذلك يتضمن الإخبار بقاتله خبرا جزما لا يدخله احتمال فافترقا . قال ابن العربي : المعجزة إنما كانت في إحيائه فلما صار حيا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم في القبول والرد ؛ وهذا فن دقيق من العلم لم يتفطن له إلا مالك . وليس في القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه فلعله أمرهم بالقسامة معه . واستبعد ذلك البخاري والشافعي وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يقبل قوله في الدم وهو لا يقبل قوله في درهم .

مسئلة — اختلف العلماء فى الحكم بالقسامة فروى عن سالم وأبى قلابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عتيبة التوقف فى الحكم بها. واليه مال البخارى لأنه أتى بحديث القسامة فى غير موضعه. وقال الجمهور: الحكم بالقسامة ثابت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم اختلفوا فى كيفية الحكم بها؛ فقالت طائفة: يبدأ فيها المدعون بالأيمان فان حلفوا استحقوا، وإن نكلوا حلف المدّعى عليهم خمسين يمينا وبرءوا. هذا قول أهل المدينة والليث والشافعى وأحمد وأبى ثور. وهو مقتضى حديث حويصة ومحيصة خرجه الأئمة مالك وغيره. وذهبت طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعى عليهم فيحلفون ويبرءون. روى هذا عن عمر بن الخطاب والشعبيّ والنخعى، وبه قال الثورى والكوفيون؛ واحتجوا بحديث شعبة بن عبيد عن بشير بن يسار، وفيه فبدأ بالأيمان المدعى عليهم وهم اليهود، وبما رواه أبو داود عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليهود وبدأ بهم: «أيحلف منكم خمسون رجلا». فأبوا فقال للأنصار: «استحقوا» فقالوا: نحلف على الغيب يارسول الله! فجعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم دية على يهود، لأنه وجد بين أظهرهم. وبقوله عليه السلام: «ولكن اليمين على المدّعى عليه». قالوا: وهذا هو الأصل المقطوع به فى الدعاوى الذى نبه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام: «لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمين على المدّعى عليه». رد عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا: حديث سعيد بن عبيد فى تبدية اليهود وهَم عند أهل الحديث، وقد أخرجه النسائى وقال: ولم يتابع سعيد على هذه الرواية فيما أعلم، وقد أسند حديث بشير عن سهل أن النبى صلى الله عليه وسلم بدأ المدّعين، يحيى ابن سعيد وابن عيينة وحماد بن زيد وعبد الوهاب الثقفى وعيسى بن حماد وبشر بن المفضل؛ فهؤلاء سبعة وإن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ وهو أصح من حديث سعيد بن عبيد. قال أبو محمد الأصيلى: فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة مع أن سعيد بن عبيد قال فى حديثه: فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة من إبل الصدقة؛ والصدقة لاتعطى فى الديات ولا يصالح بها عن غير أهلها. وحديث أبى داود مرسل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة؛ وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هذا الحكم أصل بنفسه لحرمة الدماء. قال ابن المنذر: ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البينة على المدّعى واليمين على المدّعى عليه، والحكم بظاهر ذلك يجب إلا أن يخص

الله في كتابه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم حكما في شيء من الأشياء فيستثنى من جملة هذا الخبر فما دل عليه الكتاب إلزام القاذف حد المقذوف، إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف . وخص من رمى زوجته بأن أسقط عنه الحد إذا شهد أربع شهادات . ومما خصته السنة حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالقسامة . وقد روى ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : "البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر إلا في القسامة" . خرّجه الدارقطني . وقد احتج مالك لهذه المسئلة في موطئه بما فيه كفاية فتأمله هناك .

مسئلة ــ واختلفوا أيضا في وجوب القَوَد بالقسامة؛ فأوجبت طائفة القود بها . وهو قول مالك والليث وأحمد وأبي ثور؛ لقوله عليه السلام لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن : «أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم» . وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قتل رجلا بالقسامة من بني نصر بن مالك . قال الدارقطني : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخاري : رأيت عليّ بن المديني وأحمد بن حنبل والحميدي وإسحاق بن راهويه يحتجون به؛ قاله الدارقطني في السنن . وقالت طائفة : لاقود بالقسامة، وإنما توجب الدّية . روى هذا عن عمر وابن عباس؛ وهو قول النخعي والحسن وإليه ذهب الثوري والكوفيون والشافعي وإسحاق، واحتجوا بما رواه مالك عن ابن أبي ليلى عن عبد الله عن سهل بن أبي حثمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله للأنصار : «إما أن يدوا صاحبكم وإما يؤذنوا بحرب» . قالوا : وهذا يدل على الدّية لا على القود؛ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : «وتستحقون دم صاحبكم» دية دم قتيلكم . لأن اليهود ليسو بأصحاب لهم؛ ومن استحق دية صاحبه فقد استحق دمه؛ لأن الدية قد تؤخذ في العمد فيكون ذلك استحقاقا للدم .

مسئلة ــ الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولا بد منه، واللَّوث : أمارة تغلب على الظنّ صدق مدّعي القتل كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل، أو يرى المقتول يتشحط في دمه، والمتّهم نحوه أو قربه عليه آثار القتل . وقد اختلف في اللّوث والقول به؛ فقال مالك : هو قول المقتول دمي عند فلان . والشاهد العدل لوث . كذا في رواية ابن القاسم عنه . وروى أشهب عن مالك أنه يقسم

مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى ابن وهب أن شهادة النساء لوث . وذكر محمد عن ابن القاسم أن شهادة المرأتين لوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضي أبو بكر بن العربي : اختلف في اللوث اختلافا كثيرا، مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحب إلىّ . قال : وأخذ به ابن القاسم وابن عبد الحكم . وروى عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب اذا قال : دمى عند فلان ومات كانت القسامة . وبه قال مالك والليث بن سعد . واحتج مالك بقتيل بنى إسرائيل أنه قال : قتلنى فلان . وقال الشافعي : اللوث الشاهد العدل ، أو يأتى ببينة وإن لم يكونوا عدولا . وأوجب الثورى والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط ، واستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ، قالوا : اذا وجد قتيل فى محلة قوم وبه أثر، حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عقله عليهم ، واذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شيء إلا أن تقوم البينة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أجمع عليه عندنا ، وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم، ولا سلف لهم فيه، وهو مخالف للقرآن والسنة، ولأن فيه إلزام العاقلة مالاً بغير بينة تثبت عليهم ولا إقرار منهم . وذهب مالك والشافعى الى أن القتيل إذا وجد فى محلة قوم أنه هدر ، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا ، لأن القتيل قد يقتل ثم يلقى على باب قوم ليلطخوا به ، فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التى شرطوها فى وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مسـألة — قال القاسم بن مسعدة : قلت للنسائى لا يقول مالك القسامة إلا باللوث ، فلمَ أورد حديث القسامة ولا لوث فيه ؟ قال النسائى : أنزل مالك العداوة التى كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث، وأنزل اللوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال ابن أبى زيد : وأصل هذا فى قصة بنى إسرائيل حين أحيا الله الذى ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلنى فلان، وبأن العداوة لوث. قال الشافعى : ولا نرى قولَ المقتول لوثا كما تقدم . قال الشافعى : إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التى كانت بين الأنصار واليهود ، ووجد قتيل فى أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجبت القسامة فيه .

مسـألة ـ واختلفوا في القتيل يوجد في المحلة التي أكراها أربابها ؛ فقال أصحاب الرأي : هو على أهل الخطة وليس على السكان شيء ، فإن باعوا دورهم ثم وجد قتيل فالدية على المشترى وليس على السكان شيء ، وإن كان أرباب الدور غُيَّبا وقد أكروا دورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغُيَّب وليس على السكان الذي وجد القتيل بين أظهرهم شيء . ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدية على السكان في الدور . وحكى هذا القول عن ابن أبي ليلى واحتج بأن أهل خيبر كانوا عمالا سكانا يعملون فوجد القتيل فيهم . قال الثوري : ونحن نقول هو على أصحاب الأصل يعني أهل الدور . وقال أحمد : القول قول ابن أبي ليلى في القسامة لا في الدية. وقال الشافعي : وذلك كله سواء ، ولا عقل ولا قود إلا ببينة تقوم ، أو ما يوجب القسامة فيقسم الأولياء . قال ابن المنذر : وهذا أصح .

مسـألة ـ ولا يحلف في القسامة أقل من خمسين يمينا ، لقوله عليه السلام في حديث حُوَيصة ومُحيِّصة : «يقسم خمسون منكم على رجل منهم» . فإن كان المستحقون خمسين حلف كل واحد منهم يمينا واحدة ، فإن كانوا أقل من ذلك أو نكل منهم من لا يجوز عفوه رُدّت الأيمان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف في العمد أقل من اثنين من الرجال ، لا يحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء . يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأولياء من العصبة خمسين يمينا . هذا مذهب مالك والليث والثوري والأوزاعيّ وأحمد وداود . وروى مطرّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعى عليه أحد ويحلف هم أنفسهم كما لو كانوا واحدا فأكثر خمسين يمينا يبرئون بها أنفسهم، وهو قول الشافعي. قال الشافعي : لا يقسم إلا وارث كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له الملك لنفسه أو من جعل الله له الملك من الورثة ؛ والورثة يقسمون على قدر مواريثهم . وبه قال أبو ثور واختاره ابن المنذر وهو الصحيح ، لأن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يدّع عليه بريء . وقال مالك : في الخطأ يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء فمهما كملت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه ، ومن نكل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه . هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد روى عنه أنه لا يرى في الخطأ قسامة .

وتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور فى كتب الفقه والخلاف ، وفيما ذكرنا كفاية والله الموفق .

مسـألة — فى قصة البقرة هـذه دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين، وقوم من الفقهاء، واختاره الكرجى (١) ونص عليه ابن بكير القاضى من علمائنا؛ وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : هو الذى تقتضيه أصول مالك ومنازعه فى كتبه؛ وإليه ميل الشافعى؛ وقد قال الله : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهِ ﴾ على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ . أى كما أحيا هذا بعـد موته كذلك يحيى كل من مات . فالكاف فى موضـع نصب لأنه نعت لمصـدر محذوف . ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ . أى علاماته وقدرته . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كى تعقلوا . وقد تقدم . أى تمتنعون من عصيانه . وعقلت نفسى عن كذا : أى منعتها منه . والمعاقل : الحصون .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ . القسوة: الصلابة والشدة واليبس. وهى عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى. قال أبو العالية وقتادة وغيرهما : المراد قلوب جميع بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل لأنهم حين حيى وأخبر بقاتله وعاد الى موته أنكروا قتله وقالوا : كذب. بعد ما رأوا هذه الآية العظمى فلم يكونوا قط أعمى قلبا، ولا أشد تكذيبا لنبيهم ،منهم عند ذلك،لكن نفذ حكم الله بقتله. روى الترمذى عن عبدالله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعـد الناس من الله القلب القاسى" . وفى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أربعة من الشقاء جمود العين وقساء (٢) القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا" .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ . أو، قيل : هى بمعنى الواو كما قال : ﴿ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ . ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ . وقال الشاعر :

* نال الخـلافة أو كانت له قـدرا *

---

(١) فى نسخة : «الكرخى» بالخاء . (٢) بالفتح والمد مصدر مثل القسوة والقساوة .

أي وكانت . وقيل : هي بمعنى بل كقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ . المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى * وصورتها أو أنت في العين أملح

أي بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب ، ومنه قول أبي الأسود الدؤلي :

أحب محمدا حبا شديدا * وعباسا وحمزة أو عليا

فإن يك حبهم رشدا أصبه * ولست بمخطئ إن كان غيا

ولم يشك أبو الأسود أن حبهم رشد ظاهر وإنما قصد الإبهام . وقد قيل لأبي الأسود حين قال ذلك : شككت ! قال : كلا ؛ ثم استشهد بقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . وقال : أوكان شاكا من أخبر بهذا ! وقيل : معناها التخيير أي شبهوها بالحجارة تصيبوا أو بأشد من الحجارة تصيبوا ، وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ابن سيرين ، وتعلم الفقه أو الحديث . وقيل : بل هي على بابها من الشك ومعناها عندكم أيها المخاطبون وفي نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم أهي كالحجارة أو أشد من الحجارة ؟ وقد قيل هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ وقالت فرقة : إنما أراد الله تعالى أن فيهم من قلبه كالحجر ، وفيهم من قلبه أشد من الحجر . فالمعنى هم فرقتان .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَشَدُّ ﴾ . أشد مرفوع بالعطف على موضع الكاف في قوله : ﴿ كَالْحِجَارَةِ ﴾ لأن المعنى فهي مثل الحجارة أو أشد ، ويجوز أو أشدَّ بالفتح عطف على الحجارة . و ﴿ قَسْوَةً ﴾ نصب على التمييز . وقرأ أبو حيوة قساوة والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ . قد تقدم معنى الانفجار . ويشقق أصله يتشقق أدغمت التاء في الشين ؛ وهذه عبارة عن العيون التي لم تعظم حتى تكون أنهارا ، أو عن الحجارة التي تشتق وإن لم يجر ماء منفسح . وقرأ ابن مصرف ينشقق بالنون ، وقرأ لمّا يتفجر ، لمّا يتشقق ، بتشديد لمّا في الموضعين . وهي قراءة غير متجهة . وقرأ مالك بن دينار ينفجر بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عذر الحجارة ولم يعذر شقي بني آدم . قال أبو حاتم : يجوز لما تتفجر بالتاء ، ولا يجوز لما تتشقق بالتاء لأنه إذا قال تتفجر أنثه بتأنيث

الأنهار ، وهـذا لا يكون فى تشقق . قال النحاس : يجوز ما أنكره على المعنى ، لأن المعنى و إن منها لحجارة تتشقق ، وأما يشقق فمحمول على لفظ ما . والشق واحد الشقوق ؛ فهو فى الأصل مصدر تقول : بيد فلان ورجليه شُقوق ، ولا تقل : شُقاق ؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب ، وهو تشقق يصيب أرساغها وربما ارتفع إلى وظيفها . عن يعقوب . والشّق : الصبح . وما ، فى قوله : ﴿ لَمَا يَتَفَجَّرُ ﴾ . فى موضع نصب لأنها اسم إن ، واللام للتأكيد . منه على لفظ ما ، ويجوز منها على المعنى ؛ وكذلك ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ . وقرأ قتادة و إن فى الموضعين مخففة من الثقيلة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ . يقول : إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم ، لخروج الماء منها وتردّيها . قال مجاهد : ما تردّى حجر من رأس جبل ، ولا تفجر نهر من حجر ، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله ؛ نزل بذلك القرآن . ومثله عن ابن جريج . وقال بعض المتكلمين فى قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ : البرد الهابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز ؛ وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها ، وتخشع بالنظر إليها ، أضيف تواضع الناظر إليها ؛ كما قالت العرب : ناقة تاجرة : أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبرى عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار فى قوله : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ . وكما قال زيد الخيل :

لما أتى خبر الزبير تواضعت * سور المدينة والجبال الخشع

وذكر ابن بحر[(١)] أن الضمير فى قوله تعالى ؛ ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا ﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة أى من القلوب لما يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ ، والأول صحيح فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل ، كالذى روى عن الجذع الذى كان يستند اليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اذا خطب ، فلما تحول عنه حنّ . وثبت عنه أنه قال : «إن حجرا كان يسلم علىّ فى الجاهلية إنى لأعرفه الآن» .

---

(١) فى نسخة : «ابن عرز» .

وكما روى أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : « قال لى ثبير اهبط فإنى أخاف أن يقتلوك على ظهرى، فيعذبنى الله » . فناداه حراء إلىّ يا رسول الله . وفى التنزيل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ الآية . وقال : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ . يعنى تذللا وخضوعا . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى [سورة] سبحان، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . بغافل فى موضع نصب على لغة أهل الحجاز، وعلى لغة تميم فى موضع رفع . والباء توكيد . ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . أى عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم . ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ . ولا تحتاج ما الى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذى فيحذف العائد لطول الاسم أى عن الذى تعملونه . وقرأ ابن كثير يعملون بالياء، والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ الى قوله : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ . هذا استفهام فيه معنى الإنكار، كأنه أياسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود، أى إن كفروا فلهم سابقة فى ذلك . والخطاب لأصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذى كان بينهم . وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، عن ابن عباس، أى لا تحزن على تكذيبهم اياك، وأخبره عن أهل السوء الذين مضوا، وأن فى موضع نصب، أى فى أن يؤمنوا، نصب بأن ، ولذلك حذفت منه النون .

يقال : طَمِع فيه طمعا وطماعية مخفف فهو طَمِع، على وزن فَعِل . وأطمعه فيه غيره . ويقال فى التعجب : طمُع الرجل بضم الميم، أى صار كثير الطمع . والطَّمَع : رزق الجند، يقال : أمر لهم الأمير بأطماعهم، أى بأرزاقهم . وامرأة مطاع، تُطمِع ولا تُمكّن .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ . الفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وجمعه في أدنى العدد أفرقة ، وفي الكثير أفرقاء . ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ في موضع نصب خبر كان ، ويجوز أن يكون الخبر منهم ، ويكون يسمعون نعتا لفريق ؛ وفيه بعد ﴿ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ قراءة الجماعة ، وقرأ الأعمش كَلِمَ الله على جمع كلمة . قال سيبويه : واعلم أن ناسا من ربيعة يقولون مِنْهِم بكسر الهاء إتباعا لكسرة الميم ، ولم يكن المسكّن حاجزا حصينا عندهم . ﴿ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ مفعول بيسمعون . والمراد السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام ، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره ، وحرّفوا القول في إخبارهم لقومهم . هذا قول الربيع وابن إسحاق ، وفي هذا القول ضعف ؛ ومن قال : إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ وأذهب بفضيلة موسى واختصاصه بالتكليم . وقد قال السدي وغيره : لم يطيقوا سماعه ، واختلطت أذهانهم ورغبوا أن يكون موسى يسمع ويعيده لهم ؛ فلما فرغوا وخرجوا بدّلت طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيهم موسى عليه السلام ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾

فإن قيـل : فقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن قوم موسى سألوا موسى أن يسأل ربه أن يسمعهم كلامه فسمعوا صوتا كصوت الشَّبُّور[1] « إني أنا الله لا إله إلا أنا الحي القيوم أخرجتكم من مصر بيد رفيعة وذراع شديدة » .

قلت : هـذا حديث باطل لا يصح ، رواه ابن مروان عن الكلبي وكلاهما ضـعيف لا يحتج به ؛ وإنما الكلام شيء خُص به موسى من بين جميع ولد آدم ؛ فان كان كلّم قومه أيضا حتى أسمعهم كلامه فما فضـل موسى عليهم ؛ وقد قال وقوله الحق : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ . وهذا واضح .

(1) الشبور (على وزن التنور) : البوق .

الثالثة ــ واختلف الناس بماذا عرف موسى كلام الله ولم يكن سمع قبل ذلك خطابه؛ فنهم من قال : إنه سمع كلاما ليس بحروف وأصوات، وليس فيه تقطيع ولا نفس؛ فحينئذ علم أن ذلك ليس هو كلام البشر وإنما هو كلام رب العالمين . وقال آخرون : إنه لما سمع كلاما لا من جهة ؛ وكلام البشر يسمع من جهة من الجهات الست ، علم أنه ليس من كلام البشر . وقيل : إنه صار جسده كله مسامع حتى سمع بها ذلك الكلام؛ فعلم أنه كلام الله . وقيل : إن المعجزة دلت على أن ما سمعه هو كلام الله ، وذلك أنه قيل له : ألق عصاك ، فألقاها فصارت ثعبانا ؛ فكان ذلك علامة له على صدق الحال، وأن الذى يقول له : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ . هو الله جلّ وعزّ . وقيل : إنه قد كان أضمر فى نفسه شيئا لا يقف عليه إلا علام الغيوب فأخبره الله تعالى فى خطابه بذلك الضمير؛ فعلم أن الذى يخاطبه هو الله جل وعزّ . وسيأتى فى سورة القصص بيان معنى قوله تعالى : ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ . إن شاء الله تعالى .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ . قال مجاهد والسّدى : هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة فيجعلون الحرام حلالا والحلال حراما اتباعا لأهوائهم . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ . أى عرفوه وعلموه، وهذا توبيخ لهم أى أن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد، فهؤلاء على ذلك السنن فكيف تطمعون فى إيمانهم !

ودل هذا الكلام أيضا على أن العالم بالحق المعاند فيه بعيد من الرشد ، لأنه علم الوعد والوعيد ولم ينهه ذلك عن عناده .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ . هذا فى المنافقين؛ وأصل لقوا ، لقيوا قد تقدّم . ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ . الآية فى اليهود، وذلك أن ناسا منهم أسلموا

ثم نافقوا؛ فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عُذّب به آباؤهم ، فقالت لهم اليهود : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ . أي حكم الله عليكم من العذاب ليقولوا نحن أكرم على الله منكم . عن ابن عباس والسدى . وقيل : إن عليّا لما نازل قُريظة يوم خيبر سمع سبّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فانصرف إليه ، وقال يارسول الله : لا تبلغ إليهم وعرّض له ؛ فقال: أظنك سمعت شتمي منهم لو رأوني لكفُّوا عن ذلك؛ ونهض إليهم فلما رأوه أمسكوا؛ فقال لهم : نقضتم العهد يا أخوة القردة والخنازير، أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ! فقالوا : ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا، من حدّثك بهذا؟ ما خرج هذا الخبر إلا من عندنا ! روى هذا المعنى عن مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَا ﴾ . الأصل فى خلا ، خَلَوَ قلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ وتقدّم معنى خلا فى أوّل السورة . ومعنى فتح : حكم . والفتح عند العرب : القضاء والحكم؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ ﴾. أى الحاكمين . والفتاح : القاضي بلغة اليمن؛ يقال : بيني و بينك الفتاح . قيل ذلك لأنه ينصر المظلوم على الظالم . والفتح : النصر؛ ومنه قوله : ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . وقوله : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ . ويكون بمعنى الفرق بين الشيئين .

قوله تعالى : ﴿ لِيُحَاجُّوكُم ﴾ . نصب بلام كى، وإن شئت بإضمار أن، وعلامة النصب حذف النون . قال يونس : وناس من العرب يفتحون لام كى . قال الأخفش : لأن الفتح الأصل . قال خلف الأحمر : هى لغة بنى العنبر . ومعنى ليحاجوكم ليعيّروكم و يقولوا نحن أكرم على الله منكم . وقيل : المعنى ليحتجوا عليكم بقولكم ؛ يقولون كفرتم به بعد أن وقفتم على صدقه . وقيل : إن الرجل من اليهود كان يلقى صديقه من المسلمين فيقول له : تمسك بدين محمد فإنه نبىّ حقا . ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ . قيل فى الآخرة كما قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ

تختصمون ﴾ . وقيل : عند ذكر ربكم . وقيل : عند، بمعنى فى أى ليحاجكم به فى ربكم؛ فيكونوا أحق به منكم لظهور الحجة عليكم . روى عن الحسن . والحجة الكلام المستقيم على الإطلاق؛ ومن ذلك محجة الطريق . وحاججت فلانا فحججته أى غلبته بالحجة؛ ومنه الحديث : "فحج آدم موسى" . ﴿ أفلا تعقلون ﴾ . قيل : هو من قول الأحبار للاتباع . وقيل : هو خطاب من الله تعالى للمؤمنين على أفلا تعقلون أن بنى إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال؛ ثم وبخهم توبيخا يتلى فقال : ﴿ أولا يعلمون ﴾ الآية . فهو استفهام معناه التوبيخ والتقريع . وقرأ الجمهور يعلمون بالياء؛ وابن محيصن بالتاء ؛ خطابا للمؤمنين . والذى أسروه كفرهم ؛ والذى أعلنوه الجحد به .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ . فيه أربع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ ومنهم أميون ﴾ . أى من اليهود . وقيل : من اليهود والمنافقين أميون، أى من لا يكتب ولا يقرأ؛ واحدهم أمى منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادات أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها؛ ومنه قوله عليه السلام : «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» الحديث . وقيل : قيل لهم أميون لأنهم لم يصدقوا بأم الكتاب . عن ابن عباس . وقال أبو عبيدة : إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا الى أم الكتاب ؛ فكأنه قال : ومنهم أهل الكتاب لا يعلمون . عكرمة والضحاك : هم نصارى العرب . وقيل : هم قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين . على رضى الله عنه : هم المجوس .

قلت : والقول الأول أظهر ، والله أعلم .

الثانية ـ قوله تعالى : ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ . إلا ههنا بمعنى لكن، فهو استثناء منقطع كقوله تعالى : ﴿ وما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ . وقال النابغة :

حلفت يمينا غير ذى مثنوية * ولا علم إلا حسن ظن بصاحب

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج إلا أمانى خفيفة الياء، حذفوا إحدى الياءين استخفافا . قال أبو حاتم : كل ما جاء من هذا النحو واحده مشدّد فلك فيه التشديد والتخفيف؛ مثل أثافى وأغانى وأمانى ونحوه . وقال الأخفش : هذا كما يقال فى جمع مفتاح : مفاتيح ومفاتح وهى ياء الجمع . قال النحاس : الحذف فى المعتل أكثر؛ كما قال الشاعر :

وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى * ثلاث الأثافى والرسوم البلاقع

والأمانى جمع أمنية وهى التلاوة ؛ وأصلها أُمْنُويَة على وزن أفعولة فادغمت الواو فى الياء فانكسرت النون من أجل الياء فصارت أمنية؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ . أى اذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته . وقال كعب بن مالك :

تمنّى كتاب الله أوّل ليله * وآخره لاقى حِمامَ المقادر

وقال آخر :

تمنّى كتاب الله آخر ليله * تمنّيَ داودَ الزّبورَ على رِسْلِ

والأمانى أيضا الأكاذيب؛ ومنه قول عثمان رضى الله عنه : ما تمنّيتُ منذ أسلمت . أى ما كذبت . وقول بعض العرب لابن دأب وهو يحدّث : أهذا شيء رَوَيته أم شيء تمنّيته؟ أى افتعلته . وبهذا المعنى فسّر ابن عباس ومجاهد أمانىّ فى الآية . والأمانىّ أيضا ما يتمنّاه الإنسان ويشتهيه . قال قتادة : إلا أمانىّ يعنى أنهم يتمنون على الله ما ليس لهم . وقيل : الأمانى المقدّرات؛ يقال: منى له أى قدر. قاله الجوهرى، وحكاه ابن بحر وأنشد قول الشاعر:

لا تأمننّ وإن أمسيت فى حَرَمٍ * حتى تُلاقىَ ما يَمْنِى لك المانى

أى يقدّر لك المقدّر .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ . إن بمعنى ما النافية ؛ كما قال تعالى ﴿ إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ : و يظنون ، يكذبون و يحدثون ، لأنه لا علم لهم بصحة ما يتلون و إنما هم مقلدون لأحبارهم فيما يقرءون به .

قال أبو بكر الانبارى : وقد حدّثنا أحمد ابن يحيى النحوى أن العرب تجعل الظنّ علما وشكا وكذبا ، وقال : إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظنّ يقين ؛ ٨٦
و إذا اعتدلت براهين اليقين و براهين الشك فالظن شك ، و إذا زادت براهين الشك على براهين اليقين فالظن كذب . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ . أراد إلا يكذبون .

الرابعة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : نعت الله تعالى أحبارهم بأنهم يبدلون ويحرفون فقال وقوله الحق : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ الآية . وذلك أنه لما درس الأمر فيهم ، وساءت رعيّة علمائهم ، وأقبلوا على الدنيا حرصا وطمعا ، طلبوا أشياء تصرف وجوه الناس اليهم ، فأحدثوا فى شريعتهم وبدلوها ، وألحقوا ذلك بالتوراة ، وقالوا لسفهائهم : هذا من عند الله ؛ ليقبلوها عنهم فتتأكد رئاستهم وينالوا به حطام الدنيا وأوساخها ؛ وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل . وهم العرب ؛ أى ما أخذنا من أموالهم فهو حلّ لنا . وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : لا يضرنا ذنب فنحن أحباؤه وأبناؤه . تعالى الله عن ذلك . و إنما كان فى التوراة "يا أحبارى و يا أبناء رسلى" فغيّروه وكتبوا "يا أحبائى و يا أبنائى" فأنزل الله تكذيبهم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ . فقالت : لن يعذّبنا الله ، و إن عذّبنا فأربعين يوما مقدار أيام العجل . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ . قال ابن مقسم : يعنى توحيدا بدليل قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ يعنى لا إله إلا الله ﴿ فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ثم أكذبهم فقال : ﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ

أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ . فبيّن تعالى أن الخلود فى النار والجنة إنما هو بحسب الكفر والإيمان لا بما قالوه .

قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله : ﴿فويل﴾(1) . اختلف فى الويل ما هو؛ فروى عثمان بن عفّان عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه جبل من نار . وروى أبو سعيد الخدريّ أن الويل واد فى جهنم بين جبلين يهوى فيه الهاوى أربعين خريفا . وروى سفيان وعطاء بن يسار : أن الويل فى هذه الآية وادٍ يجرى بفناء جهنم من صديد أهل النار . وقيل : صهريج فى جهنم . وحكى الزهراوى عن آخرين : أنه باب من أبواب جهنم .

وعن ابن عباس : الويل المشقة من العذاب .

وقال الخليل : الويل شدّة الشر . الأصمعى : الويل تفجع . والويح ترحم . سيبويه : ويل لمن وقع فى الهلكة، وويح زجر لمن أشرف على الهلكة . ابن عرفة : الويل الحزن ؛ يقال : تويّل الرجل إذا دعا بالويل؛ وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه ؛ ومنه قوله : ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ . وقيل : أصله الهلكة، وكل من وقع فى هلكة دعا بالويل؛ ومنه قوله تعالى : ﴿يا ويلتنا مال هذا الكتاب﴾ . وهى الويل والويلة، وهما الهلكة والجمع الويلات؛ قال :

* له الويل إن أمسى ولا أم هاشم *

وقال أيضا :

* فقالت لك الويلات إنك مرجلي *

وارتفع ويل بالابتداء، وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لأن فيه معنى الدعاء . قال الأخفش : ويجوز النصب على إضمار فعل أى ألزمهم الله ويلا . وقال الفراء : الأصل فى الويل وَىْ أى حزن؛ كما تقول : وى لفلان أى حزن له ؛ فوصلته العرب باللام وقدّروها

(1) قال أبو حيان فى البحر المحيط : لو صح فى تفسير الويل شئ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجب المصير إليه وقد تكلمت العرب فى نظمها ونثرها بلفظ الويل قبل أن يجىء القرآن ولم تطلقه على شئ من هذه التفاسير وإنما مدلوله ما فسره به أهل اللغة .

منه فأعربوها . والأحسن فيه اذا فصل عن الإضافة الرفع، لأنه يقتضي الوقوع ؛ ويصح النصب على معنى الدعاء كما ذكرنا .

قال الخليل : ولم يسمع على بنائه إلا ويح وويس وويه وويك وويب ؛ وكله يتقارب في المعنى . وقد فرق بينها قوم ؛ وهي مصادر لم تنطق العرب منها بفعل . قال الجرمي : ومما ينتصب انتصاب المصادر ويله وعوله وويحه وويسه ، فاذا أدخلت اللام رفعت فقلت : ويل له وويح له .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ﴾ . الكتابة معروفة .

وأول من كتب بالقلم وخط به إدريس عليه السلام جاء ذلك في حديث أبي ذرّ خرجه الآجري وغيره . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أعطي الخط فصار وراثة في ولده .

الثالثة ــ قوله تعالى ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ . تأكيد؛ فإنه قد عُلم أن الكَتْب لا يكون إلا باليد فهو مثل قوله : ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ . وقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ . وقيل : فائدة بأيديهم بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم، فإن من تولّى الفعل أشدّ مواقعة ممن لم يتوله وإن كان رأيا له . وقال ابن السّراج : بأيديهم كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم وإن لم تكن حقيقة من كَتْب أيديهم .

الرابعة ــ في هذه الآية والتي قبلها التحذير من التّبديل والتّغيير والزيادة في الشرع ؛ فكل من بدّل وغيّر أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم ؛ وقد حذّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمته لما قد علم ما يكون في آخر الزمان فقال : « ألا إنّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » الحديث وسيأتي . فحذّرهم أن يُحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله أو سنته أو سنة أصحابه فيضلوا به الناس؛ وقد وقع ما حذره وشاع، وكثر وذاع ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ . وصف الله تعالى ما يأخذونه بالقلة إما لفنائه وعدم ثباته ، وإما لكونه حراما ، لأن الحرام لا بركة فيه، ولا يربو عند الله . قال

ابن إسحاق والكلبي : كانت صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في كتابهم رَبْعة أسمر، فجعلوه آدم سَبْطا طويلا وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبيّ صلّى الله عليه وسلم الذى يبعث في آخر الزمان ليس يشبهه نعت هذا . وكانت للأحبار والعلماء رئاسة ومكاسب؛ فخافوا إن بيّنوا أن تذهب مآكلهم ورئاستهم؛ فمن ثَمّ غيّروا .

ثم قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ . قيل من المآكل . وقيل من المعاصي . وكرر الويل تغليظا لفعلهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ الآية . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ . يعني اليهود . ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ . اختلف في سبب نزولها؛ فقيل : إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لليهود : «مَن أهل النار» . قالوا : نحن ثم تخلفونا أنتم . فقال : «كذبتم لقد علمتم أنا لا نخلفكم» . فنزلت هذه الآية . قاله ابن زيد[1] . وقال عكرمة عن ابن عباس : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ويهود تقول : إنما هذه الدنيا سبعة آلاف وإنما يعذب الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام . فأنزل الله الآية؛ وهذا قول مجاهد . وقالت طائفة : قالت اليهود إن في التوراة أن جهنم مسيرة أربعين سنة وأنهم يقطعون في كل يوم سنة حتى يكملوها وتذهب جهنم . ورواه الضحاك عن ابن عباس . وعن ابن عباس : زعم اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوبا أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم . قالوا : إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك . وعن ابن عباس أيضا وقتادة : أن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوما عدد عبادتهم العجل؛ فأكذبهم الله كما تقدم .

الثانية — في هذه الآية ردّ على أبي حنيفة وأصحابه حيث استدلوا بقوله عليه السلام : «دعي الصلاة أيام أقرائك» . في أن مدة الحيض ما يسمى أيام الحيض، وأقلها ثلاثة وأكثرها

(١) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

عشرة . قالوا : لأن ما دون الثلاثة يسمى يوما و يومين ، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوما ولا يقال فيه أيام ، وإنما يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ . ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ . ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ .

فيقال لهم : فقد قال الله تعالى في الصوم : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ . يعني جميع الشهر؛ وقال : ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ . يعني أربعين يوما ؛ وأيضا فإذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يُرَد به تحديد العدد، بل يقال : أيام مشيك وسفرك وإقامتك، وإن كان ثلاثين وعشرين وما شئت من العدد ؛ ولعله أراد ما كان معتادا لها ، والعادة ست أو سبع ؛ فخرج الكلام عليه ، والله أعلم .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ ﴾ . تقدم القول في اتخذ فلا معنى لإعادته . ﴿ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ . أي أسلفتم عملا صالحا فآمنتم وأطعتم فتستوجبون بذلك الخروج من النار! أو هل عرفتم ذلك بوحيه الذي عهده إليكم ! ﴿ فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ قولان . ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . توبيخ .

قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ بَلَى ﴾ . أي ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيبويه : ليس بلى ونعم اسمين، وإنما هما حرفان مثل بل وغيره؛ وهي رد لقولهم : لن تمسنا النار . وقال الكوفيون : أصلها بل التي للإضراب عن الأول، زيدت عليها الياء ليحسن الوقف عليها ، وضمنت الياء معنى الإيجاب . فبل تدل على رد الجحد، والياء تدل على الإيجاب لما بعد . قالوا : ولو قال قائل : ألم تأخذ دينارا؟ فقلت : نعم؛ لكان المعنى لا لم آخذ؛ لأنك حققت النفي وما بعده . فإذا قلت : بلى ؛ صار المعنى قد أخذت . قال الفراء : إذا قال الرجل لصاحبه : مالك عليَّ شيء؛ فقال الآخر: نعم، كان ذلك تصديقا لأن لا شيء له عليه؛ ولو قال: بلى كان ردًّا لقوله؛ وتقديره بلى لي عليك؛ وفي التنزيل : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ . ولو قالوا نعم لكفروا .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿سَيِّئَةً﴾ . السيئة الشرك . قال ابن جريج : قلت لعطاء من كسب سيئة ؟ قال : الشرك ، وتلا ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ . وكذا قال الحسن وقتادة . قالا : والخطيئة الكبيرة .

الثالثـة — لما قال تعالى : ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ . دل على أن المعلّق على شرطين لا يتم بأقلهما ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ . وقوله عليه السلام لسفيان بن عبد الله الثقفي وقد قال له : يارسول الله ، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » . رواه مسلم . وقد مضى القول في هذا المعنى وما للعلماء فيه ، عند قوله تعالى لآدم وحواء : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ . وقرأ نافع خطيئاته بالجمع . الباقون بالإفراد ، والمعنى الكثرة مثل قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ . الآية . فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ . تقدّم الكلام في بيان هذه الألفاظ . واختلف في الميثاق هنا ، فقال مكّي : هو الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر . وقيل : هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على ألسنة أنبيائهم وهو قوله : ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ . وعبادة الله إثبات توحيده ، وتصديق رسله ، والعمل بما أنزل في كتبه .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ . قال سيبويه : لا تعبدون متعلق بقسم ؛ والمعنى وإذ استحلفناهم والله لا تعبدون ؛ وأجازه المبرّد والكسائي والفراء . وقرأ أُبَيّ وابن مسعود لا تعبدوا على النهي ، ولهذا وصل الكلام بالأمر فقال : ﴿وَقُومُوا . وَقُولُوا . وَأَقِيمُوا . وَآتُوا﴾ . وقيل : هو في موضع الحال أي أخذنا ميثاقهم موحدين أو غير معاندين . قاله قطرب والمبرد أيضا . وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي يعبدون بالياء من أسفل . وقال الفراء والزجاج وجماعة : المعنى أخذنا ميثاقهم بألا يعبدوا إلا الله ، وبأن يحسنوا للوالدين ،

و بأن لا يسفكوا الدماء؛ ثم حذفت أن والباءُ فارتفع الفعل لزوالها كقوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي ﴾ . قال المبرد : هذا خطأ لأن كل ما أضمر في العربية يعمل عمله مظهرا تقول : وبلدٍ قطعت أى رب بلد .

قلت : ليس هذا بخطإ بل هما وجهان صحيحان وعليهما أنشد سيبويه :

ألا أيُّهذا الزاجري أحضر الوغى * وأن أحضر اللذات هل أنت مُخْلِدِي

بالنصب والرفع فالنصب على إضمار أن والرفع على حذفها .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ . أى وأمرناهم بالوالدين إحسانا . وقرن الله عزّ وجلّ فى هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثانى وهو التربية من جهة الوالدين ، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ . والإحسان إلى الوالدين، معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتثال أمرهما، والدعاء بالمغفرة لهما بعد مماتهما، وصلة أهل ودّهما . على ما يأتى بيانه مفصلا فى الإسراء إن شاء الله تعالى .

الرابعة ـ قوله تعالى : ﴿ وَذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ . عطف ذى القربى على الوالدين ؛ والقربى بمعنى القرابة وهو مصدر كالرجعى والعقبى، أى وأمرناهم بالإحسان إلى القرابات بصلة أرحامهم . وسيأتى بيان هذا مفصّلا فى سورة القتال إن شاء الله تعالى .

الخامسة ـ قوله تعالى : ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ . اليتامى عطفٌ أيضا وهو جمع يتيم مثل ندامى جمع نديم . واليُتْمُ فى بنى آدم بفقد الأب، وفى البهائم بفقد الأم . وحكى الماوردى أن اليتيم يقال فى بنى آدم فى فقد الأم؛ والأوّل المعروف . وأصله الانفراد؛ يقال : صبي يتيم أى منفرد من أبيه . وبيت يتيم أى ليس قبله ولا بعده شيء من الشعر . ودرّة يتيمة ليس لها نظير . وقيل : أصله الإبطاء فسمى به اليتيم لأن البرّ يبطئ عنه؛ ويقال : يَتُمَ يَيْتُمُ يُتْمًا مثل عظُم يعظُم، ويَتِم يَيْتَم يُتْمًا ويَتَمًا مثل سمِع يسمع . ذكر الوجهين الفرّاء . وقد أيتمه الله .

ويدل هذا على الرأفة باليتيم والحض على كفالته وحفظ ماله ، على ما يأتى بيانه فى النساء . وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة » . وأشار مالك بالسبابة والوسطى ؛ رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وخرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث الحسن بن دينار أبى سعيد البصرىّ وهو الحسن بن واصل[1] قال حدّثنا الأسود بن عبد الرحمن عن مصّان عن أبى موسى الأشعرى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : « ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم فيقرب قصعتهم الشيطان » . وخرج أيضا من حديث حسين بن قيس وهو أبو على الرّحبىّ[2] عن عكرمة عن ٱبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ضم يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله عزّ وجلّ غُفرت له ذنوبه البتّة إلا أن يعمل عملا لا يغفر ومن أذهب الله كريمتيه فصبر واحتسب غفرت له ذنوبه » قالوا : وما كريمتاه ؟ قال : « عيناه ومن كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يَبِنّ أو يمتن غفرت له ذنوبه البتّة إلا أن يعمل عملا لا يغفر » فناداه رجل من الأعراب ممن هاجر فقال : يا رسول الله أو اثنتين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو « اثنتين » . فكان ابن عباس اذا حدّث هذا الحديث : قال هذا والله من غرائب الحديث وغرره .

السادسة — السبّابة من الأصابع هى التى تلى الإبهام وكانت فى الجاهلية تدعى بالسبّابة لأنهم كانوا يسبّون بها ؛ فلما جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الاسم فسمّوها المشيرة لأنهم كانوا يشيرون بها الى الله فى التوحيد . وتسمى أيضا بالسباحة جاء تسميتها بذلك فى حديث وائل بن حُجر وغيره ؛ ولكن اللغة سارت بما كانت تعرفه فى الجاهلية فغلبت . وروى عن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى ، ثم البنصر أقصر من الوسطى . روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا عبد الله بن مِقْسم الطائفىّ قال حدّثتنى عمتى سارة بنت مِقْسم أنها سمعت ميمونة بنت كَرْدم[3] قالت : خرجت فى حجة

---

(١) لأنه ربيب دينار . (٢) الرحبىّ ، بفتح الراء والحاء المهملتين وباء موحدة : نسبة الى رحبة مالك بن طوق قرب حلب . (٣) كردم ، على وزن جعفر .

حجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على راحلته وسأله أبي عن أشياء، فلقد رأيتني أتعجّب وأنا جارية من طول أصبعه التي تلي الابهام على سائر أصابعه. فقوله عليه السلام: «أنا وهو كهاتين في الجنة». وقوله في الحديث الآخر: «أحشر أنا وأبو بكر وعمر يوم القيامة هكذا». وأشار بأصابعه الثلاث فانما أراد ذكر المنازل والإشراف على الخلق فقال: نحشر هكذا، ونحن مشرفون، وكذا كافل اليتيم تكون منزلته رفيعة. فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل تأويل الحديث على الانضمام والاقتراب بعضهم من بعض في محل القربة؛ وهذا معنى بعيد، لأن منازل الرّسل والنبيين والصّديقين والشّهداء والصّالحين مراتبُ متباينة ومنازلُ مختلفة.

السابعة — قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾. المساكين عطفٌ أيضا أي وأمرناهم بالإحسان إلى المساكين؛ وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم. وهذا يتضمن الحضّ على الصدقة والمؤاساة وتفقّد أحوال المساكين والضعفاء. روى مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله — وأحسبه قال — وكالقائم لا يفتُر[1] وكالصائم لا يُفطِر». قال ابن المنذر: وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله.

الثامنة — قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾. حسنا نصب على المصدر على المعنى لأن المعنى ليحسن قولكم. وقيل: التقدير وقولوا للناس قولا ذا حسن؛ فهو مصدر لا على المعنى. وقرأ حمزة والكسائي حسنا بفتح الحاء والسين. قال الأخفش: هما بمعنى واحد؛ مثل البُخل والبَخَل، والرُّشد والرَّشَد. وحكى الأخفش: حسنى بغير تنوين على فعلى. قال النحاس: وهذا لا يجوز في العربية، لا يقال من هذا شيء إلا بالألف واللام نحو الفضلى والكبرى والحسنى، هذا قول سيبويه. وقرأ عيسى بن عمر حسنا بضمتين مثل الحلم. قال ابن عباس: المعنى قولوا لهم لا إله إلا الله ومروهم بها. ابن جريج: قولوا للناس صدقا

(١) كذا في نسخ صحيح مسلم. والذي في نسخ الأصل: "لا يفتر من صلاة ... الخ".

فى أمر محمد صلّى الله عليه وسلّم ولا تغيّروا نعته . سفيان الثورى : مُرُوهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر . أبو العالية : قولوا لهم الطيب من القول، وجازوهم بأحسن ما يحبون أن يجازوا به . وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغى للإنسان أن يكون قوله للناس ليّنا ووجهه منبسطا طلقا مع البر والفاجر والسنىّ والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضى مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ . فالقائل ليس بأفضل من موسى وهرون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون وقد أمرهما الله تعالى باللّين معه . وقال طلحة بن عمر : قلت لعطاء إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فىّ حدّة فأقول لهم بعض القول الغليظ، فقال : لا تفعل، يقول الله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ . فدخل فى هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفى . وروى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال لعائشة : "لا تكونى فحّاشة فإن الفحش لو كان رجلا لكان رجل سوء" . وقيل أراد بالناس محمدا صلّى الله عليه وسلّم كقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . فكأنه قال : قولوا للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم حسنا . وحكى المهدوىّ عن قتادة أن قوله : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ . منسوخ بآية السيف . وحكاه أبو نصر عبد الرحيم(١) عن ابن عباس . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى الابتداء ثم نسختها آية السيف . قال ابن عطيّة : وهذا يدل على أن هذه الأمة خوطبت بمثل هذا اللفظ فى صدر الإسلام؛ وأما الخبر عن بنى إسرائيل وما أمروا به فلا نسخ فيه والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ . تقدّم القول فيه . والخطاب لبنى إسرائيل . قال ابن عطية : وزكاتهم هى التى كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يُتقبّل، ولا تنزل على ما لم يُتقبّل ولم تكن كزكاة أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم .

قلت : وهذا يحتاج الى نقل كما ثبت ذلك فى الغنائم . وقد روى عن ابن عباس أنه قال : الزكاة التى أمروا بها طاعة الله والإخلاص .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : «عبد الرحمن» .

العاشرة ـ قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ . الخطاب لمعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأسند اليهم تولى أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل ، فى إعراضهم عن الحق مثلهم ، كما قال : «شِنْشِنة أعرفها من أخزم» ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ . أبو عبد الله بن سلام وأصحابه . وقليلا نصب على الاستثناء ، والمستثنى عند سيبويه منصوب لأنه مشبه بالمفعول . وقال محمد بن يزيد : هو مفعول على الحقيقة ، المعنى استثنيت قليلا . ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ . ابتداء وخبر ، والإعراض والتولى بمعنى واحد مُخَالَف بينهما فى اللفظ . وقيل : التولى بالجسم ، والإعراض بالقلب . قال المهدوى : وأنتم معرضون حال ، لأن التولى فيه دلالة على الإعراض .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ـ قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ . تقدم القول فيه . ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ . المراد بنو اسرائيل ، ودخل فيه بالمعنى من بعدهم . لاتسفكون مثل لاتعبدون فى الإعراب . وقرأ طلحة بن مصرف وشعيب بن أبى حمزة بضم الفاء وهى لغة ، وأبو نهيك تُسَفِّكون بضم التاء وتشديد الفاء وفتح السين . والسفك : الصب . وقد تقدم . ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ﴾ . معطوف . ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ . النفس مأخوذة من النفاسة ، فنفس الإنسان أشرف مافيه . والدار : المنزل الذى فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال . وقال الخليل : كل موضع حله قوم فهو دار لهم وإن لم تكن فيه أبنية . وقيل : سميت دارا لدورها على سكانها كما سمى الحائط حائطا لإحاطته على مايحويه . و ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ . من الإقرار أى بهذا الميثاق الذى أخذ عليكم وعلى أوائلكم . ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ . من الشهادة أى شهداء بقلوبكم على هذا . وقيل : الشهادة بمعنى الحضور أى تحضرون سفك دمائكم وإخراج أنفسكم من دياركم .

الثانية ـ فان قيل : وهل يسفك أحد دمه ويخرج نفسه من داره ؟ قيل له : لما كانت ملتهم واحدة وأمرهم واحد وكانوا فى الأمم كالشخص الواحد جعل قتل بعضهم بعضا وإخراج بعضهم بعضا قتلا لأنفسهم ونفيا لها . وقيل : المراد القصاص أى لا يقتل

أحد فيقتل قصاصا فكأنه سفك دمه، وكذلك لا يزنى ولا يرتد فان ذلك يبيح الدم، ولا يفسد فينفى، فيكون قد أخرج نفسه من دياره . وهذا تأويل فيه بعد وإن كان صحيح المعنى .

وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة ميثاقا ألا يقتل بعضهم بعضا ولا ينفيه ولا يسترقه ولا يدعه يسرق الى غير ذلك من الطاعات .

قلت : وهـذا كله محرم علينا وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا فانا لله وإنا اليـه راجعون . وفى التنزيل ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾. وسيأتى . قال ابن خويز منداد : وقد يجوز أن يراد به الظاهر، ولا يقتل الإنسان نفسه ولا يخرج من داره سفها كما تقتل الهند أنفسها، ويقتل الإنسان نفسه من جهد وبلاء يصيبه، أو يهيم فى الصحراء ولا يأوى البيوت جهلا فى ديانته وسفها فى حلمه؛ فهو عموم فى جميـع ذلك؛ وقد روى أن عثمان بن مظعون بايع فى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فعزموا أن يلبسوا المسوح، وأن يهيموا فى الصحراء ولا يأووا البيوت، ولا يأكلوا اللحم ولا يغشوا النساء ؛ فبلغ ذلك النبيّ صـلّى الله عليه وسلّم فجاء إلى دار عثمان بن مظعون فلم يجده فقال لامرأته : «ما حديث بلغنى عن عثمان» وكرهت أن تفشى سر زوجها وأن تكذب رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فقالت : يارسول الله، إن كان قـد بلغك شىء فهو كما بلغك ؛ فقال : « قولى لعثمان أخلاف لسنتى أم على غير ملتى إنى أصلّى وأنام وأصوم وأفطر وأغشى النســاء وآوى البيوت وآكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى» فرجع عثمان وأصحابه عما كانوا عليه .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ . أنتم فى موضـع رفع بالابتداء، ولا يعرب لأنه مضمر وضمت التاء من أنتم لأنهـا كانت مفتوحة إذا خاطبت واحدا مذكرا، ومكسورة إذا خاطبت واحدة مؤنثة فلما ثنيت أو جمعت لم يبق إلا الضمة . ﴿هَؤُلَاءِ﴾ قال القتبى: التقدير ياهؤلاء. قال النحاس : هذا خطأ على قول سيبويه ولا يجوز هـذا أقبل . وقال الزجاج : هؤلاء بمعنى الذين . ﴿تَقْتُلُونَ﴾ داخل فى الصلة أى ثم أنتم الذين تقتلون . وقيل : هؤلاء رفع بالابتداء، وأنتم خبر مقدم، وتقتلون حال من أولاء . وقيل : هؤلاء نصب بإضمار أعنى . وقرأ الزهرى

تقتّلون بضم التاء مشــدّدا ، وكذلك ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللّهِ ﴾ . وهذه الآية خطاب للواجهين لا يحتمل ردّه الى الأسلاف . نزلت فى بنى قينُقاع وقُريظة والنّضير من اليهود ؛ وكانت بنو قينقاع أعداء قريظــة ، وكانت الأوس حلفاء بنى قينقاع ، والخزرج حلفاء بنى قريظة، والنضير والأوس والخزرج إخوان، وقريظة والنضير أيضا إخوان ثم افترقوا فكانوا يقتتلون ثم يرتفع الحرب فيفدون أساراهم ؛ فعيرهم الله بذلك فقال : ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ ﴾ .

قوله تعالى . ﴿ تَظَاهَرُونَ ﴾ . معنى تظاهرون تتعاونون، مشتق من الظهر لأن بعضهم يقوى بعضا فيكون له كالظهر ؛ ومنه قول الشاعر :

تظاهرتم أستاه بيت تجمعت [(١)] * على واحد لا زلتم قرن واحد

والإثم : الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم . والعدوان : الإفراط فى الظلم والتجاوز فيــه . وقرأ أهل المدينة وأهل مكة تظاهرون بالتشديد، يدغمون التاء فى الظاء لقربها منها؛ والأصل تتظاهرون . وقرأ الكوفيون تظاهرون مخففا حذفوا التاء الثانية لدلالة الأولى عليها؛ وكذا : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْــهِ ﴾ . وقرأ قتادة تظهرون عليهم؛ وكله راجع الى معنى التعاون؛ ومنه : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ . فاعلمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ ﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله . ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى ﴾ . شرط وجوابه تفادوهم . وأسارى نصب على الحال : قال أبو عبيد : وكان أبو عمرو يقول : ما صار فى أيديهم فهم الأسارى ، وما جاء مستأسرا فهم الأسرى . ولا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو؛ وإنما هو كما تقول : سكارى وسكرى . وقراءة الجماعة أسارى، ما عدى حمزة فإنه قرأ أسرى على فعلى جمع أسير بمعنى مأسور والباب فى تكسيره إذا كان كذلك فَعلى كما تقول : قتيل وقتلى، وجريح وجرحى . قال أبو حاتم: ولا يجوز أسارى . وقال الزجاج : يقال أسارى كما يقال سكارى، وفُعالى هو الأصل وفَعالى

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى البعض الآخر : « ... أستاه قوم ... الخ » . وقــد وردت رواية البيت فى تفسير الشوكانى هكذا :

* تظاهرتم من كل أوب ووجهة ... الخ *

داخلة عليها . وحكى عن محمد بن يزيد قال : يقال أسير وأسرى وأسارى ؛ وقرئ بهما . وقيل: أسارى بفتح الهمزة وليست بالعالية .

الثانيــة ــ الأسير مشتق من الإسار وهو القدّ الذى يشد به المحمل فسمى أسيرا لأنه يشدّ وثاقه ؛ والعرب تقول : قد أسر قتبه أى شدّه ؛ ثم سمّى كل أخيذ أسيرا وإن لم يؤسر ؛ وقال الأعشى :

وقيدنى الشعر فى بيته * كما قيد الآسرات الحمارا

أى أنا فى بيته ؛ يريد بذلك بلوغه النهاية فيه . فأمّا الأسر فى قوله عز وجل : ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ . فهو الخلق . وأسرة الرجل : رهطه لأنه يتقوى بهم .

الثالثــة ــ قرأ نافع وحمزة والكسائى تفادوهم . والباقون تفدوهم من الفداء . والفداء طلب الفدية من الأسير الذى فى أيديهم . قال الجوهرى : الفداء إذا كسرت أوله يمد ويقصر ، وإذا فتح فهو مقصور ؛ يقال : قم فدًى لك أبى . ومن العرب من يكسر فداء بالتنوين إذا جاور لام الجر خاصة ؛ فتقول : فداء لك لأنه نكرة يريدون به معنى الدعاء ؛ وأنشد الأصمعى للنابغة :

مَهْلًا فداء لك الأقوامُ كلّهمُ * وما أُثَمِّــرُ من مال ومن ولدِ

ويقال : فَداه وفاداه إذا أعطى فِداءه فأنقذه . وفَدّاه بنفسه . وفدّاه تفدية إذا قال جعلت فداءك . وتفادوا أى فدى بعضهم بعضا . والفِدية والفَدَى والفِداء كله بمعنى واحد . وفاديت نفسى إذا أطلقتها بعد أن دفعت شيئا بمعنى فديت ؛ ومنه قول العباس للنبىّ صلى الله عليه وسلم : فاديت نفسى وفاديت عقيلا . وهما فعلان يتعديان الى مفعولين الثانى منهما بحرف الجر ؛ تقول : فديت نفسى بمالى وفاديته بمالى ؛ قال الشاعر :

فلو كان ميتا يفتدى لفديته * بما لم تكن عنه النفوس تطيب

فقتى فادى أسيرك إن قومى * وقومك ما أرى لهم اجتماعا

الرابعــة ــ قوله : ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ . هو مبتدأ وهو كناية عن الإخراج ، ومحرّم خبره ؛ وإخراجهم بدل من هو وإن شئت كان كناية عن الحديث والقصة ، والجملة التى بعده خبره أى والأمر محرّم عليكم إخراجهم ؛ فإخراجهم مبتدأ ثان ومحرم خبره والجملة

خبر عن هو ؛ وفى محرم ضمير مالم يسم فاعله يعود على الإخراج ؛ ويجوز أن يكون محرم مبتدأ ، و إخراجهم مفعول مالم يسم فاعله يسد مسد خبر محرم ، والجملة خبر عن هو . وزعم الفراء أن هو عماد ؛ وهـذا عند البصريين خطأ لا معنى له ، لأن العماد لا يكون فى أول الكلام . ويقرأ وهو بسكون الهاء لثقل الضمة ؛ كما قال الشاعر :

فَهْو لا تنمى رميته * ماله لا عُدَّ من نفره

وكذلك إن جئت باللام وثم ؛ وقـد تقدّم . قال علماؤنا : كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أساراهم ؛ فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفـداء ؛ فوبخهم الله على ذلك توبيخا يتلى فقال : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ ﴾ . وهو التوراة ﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ .

قلت : ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض ! ليت بالمسلمين ، بل بالكافرين ، حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجرى عليهم حكم المشركين فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال علماؤنا : فداء الأسارى واجب و إن لم يبق درهم واحد . قال ابن خويز منـداد : تضمنت الآية وجوب فك الأسرى ، وبذلك وردت الآثار عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه فك الأسارى وأمر بفكهم ، وجرى بذلك عمـل المسلمين وانعقد به الإجماع . ويجب فك الأسـارى من بيت المـال ، فإن لم يكن فهو فرض على كافة المسـلمين ؛ ومن قام به منهـم أسقط الفرض عن الباقين . وسيأتى .

الخامسة ــ قوله : ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ . ابتداء وخبر . والخزى : الهوان . قال الجوهرى : وخزِىَ بالكسر يخزَى خزيا إذا ذل وهان . قال ابن السكيت : وقع فى بلية وأخزاه الله . وخزى أيضا يخزى خزاية اذا استحيا فهو خزيان . وقوم خزايا وامرأة خزيا .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . يردون بالياء قراءة العامة ، وقرأ الحسن تردون بالتاء على الخطاب . ﴿ إِلَىٰٓ أَشَدِّ

ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . تقدم القول فيه، وكذلك: ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ﴾ . الآية ، فلا معنى للإعادة . ويوم ، منصوب بيردون .

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ ﴾ . يعني التوراة . ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ . أي أتبعنا . والتقفية : الإتباع والإرداف مأخوذ من إتباع القفا وهو مؤخر العنق ، تقول : استقفيته اذا جئت من خلفه ؛ ومنه سميت قافية الشعر لأنها تتلو سائر الكلام . والقافية : القفا ؛ ومنه الحديث : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » . والقفيّ والقفاوة : ما يدخر من اللبن وغيره لمن تريد إكرامه . وقفوت الرجل : قذفته بفجور؛ وفلان قفوتي أي تهمتي؛ وقفوتي أي خيرتي . قال ابن دريد : كأنه من الأضداد . قال العلماء : وهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ . وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر بلزومها الى عيسى عليه السلام . ويقال : رسْل ورسل لغتان ؛ الأولى لغة الحجاز، والثانية لغة تميم ؛ وسواء كان مضافا أو غير مضاف ؛ وكان أبو عمرو يخفف إذا أضاف الى حرفين، ويثقل إذا أضاف إلى حرف واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ ﴾ . أي الحجج والدلالات؛ وهي التي ذكرها الله في آل عمران والمائدة . قاله ابن عباس . ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾ أي قويناه . وقرأ مجاهد وابن محيصن آيدناه بالمد، وهما لغتان . ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ . روى أبو مالك وأبو صالح عن ابن عباس، ومعمر عن قتادة قالا : جبريل عليه السلام ؛ وقال حسان :

وجبريل رسـول الله فينا ＊ وروح القدس ليس به خفاء

قال النحاس : وسمي جبريل روحا وأضيف الى القدس لأنه كان بتكوين الله عز وجل له روحا من غير ولادة والد ولده ؛ وكذلك سمّي عيسى روحا لهذا . وروى غالب بن عبد الله عن مجاهد قال: القدس هو الله عز وجل؛ وكذا قال الحسن: القدس الله، وروحه جبريل. وروى أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس : ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ . قال : هو الاسم الذي كان يحيي به عيسى الموتى . وقاله سعيد بن جبير وعبيد بن عمير . وهو اسم الله الأعظم .

وقيل : المراد الإنجيل ؛ سماه روحا كما سمى الله القرآن روحا ؛ فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ . والأول أظهر والله تعالى أعلم . والقدس : الطهارة . وقد تقـــدم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ ﴾ . أى بما لا يوافقها و يلائمها؛ وحذفت الهاء لطول الاسم أى بما لا تهواه : ﴿ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ . عن إجابته احتقارًا للرســل ، واستبعادا للرسالة . وأصل الهوى الميل الى الشيء ؛ و يجمع أهواء كما جاء فى التنزيل، ولا يجمع أهوية ؛ على أنهم قد قالوا فى ندى أندية ؛ قال الشاعر :

فى ليــلة من جمـادى ذات أندية * لا يبصر الكلب فى ظلمائهـا الطنبا

قال الجوهرى : وهو شاذ . وسمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه الى النــار؛ ولذلك لا يستعمل فى الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه؛ وهذه الآية من ذلك؛ وقد يستعمل فى الحق ومنه قول عمر رضى الله عنه فى أسارى بدر : فهوى رسول الله صلى الله عليه وســلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . وقالت عائشة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى صحيح الحديث : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . أخرجهما مسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ . منصوب بكذبتم وكذا ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ . فكان ممن كذبوه عيسى ومحمـد عليهما السلام ، وممن قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام على ما يأتى بيانه فى سبحان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ . بسكون اللام جمع أغلف أى عليها أغطية ؛ وهو مثل قوله : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ . أى فى أوعية . قال مجاهد : غلف عليها غشاوة.وقال عكرمة : عليها طابع . وحكى أهل اللغة غلفت السيف جعلت له غلافا؛ فقلب أغلف أى مستور عن الفهم والتمييز.وقرأ ابن عباس والأعرج وابن محيصن غلف بضم اللام؛ قال ابن عباس أى قلوبنا ممتلئة علما لا تحتاج الى علم محمد صلّى الله عليه وسلّم ولا غيره . وقيل: هو جمع غلاف مثل خمار وخمر أى قلوبنا أوعية للعلم فــما بالها لا تفهم عنك وقد وعينا علما

كثيرا . وقيل : المعنى فكيف يعزب عنها علم محمد صلى الله عليه وسلم . فردّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ . ثم بين أن السبب فى نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لعنوا بما تقدّم من كفرهم واجترائهم ؛ وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه . وأصل اللعن فى كلام العرب الطرد والإبعاد . ويقال للذئب : لعين، وللرجل الطريد : لعين؛ وقال الشماخ :

ذَعَرْتُ به القطا ونفيت عنه ✽ مقام الذئب كالرجل اللعين

ووجه الكلام مقام الذئب اللعين كالرجل فالمعنى أبعدهم الله من رحمته . وقيل : من توفيقه وهدايته . وقيل : من كل خير، وهذا عام . ﴿ فَقَلِيلًا ﴾ ، نعت لمصدر محذوف تقديره فإيمانا قليلا ﴿ مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . وقال معمر : لا يؤمنون إلا بقليل مما فى أيديهم ويكفرون بأكثره ؛ ويكون قليلا منصوب بنزع حرف الصفة وما صلة أى فقليلا يؤمنون . قال الواقدى : معناه لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا ؛ كما تقول : ما أقل ما يفعل كذا أى لا يفعله البتة . وقال الكسائى : تقول العرب مررنا بأرض قل ما تنبت الكراث والبصل أى لا تنبت شيئا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ . يعنى اليهود . ﴿ كِتَـٰبٌ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ . نعت لكتاب، ويجوز فى غير القرآن نصبه على الحال؛ وكذلك هو فى مصحف أبى بالنصب فيما روى . ﴿ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ . يعنى التوراة والإنجيل يخبرهم بما فيهما . ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ . أى يستنصرون . والاستفتاح الاستنصار؛ استفتحت : استنصرت ؛ وفى الحديث كان النبى صلى الله عليه وسلم يستفتح بصعاليك المهاجرين أى يستنصر بدعائهم وصلاتهم . ومنه ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ . والنصر : فتح شىء مغلق؛ فهو يرجع إلى قولهم : فتحت الباب . وروى النسائى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم » . وروى النسائى أيضا عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ابغونى الضعيف فإنكم إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » . قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود، فعادت يهود بهذا الدعاء وقالوا : إنا نسألك بحق النبى الأمى

الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم . قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان؛ فلما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم كفروا فأنزل الله تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . أى بك يامحمد إلى قوله : ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ . جواب لمـا الفاء وما بعدها فى قوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ فى قول الفراء؛ وجواب لمـا الثانية كفروا . وقال الأخفش سعيد : وجوابه وجواب لمـا محذوف لعلم السامع . وقاله الزجاج . وقال المبرد : جواب لمـا فى قوله : ﴿ كَفَرُوا﴾ وأعيدت لمـا الثانية لطول الكلام . ويفيد ذلك تقريرا للذنب وتأكيدا له .

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا ﴾ . بئس فى كلام العرب مستوفية للذم كما أن نعم مستوفية للدح؛ وفى كل واحدة منهما أربع لغات بِئْسَ بَئْسَ بَئِسَ بِئِسْ . نِعْمَ نَعْمَ نَعِمَ نِعِمْ . ومذهب سيبويه إلى أن (ما) فاعلة بئس؛ ولا تدخل إلا على أسماء الأجناس والنكرات، وكذا نعم؛ فتقول : نعم الرجل زيد، ونعم رجلا زيد؛ فاذا كان معها اسم بغير ألف ولام فهو نصب أبدا؛ فاذا كان فيه ألف ولام فهو رفع أبدا ؛ ونصب رجلا على التمييز . وفى نعم مضمر على شريطة التفسير ؛ وزيد مرفوع على وجهين، على خبر ابتداء محذوف كأنه قيل : من الممدوح؟ قلت : هو زيد، والآخر على الابتداء وما قبله خبره؛ وأجاز أبو علىّ أن تليها ما موصولة وغير موصولة من حيث كانت مبهمة تقع على الكثرة ولا تخص واحدا بعينه، والتقدير عند سيبويه بئس الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا ؛ فأن يكفروا فى موضوع رفع بالابتـداء وخبره فيما قبله كقولك : بئس الرجل زيد؛ و (ما) على هذا القول موصولة . وقال الأخفش : ما فى موضع نصب على التمييز كقولك : بئس رجلا زيد فالتقدير بئس شيئا أن يكفروا . فاشتروا به أنفسهم على هـذا القول صفة ما . وقال الفراء : بئسما بجملته شيء واحد ركب كحبذا . وفى هـذا القول اعتراض لأنه يبقى فعل بلا فاعل . وقال الكسائى : ما واشتروا بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه ؛ والتقدير بئس اشتراؤهم أن يكفروا . وهذا مردود، فإن نعم و بئس لا يدخلان على اسم معين معرف؛ والشراء قد تعرف بإضافته إلى الضمير . قال النحاس : وأبين هـذه الأقوال قول الأخفش

وسيبويه . قال الفراء والكسائى : أن يكفروا إن شئت كانت أن فى موضع خفض ردا على الهاء فى به . قال الفراء : أى اشتروا أنفسهم بأن يكفروا بما أنزل الله . فاشترى بمعنى باع وبمعنى ابتاع ؛ والمعنى بئس الذى اختاروا لأنفسهم حيث استبدلوا الباطل بالحق والكفر بالإيمان .

قوله تعالى : ﴿ بَغْيًا ﴾ . معناه حسدا ؛ قاله قتادة والسّدى . وهو مفعول من أجله ، وهو على الحقيقة مصدر ، وهو مأخوذ من قولهم : قد بغى الجرح إذا فسد . وقيل : أصله الطلب ولذلك سميت الزانية بغيا . ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ ﴾ . فى موضع نصب أى لأن ينزل أى لأجل إنزال الله الفضل على نبيّه صلّى الله عليه وسلم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن أن ينزل مخففا ، وكذلك سائر ما فى القرآن إلا ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ ﴾ . فى الحجر . وفى الأنعام ﴿ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً ﴾ .

قوله : ﴿ فَبَاءُوا ﴾ . أى رجعوا ؛ وأكثر ما يقال فى الشر وقد تقدّم . ﴿ بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ . تقدم معنى غضب الله ، وهو عقابه ؛ فقيل : الغضب الأول لعبادتهم العجل ، والثانى لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس . وقال عكرمة : لأنهم كفروا بعيسى ثم كفروا بمحمد ؛ يعنى اليهود . وروى سعيد عن قتادة : الأول لكفرهم بالإنجيل ، والثانى لكفرهم بالقرآن . وقال قوم : المراد التأييد وشدّة الحال عليهم ، لا أنه أراد غضبين معللين بمعصيتين . و﴿ مُهِينٌ ﴾ ، مأخوذ من الهوان وهو ما اقتضى الخلود فى النار دائما بخلاف خلود العصاة من المسلمين ، فإن ذلك تمحيص لهم وتطهير ، كرجم الزانى وقطع السارق ، على ما يأتى بيانه فى سورة النساء من حديث أبى سعيد الخدرى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ ﴾ . يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ . أى نصدق بما أنزل علينا يعنى التوراة . ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ . أى بما سواه . عن الفراء ، وقتادة : بما بعده ؛ وهو قول أبى عبيدة ؛ والمعنى واحد . قال الجوهرى : وراء بمعنى خلف ، وقد تكون بمعنى قدام وهى من الأضداد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ ﴾

أى أمامهم؛ وتصغيرها وريئه بالهاء وهى شاذة . وانتصب وراءه على الظرف . قال الأخفش : يقال لقيته من وراء، فترفعه على الغاية إذا كان غير مضاف، تجعله اسما، وهو غير متمكن كقولك : من قبل ومن بعد؛ وأنشد :

اذا أنا لم أومن عليك ولم يكن * لقاؤك إلا من وراءُ وراءُ

قلت : ومنه قول إبراهيم عليه السلام فى حديث الشفاعة : "إنما كنت خليلا من وراء وراء" . والوراء : ولد الولد أيضا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ . ابتداء وخبر . ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ . حال مؤكدة عند سيبويه . ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ . ما فى موضع خفض باللام، ومعهم صلتها، ومعهم نصب بالاستقرار ؛ ومن أسكن جعله حرفا .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ . ردّ من ٱلله تعالى عليهم فى قولهم إنهم آمنوا بما أنزل عليهم، وتكذيب منه لهم وتوبيخ؛ المعنى فكيف قتلتم وقد نهيتم عن ذلك؛ فالخطاب لمن حضر محمدا صلّى الله عليه وسلّم والمراد أسلافهم؛ وإنما توجه الخطاب لآبائهم لأنهم كانوا يتولون أولئك الذين قتلوا؛ كما قال: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ . فإذا تولوهم فهم بمنزلتهم . وقيل : لأنهم رضوا فعلهم فنسب ذلك اليهم؛ وجاء تقتلون بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضى لما ارتفع الاشكال بقوله : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ . وإذا لم يشكل فجائز أن يأتى الماضى بمعنى المستقبل، والمستقبل بمعنى الماضى ؛ قال الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه * أن الوليد أحق بالعذر

شهد بمعنى يشهد . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . أى إن كنتم معتقدين الإيمان فلم رضيتم بقتل الأنبياء ؟ وقيل : إن ، بمعنى ما، وأصل لم، لما ، حذفت الألف فرقا بين الاستفهام والخبر؛ ولا ينبغى أن يوقف عليه لأنه إن وقف عليه بلا هاء كان لحنا ، وإن وقف عليه بالهاء زيد فى السواد .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ . اللام لام القسم . والبينات قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ . وهي العصا، والسنون، واليد، والدم، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، وفلق البحر. وقيل: البينات التوراة لما فيها من الدلالات.

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ . توبيخ، و«ثم» أبلغ من الواو في التقريع أي بعد النظر في الآيات والإتيان بها اتخذتم؛ وهذا يدل على أنهم إنما فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات؛ وذلك أعظم لجرمهم .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾. تقدم الكلام في هذا . ومعنى اسمعوا أطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط وإنما المراد اعلموا ما سمعتم والتزموه؛ ومنه قولهم : سمع الله لمن حمده؛ أي قبل وأجاب . وقال :

دعوت الله حتى خفت ألّا * يكون الله يسمع ما أقول

أي يقبل؛ وقال الراجز :

والسمع والطاعة والتسليم * خير وأعنى لبني تميم

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ . اختلف هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقا، أو يكونوا فعلوا فعلا قام مقام القول فيكون مجازا؛ كما قال :

امتلأ الحوض وقال قَطْنِي * مهلا رويدا قد ملأت بطني

وهذا احتجاج عليهم في قولهم : ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ . أي حب العجل . والمعنى جعلت قلوبهم تشربه؛ وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم؛ وفي الحديث : «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودا عودا فأيما قلب أُشربها نكتت فيه نكتة سوداء» . الحديث خرّجه مسلم؛ يقال : أشرب قلبه حب كذا؛ قال زهير :

فصحوت عنها بعد حب داخل * والحب يشربه فؤادك داء

وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل لأن شرب الماء يتغلغل فى الأعضاء حتى يصل الى باطنها ، والطعام مجاور لها غير متغلغل فيها . وقد زاد على هذا المعنى أحد التابعين فقال فى زوجته عثمة، وكان عتب عليها فى بعض الأمر فطلقها، وكان محبا لها :

تغلغل حب عثمة فى فؤادى * فباديه مع الخافى يسير

تغلغل حيث لم يبلغ شراب * ولا حزن ولم يبلغ سرور

أكاد إذا ذكرت العهد منها * أطير لو أن إنسانا يطير

وقال السدى وابن جريج : إن موسى عليه السلام برد العجل وذرّاه فى الماء، وقال لبنى اسرائيل: اشربوا من ذلك الماء، فشرب جميعهم، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذهب على شفتيه . وروى أنه ما شربه أحد الا جنّ؛ حكاه القشيرى .

قلت : أما تذريته فى البحر فقد دل عليه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ . وأما شرب الماء وظهور البرادة على الشفاه فيرده قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ . أى إيمانكم الذين زعمتم فى قولكم : نؤمن بما أنزل علينا . وقيل : إن هذا الكلام خطاب للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم وأمر أن يوبّخهم أى قل لهم يا محمد : بئس هذه الأشياء التى فعلتم وأمركم بها إيمانكم . وقد مضى الكلام فى بئسما .

قوله تعالى؛ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: لما ادعت اليهود دعاوى باطلة حكاها الله عزّ وجلّ عنهم فى كتابه ؛ كقوله تعالى : ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ . وقوله : ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ . وقالوا : ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ . أكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال: قل يامحمد إن كانت لكم الدار الآخرة عندالله خالصة من دون الناس، يعنى الجنة فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فى أقوالكم، لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت

أحب إليه من الحياة فى الدنيا، لما يصير إليه من نعيم الجنة، ويزول عنه من أذى الدنيا، فأحجموا عن تمنّى ذلك فَرَقًا من الله، لقبح أعمالهم ومعرفتهم لكفرهم فى قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه، وحرصهم على الدنيا، ولهذا قال مخبرا عنهم بقوله الحق : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ . تحقيقا لكذبهم؛ وأيضا لو تمنوا الموت لماتوا؛ كما روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقامهم من النار» (١) . وقيل : إن الله صرفهم عن إظهار التمنى وقصرهم على الإمساك ليجعل ذلك آية لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فهذه ثلاثة أوجه فى تركهم التمنى . وحكى عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ . أن المراد ادعوا بالموت على أكذب الفريقين منا ومنكم، فما دعوا، لعلمهم بكذبهم .

فإن قيل : فالتمنى يكون باللسان تارة، وبالقلب أخرى؛ فمن أين علم أنهم لم يتمنوه بقلوبهم؟ قيل له : نطق القرآن بذلك بقوله : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ . ولو تمنوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم ردّا على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وإبطالا لحجته؛ وهذا بين . قوله تعالى : ﴿خَالِصَةً﴾ . نصب على خبر كان ، وإن شئت كان حالا ، ويكون عند الله فى موضع الخبر . ﴿أَبَدًا﴾ ، ظرف زمان يقع على القليل والكثير؛ كالحين والوقت ، وهو هنا من أول العمر إلى الموت . وما ، فى قوله : بما ، بمعنى الذى ، والعائد محذوف؛ والتقدير قدمته؛ وتكون مصدرية ولا تحتاج الى عائد . وأيديهم فى موضع رفع ، حذفت الضمة من الياء لثقلها مع الكسرة؛ وان كانت فى موضع نصب حركتها لأن النصب خفيف ، ويجوز إسكانها فى الشعر . ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ . ابتداء وخبر .

قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ . يعنى اليهود . ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ . قيل : المعنى وأحرص؛ فحذف من الذين أشركوا لمعرفتهم بذنوبهم وألّا خير لهم عند الله؛ ومشركو العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ولا علم لهم من الآخرة؛ ألا ترى قول شاعرهم :

تمتــع من الدنيــا فإنك فان * من النشوات والنساء الحسان

(١) فى بعض نسخ الأصل : « مقاعدهم » .

والضمير فى أحدهم يعود فى هذا القول على اليهود . وقيل : إن الكلام تم فى حياة ، ثم استؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين، قيل : هم المجوس وذلك بين فى أدعياتهم للعاطس بلغاتهم بما معناه "عش ألف سنة" : وخص الألف بالذكر لأنها نهاية العقد فى الحساب . وذهب الحسن الى أن الذين أشركوا مشركو العرب ؛ خصوا بذلك لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، فهم يتمنون طول العمر . وأصل سنة سنهة . وقيل : سنوة . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى ولتجدنهم وطائفة من المشركين أحرص الناس على حياة .

قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ . أصل يود يودد أدغمت لئلا يجمع بين حرفين من جنس واحد متحركين ؛ وقلبت حركة الدال على الواو ، وليدل ذلك على أنه يفعل . وحكى الكسائى وددت . فيجوز على هذا يود بكسر الواو ؛ ومعنى يود يتمنى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾ . اختلف النحاة فى«هو» فقيل: هو ضمير الأحد المتقدم التقدير ما أحدهم بمزحزحه ؛ وخبر الابتداء فى المجرور . « أن يعمر » فاعل بمزحزح . وقالت فرقة : هو ضمير التعمير ، والتقدير وما التعمير بمزحزحه ، والخبر فى المجرور . « أن يعمر » بدل من التعمير على هذا القول . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت : إن هو عماد .

قلت : وفيه بعد ، فإن حق العماد أن يكون بين شيئين متلازمين مثل قوله : ﴿ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ . ونحو ذلك . وقيل : « ما » عاملة حجازية، و« هو » اسمها، والخبر فى « بمزحزحه » . وقالت طائفة : « هو » ضمير الأمر والشأن . ابن عطية : وفيه بعد، فان المحفوظ عن النحاة أن يفسر بجملة سالمة من حرف جر . وقوله : ﴿ بِمُزَحْزِحِهِ ﴾ . الزحزحة : الابعاد والتنحية ؛ يقال : زحزحته أى باعدته فتزحزح أى تنحى وتباعد ، يكون لازما ومتعديا ؛ قال الشاعر فى المتعدى :

ياقابض الروح من نفس اذا احتضرت * وغافر الذنب زحزحنى عن النار

وأنشده ذو الرمة :

يا قابض الروح عن جسم عصى زمنا * وغافر الذنب زحزحني عن النار

وقال آخر في اللازم :

خليلي ما بال الدجى لا يتزحزح * وما بال ضوء الصبح لا يتوضح

وروى النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال : «من صام يوما في سبيل الله زحزح الله وجهه عن النار سبعين خريفا» . وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ . أي بما يعمل هؤلاء الذين يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ؛ ومن قرأ بالتاء فالتقدير عنده قل لهم يا محمد : الله بصير بما تعملون . وقال العلماء : وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى عالم بخفيات الأمور . والبصير في كلام العرب : العالم بالشيء الخبير به ؛ ومنه قولهم : فلان بصير بالطب ، وبصير بالفقه ، و بصير بملاقاة الرجال ؛ قال :

فإن تسألوني بالنساء فإنني * بصير بأدواء النساء طبيب

قال الخطابي : البصير العالم ، والبصير المبصر . وقيل : وصف تعالى نفسه بأنه بصير على معنى جاعل الأشياء المبصرة ذوات إبصار أي مدركة للمبصرات بما خلق لها من الآلة المدركة والقوة ؛ فالله بصير بعباده أي جاعل عباده مبصرين .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ الآية . سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلّم : إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي ، فمن صاحبك حتى نتابعك ؟ قال : « جبريل » . قالوا : ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ، ذاك عدونا ! لو قلت : ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك ؛ فأنزل الله الآية إلى قوله : ﴿ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أخرجه الترمذي .

قوله : ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ . الضمير في إنه يحتمل معنيين ، الأول فإن الله نزل جبريل على قلبك . الثاني فإن جبريل نزل بالقرآن على قلبك . وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف . ودلت الآية على شرف جبريل عليه السلام وذم معاديه .

وقوله : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ . أي بإرادته وعلمه . ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ . يعني التوراة . ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . تقدّم معناه والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ ﴾ . شرط ، وجوابه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ . وهذا وعيد وذمّ لمعادى جبريل عليه السلام ، وإعلام أن عداوة البعض تقتضى عداوة الله لهم . وعداوة العبد لله هى معصيته ، واجتناب طاعته ، ومعاداة أوليائه . وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه .

فإن قيل : لم خص الله جبريل وميكائيل بالذكر وإن كان ذكر الملائكة قد عمهما ؟ قيل له : خصهما بالذكر تشريفا لهما ؛ كما قال : ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ . وقيل : خصا لأن اليهود ذكروهما ، ونزلت الآية بسببهما ؛ فذكرهما واجب لئلا تقول اليهود : انا لم نعاد الله وجميع ملائكته ؛ فنص الله تعالى عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص . ولعلماء اللسان فى جبريل وميكائيل عليهما السلام لغات ؛ فأما التى فى جبريل فعشر :

الأولى ــ جِبريل ، وهى لغة أهل الحجاز ؛ قال حسان بن ثابت :

* وجبريل رسول الله فينا *

الثانية ــ جَبريل ، بفتح الجيم وهى قراءة الحسن وابن كثير ؛ وروى عن ابن كثير أنه قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو يقرأ جبريل وميكال فلا أزال أقرؤهما أبدا كذلك .

الثالثة ــ جَبرئيل ، بياء بعد الهمزة مثال جبرعيل كما قرأ أهل الكوفة ؛ وأنشدوا :

شهدنا فما تلقى لنا من كتيبة * مدى الدهر إلا جبرئيل أمامها

هذه لغة تميم وقيس .

الرابعة ــ جبرأل على وزن جبرعل مقصور وهى قراءة أبى بكر عن عاصم .

الخامسة ــ مثلها وهى قراءة يحيى بن يعمر إلا أنه شدد اللام .

السادسة ــ جبرائل بألف بعد الراء ثم همزة ؛ وبها قرأ عكرمة .

السابعة — مثلها إلا أن بعد الهمزة ياء .

الثامنة — جبرائيل بياءين بغير همزة ، وبها قرأ الأعمش ويحيى بن يعمر أيضا .

التاسعة — جبرئين بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون .

العاشرة — جبرين بكسر الجيم وتسكين الياء بنون من غير همزة وهي لغة بني أسد .
قال الطبري : ولم يقرأ بها . قال النحاس وذكر قراءة ابن كثير : لا يعرف في كلام العرب فَعليل ، وفيه فِعليل نحو دهليز وقطمير وبرطيل ، وليس ينكر أن يكون في كلام العجم ما ليس له نظير في كلام العرب ، ولا ينكر أن يكثر تغييره ، كما قالوا : ابراهيم وابرهم وابراهام .
قال غيره : جبريل اسم أعجمي عرّبته العرب . فلها فيه هذه اللغات ولذلك لم ينصرف .

قلت : قد تقدم في أول الكتاب أن الصحيح في هذه الألفاظ عربية نزل بها جبريل بلسان عربي مبين . قال النحاس : ويجمع جبريل على التكسير جباريل .

وأما اللغات التي في ميكائيل فست :

الأولى — ميكاييل قراءة نافع ، وميكائيل بياء بعد الهمزة قراءة حمزة . ميكال لغة أهل الحجاز وهي قراءة أبي عمرو وحفص عن عاصم ، وروى عن ابن كثير الثلاثة أوجه ، قال كعب بن مالك :

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد * فيه مع النصر ميكال وجبريل

وقال آخر :

عبدوا الصليب وكذّبوا بمحمد * وبجبرئيل وكذّبوا ميكالا

الرابعة — ميكئيل مثل ميكعيل ، وهي قراءة ابن محيصن .

الخامسة — ميكييل بياءين ، وهي قراءة الأعمش باختلاف .

السادسة — ميكائل كما يقال اسرائل بهمزة مفتوحة ، وهو اسم أعجمي فلذلك لم ينصرف .
وذكر ابن عباس أن جبر وميكا واسراف هي كلها بالأعجمية بمعنى عبد ومملوك ، وايل اسم الله تعالى ، ومنه قول أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه حين سمع سجع مسيلمة : هذا كلام لم يخرج من

إل؛ وفى التنزيل : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ . فى أحد التأويلين وسيأتى . قال الماوردى : إن جبريل وميكائيل اسمان؛ أحدهما عبد الله، والآخر عبيد الله؛ لأن إيل هو الله تعالى، وجبر هو عبد، وميكا هو عبيد، فكأن جبريل عبد الله، هذا قول بن عباس وليس له فى المفسرين مخالف .

قلت : وزاد بعض المفسرين وإسرافيل : عبد الرحمن . قال النحاس : ومن تأول الحديث جبر، عبد، وإل الله وجب عليه أن يقول : هذا جبرال ورأيت جبرال ومررت بجبرال؛ وهذا لا يقال؛ فوجب أن يكون معنى الحديث أنه مسمى بهذا . قال غيره : ولو كان كما قالوا لكان مصروفا، فترك الصرف يدل على أنه اسم واحد مفرد ليس بمضاف . وروى عبد الغنى الحافظ من حديث أفلت بن خليفة — وهو فليت العامرى وهو أبو حسان — عن جسرة بنت دجاجة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم رب جبريل وميكايل وإسرافيل أعوذ بك من حر النار وعذاب القبر" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ الآية : قال ابن عباس رضى الله عنهما : هذا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد جئتنا بشىء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك بها ؟ فأنزل الله هذه الآية، ذكره الطبرى .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا ﴾ . الواو واو العطف، دخلت عليها ألف الاستفهام كما تدخل على الفاء فى قوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ . ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ . ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾ . وعلى ثم كقوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ . هذا قول سيبويه . وقال الأخفش : الواو زائدة . ومذهب الكسائى أنها أو، حركت الواو منها تسهيلا . وقرأها قوم أو، ساكنة الواو فتجىء بمعنى بل؛ كما يقول القائل :لأضربنك؛ فيقول المجيب : أو يكفى الله . قال ابن عطية : وهذا كله تكلف، والصحيح قول سيبويه . كلما، نصب على الظرف، والمنهى فى الآية

مالك بن الضيف[1] ويقال فيه ابن الصيت؛ كان قد قال : والله ما أخذ علينا عهد فى كتابنا أن نؤمن بمحمد ولا ميثاق؛ فنزلت الآية . وقيــل : إن اليهود عاهدوا لئن خرج محمد لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركى العرب ؛ فلما بعث كفروا به . وقال عطاء : هى العهود التى كانت بين النبى صلى الله عليه وسلم و بين اليهود فنقضوها كفعل قريظة والنضير؛ دليله قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ . النّبذ : الطرح والإلقاء ؛ ومنه النبيذ والمنبوذ؛ قال أبو الأســـود :

وخبرنى من كنت أرسلت انمــا * أخذت كتابى معــرضا بشمالكا

نظــرت الى عنــوانه فنبـــذته * كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

آخـــر:

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا * نبــذوا كتابك واســتحلوا المحرّم

وهذا مثل يضرب لمن استخف بالشىء فلا يعمل به؛ تقول العرب : اجعل هذا خلف ظهرك، ودبرا منك، وتحت قدمك . أى اتركه وأعرض عنه؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ . وأنشد الفراء :

تميم بن زيد[2] لا تكونن حاجتى * بظهر فلا يعيا على جوابهــا

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ . ابتداء . ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . فعل مستقبل فى موضع الخبر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ . نعت لرسول، ويجوز نصبه على الحال . ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ ﴾ . جواب لمــا . ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ . نصب بنبذ ؛ والمراد التوراة لأن كفرهم بالنبى وتكذيبهم له نبذ لها . قال السدى : نبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وسحر هاروت وماروت . وقيــل : يجوز أن يعنى به القرآن . قال

(١) فى بعض نسخ الأصل : « الصيف » بالصاد المهملة .

(٢) فى لسان العرب فى مادة ظهر تميم بن قيس .

الشعبي : هو بين أيديهم يقرءونه، ولكن نبذوا العمل به . وقال سفيان بن عيينة : أدرجوه في الحرير والديباج، وحلوه بالذهب والفضة، ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه، فذلك النبذ. وقد تقدم بيانه مستوفى . ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . تشبيه بمن لا يعلم إذ فعلوا فعل الجاهل ؛ فيجيء من اللفظ أنهم كفروا على علم .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ الى قوله : ﴿ مِن خَلَاقٍ ﴾. فيه أربع وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ . هذا إخبار من الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتاب بأنهم اتبعوا السحر أيضا، وهم اليهود . وقال السدي : عارضت اليهود محمدا صلّى الله عليه وسلّم بالتوراة فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت. وقال محمد بن اسحاق : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان في المرسلين قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن ابن داود كان نبيا ! والله ما كان إلا ساحرا، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ . أي ألقت إلى بني آدم أن ما فعله سليمان من ركوب البحر واستسخار الطير والشياطين كان سحرا . وقال الكلبي : كتبت الشياطين السحر والنرنجيات على لسان آصف كاتب سليمان ، ودفنوه تحت مصلاه حين انتزع الله ملكه ولم يشعر بذلك سليمان ؛ فلما مات استخرجوه وقالوا للناس : إنما ملككم بهذا فتعلموه، فأما علماء بني إسرائيل فقالوا: معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان، وأما السفلة فقالوا : هذا علم سليمان وأقبلوا على تعليمه ورفضوا كتب أنبيائهم حتى بعث الله محمدا صلّى الله عليه وسلّم، فأنزل الله عز وجل على نبيه عذر سليمان وأظهر براءته مما رمي به فقال : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ . قال عطاء : تتلوا تقرأ من التلاوة . وقال ابن عباس : تتلوا تتبع، كما تقول : جاء القوم يتلو بعضهم بعضا . وقال الطبري : اتبعوا بمعنى فضلوا .

قلت : لأن من أتبع شيئا وجعله أمامه فقد فضله على غيره، ومعنى تتلوا يعنى تلت فهو بمعنى المضيّ؛ قال الشاعر :

وإذا مررت بقبره فاعقد به * كوم الهجان وكل طرف سابح

وانضح جوانب قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دم وذبائح

أى فلقد كان. وما، مفعول باتبعوا أى اتبعوا ما تقولته الشياطين على سليمان وتلته. وقيل : ما، نفى؛ وليس بشيء لا فى نظام الكلام ولا فى صحته؛ قاله ابن العربى. ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾. أى على شرعه ونبوته. قال الزجاج : المعنى على عهد ملك سليمان. وقيل : المعنى فى ملك سليمان؛ يعنى فى قصصه وصفاته وأخباره. وقال الفراء : تصلح على وفى فى مثل هذا الموضع؛ وقال على، ولم يقل بعد لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾. أى فى تلاوته. وقد تقدّم معنى الشيطان واشتقاقه فلا معنى لإعادته. والشياطين هنا قيل : هم شياطين الجن؛ وهو المفهوم من هذا الاسم. وقيل : المراد شياطين الإنس المتمرّدون فى الضلال؛ كقول جرير :

أيام يدعوننى الشيطان من غزلى * وكن يهويننى اذ كنت شيطانا

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾. تبرئة من الله لسليمان؛ ولم يتقدّم فى الآية أن أحدا نسبه الى الكفر ولكن اليهود نسبته الى السحر؛ ولما كان السحر كفرا صاروا بمنزلة من نسبه الى الكفر؛ ثم قال : ﴿ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾. فأثبت كفرهم بتعليم السحر. و يعلمون، فى موضع نصب على الحال؛ ويجوز أن يكون فى موضع رفع على أنه خبر ثان. وقرأ الكوفيون سوى عاصم ولكن الشياطين بتخفيف لكن، ورفع النون من الشياطين؛ وكذلك فى الأنفال ولكن الله رمى؛ ووافقهم ابن عامر. والباقون بالتشديد والنصب. ولكن كلمة لها معنيان نفى الخبر الماضى، وإثبات الخبر المستقبل؛ وهى مبنية من ثلاث كلمات : لا، ك، ان. لا نفى، والكاف خطاب، وأن إثبات وتحقيق؛ فذهبت الهمزة استثقالا وهى تثقل وتخفف؛ فاذا ثقلت نصبت كان الثقيلة، واذا خففت رفعت بها كما ترفع بان الخفيفة.

الثالثة ــ السحر قيل : أصله التمويه بالحيل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى، فيخيل للسحور أنها بخلاف ما هى به؛ كالذى يرى السراب من بعيد فيخيل اليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيرا حقيقيا يخيل اليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه . وقيل : هو مشتق من سحرت الصبيّ اذا خدعته وكذلك اذا عللته؛ والتسحير مثله؛ قال لبيد :

فان تسألينا فيم نحن فاننا * عصافير من هذا الأنام المسحر

آخر :

أرانا مُوضِعين لأمر غيب * ونسحر بالطعام وبالشراب
عصافير وذِبَّانٌ ودود * وأجرأ من مُجَلِّحَة الذئاب

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ . يقال : المسحر الذى خلق ذا سحر، ويقال من المعللين أى ممن يأكل الطعام ويشرب الشراب . وقيل: أصله الخفاء، فان الساحر يفعله فى خفية . وقيل : أصله الصرف؛ يقال : ما سحرك عن كذا : أى ما صرفك عنه؛ فالسحر مصروف عن جهته . وقيل : أصله الاستمالة؛ وكل من استمالك فقد سحرك . وقيل فى قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ . أى سحرنا فأزلنا بالتخييل عن معرفتنا . وقال الجوهرى : السحر الأُخْذَةُ، وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر، وقد سحر يسحر سحرا . والساحر : العالم، وسحره أيضا بمعنى خدعه . وقد ذكرناه . وقال مسعود (١) : كنا نسمى السحر فى الجاهلية العضة . والعضة عند العرب : شدّة البهت وتمويه الكذب؛ قال الشاعر :

أعوذ بربى من النافثات من عضة العاضه المعضه

الرابعة ــ واختلف هل له حقيقة أو لا؛ فذكر الغزنوى الحنفى فى عيون المعانى له : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له، وعند الشافعى وسوسة وأمراض؛ قال : وعندنا أصله طِلَسْمٌ يبنى عند تأثير خصائص الكواكب كتأثير الشمس فى زئبق عصى فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا ما عسر .

(١) فى بعض نسخ الأصل : «وقال ابن مسعود» .

قلت : وعندنا أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء على ما يأتى ؛ ثم من السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ؛ والشعوذى : البريد لخفة سيره . قال ابن فارس فى المجمل : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهى خفة فى اليدين وأُخْذَةٌ كالسحر ؛ ومنه ما يكون كلاما يحفظ ، ورق من أسماء الله تعالى . وقد يكون من عهود الشياطين ؛ ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

الخامسة — سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفصاحة فى الكلام واللسانة فيه سحرا ؛ فقال : « إن من البيان لسحرا » . أخرجه مالك ؛ وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى يتوهم السامع أنه حق ؛ فعلى هذا يكون قوله عليه السلام . « إن من البيان لسحرا » . خرج مخرج الذم للبلاغة والفصاحة إذ شبهها بالسحر . وقيل : خرج مخرج المدح للبلاغة والتفضيل للبيان . قاله جماعة من أهل العلم ؛ والأوّل أصح ، والدليل عليه قوله عليه السلام : « فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض » ، وقوله : « إن أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون » . الثرثرة : كثرة الكلام وترديده ؛ يقال : ثرثر الرجل فهو ثرثار مهذار . والمتفيهق نحوه . قال ابن دريد . فلان يتفيهق فى كلامه اذا توسع فيه وتنطع ؛ قال : وأصله الفهق وهو الامتلاء ، كأنه ملأ به فمه .

قلت : وبهذا المعنى الذى ذكرناه فسره عامر الشعبى راوى الحديث وصعصعة بن صوحان فقالا : أما قوله عليه السلام : « إن من البيان لسحرا » . فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه ؛ وإنما يحمد العلماء البلاغة واللسانة ما لم تخرج الى حد الإسهاب والإطناب ، وتصوير الباطل فى صورة الحق . وهذا بين ، والحمد لله .

السادسة — من السحر ما يكون كفرا من فاعله مثل ما يدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم فى هيئة بهيمة وقطع مسافة شهر فى ليلة والطيران فى الهواء ؛ فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق فذلك كفر منه . قال أبو نصر عبد الرحيم القشيرى قال أبو عمرو : من زعم

أن الساحر يقلب الحيوان من صورة الى صورة، فيجعل الإنسان حمارا أو نحوه و يقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها، فهذا يرى قتل الساحر لأنه كافر بالأنبياء يدعى مثل آياتهم ومعجزاتهم ، ولا يتهيأ مع هذا علم صحة النبوة إذ قد يحصل مثلها بالحيلة . وأما من زعم أن السحر خدع ومخاريق وتمويهات وتخييلات فلم يجب على أصله قتل الساحر إلا أن يقتل بفعله أحدا فيقتل به .

السابعة — ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة . وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاستراباذى من أصحاب الشافعى الى أن السحر لا حقيقة له ، وانما هو تمويه وتخييل و إيهام لكون الشيء على ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ، كما قال تعالى : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ . ولم يقل تسعى على الحقيقة ، ولكن قال يخيل اليه. وقال أيضا : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ . وهذا لا حجة فيه ، لأنا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر لكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع ، فمن ذلك ما جاء فى هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس فدل على أن له حقيقة ، وقوله تعالى فى قصة سحرة فرعون : ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ . وسورة الفلق، مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم وهو مما خرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم، الحديث. وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما حل السحر : « إن الله شفانى » . والشفاء، انما يكون برفع العلة وزوال المرض ، فدل على أن له حقا وحقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه . وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق. ولقد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان وتكلم الناس فيه ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله . وروى سفيان عن أبى الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال : علم السحر فى قرية من قرى مصر يقال لها : " الفرما " . فمن كذب به فهو كافر، مكذب لله ورسوله ، منكر لما علم مشاهدة وعيانا .

الثامنة — قال علماؤنا: لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات بما ليس فى مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو الى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات البشر؛ قالوا: ولا يبعد فى السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يتولج فى الكوات والخوخات والانتصاب على رأس قصبة، والجرى على خيط مستدق، والطيران فى الهواء والمشى على الماء، وركوب كلب وغير ذلك؛ ومع ذلك فلا يكون السحر موجبا لذلك ولا علة لوقوعه ولا سببا مولدا، ولا يكون الساحر مستقلا به؛ وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر؛ كما يخلق الشبع عند الأكل، والرى عند شرب الماء. وروى سفيان عن عمار الذهبى أن ساحرا كان عند الوليد بن عقبة يمشى على الحبل، ويدخل فى است الحمار ويخرج من فيه؛ فاشتمل له جندب على السيف فقتله جندب — هذا هو جندب بن كعب الأزدى ويقال البجلى — وهو الذى قال فى حقه النبى صلى الله عليه وسلم: « يكون فى أمتى رجل يقال له جندب يضرب ضربة بالسيف يفرق بين الحق والباطل ». فكانوا يرونه جندبا هذا قاتل الساحر. قال على بن المدينى: روى عنه حارثة بن مضرب.

التاسعة — أجمع المسلمون على أنه ليس فى السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وانطاق العجمى وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام. فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر. قال القاضى أبو بكر بن الطيب: وإنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه أجزناه.

العاشرة — فى الفرق بين السحر والمعجزة؛ قال علماؤنا: السحر يوجد من الساحر وغيره، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به فى وقت واحد؛ والمعجزة لا يمكن الله أحدا أن يأتى بمثلها وبمعارضتها؛ ثم الساحر لم يدع النبوة فالذى يصدر منه متميز عن المعجزة؛ فإن المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوة والتحدى بها كما تقدم فى مقدمة الكتاب.

الحادية عشرة — واختلف الفقهاء فى حكم الساحر المسلم والذمى؛ فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرا يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته؛ لأنه أمر يستتر

كالزنديق والزانى ، ولأن الله تعالى سمى السحر كفرا بقوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ . وهو قول أحمد بن حنبل وأبى ثور و إسحاق والشافعى وأبى حنيفة . وروى قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبى موسى وقيس بن أسعد وعن سبعة من التابعين . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « حد الساحر ضربه بالسيف » خرجه الترمذى وليس بالقوى ؛ انفرد به اسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم ، رواه ابن عيينة عن اسماعيل بن مسلم عن الحسن مرسلا ، ومنهم من جعله عن الحسن عن جندب . قال ابن المنذر: وقد روينا عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها فى الرقاب . قال ابن المنذر : واذا أقر الرجل أنه سحر بكلام يكون كفرا وجب قتله إن لم يتب ، وكذلك لو ثبتت به عليه بينة ووصفت البينة كلاما يكون كفرا ، و إن كان الكلام الذى ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله ، فان كان أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه ان كان عمد ذلك وإن كان مما لاقصاص فيه ففيه دية ذلك . قال ابن المنذر : واذا اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسئلة وجب اتباع أشبههم بالكتاب والسنة ؛ وقد يجوز أن يكون السحر الذى أمر من أمر منهم بقتل الساحر سحرا يكون كفرا فيكون ذلك موافقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن تكون عائشة رضى الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كفرا ؛ فان احتج محتج بحديث جندب عن النبى صلى الله عليه وسلم : « حد الساحر ضربه بالسيف » . فلو صح لاحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذى يكون سحره كفرا فيكون ذلك موافقا للأخبار التى جاءت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث » :

قلت : هذا صحيح ، ودماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف . والله تعالى أعلم . وقال بعض العلماء : إن قال أهل الصناعة لا يتم السحر إلا مع الكفر والاستكبار أو تعظيم الشيطان فالسحر إذًا دل على الكفر على هذا التقدير والله تعالى أعلم . وروى عن الشافعى : لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره و يقول تعمدت القتل ، و إن قال

لم أتعمد، لم يقتل، وكانت فيه الدية كقتل الخطأ، وإن أضر به أدب على قدر الضرر . قال ابن العربي : وهذا باطل من وجهين، أحدهما أنه لم يعلم السحر، وحقيقته أنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى ، وتنسب اليه المقادير والكائنات . الثاني أن الله سبحانه قد صرح في كتابه بأنه كفر فقال : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ بقول السحر ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ . به وبتعليمه، وهاروت وماروت يقولان : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ . وهذا تأكيد للبيان.

احتج أصحاب مالك بأنه لا تقبل توبته، لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق، وإنما يستتاب من أظهر الكفر مرتدا . قال مالك : فإن جاء الساحر أو الزنديق تائبا قبل أن يشهد عليهما قبلت توبتهما ، والحجة لذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ . فدل أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول العذاب فكذلك هذان .

الثانية عشرة — وأما ساحر الذمة فقيل : يقتل . وقال مالك : لا يقتل، إلا أن يقتل بسحره ويضمن ما جنى ، ويقتل إن جاء منه ما لم يعاهد عليه .

وقال ابن خويزمنداد : فأما إذا كان ذميا فقد اختلفت الرواية عن مالك، فقال مرة : يستتاب وتوبته الإسلام . وقال مرة : يقتل وإن أسلم . وأما الحربي فلا يقتل إذا تاب؛ وكذلك قال مالك في ذمي سب النبي صلى الله عليه وسلم : يستتاب وتوبته الإسلام . وقال مرة : يقتل ولا يستتاب كالمسلم . وقال مالك أيضا في الذمي اذا سحر : يعاقب ؛ إلا أن يكون قتل بسحره، أو أحدث حدثا فيؤخذ منه بقدره . وقال غيره : يقتل ، لأنه قد نقض العهد . ولا يرث الساحر ورثته، لأنه كافر إلا أن يكون سحره لا يسمى كفرا . وقال مالك في المرأة تعقد زوجها عن نفسها أو عن غيرها : تنكل ولا تقتل .

الثالثة عشرة — واختلفوا هل يسئل الساحر حل السحر عن المسحور ، فأجازه سعيد ابن المسيب على ما ذكره البخاري، وإليه مال المُزَنِيُّ وكرهه الحسن البصري . وقال الشافعي: لا بأس بالنُّشْرَة . قال ابن بطال : وفي كتاب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر

أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ عليه آية الكرسي ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل، فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

الرابعة عشرة — أنكر معظم المعتزلة الشياطين والجن ؛ ودل إنكارهم على قلة مبالاتهم وركاكة دياناتهم، وليس في إثباتهم مستحيل عقلي؛ وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على إثباتهم، وحق على اللبيب المعتصم بحبل الله أن يثبت ما قضى العقل بجوازه، ونص الشرع على ثبوته؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا ﴾ . وقال : ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ . الى غير ذلك من الآي ، وسورة الجنّ تقضي بذلك؛ وقال عليه السلام : «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» . وقد أنكر هذا الخبر كثير من الناس، وأحالوا روحين في جسد ؛ والعقل لا يحيل سلوكهم في الإنس إذ كانت أجسامهم رقيقة بسيطة على ما يقوله بعض الناس بل أكثرهم ولو كانوا كثافا لصح ذلك أيضا منهم ، كما يصح دخول الطعام والشراب في الفراغ من الجسم، وكذلك الديدان قد تكون في ابن آدم وهي أحياء .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ ﴾ . ما، نفي؛ والواو للعطف على قوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ . وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر؛ فنفى الله ذلك . وفي الكلام تقديم وتأخير، التقدير، وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت؛ فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا ﴾ . هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت الى سواه؛ فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم، ودقة أفهامهم، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة في حال طمثهن؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ . وقال الشاعر :

أعوذ بربي من النافثا ت ... ...

السادسة عشرة — إن قال قائل : كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه؛ فالجواب من وجوه ثلاثة؛ الأول : أن الاثنين قد يطلق عليهما اسم

الجمع ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ . ولا يحجبها عن الثلث الى السدس إلا اثنان من الإخوة فصاعدا على ما يأتى بيانه فى النساء . الثانى : أنهما لما كانا الرأس فى التعليم نص عليهما دون اتباعهما ؛ كما قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ . الثالث : إنما خصا بالذكر من بينهم لتمردهما، كما قال تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ . وقوله : ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ . وهذا كثير فى القرآن وفى كلام العرب ، فقد ينص بالذكر على بعض أشخاص العموم إما لشرفه وإما لفضله ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ . وقوله : ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ . وإما لطيبه كقوله : ﴿ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ . وإما لأكثريته ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : «جعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهورا» ؛ وإما لتمرده وعتوه كما فى هذه الآية ، والله تعالى أعلم . وقد قيل : إن ما ، عطف على السحر وهى مفعولة ؛ فعلى هذا يكون ما بمعنى الذى ، ويكون السحر منزل على الملكين فتنة للناس وامتحانا ، ولله أن يمتحن عباده بما شاء ؛ كما امتحن بنهر طالوت ، ولهذا يقول الملكان : إنما نحن فتنة ، أى محنة من الله . نخبرك أن عمل الساحر كفر فان أطعتنا نجوت ، وإن عصيتنا هلكت . وقد روى عن على وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدى والكلبى ما معناه أنه لما كثر الفساد من أولاد آدم عليه السلام — وذلك فى زمن إدريس عليه السلام — عيرتهم الملائكة ؛ فقال الله تعالى : أما إنكم لو كنتم مكانهم وركبت فيكم ما ركبت فيهم لعملتم مثل أعمالهم ؛ فقالوا : سبحانك! ما كان ينبغى لنا ذلك ؛ قال : فاختاروا ملكين من خياركم ؛ فاختاروا هاروت وماروت فانزلها الى الأرض فركب فيهما الشهوة فما مر بهما شهر حتى فتنا بامرأة اسمها بالنبطية "بيدخت" و بالفارسية "ناهيل" و بالعربية "الزهرة" اختصمت اليهما وراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يدخلا فى دينها ويشربا الخمر ويقتلا النفس التى حرم الله ؛ فأجاباها وشربا الخمر وألما بها ؛ فرآهما رجل فقتلاه ، وسألتهما عن الاسم الذى يصعدان به الى السماء فعلماها فتكلمت به فعرجت فمسخت كوكبا . وقال سالم عن عبد الله فحدثنى كعب الحبر أنهما لم يستكملا يومهما حتى عملا بما حرم الله عليهما . وفى غير هذا الحديث : فخيرا بين عذاب

الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا ؛ فهما يعذبان ببابل في سرب من الأرض . قيل : بابل العراق . وقيل : بابل نهاوند . وكان ابن عمر "فيما يروى عن عطاء أنه كان" إذا رأى الزهرة وسهيلا سبهما وشتمهما، ويقول : إن سهيلا كان عشارا باليمن يظلم الناس، وإن الزهرة كانت صاحبة هاروت وماروت .

قلنا : هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره، لا يصح منه شيء ؛ فانه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه، وسفراؤه الى رسله ﴿ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ . ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ . ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ . وأما العقل فلا ينكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ، ويخلق فيهم الشهوات؛ إذ في قدرة الله تعالى كل موهوم ؛ ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح ؛ ومما يدل على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء؛ ففي الخبر : "أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوارة زحل والمشترى وعطارد والزهرة والشمس والقمر" . وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ . فثبت بهذا أن الزهرة وسهيلا قد كانا قبل خلق آدم ؛ ثم أن قول الملائكة : ما كان ينبغي لنا صورة، معناه لا تقدر على فتنتنا ؛ وهذا كفر نعوذ بالله منه ومن نسبته الى الملائكة الكرام صلوات الله عليهم أجمعين؛ وقد نزهناهم وهم المنزهون عن كل ماذكره ونقله المفسرون . سبحان ربك رب العزة عما يصفون .

السابعة عشرة ــ قرأ ابن عباس وابن أبزى والضحاك والحسن . الملكين بكسر اللام . قال ابن أبزى : هما داود وسليمان . فما، على هذا القول أيضا نافية ؛ وضعف هذا القول ابن العربي . وقال الحسن : هما علجان كانا ببابل ملكين ؛ فما، على هذا القول مفعولة غير نافية .

الثامنة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ بِبَابِلَ ﴾ . بابل ، لا ينصرف للتأنيث والتعريف والعجمة، وهي قطر من الأرض؛ قيل : العراق وما والاه . وقال ابن مسعود لأهل الكوفة :

أتم بين الحيرة وبابل . وقال قتادة : هي من نَصيبين الى رأس العين . وقال قوم : هي بالمغرب . وقال ابن عطية : وهذا ضعيف . وقال قوم : هو جبل نَهاوَنْد، فالله تعالى أعلم .

واختلف في تسميته ببابل؛ فقيل : سمي بذلك لتبلبل الألسن بها حين سقط صرح نمروذ . وقيل : سمي به لأن الله تعالى لما أراد أن يخالف بين ألسنة بني آدم بعث ريحا فحشرتهم من الآفاق الى بابل؛ فبلبل الله ألسنتهم بها؛ ثم فرقتهم تلك الريح في البلاد . والبلبلة : التفريق ؛ قال معناه الخليل . وقال أبو عمر بن عبدالبر : من أخصر ما قيل في البلبلة وأحسنه ما رواه داود بن أبي هند عن عِلْبَاء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام لما هبط الى أسفل الجودي ابتنى قرية وسماها ثمانين؛ فأصبح ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان العربي، وكان لا يفهم بعضهم عن بعض .

التاسعة عشرة — روى عبدالله بن بِشر المازني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اتقوا الدنيا فوالذي نفسي بيده إنها لأسحر من هاروت وماروت » . قال علماؤنا : إنما كانت الدنيا أسحر منهما لأنها تسحرك بخدعها، وتكتمك فتنتها، فتدعوك الى التحارص عليها ، والتنافس فيها ، والجمع لها والمنع ، حتى تفرق بينك وبين طاعة الله تعالى ، وتفرق بينك وبين رؤية الحق ورعايته . فالدنيا أسحر منهما، تأخذ بقلبك عن الله ، وعن القيام بحقوقه ، وعن وعده ووعيده . وسحر الدنيا محبتها وتلذذك بشهواتها وتمنيك بأمانيها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « حبك الشيء يُعمي ويُصم » .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ . لا ينصرف هاروت ، لأنه أعجمي معرفة ، وكذا ماروت ؛ ويجمع هواريت ومواريت ؛ مثل طواغيت ؛ ويقال : هوارتة وهوار، وموارتة وموار، ومثله جالوت وطالوت . فاعلم . وقد تقدم هل هما ملكان أو غيرهما؟ خلاف . قال الزجاج : وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : أي والذي أنزل على الملكين، وأن الملكين يعلمان الناس تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء إليه . قال الزجاج : وهذا القول الذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر. ومعناه أنهما يعلمان الناس على النهي

فيقولان لهم : لا تفعلوا كذا ، ولا تحتالوا بكذا لتفرقوا بين المرء وزوجه . والذى أنزل عليهما هو النهى ، كأنه قولا للناس : لا تعملوا كذا ، فيُعَلِّمان معنى تُعْلِمان ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ . أى أكرمنا .

الحادية والعشرون ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ . من زائدة للتوكيد ، والتقدير وما يعلمان أحدا . ﴿ حَتَّى يَقُولَا ﴾ . نصب بحتى فلذلك حذفت منه النون ؛ ولغة هذيل وثقيف عتى بالعين غير المعجمة . والضمير فى يعلمان لهاروت وماروت . وفى يعلمان قولان ؛ أحدهما : أنه على بابه من التعليم . الثانى : أنه من الإعلام لا من التعليم ؛ فيُعَلِّمان بمعنى يُعْلِمَان وقد جاء فى كلام العرب تعلم بمعنى اعلم . ذكره ابن الأعرابى وابن الأنبارى ؛ قال كعب ابن مالك :

تعلم رسول الله أنك مدركى * وأن وعيدا منك كالأخذ باليد

وقال القطامى :

تعلم أن بعد الغى رشدا * وأن لذلك الغى انقشاعا

وقال زهير :

تَعَلَّمَنْهَا[(1)] لعمر الله ذا قسما * فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك

وقال آخر :

تعلم أنه لا طير إلا * على متطير وهو الثبور

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ . لما أنبأ بفتنتهما كانت الدنيا أسحر منهما حين كتمت فتنتها . ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ . قالت فرقة بتعليم السحر . وقالت فرقة باستعماله . وحكى المهدوى أنه استهزاء لأنهما إنما يقولانه لمن تحققا ضلاله .

الثانية والعشرون ـــ قوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ . قال سيبويه : التقدير فهم يتعلمون ؛ قال : ومثله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . وقيل : هو معطوف على موضع ما يعلمان ، لأن

---

(1) فى لسان العرب فى مادة سلك : تعلما لعمر الله ذا قسما * واقصد بذرعك وانظر أين تنسلك

قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ ﴾. وإن دخلت عليه ما النافية فضمنه الإيجاب فى التعلم . وقال الفراء : هى مردودة على قوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ فيتعلمون؛ ويكون فيتعلمون متصلة بقوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ فيأتون فيتعلمون . قال السدى : كانا يقولان لمن جاءهما : إنما نحن فتنة فلا تكفر؛ فإن أبى أن يرجع قالا له : ائت هـذا الرماد فبل فيه؛ فإذا بال فيه خرج منه نور يسطع الى السماء، وهو الإيمان؛ ثم يخرج منـه دخان أسود فيدخل فى أذنيه ، وهو الكفر؛ فإذا أخبرهما بمـا رآه من ذلك علماه ما يفرق بين المرء وزوجه . وذهبت طائفة من العلماء الى أن الساحر ليس يقدر على أكثر مما أخبر الله عنه من التفرقة ، لأن الله ذكر ذلك فى معرض الذم للسحر والغاية فى تعليمه ؛ فلو كان يقـدر على أكثر من ذلك لذكره . وقالت طائفـة : ذلك خرج على الأغلب، ولا ينكر أن السحر له تأثير فى القلوب، بالحب والبغض وبإلقاء الشرور حتى يفرّق الساحر بين المرء وزوجه ، ويحول بين المرء وقلبه ، وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأسقام؛ وكل ذلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره معاندة . وقد تقدّم هذا والحمد لله .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ . ما هم، إشارة إلى السحرة . وقيل : الى اليهود . وقيل : الى الشياطين . ﴿ بِضَارِّينَ بِهِ ﴾ . أى بالسحر . ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أى أحدا، ومن زائدة . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ . أى بإرادته وقضائه لا بأمره، لأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ويقضى على الخلق بها . وقال الزجاج : إلا بإذن الله، إلا بعلم الله . قال النحاس : وقول أبى إسحق إلا بإذن الله، إلا بعلم الله غلط، لأنه إنمـا يقال فى العلم إذن، وقد أذنت إذنا . ولكن لمـا لم يحل فيما بينهم وبينه، وظلوا يفعلونه كان كأنه أباحه مجـازا .

الرابعـة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ . يريد فى الآخرة وإن أخذوا بها نفعا قليلا فى الدنيا . وقيل : يضرهم فى الدنيا ، لأن ضرر السحر والتفريق يعود على الساحر فى الدنيا إذا عثر عليه؛ لأنه يؤدّب ويزجر، ويلحقه شـؤم السحر . وباقى الآى بيّن لتقدّم معانيها . واللام فى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ . لام توكيد . ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ لام يمين، وهى

للتوكيد أيضا . وموضع من رفع بالابتداء لأنه لا يعمل ما قبل اللام فيما بعدها . و«من» بمعنى الذى . وقال الفراء : هى للمجازاة . وقال الزجاج : ليس هــذا بموضــع شرط؛ و«من» بمعنى الذى كما تقول : لقد علمت لمن جاءك ماله عقل . ﴿ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ . من زائدة ، والتقــدير ماله فى الآخرة خلاق؛ ولا تزاد فى الواجب؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : تكون زائدة فى الواجب؛ واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ . والخلاق : النصيب . قاله مجاهد . قال الزجاج : وكذلك هو عند أهل اللغة، إلا أنه لا يكاد يستعمل إلا للنصيب من الخير . وسئل عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ . فأخبر أنهم قد علموا؛ ثم قال : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ . فأخبر أنهم لا يعلمون؛ فالجواب هو قول قطرب والأخفش: أن يكون الذين يعلمون الشياطين، والذين شروا أنفسهم أى باعوها هم الإنس الذين لا يعلمون . قال الزجاج وقال على بن سليمان : الأجود عندى أن يكون ﴿ وَلَقَــدْ عَلِمُوا ﴾ للملكين لأنهم أولى بأن يعلموا . وقال علموا كما يقال : الزيدان قاموا . وقال الزجاج : الذين علموا علماء اليهود ؛ ولكن قيل : لو كانوا يعلمون أى فدخلوا فى محل من يقال له : لست بعالم؛ لأنهم تركوا العمل بعلمهم واسترشدوا من الذين عملوا بالسحر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ . أى اتقوا السحر . ﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ . المثوبة . الثواب؛ وهى جواب ولو أنهــم آمنوا، عنــد قوم . وقال الأخفش سعيد : ليس للو هنــا جواب فى اللفظ ولكن فى المعنى؛ والمعنى لأثيبوا . وموضع «أن» من قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ﴾ . موضع رفع أى لو وقع إيمانهم؛ لأن لو لا يليها إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا؛ لأنها بمنزلة حرف الشرط اذ كان لا بد له من جواب؛ وأن يليه فعل . قال محمد بن يزيد : وإنما لم يجاز بلو لأن سبيل حروف المجازاة كلها أن تقلب الماضى الى معنى المستقبل ؛ فلما لم يكن هذا فى لو لم يجز أن يجازى بها .

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾ . فيه خمس مســائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ الآية . ذكر شيئا آخر من جهالات اليهود؛ والمقصود نهى المسلمين عن مثل ذلك . وحقيقة راعنا فى اللغة أرعنا ولنرعك، لأن المفاعلة من اثنين ؛ فتكون من رعاك الله أى احفظنا ولنحفظك، وارقبنا ولنرقبك . ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك أى فرغ سمعك لكلامنا؛ وفى المخاطبة بهذا جفاء فأمر المؤمنين أن يتخيروا من الألفاظ أحسنها ومن المعانى أرقها . قال ابن عباس : كان المسلمون يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلّم : راعنا، على جهة الطلب . والرغبة من المراعاة أى التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبا أى اسمع لا سمعت؛ فاغتنموها وقالوا : كنا نسبه سرا فالآن نسبّه جهرا؛ فكانوا يخاطبون بها النبيّ صلى الله عليه وسلّم و يضحكون فيا بينهم، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم فقال لليهود : عليكم لعنة الله ! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه؛ فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت الآية ونهوا عنها لئلا تقتدى بها اليهود فى اللفظ ، وتقصد المعنى الفاسد .

الثانية — فى هذه الآية دليلان أحدهما على تجنب الألفاظ المحتملة التى فيها التعريض للتنقيص والغض، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض وذلك يوجب الحدّ عندنا خلافا لأبى حنيفة والشافعى وأصحابهما حين قالوا: التعريض محتمل للقذف وغيره ، والحدّ مما يسقط بالشبهة . وسيأتى فى النور بيان هذا إن شاء الله تعالى .

الدليل الثانى — التمسك بسد الذرائع وحمايتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل فى رواية عنه ؛ وقد دل على هذا الأصل الكتاب والسنة . والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع فى ممنوع ؛ أما الكتاب فهذه الآية ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك ؛ وهى سب بلغتهم فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ لأنه ذريعة للسب . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ . فمنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ ؛ الآية . فحرم عليهم تبارك وتعالى الصيد

فى يوم السبت ؛ فكانت الحيتان تأتى يوم السبت شرعا أى ظاهرة ، فسدوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد وكان السد ذريعة للاصطياد ؛ فمسخهم الله قردة وخنازير ، وذكر الله لنا ذلك فى معنى التحذير عن ذلك ، وقوله تعالى لآدم وحواء : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ . وقد تقدم . وأما السنة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة ، منها حديث عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة رضى الله عنهن ذكرتا كنيسة رأياها بالحبشة فيها تصاوير ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله » . أخرجه البخارى ومسلم . قال علماؤنا : تفعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم ، فمضت لهم بذلك أزمان ثم أنهم خلف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم ووسوس لهم الشيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصور فعبدوها فحذر النبى صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وشدد النكير والوعيد على من فعل ذلك ، وسد الذرائع المؤدية الى ذلك ، فقال : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » . وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد » . وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » فمنع من الاقدام على الشبهات مخافة الوقوع فى المحرمات . وذلك سدا للذريعة . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به البأس » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا يارسول الله : وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » بجعل التعرض لسب الآباء كسب الآباء . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه منكم حتى ترجعوا الى

دينكم » . قال أبو عبيد الهروى: العينة هو أن يبيع الرجل من رجل سلعة بثمن معلوم الى أجل مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به . قال : فان اشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العينة بثمن أكثر مما اشتراه الى أجل مسمى ثم باعها المشترى من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضا عينة وهى أهون من الأولى، وهو جائز عند بعضهم ؛ وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة ؛ وذلك لأن العين هو المال الحاضر والمشترى إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضر يصل اليه من فوره . وروى ابن وهب عن مالك، أن أم ولد لزيد ابن الأرقم ذكرت لعائشة رضى الله عنها أنها باعت من زيد عبدا بثمانمائة إلى العطاء ثم ابتاعته منه بستمائة نقدا؛ فقالت عائشة : بئس ما شريت، وبئس ما اشتريت ! أبلغى زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يتب ؛ ومثل هذا لا يقال بالرأى لأن إبطال الأعمال لا يتوصل إلى معرفتها إلا بالوحى؛ فثبت أنه مرفوع الى النبىّ صلى الله عليه وسلّم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعوا الربا والريبة . ونهى ابن عباس رضى الله عنهما عن دراهم بدراهم بينهما جريرة .

قلت : فهذه هى الأدلة التى لنا على سدّ الذرائع وعليه بنى المالكية كتاب الآجال وغيره من المسائل فى البيوع وغيرها . وليس عند الشافعية كتاب الآجال لأن ذلك عندهم عقود مختلفة مستقلة، قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر لا على الظنون . والمالكية جعلوا السلعة محللة ليتوصل بها الى دراهم بأكثر منها ؛ وهذا هو الربا بعينه فاعلمه .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ . نهى يقتضى التحريم على ما تقدم . وقرأ الحسن «راعنا» منونة . وقال . أى هجرا من القول وهو مصدر ونصبه بالقول، أى لاتقولوا رعونة . وقرأ زرّ بن حبيش والأعمش «راعونا»؛ يقال لما نتأ من الجبل : رعن ؛ والجبل أرعن . وجيش أرعن أى متفرق؛ وكذا رجل أرعن أى متفرق الحجج ليس عقله مجتمعا ؛ عن النحاس . وقال ابن فارس : رعن الرجل يرعن رعنا فهو أرعن أى أهوج؛ والمرأة رعناء . وسميت البصرة رعناء لأنها تشبه برعن الجبل . قال ابن دريد ذلك وأنشد للفرزدق :

لولا ابن عتبة عمرو والرجاء له * ما كانت البصرة الرعناء لى وطنا

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا ٱنظُرْنَا﴾ . أمروا أن يخاطبوه صلى الله عليه وسلم بالإجلال، والمعنى أقبل علينا وآنظر إلينا، فحذف حرف التعدية كما قال :

ظـاهرات الجمـال والحسن ينظر ... ن كما ينظـر الأراك الظبـاء

أى إلى الأراك . وقال مجاهد : المعنى فهّمنا وبيّن لنا . وقيل: المعنى انتظرنا وتأن بنا؛ قال :

فإنكما إن تنظـرانى ساعة ... من الدهر ينفعنى لدى أم جندب

والظاهر آستدعاء نظر العين المقترن بتدبير الحـال؛ وهذا هو معنى راعنا فبدّلت اللفظة للؤمنين وزال تعلق اليهود ، وقرأ الأعمش وغيره أنظرنا بقطع الألف وكسر الظـاء بمعنى أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلق منك؛ قال الشاعر :

أبا هنـد فـلا تعجل علينا ... وأنظـرنا نخـبرك اليقينا

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَٱسْمَعُوا﴾ . لمـا نهى وأمر جلّ وعزّ ، حضّ على السمع الذى فى ضمنه الطاعة، وأعلم أن لمن خالف أمره فكفر عذابا أليمـا .

قوله تعالى : ﴿مَا يَوَدُّ﴾ : أى ما يتمنى . وقد تقدّم . ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ . معطوف على أهل ؛ ويجوز ولا المشركون بعطفه على الذين قاله النحاس . ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ . من زائدة، خير اسم ما لم يسم فاعله . وأن فى موضع نصب، أى بأن ينزل . ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ . قال على بن أبى طـالب رضى الله عنه : يختص برحمته أى بنبوته خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال قوم : الرحمة القرآن . وقيل : الرحمة فى هـذه الآية عامة لجميع أنواعها التى قد منح الله بها عباده قديما وحديثـا ؛ يقال: رحم يرحم اذا رق . والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى؛ قاله ابن فارس. ورحمة الله لعباده: إنعامه عليهم وعفوه لهم . ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ . ذو بمعنى صاحب .

قوله تعالى : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ . فيه خمس عشرة

مسـألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ . ننسها ، عطف على ننسخ ، وحذفت الياء للجزم . ومن قرأ ننساها حذفت الضمة من الهمزة للجزم وسيأتى معناه . نأت ، جواب الشرط ، وهى آية عظمى فى الاحكام ، وسببها أن اليهود لما حسدوا المسلمين فى التوجه الى الكعبة ، وطعنوا فى الإسلام بذلك ، وقالوا : إن محمدا يأمر أصحابه بشىء ثم ينهاهم عنه ، فما كان هذا القرآن إلا من جهته ، ولهذا يناقض بعضه بعضا ، فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ . وأنزل : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ .

الثانيــة — معرفة هذا الباب أكيدة ، وفائدته عظيمة ، لا تستغنى عن معرفته العلماء ، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء ، لما يترتب عليه فى النوازل من الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام . روى أبو البخترى قال : دخل علىّ رضى الله عنه المسجد فإذا رجل يخوف الناس ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل يُذَكِّر الناس ، فقال : ليس برجل يُذَكِّر الناس ! لكنه يقول أنا فلان ابن فلان فاعرفونى ، فأرسل اليه فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ ! فقال : لا ، قال : فاخرج من مسجدنا فلا تُذَكِّر فيه . وفى رواية أخرى أعلمت الناسخ والمنسوخ ، قال : لا ، قال : هلكت وأهلكت . ومثله عن ابن عباس رضى الله عنهما .

الثالثــة — النسخ فى كلام العرب على وجهين :

أحدهما : النقل ، كنقل كتاب من آخر ، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا ، أعنى من اللوح المحفوظ وأُنزل إلى بيت العزة فى سماء الدنيا ، وهذا لا مدخل له فى هــذه الآية ، ومنه قوله تعــالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . أى نأمر بنسخه وإثباته .

الثــانى : الإبطال والإزالة ، وهو المقصود هنا ، وهو منقسم فى اللغة على ضربين :

أحدهما : إبطال الشىء وزواله ، وإقامة آخر مقامه ، ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ . وفى صحيح مسلم : " لم تكن نبوة قط إلا تناسخت " . أى تحولت من حال الى حال ، يعنى أمر الأمة .
قال ابن فارس : النسخ نسخ الكتاب . والنسخ أن يزيل أمرا كان من قبل يعمل به

ثم ينسخه بحادث غيره ؛ كالآية تنزل بأمر ثم ينسخ بأخرى ؛ وكل شيء خلف شيئاً فقد انتسخه؛ يقال : انتسخت الشمس الظل، والشيب الشباب . وتناسخ الورثة : أن تموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم؛ وكذلك تناسخ الأزمنة والقرون.

الثاني : إزالة الشيء دون أن يقوم آخر مقامه؛ كقولهم : نسخت الريح الأثر؛ ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي يزيله فلا يتلى ولا يثبت في المصحف بدله .

وزعم أبو عبيد أن هذا النسخ الثاني : قد كان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب .

قلت : ومنه ما روي عن أبيّ بن كعب وعائشة رضي الله عنهما أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول؛ على ما يأتي مبيناً هناك ان شاء الله تعالى. ومما يدل على هذا ما ذكر أبو بكر الأنباري حدثنا أبي حدثنا نصر بن داود حدثنا أبو عبيد حدثنا عبد الله ابن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب قال حدثني أبو أمامة بن سهل بن حنيف في مجلس سعيد بن المسيب أن رجلا قام من الليل ليقرأ سورة من القرآن فلم يقدر على شيء منها ، وقام آخر فلم يقدر على شيء منها ، وقام آخر فلم يقدر على شيء منها؛ فغدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم : قمت الليلة يا رسول الله لأقرأ سورة من القرآن فلم أقدر على شيء منها؛ فقام الآخر فقال : وأنا والله كذلك يارسول الله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها مما نسخ البارحة » . وفي إحدى الروايات : وسعيد بن المسيب يسمع ما يحدث به أبو أمامة فلا ينكره .

الرابعة — أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخرين جوازه؛ وهم محجوجون بإجماع السلف السابق على وقوعه في الشريعة . وأنكرته أيضا طوائف من اليهود؛ وهم محجوجون بما جاء في توراتهم بزعمهم أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة : إني جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم، كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه . ثم قد حرّم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيرا من الحيوان؛ وبما

كان آدم عليه السلام يزوج الأخ من الأخت؛ وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره؛ وبأن إبراهيم الخليل أمر بذبح ابنه ثم قال له : لا تذبحه؛ وبأن موسى أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم؛ وبأن نبوته غير متعبد بها قبل بعثه؛ ثم تعبد بها بعد ذلك، الى غير ذلك؛ وليس هذا من باب البداء بل هو من نقل العباد من عبادة الى عبادة، وحكم الى حكم، لضرب من المصلحة، إظهارا لحكمته وكمال مملكته. ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية؛ وإنما كان يلزم البداء لو لم يكن عالما بمآل الأمور؛ وأما العالم بذلك فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح، كالطبيب المراعى أحوال العليل؛ فراعى ذلك فى خليقته بمشيئته وإرادته، لا إله إلا هو. فخطابه يتبدل، وعلمه وإرادته لا تتغير، فإن ذلك محال فى جهة الله تعالى.

وجعلت اليهود النسخ والبداء شيئا واحدا، ولذلك لم يجوزوه فضلوا. قال النحاس : والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ تحويل العباد من شيء الى شيء قد كان حلالا فيحرم، أو كان حراما فيحلل. وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه كقولك : امض الى فلان اليوم؛ ثم تقول : لا تمض اليه؛ فيبدو لك العدول عن القول الأول؛ وهذا يلحق البشر لنقصانهم؛ وكذلك إن قلت : ازرع كذا فى هذه السنة؛ ثم قلت : لا تفعل؛ فهذا البداء.

الخامسة — إعلم أن الناسخ على الحقيقة هو الله تعالى؛ ويسمى الخطاب الشرعي ناسخا تجوزا إذ به يقع النسخ؛ كما قد يتجوز فيسمى المحكوم فيه ناسخا فيقال : صوم رمضان ناسخ لصوم عاشوراء؛ فالمنسوخ هو المزال، والمنسوخ عنه هو المتعبد بالعبادة المزالة، وهو المكلف.

السادسة — اختلفت عبارات أئمتنا فى حد الناسخ؛ فالذى عليه الحذاق من أهل السنة أنه إزالة ما قد استقر من الحكم الشرعي بخطاب وارد متراخيا؛ هكذا حده القاضي عبد الوهاب، والقاضي أبو بكر وزاد : لولاه لكان السابق ثابتا؛ محافظا على معنى النسخ اللغوى، إذ هو بمعنى الرفع والإزالة، وتحرزا من الحكم العقلي، وذكر الخطاب ليعم وجوه الدلالة من النص، والظاهر، والمفهوم، وغيرها؛ وليخرج القياس والإجماع، إذ لا يتصور النسخ فيهما ولا بهما؛

وقيد بالتراخى، لأنه لو اتصل به لكان بيانا لغاية الحكم لا نسخا، أو يكون آخر الكلام يرفع أوله ؛ كقولك : قم، لا تقم .

السابعة — المنسوخ عند أئمتنا أهل السنة هو الحكم الثابت نفسه لا مثله ؛ كما تقوله المعتزلة بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدم زائل. والذى قادهم إلى ذلك مذهبهم فى أن الأوامر مرادة، وأن الحسن صفة نفسية للحسن، ومراد الله حسن . وهذا قد أبطله علماؤنا فى كتبهم .

الثامنة — اختلف علماؤنا فى الأخبار هل يدخلها النسخ ؛ فالجمهور على أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهى ، والخبر لا يدخله النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى . وقيل : إن الخبر إذا تضمن حكما شرعيا، جاز نسخه؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ . وهناك يأتى القول فيه إن شاء الله تعالى .

التاسعة — التخصيص من العموم يوهم أنه نسخ وليس به ، لأن المخصص لم يتناوله العموم قط ، ولو ثبت تناول العموم لشىء ما ثم أخرج ذلك الشىء من العموم لكان نسخا لا تخصيصا . والمتقدمون يطلقون على التخصيص نسخا توسعا ومجازا .

العاشرة — إعلم أنه قد يرد فى الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والاستغراق، ويرد تقييدها فى مواضع أخر فيرتفع ذلك الاطلاق ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ . فهذا الحكم ظاهره خبر عن إجابة كل داع على كل حال؛ لكن قد جاء ما قيده فى موضع آخر ؛ كقوله : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ . فقد يظن من لا بصيرة عنده أن هذا من باب النسخ فى الأخبار وليس كذلك بل هو من باب الإطلاق والتقييد . وسيأتى لهذه المسئلة زيادة بيان فى موضعها إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — قال علماؤنا رحمهم الله تعالى : جائز نسخ الأثقل الى الأخف؛ كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنين . ويجوز نسخ الأخف الى الأثقل؛ كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان . على ما يأتى بيانه فى آية الصيام . وينسخ المثل بمثله ثقلا وخفة؛

كالقبلة، وينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى، وينسخ القرآن بالقرآن، والسنة بالعبارة؛ وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي، وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد .

وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة وذلك موجود في قوله عليه السلام : «لا وصية لوارث» . وهو ظاهر مسائل مالك . وأبى ذلك الشافعي وأبو الفرج المالكي؛ والأول أصح بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده وان اختلفت في الأسماء ؛ وأيضا فان الجلد ساقط في حد الزنا عن الثيب الذي يرجم ، ولا مسقط لذلك إلا السنة ، فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا بين .

والحذاق أيضا على أن السنة تنسخ بالقرآن وذلك موجود في القبلة، فإن الصلاة الى الشام لم تكن في كتاب الله تعالى؛ وفي قوله تعالى : ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ . فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي صلى الله عليه وسلم لقريش .

والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلا ؛ واختلفوا هل وقع شرعا ؟ فذهب أبو المعالي وغيره الى وقوعه في نازلة مسجد قباء، على ما يأتي بيانه . وأبى ذلك قوم . ولا يصح نسخ نص بقياس، إذ من شرط القياس ألا يخالف نصا .

وهذا كله في مدة النبي صلى الله عليه وسلم، وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الأمة أنه لا نسخ ؛ ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به إذ انعقاده بعد انقطاع الوحي؛ فاذا وجدنا إجماعا يخالف نصا فيعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن، وأن ذلك النص المخالف متروك العمل به ، وأن مقتضاه نسخ وبقي يقرأ ويروى؛ كما أن عدة السنة في القرآن تتلى . فتأمل هذا فانه نفيس . ويكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة؛ ومثله صدقة النجوى ، وقد تنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم ، وقد تنسخ التلاوة والحكم معا ومنه قول الصديق رضي الله عنه : كنا نقرأ لا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر، ومثله كثير . والذي عليه الحذاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول، كما يأتي بيانه في تحويل القبلة .

والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله وهو موجود فى قصة الذبيح، وفى فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس، على ما يأتى بيانه فى الإسراء والصافات، إن شاء الله تعالى .

الثانيــة عشرة — لمعرفة الناسخ طرق ، منها : أن يكون فى اللفظ ما يدل عليه، كقوله عليه السلام : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ونهيتكم عن الأشربة إلا فى ظروف الأدم فاشربوا فى كل وعاء غير ألا تشربوا مسكرا ونحوه». ومنها : أن يذكر الراوى التاريخ، مثل أن يقول: سمعت عام الخندق، وكان المنسوخ معلوما قبله . أو يقول : نسخ حكم كذا بكذا . ومنها : أن تجمع الأمة على حكم أنه منسوخ ، وأن ناسخه متقدم . وهـذا الباب مبسوط فى أصول الفقه نبهنا منه على ما فيه لمن اقتصر كفاية، والله الموفق للهداية .

الثالثة عشرة — قرأ الجمهور ما ننسخ بفتح النون من نسخ وهو الظاهر المستعمل على معنى ما نرفع من حكم آية ونبقى تلاوتهـا كما تقدم . ويحتمل أن يكون المعنى ما نرفع من حكم آية وتلاوتها على ما ذكرنا . وقرأ ابن عامر ننسخ بضم النون من أنسخت الكتاب على معنى وجدته منسوخا. قال أبو حاتم : هو غلط . وقال الفارسى أبو على : ليست لغة، لأنه لا يقال : نسخ وأنسخ بمعنى، إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخا، كما تقول : أحمدت الرجل وأبخلته بمعنى وجدته محمودا وبخيلا . قال أبو على: وليس نجده منسوخا الا بأن ننسخه فتتفق القراءتان فى المعنى وان اختلفتا فى اللفظ . وقيل : ما ننسخ، ما نجعل لك نسخة ؛ يقـال : نسخت الكتاب إذا كتبته، وانتسخته غيرى إذا جعلت نسخة له . قال مكى : ولا يجـوز أن تكون الهمـزة للتعدى ، لأن المعنى يتغير، ويصير المعنى ما ننسخك من آية يا محمد ؛ وإنساخه إياها إنزالهـا عليه، فيصير المعنى ما ننزل عليك من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ؛ فيؤول المعنى إلى أن كل آية أنزلت أتى بخير منها ؛ فيصير القرآن كله منسوخا وهذا لا يمكن، لأنه لم ينسخ الا اليسير من القرآن . فلما امتنع أن يكون أفعـل وفعل بمعنى، اذ لم يسـمع ، وامتنع أن تكون الهمزة للتعدى لفساد المعنى، لم يبق ممكن الا أن يكون من باب أحمدته وأبخلته اذا وجدته محمودا أو بخيلا .

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿ أَوْ نَنْسَأْهَا ﴾ . قرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح النون والسين والهمز، وبه قرأ عمر وابن عباس وعطاء ومجاهد وأبىّ بن كعب وعبيد بن عمير والنخعى وابن محيصن، من التأخير. أى نؤخر نسخ لفظها أى نتركه فى آخر أم الكتاب فلا يكون . وهذا قول عطاء . وقال غير عطاء بمعنى أو ننسأها ونؤخرها عن النسخ الى وقت معلوم؛ من قولهم : نسأت هذا الأمر إذا أخرته؛ ومن ذلك قولهم : بعته نسأ اذا أخرته . قال ابن فارس : ويقولون نسأ الله فى أجلك، وأنسأ الله أجلك؛ وقد انتسأ القوم اذا تأخروا وتباعدوا، ونسأتهم اذا أخرتهم . فالمعنى نؤخر نزولها أو نسخها على ما ذكرنا . وقيل : نذهبها عنكم حتى لا تقرأ ولا تذكر . وقرأ الباقون ننسها بضم النون من النسيان الذى بمعنى الترك أى نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها . قاله ابن عباس والسدى؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ . أى تركوا عبادته فتركهم فى العذاب . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . قال أبو عبيد : سمعت أبا نعيم القارئ يقول : قرأت على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى المنام بقراءة أبى عمرو فلم يغيّر علىّ الا حرفين؛ قال : قرأت عليه "أرنا" فقال : أرنا، فقال أبو عبيد : وأحسب الحرف الآخر أو ننسأها فقال : أو ننسها . وحكى الأزهرى ننسها نأمر بتركها؛ يقال : أنسيته الشىء أى أمرت بتركه؛ ونسيته تركته، قال الشاعر :

إن علىّ عُقْبَةً أقضيها * لست بناسيها ولا مُنْسيها

أى ولا آمر بتركها . وقال الزجاج : ان القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك؛ لا يقال : أنسى بمعنى ترك، وما روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس أو نُنسها قال : نتركها لا نبدلها، فلا يصح . ولعل ابن عباس قال : بتركها فلم يضبط . والذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى أو ننسها نبح لكم تركها؛ من نسى إذا ترك ثم تعديه . قال أبو على وغيره : ذلك متجه لأنه بمعنى نجعلك تتركها . وقيل : من النسيان على بابه الذى هو عدم الذكر، على معنى أو ننسكها يا محمد فلا تذكرها؛ نقل بالهمزة فتعدّى الفعل الى مفعولين وهما النبىّ والهاء لكن اسم النبى محذوف .

الخامسة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ . لفظة خير هنا صفة تفضيل ؛ والمعنى بأنفع لكم أيها الناس فى عاجل، إن كانت الناسخة أخف، وفى آجل، إن كانت أثقل، وبمثلها، إن كانت مستوية . وقال مالك : محكمة مكان منسوخة . وقيل : ليس المراد بأخير التفضيل لأن كلام الله لا يتفاضل، وإنما هو مثل قوله : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾. أى فله منها خير أى نفع وأجر، لا الخير الذى هو بمعنى الأفضل، ويدل على القول الأول قوله : ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ . جزم بلم ، وحروف الاستفهام لا تغير عمل العامل ؛ وفتحت أن، لأنها فى موضع نصب . ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . أى بالإيجاد والاختراع ؛ والملك والسلطان ، ونفوذ الأمر والإرادة . وارتفع ملك بالابتداء ، والخبر له ، والجملة خبر أن ؛ والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ لقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وقيل : المعنى قل لهم يا محمد ألم تعلموا أن لله سلطان السموات والأرض وما لكم من دونه من ولى ؛ من وليت أمر فلان : أى قمت به ؛ ومنه ولىّ العهد : أى القيم بما عهد إليه من أمر المسلمين . ومعنى من دون الله ؛ سوى الله وبعد الله كما قال أمية بن أبى الصلت :

يانفس مالك دون الله من واق * وما على حدثان الدهر من باق

وقراءة الجماعة ولا نصير بالخفض عطفا على ولى ؛ ويجوز ولا نصير بالرفع عطفا على الموضع ؛ لأن المعنى مالكم من دون الله ولى ولا نصير .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ . هذه أم المنقطعة التى بمعنى بل أى بل أتريدون، ومعنى الكلام التوبيخ . ﴿ أن تسئلوا ﴾ ، فى موضع نصب بتريدون . ﴿ كما سئل ﴾ ، الكاف فى موضع نصب نعت لمصدر أى سؤالا كما . وموسى ، فى موضع رفع على مالم يسم فاعله . من قبل سؤالهم إياه أن يريهم الله جهرة، وسألوا محمدا أن يأتى بالله والملائكة قبيلا . عن ابن عباس ومجاهد : سألوا أن يجعل لهم الصفا ذهبا . وقرأ الحسن

كما سِيلَ ، وهذا على لغة من قال : سلت أسل ؛ ويجوز أن يكون على بدل الهمزة ياء ساكنة على غير قياس فانكسرت السين قبلها . قال النحاس : بدل الهمزة بعيد . والسواء من كل شيء : الوسط . قاله أبو عبيدة معمر بن المثنى ؛ ومنه قوله : ﴿ فِي سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . وحكى عيسى ابن عمر قال : ما زلت أكتب حتى انقطع سواى ؛ وأنشد قول حسان يرثى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يا ويح أصحاب النبيّ ورهطه * بعد المغيَّب في سواء الملحَد

وقيل : السواء القصد ؛ عن الفراء . أى ذهب عن قصد الطريق وسمته أى طريق طاعة الله عز وجل . وعن ابن عباس أيضا أن سبب نزول هذه الآية أن رافع بن خزيمة ووهب ابن زيد قالا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ائتنا بكتاب من السماء نقرؤه ، وفجّر لنا الأنهار نتّبعك .

قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ﴾ .

فيه مسئلتان :

الأولى ــ ودّ ، تمنّى . وقد تقدّم . كفارا ، مفعول ثان بيردونكم . ﴿ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ قيل : هو متعلق بودّ . وقيل : بحسدا ؛ فالوقف على قوله : ﴿ كُفَّارًا ﴾ . وحسدا ، مفعول له أى ودّوا ذلك للحسد ، أو مصدر دل ما قبله على الفعل ، ومعنى من عند أنفسهم أى من تلقائهم من غير أن يجدوه في كتاب ولا أمروا به ؛ ولفظة الحسد تعطى هذا ، فجاء من عند أنفسهم تأكيدا وإلزاما ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ . ﴿ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ . ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ . والآية في اليهود .

الثانيــة ــ الحسد نوعان : مذموم ومحمود ؛ فالمذموم أن تمنّى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم ، وسواء تمنّيت مع ذلك أن تعود إليك أولا ، وهذا النوع الذى ذمّه الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . وإنما كان مذموما لأن فيه تسفيه الحق سبحانه ، وأنه أنعم على من لا يستحق . وأما المحمود فهو ما جاء في صحيح الحديث من قوله عليه السلام : " لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء

النار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار " . وهــذا الحديث معناه الغبطة ، وكذلك ترجم عليــه البخارى باب الاغتباط فى العلم والحكمة . وحقيقتها : أن تمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره؛ وقد يجوز أن يسمى هذا منافسة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ . أى من بعد ماتبين الحق لهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الذى جاء به .

قوله تعالى : ﴿ فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا ﴾ . فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَٱعْفُوا ﴾ . والأصل اعفووا حذفت الضمة لثقلها، ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين؛ والعفو : ترك المؤاخذة بالذنب . والصفح : إزالة أثره من النفس؛ صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه؛ وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ .

الثانيــة ــ هــذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . الى قوله : ﴿ صَاغِرُونَ ﴾ . عن ابن عباس . وقيل : الناسخ لها ﴿ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ . قال أبو عبيدة : كل آية فيها ترك للقتال فهى مكية منسوخة بالقتال .

قال ابن عطية : وحكمه بأن هــذه الآية مكية ضعيف ، لأن معاندات اليهود إنما كانت بالمدينــــة .

قلت : وهو الصحيح ، روى البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدكية وأسامة وراءه ، يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث ابن الخزرج قبل واقعة بدر ؛ فسارا حتى مرا بمجلس فيه عبد الله بن أبىّ بن سلول ــ وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبىّ ــ فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود؛ وفى المســلمين عبد الله بن رواحة ؛ فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمّر ابن أبىّ

أنفه بردائه وقال : لا تُغبِّرُوا علينا ! فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف ، فنزل فدعاهم الى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن ، فقال له عبد الله بن أبيّ بن سلول : أيها المرءُ ، لا أحسن مما تقول إن كان حقا ! فلا تؤذنا به في مجالسنا ، فمن جاءك فاقصص عليه(١) . قال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله ، فاغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك . فاستبّ المشركون والمسلمون واليهود حتى كادوا يتثاورون ؛ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب — يريد عبد الله بن أبيّ — قال كذا وكذا ، فقال : أي رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، أعف عنه واصفح ، فوالذي أنزل عليك الكتاب بالحق لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك ؛ ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة ، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك فعل ما رأيت ؛ فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله تعالى ، ويصبرون على الأذى ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ . وقال : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ ﴾ . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو عنهم ما أمره الله به حتى أذن له فيهم ؛ فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا فقتل الله بها من قتل من صناديد الكفار وسادات قريش ؛ فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه غانمين منصورين ، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادات قريش ؛ قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين عبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه ؛ فبايِعُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأسلموا .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ . يعني قتل قريظة وجلاء بني النضير . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ﴾ . تقدم والحمد لله تعالى .

(١) سقطت هنا عبارة : « ارجع الى رحلك »

قوله تعالى : ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ . جاء فى الحديث « إن العبد إذا مات قال الناس ما خلّف وقالت الملائكة ما قدّم » . وخرّج البخارى والنسائى عن عبدالله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم مال وارثه أحب اليه من ماله » . قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب اليه من مال وارثه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منكم من أحد إلا مال وارثه أحب اليه من ماله مالكُ ما قدمت ومالُ وارثك ما أخرت» . لفظ النسائى . ولفظ البخارى قال عبد الله قال النبى صلى الله عليه وسلم : «أيكم مال وارثه أحب اليه من ماله» قالوا : يارسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب اليه ؛ قال : « فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » . وجاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه مرّ ببقيع الغرقد فقال : السلام عليكم أهل القبور ، أخبار ما عندنا ، فإن نساءكم قد تزوّجن ، ودوركم قد سكنت ، وأموالكم قد قسمت ؛ فأجابه هاتف : يا بن الخطاب ، أخبار ما عندنا أن ما قدمناه وجدناه ، وما أنفقناه فقد ربحناه ، وما خلفناه فقد خسرناه . ولقد أحسن القائل :

قدم لنفسك قبل موتك صالحا * واعمل فليس الى الخلود سبيل

وقال آخر :

قدم لنفسك توبة مرجوة * قبل الممات وقبل حبس الألسن

وقال آخر :

ولدتك إذ ولدتك أمك باكيا * والقوم حولك يضحكون سرورا

فاعمل ليوم تكون فيه إذا بكوا * فى يوم موتك ضاحكا مسرورا

وقال آخر :

سابق الى الخير وبادر به * فإنما خلفك ما تعلم

وقدم الخير فكل امرئ * على الذى قدمه يقدم

وأحسن من هذا كله قول أبى العتاهية :

اسعد بمالك فى حياتك إنما * يبقى وراءك مفلح او مفسد

وإذا تركت لمفسد لم يبقه * وأخو الصلاح قليله يتزيد
وإن استطعت فكن لنفسك وارثا * إن المورث نفسه لمسدد

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ . المعنى وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا . وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا . وأجاز الفراء أن يكون هودا بمعنى يهوديا حذف منه الزائدة، وأن يكون جمع هائد . وقال الأخفش سعيد : إلا من كان، جعل كان واحدا على لفظ من، ثم قال هودا فجمع؛ لأن معنى من جمع . ويجوز تلك أمانيهم . وتقدم الكلام في هذا والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ . أصل هاتوا هاتيوا فحذفت الضمة لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، يقال في الواحد المذكر : هات، مثل : رام . وفي المؤنث : هاتي، مثل : رامي . والبرهان : الدليل الذي يوقع اليقين، وجمعه براهين، مثل : قربان وقرابين، وسلطان وسلاطين . قال الطبري : طلب الدليل هنا يقتضي إثبات النظر ويرد على من ينفيه . ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . يعني في إيمانكم وفي قولكم تدخلون الجنة أي بينوا ما قلتم ببرهان، ثم قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ ﴾ . ردا عليهم، وتكذيبا لهم أي ليس كما تقولون . وقيل : إن بلى محمولة على المعنى، كأنه قيل أما يدخل الجنة أحد ؟ فقيل : بلى، ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ . ومعنى أسلم استسلم وخضع . وقيل : أخلص عمله . وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع الحواس، وفيه يظهر العز والذل . والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء . ويصح أن يكون الوجه في هذه الآية المقصد ﴿ وهو محسن ﴾ جملة في موضع الحال، وعاد الضمير في وجهه، وله، على لفظ من، وكذلك أجره، وعاد في عليهم على المعنى، وكذلك في يحزنون وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ . الآية . معناه ادعى كل فريق منهم أن صاحبه ليس على شيء، وأنه أحق برحمة الله منه . ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ ﴾ .

يعنى التوراة والإنجيل، والجملة فى موضع الحال؛ والمراد بالذين لا يعلمون فى قول الجمهور: كفار العرب؛ لأنهم لا كتاب لهم . وقال عطاء : المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى . الربيع بن أنس : المعنى كذلك قالت اليهود قبل النصارى . ابن عباس : قدم أهل نجران على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فأتتهم أحبار يهود ؛ فتنازعوا عند النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وقالت كل فرقة منهم للأخرى : لستم على شىء . فنزلت الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ﴾ .

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ﴾ . رفع بالابتداء، وأظلم خبره؛ والمعنى لا أحد أظلم . وأن، فى موضع نصب على البدل من مساجد، ويجوز أن يكون التقدير كراهية أن يذكر، ثم حذف، ويجوز أن يكون التقدير من أن يذكر فيها ؛ وحرف الخفض يحذف مع أن لطول الكلام . وأراد بالمساجد هنا بيت المقدس ومحاريبه . وقيل : الكعبة، وجمعت لأنها قبلة المساجد، أو للتعظيم . وقيل : المراد سائر المساجد، والواحد مسجد بكسر الجيم، ومن العرب من يقول : مسجد بفتحها . قال الفراء : كلما كان على فَعَل يفعُل، مثل : دخل يدخل، فالمفعل منه بالفتح اسما كان أو مصدرا، ولا يقع فيه الفرق مثل : دخل يدخل مدخلا، وهذا مدخَلُه إلا أحرفا من الأسماء ألزموها كسر العين، من ذلك : المسجد والمطلع والمغرب والمشرق والمسقط والمفرق والمجزر والمسكن والمرفق (من رَفَق يرفُق) والمنبت والمنسك (من نَسَك ينسُك) فجعلوا الكسر علامة للاسم ، وربما فتحه بعض العرب فى الاسم . والمَسْجَد (بالفتح) : جبهة الرجل حيث يصيبه نَدَبُ السجود . والآراب السبعة مساجد . قاله الجوهرى .

الثانية — واختلف الناس فى المراد بهذه الآية، وفيمن نزلت، فذكر المفسرون أنها نزلت فى بخت نصّر؛ لأنه كان أخرب بيت المقدس . وقال ابن عباس وغيره : نزلت فى النصارى . والمعنى كيف تدّعون أيها النصارى أنكم من أهل الجنة ! وقد خربتم بيت المقدس، ومنعتم المصلين من الصلاة فيه . ومعنى الآية على هذا التعجب من فعل النصارى

بيت المقدس مع تعظيمهم له ، وإنما فعلوا ما فعلوا عداوة لليهود . روى سعيد عن قتادة قال : أولئك أعداء الله النصارى ، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بخت نصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس . وروى أن هذا التخريب بقى الى زمن عمر رضى الله عنه . وقيل : نزلت فى المشركين إذ منعوا المصلين ، والنبي صلى الله عليه وسلم ، وصدوهم عن المسجد الحرام ، عام الحديبية . وقيل : المراد مَنْ منع مِن كل مسجد الى يوم القيامة وهو الصحيح ؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع ، فتخصيصها ببعض المساجد و بعض الأشخاص ضعيف . والله تعالى أعلم .

الثالثة — خراب المساجد قد يكون حقيقيا كتخريب بخت نصر ، أو النصارى بيت المقدس على ما ذكر : أنهم غزوا بنى اسرائيل مع بعض ملوكهم — قيل : اسمه بطوس[(1)] بن اسيسانوس[(2)] الرومى فيما ذكر الغزنوى — فقتلوا وسبوا ، وحرقوا التوراة ، وقذفوا فى بيت المقدس العذرة وخربوه .

ويكون مجازا كمنع المشركين المسلمين حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ؛ وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة و إظهار شعائر الاسلام فيها خراب لها .

الرابعة — قال علماؤنا : ولهذا قلنا لا يجوز منع المرأة من الحج اذا كانت صرورة ، سواء كان لها محرم أو لم يكن . ولا تمنع أيضا من الصلاة فى المساجد ما لم يخف عليها الفتنة ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » . ولذلك قلنا : لا يجوز نقض المسجد ولا بيعه ولا تعطيله وان خربت المحلة ، ولا يمنع من بناء المساجد الا أن يقصدوا الشقاق والخلاف ، بأن يبنوا مسجدا الى جنب مسجد أو قربه ؛ يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأول وخرابه ، واختلاف الكلمة ، فان المسجد الثانى ينقض ويمنع من بنائه ؛ ولذلك قلنا : لا يجوز أن يكون فى المصر جامعان ، ولا لمسجد واحد إمامان ، ولا يصلى فى مسجد

---

(١) فى نسخة من الأصل « تطوس » ، بالتاء ، وفى نسخة بطوش بالباء والشين المعجمة .

(٢) فى بعض الأصول : « أسانوس » .

جماعتان. وسيأتى لهذا كله مزيد بيان فى سورة براءة إن شاء الله تعالى، وفى النور حكم المساجد وبنائها بحول الله تعالى . ودلّت الآية أيضا على تعظيم أمر الصلاة ، وأنها لما كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجرا كان منعها أعظم إثما .

الخامسة ــ كل موضع يمكن أن يعبد الله فيه ويسجد له يسمى مسجدا؛ قال صلى الله عليه وسلم : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » . أخرجه الأئمة، وأجمعت الأمة على أن البقعة اذا عينت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بربها وصارت عامة لجميع المسلمين ؛ فلو بنى رجل فى داره مسجدا وحجزه على الناس واختص به لنفسه لبقى على ملكه ولم يخرج الى حد المسجدية، ولو أباحه للناس كلهم كان حكمه حكم سائر المساجد العامة وخرج عن اختصاص الأملاك .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ . أولئك ، مبتدأ وما بعده خبره . خائفين ، حال . يعنى اذا استولى عليها المسلمون وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها؛ فان دخلوها فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم ، وتأديبهم على دخولها ؛ وفى هذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد بحال على ما يأتى بيانه فى براءة ان شاء الله تعالى . ومن جعل الآية فى النصارى، روى أنه مر زمان بعد بناء عمر بيت المقدس فى الإسلام لايدخله نصرانى إلا أوجع ضربا بعد أن كان متعبدهم . ومن جعلها فى قريش قال: كذلك نودى بأمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان . وقيل : هو خبر، ومقصوده الأمر أى جاهدوهم واستأصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم المسجد الحرام الا خائفا؛ كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ . فإنه نهى ورد بلفظ الخبر .

السابعة ــ قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ . قيل: القتل للحربيّ، والجزية للذمى. عن قتادة . السدى : الخزى لهم فى الدنيا قيام المهدى ، وفتح عَمُّورِيَّة ورُومِيَة وقُسْطَنْطِينِيَّة

وغير ذلك من مذمهم؛ على ما ذكرنا فى كتاب التذكرة . ومن جعلها فى قريش جعل الخزى عليهم فى الفتح، والعذاب فى الآخرة لمن مات منهم كافرا .

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ . المشرق : موضع الشروق ، والمغرب : موضع الغروب ؛ أى هما له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات بالإيجاد والاختراع؛ كما تقدّم . وخصهما بالذكر والإضافة إليه تشريفا؛ نحو بيت الله ، وناقة الله ، ولأن سبب الآية اقتضى ذلك على ما يأتى .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾ . شرط، ولذلك حذفت النون، وأين العاملة، وما زائدة، والجواب : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ . وقرأ الحسن تولوا ، بفتح التاء واللام؛ والأصل تتولوا؛ وثم، فى موضع نصب على الظرف ومعناها البعد ؛ إلا أنها مبنية على الفتح غير معربة لأنها مبهمة، تكون بمنزلة هناك للبعد، فإن أردت القرب قلت : هنا .

الثالثة — اختلف العلماء فى المعنى الذى نزلت فيه ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾ . على خمسة أقوال .

فقال عبد الله بن عامر بن ربيعة : نزلت فى من صلى إلى غير القبلة فى ليلة مظلمة . أخرجه الترمذىّ عنه عن أبيه قال : كنا مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى سفر فى ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة؛ فصلى كل واحد منا على حياله ؛ فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم فنزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بذاك ، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان ؛ وأشعث بن سعيد أبو الربيع يضعف فى الحديث ؛ وقد ذهب أكثر أهل العلم الى هذا . قالوا : إذا صلى فى الغيم لغير القبلة ثم استبان له بعد ذلك أنه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة ؛ وبه يقول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق .

قلت : وهو قول أبى حنيفة ومالك، غير أن مالكا قال : تستحب له الإعادة فى الوقت، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدى فرضه على ما أمر ؛ والكمال يستدرك فى الوقت استدلالا بالسنة فيمن صلى وحده ثم أدرك تلك الصلاة فى وقتها فى جماعة، أنه يعيد معهم؛ ولا يعيد فى الوقت استحبابا إلا من استدبر القبلة أو شرق أو غرب جدا مجتهدا ، وأما من تيامن أو تياسر قليلا مجتهدا فلا إعادة عليه فى وقت ولا غيره. وقال المغيرة والشافعى: لايجزيه؛ لأن القبلة شرط من شروط الصلاة. وما قاله مالك أصح ؛ لأن جهة القبلة تبيح الضرورة تركها فى المسايفة، وتبيحها أيضا الرخصة حالة السفر. وقال ابن عمر : نزلت فى المسافر يتنفل حيثما توجهت به راحلته . أخرجه مسلم عنه؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهو مقبل من مكة الى المدينة على راحلته حيث كان وجهه . قال : وفيه نزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ . ولا خلاف بين العلماء فى جواز النافلة على الراحلة لهذا الحديث، وما كان مثله . ولا يجوز لأحد أن يدع القبلة عامدا بوجه من الوجوه إلا فى شدة الخوف على ما يأتى .

واختلف قول مالك فى المريض يصلى على محمله ؛ فمرة قال : لا يصلى على ظهر البعير فريضة وان اشتد مرضه . قال سحنون : فإن فعل أعاد . حكاه الباجى . ومرة قال : إن كان ممن لا يصلى بالأرض إلا إيماء فليصلّ على البعير بعد أن يوقف له ويستقبل القبلة . وأجمعوا على أنه لا يجوز لأحد صحيح أن يصلى فريضة إلا بالأرض إلا فى الخوف الشديد خاصة ؛ على ما يأتى بيانه .

واختلف الفقهاء فى المسافر سفرا لا تقصر فى مثله الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه والثورى : لا يتطوع على الراحلة إلا فى سفر تقصر فى مثله الصلاة؛ قالوا : لأن الأسفار التى حكى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه كان يتطوع فيها كانت مما تقصر فيه الصلاة . وقال الشافعى وأبو حنيفة وأصحابهما والحسن بن حى والليث بن سعد وداود بن علىّ : يجوز التطوع على

الراحلة خارج المصر في كل سفر، وسواء كان مما تقصر فيه الصلاة أولا؛ لأن الآثار ليس فيها تخصيص سفر من سفر، فكل سفر جائز ذلك فيه، إلا أن يخص شيء من الأسفار بما يجب التسليم له . وقال أبو يوسف : يصلى في المصر على الدابة بالإيماء؛ لحديث يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك أنه صلى على حمار في أزقة المدينة يومئ إيماء . وقال الطبرى : يجوز لكل راكب وماش حاضرا كانَ أو مسافرا أن يتنفل على دابته وراحلته وعلى رجليه [بالايماء] . وحكى عن بعض أصحاب الشافعي أن مذهبهم جواز التنفل على الدابة في الحضر والسفر . وقال الأثرم : قيل لأحمد بن حنبل الصلاة على الدابة في الحضر؛ فقال : أما في السفر فقد سمعت ، وما سمعت في الحضر . قال ابن القاسم : من تنفل في محمله[1] تنفل جالسا قيامه تربع ، يركع واضعا يديه على ركبتيه ثم يرفع رأسه . وقال قتادة : نزلت في النّجاشي، وذلك أنه لما مات دعا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المسلمين إلى الصلاة عليه خارج المدينة ، فقالوا : كيف نصلى على رجل مات ؟ وهو يصلى لغير قبلتنا — وكان النّجاشي ملك الحبشة، واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية — يصلى إلى بيت المقدس حتى مات، وقد صرفت القبلة الى الكعبة فنزلت الآية، ونزل فيه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ . فكان هذا عذرا للنجاشي؛ وكانت صلاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عليه بأصحابه سنة تسع من الهجرة . وقد استدل بهذا من أجاز الصلاة على الغائب، وقد كنت ببغداد في مجلس الإمام فخر الإسلام فيدخل عليه الرجل من خراسان فيقول له : كيف حال فلان ؟ فيقول له : مات؛ فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم يقول لنا: قوموا فلأصلى لكم؛ فيقوم فيصلى عليه بنا، وذلك بعد ستة أشهر من المدة، وبينه وبين بلده ستة أشهر .

والأصل عندهم في ذلك صلاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على النجاشي . وقال علماؤنا رحمة الله عليهم : النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بذلك مخصوص لثلاثة أوجه ؛ أحدها : أن الأرض دحيت له جنوبا وشمالا حتى رأى نعش النجاشي كما دحيت له شمالا وجنوبا حتى رأى المسجد

---

(١) في نسخة من الأصل : «في محفه» .

الأقصى . قال المخالف : وأى فائدة فى رؤيته! وإنما الفائدة فى لحوق بركته . الثانى : أن النجاشى لم يكن له هناك ولىّ من المؤمنين يقوم بالصلاة عليه . قال المخالف : هذا محال عادة! ملك على دين لا يكون له أتباع والتأويل بالمحال محال . الثالث : أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إنما أراد بالصلاة على النّجاشى إدخال الرحمة عليه واستئلاف بقيّة الملوك بعده إذا رأوا الاهتمام به حيا وميتا . قال المخالف : بركة الدعاء من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم على النجاشى أنه علم أن النّجاشى ومن آمن معه ليس عندهم من سنة الصلاة على الميت أثر، فعلم أنهم سيدفنونه بغير صلاة فبادر الى الصلاة عليه .

قلت : والتأويل الأول حسن؛ لأنه اذا رآه فما صلّى على غائب وإنما صلّى على مرئى حاضر، والغائب ما لا يرى . والله تعالى أعلم .

القول الرابع : قال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم الى بيت المقدس وقالوا: ما اهتدى الا بنا؛ فلما حوّل الى الكعبة قالت اليهود : ما ولّاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؛ فنزلت : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ . فوجه النّظم على هذا القول : أن اليهود لما أنكروا أمر القبلة بيّن الله تعالى أن له أن يتعبد عباده بما شاء، فإن شاء أمرهم بالتوجه إلى بيت المقدس، وإن شاء أمرهم بالتوجه إلى الكعبة، فَعَلَ لا حجة عليه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .

القول الخامس : أن الآية منسوخة بقوله : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾. ذكره ابن عباس ؛ فكأنه كان يجوز فى الابتداء أن يصلى المرء كيف شاء ثم نسخ ذلك . وقال قتادة : الناسخ قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ . أى تلقاءه . حكاه أبو عيسى الترمذى . ❁

وقول سادس : روى عن مجاهد والضحاك أنها محكمة المعنى، أينما كنتم من شرق وغرب فثمّ وجه الله الذى أمرنا باستقباله وهو الكعبة . وعن مجاهد أيضا وابن جبير لما نزلت : ﴿ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ . قالوا : إلى أين ؟ فنزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ . وعن

ابن عمر والنخعي : أينما تولوا في أسفاركم ومنصرفاتكم فثم وجه الله . وقيل : هي متصلة بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ ﴾ . الآية؛ فالمعنى أن بلاد الله أيها المؤمنون تسعكم ، فلا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله أن تولّوا وجوهكم نحو قبلة الله، أينما كنتم من أرضه . وقيل : نزلت حين صُدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عن البيت عام الحديبية، فاغتم المسلمون لذلك . فهذه عشرة أقوال .

ومن جعلها منسوخة فلا اعتراض عليه من جهة كونها خبرا؛ لأنها محتملة لمعنى الأمر ، يحتمل أن يكون معنى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ، ولّوا وجوهكم نحو وجه الله . وهذه الآية هي التي تلا سعيد بن جبير رحمه الله لما أمر الحجاج بذبحه إلى الأرض .

الرابعة ـ اختلف الناس في تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى في القرآن والسنة؛ فقال الحذاق : ذلك راجع إلى الوجود، والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام، اذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد ، وأجلها قدرا . وقال ابن فُوْرَك : قد تذكر صفة الشيء والمراد بها الموصوف توسعا؛ كما يقول القائل : رأيت علم فلان اليوم، ونظرت الى علمه؛ وانما يريد بذلك رأيت العالم ونظرت الى العالم؛ كذلك إذا ذكر الوجه هنا والمراد من له الوجه : أي الوجود؛ وعلى هذا يتأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ . لأن المراد به : لله الذى له الوجه؛ وكذلك قوله : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ . أى الذى له الوجه . قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه عز وجل؛ كما قال : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ . وقال بعض الأئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى . قال ابن عطيّة : وضعّف أبو المعالى هذا القول، وكذلك هو ضعيف ؛ وانما المراد وجوده . وقيل : المراد بالوجه هنا الجهة التي وجهنا إليها وهي القبلة . وقيل : الوجه القصد؛ كما قال الشاعر :

أستغفر الله ذنبا لست محصيه * رب العباد إليه الوجه والعمل

وقيل : المعنى فثمّ رضا الله وثوابه ؛ كما قال : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ . أى لرضائه طلب ثوابه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له

مثله فى الجنة » . وقوله : «يجاء يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدى الله تعالى فيقول عز وجل لملائكته ألقوا هذا وأقبلوا هذا، فتقول الملائكة : وعزتك يا ربنا ما رأينا إلا خيرا وهوأعلم فيقول إن هذا كان لغير وجهى ولا أقبل من العمل إلا ما ابتغى به وجهى». أى : خالصا لى ؛ خرجه الدارقطنى . وقيل : المراد فثم الله . والوجه صلة ؛ وهو كقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ . قاله الكلبى والعتبى . ونحوه قول المعتزلة .

الخامسة ـ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . أى يوسع على عباده فى دينهم ، ولا يكلفهم ما ليس فى وسعهم . وقيل : واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شئ ؛ كما قال : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ . وقال الفراء : الواسع الجواد الذى يسع عطاؤه كل شئ ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ . وقيل : واسع المغفرة أى لا يتعاظمه ذنب . وقيل : متفضّل على العباد ، وغنىّ عن أعمالهم ؛ يقال : فلان يسع ما يسئل أى لا يبخل ؛ قال الله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ . أى لينفق الغنىّ مما أعطاه . وقد أتينا عليه فى الكتاب "الأسنى" والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ . هذا إخبار عن النصارى فى قولهم : المسيح ابن الله . وقيل : عن اليهود فى قولهم : عزير ابن الله . وقيل : عن كفرة العرب فى قولهم : الملائكة بنات الله . وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهلة الكفار فى مريم والأنبياء .

الثانية ـ خرّج البخارى عن ابن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : «قال الله تعالى كذّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان . وأما شتمه إياى فقوله لى ولد فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا » .

الثالثة ـ سبحان منصوب على المصدر ومعناه التبرئة والتنزيه والمحاشاة من قولهم : اتخذ الله ولدا ؛ بل هو الله تعالى واحد فى ذاته ، أحد فى صفاته ، لم يلد فيحتاج إلى صاحبة ،

أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء، ولم يولد فيكون مسبوقا؛ جلّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا .

﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . ما، رفع بالابتداء والخبر في المجرور؛ أي كل ذلك له ملك بالإيجاد والاختراع . والقائل بأنه آتخذ ولدا داخل في جملة السموات والأرض . وقد تقدّم أن معنى سبحان الله براءة الله من السوء .

الرابعة — لا يكون الولد إلا من جنس الوالد، فكيف يكون للحق سبحانه أن يتخذ ولدا من مخلوقاته وهو لا يشبهه شيء؛ وقد قال : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ . كما قال هنا : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . فالولدية تقتضي الجنسية والحدوث، والقدم يقتضي الوحدانية والثبوت ؛ فهو سبحانه القديم الأزلي الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . ثم قال : إن البنوة تنافي الرق والعبودية؛ على ما يأتي بيانه في سورة مريم، إن شاء الله تعالى. فكيف يكون ولد عبدا هذا محال، وما أدّى إلى المحال محال .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ . ابتداء وخبر، والتقدير كلهم، ثم حذف الهاء والميم . قانتون أي مطيعون وخاضعون ؛ فالمخلوقات كلها تقنت لله أي تخضع وتطيع . والجمادات قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم؛ فالقنوت : الطاعة . والقنوت : السكوت؛ ومنه قول زيد بن أرقم : كنا نتكلم في الصلاة ، يكلم الرجل صاحبه الى جنبه حتى نزلت : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ . فأمرنا بالسكوت ، ونهينا عن الكلام . والقنوت : الصلاة؛ قال الشاعر :

قانتا لله يتلو كتبه * وعلى عمد من الناس اعتزل

وقال السدي وغيره في قوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ . أي يوم القيامة . الحسن : كل قائم بالشهادة أنه عبده . والقنوت في اللغة أصله القيام ؛ ومنه الحديث « أفضل الصلاة طول القنوت » قاله الزجاج . فالخلق قانتون أي قائمون بالعبودية إما إقرارا، وإما أن يكون على

خلاف ذلك؛ فأثر الصبغة بين عليهم . وقيل : أصله الطاعة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْقَانِتَاتِ ﴾ وسيأتى لهذا مزيد بيان عند قوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَوَاتِ ﴾ . فعيل للبالغة ، وارتفع على خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع؛ كبصير من مبصر . أبدعت الشىء لا عن مثال؛ فالله عزّ وجلّ بديع السموات والأرض أى منشئهما وموجدهما ومبدعهما ومخترعهما على غير حدّ ولا مثال. وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له : مبدع؛ ومنه أصحاب البدع. وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام ؛ وفى البخارى "ونعمت البدعة هذه" . يعنى قيام رمضان .

الثانيــة ــ كل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل فى الشرع أو لا . فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ رسوله عليه، فهى فى حيز المدح . وإن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهذا فعله من الأفعال المحمودة؛ وإن لم يكن الفاعل قد سبق إليه؛ ويعضد هذا قول عمر رضى الله عنه : نعمت البدعة هذه [أى صلاة التراويح فى جماعة]؛ لما كانت من أفعال الخير وداخلة فى حيز الممدوح، وهى وإن كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها ، ولا جمع الناس عليها ؛ فمحافظة عمر رضى الله عنه عليها، وجمع الناس لها، وندبهم إليها، بدعة لكنها بدعة محمودة . وإن كانت فى خلاف ما أمر الله به ورسوله فهى فى حيز الذم والإنكار؛ قال معناه الخطابى وغيره .

قلت : وهو معنى قوله صلّى الله عليه وسلّم فى خطبته : «وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة» . يريد ما لم يوافق كتابا أو سنة أو عمل الصحابة رضى الله عنهم، وقد بين هذا بقوله : «من سن فى الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ومن سنّ فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها

من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » . هذا إشارة إلى ما ابتدع من قبيح وحسن ، وهو أصل هذا الباب وبالله العصمة والتوفيق .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ . أى إذا أراد إحكامه وإتقانه — كما سبق فى علمه — قال له : كن . قال ابن عرفة : قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه ؛ ومنه سمى القاضى لإنه إذا حكم فقد فرغ مما بين الخصمين . وقال الأزهرى : قضى فى اللغة على وجوه ، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه ؛ قال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أو صَنَعُ السوابغ تُبَّعُ

وقال الشماخ فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها * بوائق فى أكمامها لم تفتق

قال علماؤنا : قضى لفظ مشترك يكون بمعنى الخلق ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ . أى خلقهن . ويكون بمعنى الإعلام ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ أى أعلمنا . ويكون بمعنى الأمر ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ . ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام ؛ ومنه سمى الحاكم قاضيا . ويكون بمعنى توفية الحق ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ . ويكون بمعنى الإرادة ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى اذا أراد خلق شيء . قال ابن عطية : قضى ، معناه قدر ؛ وقد يجيء بمعنى أمضى ؛ ويتجه فى هذه الآية المعنيان على مذهب أهل السنة قدر فى الأزل وأمضى فيه . وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ أَمْرًا ﴾ . الأمر واحد الأمور ، وليس بمصدر أمر يأمر . قال علماؤنا : والأمر فى القرآن ينصرف على أربعة عشر وجها :

الأول — الدين ، قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ . يعنى دين الاسلام .

الثـانى ـ القول ؛ ومنـه قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ ، يعنى قولنا ، وقوله : ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ . يعنى قولهم .

الثالث ـ العـذاب ؛ ومنه قوله تعـالى : ﴿ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ . يعنى لما وجب العذاب بأهل النار .

الرابـع ـ عيسى عليـه السلام ؛ قال الله تعـالى : ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ . يعنى عيسى وكان فى علمه أن يكون من غير أب .

الخامس ـ القتل ببـدر ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ . يعنى القتل ببدر ، وقوله : ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ . يعنى قتل كفار مكة .

السادس ـ فتح مكة ؛ قال الله تعـالى : ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ . يعنى فتح مكة .

السابـع ـ قتل قريظـة وجلاء بنى النضير؛ قال الله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

الثـامن ـ القيامة؛ قال الله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ .

التاسـع ـ القضاء؛ قال الله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ . يعنى القضاء .

العـاشر ـ الوحى؛ قال الله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ . يقول : ينزل الوحى من السماء إلى الأرض، وقوله : ﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ . يعنى الوحى .

الحادى عشر ـ أمر الخلق؛ قال الله تعـالى : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ . يعنى أمور الخلائق .

الثـانى عشر ـ النصر؛ قال الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ . يعنون النصر . ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ . يعنى النصر .

الثالث عشر ـ الذنب؛ قال الله تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ . أى جزاء ذنبها .

الرابع عشر — الشأن والفعل؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ . أى فعله وشأنه، وقال : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ . أى فعله وقوله .

الخامسة — قوله ﴿ كُنْ ﴾ . قيل : الكاف من كينونه ، والنون من نوره ؛ وهى المراد بقوله عليه السلام : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » . وروى : « بكلمة الله التامة» . على الإفراد . فالجمع لما كانت هذه الكلمة فى الأمور كلها، فإذا قال لكل أمر : كن، ولكل شيء : كن، فهن كلمات؛ يدل على هذا ما روى عن أبي ذر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن الله تعالى: «عطائى كلام وعذابى كلام» . خرجه الترمذى فى حديث فيه طول . والكلمة على الإفراد بمعنى الكلمات أيضا لكن لما تفرقت الكلمة الواحدة فى الأمور فى الأوقات صارت كلمات ومرجعهن إلى كلمة واحدة . وإنما قيل : تامة؛ لأن أقل الكلام عند أهل اللغة على ثلاثة أحرف، حرف مبتدأ، وحرف تحشى به الكلمة، وحرف يسكت عليه . وإذا كان على حرفين فهو عندهم منقوص، كيد ودم وفم؛ وإنما نقص لعلة، فهى من الآدميين من المنقوصات لأنها على حرفين، ولأنها كلمة ملفوظة بالأدوات؛ ومن ربنا تبارك وتعالى تامة لأنها بغير الأدوات تعالى عن شبه المخلوقين .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ قرئ برفع النون على الاستئناف . قال سيبويه : فهو يكون، أو فإنه يكون . وقال غيره : هو معطوف على يقول . فعلى الأول كائنا بعد الأمر، وإن كان معدوما، فإنه بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم على ما يأتى بيانه . وعلى الثانى كائنا مع الأمر ؛ واختاره الطبرى وقال : أمره للشيء بكن لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه ؛ فلا يكون الشيء مأمورا بالوجود إلا وهو موجود بالأمر، ولا موجود إلا وهو مأمور بالوجود ؛ قال : ونظيره قيام الناس من قبورهم لا يتقدم دعاء الله ولا يتأخر عنه ؛ كما قال: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ . وضعف ابن عطية هذا القول وقال : هو خطأ من جهة المعنى؛ لأنه يقتضى أن القول من جهة التكوين والوجود .

وتلخيص المعتقد في هــذه الآية : أن الله عز وجل لم يزل آمرا للمعدومات بشرط وجودها، قادرا مع تأخر المقـدورات ، عالما مع تأخر المعلومات . فكل ما في الآية يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات؛ إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن . وكل ما يسند إلى الله تعـالى من قـدرة وعلم فهو قـديم لم يزل . والمعنى الذي تقتضيه عبارة كن ، هو قـديم قائم بالذات .

قال أبو الحسن المـاوردي : فإن قيـل : ففي أي حال يقول له كن فيكون ؟ في حال عدمه ، أم في حال وجوده؟ فإن كان في حال عدمه استحال أن يأمر إلا مأمورا؛ كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر . وإن كان في حال وجوده فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها بالوجود والحدوث؛ لأنه موجود حادث . قيل عن هذا السؤال أجوبة ثلاثة :

أحدها ــ أنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره في خلقه الموجود؛ كما أمر في بني إسرائيل أن يكونوا قردة خاسئين ؛ ولا يكون هذا واردا في إيجاد المعدومات .

الثـاني ــ أن الله عز وجل عالم بمـا هو كائن قبل كونه؛ فكانت الأشـياء التي لم تكن، وهي كائنة بعلمه قبل كونها متشابهة للتي هي موجودة؛ فجاز أن يقول لها : كوني ؛ ويأمرها بالخروج من حال العدم الى حال الوجود؛ لتصور جميعها له ولعلمه بها في حال العدم .

الثالث ــ أن ذلك خبر من الله تعالى عام عن جميع ما يحدثه ويكونه إذا أراد خلقه وإنشاءه كان ، ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله ، وإنمـا هو قضاء يريده . فعبر عنه بالقول، وإن لم يكن قولا؛ كقول أبي النجم :

* قد قالت الأنساع للبطن الحق *

ولا قول هناك، وإنمـا أراد أن الظهر قد لحق بالبطن، وكقول عمرو بن حممة الدوسي :

فأصبحت مثل النسر طارت فراخه * إذا رام تطيارا يقال له قـع

وكما قال الآخر:

قالت جناحاه لساقيه الحقا * ونجيا لحمكما أن يمزقا

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . قال ابن عباس : هم اليهود . مجاهد : النصارى . ورجحه الطبرى؛ لأنهم المذكورون فى الآية أولا . وقال الربيع والسدى وقتادة: مشركو العرب . ولولا بمعنى هلا تحضيض؛ كما قال الأشهب بن رميلة :

تعدّون عقر النيب أفضل مجدكم ◆ بنى ضوطرى لولا الكمىّ المقنّعا

وليست هذه لولا التى تعطى منع الشىء لوجود غيره ؛ والفرق بينهما عند علماء اللسان أن لولا بمعنى التحضيض لا يليها إلا الفعل مظهرا أو مقدرا . والتى للامتناع يليها الابتداء ، وجرت العادة بحذف الخبر . ومعنى الكلام هل لا يكلمنا الله بنبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم فنعلم أنه نبى فنؤمن به، أو يأتينا بآية تكون علامة على نبوته . والآية : الدلالة والعلامة؛ وقد تقدّم. و ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ . اليهود والنصارى فى قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب، أو الأمم السالفة فى قول من جعل الذين لا يعلمون اليهود والنصارى ، أو اليهود فى قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى . ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ . قيل : فى التعنيت والاقتراح وترك الإيمان . قال الفراء . تشابهت فى اتفاقهم على الكفر . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ . تقـدّم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا ﴾ . نصب على الحال . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ . عطف عليه . وقد تقدّم معناهما . ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . قال مقاتل : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا » فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . برفع تسئل، وهى قراءة الجمهور، ويكون فى موضع الحال وبعطفه على بشيرا ونذيرا . المعنى إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير مسئول . وقال سعيد الأخفش : ولا تسئل بفتح التاء وضم اللام، وتكون فى موضع الحال عطفا على بشيرا ونذيرا . المعنى إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير سائل عنهم؛ لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغنى عن سؤاله عنهم . هذا معنى غير سائل ، ومعنى غير مسئول لا يكون مؤاخذا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

ذات يوم : « ليت شعري ما فعل أبواى » . فنزلت هذه الآية؛ وهذا على قراءة من قرأ ولا تسئل جزما على النهي، وهي قراءة نافع وحده . وفيه وجهان :

أحدهما — أنه نهى عن السؤال عمن عصى وكفر من الأحياء ؛ لأنه قد يتغير حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان ، وعن المعصية إلى الطاعة .

والثاني — وهو الأظهر ، أنه نهى عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته ، تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه ، وهذا كما يقال : لاتسئل عن فلان : أي قد بلغ فوق ماتحسب . وقرأ ابن مسعود ولن تسأل . وقرأ أُبيّ وما تسئل؛ ومعناهما موافق لقراءة الجمهور . نفى أن يكون مسئولا عنهم . وقيل : إنما سأل أيّ أبويه أحدث موتا ؟ فنزلت . وقد ذكرنا في كتاب التذكرة أن الله تعالى أحيا له أباه وأمه وآمنا به، وذكرنا قوله عليه السلام للرجل : « إن أبي وأباك في النار » . وبينا ذلك والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ . فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ . المعنى ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا ، بل لو أتيتهم بكل ما يسئلون لم يرضوا عنك ، وإنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم . يقال : رضِيَ يرضَى رضًا ورُضًا ورِضوانا ومَرْضاة ؛ وهو من ذوات الواو ، ويقال في التثنية : رِضَوَانِ ، وحكى الكسائي رِضَيَانِ . وحُكي رضاء ممدود وكأنه مصدر راضى يراضي مراضاة ورضاءً . و«تتبع» منصوب بأن ولكنها لا تظهر مع حتى . قاله الخليل؛ وذلك أن حتى خافضة للاسم ، كقوله : ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ . وما يعمل في الاسم لا يعمل في الفعل البتة . وما يخفض اسما لا ينصب شيئا . وقال النحاس : «تتبع» منصوب بحتى ، وحتى بدل من أن . والملة : اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه على ألسنة رسله ، فكانت الملة والشريعة سواء . فأما الدين فقد فرق بينه وبين الملة والشريعة ؛ فان الملة والشريعة ما دعا الله عباده إلى فعله ، والدين ما فعله العباد عن أمره .

الثانيــة ــ تمسك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعي وداود وأحمد ابن حنبل على أن الكفر كله ملة واحدة، لقوله تعـالى : ﴿ مِلَّتَهُمْ ﴾ . فوحّد الملة، وبقوله تعـالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، وكقوله عليه السـلام : « لا يرث المسلم الكافر » . وذهب مالك وأحمـد فى الرواية الأخرى إلى أن الكفر ملل، فلا يرث اليهوديّ النصرانيّ، ولا يرثان المجوسيّ، أخذا بظاهر قوله عليه السـلام : « لا يتوارث أهل ملتين » وأما قوله تعالى : ﴿ مِلَّتَهُمْ ﴾ . فالمراد به الكثرة وإن كانت موحدة فى اللفظ بدليل إضافتها الى ضمير الكثرة، كما تقول : أخذت عن علمـاء أهل المدينة ــ مثـلا ــ علمهم ، وسمعت عنهم حديثهم، يعنى علومهم وأحاديثهم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَى ﴾ . المعنى ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذى يضعه فى قلب من يشاء، هو الهدى الحقيق، لا ما يدعيه هؤلاء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ . الأهواء، جمع هوى كما تقول : جمل وأجمال، ولمـا كانت مختلفـة جمعت . ولو حمل على أفراد المـلة لقال : هواهم ؛ وفى هـذا الخطاب وجهان : أحدهما ــ أنه للرسول لتوجه الخطاب إليه . والثـانى ــ أنه للرسول والمراد به أمّته، وعلى الأوّل يكون فيه تأديب لأمته، إذ منزلتهم دون منزلته . وسبب الآية أنهم كانوا يسئلون المسالمة والهدنة، ويعدون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالإسلام، فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتّبع ملتهم، وأمره بجهادهم .

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ . سئل أحمد بن حنبل عمن يقول : القرآن مخلوق، فقال : كافر ؛ فقيل : بم كفرته؟ فقال : بآيات من كتاب الله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ . والقرآن من علم الله؛ فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ ﴾ . قال قتادة : هم أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلم، والكتاب على هذا التأويل القرآن . وقال ابن زيد : هم من أسلم من بنى إسرائيل

والكتاب على هـذا التأويل التوراة، والآية تعم . والذين، رفع بالابتداء . آتيناهم، صلته . يتلونه، خبر الابتداء، وإن شئت كان الخبر﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

واختلف فى معنى ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ . فقيـل : يتبعونه حق اتباعه، باتباع الأمر والنهى؛ فيحللون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بما تضمنه . قاله عكرمة . قال عكرمة : أما سمعت قول الله تعـالى : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ . أى اتبعها؛ وهو معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما . وقال الشاعر :

* قد جعلت دلوى تستليني *

وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمـر عن النبى صلى الله عليه وسـلم فى قوله تعالى : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ . قال : يتبعونه حق اتباعه . فى إسـناده غير واحد من المجهولين فيما ذكر الخطيب أبو بكر بن أحمـد ، إلا أن معناه صحيح . وقال أبو موسى بن حرمى الأشـعرى : من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة . وعن عمـر بن الخطاب رضى الله عنه : الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله ، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها . وقد روى هذا المعنى عن النبى صلى الله عليه وسلم : كان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ . وقال الحسن : هم الذين يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه . وقيل : يقرءونه حق قراءته .

قلت : وهذا فيه بعد، إلا أن يكون المعنى يرتلون ألفاظه، ويفهمون معانيه؛ فإن بفهم المعانى يكون الاتباع لمن وفق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ . الآية . فيه عشرون مسئلة :

الأولى ــ لمـا جرى ذكر الكعبة والقبلة اتصل ذلك بذكر إبراهيم عليه السلام، وأنه الذى بنى البيت؛ فكان من حق اليهود ــ وهم من نسل إبراهيم ــ ألا يرغبوا عن دينه . والابتلاء : الامتحان والاختبار . ومعناه أمر وتعبد . وإبراهيم، تفسيره بالسريانية فيما ذكر المـاوردى، وبالعربيـة فيما ذكر ابن عطيـة : أب رحيم . قال السهيلى : وكثيرا ما يقع الاتفاق بين

السرياني والعربي أو يقاربه في اللفظ ؛ ألا ترى أن إبراهيم ... رحيم ؛ لرحمته بالأطفال ؛ ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال ... الذين يموتون صغاراً الى يوم القيامة .

قلت : ومما يدل على هذا ما خرّجه البخاري من حديث الرؤيا الطويل عن سمرة، وفيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس . وقد أتينا عليه في كتاب التذكرة والحمد لله .

وإبراهيم هذا، هو ابن تارخ بن ناخور في قول بعض المؤرخين . وفي التنزيل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ . وكذلك في صحيح البخاري؛ ولا ... في ذلك على ما يأتي في الأنعام بيانه إن شاء الله تعالى . وكان له أربع بنين : إسماعيل وإسحاق ومدين ومدائن على ما ذكره السهيلي . وقدّم على الفاعل للاهتمام؛ إذ كون الرب تبارك وتعالى مبتليا معلوم، وكون الضمير المفعول في العربية متصلا بالفاعل موجب تقديم المفعول ، فإنما بنى الكلام على هذا الاهتمام، فاعلمه . وقراءة العامة إبراهيم بالنصب . ربه، بالرفع على ما ذكرنا . وروى عن جابر بن زيد أنه قرأ على العكس ، وزعم أن ابن عباس أقرأه كذلك فالمعنى دعا إبراهيم ربه وسأل؛ وفيه بعد؛ لأجل الباء في قوله : ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ . الكلمات جمع كلمة وترجع حقيقتها الى كلام البارى تعالى ، لكنه عبر بها عن الوظائف التي كلّفها إبراهيم عليه السلام ؛ ولما كان تكليفها بالكلام سميت به كما سمي عيسى كلمة؛ لأنه صدر عن كلمة وهي كن . وتسمية الشيء بمقدّمته أحد قسمي المجاز . قاله ابن العربي .

الثالثة — واختلف العلماء في المراد بالكلمات على أقوال : أحدها — شرائع الإسلام، وهي ثلاثون سهما : عشر منها في سورة براءة ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾ الى آخرها، وعشر في الأحزاب ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الى آخرها ، وعشر في المؤمنون ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ . وقوله في سأل سائل ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ . الى

قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما ابتلى الله أحدا بهن فقام بها كلها إلا إبراهيم عليه السلام، ابتلى بالإسلام فأتمه؛ فكتب الله البراءة، فقال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى ﴾ . وقال بعضهم : بالأمر والنهى ، وقال بعضهم : بذبح ابنه، وقال بعضهم : بأداء الرسالة ؛ والمعنى متقارب . وقال مجاهد : فى قوله تعالى : إنى مبتليك بأمر، قال : تجعلنى للناس إماما ؟ قال : نعم؛ قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين؛ قال : تجعل البيت مثابة للناس ؟ قال : نعم ، وأمنا ؟ قال : نعم؛ قال : وترينا مناسكنا وتتوب علينا ؟ قال : نعم ؛ قال : وترزق أهله من الثمرات؟ قال : نعم . وعلى هذا القول فالله تعالى هو الذى أتم ؛ وأصح من هذا ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ . قال : ابتلاه الله بالطهارة، خمس فى الرأس، وخمس فى الجسد : قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك ، وفرق الشعر . وفى الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والاختتان ، ونتف الإبط ، وغسل مكان الغائط والبول بالماء ؛ وعلى هذا القول فالذى أتم هو إبراهيم ، وهو ظاهر القرآن . وروى مطر عن أبى الجلد أنها عشر أيضا ، إلا أنه جعل موضع الفرق غسل البراجم ، وموضع الاستنجاء الاستحداد . وقال قتادة : هى مناسك الحج خاصة. الحسن: هى الخلال الست : الكوكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة ، والختان . وقال أبو إسحاق الزجاج : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن هذا كله مما ابتلى به إبراهيم عليه السلام .

قلت : وفى الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إبراهيم عليه السلام أول من اختتن، وأول من ضاف الضيف ، وأول من استحد، وأول من قلم الأظفار، وأول من قص الشارب، وأول من شاب؛ فلما رأى الشيب قال : ما هذا ؟ قال : وقار؛ قال . يا رب، زدنى وقارا . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه قال : أول من خطب على المنابر إبراهيم خليل الله . قال غيره : وأول من ثرد الثريد،

وأوّل من ضرب بالسيف، وأوّل من استاك ، وأوّل من استنجى بالماء، وأوّل من لبس السراويل . وروى معاذ بن جبل قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أتخذ المنبر فقد اتخذه أبي إبراهيم وإن أتخذ العصا فقد اتخذها أبي إبراهيم » .

قلت : وهذه أحكام يجب بيانها والوقوف عليها والكلام فيها .

فأول ذلك "الختان" وما جاء فيه . وهي :

الرابعة — أجمع العلماء على أن إبراهيم عليه السلام أول من اختتن ؛ واختلف في السن الذي اختتن فيه ، ففي الموطأ عن أبي هريرة موقوفا : « وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » . ومثل هذا لا يكون رأيا، وقد رواه الأوزاعي مرفوعا عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن مائة وعشرين سنة ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة » . وذكره أبو عمرو . روى مسندا مرفوعا من غير رواية يحيى من وجوه : « أنه اختتن حين بلغ ثمانين سنة واختتن بقدوم » . كذا في صحيح مسلم وغيره « ابن ثمانين سنة »؛ وهو المحفوظ في حديث ابن عجلان، وحديث الأعرج عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال عكرمة : اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة، ولم يطف بالبيت بعد على ملة إبراهيم إلا مختون. هكذا قال عكرمة . وقال المسيب بن رافع ذكره المروزي : والقدوم يروى مشددا ومخففا . قال أبو الزناد : القدوم (مشددا) : موضع، انتهى .

الخامسة — واختلف العلماء في الختان، فجمهورهم على أن ذلك من مؤكدات السنن ، ومن فطرة الإسلام التي لا يسع تركها في الرجال . وقالت طائفة: ذلك فرض؛ لقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ . قال قتادة : هو الاختتان ؛ وإليه مال بعض المالكين ، وهو قول الشافعي . واستدل ابن شريح[1] على وجوبه بالإجماع على تحريم النظر إلى العورة ، وقال : لولا أن الختان فرض لما أبيح النظر إليها من المختون . وأجيب عن هذا بأن مثل

(١) في بعض نسخ الأصل « ابن سريج » .

هذا يباح لمصلحة الجسم كنظر الطبيب، والطب ليس بواجب إجماعا ؛ على ما يأتي في النحل بيانه إن شاء الله تعالى . وقد احتج بعض أصحابنا بما رواه الحجاج بن أرطاة عن أبي المليح عن أبيه عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الختان سنة للرجال مكرمة للنساء » . والحجاج ليس ممن يحتج به .

قلت : أعلى ما يحتج به في هذا الباب حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الفطرة خمس الاختتان » . الحديث ، وسيأتي . وروى أبو داود عن أم عطية أن امرأة كانت تختن النساء بالمدينة، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تنهكي فان ذلك أحظى للمرأة وأحب للبعل » . قال أبو داود : هذا الحديث ضعيف راويه مجهول . وفي رواية ذكرها رزين : « ولا تنهكي فإنه أنور للوجه وأحظى عند الرجل » .

السادسة ــ فإن ولد الصبي مختونا فقد كفي مؤنة الختان . قال الميموني قال لي أحمد : إن ههنا رجلا ولد له ولد مختون ؛ فاغتم لذلك غما شديدا ؛ فقلت له : إذا كان الله قد كفاك المؤنة فما غمك بهذا !

السابعة ــ قال أبو الفرج الجوزي حدثت عن كعب الأحبار قال : خلق من الأنبياء ثلاثة عشر مختونين : آدم وشيث وإدريس ونوح وسام ولوط ويوسف وموسى وشعيب وسليمان ويحيى وعيسى والنبي صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن حبيب الهاشمي : هم أربعة عشر : آدم وشيث ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ويوسف وموسى وسليمان وزكريا وعيسى وحنظلة بن صفوان ــ نبي أصحاب الرس ــ ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

قلت : اختلفت الروايات في النبي صلى الله عليه وسلم؛ فذكر أبو نعيم الحافظ في "كتاب الحلية" بإسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد مختونا . وأسند أبو عمر في التمهيد حدثنا أحمد ابن محمد بن أحمد حدثنا محمد بن عيسى حدثنا يحيى بن أيوب بن زياد العلاف حدثنا محمد بن أبي السري العسقلاني حدثنا الوليد بن مسلم عن شعيب عن عطاء الخراساني عن عكرمة عن

ابن عباس : أن عبد المطلب ختن النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم سابعه، وجعل له مأدبة وسماه «محمدا» ؛ قال أبو عمر : هذا حديث مسند غريب؛ قال يحيى بن أيوب : طلبت هذا الحديث فلم أجده عند أحد من أهل الحديث ممن لقيته إلا عند ابن أبي السرى . قال أبو عمر : وقد قيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولد مختونا .

الثامنة — واختلفوا متى يختن الصبي؛ فثبت في الأخبار عن جماعة من العلماء أنهم قالوا : ختن إبراهيم إسماعيل لثلاث عشرة سنة، وختن ابنه إسحاق لسبعة أيام . وروى عن فاطمة أنها كانت تختن ولدها يوم السابع ؛ وأنكر ذلك مالك وقال : ذلك من عمل اليهود . ذكره عنه ابن وهب . وقال الليث بن سعد : يختن الصبي مابين سبع سنين إلى عشر ؛ ونحوه روى ابن وهب عن مالك .

وقال أحمد : لم أسمع في ذلك شيئا . وفي البخاريّ عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس ، مثل من أنت حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أنا يومئذ مختون ؛ قال : وكانوا لا يختنون الرجل حتى يدرك أو يقارب الاحتلام .

واستحب العلماء في الرجل الكبير يسلم أن يختتن؛ وكان عطاء يقول : لا يتم إسلامه حتى يختتن، وإن بلغ ثمانين سنة .

وروى عن الحسن أنه كان يرخص للشيخ الذي يسلم ألا يختتن ، ولا يرى به بأسا ولا بشهادته وذبيحته، وحجه وصلاته؛ قال ابن عبد البر : وعامة أهل العلم على هذا . وحديث بريدة في حج الأغلف لا يثبت . وروى عن ابن عباس وجابر بن زيد وعكرمة : أن الأغلف لا تؤكل ذبيحته ولا تجوز شهادته .

التاسعة — قوله : وأول من استحد ، فالاستحداد استعمال الحديد في حلق العانة . روت أم سلمة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا طلى وَلِيَ عانته بيده . وروى ابن عباس أن رجلا طلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا بلغ إلى عانته قال له : اخرج عني؛ ثم طلى عانته بيده . وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يتنور، وكان اذا كثر الشعر على

عانته[1] حلقه . قال ابن خويزمنداد : وهذا يدل على أن الأكثر من فعله كان الحلق؛ وإنما تنور نادرا ليصح الجمع بين الحديثين .

العاشرة ــ في تقليم الأظفار ؛ وتقليم الأظفار : قصها؛ والقلامة ما يزال منها . وقال مالك : أحب للنساء من قص الأظفار وحلق العانة مثل ما هو للرجل[2] . وذكره الحارث بن مسكين وسحنون عن ابن القاسم . وذكر الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" له ــ الأصل التاسع والعشرون ــ حدثنا عمر بن أبي عمر قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي عن عمر بن بلال الفزاري قال سمعت عبد الله بن بشر المازني يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قصوا أظافركم وادفنوا قلاماتكم ونقوا براجمكم ونظفوا لثاتكم من الطعام وتسننوا ولا تدخلوا علي قحرا بخرا» . ثم تكلم عليه فأحسن ، قال الترمذي : فأما قص الأظفار فمن أجل أنه يخدش ويخمش ويضر، وهو مجتمع الوسخ، فربما أجنب ولا يصل الماء إلى البشرة من داخل الوسخ فلا يزال جنبا، ومن أجنب فبقي موضع إبرة من جسده بعد الغسل غير مغسول، فهو جنب على حاله حتى يعم الغسل جسده كله، فلذلك ندبهم إلى قص الأظفار. والأظافير جمع الأظفور، والأظفار جمع الظفر. وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سها في صلاته فقال : «ومالي لا أوهم ورفغ[3] أحدكم بين ظفره وأنملته ويسئلني أحدكم عن خبر السماء وفي أظافيره الجنابة والتفث» . وذكر هذا الخبر أبو الحسن علي بن محمد الطبري المعروف بالكيا في "أحكام القرآن" له عن سليمان بن فرج أبي واصل قال : أتيت أبا أيوب رضي الله عنه فصافحته فرأى في أظفاري طولا فقال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن خبر السماء فقال : «يجيء أحدكم يسئل عن خبر السماء وأظفاره كأظفار الطير حتى يجتمع فيها الوسخ والتفث» . وأما قوله : « ادفنوا قلاماتكم » . فإن جسد المؤمن ذو حرمة، فما سقط منه وزال عنه، فحفظه من الحرمة قائم، فيحق عليه أن يدفنه كما أنه لو مات دفن، فإذا مات بعضه فكذلك أيضا تقام

(١) في نسخة من الأصل : « على جسده » .
(٢) في نسخة من الأصل : « ما هو على الرجال » .
(٣) الرفغ : الوسخ الذي بين الأنملة والظفر .

حرمته بدفنه، كي لا يتفرق ولا يقع في النار أو في مزابل قذرة . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفن دمه حيث احتجم، حتى لا تبحث عنه الكلاب، حدثنا بذلك أبي رحمه الله تعالى قال : حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا هنيد بن القاسم بن عبد الرحمن بن ماعز قال سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير يقول : إن أباه حدثه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم فلما فرغ قال : « يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد » . فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عمد الى الدم فشربه، فلما رجع قال : « يا عبد الله ما صنعت به » . قال : جعلته في أخفى مكان ظننت أنه خافيا عن الناس، قال : « لعلك شربته » . قال: نعم، قال : « لم شربت الدم ويل لك من الناس » . حدثني أبي قال حدثنا مالك بن سليمان الهروى قال حدثنا داود بن عبد الرحمن عن هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان : الشعر، والظفر، والدم، والحيضة، والسن، والقلفة، والبشيمة . وأما قوله : «نقوا براجمكم» . فالبراجم تلك الغضون من المفاصل، وهي مجتمع الدرن (واحدها برجمة) وهو ظهر عقدة كل مفصل، فظهر العقدة يسمى برجمة، وما بين العقدتين يسمى راجبة (وجمعها رواجب) وذلك مما يلي ظهرها، وهي قصبة الأصبع، فلكل أصبع برجمتان وثلاث رواجب إلا الإبهام فان لها برجمة وراجبتين، فأمر بتنقيته لئلا يدرن فتبقى فيه الجنابة، ويحول الدرن بين الماء والبشرة . وأما قوله : « نظفوا لثاتكم » . فاللثة واحدة، واللثات جماعة، وهي اللحمة فوق الأسنان ودون الأسنان، وهي منابتها . والعمور : اللحمة القليلة بين السنّين (واحدها عَمْر) فأمر بتنظيفها لئلا يبقى فيها وضر الطعام فتتغير عليه النكهة وتتنكر الرائحة، ويتأذى الملكان، لأنه طريق القرآن، ومقعد الملكين عند نابيه، وروى في الخبر في قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . قال : عند نابيه . حدثنا بذلك محمد بن على الشفيق قال: سمعت أبي يذكر ذلك عن سفيان بن عيينة، وجاد ما قال، وذلك أن اللفظ هو عمل الشفتين بلفظ الكلام على لسانه إلى البراز، وقوله : ﴿لَدَيْهِ﴾ . أي عنده، واللد والعند في لغتهم السائرة بمعنى

واحد، وكذلك قوله : ﴿ لَدُنْ ﴾ فالنون زائدة، فكأن الآية تنبيء أن الرقيب عتيد عند ملفظ الكلام وهو الناب . وأما قوله : «تسننوا» وهو السواك مأخوذ من السنن، أي نظفوا السن. وقوله : «لا تدخلوا عليّ قحرا بخرا» فالمحفوظ عندي "قلا وقلحا" وسمعت الجارود يذكر عن النضر قال : الأقلح : الذي قد اصفرت أسنانه حتى بخرت من باطنها ، ولا أعرف القحر والبَخَرُ الذي تجد له رائحة منكرة لبشرته ، يقال : رجل أبخر، ورجال بخر . حدثنا الجارود قال حدثنا جرير عن منصور عن أبي عليّ عن أبي جعفر بن تمام بن العباس عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «استاكوا مالكم تدخلون عليّ قُلْحا» .

الحادية عشرة ـ في قص الشارب، وهو الأخذ منه حتى يبدو طرف الشفة وهو الاطار، ولا يجزه فيمثل نفسه؛ قاله مالك . وذكر ابن عبد الحكم عنه قال : وأرى أن يؤدب من حلق شاربه . وذكر أشهب عنه أنه قال في حلق الشارب : هـذه بدعة، وأرى أن يوجع ضربا من فعله . قال ابن خويزمنداد قال مالك : أرى أن يوجع من حلقه ضربا . كأنه يراه ممثلا بنفسه، وكذلك بنتفه الشعر؛ وتقصيره أولى عنده من حلقه . وكذلك روى عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم أنه كان ذا لمة وكان أصحابه من بين وافر الشعر أو مقصر؛ وإنما حلق وحلقوا في النسك. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقص أظافره وشاربه قبل أن يخرج إلى الجمعة . وقال الطحاوي : لم نجد عن الشافعي في هذا شيئا منصوصا، وأصحابه الذين رأيناهم : المزني والربيع كانا يحفيان شواربهما، ويدل ذلك أنهما أخذا ذلك عن الشافعي رحمه الله تعالى؛ قال : وأما أبو حنيفة وزفر وأبو يوسف ومحمد فكان مذهبهم في شعر الرأس والشارب أن الاحفاء أفضل من التقصير . وذكر ابن خويزمنداد عن الشافعي أن مذهبه في حلق الشارب كمذهب أبي حنيفة سواء. وقال أبو بكر الأثرم : رأيت أحمد بن حنبل يحفي شاربه شديدا، وسمعته سئل عن السنة في إحفاء الشارب فقال : يحفي كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : «احفوا الشوارب» فقال أبو عمر : إنما في هذا الباب أصلان : أحدهما ـ أحفوا ، وهو لفظ يحتمل التأويل. والثاني ـ قص الشارب، وهو مفسر والمفسر يقضي على المجمل، وهو عمل أهل المدينة، وهو

أولى ماقيل به فى هذا الباب. روى الترمذى عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من شاربه ويقول : «إن ابراهيم خليل الرحمن كان يفعله» . قال : هذا حديث حسن غريب . وخرج مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «الفطرة خمس الاختتان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط» . وفيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خالفوا المشركين احفوا الشوارب وأوفوا اللحى» . والأعاجم يقصون لحاهم، ويوفرون شواربهم أو يوفرونهما معا، وذلك عكس الجمال والنظافة. ذكر رزين عن نافع أن ابن عمر كان يحفى شاربه حتى ينظر إلى الجلد ويأخذ هذين، يعنى ما بين الشارب واللحية . وفى البخارى : وكان ابن عمر يأخذ من طول لحيته مازاد على القبضة اذا حج أو اعتمر . وروى الترمذيّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من عرضها وطولها . قال : هذا حديث غريب .

الثانية عشرة — وأما الإبط فسنته النتف ، كما أن سنة العانة الحلق ، فلو عكس جاز لحصول النظافة، والأول أولى؛ لأنه المتيسر المعتاد .

الثالثة عشرة — وفرق الشعر تفريقه فى المفرق، وفى صفته صلى الله عليه وسلم : إن انفرقت عقيصته فرق؛ يقال : فرقت الشعر أفرقه فرقا ؛ يقول : إن انفرق شعر رأسه فرقه فى مفرقه ، فان لم ينفرق تركه وفرة واحدة . خرج النسائى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره ، وكان المشركون يفرقون شعورهم ، وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشىء، ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك . أخرجه البخارى ومسلم عن أنس . قال القاضى عياض : سدل الشعر إرساله ، والمراد به ههنا عند العلماء إرساله على الجبين ، واتخاذه كالقصة؛ والفرق فى الشعر سنة؛ لأنه الذى رجع إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد روى أن عمر بن عبد العزيز كان إذا انصرف من الجمعة أقام على باب المسجد حرسا يجزون ناصية كل من لم يفرق شعره . وقد قيل : إن الفرق كان من سنة إبراهيم عليه السلام .

الرابعة عشرة — وأما الشيب فنور ويكره نتفه، ففي النسائي وأبي داود من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولا تنتفوا الشيب ما من مسلم يشيب شيبة في الإسلام إلا كانت له نورا يوم القيامة وكتب الله له حسنة وحط عنه خطيئة » .

قلت : وكما يكره نتفه كذلك يكره تغييره بالسواد ، فأما تغييره بغير السواد فجائز ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في حق أبي قحافة — وقد جيء به ولحيته كالثغامة بياضا — : « غيّروا هذا بشيء واجتنبوا السواد » . ولقد أحسن من قال :

يسود أعلاها ويبيض أصلها * فلا خير في الأعلى إذا فسد الأصل

وقال آخر :

يا خاضب الشيب بالحناء يستره * سل المليك له سترا من النار

الخامسة عشرة — وأما الثريد فهو أزكى الطعام وأكثره بركة، وهو طعام العرب ، وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالفضل على سائر الطعام فقال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . في صحيح البستي عن أسماء بنت أبي بكر أنها كانت إذا ثردت غطته شيئا حتى يذهب فوره وتقول : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه أعظم للبركة » .

السادسة عشرة — قلت : وهذا كله في معنى ما ذكره عبد الرزاق عن ابن عباس ، وما قاله سعيد بن المسيب وغيره . ويأتي ذكر المضمضة والاستنشاق والسواك في سورة النساء، وحكم الاستنجاء في براءة، وحكم الضيافة في هود ، إن شاء الله تعالى . وخرّج مسلم عن أنس قال : وُقّت لنا في قص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ألا يترك أكثر من أربعين يوما وليلة . قال علماؤنا : هذا تحديد في أكثر المدة، والمستحب تفقد ذلك من الجمعة إلى الجمعة؛ وهذا الحديث يرويه جعفر بن سليمان . قال العقيلي : في حديثه نظر . وقال

أبو عمر فيه : ليس بحجة؛ لسوء حفظه وكثرة غلطه . وهذا الحديث ليس بالقوى من جهة النقل، ولكنه قد قال به قوم، وأكثرهم على ألّا توقيت فى ذلك . وبالله التوفيق .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ . الإمام : القدوة ؛ ومنه قيل لخيط البناء : إمام، وللطريق : إمام؛ لأنه يؤم فيه للسالك أى يقصد. فالمعنى جاعلك للناس إماما يأتمون بك فى هذه الخصال ، ويقتدى بك الصالحون . فجعله الله تعالى إماما لأهل طاعته ؛ فكذلك اجتمعت الأمم على الدعوى فيه — والله تعالى أعلم — أنه كان حنيفا .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ . دعاء على جهة الرغباء إلى الله تعالى أى ومن ذريتى يا رب فاجعل . وقيل : هذا منه على جهة الاستفهام عنهم أى : ومن ذريتى يا رب ماذا يكون ؟ فأخبره الله تعالى أن فيهم عاصيا وظالما لا يستحق الإمامة . قال ابن عباس : سأل إبراهيم عليه السلام أن يجعل من ذريته إماما؛ فأعلمه الله أن فى ذريته من يعصى فقال: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ . أصل ذرية، فُعْلِيّةٌ من الذر؛ لأن الله تعالى أخرج الخلق من صلب آدم عليه السلام كالذّر حين أشهدهم على أنفسهم . وقيل : هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا خلقهم؛ ومنه الذرية، وهى نسل الثقلين؛ إلا أن العرب تركت همزها، والجمع الذّرارى. وقرأ زيد بن ثابت ذرية بكسر الذال، وذرية بفتحها. قال ابن جنى أبو الفتح عثمان : يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ : أحدها — ذرأ ، والثانى — ذرر، والثالث — ذرو ، والرابع ذرى؛ فأما الهمزة فمن ذرأ الله الخلق، وأما ذرر فمن لفظ الذر ومعناه ، وذلك لما ورد فى الخبر : أن الخلق كان كالذّر . وأما الواو والياء، فمن ذروت الحب وذريته يقالان جميعا ، وذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ . وهذا للطفه وخفته ، وتلك حال الذر أيضا . قال الجوهرى : ذَرَت الريح التراب وغيره تذروه وتذريه ذَرْوًا وذَرْيا أى نسفته؛ ومنه قولهم : ذرى الناس الحنطة؛

وادريت الشيء إذا ألقيته كالقائك الحب للزرع . وطحنته فأذراه عن ظهر دابته أي ألقاه . وقال الخليل : إنما سموا ذرية ؛ لأن الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر . وقيل : أصل ذرية ، ذرورة ، لكن لما كثر التضعيف أبدل من إحدى الراءات ياء ، فصارت ذروية ، ثم أدغمت الواو في الياء فصارت ذُرِّيَّة . والمراد بالذرية هنا الأبناء خاصة ، وقد تطلق على الآباء والأبناء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ . يعني آباءهم .

الموفية عشرين ـ قوله تعالى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . اختلف في المراد بالعهد ، فروى أبو صالح عن ابن عباس أنه النبوة ، وقاله السدي . مجاهد : الإمامة . قتادة : الإيمان . عطاء : الرحمة . الضحاك : دين الله تعالى . وقيل : عهده أمره . ويطلق العهد على الأمر ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ . أي أمرنا . وقال : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ . يعني ألم أقدم إليكم الأمر به ، وإذا كان عهد الله هو أوامره فقوله : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . أي لا يجوز أن يكونوا بمحل من يقبل منهم أوامر الله ولا يقيمون عليها . على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . قال : لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين ، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به ، وأكل وعاش وأبصر . قال الزجاج : وهذا قول حسن أي لا ينال أماني الظالمين ، أي : لا أؤمنهم من عذابي . وقال سعيد بن جبير : الظالم هنا المشرك . وقرأ ابن مسعود وطلحة بن مصرف ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ . برفع الظالمون . الباقون بالنصب . وأسكن حمزة وحفص وابن محيصن الياء في عهدي ، وفتحها الباقون .

الحادية والعشرون ـ استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك ، وهو الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا ينازعوا الأمر أهله ، على ما تقدم من القول فيه . فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا بأهل ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . ولهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي

رضى الله عنهم، وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وأخرج أهل المدينة بنى أمية ، وقاموا عليهم، فكانت الحرة التى أوقعها بهم عقبة بن مسلم .

والذى عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ؛ لأن فى منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ، و إراقة الدماء، وانطلاق أيدى السفهاء ، وشن الغارات على المسلمين ، والفساد فى الأرض . والأول مذهب طائفة من المعتزلة ، وهو مذهب الخوارج فاعلمه .

الثانية والعشرون — قال ابن خويزمنداد : وكل من كان ظالما لم يكن نبيا ولا خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ،ولا إمام صلاة، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة، ولا تقبل شهادته فى الأحكام ، غير أنه لا يعزل بفسقه حتى يعزله أهل الحل والعقد . وما تقدم من أحكامه موافقا للصواب ماض غير منقوض . وقد نص مالك على هذا فى الخوارج والبغاة أن أحكامهم لا تنقض إذا أصابوا بها وجها من الاجتهاد ، ولم يخرقوا الإجماع، أو يخالفوا النصوص. و إنما قلنا ذلك لإجماع الصحابة،وذلك أن الخوارج قد خرجوا فى أيامهم ولم ينقل أن الأئمة تتبعوا أحكامهم ، ولا نقضوا شيئا منها، ولا أعادوا أخذ الزكاة ولا إقامة الحدود التى أخذوا وأقاموا؛ فدل على أنهم إذا أصابوا وجه الاجتهاد لم يتعرض لأحكامهم .

الثالثة والعشرون — قال ابن خويزمنداد : وأما أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة فلذلك ثلاثة أحوال : إن كان جميع ما فى أيديهم مأخوذا على موجب الشريعة فجائز أخذه ، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره . وإن كان مختلطا حلالا وظلما كما فى أيدى الأمراء اليوم فالورع تركه، ويجوز للمحتاج أخذه، وهو كلص فى يده مال مسروق،ومال جيد حلال قد وكله فيه رجل فجاء اللص يتصدق به على إنسان فيجوز أن تؤخذ منه الصدقة،وإن كان قد يجوز أن يكون اللص يتصدق ببعض ما سرق، إذا لم يكن شىء معروف بنهب،وكذلك لو باع أو اشترى كان العقد صحيحا لازما — وإن كان الورع التنزه عنه — وذلك أن الأموال لا تحرم بأعيانها وإنما تحرم بجهاتها ، وإن كان ما فى أيديهم ظلما صراحا فلا يجوز أن

يؤخذ من أيديهم ، ولو كان ما في أيديهم من المال مغصوبا غير أنه لا يعرف له صاحب ولا مطالب ، فهو كما لو وجد في أيدي اللصوص وقطاع الطريق ، ويجعل في بيت المال وينتظر طالبه بقدر الاجتهاد ، فاذا لم يعرف صرفه الإمام في مصالح المسلمين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ . فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا ﴾ . بمعنى صيرنا لتعديه الى مفعولين ، وقد تقدم . ﴿ ٱلْبَيْتَ ﴾ . يعني الكعبة . ﴿ مَثَابَةً ﴾ . أي مرجعا ؛ يقال : ثاب يثوب مثابا ومثابة وثُؤُوبا وثوبانا . فالمثابة مصدر وصف به ويراد به الموضع الذي يثاب اليه أي يرجع اليه ؛ وقال ورقة بن نوفل في الكعبة :

مثابا لأفناء القبائل كلها * تخُبّ اليها اليَعْمَلات الذوامل

وقرأ الأعمش مثابات على الجمع ؛ ويحتمل أن يكون من الثواب أي يثابون هناك . وقال مجاهد : لا يقضي أحد منه وطرا ؛ قال الشاعر :

جعل البيت مثابا لهم * ليس منه الدهر يقضون الوطر

والأصل مَثْوَبَةٌ ، فقلبت حركة الواو على الثاء ، فقلبت الواو ألفا اتباعا لثاب يثوب ، وانتصب على المفعول الثاني ، ودخلت الهاء للمبالغة لكثرة من يثوب أي يرجع ؛ لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقض منه وطرا ، فهي كنسابة وعلامة ، قاله الأخفش . وقال غيره : هي هاء لتأنيث المصدر وليست للمبالغة .

فإن قيل : ليس كل من جاءه يعود إليه ؛ قيل : ليس يختص من ورد عليه ، وإنما المعنى لا يخلو من الجملة ، ولا يعدم قاصدا من الناس ، والله تعالى أعلم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَأَمْنًا ﴾ : استدل به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على ترك إقامة الحد في الحرم على المحصن والسارق اذا لجأ اليه ، وعضدوا ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ . قال : آمنوا من دخل البيت . والصحيح إقامة الحدود في الحرم ، وأن ذلك من المنسوخ ؛ لأن الاتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت ، ويقتل خارج البيت ؛

وإنما الخلاف هل يقتل فى الحرم، أم لا؟ والحرم لا يقع عليه اسم البيت حقيقة. وقد أجمعوا أنه لو قتل فى الحرم قتل به، ولو أتى حدّا أقيد منه فيه، ولو حارب فيه حورب وقتل مكانه. وقال أبو حنيفة: من لجأ إلى الحرم لا يقتل فيه ولا يتابع، ولا يزال يضيق عليه حتى يموت أو يخرج؛ فنحن نقتله بالسيف، وهو يقتله بالجوع والصد، فأى قتل أشد من هذا، وفى قوله: ﴿ وَأَمْنًا ﴾ تأكيد للأمر باستقبال الكعبة، أى ليس فى بيت المقدس هذه الفضيلة، ولا يحج إليه الناس، ومن استعاذ بالحرم أمن من أن يغار عليه. وسيأتى بيان هذا فى المائدة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾. فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا ﴾. قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متبعى إبراهيم، وهو معطوف على جعلنا، أى جعلنا البيت مثابة واتخذوه؛ مصلى. وقيل: هو معطوف على تقدير إذ، كأنه قال: وإذ جعلنا البيت مثابة وإذ اتخذوا، فعلى الأول الكلام جملة واحدة، وعلى الثانى جملتان. وقرأ جمهور القراء ﴿ وَاتَّخِذُوا ﴾ بكسر الخاء على جهة الأمر، قطعوه من الأول وجعلوه معطوفا جملة على جملة. قال المهدوى: ويجوز أن يكون معطوفا على ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ كأنه قال ذلك لليهود، أو على معنى إذ جعلنا البيت؛ لأن معناه اذكروا إذ جعلنا، أو على معنى قوله: ﴿ مَثَابَةً ﴾ لأن معناه ثوبوا.

الثانية — روى ابن عمر قال قال عمر: وافقت ربى فى ثلاث: فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر. خرّجه مسلم وغيره. وخرّجه البخارى عن أنس، قال قال عمر: وافقت الله فى ثلاث. أو وافقنى ربى فى ثلاث. الحديث. وأخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده فقال: حدثنا حماد بن سلمة حدثنا على بن زيد عن أنس بن مالك قال قال عمر: وافقت ربى فى أربع؛ قلت: يا رسول الله، لو صليت خلف المقام؛ فنزلت هذه الآية: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾. وقلت: يا رسول الله، لو ضربت على نسائك الحجاب، فإنه يدخل عليهن البر والفاجر؛ فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾.

ونزلت هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ . فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ؛ فنزلت : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ﴾ . ودخلت على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : لتنتهن أو ليبدلنه الله بأزواج خير منكن ؛ فنزلت الآية : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ﴾ .

قلت : ليس في هذه الرواية ذكر للأسارى فتكون موافقة عمر في خمس .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ مَقَامِ ﴾ . المقام في اللغة : موضع القدمين . قال النحاس : مقام ، من قام يقوم يكون مصدرا واسما للوضع ، ومُقام من أقام ؛ فأما قول زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم (١) وأندية ينتابها القول والفعل

فمعناه فيهم أهل مقامات . واختلف في تعيين المقام على أقوال ؛ أصحها : أنه الحجر الذي تعرفه الناس اليوم الذي يصلون عنده ركعتي طواف القدوم . وهذا قول جابر بن عبد الله وابن عباس وقتادة وغيرهم . وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما رأى البيت استلم الركن فرمل ثلاثا ، ومشى أربعا ، ثم تقدّم إلى مقام إبراهيم فقرأ : ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . فصلى ركعتين قرأ فيهما بـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . و ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ ﴾ . وهذا يدل على أن ركعتي الطواف وغيرهما من الصلوات (٢) [لأهل مكة أفضل و] يدل من وجه على أن الطواف للغرباء أفضل . على ما يأتي . وفي البخاري : أنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناولها إياه في بناء البيت ، وغرقت قدماه فيه . قال أنس : رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه ؛ غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم . حكاه القشيري . وقال السدّي : المقام : الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه . وعن ابن عباس أيضا ومجاهد وعطاء أن المقام : الحج كله . وعن عطاء : عرفة ومزدلفة والجمار . وقاله الشعبي . النخعي : الحرم كله مقام إبراهيم . وقاله مجاهد .

(١) في نسخ الأصل : « وجوهها » . والتصويب عن اللسان .
(٢) زيادة يقتضيها السياق وقد اعتمدنا في زيادتها على ما ورد في المسألة السادسة صفحة ١٠٦ من هذا الجزء

قلت : والصحيح فى المقام القول الأوّل، حسب ما ثبت فى الصحيح . وخرّج أبو نعيم من حديث محمد بن سُوقة عن محمد بن المنكدرعن جابر قال : نظر النبيّ صلى الله عليه وسلّم إلى رجل بين الركن والمقام، أو البـاب والمقام وهو يدعو و يقول : اللهم اغفر لفلان؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسـلم : «.ما هذا » فقال : رجل استودعنى أن أدعو له فى هذا المقام؛ فقال : «ارجع فقـد غفر لصاحبك» قال أبو نعيم : حدّثنا أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم القاضى قال حدّثنا محمد بن عاصم بن يحيى الكاتب قال حدّثنا عبـد الرحمن بن القاسم القطان الكوفى قال حدّثنا الحارث بن عمران الجعفرى عن محمد بن سُوقة فذكره . قال أبو نعيم : كذا رواه عبد الرحمن عن الحارث عن محمد عن جابر وانمـا يعرف من حديث الحارث عن محمد عن عكرمة عن آبن عباس . ومعنى مصلّى، مدعى يدعى فيه . قاله مجاهد . وقيل : موضع صلاة يصلى عنده . قاله قتادة . وقيل : قبلة يقف الإمام عندها . قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى ﴿ وَعَهِـدْنَا ﴾ . قيـل : معناه أمرنا . وقيـل : أوحينا . ﴿ أَنْ طَهِّرَا ﴾ . أن، فى موضع نصب على تقدير حذف الخافض . وقال سيبويه : أن بمعنى أى مفسرة فلا موضع لهـا من الإعراب . وقال الكوفيون : تكون بمعنى القول . وطهرا، قيـل معناه : مِن الأوثان . عن مجاهد والزهرى . وقال عبيد بن عمير، وسعيد بن جبير : من الآفات والريب . وقيـل : من الكفار . قال السدى : ابنياه وأسساه على طهارة ونية طهارة؛ فيجئ مثل قوله : ﴿ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ . وقال يمان : بخراه وخلقاه . ﴿ بَيْتِيَ ﴾ . أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم ، وهى إضافة مخلوق إلى خالق ، ومملوك الى مالك . وقرأ الحسن وآبن أبى اسحاق وأهل المدينة وهشام وحفص : ﴿ بَيْتِيَ ﴾ بفتح الياء . والآخرون بإسكانها .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ . ظاهره الذين يطوفون به؛ وهو قول عطاء . وقال سعيد بن جبير: معناه للغرباء الطارئين على مكة؛ وفيه بعد . ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين من بلدىّ وغريب . عن عطاء . وكذلك قوله : ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ . والعكوف فى اللغة : اللزوم والإقبال على الشىء كما قال الشاعر (١) :

* عَكْفَ النَّبِيط يلعبون الفَنْزَجا (٢) *

وقال مجاهد : العاكفون ، المجاورون . ابن عباس : المصلون . وقيل : الجالسون بغير طواف. والمعنى متقارب . ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ . أى المصلون عند الكعبة. وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلى إلى الله تعالى . وقد تقدّم معنى الركوع والسجود لغة والحمد لله .

الثالثــة ــ لما قال تعالى : ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ . دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى؛ فيكون حكمها حكمه فى التطهير والنظافة . وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها ، أو لكونها أعظم حرمة . والأول أظهر، والله أعلم . وفى التنزيل : ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ . وهناك يأتى حكم المساجد إن شاء الله تعالى .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجل فى المسجد فقال : ما هذا ! أتدرى أين أنت ؟ وقال حذيفة قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله أوحى إلىّ يا أخا المنذرين يا أخا المرسلين أنذر قومك ألا يدخلوا بيتا من بيوتى إلا بقلوب سليمة وألسنة صادقة وأيد نقيّة وفروج طاهرة وألا يدخلوا بيتا من بيوتى ما دام لأحد عندهم مظلمة فإنى ألعنه ما دام قائما بين يدى حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع النبيّين والصديقين والشّهداء والصّالحين » .

---

(١) هو العجاج ، يصف ثورا . وصدر البيت :

* فهنّ يعكفن به إذا حجا *

(٢) الفنزجة والفنزج : رقص العجم إذا أخذ بعضهم بيد بعض وهم يرقصون . (اللسان) .

الرابعة — استدل الشافعي وأبو حنيفة والثوري وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت . قال الشافعي رحمه الله : إن صلى في جوفها مستقبلا حائطا من حيطانها فصلاته جائزة، وإن صلى نحو الباب والباب مفتوح فصلاته باطلة، وكذلك من صلى على ظهرها؛ لأنه لم يستقبل منها شيئا . وقال مالك : لا يصلى فيه الفرض ولا السنن، ويصلى فيه التطوع؛ غير أنه إن صلى فيه الفرض أعاد في الوقت . وقال أصبغ : يعيد أبدا .

قلت : وهو الصحيح ؛ لما رواه مسلم عن ابن عباس قال : أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه؛ فلما خرج ركع قِبَل الكعبة ركعتين وقال : «هذه القبلة» وهذا نص .

فإن قيل : فقد روى البخاري عن ابن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة الحجبي البيت فأغلقوا عليهم الباب، فلما فتحوا كنت أول من ولج فلقيت بلالا فسألته : هل صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم، بين العمودين اليمانيين . وأخرجه مسلم . وفيه قال : جعل عمودين عن يساره وعمودا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه ؛ وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة . قلنا : هذا يحتمل أن يكون صلى بمعنى دعا ، كما قال أسامة ، ويحتمل أن يكون صلى الصلاة العرفية ، وإذا احتمل هذا وهذا سقط الاحتجاج به .

فإن قيل : فقد روى ابن المنذر وغيره عن أسامة قال : رأى النبي صلى الله عليه وسلم صورا في الكعبة فكنت آتيه بماء في الدلو يضرب به تلك الصور . وخرجه أبو داود الطيالسي قال : حدثنا ابن أبي ذئب عن عبد الرحمن بن مهران قال حدثنا عمير مولى ابن عباس عن أسامة بن زيد قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكعبة ورأى صورا قال : فدعا بدلو من ماء فأتيته به فجعل يمحوها ويقول : «قاتل الله قوما يصوّرون ما لا يخلقون» . فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم صلى في حالة مضي أسامة في طلب الماء فشاهد

بلال مالم يشاهده أسامة، فكان من أثبت أولى ممن نفى؛ وقد قال أسامة نفسه : فأخذ الناس بقول بلال وتركوا قولى. وقد روى مجاهد عن عبد الله بن صفوان قال قلت لعمر بن الخطاب: كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل الكعبة ؟ قال : صلى ركعتين .

قلنا : هذا محمول على النافلة؛ ولا نعلم خلافا بين العلماء فى صحة النافلة فى الكعبة، وأما الفرض فلا؛ لأن الله تعالى عين الجهة بقوله تعالى : ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ على ما يأتى بيانه . وقوله صلى الله عليه وسلم لما خرج : « هذه القبلة » فعينها كما عينها الله تعالى ، ولو كان الفرض يصح داخلها لما قال : « هذه القبلة » وبهذا يصح الجمع بين الأحاديث ، وهو أولى من إسقاط بعضها، فلا تعارض . والحمد لله .

الخامسة ـــ واختلفوا أيضا فى الصلاة على ظهرها، فقال الشافعى ما ذكرنا. وقال مالك: من صلى على ظهر الكعبة أعاد فى الوقت. وقد روى عن بعض أصحاب مالك : يعيد أبدا . وقال أبو حنيفة : من صلى على ظهر الكعبة فلا شىء عليه .

السادسة ـــ واختلفوا أيضا أيما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به؟ فقال مالك : الطواف لأهل الأمصار أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل . وذكر عن ابن عباس وعطاء ومجاهد . والجمهور أن الصلاة أفضل . وفى الخبر : « لولا رجال خشع وشيوخ ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لصبينا عليكم العذاب صبا » . ذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب ـــ فى كتاب السابق واللاحق ـــ عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لولا فيكم رجال خشع وبهائم رتع وصبيان رضع لصب العذاب على المذنبين صبا». لم يذكر فيه «وشيوخ ركع» وفى حديث أبى ذر «الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل». خرجه الآجرى . والأخبار فى فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ بَلَدًا آمِنًا ﴾ . يعنى مكة، فدعا لذريته وغيرهم بالأمن ورغد العيش؛ فروى أنه لما دعا بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل فاقتلع الطائف من الشام فطاف بها حول البيت أسبوعا — فسميت الطائف لذلك — ثم أنزلها تهامة ؛ وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرا لا ماء ولا نبات، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيرها ، وأنبت فيها أنواع الثمار على ما يأتى بيانه فى سورة إبراهيم إن شاء الله تعالى .

الثانية — اختلف العلماء فى مكة ، هل صارت حرما بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك على قولين :

(أحدهما) أنها لم تزل حرما من الجبابرة المسلطين ، ومن الخسوف والزلازل ، وسائر المثلات التى تحل بالبلاد، وجعل فى النفوس المتمردة من تعظيمها والهيبة لها ما صار به أهلها متميزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى ، ولقد جعل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على توحيده ما شوهد من أمر الصيد فيها : فيجتمع فيها الكلب والصيد فلا يهيج الكلب الصيد ولا ينفر منه حتى إذا خرجا من الحرم عدا الكلب عليه وعاد إلى النفور والهرب .

وإنما سأل إبراهيم ربه أن يجعلها آمنا من القحط والجدب والغارات، وأن يرزق أهله من الثمرات؛ لا على ما ظنه بعض الناس : أنه المنع من سفك الدم فى حق من لزمه القتل ، فإن ذلك يبعد كونه مقصودا لإبراهيم صلى الله عليه وسلم حتى يقال : طلب من الله أن يكون فى شرعه تحريم قتل من التجأ إلى الحرم، هذا بعيد جدا .

(الثانى) أن مكة كانت حلالا قبل دعوات إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد، وأن بدعوته صارت حرما آمنا كما صارت المدينة بتحريم رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنا بعد أن كانت حلالا .

احتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو

حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يُعضَدُ شوكه ولا يُنفّر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه » فقال العباس : إلا الإذخر(١) فإنه لقينهم(٢) ولبيوتهم؛ قال : " إلا الإذخر " .

ونحوه حديث أبى شريح أخرجهما مسلم وغيره .

وفى صحيح مسلم أيضا عن عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإنى دعوت فى صاعها ومدّها مثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة » . قال ابن عطية : ولا تعارض بين الحديثين ؛ لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه، وكون الحرمة مدة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان . والثانى إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها وإظهاره ذلك بعد الدثور، وكان القول الأول من النبى صلى الله عليه وسلم ثانى يوم الفتح إخبارا بتعظيم حرمة مكة على المؤمنين، بإسناد التحريم إلى الله تعالى، وذكر إبراهيم عند تحريم المدينة هو أيضا مثالا لنفسه، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضا من قبل الله تعالى ومن نافذ قضائه وسابق علمه . وقال الطبرى : كانت مكة حراما ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم، فحرمها .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ ﴾ . تقدم معنى الرزق . والثمرات جمع ثمرة وقد تقدم . من آمن، بدل من أهل، بدل البعض من الكل . والإيمان : التصديق . وقد تقدم . ﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ . من، فى قوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ فى موضع نصب . والتقدير وارزق من كفر، ويجوز أن يكون فى موضع رفع بالابتداء، وهى شرط والخبر ﴿ فَأُمَتِّعُهُ ﴾ وهو الجواب .

واختلف هل هذا القول من الله أو من إبراهيم ؟ فقال أبىّ بن كعب وابن إسحاق وغيرهم : هو من الله تعالى، وقرءوا فأمتعه بضم الهمزة وفتح الميم وتشديد التاء، ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ﴾ بقطع الألف وضم الراء، وكذلك القراء السبعة خلا ابن عامر فإنه سكن الميم وخفف التاء . وحكى أبو إسحاق والزجاج أن فى قراءة أبىّ : فنمتعه قليلا ثم نضطره، بالنون . وقال ابن

(١) الخلى : النبات الرطب الرقيق ما دام رطبا . واختلاؤه : قطعه . (٢) فى لسان العرب لبيوتنا وقبورنا .

عباس ومجاهد وقتادة : هذا القول من إبراهيم عليه السلام، وقرءوا ﴿ فأمتعه ﴾ بفتح الهمزة وسكون الميم ، ﴿ ثم آضطره ﴾ بوصل الألف وفتح الراء . فكان إبراهيم عليه السلام دعا للؤمنين وعلى الكافرين، وعليه فيكون الضمير في "قال" لإبراهيم ، وأعيد "قال" لطول الكلام أو لخروجه من الدعاء لقوم إلى الدعاء على آخرين . والفاعل فى قال على قراءة الجماعة اسم الله تعالى واختاره النحاس، وجعل القراءة بفتح الهمزة وسكون الميم ووصل الألف شاذة، قال : ونسق الكلام والتفسير جميعا يدلان على غيرها . أما نسق الكلام فإن الله تعالى أخبر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ . ثم جاء بقوله عز وجل :﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ . ولم يفصل بينه بقال، ثم قال بعد : ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ . فكان هذا جوابا من الله، ولم يقل بعد : قال ابراهيم . وأما التفسير فقد صح عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب، وهذا لفظ ابن عباس : دعا إبراهيم عليه السلام لمن آمن دون الناس خاصة، فأعلم الله عز وجل أنه يرزق من كفر كما يرزق من آمن، وأنه يمتعه قليلا ثم يضطره الى عذاب النار . قال أبو جعفر : وقال الله عز وجل : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ . وقال جل ثناؤه : ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ . قال أبو إسحاق : إنما علم إبراهيم عليه السلام أن فى ذريته كفارا فخص المؤمنين لأن الله تعالى قال : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ . القواعد : أساسه ، فى قول أبى عبيدة والفراء. وقال الكسائى : هى الجدر . والمعروف أنها الأساس . وفى الحديث: "إن البيت لما هدم أخرجت منه حجارة عظام" . فقال ابن الزبير : هذه القواعد التى رفعها إبراهيم . وقيل : إن القواعد كانت قد اندرست فأطلع الله إبراهيم عليها . ابن عباس : وضع البيت على أركان رآها قبل أن يخلق البيت بألفى عام ثم دحيت الأرض من تحته . والقواعد واحدتها قاعدة . والقواعد من النساء واحدها قاعد .

واختلف الناس فيمن بنى البيت أولا وأسسه ؛ فقيل : الملائكة . روى عن جعفر بن محمد قال : سئل أبي وأنا حاضر عن بدء خلق البيت ، فقال : إن الله عز وجل لما قال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. قالت الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ . فغضب عليهم فعاذوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أطواف يسترضون ربهم حتى رضى الله عنهم وقال لهم : ابنوا لى بيتا فى الأرض يتعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم ، ويطوف حوله كما طفتم حول عرشى فأرضى عنه كما رضيت عنكم ، فبنوا هذا البيت .

وذكر عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وابن المسيب وغيرهما : أن الله عز وجل أوحى الى آدم : إذا هبطت آبن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بعرشى الذى فى السماء . قال عطاء : فزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل : من حراء ، ومن طور سينا ، ومن لُبنان ، ومن الجودىّ ، ومن طورزَيتا ، وكان ربضه من حراء . قال الخليل : والربض هٰهنا الأساس المستدير بالبيت من الصخر ؛ ومنه يقال لما حول المدينة : ربض . وذكر الماوردىّ عن عطاء عن آبن عباس قال : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له : يا آدم ، اذهب فآبن لى بيتا وطف به ، واذكرنى عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ؛ فأقبل آدم يتخطا وطويت له الأرض ، وقبضت له المفازة ؛ فلا يقع قدمه على شىء من الأرض إلا صار عمرانا حتى انتهى الى موضع البيت الحرام ، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أُسٍّ ثابت على الأرض السابعة السفلى ، وقذفت إليه الملائكة بالصخر ، فما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا ، وأنه بناه من خمسة أجبل كما ذكرنا . وقد روى فى بعض الأخبار : أنه أهبط لآدم عليه السلام خيمة من خيام الجنة ، فضربت فى موضع الكعبة ليسكن إليها ويطوف حولها ، فلم تزل باقية حتى قبض الله آدم ثم رفعت . وهذا من طريق وهب آبن منبه . وفى رواية : أنه أهبط معه بيت فكان يطوف به والمؤمنون من ولده ، وكذلك إلى زمان الغرق ثم رفعه الله فصار فى السماء ، وهو الذى يدعى البيت المعمور . روى هذا عن قتادة ذكره الحليمى فى كتاب «منهاج الدين» له ،

وقال: يجوز أن يكون معنى ما قال قتادة من أنه أهبط مع آدم بيت أى أهبط معه مقدار البيت المعمور طولا وعرضا وسمكا، ثم قيل له : ابن بقدره ، ويجوز أن يكون بحياله ، فكان حياله موضع الكعبة، فبناها فيه . وأما الخيمة فقد يجوز أن تكون أنزلت وضربت فى موضع الكعبة فلما أمر ببنائها فبناها كانت حول الكعبة طمأنينة لقلب آدم صلى الله عليه وسلم ما عاش ثم رفعت ، فتتفق هذه الأخبار؛ فهذا بناء آدم عليه السلام، ثم بناه ابراهيم صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جريج : وقال ناس : أرسل الله سحابة فيها رأس؛ فقال الرأس : يا إبراهيم ، إن ربك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة ، فجعل ينظر اليها ويخط قدرها؛ ثم قال الرأس : إنه قد فعلت؛ فحفر فأبرز عن أساس ثابت فى الأرض. وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه : أن الله تعالى لما أمر إبراهيم بعمارة البيت خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمه هاجر ، وبعث معه السكينة(١) لها لسان تتكلم به ، يغدو معها إبراهيم إذا غدت ، ويروح معها إذا راحت حتى انتهت به الى مكة؛ فقالت لإبراهيم : ابن على موضعى الأساس؛ فرفع البيت هو وإسماعيل حتى انتهى الى موضع الركن؛ فقال لابنه : يا بنى، ابغنى حجرا أجعله علما للناس؛ فجاءه بحجر فلم يرضه؛ وقال: ابغنى غيره؛ فذهب يلتمس فجاءه وقد أتى بالركن فوضعه موضعه؛ فقال : يا أبة، من جاءك بهذا الحجر؟ فقال : من لم يكلنى إليك . ابن عباس : صاح أبو قبيس(٢) : يا إبراهيم، يا خليل الرحمن ، إن لك عندى وديعة فخذها ؛ فإذا هو بحجر أبيض من ياقوت الجنة كان آدم قد نزل به من الجنة ؛ فلما رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت جاءت سحابة مربعة فيها رأس فنادت : أن ارفعا على تربيعى . فهذا بناء إبراهيم عليه السلام . وروى أن إبراهيم وإسماعيل لما فرغا من بناء البيت أعطاهما الله الخيل جزاء عن رفع قواعد البيت . روى الترمذى الحكيم حدثنا عمر بن أبى عمر حدثنى نعيم بن حماد حدثنا عبد الوهاب بن همام أخو عبد الرزاق عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال : كانت الخيل وحشا كسائر الوحوش ، فلما أذن الله لإبراهيم وإسماعيل برفع

(١) السكينة : ريح خجوج، أى سريعة المر . نهاية ابن الأثير .
(٢) أبو قبيس : اسم الجبل المشرف على مكة .

القواعد قال الله تبارك اسمه : "إنى معطيكما كنزا ادخرته لكما" ثم أوحى إلى إسماعيل أن اخرج إلى أجياد فادع يأتك الكنز، فخرج إلى أجياد ــ وكانت وطنا ــ ولا يدرى ما الدعاء ولا الكنز، فألهمه، فلم يبق فرس بأرض العرب إلا جاءته فأمكنته من نواصيها، وذللها له؛ فاركبوها وأعلفوها فإنها ميامين، وهى ميراث أبيكم إسماعيل؛ فإنما سمى الفرس عربيا (١) لأن إسماعيل أمر بالدعاء وإياه أتى . وروى عبد المنعم بن إدريس عن وهب بن منبه قال : أول من بنى البيت بالطين والحجارة شيث عليه السلام، وأما بنيان قريش له فمشهور، وخبر الحية فى ذلك مذكور ، وكانت تمنعهم من هدمه إلى أن اجتمعت قريش عند المقام فعجوا إلى الله تعالى وقالوا : ربنا، لم ترع! أردنا تشريف بيتك وتزيينه، فان كنت ترضى بذلك وإلا فما بدالك فافعل ، فسمعوا خوانا من السماء ــ والخوات : حفيف جناح الطير الضخم ــ فإذا هو بطائر أعظم من النسر، أسود الظهر أبيض البطن والرجلين؛ فغرز مخاليبه فى قفا الحية، ثم انطلق بها تجر ذنبها أعظم من كذا وكذا حتى انطلق بها نحو أجياد . فهدمتها قريش وجعلوا يبنونها بحجارة الوادى تحملها قريش على رقابها، فرفعوها فى السماء عشرين ذراعا، فبينا النبى صلى الله عليه وسلم يحمل حجارة من أجياد وعليه نمرة (٢) فضاقت عليه النمرة فذهب يرفع النمرة على عاتقه، فترى عورته من صغر النمرة؛ فنودى : يا محمد، خمر عورتك ؛ فلم ير عريانا بعد . وكان بين بنيان الكعبة وبين ما أنزل عليه خمس سنين، وبين خروجه وبنائها خمس عشرة سنة . ذكره عبد الرزاق عن معمر عن عبد الله بن عثمان عن أبى الطفيل . وذكر عن معمر عن الزهرى : حتى اذا بنوها وبلغوا موضع الركن اختصمت قريش فى الركن، أى القبائل يلى رفعه ؟ حتى شجر بينهم؛ فقالوا : تعالوا نحكم أول من يطلع علينا من هذه السكة، فاصطلحوا على ذلك ؛ فاطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام عليه وشاح نمرة، فحكموه فأمر بالركن فوضع فى ثوب ، ثم أمر سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ، ثم ارتقى هو فرفعوا اليه الركن؛ فكان هو يضعه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا . (٢) النمرة : كل شملة مخططة من مآزر الأعراب

قال ابن إسحاق : وحدّثت أن قريشا وجدوا فى الركن كتابا بالسريانية فلم يُدْرَ ما هو، حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا فيه : «أنا الله ذو بكّة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض وصوّرت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، لا تزول حتى يزول أخشباها (١) . مبارك لأهلها فى الماء واللبن» . وعن أبى جعفر محمد بن علىّ قال : كان باب الكعبة على عهد العماليق وجُرْهُم وإبراهيم عليه السلام بالأرض حتى بناه قريش . خرّج مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجَدْر (٢) أمن البيت هو ؟ قال : «نعم» قلت : فلم لم يُدْخلوه [فى البيت] (٣) ؟ قال : «إن قومكِ قصّرت بهم النفقة» . قلت : فما شأن بابه مرتفعا؟ قال : «فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ولولا أن قومك حديثٌ عهدُهم فى الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجَدْر فى البيت وأن أُلزق بابه بالأرض» . وخرّج عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال : حدّثتنى خالتى (يعنى عائشة) رضى الله عنها قالت قال النبى صلى الله عليه وسلم : «يا عائشة لولا أن قومكِ حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة» . وعن عروة عن عائشة قالت قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لولا حداثة [عهد] (٣) قومكِ بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فإن قريشا حين بنت الكعبة استقصرت ولجعلتُ لها خَلْفًا» . وفى البخارى قال هشام بن عروة: يعنى بابا . وفى البخارى أيضا : «لجعلت لها خلفين» يعنى بابين . فهذا بناء قريش . ثم لما غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير ووهت الكعبة من حريقهم، هدمها ابن الزبير وبناها على ما أخبرته عائشة وزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى أُسًّا نظر الناس إليه، فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانى عشرة ذراعا.

---

(١) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ، وهما : أبو قبيس ، والأحمر .

(٢) الجدر (بفتح الجيم وإسكان الدال) : حجر الكعبة (بكسر الحاء) .

(٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

فلما زاد فيه ٱستقصره، فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل لها بابين أحدهما يُدخَل منه، والآخر يُخرَج منه . كذا في صحيح مسلم ، وألفاظ الحديث تختلف . وذكر سفيان عن داود بن شابور عن مجاهد قال : لما أراد ٱبن الزبير أن يهدم الكعبة ويبنيه(١) قال للناس اهدموا؛ قال : فأبوا أن يهدموا وخافوا أن ينزل عليهم العذاب . قال مجاهد : فخرجنا الى منًى فأقمنا بها ثلاثا ننتظر العذاب . قال : وٱرتقى ٱبن الزبير على جدار الكعبة هو بنفسه؛ فلما رأوا أنه لم يصبه شيء اجترءوا على ذلك . قال : فهدموا . فلما بناها جعل لها بابين : بابا يدخلون منه، وبابا يخرجون منه، وزاد فيه مما يلي الحِجْر ستة أذرع، وزادفي طولها تسعة أذرع . قال مسلم في حديثه : فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، ويخبره أن ٱبن الزبير قد وضع البناء على أُسٍّ نظر اليه العدول من أهل مكة . فكتب إليه عبد الملك : إنّا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء؛(٢) أما ما زاد في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه الى بنائه ، وسدّ الباب الذى فتحه ؛ فنقضه وأعاده إلى بنائه . في رواية قال عبد الملك : ما كنت أظن أبا خُبَيب (يعني ابن الزبير) سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها . قال الحارث بن عبد الله : بلى، أنا سمعته منها . قال : سمعتَها تقول ماذا ؟ قال : قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه(٣) فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأُرِيَكِ ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع" . في أخرى : قال عبد الملك: لو كنت سمعته قبلَ أن أهدمه لتركته على ما بناه ابن الزبير . فهذا ما جاء في بناء الكعبة من الآثار .

وروى أن الرشيد ذكر لمالك بن أنس أنه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة، وأن يردّه على بناء ابن الزبير لما جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وامتثله ابن الزبير ؛ فقال له مالك : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ألّا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم

(١) كذا في نسخ الأصل . ولعل تذكير الضمير على معنى البيت .
(٢) قوله : إنا لسنا ... الخ، يعنى إنا برءاء مما لوثه بما اعتمده من هدم الكعبة . (عن شرح النووى)
(٣) كذا في صحيح مسلم . وفي نسخ الأصل : «تمامه» .

إلا نقض البيت وبناه فتذهب هيبته من صدور الناس . وذكر الواقدى حدثنا مَعْمَر عن همام بن منبّه سمع أبا هريرة يقول: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبّ أسعد الحميرى، وهو تبّع، وهو أوّل من كسا البيت، وهو تبع الآخر . قال ابن إسحاق : كانت تكسى القباطيّ ثم كسيت البُرُد، وأوّل من كساها الديباجَ الحجاج..

قال العلماء : ولا ينبغى أن يؤخذ من كسوة الكعبة شيء، فإنه مهدًى إليها، ولا ينقص منها شيء . روى عن سعيد بن جبير أنه كان يكره أن يؤخذ من طيب الكعبة يستشفى به . وكان إذا رأى الخادم تأخذ منه قفدها قَفْدة(1) لا يألو أن يوجعها . وقال عطاء . كان أحدنا اذا أراد أن يستشفى به جاء بطيب من عنده فمسح به الحجر ثم أخذه .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ . المعنى : ويقولان ربنا، فحذف. وكذلك هى فى قراءة أُبَيّ وعبد الله بن مسعود : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ وَيَقُولَانِ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ .

وتفسير إسماعيل: اسمع يا الله؛ لأن إيل بالسريانية هو الله، وقد تقدّم. فقيل : إن إبراهيم لما دعا ربه قال: اسمع يا إيل؛ فلما أجابه ربه ورزقه الولد سماه بما دعاه. ذكره الماوردى.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ اسمان من أسماء الله تعالى قد أتينا عليهما فى الكتاب " الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى " .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أى صيّرنا . ومسلمين مفعول ثان . سألا التثبيت والدوام . والإسلام فى هذا الموضع الإيمان والأعمال جميعا ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ . ففى هذا دليل لمن قال : إن الإيمان والإسلام شيء واحد، وعضّدوا هذا بقوله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . وقرأ ابن عباس وعوف الأعرابى ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ على الجمع .

---

(1) القفد : صفع القفا ببطن الكف .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ أى ومن ذريتنا فاجعل . فيقال : إنه لم يدع نبيّ إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمته لهذه الأمة . ومن، فى قوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا ﴾ للتبعيض ؛ لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين . وحكى الطبرى أنه أراد بقوله﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا ﴾ العرب خاصة. قال السهيلى: وذريتهما العرب؛ لأنهم بنو نبت بن إسماعيل،(١) أو بنو تيمن بن إسماعيل،(٢) ويقال: قيدر بن نبت بن إسماعيل. أو تيمن، على أحد القولين. قال ابن عطية: وهذا ضعيف. لأن دعوته ظهرت فى العرب وفيمن آمن من غيرهم . والأمة : الجماعة هنا . وتكون واحدا اذا كان يقتدى به فى الخير؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم فى زيد بن عمرو بن نُفَيل : « يبعث أمة وحده » لأنه لم يشرك فى دينه غيره ، والله أعلم . وقد يطلق لفظ الأمة على غير هذا المعنى؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أى على دين وملة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ . وقد تكون بمعنى الحين والزمان؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى بعد حين وزمان . ويقال : هذه أُمّة زيد أى أُم زيد . والأُمّة أيضا : القامة؛ يقال : فلان حسن الأمّة أى حسن القامة ؛ قال :

وإن معاوية الأكرميـ ... ـن حسانُ الوجوه طِوالُ الأُمَم

وقيل : الأمّة الشّجة التى تبلغ أم الدماغ؛ يقال : رجل مأموم وأميم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ . أرنا من رؤية البصر، فتعدّى إلى مفعولين ؛ وقيل : من رؤية القلب. ويلزم قائله أن يتعدى الفعل منه إلى ثلاثة مفعولين . قال ابن عطية :

---

(١) كذا ورد كلام السهيلى فى بعض الأصول . وورد فى بعضها الآخر هكذا : « قال السهيلى : وذريتهما العرب، لأنهم بنو نبت بن إسماعيل أو بنو تيمن بن إسماعيل ، ويقال : قيدر بن نبت بن إسماعيل . أما العدنانية فمن نبت . وأما القحطانية فمن قيدر بن نبت بن إسماعيل أو تيمن ، على أحد القولين الخ » .

(٢) فى سيرة ابن هشام (ج ١ ص ٤ طبع أوربا) : « نابت » وقد ذكر أولاد إسماعيل الاثنى عشر ولم يذكر فيهم اسم « تيمن » .

وينفصل بأنه يوجد معدّى بالهمزة من رؤية القلب إلى مفعولين كغير المعدى ؛ قال حُطائط[١] ابن يعفُر أخو الأسود بن يعفر :

أريني جـوادا مات هُزْلا لأنّني[٢] * أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلا مُخـلَّدا

وقرأ عمر بن عبد العزيز وقتادة وابن كثير وابن مُحيصن والسُّدّى ورَوْح عن يعقوب ورُوَيس والسُّوسى ﴿ أَرْنَا ﴾ بسكون الراء فى القرآن ؛ واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو عمرو باختلاس كسرة الراء ، والباقون بكسرها ؛ واختاره أبو عبيـد . وأصله أرْءنا بالهمز . فمن قرأ بالسكون قال : ذهبت الهمزة وذهبت حركتها وبقيت الراء ساكنة على حالها ؛ واستدل بقول الشاعر :

أَرْنا إداوة عبـــد الله نملـــؤها * من ماء زمزم إنّ القوم قد ظمئوا

ومن كسر فإنه نقل حركة الهمـزة المحذوفة إلى الراء . وأبو عمرو طلب الخفـة . وعن شجاع ابن أبى نصر[٣] وكان أمينا صادقا أنه رأى رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فذاكره أشياء من حروف أبى عمرو فلم يرد عليه إلا حرفين ، هـذا ، والآخر ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا ﴾ مهمـــوزا .

قوله تعالى : ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ . يقال : إن أصل النسك فى اللغة الغسل ؛ يقال منه : نَسَك ثوبه إذا غسله . وهو فى الشرع اسم للعبادة ؛ يقال : رجل ناسك إذا كان عابدا .

واختلف العلماء فى المراد بالمناسك هنا ، فقيل : مناسك الحج ومعالمه . قاله قتادة والسُّدّى . وقال مجاهد وعطاء وابن جُريج : المناسك المذابح أى مواضع الذبح . وقيل : جميع المتعبدات . وكل ما يتعبـد به إلى الله تعالى يقال له مَنْسَك ومَنْسِك . والناسك : العابد . قال النحاس : يقال نَسَك ينسُك ، فكان يجب على هذا أن يقال : مَنْسُك ؛ إلا أنه ليس فى كلام العرب مَفْعُل .

---

(١) قال أبو حيان : « ... يعنى أنه قد استعمل فى اللسان العربى متعديا الى اثنين ومعه همزة النقل كما استعمل متعديا الى اثنين بغير الهمزة » .

(٢) ويروى « لعلنى » ؛ ولأن بمعنى لعل .

(٣) ورد هذا الاسم محرفا فى نسخ الأصل . والتصويب عن طبقات القراء وتهذيب التهذيب .

وعن زهير بن محمد قال : لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام قال : أى رب، قد فرغت فأرنا مناسكنا ؛ فبعث الله تعالى اليه جبريل فحج به، حتى إذا رجع من عرفة وجاء يوم النحر عرض له إبليس، فقال له : احصبه، فحصبه بسبع حصيات، ثم الغد ثم اليوم الثالث، ثم علا ثبيرا[1] فقال : يا عباد الله، أجيبوا ؛ فسمع دعوته من بين الأبحر ممن فى قلبه مثقال ذرة من إيمان، فقال : لبيك . اللهم لبيك ؛ قال : ولم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعدا، لو لا ذلك لأهلكت الأرض ومن عليها . وأول من أجاب أهل اليمن .

وعن أبى مجلز قال : لما فرغ إبراهيم من البيت جاءه جبريل عليه السلام فأراه الطواف بالبيت — قال : وأحسبه قال : والصفا والمروة — ثم انطلقا الى العقبة فعرض لهما الشيطان؛ فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات ، فرمى وكبر، وقال لإبراهيم : ارم وكبر؛ فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشيطان . ثم انطلقا الى الجمرة الوسطى، فعرض لهما الشيطان؛ فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات، وقال : ارم وكبر؛ فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشيطان . ثم أتيا الجمرة القصوى فعرض لهما الشيطان ؛ فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات وقال : ارم وكبر ؛ فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشيطان . ثم أتى به جمعا[2] فقال : ها هنا يجمع الناس الصلوات . ثم أتى به عرفات فقال : عرفت ؟ فقال نعم ؛ فمن ثم سمى عرفات . وروى أنه قال له : عرفت، عرفت، عرفت؟ أى منى والجمع وهذا ؛ فقال نعم ؛ فسمى ذلك المكان عرفات . وعن خصيف بن عبد الرحمن أن مجاهدا حدثه قال: لما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ . أرى الصفا والمروة، وهما من شعائر الله بنص القرآن؛ ثم خرج به جبريل، فلما مر بجمرة العقبة إذا إبليس عليها، فقال له جبريل : كبر وارمه؛ فارتفع إبليس الى الوسطى؛ فقال جبريل : كبر وارمه ؛ ثم فى الجمرة القصوى كذلك . ثم انطلق به الى المشعر الحرام،

---

(١) ثبير أعظم جبل بمكة بينها وبين عرفة .

(٢) جمع (بفتح فسكون) : المزدلفة .

ثم أتى به عرفة فقال له : عرفت ما أريتك ؟ قال نعم؛ فسمّيت عرفات لذلك ؛ قال : فأذّن فى الناس بالحج؛ قال : كيف أقول ؟ قال قل : يأيها الناس، أجيبوا ربكم ثلاث مرار، ففعل؛ فقالوا : لبّيك. اللهم لبّيك. قال : فمن أجاب يومئذ فهو حاج . وفى رواية أخرى أنه حين نادى استدار فدعا فى كل وجه، فلبّى الناس من كل مشرق ومغرب، وتطأطأت الجبال حتى بَعُد صوته . وقال محمد بن إسحاق: لمّا فرغ إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه من بناء البيت الحرام، جاءه جبريل عليه السلام فقال له : طف به سبعا ؛ فطاف به سبعا هو وإسماعيل عليهما السلام، يستلمان الأركان كلها فى كل طواف؛ فلما أكملا سبعا صلّيا خلف المقام ركعتين . قال : فقام جبريل فأراه المناسك كلها : الصفا والمروة ومنى والمزدلفة. قال : فلما دخل مِنًى وهبط من العقبة تمثّل له إبليس ؛ فذكر نحو ما تقدّم . قال ابن إسحاق : وبلغنى أن آدم عليه السلام كان يستلم الأركان كلها قبل إبراهيم عليه السلام . وقال : حج إسحاق وسارة من الشام ، وكان إبراهيم عليه السلام يحجه كل سنة على البراق ؛ وحجّته بعد ذلك الأنبياء والأمم . وروى محمد بن سابط عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "كان النبيّ من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق مكة فتعبّد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا؛ فمات بها نوح وهود وصالح، وقبورهم بين زمزم والحِجْر" . وذكر ابن وهب أن شعيبا مات بمكة هو ومن معه من المؤمنين ، فقبورهم فى غربىّ مكة بين دار الندوة وبين بنى سهم . وقال ابن عباس : فى المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما، قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام؛ فقبر إسماعيل فى الحِجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود . وقال عبد الله بن ضمرة السلولىّ : ما بين الركن والمقام الى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيّا جاءوا حجّاجا فقُبِروا هنالك صلوات الله عليهم أجمعين .

قوله تعالى : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ . اختلف فى معنى قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ وهم أنبياء معصومون ، فقالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام ، لا أنهما كان لهما ذنب .

قلت: وهذا حسن، وأحسن منه أنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت، أرادا أن يبيّنا للناس ويعرفاهم أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصّل من الذنوب وطلب التوبة. وقيل: المعنى: وتب على الظَّلَمة منا. وقد مضى الكلام فى عصمة الأنبياء عليهم السلام فى قصة آدم عليه السلام، وتقدّم القول فى معنى قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾. يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم. وفى قراءة أُبَىّ ﴿ وَابْعَثْ فِي آخِرِهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾. وقد روى خالد بن مَعْدان أن نفرا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم قالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؛ قال: "نعم أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى". ورسولا أى مرسلا، وهو فعول من الرسالة. قال ابن الأنبارى: يشبه أن يكون أصله من قولهم: ناقة مِرْسَالٌ ورَسْلَةٌ إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق. ويقال للجماعة المهملة المرسلة رَسَلٌ، وجمعه أرسال. ويقال: جاء القوم أرسالا أى بعضهم أثر بعض؛ ومنه يقال للبن رِسْلٌ؛ لأنه يرسل من الضرع.

قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾. الكتاب القرآن. والحكمة المعرفة بالدين، والفقه فى التأويل، والفهم الذى هو مِنْحة(1) ونور من الله تعالى. قاله مالك، رواه عنه ابن وهب، وقاله ابن زيد. وقال قتادة: الحكمة السنة وبيان الشرائع. وقيل: الحكمة القضاء خاصة؛ والمعنى متقارب. ونسب التعليم الى النبىّ صلى الله عليه وسلم من حيث هو يعطى الأمور التى ينظر فيها، ويعلم طريق النظر بما يلقيه إليه الله من وحيه. ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أى يطهرهم من وَضَر(2) الشرك، عن ابن جريج وغيره. والزكاة التطهير، وقد تقدّم. وقيل: إن الآيات تلاوة ظاهر الألفاظ، والكتاب معانى الألفاظ، والحكمة الحكم، وهو مراد الله بالخطاب من مطلق ومقيد ومفسر ومجمل وعموم وخصوص، وهو معنى ما تقدّم. والله تعالى أعلم. ﴿ وَالْعَزِيزُ ﴾ معناه المنيع الذى لا ينال ولا يغالب. وقال ابن كيسان: معناه الذى لا يعجزه شىء، دليله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾.

---

(1) فى نسخ الأصل: «سبحة». (2) الوضر: الوسخ.

الكسائى : العـزيز الغالب ؛ ومنه قوله تعـالى : ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ . رفى المثل ، : « من عَزَّ بَزَّ » أى من غلب سلب . وقيل : العزيز الذى لا مثل له . بيانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ . وقد زدنا هذا المعنى بيانا فى اسمه العزيز فى كتاب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » وقدتقدّم معنى الحكيم ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ الآية . من استفهام فى موضـع رفع بالابتداء . ويرغب صـلة من . إلا من سـفه نفسه فى موضع الخبر . وهو تقريع وتوبيخ وقع فيه معنى النفى ، أى وما يرغب ، قاله النحاس . والمعنى : يزهد فيها وينأى بنفسه عنها ، أى عن الملة وهى الدّين والشرع . إلا من سفه نفسه ، قال قتادة : وهم اليهود والنصارى ، رغبوا عن ملة إبراهيم واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله تعالى . قال الزجاج : سفه بمعنى جهل ، أى جهل أمر نفسه فلم يفكّر فيها . وقال أبو عبيدة : المعنى أهلك نفسه . وحكى ثعلب والمبرد أن سَـفِه بكسر الفـاء يتعدّى كسفَّه بفتح الفاء وشدّها . وحكى عن أبى الخطاب ويونس أنها لغـة . وقال الأخفش : سفه نفسـه أى فعل بها من السفه ما صار به سفيها . وعنـه أيضا هى لغـة بمعنى سفَّه ، حكاه المهدوى ، والأول ذكره المـاوردى . فأمّا سَفُه بضم الفاء فلا يتعدّى ، قاله المبرد وثعلب . وحكى الكسائى عن الأخفش أن المعنى جهل فى نفسه ، فحذفت « فى » فآنتصب . قال الأخفش : ومثله عقدة النكاح[1] ، أى على عقـدة النكاح . وهذا يجرى على مذهب سيبويه فيما حكاه من قولهم : ضرب فلان الظهر والبطن ، أى فى الظهر والبطن . الفراء : هو تمييز . قال ابن بحر : معناه جهل نفسه وما فيها من الدلالات والآيات الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شىء ، فيعلم به توحيد الله وقدرته .

قلت : وهذا معنى قول الزجاج : فيفكر فى نفسه من يدين يبطش بهما ، ورجلين يمشى عليهما ، وعين يبصربها ، وأذن يسمع بها ، ولسان ينطق به ، وأضراس تنبت له عنـد غناه عن الرضاع وحاجته الى الغذاء ليطحن بها الطعام ، ومعدة أعدّت لطبخ الغذاء ، وكبد يصعد اليها صفوه ، وعروق ومعابر ينفذ فيها الى الأطراف ، وأمعاء يرسب اليها ثُفْل الغـذاء ويبرز

(١) أى فى قوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح ﴾ .

من أسفل البدن ، فيستدل بهذا على أن له خالقا قادرا عليما حكيما . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . أشار الى هذا الخطّابى رحمه الله تعالى . وسيأتى له مزيد بيان فى سورة « والذاريات » إن شاء الله تعالى .

وقد استدل بهذه الآية من قال : إن شريعة إبراهيم شريعة لنا إلا ما نسخ منها ؛ وهذا كقوله : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . وسيأتى بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى اخترناه للرسالة فجعلناه صافيا من الأدناس . والأصل فى اصطفيناه اصتفيناه ، أبدلت التاء طاء لتشابهها[1] مع الصاد فى الإطباق . واللفظ مشتق من الصفوة ؛ ومعناه تخيّر الأصفى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . الصالح فى الآخرة هو الفائز . ثم قيل : كيف جاز تقديم ﴿ فِي الْآخِرَةِ ﴾ وهو داخل فى الصلة ؟ قال النحاس : فالجواب أنه ليس التقدير إنه لمن الصالحين فى الآخرة فتكون الصلة قد تقدمت ؛ ولأهل العربية فيه ثلاثة أقوال : منها أن يكون المعنى وإنه صالح فى الآخرة ثم حذفت . وقيل : فى الآخرة متعلق بمصدر محذوف أى صلاحه فى الآخرة . والقول الثالث : أن الصالحين ليس بمعنى الذين صلحوا ، ولكنه اسم قائم بنفسه ؛ كما يقال الرجل والغلام .

قلت[2] : وقول رابع أن المعنى و إنه فى عمل الآخرة لمن الصالحين ؛ فالكلام على حذف مضاف . وقال الحسن[3] بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير ، مجازه ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة و إنه لمن الصالحين . وروى حجّاج بن حجّاج — وهو حجاج الأسود ، وهو أيضا حجاج الأحول المعروف بزقّ العسل — قال : سمعت معاوية بن قُرّة يقول : اللهم إن الصالحين أنت أصلحتهم ورزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم ، اللهم كما أصلحتهم فأصلحنا وكما رزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم فارزقنا أن نعمل بطاعتك وارض عنا .

---

(١) فى بعض الأصول : « لتناسبها ... » . (٢) ظاهر كلام المؤلف أن هذا وجه رابع من أوجه الاعراب . وهو غير واضح . وظاهر كلام أبى حيان . أنه تفسير لأحد المعانى قيلت فى المراد من قوله تعالى : فى الآخرة » . (٣) كذا ورد فى بعض نسخ الأصل وأبى حيان . وفى بعضها : « الحسين » .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ﴾ الآية . العامل فى إذ قوله : ﴿ اصْطَفَيْنَاهُ ﴾ . أى اصطفيناه إذ قال له ربه أسلم . وكان هـذا القول من الله تعالى حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس . وقال[1] ابن كيسان والكلبي : أى أخلص دينك لله بالتوحيد ؛ وقيـل : اخضع واخشـع . وقال ابن عباس : إنمـا قال له ذلك حين خرج من السرب[2] على ما يأتى ذكره فى الأنعام[3] . والإسلام هنا على أتم وجوهه . والإسـلام فى كلام العرب الخضوع والانقياد للمستسلم . وليس كل إسلام إيمانا ، وكل إيمان إسلام ؛ لأن من آمن بالله فقد انقاد واستسلم لله ، وليس كل من أسـلم آمن بالله ؛ لأنه قد يتكلم فَرَقًا من السيف ولا يكون ذلك إيمانا ؛ خلافا للقدرية والخوارج حيث قالوا : إن الإسلام هو الإيمان ؛ فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ؛ فدلّ على أن الإسلام هو الدين ، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن .

ودليلنا قوله تعـالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ الآية . فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمنا ؛ فدلّ على أنه ليس كل مسلم مؤمنا . وقال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقّاص لمـا قال له : أَعْطِ فلانا فإنه مؤمن ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « أَوْ مسـلم » الحديث ، خرّجه مسلم ؛ فدل على أن الإيمان ليس الإسلام ، فإن الإيمان باطن ، والإسلام ظاهر ؛ وهذا بيّن . وقد يطلق الإيمـان بمعنى الإسلام ، والإسلام ويراد به الإيمان ؛ للزوم أحدهما الآخر وصدوره عنه كالإسلام الذى هو ثمرة الإيمـان ودلالة على صحته فاعلمه ، وبالله التوفيق .

قوله تعـالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى بالملة ؛ وقيـل : بالكلمـة التى هى قوله : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وهو أصوب ؛ لأنه أقرب مذكور ، أى قولوا : أسلمنا . ووصّى وأوصى لغتان لقريش وغيرهم بمعنًى ، مثل كرّمنا وأكرمنا ؛ وقرئ بهما . وفى مصحف

---

(١) لعل الأولى حذف واو العطف هنا . (٢) السرب (بالتحريك) : الحفير ، و بيت تحت الأرض .
(٣) عند قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ...) الآيات .

عبد الله : ووصى ،وفى مصحف عثمان : وأوصى ، وهى قراءة أهل المدينة والشام ، والباقون ووَصّى ، وفيه معنى التكثير . وإبراهيم رفع بفعله ،ويعقوب عطف عليه ؛ وقيل هو مقطوع مستأنف ،والمعنى : وأوصى يعقوب وقال : يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين ؛ فيكون إبراهيم قد وصى بنيه ، ثم وصى بعده يعقوب بنيه .

وبنو إبراهيم : إسماعيل وأمه هاجر القبطية ، وهو أكبر ولده . نقله إبراهيم الى مكة وهو رضيع ؛ وقيل : كان له سنتان ؛ وقيل : كان له أربع عشرة سنة ؛ والأول أصح ؛ على ما يأتى فى سورة إبراهيم بيانه إن شاء الله تعالى . وولد قبل أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة ، ومات وله مائة وسبع وثلاثون سنة ؛ وقيل : مائة وثلاثون . وكان سنه لما مات أبوه إبراهيم عليهما السلام تسعا وثمانين سنة ؛ وهو الذبيح فى قول . وإسحاق أمه سارة ، وهو الذبيح فى قول آخر ، وهو الأصح ، على ما يأتى بيانه فى سورة والصّافات إن شاء الله . ومن ولده : الروم واليونان والأرمن ومن يجرى مجراهم وبنو إسرائيل . وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة ، ومات بالأرض المقدسة ودفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام . ثم لما توفيت سارة تزوج إبراهيم عليه السلام قنطورا بنت يقطن الكنعانية ، فولدت له مدين ومداين ونهشان وزمران ونشيق وشيوخ[(١)] ؛ ثم تُوفّى عليه السلام ، وكان بين وفاته وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم نحو من ألفى سنة وستمائة سنة ؛ واليهود ينقصون من ذلك نحوا من أربعمائة سنة . وسيأتى ذكر أولاد يعقوب فى سورة يوسف إن شاء الله تعالى . وقرأ عمرو بن فائد الأسوارى وإسماعيل ابن عبد الله المكى : ﴿ ويَعْقُوبَ ﴾ بالنصب عطفا على بنيه ؛ فيكون يعقوب داخلا فيمن أوصى . قال القشيرى : وقرئ ﴿ يعْقُوبَ ﴾ بالنصب عطفا على بنيه وهو بعيد ؛ لأن يعقوب لم يكن فيما بين أولاد ابراهيم لما وصّاهم ، ولم ينقل أن يعقوب أدرك جدّه إبراهيم ، وإنما ولد بعد موت إبراهيم ، وأن يعقوب أوصى بنيه أيضا كما فعل إبراهيم .

---

(١) كذا وردت هذه الأسماء بنسخ الأصل . والذى فى كتاب الرسل والملوك لابن جرير الطبرى قسم أول ص ٣٤٥ طبع أوربا : « يقسان ، وزمران ، ومديان ، ويسبق ، وسوح ، وبصر » . وفى تاريخ ابن الأثير : « نقشان ومران ، ومديان ، ومدن ، ونشق ، وسرح » .

قال الكلبي : لما دخل يعقوب الى مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران والبقر، بجمع ولده وخاف عليهم وقال : ما تعبدون من بعدى ؟

ويقال : إنما سمى يعقوب؛ لأنه كان هو والعيص توءمين ، فخرج من بطن أمه آخذا بعقب أخيه العيص . وفى ذلك نظر ؛ لأن هذا اشتقاق عربى ، ويعقوب اسم أعجمى ، وإن كان قد وافق العربية فى التسمية به كذكر الحجل (١) . عاش عليه السلام مائة وسبعا وأربعين سنة ومات بمصر، وأوصى أن يحمل الى الأرض المقدسة، ويدفن عند أبيه إسحاق؛ فحمله يوسف ودفنه عنده .

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ معناه أن يا بنىّ ؛ وكذلك هو فى قراءة أبىّ وابن مسعود والضحاك . قال الفراء : ألغيت أنْ لأن التوصية كالقول ، وكل كلام يرجع الى القول جاز فيه دخول أن وجاز فيه إلغاؤها . قال : وقول النحويين إنما أراد أن فالغيت ليس بشىء . النحاس : يا بنى ، نداء مضاف، وهذه ياء النفس لا يجوز هنا إلا فتحها؛ لأنها لو سكنت لالتقى ساكنان؛ ومثله بمُصْرِخِىّ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ كسرت إن لأن أوصى وقال واحد . وقيل : على إضمار القول . ﴿ ٱصْطَفَىٰ ﴾ : اختار . قال الراجز :

يابن ملوك ورّثوا الأملاكا * خلافة الله التى أعطاكا

* لك اصطفاها ولها اصطفاكا *

﴿ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أى الإسلام . والألف واللام فى الدين للعهد ؛ لأنهم قد كانوا عرفوه . ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ إيجاز بليغ . والمعنى : الزموا الإسلام ودوموا عليه ولا تفارقوه حتى تموتوا ؛ فأتى بلفظ موجز يتضمن المقصود، ويتضمن وعظا وتذكيرا بالموت ؛ وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدرى متى؛ فاذا أمر بأمر لا يأتيه الموت الا وهو عليه، فقد توجه الخطاب من وقت الأمر دائبا لازما . ولا نهى . تموتن فى موضع جزم بالنهى، أكد

(١) الحجل (بالتحريك) : طائر على قدر الحمام كالقطا ، أحمر المنقار والرجلين ، ويسمى دجاج البر . ويسمى الذكر منه يعقوب وجمعه يعاقب و يعاقيب .

بالنون الثقيلة ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين . إلا وأنتم مسلمون، ابتداء وخبرفى موضع الحال، أى محسنون بربكم الظنّ، وقيل : مخلصون، وقيل : مفوّضون، وقيل : مؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ . شهداء خبر كان، ولم تصرف لأن فيها ألف التأنيث؛ ودخلت لتأنيث الجماعة كما تدخل الهاء. والخطاب لليهود والنصارى الذين يَنْسُبُونَ الى إبراهيم مالم يوص به بنيه ، وأنهم على اليهودية والنصرانية؛ فردّ الله عليهم قولهم وكذّبهم، وقال لهم على جهة التوبيخ : أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدّعون عن علم! أى لم تشهدوا، بل أنتم تفترون . وأم بمعنى بل أى بل أشَهِد أسلافكم يعقوب . والعامل فى إذ الأولى معنى الشهادة ، وإذ الثانية بدل من الأولى . وشهداء جمع شاهد أى حاضر. ومعنى حضر يعقوب الموت أى مقدّماته وأسبابه ؛ وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئا . وعبّر عن المعبود بما ولم يقل من ؛ لأنه أراد أن يختبرهم ؛ ولو قال من ، لكان مقصوده أن ينظر من لهم الاهتداء منهم ؛ وإنما أراد تجربتهم فقال ما . وأيضا فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة؛ فاستفهم عما يعبدون منهذه . ومعنى ﴿ مِنْ بَعْدِى ﴾ أى من بعد موتى . وحكى أن يعقوب حين خيّر كما تخيّر الأنبياء اختار الموت وقال : أمهلونى حتى أوصى بنىّ وأهلى؛ فجمعهم وقال لهم هذا، فاهتدوا وقالوا : ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ ﴾ الآية، فأروه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم بالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ فى موضع خفض على البدل ، ولم تنصرف لأنها أعجمية . قال الكسائى : وإن شئت صرفت إسحاق وجعلته من السحق، وصرفت يعقوب وجعلته من الطير . وسمّى الله كل واحد من العمّ والجدّ أبًا، وبدأ بذكر الجدّ ثم إسماعيل العم لأنه أكبر من إسحاق . و﴿ إِلَٰهًا ﴾ بدل من إلهك بدل النكرة من المعرفة؛ وكرره لفائدة الصفة بالوحدانية . وقيل : إله حال . قال ابن عطية : وهو قول حسن؛ لأن الغرض إثبات حال الوحدانية. وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر والجحدرىّ وأبو رجاء العُطاردىّ : وإله أبيك . وفيه وجهان :

أحدهما — أن يكون أفرد وأراد إبراهيم وحده، وكره أن يجعل إسماعيل أباً لأنه عم .
قال النحاس : وهذا لا يجب ؛ لأن العرب تسمى العم أبا .

الثانى — على مذهب سيبويه أن يكون «أبيك» جمع سلامة . حكى سيبويه أب وأبون وأبين؛ كما قال الشاعر :

* فقلنا اسلموا إنا أخوكم (١) *

وقال آخر :

فلما تبين أصواتنا * بكين وفديننا بالأبينا

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ابتداء وخبر ، ويحتمل أن يكون فى موضع الحال ، والعامل نعبد .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ . تلك مبتدأ . وأمة خبره . وقد خلت نعت لأمة ، وإن شئت كان خبر المبتدأ ، وتكون أمة بدلا من تلك . ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ . ما فى موضع رفع بالابتداء أو بالصفة على قول الكوفيين . ﴿ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ مثله . يريد من خير وشر . وفى هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب ؛ وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك إن كان خيرا فبفضله ، وإن كان شرا فبعدله ؛ وهذا مذهب أهل السنة ؛ والآى فى القرآن بهذا المعنى كثيرة . فالعبد مكتسب لأفعاله ، على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلا ؛ وذلك التمكن هو مناط التكليف . وقالت الجبرية بنفى اكتساب العبد ، وإنه كالنبات الذى تصرفه الرياح . وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين ، وإن العبد يخلق أفعاله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أى لا تحمل حاملة ثقل أخرى ؛ وسيأتى .

---

(١) الشاهد فيه أخوكم ، فانه جمع أخ ، ليصح الاخبار به عن ضمير الجمع . وتمام البيت :

* فقد سلمت من الإحن الصدور *

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ . دعت كل فرقة الى ما هى عليه ؛ فردّ الله تعالى ذلك عليهم فقال : ﴿ بَلْ مِلَّةَ ﴾ أى قـل يا محمد : بل نتبع ملة ؛ فلهـذا نصب الملة ، وقيـل : المعنى بل نهتدى بملة إبراهيم ؛ فلما حذف حرف الجر صار منصوبا . وقرأ الأعرج وابن أبى عَبْلة : ﴿ بَلْ مِلَّةُ ﴾ بالرفع ، والتقـدير بل الهدى مـلة ، أو ملتنا دين إبراهيم . وحنيفا مائلا عن الأديان المكروهة الى الحـق دينِ إبراهيم ؛ وهو فى موضـع نصب على الحال ؛ قاله الزجاج . أى بل نتبع ملة إبراهيم فى هذه الحالة . وقال على بن سليمان : هو منصوب على أعنى ، والحال خطأ ، لا يجوز جاءنى غلام هند مسرعة . وسمى إبراهيم حنيفا ؛ لأنه حَنف الى دين الله وهو الإسلام . والحَنَف المَيل ، ومنه رِجْلٌ حَنْفاء ، ورَجُلٌ أحنف ، وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها . قالت أم الأحنف :

والله لو لا حَنَفٌ برجـلِه ❊ ما كان فى فتيانكم من مِثْلِه

وقال الشاعر :

إذا حوّل الظّل العشىّ رأيتـه ❊ حنيفا وفى قَرْن الضحى يتنصّر

أى الحـرباء تستقبل القبـلة بالعشى ، والمشرق بالغداة وهو قبـلة النصارى . وقال قـوم : الحنف الاستقامة ؛ فسمى دين إبراهيم حنيفا لاستقامته . وسمى المعوج الرجلين أحنف تفاؤلا بالاستقامة ؛ كما قيل للّديغ سليم ، وللمهلكة مفازة فى قول أكثرهم .

قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ . خرّج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقُولُوا آمنا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ الآية " . وقال محمد بن سيرين : إذا قيل لك : أنت مؤمن ؟ فقل : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ الآية . وكره أكثر السلف أن يقـول الرجل : أنا مؤمن حقا ؛ وسيأتى بيانه فى الأنفال إن شاء الله تعالى . وسئل بعض المتقدّمين عن رجل قيـل له : أتؤمن بفلانٍ النبىّ فسمّاه باسم لم يعـرفه ؛ فلو قال : نعم فلعـله لم يكن

نبيا فقد شهد بالنبوة لغير نبيّ، ولو قال لا، فلعله نبيّ فقد جحد نبيا من الأنبياء، فكيف يصنع ؟ فقال : ينبغي أن يقول : إن كان نبيا فقد آمنت به . والخطاب في هذه الآية لهذه الأمة علمهم الإيمان . قال ابن عباس : جاء نفر من اليهود الى النبيّ صلى الله عليه وسلم فسألوه عمّن يؤمن به من الأنبياء، فنزلت الآية . فلما جاء ذكر عيسى قالوا : لا نؤمن بعيسى ولا من آمن به .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ . جمع إبراهيم بَرَاهِيم . وإسماعيل سَمَاعِيل ؛ قاله الخليل وسيبويه ، وقاله الكوفيون وحكوا بَرَاهِمة وسَمَاعِلة، وحكوا بَرَاهِم وسَمَاعِل . قال محمد بن يزيد : هذا غلط ؛ لأن الهمزة ليس هذا موضع زيادتها، ولكن أقول : أَبَارِه وأَسَامِع، ويجوز أَبَارِيه وأَسَامِيع . وأجاز أحمد بن يحيى بَرَاه كما يقال في التصغير بُرَيْه . وجمع إسحاق أساحيق، وحكى الكوفيون أساحقة وأساحق؛ وكذا يعقوب ويعاقيب، ويعاقبة ويعاقب. قال النحاس : فأمّا إسرائيل فلا نعلم أحدا يجيز حذف الهمزة من أوله ، وإنما يقال أَسَارِيل، وحكى الكوفيون أسارلة وأَسَارِل . والباب في هذا كله أن يجمع مسلّما فيقال إبراهيمون وإسحاقون ويعقوبون، والمسلم لا عمل فيه .

والأسباط ولد يعقوب عليه السلام وهم اثناعشر ولدا ، وُلِد لكل واحد منهم أمّة من الناس، واحدهم سِبْط . والسِّبْط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل . وسُمّوا الأسباط من السَّبَط وهو التتابع ، فهم جماعة متتابعون . وقيل : أصله من السَّبَط (بالتحريك) وهو الشجر، أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سَبَطة . قال أبو إسحاق الزجاج : ويُبيّن لك هذا ما حدّثنا به محمد بن جعفر الأنباري قال حدّثنا أبو نُجَيْد[1] الدقاق قال حدّثنا الأسود بن عامر قال حدّثنا إسرائيل عن سِمَاك عن عِكْرِمة عن ابن عباس قال : كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة : نوحا وشعيبا وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمدا

(١) كذا ورد في نسخة من الأصل وتفسير ابن كثير في هذا الموضع . وفي سائر الأصول : «أبو مجيد» بالميم .

صلى الله عليه وسلم . ولم يكن أحد له إيمان إلا عيسى و يعقوب . والسِّبْط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد . وشعر سَبْط وسَبِط غير جَعْد . ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ قال الفرّاء : أي لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته . المعنى : فإن آمنوا مثل إيمانكم وصدّقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا ؛ فالمماثلة وقعت بين الإيمانين، وقيل[1] : إن الباء زائدة مؤكدة . وكان ابن عباس يقرأ فيما حكى الطبري : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ وهذا هو معنى القراءة وإن خالف المصحف ؛ فمثل زائدة كما هي في قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أي ليس كهو شيء . قال الشاعر :

* فصُيِّروا مثل كعصف مأكول *

وروى بَقِيّة حدّثنا شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس قال : لا تقولوا فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فإن الله ليس له مثل ، ولكن قولوا : بالذي آمنتم به . تابعه عليّ بن نصر الجَهْضَميّ عن شعبة، ذكره البيهقي . والمعنى أي فإن آمنوا بنبيكم و بعامة الأنبياء ولم يفرقوا بينهم كما لم تفرقوا فقد اهتدوا ، وإن أبوا إلا التفريق فهم الناكبون عن الدين[2] الى الشقاق فسيكفيكهم الله . وحُكي عن جماعة من أهل النظر قالوا : ويحتمل أن تكون الكاف في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ زائدة . قال : والذي روي عن ابن عباس من نهيه عن القراءة العامة شيء ذهب إليه للمبالغة في نفي التشبيه عن الله عز وجل . وقال ابن عطية : هذا من ابن عباس على جهة التفسير أي هكذا فليتأوّل . وقد قيل : إن الباء بمعنى على، والمعنى : فإن آمنوا على مثل إيمانكم . وقيل : «مثل» على بابها أي بمثل المنزل؛ دليله قوله :﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ .

---

(١) هذه الجملة من تمام القول الأول وليست قولا آخر كما يتبادر من السياق .

(٢) في نسخة من الأصل : «عن التبيين» . وفي أخرى : «عن الدين» .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى عن الإيمان ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم: الشِّقاق المنازعة؛ وقيل : الشقاق المجادلة والمخالفة والتعادى . وأصله من الشِّقّ وهو الجانب؛ فكأن كل واحد من الفريقين فى شق غير شق صاحبه . قال الشاعر :

الى كم يقتل العلماء قسرا ... ويفجر بالشقاق وبالنفاق(1)

وقال آخر :

وإلّا فاعلموا أنّا وأنتم ... بُغاةٌ ما بقينا فى شِقاقِ

وقيل : إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يَشُقّ ويصعُب؛ فكأن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صاحبه .

قوله تعالى :﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أى فسيكفى اللهُ رسولَه عدوَّه؛ فكان هذا وعدا من الله تعالى لنبيه عليه السلام أنه سيكفيه من عانده ومن خالفه من المتولين بمن يهديه من المؤمنين، فأنجز له الوعد، وكان ذلك فى قتل بنى قَيْنقاع وبنى قُرَيظة وإجلاء بنى النَّضير . فالكاف والهاء والميم فى موضع نصب مفعولان . ويجوز فى غير القرآن : فسيكفيك إيّاهم . وهذا الحرف (فسيكفيكهم الله) هو الذى وقع عليه دمُ عثمان حين قُتل بإخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاه بذلك . والسميع لقول كل قائل . العليم بما يُنفذه فى عباده ويُجريه عليهم . وحكى أن أبا دُلامة دخل الى المنصور وعليه قلنسوة طويلة، ودُرّاعة(2) مكتوب بين كتفيها ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، وسيفٌ معلق فى وسطه، وكان المنصور قد أمر الجند بهذا الزِّى، فقال له : كيف حالك يا أبا دلامة؟ قال : بشرٍّ يا أمير المؤمنين؛ قال : وكيف ذاك؟ قال : ما ظنّك برجل وجهُه فى وسطه، وسيفه فى آسته، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فضحك المنصور منه وأمر بتغيير ذلك الزِّى من وقته .

قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ فيه مسئلتان :

---

(1) فى نسخة من الأصل : « ... تقتل ... وتفجر ... » بالتاء .

(2) الدرّاعة والمدرع : جبة مشقوقة المقدم .

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ قال الأخفش وغيره : دين الله؛ وهو بدل من ملة. وقال الكسائي : هي منصوبة على تقدير اتبعوا أو على الإغراء أي الزموا ؛ ولو قرئت بالرفع لجاز، أي هي صبغة الله . وروى شيبان عن قتادة قال : إن اليهود تصبغ أبناءهم يهودا، وإن النصارى تصبغ أبناءهم نصارى، وإن صبغة الله الإسلام؛ قال الزجاج : ويدلك على هذا أن صبغة بدل من ملة . وقال مجاهد : أي فطرة الله التي فطر الناس عليها . قال أبو إسحاق الزجاج : وقول مجاهد هذا يرجع إلى الإسلام؛ لأن الفطرة ابتداء الخلق، وابتداء ما خُلقوا عليه الإسلام . وروى عن مجاهد والحسن وأبي العالية وقتادة : الصبغة الدِّين . وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعمودية ، ويقولون : هذا تطهير لهم . قال ابن عباس : هو أن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم يقال له : ماء المعمودية ، فصبغوه بذلك ليطهّروه به مكان الختان ؛ لأن الختان تطهير، فاذا فعلوا ذلك قالوا : الآن صار نصرانيا حقّا؛ فردّ الله تعالى ذلك عليهم بأن قال : ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي صبغة الله أحسن صبغة وهي الإسلام ؛ فسمّى الدِّين صبغة استعارة ومجازا من حيث تظهر أعماله وسِمَته على المتديّن، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب .
وقال بعض شعراء ملوك هَمْدان :

وكل أناس لهم صبغةٌ وصبغةُ همدانَ خيرُ الصِّبَغ
صبغنا على ذاك أبناءنا فأكرِمْ بصبغتنا في الصِّبَغ

وقيل: إن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام، بدلا من معمودية النصارى؛ ذكره الماوردي .

قلت : وعلى هذا التأويل يكون غُسل الكافر واجبا تعبّدا، وهي : المسألة الثانية ؛ لأن معنى صبغة الله غُسل الله، أي اغتسلوا عند إسلامكم الغسل الذي أوجبه الله عليكم . وبهذا المعنى جاءت السنة الثابتة في قيس بن عاصم وثُمَامة بن أُثال حين أسلما . روى أبو حاتم البُسْتي في صحيح مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن ثمامة الحنفي[1] أُسِرَ فمرّ به النبي

(١) ثمامة الحنفي، هو ثمامة بن أثال .

صلى الله عليه وسلم يوما فأسلم؛ فبعث به الى حائط[1] أبي طلحة فأمره أن يغتسل فاغتسل وصلى ركعتين؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حسن إسلام صاحبكم" . وخرج أيضا عن قيس بن عاصم أنه أسلم ، فأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يغتسل بماء وسدر . وذكره النسائي وصححه أبو محمد عبد الحق . وقيل : إن القربة الى الله تعالى يقال لها صبغة؛ حكاه ابن فارس في المجمل . وقال الجوهري : صبغة الله دينه . وقيل : إن الصبغة الختان ، اختتن إبراهيم فجرت الصبغة على الختان بصبغهم الغلمان في الماء؛ قاله الفراء . ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾ الآية . قال الحسن : كانت المحاجّة أن قالوا : نحن أولى بالله منكم؛ لأنا أبناء الله وأحبّاؤه؛ وقيل : لتقدّم آبائنا وكتبنا ، ولأنا لم نعبد الأوثان . فمعنى الآية : قل لهم يا محمد، أي قل لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وادّعوا أنهم أولى بالله منكم لقدم آبائهم وكتبهم : أتحاجوننا ، أي أتجادلوننا الجنّة على دعواكم والربّ واحد،وكلٌّ مجازًى بعمله؛فأى تأثير لقدم الدّين.ومعنى « في الله » أي في دينه أو القرب منه والحظوة له[2] . وقراءة الجماعة : ﴿ أَتُحَاجُّونَنَا ﴾ . وجاز اجتماع حرفين مثلين من جنس واحد متحركين؛ لأن الثاني كالمنفصل . وقرأ ابن مُحَيْصِن ﴿ أَتُحَاجُّونَّا ﴾ بالإدغام لاجتماع المثلين؛ قال النحاس : وهذا جائز إلا أنه مخالف للسّواد. ويجوز « أتحاجُونا » بحذف النون الثانية، كما قرأ نافع : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ أي مخلصون العبادة ، وفيه معنى التوبيخ ، أي ولم تُخلصوا أنتم فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم . والإخلاص حقيقته تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين . قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي يأيها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خلص له ولا تقولوا هذا لله وللرّحم فإنها للرحم وليس لله منها شيء ولا تقولوا هذا لله

(١) الحائط : البستان من النخل اذا كان عليه جدار . (٢) كذا في الأصول . ولعل صوابه : « والحظوة عنده » .

ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شيء » . رواه الضحّاك بن قيْس الفِهْري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكره؛ خرّجه الدّار قُطْني . وقال رُوَيْم : الإخلاص من العمل هو ألا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين ولا حظًّا من الملكين . وقال الجُنَيد : الإخلاص سرّ بين العبد وبين الله لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوًى فيُميله . وذكر أبو القاسم القُشَيْري وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سألت جبريل عن الإخلاص ما هو فقال سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو قال سرّ من سِرّي استودعته قلب من أحببته من عبادي » .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ بمعنى قالوا[1] . وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ تَقُولُونَ ﴾ بالتاء وهي قراءة حسنة؛ لأن الكلام متسق، كأن المعنى : أتحاجوننا في الله أم تقولون إن الأنبياء كانوا على دينكم ؛ فهي أم المتصلة، وهي على قراءة من قرأ بالياء منقطعة؛ فيكون كلامين وتكون أم بمعنى بل . ﴿ هُودًا ﴾ خبر كان، وخبر إنّ في الجملة . ويجوز في غير القرآن رفع هودا على خبر إن، وتكون كان ملغاة؛ ذكره النحاس .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ تقرير وتوبيخ في ادعائهم أنهم كانوا هودا أو نصارى؛ فردّ الله عليهم بأنه أعلم بهم منكم، أي لم يكونوا هودا ولا نصارى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ لفظه الاستفهام، والمعنى: لا أحد أظلم . ﴿ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً ﴾ يريد علمهم بأن الأنبياء كانوا على الإسلام ؛ وقيل : ما كتموه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم؛ قاله قتادة؛ والأول أشبه بسياق الآية . ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيد وإعلام بأنه لم يترك أمرهم سُدًى وأنه يجازيهم على أعمالهم . والغافل الذي لا يفطن للأمور إهمالا منه؛ مأخوذ من الأرض الغُفْل وهي التي لا علَم بها ولا أثرَ عمارة ، وناقة غُفْل لا سِمَة بها ، ورجل غُفْل لم يجرب الأمور . وقال الكسائي: أرض غُفْل لم تمطر . غَفَلت عن الشيء غَفْلة وغُفولا ، وأغفلت عن الشيء : تركته على ذُكر منك .

(١) هذا على القول بأن أم منقطعة .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ كررها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف ؛ أى إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى ؛ فوجب التأكيد فلذلك كررها .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ .

فيه إحدى عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ ﴾ أعلم الله تعالى أنهم سيقولون فى تحويل المؤمنين من الشام الى الكعبة ما ولّاهم . وسيقول بمعنى قال؛ جعل المستقبل موضع الماضى دلالة على استدامة ذلك وأنهم يستمرون على ذلك القول . وخصّ بقوله : ﴿ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لأن السّفه يكون فى جمادات وحيوانات . والمراد من السفهاء جميع من قال ما ولّاهم . والسفهاء جمع، واحده سفيه، وهو الخفيف العقل؛ من قولهم : ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج، وقد تقدّم . والنساء سفائه . وقال المؤرّج : السفيه البهّات الكذّاب المتعمد خلاف ما يعلم . قطرب : الظلوم الجهول . والمراد بالسفهاء هنا اليهود الذين بالمدينة؛ قاله مجاهد . السُّدّى : المنافقون . الزجاج : كفار قريش لما أنكروا تحويل القبلة قالوا : قد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم . وقالت اليهود . قد التبس عليه أمره وتحيّر . وقال المنافقون : ما ولّاهم عن قبلتهم ! واستهزءوا بالمسلمين . وولّاهم يعنى عدلهم وصرفهم .

الثانية — روى الأئمة واللفظ لمالك عن ابن عمر قال : بينما الناس بقُباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُنزل عليه الليلةَ قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ؛ وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . وخرّج البخارى عن البَراء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى الى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان يُعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلى أوّل صلاة صلاها العصر وصلّى معه قوم؛ فخرج رجل ممن كان صلّى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله، لقد صلّيت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم قِبَل مكة ؛ فداروا

كما هم قِبَل البيت، وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحول قِبَل البيت رجالٌ قُتلوا لم ندر ما نقول فيهم ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ . ففى هذه الرواية صلاة العصر، وفى رواية مالك صلاة الصبح . وقيل : نزل ذلك على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سَلِمَة وهو فى صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحول فى الصلاة ؛ فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين . وذكر أبو الفرج أنّ عبّاد بن نَهِيك كان مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هذه الصلاة . وذكر أبو عمر فى التمهيد عن نويلة(١) بنت أسلم وكانت من المبايعات ؛ قالت : كنا فى صلاة الظهر فأقبل عبّاد بن بشر بن قَيْظىّ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل القبلة — أو قال : البيت الحرام — فتحوّل الرجال مكان النساء، وتحوّل النساء مكان الرجال . وقيل : إنّ الآية نزلت فى غير صلاة، وهو الأكثر. وكان أوّل صلاة إلى الكعبة العصر والله أعلم . وروى أنّ أوّل من صلّى إلى الكعبة حين صُرفت القبلة عن بيت المقدس أبو سعيد بن المُعَلَّى ؛ وذلك أنه كان مجتازا على المسجد، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس بتحويل القبلة على المنبر وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ حتى فرغ من الآية ؛ فقلت لصاحبى : تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أوّل من صلّى فتوارينا بعِمَاد فصليناهما ؛ ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بالناس الظهر يومئذ . قال أبو عمر : ليس لأبى سعيد بن المعلّى غير هذا الحديث وحديث « كنت أصلى » فى فضل الفاتحة ؛ خرّجه البخارى، وقد تقدّم .

الثالثة — واختلف فى وقت تحويل القبلة بعد قدومه المدينة ؛ فقيل : حولت بعد ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا كما فى البخارى، وخرّجه الدّارقطنى عن البَرَاء أيضا، قال: صلّينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا نحو بيت المقدس، ثم علم الله هوى نبيّه فنزلت : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . ففى هذه الرواية

(١) فى كتاب الاستيعاب والقاموس : «تويلة» بالتاء، وقال صاحب القاموس : «أو هى بالنون» . وقد ذكرت فى كتاب الإصابة مصغرة فى حرف التاء والنون، وهى بالنون رواية إسحاق بن إدريس عن جعفر بن محمود، وبالتاء رواية إبراهيم بن حمزة ؛ قال صاحب الإصابة : «وهى أوثق» .

ستة عشر شهرا من غير شك . وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب، أن تحويلها كان قبل بَدْر بشهرين؛ قال إبراهيم بن إسحاق : وذلك في رجب من سنة اثنتين. وقال أبو حاتم البُسْتي : صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام سواء ؛ وذلك أن قدومه المدينة كان يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل ، وأمره الله عزّ وجلّ باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان .

الرابعة — واختلف العلماء أيضا في كيفية استقباله بيت المقدس على ثلاثة أقوال ؛ فقال الحسن : كان ذلك منه عن رأى واجتهاد، وقاله عِكْرِمة (١) وأبو العالية . الثاني — أنه كان مخيّرا بينه وبين الكعبة ، فاختار القدس طمعا في إيمان اليهود واستمالتهم ؛ قاله الطبري . وقال الزجاج : امتحانا للشركين لأنهم ألفوا الكعبة . الثالث — وهو الذي عليه الجمهور : ابن عباس وغيره ، وجب عليه استقباله بأمر الله تعالى ووحيه لا محالة، ثم نسخ الله ذلك وأمره الله أن يستقبل بصلاته الكعبة . واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ .

الخامسة — واختلفوا أيضا حين فرضت عليه الصلاة أولا بمكة : هل كانت إلى بيت المقدس أو إلى مكة، على قولين ؛ فقالت طائفة : إلى بيت المقدس وبالمدينة سبعة عشر شهرا، ثم صرفه الله تعالى إلى الكعبة؛ قاله ابن عباس . وقال آخرون : أول ما افترضت الصلاة عليه إلى الكعبة، ولم يزل يصلي إليها طول مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل؛ فلما قدم المدينة صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا على الخلاف، ثم صرفه الله إلى الكعبة . قال أبو عمر : وهذا أصح القولين عندي . قال غيره : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا قدم المدينة أراد أن يستألف اليهود فتوجّه [إلى] قبلتهم ليكون ذلك أدعى لهم؛ فلما تبيّن عنادهم وأيس منهم أحب أن يحوّل الى الكعبة فكان ينظر الى السماء، وكانت محبته إلى الكعبة لأنها قبلة ابراهيم؛ عن ابن عباس ، وقيل : لأنها كانت

(١) في الأصول : « وقال » .

أدعى للعرب الى الاسلام ، وقيل : مخالفة لليهود ؛ عن مجاهد . وروى عن أبي العالية الرياحي أنه قال : كانت[1] مسجد صالح عليه السلام وقبلته الى الكعبة . قال : وكان موسى عليه السلام يصلى الى الصخرة بحذاء الكعبة، وهي قبلة الأنبياء كلهم عليهم السلام .

السادسة — في هذه الآية دليل واضح على أن في أحكام الله تعالى وكتابه ناسخا ومنسوخا، وأجمعت عليه الأمة إلا من شذ كما تقدم . وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نُسخ من القرآن، وأنها نسخت مرتين، على أحد القولين المذكورين في المسئلة قبل .

السابعة — ودلّت أيضا على جواز نسخ السنّة بالقرآن؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس؛ وليس في ذلك قرآن، فلم يكن الحكم إلا من جهة السنة ثم نسخ ذلك بالقرآن . وعلى هذا يكون: ﴿ كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ بمعنى أنت عليها .

الثامنة — وفيها دليل على جواز القطع بخبر الواحد ؛ وذلك أن استقبال بيت المقدس كان مقطوعا به من الشريعة عندهم ، ثم أن أهل قُباء لما أتاهم الآتي فأخبرهم أن القبلة قد حُوّلت الى المسجد الحرام ، قبلوا قوله واستداروا نحو الكعبة ، فتركوا المتواتر بخبر الواحد وهو مظنون .

وقد اختلف العلماء في جوازه عقلا ووقوعه؛ فقال أبو حاتم : والمختار جواز ذلك عقلا لو تعبّد الشرع به، ووقوعاً في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدليل قصة قباء ، وبدليل أنه كان عليه السلام يُنفذ آحاد الوُلاة إلى الأطراف وكانوا يبلغون الناسخ والمنسوخ جميعا . ولكن ذلك ممنوع بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، بدليل الإجماع من الصحابة على أن القرآن والمتواتر المعلوم لا يرفع بخبر الواحد، فلا ذاهب الى تجويزه من السلف والخلف . احتج من منع ذلك بأنه يفضى الى المحال وهو رفع المقطوع بالمظنون . وأما قصة أهل قباء ووُلاة النبيّ

---

(١) العبارة هنا غير واضحة . وفي الطبري (ج ٢ ص ٢١ طبع بولاق) : « ... قال الربيع : إن يهوديا خاصم أبا العالية فقال : إن موسى عليه السلام كان يصلى الى صخرة بيت المقدس . فقال أبو العالية : كان يصلى عند الصخرة الى البيت الحرام . قال قال : فبيني وبينك مسجد صالح فانه نحته من الجبل؛ قال أبو العالية : قد صليت فيه وقبله الى البيت الحرام . قال الربيع : وأخبرني أبو العالية أنه مرّ على مسجد ذى القرنين وقبله الى الكعبة » .

صلى الله عليه وسلم فمحمول على قرائن إفادة العلم إمّا نقلا وتحقيقا، وإمّا احتمالا وتقديرا .

وتتميم هذا سؤالا وجوابا فى أصول الفقه .

التاسعة — وفيها دليل على أنّ من لم يبلغه الناسخ إنه متعبّد بالحكم الأوّل ، خلافا لمن قال : إن الحكم الأول يرتفع بوجود الناسخ لا بالعلم به ، والأوّل أصح ؛ لأن أهل قُباءٍ لم يزالوا يصلّون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتى فأخبرهم بالناسخ فمالوا نحو الكعبة . فالناسخ إذًا حصل فى الوجود فهو رافع لا محالة لكن بشرط العلم به؛ لأن الناسخ خطاب، ولا يكون خطابا فى حق من لم يبلغه . وفائدة هذا الخلاف فى عبادات فُعلت بعد النسخ وقبل البلاغ هل تعاد أم لا ؛ وعليه تنبنى مسئلة الوكيل فى تصرّفه بعد عزل موكله أو موته وقبل علمه بذلك على قولين . وكذلك المقارض[1]، والحاكم إذا مات من ولّاه أو عزل . والصحيح أن ما فعله كل واحد من هؤلاء ينفذ فعله ولا يرد حكمه . قال القاضى عياض : ولم يختلف المذهب فى أحكام من أُعتق ولم يعلم بعتقه أنها أحكام حُرّ فيما بينه وبين الناس ، وأما بينه وبين الله تعالى فجائزة . ولم يختلفوا فى المعتقة أنها لا تعيد ما صلّت بعد عتقها وقبل علمها بغير ستر ، وإنما اختلفوا فيمن يطرأ عليه مُوجِبٌ يغيّر حكم عبادته وهو فيها قياسًا على مسئلة قباء ؛ فمن صلّى على حال ثم تغيّرت به حاله تلك قبل أن يتم صلاته إنه يتمها ولا يقطعها ويُجزيه مامضى؛ وذلك كمن صلّى عُريانا ثم وجد ثوبا فى الصلاة ، أو ابتدأ صلاته صحيحا فمرض ، أو مريضا فصحّ ، أو قاعدا ثم قدر على القيام، أو أَمَةٌ عتقت وهى فى الصلاة إنها تأخذ قناعها وتبنى .

قلت : وكمن دخل فى الصلاة بالتيمّم فطرأ عليه الماء إنه لا يقطع، كما يقوله مالك والشافعى — رحمهما الله تعالى — وغيرهما . وقيل : يقطع؛ وهو قول أبى حنيفة رحمه الله تعالى وسيأتى .

العاشرة — وفيها دليل على قبول خبر الواحد ، وهو مجمع عليه من السلف معلوم بالتواتر من عادة النبىّ صلى الله عليه وسلم فى توجيهه وُلاته ورسله آحادًا للآفاق؛ ليعلّموا الناس دينهم فيبلغوهم سنّة رسولهم صلّى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهى .

(١) القراض عند المالكية هو ما يسمى بالمضاربة عند الحنفية . وهو إعطاء المقارض (بكسر الراء وهو رب المال) المقارَض (بفتح الراء وهو العامل) مالا ليتجر به على أن يكون له جزء معلوم من الربح .

الحادية عشرة ـــ وفيها دليل على أن القرآن كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا بعد شيء، وفى حال بعد حال ، على حسب الحاجة إليه؛ حتى أكمل الله دينه كما قال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ أقامه حجة، أى له ملك المشارق والمغارب وما بينهما، فله أن يأمر بالتوجه الى أى جهة شاء، وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ إشارة الى هداية الله تعالى هذه الأمة الى قبلة إبراهيم، والله تعالى أعلم . والصراط : الطريق . والمستقيم : الذى لا اعوجاج فيه، وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الآية . فيه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ المعنى : وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا ، أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم . والوسط : العدل . وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها . روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال : "عدلا" . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى التنزيل : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أى أعدلهم وخيرهم . وقال زهير :

هُمُ وَسَطٌ يرضى الأنام بحكمهم * إذا نزلت إحدى الليالى بمُعْظَمِ

آخر :

أنتم أوسطٌ حىّ علموا * بصغير الأمر أو إحدى الكُبَرْ

وقال آخر :

لا تذهبنّ فى الأمور فَرَطا * لا تسألنّ إن سألت شَطَطا

* وكن من الناس جميعًا وَسَطا *

ووسط الوادى خير موضع فيه وأكثره كلأ وماء . ولما كان الوسط مجانبا للغلو والتقصير كان محمودا أى هذه الأمة لم تغل غلو النصارى فى أنبيائهم ، ولا قصروا تقصير اليهود فى أنبيائهم . وفى الحديث : "خير الأمور أوسطها" . وفيه عن على رضى الله عنه : «عليكم بالنمط الأوسط، فإليه ينزل العالى، وإليه يرتفع النازل»[1] . وفلان من أوسط قومه، وإنه لواسطة قومه ، ووسط قومه ، أى من خيارهم وأهل الحسب منهم . وقد وسط وساطة وسطة ، وليس من الوسط الذى بين شيئين فى شىء . والوسْط (بسكون السين) الظرف؛ تقول : صليت وسْط القوم، وجلست وسْط القوم ؛ وجلست وسَط الدار (بالتحريك) لأنه اسم . قال الجوهرى : وكل موضع صلح فيه "بين" فهو وسْط ، وإن لم يصلح فيه "بين" فهو وسَط بالتحريك، وربما يسكن وليس بالوجه .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونُوا ﴾ نصب بلام كى ، أى لأن تكونوا . ﴿ شُهَدَاءَ ﴾ خبر كان . ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى فى الحشر للأنبياء على أممهم، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُدْعَى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول هل بلّغت فيقول نعم فيقال لأمته هل بلّغكم فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيدا فذلك قوله عز وجل وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..." . وذكر هذا الحديث مطولا ابن المبارك بمعناه ، وفيه : "فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم يدركنا فيقول لهم الرب سبحانه كيف تشهدون على من لم تدركوا فيقولون ربنا بعثت إلينا رسولا وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصت علينا أنهم قد بلّغوا فشهدنا بما عهدت إلينا فيقول الرب صدقوا فذلك قوله عز وجل وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا والوسط العدل لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" . قال ابن أنعم : فبلغنى أنه يشهد يومئذ أمة محمد ، إلا من كان فى قلبه

(١) فى اللسان مادة وسط : «خير الناس هذا النمط الأوسط، يلحق بهم التالى، ويرجع إليهم الغالى» .

حنّة على أخيه . وقالت طائفة : معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت ؛ كما ثبت فى صحيح مسلم عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال حين مرّت به جنازة فأُثنِيَ عليها خيرٌ فقال : " وَجَبَتْ وجبت وجبت " . ثم مُرَّ عليه بأخرى فأُثنيَ عليها شرٌّ فقال : " وجبت وجبت وجبت " ؛ فقال عمر : فِدًى لك أبى وأمى ! مُرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليها خير فقلت : " وجبت وجبت وجبت " ومرّ بجنازة فأثنى عليها شر فقلت : " وجبت وجبت وجبت " . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار أنتم شهداء الله فى الأرض أنتم شهداء الله فى الأرض أنتم شهداء الله فى الأرض " . أخرجه البخارى بمعناه . وفى بعض طرقه فى غير الصحيحين وتلا : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ . وروى أَبَان ولَيْث عن شَهْر بن حَوْشب عن عُبَادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أُعطيتُ أمتى ثلاثًا لم تعطَ إلا الأنبياء كان الله اذا بعث نبيًّا قال له ادعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة ادعونى أستجب لكم وكان الله اذا بعث النبيّ قال له ما جعل عليك فى الدِّين من حرج وقال لهذه الأمة وما جعل عليكم فى الدِّين من حرج وكان الله اذا بعث النبيّ جعله شهيدا على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس " . خرّجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى نوادر الأصول .

الثالثة — قال علماؤنا : أنبأنا ربنا تبارك وتعالى فى كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وتولية خطير الشهادة على جميع خلقه ، فجعلنا أوّلًا مكانًا وان كنا آخرا زمانا ؛ كما قال عليه السلام : " نحن الآخرون الأوّلون " . وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول ، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلا . وسيأتى بيان العدالة وحكمها فى آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الرابعة — وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحكم به ؛ لأنهم اذا كانوا عدولا شهدوا على الناس ، فكل عصر شهيد على من بعده ؛ فقول الصحابة حجة وشاهد على التابعين ، وقول

التابعين على من بعدهم . وإذ جُعلت الأمة شهداء فقد وجب قبول قولهم؛ ولا معنى لقول من قال : أريد به جميع الأمة؛ لأنه حينئذ لا يثبت مجمع عليه الى قيام الساعة . وبيان هذا فى كتب أصول الفقه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ قيل : معناه بأعمالكم يوم القيامة؛ وقيل : عليكم بمعنى لكم، أى يشهد لكم بالإيمان؛ وقيل : أى يشهد عليكم بالتبليغ لكم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا ﴾ قيل : المراد بالقبلة هنا القبلة الأولى؛ لقوله : ﴿ كُنتَ عَلَيْهَا ﴾ . وقيل : الثانية؛ فتكون الكاف زائدة، أى أنت الآن عليها كما تقدّم، وكما قال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أى أنتم، فى قول بعضهم، وسيأتى .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ قال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : معنى لنعلم لنرى . والعرب تضع العلم مكان الرؤية ، والرؤية مكان العلم ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ بمعنى ألم تعلم . وقيل : المعنى إلا لتعلموا أننا نعلم ؛ فإن المنافقين كانوا فى شك من علم الله تعالى بالأشياء قبل كونها . وقيل : المعنى لنميّز أهل اليقين من أهل الشك ؛ حكاه ابن فُورك، وذكره الطبرى عن ابن عباس . وقيل : المعنى إلا ليعلم النبىّ وأتباعه، وأخبر تعالى بذلك عن نفسه؛ كما يقال : فعل الأمير كذا، وإنما فعله أتباعه ؛ ذكره المهدوىّ وهو جيد . وقيل : معناه ليعلم محمد ؛ فأضاف علمه إلى نفسه تعالى تخصيصا وتفضيلا ، كما كنّى عن نفسه سبحانه فى قوله : "يابن آدم مَرِضتُ فلم تَعُدْنى" الحديث . والأول أظهر، وأن معناه علم المعاينة الذى يوجب الجزاء، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، علم ما يكون قبل أن يكون، تختلف الأحوال على المعلومات وعلمه لا يختلف بل يتعلق بالكل تعلقا واحدا . وهكذا كل ما ورد فى الكتاب من هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ . ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ ﴾ وما أشبه . والآية جواب لقريش فى قولهم : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ وكانت قريش تألف الكعبة ، وأراد الله عزّ وجلّ أن يمتحنهم بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسول

ممن لا يتبعه . وقرأ الزهري (إلَّا لِيُعْلَمَ) . فَمَن في موضع رفع على هذه القراءة ؛ لأنها اسم ما لم يسم فاعله . وعلى قراءة الجماعة في موضع نصب على المفعول . (يَتَّبِعُ الرَّسُولَ) يعني فيما أمر به من استقبال الكعبة . (مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) يعني ممن يرتد عن دينه ؛ لأن القبلة لما حولت ارتد من المسلمين قوم ونافق قوم؛ ولهذا قال : (وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً) أي تحويلها؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . وتقديره في العربية وإن كانت التحويلة .

قوله تعالى : (وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً) ذهب الفراء إلى أن إنْ واللام بمعنى ما وإلا ؛ والبصريون يقولون : هي إن الثقيلة خُففت . وقال الأخفش : أي وإن كانت القبلة أو التحويلة أو التولية لكبيرة . (إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ) أي خلق الهدى الذي هو الإيمان في قلوبهم ؛ كما قال : (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) .

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس؛ كما ثبت في البخاري من حديث البراء بن عازب على ما تقدم . وخرج الترمذي عن ابن عباس قال : لما وُجِّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يُصلُّون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) الآية، قال : هذا حديث حسن صحيح . فسمى الصلاة إيمانا لاشتمالها على نية وقول وعمل . وقال مالك : إني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة : إن الصلاة ليست من الإيمان . وقال محمد بن إسحاق : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أي بالتوجه إلى القبلة وتصديقكم لنبيكم؛ وعلى هذا معظم المسلمين والأصوليين . وروى ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم وأشهب عن مالك (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) قال : صلاتكم .

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) الرأفة أشد من الرحمة، وقال أبو عمرو بن العلاء : الرأفة أكثر من الرحمة ؛ والمعنى متقارب . وقد أتينا على لغته وأشعاره ومعانيه

فى الكتاب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » . فلينظر هناك . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « رَءُوفٌ » على وزن فَعُل، وهى لغة بنى أسد، ومنه قول الوليد بن عقبة :

وشرُّ الطالبين فلا تكنه   يقاتل عمه الرؤف الرحيم

وحكى الكسائى أن لغة بنى أسد رَأْف، على فَعْل، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « رَوُفٌ » مثقلا بغير همز، وكذلك سهل كل همزة فى كتاب الله تعالى، ساكنة كانت أو متحركة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . قال العلماء : هذه الآية مقدمة فى النزول على قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ . ومعنى تقلب وجهك تحول وجهك الى السماء؛ قاله الطبرى . الزجاج : تقلب عينيك فى النظر الى السماء . والمعنى متقارب . قال السدى : كان إذا صلى نحو بيت المقدس رفع رأسه الى السماء ينظر ما يؤمر به ، وكان يحب أن يصلى الى قِبَل الكعبة فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ . وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرا أو ستة عشر شهرا ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوجه نحو الكعبة ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ . وقد تقدم هذا المعنى والقول فيه، والحمد لله . وخص السماء بالذكر إذ هى مختصة بتعظيم ما أضيف اليها ويعود منها كالمطر والرحمة والوحى . ومعنى « ترضاها » تحبها .

قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ ﴾ أمر ﴿ وَجْهَكَ شَطْرَ ﴾ أى ناحية ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يعنى الكعبة، ولا اختلاف فى هذا . قيل : حيال البيت كله؛ عن ابن عباس . وقال ابن عمر : حيال الميزاب من الكعبة ؛ قاله ابن عطية . والميزاب هو قبلة المدينة وأهل الشام ، وهناك قبلة أهل الأندلس .

قلت : قد روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى " .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ . الشطر له محامل : يكون الناحية والجهـة كما فى هـذه الآية، وهو ظرف مكان؛ كما تقول : تلقاءه وجهته . وانتصب الظرف لأنه فضلة بمنزلة المفعول [به][1]، وأيضا فإن الفعل واقع فيه . وقال داود بن أبى هنـد : إن فى حرف ابن مسعود «فولِّ وجهَك تلقاء المسجد الحرام» . وقال الشاعر :

أقـول لأمّ زِنْبـاعٍ أقيمى * صدور العِيس شَطْرَ بنى تَمِيم

وقال آخر :

وقد أظلّكمُ من شطرِ ثغرِكمُ * هَـوْلٌ له ظُلَمٌ يغشاكم قطعا

وقال آخر :

ألاَ مَنْ مُبلِـغٌ عمرًا رسولًا * وما تُغنِى الرسالةُ شطْرَ عمرو

وشَطْرُ الشىء نِصفُه؛ ومنه الحديث : « الطُّهُور شَطْرُ الإيمـان » . ويكون من الأضداد ، يقال : شطر الى كذا إذا أقبل نحوه، وشطر عن كذا إذا أبعد منه وأعرض عنه . فأما الشاطر من الرجال فلأنه قد أخذ فى نحو غير الاستواء، وهو الذى أعيا أهله خُبْثًا؛ وقد شَطَر وشَطُر بالضم شِطارةً فيهـما . وسـئل بعضهم عن الشاطر، فقال : هو من أخذ فى البعـد عما نهى الله عنـه .

الثالثـة — لاخلاف بين العلماء أن الكعبة قِبلة فى كل أُفق، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاةَ له، وعليه إعادةُ كل ما صلى؛ ذكره أبو عمر . وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها ؛ فإن خفيت عليه فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدلّ به على ناحيتها . ومن جلس فى المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر اليها إيمانًا واحتسابا؛ فإنه يُرْوَى أن النظر إلى الكعبة عبادة؛ قاله عطاء ومجاهد .

---

(١) التكملة من إعراب القرآن للنحاس (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨ تفسير) .

الرابعة — واختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين أو الجهة؛ فمنهم من قال بالأول، قال ابن العربي : وهو ضعيف، لأنه تكليف لما لا يصل[1] إليه . ومنهم من قال بالجهة، وهو الصحيح لثلاثة أوجه، الأول — أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف . الثاني — أنه المأمور به في القرآن، لقوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ . الثالث — أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يعلم قطعا أنه أضعاف عرض البيت .

الخامسة — في هذه الآية حجة واضحة لما ذهب إليه مالك ومن وافقه في أن المصلي حكمه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده . وقال الثوري وأبو حنيفة والشافعي والحسن بن حي : يستحب أن يكون نظره الى موضع سجوده . وقال شريك القاضي : ينظر في القيام الى موضع السجود، وفي الركوع إلى موضع قدميه، وفي السجود الى موضع أنفه، وفي القعود الى حجره . قال ابن العربي : إنما ينظر أمامه فانه إن حنى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليه في الرأس وهو أشرف الأعضاء، و إن أقام رأسه وتكلف النظر ببصره إلى الأرض فتلك مشقة عظيمة وحرج، وما جعل علينا في الدين من حرج؛ أما إن ذلك أفضل لمن قدر عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني تحويل الكعبة من بيت المقدس . فإن قيل : كيف يعلمون ذلك وليس من دينهم ولا في كتابهم ؟ قيل عنه جوابان : أحدهما — أنهم لما علموا من كتابهم أن محمدا نبي علموا أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا به . الثاني — أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بعضهم فصاروا عالمين بجواز القبلة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ تقدم معناه . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «تعملون» بالتاء على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وعلى الوجهين فهو إعلام بأن الله تعالى لا يهمل أعمال العباد ولا يغفل عنها، وضمنه الوعيد . وقرأ الباقون بالياء من تحت .

(١) كذا في كتاب الأحكام لابن العربي . وفي الأصول : « ما لا يوصل » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ لأنهم كفروا وقد تبينوا الحق وليس تنفعهم الآيات أي العلامات . وجمع قِبْلة في التكسير قِبَلٌ، وفي التسليم قِبِلَاتٌ ، ويجوز أن تبدل من الكسرة فتحة، فتقول قِبَلات، ويجوز أن تحذف الكسرة وتسكن الباء فتقول قِبْلات . وأجيبت «لئن» بجواب «لو» وهي ضدها في أن «لو» تطلب في جوابها المضي والوقوع، و «لئن» تطلب الاستقبال ؛ فقال الفراء والأخفش : أجيبت بجواب لو لأن المعنى : ولو أتيت . وكذلك تجاب لو بجواب لئن تقول : لو أحسنت أحسن اليك؛ ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا ﴾ أي ولو أرسلنا ريحا . وخالفهما سيبويه فقال: إن معنى «لئن» مخالف لمعنى «لو» فلا يدخل واحد منهما على الآخر؛ فالمعنى : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قبلتك . قال سيبويه : ومعنى ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلّوا ليظلُّنّ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ لفظ خبر ويتضمن الأمر أي فلا تركن إلى شيء من ذلك . ثم أخبر تعالى أن اليهود ليست متبعةً قبلةَ النصارى ولا النصارى متبعةً قبلة اليهود؛ عن السُّدّي وابن زيد . فهذا إعلام باختلافهم وتدابرهم وضلالهم . وقال قوم : المعنى وما من اتبعك ممن أسلم منهم بمتبع قبلةَ من لم يُسْلم ، ولا من لم يُسْلِم قبلة من أسلم . والأول أظهر . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد أمته ممن يجوز أن يتبع هواه فيصير باتباعه ظالما، وليس يجوز أن يفعل النبي صلى الله عليه وسلم ما يكون به ظالما؛ فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبي صلى الله عليه وسلم وقطعنا أن ذلك لا يكون منه ، وخوطب النبي صلى الله عليه وسلم تعظيما للأمر ولأنه المنزل عليه . والأهواء جمع هوى، وقد تقدم ؛ وكذا «مِنَ ٱلْعِلْمِ» تقدم أيضا فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ الذين فى موضع رفع بالابتداء والخبر يعرفونه ؛ و يصح أن يكون فى موضع خفض على الصفة للظالمين ، و يعرفون فى موضع الحال أى يعرفون نبوّته وصدق رسالته . والضمير عائد على محمد صلّى الله عليه وسلّم ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وقيل : يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة أنه حق؛ قاله ابن عباس وابن جُرَيج والربيع وقتادة أيضا . وخصّ الأبناء فى المعرفة بالذّكر دون الأنفس و إن كانت ألصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه بُرهة لا يعرف فيها نفسه ، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه . ورُوى أن عمر قال لعبد الله بن سَلَام : أتعرف محمدا صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك؟ قال : نعم وأكثر، بعث الله أمينه فى سمائه إلى أمينه فى أرضه بنعته فعرفته، وابنى لا أدرى ما كان من أمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد وقتادة وخُصَيف . وقيل : استقبال الكعبة، على ما ذكرنا آنفا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ظاهر فى صحة الكفر عنادا ؛ ومثله : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى استقبال الكعبة، لا ما أخبرك به اليهود من قبلتهم . ورُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قرأ « الْحَقَّ » منصوبا بيعلمون ، أى يعلمون الحق . و يصح نصبه على تقدير الزم الحق . والرفع على الابتداء أو على إضمار مبتدأ، والتقدير هو الحق، أو على إضمار فعل أى جاءك الحق . قال النحاس : فأمّا الذى فى الأنبياء ﴿ ٱلْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ فلا نعلم أحدا قرأه إلا منصوبا . والفرق بينهما أن الذى فى سورة البقرة مبتدأ به ، والذى فى الأنبياء ليس كذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أى من الشاكّين، والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . يقال : امترى فلان [فى] كذا إذا اعترضه اليقين مرّة والشك مرة فدافع إحداهما بالأخرى ؛ ومنه المِرَاء لأن كل واحد منهما يشك فى قول صاحبه . والامتراء

فى الشيء الشك فيه ، وكذا التمارى . وأنشد الطبرى شاهدا على أن الممترين الشاكون قول الأعشى :

تَدُرّ على أسؤُق الممترين ۞ ركضًا إذا ما السرابُ ارجحنّ

قال ابن عطية : ووَهِم فى هذا ؛ لأن أبا عبيدة وغيره قال : الممترون فى البيت هم الذين يَمْرُون الخيلَ بأرجلهم همزًا لتجرى كأنهم يحتلبون الجرى منها ، وليس فى البيت معنى الشك كما قال الطبرى .

قلت : معنى الشك فيه موجود؛ لأنه يحتمل أن يختبر الفرسَ صاحبُه هل هو على ما عهد منه من الجرى أو لا لئلا يكون أصابه شيء ، أو يكون هذا عند أول شرائه فيُجريه ليعلم مقدار جريه . قال الجوهرى : ومَرَيْت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجرى بسوط أو غيره . والاسم المِرْية وقد تضم . ومَرَيْت الناقة مَرْيًا إذا مسحت ضَرْعها لتدر . وأَمْرَت هى إذا دَرّ لبنها . والاسم المِرْية بالكسر، والضم غلط. والمرية الشك وقد تضم، وقرئ بهما .

قوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ . فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وِلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ الوِجْهَة وزنها فِعْلَة من المواجهة . والوجهة والجهة والوجه بمعنًى واحد ، والمراد القبلة ، أى إنهم لا يتبعون قِبْلتك وأنت لا تتبع قِبْلتهم؛ ولكل وجهة إما بحقّ وإما بهوًى .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ هو عائد على لفظ كلّ لا على معناه؛ لأنه لو كان على المعنى لقال : هم مُوَلّوها وجوههم، فالهاء والألف مفعول أول والمفعول الثانى محذوف، أى هو موليها وجهه ونفسه . والمعنى : ولكل صاحب مِلّة قِبْلةٌ ، صاحب القبلة موليها وجهه ، على لفظ كل ؛ وهو قول الربيع وعطاء وابن عباس . وقال علىّ بن سليمان : مُوَلِّيها أى متولّيها . وقرأ ابن عباس وابن عامر «مُوَلّاها» على مالم يسم فاعله . والضمير على هذه القراءة لواحد ، أى لكل واحد من الناس قبلة ، الواحد مُوَلّاها أى مصروف اليها ؛ قاله الزجاج . ويحتمل أن يكون على قراءة الجماعة هو ضمير اسم الله عزّ وجلّ وإن لم يجرِ له ذكر؛ إذ هو معلوم أنّ

الله عزّ وجلّ فاعل ذلك، والمعنى : لكل صاحب ملة قبلةٌ اللهُ مولّيها إياه. وحكى الطبرى : أنّ قوما قرءوا « ولكلّ وجهةٍ » بإضافة كل إلى وجهة . قال ابن عطيّة : وخطّأها الطبرى، وهى متجهة، أى فاستبقوا الخيرات لكل وجهة وَلاَّكُموها، ولا تعترضوا فيما أمركم بين هذه وهذه، أى إنما عليكم الطاعة فى الجميع . وقدّم قوله : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ على الأمر فى قوله : ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ للاهتمام بالوجهة كما يُقدّم المفعول؛ وذكر أبو عمرو الدانى هذه القراءة عن ابن عباس رضى الله عنهما . وسلمت الواو فى وجهة للفرق بين عِدَة و زِنَة ؛ لأن جهة ظرف، وتلك مصادر . وقال أبو علىّ : ذهب قوم الى أنه مصدر شذ عن القياس فسلم؛ وذهب قوم الى أنه اسم وليس بمصدر. وقال غير أبى علىّ : و إذا أردت المصدر قلت جهة، وقد يقال الجهة فى الظرف .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أى إلى الخيرات فحذف الحرف، أى بادروا ما أمركم الله جلّ وعزّ من استقبال البيت الحرام؛ وإن كان يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال الى جميع الطاعات بالعموم، فالمراد ما ذكر من الاستقبال لسياق الآى .

والمعنى المراد: المبادرة بالصلاة أول وقتها . والله تعالى أعلم . روى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: " إنما مثل المُهَجِّر الى الصلاة كمثل الذى يُهدى البَدَنة ثم الذى على أثره كالذى يُهدى البقرة ثم الذى على أثره كالذى يهدى الكَبْش ثم الذى على أثره كالذى يُهدى الدجاجة ثم الذى على أثره كالذى يهدى البيضة " . وروى الدّارقطنى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أحدكم ليصلّى الصلاة لوقتها وقد ترك من الوقت الأوّل ما هو خير له من أهله وماله " . وأخرجه مالك عن يحيى ابن سعيد . وروى الدّارقُطنى أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خير الأعمال الصلاة فى أوّل وقتها " . وفى حديث ابن مسعود « أوّل وقتها » بإسقاط « فى » . وروى أيضا عن إبراهيم بن عبد الملك عن أبى محذورة عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوّل الوقت رضوان الله ووسط الوقت رحمة الله وآخر الوقت

عفو الله ". زاد ابن العربي : فقال أبو بكر : رضوان الله أحب الينا من عفوه؛ فإن رضوانه للمحسنين وعفوه للقصرين؛ وهذا اختيار الشافعي . وقال أبو حنيفة : آخر الوقت أفضل؛ لأنه وقت الوجوب . فأما مالك ففصّل القول : فأما الصبح والمغرب فأول الوقت فيهما أفضل ؛ أما الصبح فلحديث عائشة رضي الله عنها قالت : " إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي الصبح فينصرف النساء مُتلفِّعات بمُروطهن ما يُعرفن من الغَلَس" ـ في رواية "مُتَلَفِّفات" ـ . وأما المغرب فلحديث سَلَمة بن الأكوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلّي المغرب إذا غربت الشمس وتوارت بالحجاب . أخرجهما مسلم . وأما العشاء فتأخيرها أفضل لمن قَدَر عليه . روى عن ابن عمر قال : مكثنا [ذات][1] ليلة ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة؛ فخرج إلينا حين ذهب ثلث الليل أو بعده، فلا ندرى أشيء شغله في أهله أو غيرُ ذلك ؛ فقال حين خرج : " إنكم لتنتظرون صلاة ما ينتظرها أهلُ دين غيرُكم ولولا أن يَثْقُل على أمتي لصلّيت بهم هذه الساعة" . وفي البخاري عن أنس قال: " أخر النبي صلّى الله عليه وسلم صلاة العشاء الى نصف الليل ثم صلى ... " وذكر الحديث؛ وقال أبو بَرْزة : كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يستحب تأخيرها . وأما الظهر فإنها تأتي الناس [على][2] غفلة فيستحب تأخيرها قليلا حتى يتأهّبوا ويجتمعوا . قال أبو الفرج قال مالك : أول الوقت أفضل في كل صلاة إلا الظهر في شدّة الحرّ . وقال ابن أبي أويس : كان مالك يكره أن يصلّ الظهر عند الزوال ولكن بعد ذلك، ويقول : تلك صلاة الخوارج . وفي صحيح البخاري وصحيح الترمذي عن أبي ذرّ الغفاري قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في سفر فأراد المؤذن أن يؤذّن للظهر؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أَبْرِد" ثم أراد أن يؤذن فقال له : "أبرد" حتى رأينا فيء التلول؛ فقال النبي صلّى الله عليه وسلم : "إن شدّة الحرّ من فَيْح[3] جهنم فإذا اشتدّ الحرّ فأبردوا بالصلاة" . وفي صحيح مسلم عن أنس أنّ النبي صلّى الله عليه

(١) الزيادة عن صحيح مسلم وسنن النسائي .

(٢) الزيادة عن كتاب أحكام القرآن لابن العربي .

(٣) الفيح : سطوع الحرّ وفورانه .

وسلّم كان يصلّى الظهر إذا زالت الشمس . والذى يجمع بين الحديثين ما رواه أنس أنه إذا كان الحرّ أبرد بالصلاة، وإذا كان البرد عجّل . قال أبو عيسى الترمذىّ : « وقد اختار قوم [من أهل العلم] (١) تأخير صلاة الظهر فى شدّة الحرّ، وهو قول ابن المبارك وأحمد وإسحاق . قال الشافعى : إنما الإبراد بصلاة الظهر اذا كان [مسجدا] (١) ينتاب (٢) أهله من البعد، فأما المصلّى وحده والذى يُصلّى فى مسجد قومه فالذى أحبّ له ألّا يؤخر الصلاة فى شدّة الحرّ . قال أبو عيسى : ومعنى من ذهب الى تأخير الظهر (٣) فى شدّة الحرّ هو أولى وأشبه بالاتباع . وأما ما ذهب اليه الشافعىّ رحمه الله أنّ الرخصة لمن ينتاب من البعد وللمشقة على الناس، فإن فى حديث أبى ذرّ رضى الله عنه ما يدل على خلاف ما قال الشافعى ؛ قال أبو ذرّ : كنا مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى سفر فأذّن بلالٌ بصلاة الظهر ؛ فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "[يا بلال] (١) أبرد ثم أبرد" . فلو كان الأمر على ما ذهب اليه الشافعى لم يكن للإبراد فى ذلك الوقت معنى ؛ لاجتماعهم فى السفر وكانوا لا يحتاجون أن ينتابوا من البعد» . وأما العصر فتقديمها أفضل . ولا خلاف فى مذهبنا أن تأخير الصلاة رجاء الجماعة أفضل من تقديمها ؛ فان فضل الجماعة معلوم، وفضل أول الوقت مجهول، وتحصيل المعلوم أولى ؛ قاله ابن العربىّ .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا ﴾ شرط، وجوابه : ﴿ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يعنى يوم القيامة . ثم وصف نفسه تعالى بالقدرة على كل شىء لتناسب الصفة مع ما ذكر من الإعادة بعد الموت والبلى .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ قيل : هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة واهتمام بها ؛ لأن موقع التحويل كان صعبًا فى نفوسهم جدا ، فأكد الأمر ليرى الناس الاهتمام به فيخفّ عليهم وتسكن نفوسهم اليه . وقيل : أراد بالأوّل ولّ وجهك شطر الكعبة أى عاينها اذا صليت تلقاءها . ثم قال : ﴿ وَحَيْثُ

---

(١) الزيادة عن صحيح الترمذى . (٢) انتاب : قصد .

(٣) كذا فى صحيح الترمذى . وفى الأصول : «تأخير الصلاة» .

مَا كُنْتُمْ ﴾ معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينة وغيرها ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ يعنى وجوب الاستقبال فى الأسفار ؛ فكان هذا أمرا بالتوجه الى الكعبة فى جميع المواضع من نواحى الأرض .

قلت : هذا القول أحسن من الأول ؛ لأن فيه حمل كل آية على فائدة . وقد روى الدارقطنى عن أنس بن مالك قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا كان فى سفر فأراد أن يصلى على راحلته استقبل القبلة وكبّر ثم صلّى حيث توجّهت به . أخرجه أبو داود أيضا ، وبه قال الشافعىّ وأحمد وأبو ثور . وذهب مالك إلى أنه لا يلزمه الاستقبال لحديث ابن عمر قال : « كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّى وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته قال : وفيه نزل ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ . » وقد تقدّم .

قلت : ولا تعارض بين الحديثين ؛ لأن هذا من باب المطلق والمقيد ، فقول الشافعىّ أولى وحديث أنس فى ذلك حديث صحيح . و يروى أن جعفر بن محمد سئل ما معنى تكرير القصص فى القرآن ؟ فقال : علم الله أن كل الناس لا تحفظ القرآن فلو لم تكن القصة مكررة لجاز أن تكون عند بعض الناس ولا تكون عند بعض ؛ فكررت لتكون عند من حفظ البعض .

قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ . قال مجاهد : هم مشركو العرب ، وحجتهم قولهم : راجعتَ قبلتنا . وقد أجيبوا عن هذا بقوله : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ . وقيل : معنى ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ لئلا يقولوا لكم : قد أمرتم باستقبال الكعبة ولستم ترونها . فلما قال جلّ وعزّ : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ زال هذا . وقال أبو عبيدة : إنّ إلّا هاهنا بمعنى الواو ، أى والذين ظلموا ، فهو استثناء بمعنى الواو ؛ ومنه قول الشاعر :

ما بالمدينة دار غير واحدة * دار الخليفة إلا دار مروانا

كأنه قال : إلا دار الخليفة ودار مروان ؛ وكذا قيل فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى والذين آمنوا . وأبطل الزجاج هذا القول وقال :

هذا خطأ عند الحذّاق من النحويين، وفيه بطلان المعانى ، وتكون إلّا وما بعدها مستغنى عن ذكرها . والقول عندهم أن هذا استثناء ليس من الأوّل، أى لكن الذين ظلموا منهم فإنهم يحتجون . قال أبو إسحاق الزجاج : أى عرّفكم الله أمر الاحتجاج فى القبلة فى قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ إلا من ظلم باحتجاجه فيما قد وضح له؛ كما تقول : مالك علىّ حُجَّةٌ إلا الظلم أو إلا أن تظلمنى، أى مالك حجة البتّة ولكنك تظلمنى ؛ فسمّى ظلمه حجة لأن المحتجّ به سمّاه حجة وإن كانت داحضة . وقال قُطْرُب : يجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا؛ فالذين بدل من الكاف والميم فى عليكم . وقالت فرقة : إلا الذين استثناء متصل؛ روى معناه عن ابن عباس وغيره ، واختاره الطبرى وقال : نفى الله أن يكون لأحد حجة على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه فى استقبالهم الكعبة . والمعنى : لاحجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا : ما ولّاهم؟ وتحيّر محمد فى دينه ، وما توجّه إلى قبلتنا إلا أنا كنّا أهدى منه ، وغير ذلك من الأقوال التى لم تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودى أو منافق . والحجة بمعنى المحاجّة أى المخاصمة والمجادلة . وسمّاها الله حجة وحكم بفسادها حيث كانت من ظَلَمة . قاله ابن عطية . وقيل إن الاستثناء منقطع؛ وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب، كأنه قال : لكن الذين ظلموا يحاجونكم . وقوله ﴿مِنْهُمْ﴾ يردّ هذا التأويل . والمعنى لكن الذين ظلموا: يعنى كفار قريش فى قولهم : رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا كله . ويدخل فى ذلك كل من تكلم فى النازلة من غير اليهود . وقرأ ابن عباس وزيد بن علىّ وابن زيد « ألَا الذين ظلموا» بفتح الهمزة وتخفيف اللام على معنى استفتاح الكلام فيكون الذين ظلموا ابتداء ، أو على معنى الإغراء فيكون الذين منصوبا بفعل مقدّر .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ يريد الناس ﴿ وَاخْشَوْنِي ﴾ الخشية أصلها طمأنينة فى القلب تبعث على التوقى . والخوف : فزع القلب تخف له الأعضاء، ولخفة الأعضاء به سمّى خوفا . ومعنى الآية التحقير لكل من سوى الله تعالى، والأمر باطراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ معطوف على «لئلا يكون» أى ولأن أتم ؛ قاله الأخفش . وقيل : مقطوع[1] فى موضع رفع بالابتداء والخبر مضمر، التقدير : ولأتم نعمتى عليكم عرفتكم قبلتى ؛ قاله الزجاج . وإتمام النعمة الهداية إلى القبلة ، وقيل : دخول الجنة ؛ قاله سعيد بن جُبَير . ولم تتم نعمة الله على عبد حتى يدخله الجنة . و﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ ﴾ الكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف . المعنى : ولأتم نعمتى عليكم إتماما مثل ما أرسلنا ؛ قاله الفراء . قال ابن عطية : وهذا أحسن الأقوال ، أى ولأتم نعمتى عليكم فى بيان سنة إبراهيم عليه السلام مثل ما أرسلنا . وقيل : المعنى ولعلكم تهتدون اهتداء مثل ما أرسلنا . وقيل : هى فى موضع نصب على الحال ، والمعنى : ولأتم نعمتى عليكم فى هذه الحال . والتشبيه واقع على أن النعمة فى القبلة كالنعمة فى الرسالة ، وأن الذكر المأمور به فى عِظَمه كعِظَم النعمة . وقيل : معنى الكلام على التقديم والتأخير ، أى فاذكرونى كما أرسلنا ؛ رُوى عن علىّ رضى الله عنه واختاره الزجاج ، أى كما أرسلنا فيكم رسولا تعرفونه بالصدق ، فاذكرونى بالتوحيد والتصديق به . والوقف على ﴿ تَهْتَدُونَ ﴾ على هذا القول جائز .

قلت : وهذا اختيار الترمذىّ الحكيم فى كتابه ، أى كما فعلت بكم هذا من المنن التى عددتها عليكم فاذكرونى بالشكر أذكركم بالمزيد ؛ لأن فى ذكركم ذلك شكرا لى وقد وعدتكم بالمزيد على الشكر وهو قوله : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ . فالكاف فى قوله ﴿ كَمَا ﴾ هنا وفى الأنفال ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ وفى آخر الحجر ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ متعلقة بما بعده ، على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ أمر وجوابه ، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم . وأصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له . وسُمّى الذكر باللسان ذكرا لأنه دلالة على الذكر القلبى ؛ غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللسانى صار هو السابق للفهم .

---

(1) نص العبارة فى البحر المحيط لأبى حيان : « وقيل : تتعلق اللام بفعل مؤخر، التقدير : ولأتم نعمتى عليكم عرفتكم قبلتى » . وما فى الأصل هنا غير واضح إذ ليس فى الكلام مبتدأ ولا خبر .

ومعنى الآية : اذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ؛ قاله سعيد بن جبير. وقال أيضا : الذكر طاعة الله فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن . روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "من أطاع الله فقد ذكر الله وإن أقلّ صلاته وصومه وصنيعه للخير ومن عصى الله فقد نسى الله وإن كثر صلاته وصومه وصنيعه للخير"؛ ذكره أبو عبد الله محمد ابن خويز منداد فى «أحكام القرآن» له . وقال أبو عثمان النّهدى : إنى لأعلم الساعة التى يذكرنا الله فيها ؛ قيل له : ومن أين تعلمها؟ قال يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ . قال السُّدّى : ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره الله عزّ وجلّ، لا يذكره مؤمن إلا ذكره برحمته، ولا يذكره كافر إلا ذكره الله بعذاب . وسئل أبو عثمان فقيل له : نذكر الله ولا نجد فى قلوبنا حلاوة ؛ فقال : احمدوا الله تعالى على أن زين جارحة من جوارحكم بطاعته . وقال ذو النون المصرى رحمه الله : من ذكر الله تعالى ذكرا على الحقيقة نسى فى جنب ذكره كل شىء وحفظ الله عليه كل شىء وكان له عوضا من كل شىء . وقال مُعاذ بن جبل رضى الله عنه : ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله . والأحاديث فى فضل الذكر وثوابه كثيرة خرّجها الأئمة . روى ابن ماجه عن عبد الله بن بسر أن أعرابيًا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ فأنبئنى منها بشىء أتشبث به ؛ قال : "لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله عزّ وجلّ". وخرّج عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عزّ وجلّ يقول أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه" . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان عند قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾. وأن المراد ذكر القلب الذى يجب استدامته فى عموم الحالات .

قوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ قال الفراء يقال : شكرتك وشكرت لك، ونصحتك ونصحت لك ؛ والفصيح الأوّل(١) . والشكر معرفة الإحسان والتحدّث به ؛ وأصله فى اللغة الظهور ؛ وقد تقدّم . فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه

(١) الذى فى معاجم اللغة أن الفصيح الثانى .

للعبد ثناؤه عليه بطاعته له ؛ إلا أن شكر العبد نطق باللسان وإقرار بالقلب بإنعام الرب مع الطاعات .

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ نهى ولذلك حذفت منه نون الجماعة، وهذه نون المتكلم. وحذفت الياء لأنها رأس آية، وإثباتها أحسن فى غير القرآن، أى لا تكفروا نعمتى وأيادىّ. والكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب . وقد مضى القول فى الكفر لغة ، ومضى القول فى معنى الاستعانة بالصبر والصلاة فلا معنى لإعادته .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ هذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾. وهناك يأتى الكلام فى الشهداء وأحكامهم إن شاء الله تعالى .

وإذا كان الله تعالى يحييهم بعد الموت ليرزقهم على ما يأتى ؛ فيجوز أن يحيى الكفار ليعذبهم، ويكون فيه دليل على عذاب القبر . والشهداء أحياء كما قال الله تعالى؛ وليس معناه أنهم سيحيون ؛ إذ لو كان كذلك لم يكن بين الشهداء وبين غيرهم فرق إذ كل أحد سيحيا . ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ والمؤمنون يشعرون أنهم سيحيون . وارتفع « أموات » على إضمار مبتدأ، وكذلك « بل أحياء » أى هم أموات وهم أحياء، ولا يصح إعمال القول فيه لأنه ليس بينه و بينه تناسب؛ كما يصح فى قولك : قلت كلاما وحجة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ هذه الواو مفتوحة عند سيبويه لالتقاء الساكنين . وقال غيره : لما ضُمّت الى النون الثقيلة بنى الفعل فصار بمنزلة خمسة عشر . والبلاء يكون حسنا ويكون سيئا ، وأصله المحنة . وقد تقدّم . والمعنى لنمتحننكم لنعلم المجاهد والصابر علم معاينة حتى يقع عليه الجزاء، كما تقدّم. وقيل : إنما ابتلوا بهذا ليكون آية لمن بعدهم فيعلموا أنهم إنما صبروا على هذا حين وضح لهم الحق . وقيل: أعلمهم بهذا ليكونوا على يقين من أنه يصيبهم؛ فيوطّنوا أنفسهم عليه فيكون أبعد لهم من الجزع . وفيه تعجيل ثواب الله تعالى على العزم وتوطين النفس .

قوله تعالى : ﴿ بِشَيْءٍ ﴾ لفظ مفرد ومعناه الجمع . وقرأ الضحاك « بأشياء » على الجمع ، وقرأ الجمهور بالتوحيد ؛ أي بشيء من هذا وشيء من هذا ؛ فاكتفى بالأول إيجازا ، من الخوف ؛ أي خوف العدو والفزع في القتال ؛ قاله ابن عباس . وقال الشافعي : هو خوف الله عز وجل . والجوع : يعني المجاعة بالجدب والقحط ؛ في قول ابن عباس . وقال الشافعي : هو الجوع في شهر رمضان ، ونقص من الأموال بسبب الاشتغال بقتال الكفار . وقيل : بالجوائح المتلفة . وقال الشافعي : بالزكاة المفروضة والأنفس . قال ابن عباس : بالقتل والموت في الجهاد . وقال الشافعي : يعني في الأمراض والثمرات . قال الشافعي : المراد موت الأولاد ، وولد الرجل ثمرة قلبه ؛ كما جاء في الخبر على ما يأتي . وقال ابن عباس : المراد قلة النبات وانقطاع البركات .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ أي بالثواب على الصبر . والصبر أصله الحبس ؛ وثوابه غير مقدر . وقد تقدم . لكن لا يكون ذلك إلا بالصبر عند الصدمة الأولى ؛ كما روى البخاري عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " . وأخرجه مسلم أتم منه ، أي إنما الصبر الشاق على النفس الذي يعظم الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها ؛ فإنه يدل على قوة القلب وتثبته في مقام الصبر ، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك ؛ ولذلك قيل : يجب على كل عاقل أن يلتزم عند المصيبة ما لابد للأحمق منه بعد ثلاث . وقال سهل بن عبد الله التستري : لما قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ صار الصبر عيشا[1] . والصبر صبران : صبر عن معصية الله فهذا مجاهد ، وصبر على طاعة الله . ومن صبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه ؛ وعلامة الرضا سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات . وقال الخواص : الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة . وقال رويم : الصبر ترك الشكوى . وقال ذو النون المصري : الصبر هو الاستعانة بالله تعالى . وقال الأستاذ أبو علي : الصبر حده ألا تعترض

---

(١) كذا في جميع النسخ التي بأيدينا .

على التقدير ؛ فأما إظهار البلوى على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر ؛ قال الله تعالى في قصة أيوب : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ مع ما أخبر عنه أنه قال : ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ » .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى ﴿مُصِيبَةٌ﴾ المصيبة كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه ؛ يقال : أصابه إصابة ومصابة ومصابا . والمصيبة واحد المصائب . والمصوبة (بضم الصاد) مثل المصيبة . وأجمعت العرب على همزة المصائب ، وأصله الواو ؛ كأنهم شبهوا الأصلي بالزائد ، ويجمع على مصاوب ، وهو الأصل . والمُصاب الإصابة ؛ قال الشاعر :

أَسُلَيمُ إِنَّ مُصابَكُمْ رَجُلًا ٭ أَهدَى السلامَ تَحيّةً ظُلْمُ

وصاب السهمُ القرطاسَ يَصيب صَيْبًا ، لغة في أصابه . والمصيبة النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت ؛ وتستعمل في الشر ؛ روى عكرمة أن مصباح رسول الله صلى الله عليه وسلم انطفأ ذات ليلة فقال : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فقيل : أمصيبة هي يا رسول الله ؟ قال : " نعم كل ما آذى المؤمن فهو مصيبة " .

قلت : هذا ثابت معناه في الصحيح ، خرّج مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن حتى الهمّ يُهمه[1] إلا كُفِّر به من سيئاته " .

الثانيــة ــ خرّج ابن ماجه في سننه حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا وكيع بن الجراح عن هشام بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث آسترجاعا وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب" .

(١) على هامش صحيح مسلم : « قال القاضي : هو بضم الياء وفتح الهاء على ما لم يسم فاعله ، وضبطه غيره بفتح الياء وضم الهاء ، أي يغمه ، وكلاهما صحيح » .

الثالثة — من أعظم المصائب المصيبة فى الدّين . ذكر أبو عمر عن الفريابى قال حدّثنا فطر بن خليفة حدّثنا عطاء بن أبى رَباح قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بى فإنها من أعظم المصائب" . أخرجه السّمرقندى أبو محمد فى مسنده، أخبرنا أبو نعيم قال أنبأنا فطر فذكر مثله سواء . وأسند مثله عن مكحول مرسلا . قال أبو عمر: وصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده الى يوم القيامة ؛ انقطع الوحى وماتت النبوّة . وكان أوّل ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك ، وكان أوّل انقطاع الخير وأوّل نقصانه . قال أبو سعيد : ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى أنكرنا قلوبنا . ولقد أحسن أبو العتاهية فى نظمه معنى هذا الحديث حيث يقول :

اصبرْ لكل مصيبة وتجلَّدِ * وٱعلم بأن المرءَ غيرُ مُخَلَّدِ
أَوَ مَا ترى أن المصائب جَمّةٌ * وترى المنيّةَ للعباد بمَرْصَدِ
مَن لم يُصَبْ ممن ترى بمصيبة؟ * هذا سبيلٌ لستَ فيه بأوحد
فاذا ذكرتَ محمدا ومصابه * فاذكر مصابك بالنبيّ محمد

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . جعل الله هذه الكلمات ملجأ لذوى المصائب، وعصمة للممتحنين؛ لما جمعت من المعانى المباركة؛ فان قوله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ توحيد و إقرار بالعبودية والملك . وقوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالهلك على أنفسنا والبعث من قبورنا ، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له . قال سعيد بن جُبَير رحمه الله تعالى : لم تعط هذه الكلمات نبيا قبل نبيّنا، ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسفَى على يوسف .

الخامسة — قال أبو سنان: دفنت آبنى سنانا، وأبو طلحة الخولانى على شفير القبر؛ فلما أردت الخروج أخذ بيدى فأنشطنى وقال : الا أبشّرك يا أبا سنان، حدّثنى الضّحاك عن

أبي موسى أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : " إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته أقبضتم ولد عبدي فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول فماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسمّوه بيت الحمد" . وروى مسلم عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عزّ وجلّ إنا لله وإنا إليه راجعون اللّهم أجُرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها" . فهذا تنبيه على قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ . إما بالخلف كما أخلف الله لأم سلمة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنه تزوجها لما مات أبو سلمة زوجها، وإما بالثواب الجزيل كما في حديث أبي موسى، وقد يكون بهما .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ . هذه نعم من الله عزّ وجلّ على الصابرين المسترجعين. وصلاة الله على عبده عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه في الدنيا والآخرة . وقال الزجاج : الصلاة من الله عز وجل الغفران والثناء الحسن . ومن هذا الصلاة على الميت إنما هو الثناء عليه والدعاء له ؛ فكرر الرحمة لما اختلف اللفظ تأكيدا وإشباعا للمعنى ؛ كما قال : ﴿ مِّنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ . وقوله : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ . وقال الشاعر :

صلّى على يحيي وأشياعه * ربّ كريم وشفيع مطاع

وقيل : أراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة. وفي البخاري وقال عمر رضى الله عنه: نعم العدلان ونعم العلاوة : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾. أراد بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الاهتداء . قيل : إلى استحقاق الثواب وإجزال الأجر، وقيل : إلى تسهيل المصائب وتخفيف الحزن .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ . فيه تسع مسائل :

الأولى — روى البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. وخرّج الترمذي عن عروة قال: "قلت لعائشة: ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئا، وما أبالي ألا أطوف بينهما". فقالت: بئس ما قلت يا بن أختي، طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف المسلمون، وإنما كان من أهل لمناة(1) الطاغية التي بالمشلّل لا يطوفون بين الصفا والمروة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ولو كانت كما تقول لكانت: "فلا جناح عليه ألا يطوف بهما". قال الزهري: فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام؛ فأعجبه ذلك وقال: ان هذا لعلم، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يقولون: انما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر به بين الصفا والمروة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فأراها قد نزلت في هؤلاء وهؤلاء. قال: هذا حديث حسن صحيح». أخرجه البخاري بمعناه وفيه بعد قوله؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ «قالت عائشة: وقد سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما؛ ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: إن هذا لعلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهلّ بمناة كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة؛ فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا: يا رسول الله، كنا نطوف بالصفا والمروة، وأن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من

(1) مناة، اسم صنم في جهة البحر مما يلي قديدا بالمشلل (وهو جبل يهبط منه الى قديد من ناحية البحر) على سبعة أميال من المدينة. وكانت الأزد وغسان يهلون له ويحجون اليه، وكان أول من نصبه عمرو بن لحي الخزاعي. (راجع معجم ياقوت في اسم مناة).

حرج أن نطوّف بالصفا والمروة ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ الآية . قال أبو بكر : فأسْمَعُ هــذه الآية نزلت فى الفريقين كليهما : فى الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا فى الجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم يتحرجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعــد ما ذكر الطواف بالبيت» . وروى الترمذىّ عن عاصم بن سليمان الأحول قال : «سألت أنس بن مالك[1] عن الصفا والمروة فقال : كانا من شعائر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ قال : هما تطوع ، ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ . قال : هذا حديث حسن صحيح» . خرّجه البخارى أيضا . وعن ابن عباس قال : كان فى الجاهلية شياطين تعزف الليــل كله بين الصفا والمروة وكان بينهما آلهة ، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون : يارســول الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة فانهما شرك ؛ فنزلت . وقال الشعبىّ : كان على الصفا فى الجاهلية صنم يسمى « إسافا » وعلى المروة صنم يســمى « نائلة » فكانوا يمسحونهما اذا طافوا ؛ فامتنع المسلمون من الطواف بينهما من أجل ذلك ؛ فنزلت الآية .

الثانيــة — أصل الصفا فى اللغة الحجر الأملس . وهو هنا جبل بمكة معروف ، وكذلك المروة جبل أيضا ؛ ولذلك أخرجهما بلفظ التعريف . وذُكر الصفا لأن آدم المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وقف عليه فسُمّى به ، ووقفت حوّاء على المروة فسميت باسم المرأة فأنث لذلك ؛ والله أعلم . وقال الشعبىّ : كان على الصفا صنم يسمى «إسافا» وعلى المروة صنم يدعى «نائلة» فاطرد ذلك فى التذكير والتأنيث وقدّم المذكر ، وهذا حسن ، لأن الأحاديث المذكورة تدل على هذا المعنى . وما كان كراهة من كره الطواف بينهما إلا من أجل هذا ، حتى رفع الله الحرج فى ذلك . وزعم أهل الكتاب أنهما زنيا فى الكعبة فمسخهما الله حجرين فوضعهما على الصفا والمروة ليعتبر بهما ؛ فلما طالت المدة عُبدا من دون الله . والله تعالى أعلم . والصفا مقصور

(١) كذا فى الأصول وصحيح البخارى وتفسير الطبرى . والذى فى صحيح الترمذى : « أنس بن سيرين ... » . وهو مولى أنس بن مالك وممن روى عنه .

جمع صفاة : وهى الحجارة الملس . وقيل : الصفا اسم مفرد ، وجمعه صُفِيّ (بضم الصاد) وأصفاء على مثل أرحاء . قال الراجز :

كأن مَتْنَيْه من النَّفِيّ[1] * مواقعُ الطَّير على الصُّفِيّ

وقيل : من شروط الصفا البياض والصلابة . واشتقاقه من صفا يصفو، أى خلص من التراب والطين . والمروة (واحدة المرو) وهى الحجارة الصغار التى فيها لين . وقد قيل إنها الصلاب . والصحيح أن المرو : الحجارة صليبها ورخوها الذى يتشظى وترق حاشيته؛ وفى هذا يقال : المرو أكثر ويقال فى الصليب . قال الشاعر :

وتولى الأرض خفا ذابلا * فاذا ما صادف المرو رضخ

وقال أبو ذؤيب :

حتى كأنى للحوادث مَرْوَةٌ * بصَفَا المُشَقَّر كل يوم تُقْرَعُ

وقد قيل : إنها الحجارة السّود، وقيل : حجارة بيض برّاقة تكون فيها النار .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أى من معالمه ومواضع عباداته؛ وهى جمع شعيرة . والشعائر : المتعبّدات التى أشعرها الله تعالى،أى جعلها أعلاما للناس، من الموقف والسّعى والنّحر . والشِّعار العلامة؛ يقال : أشعر الهدى أعلمه بغرز حديدة فى سنامه؛ من قولك : أشعرت أى أعلمت، وقال الكميت :

نُقَتّلهم جِيلًا فجِيلًا تَرَاهُمُ * شَعائرَ قُرْبانٍ بهم يُتَقرّبُ

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ ﴾ أى قصد . وأصل الحج القصد؛ قال الشاعر :

فأشْهَدُ مِن عَوْفٍ حُلولًا[2] كثيرةً * يَحُجّون سِبَّ الزِّبْرِقانِ المُزَعْفَرا

(١) النفىّ : تطاير الماء عن الرشاء عند الاستقاء . ونفىّ الدار : ما تنفيه وترشه . قال صاحب اللسان : «وفسره ثعلب فقال : شبه الماء وقد وقع على متن المستقى بذرق الطائر على الصفىّ» .

(٢) الحلول : الأحياء المجتمعة (وهو جمع حال) .

السب لفظ مشترك . قال أبو عبيدة : السِّب (بالكسر) الكثير السِّباب . وسِبُّك أيضا الذى يُسابُّك؛ قال الشاعر :

لا تَسُبَّنَّنِي فلستَ بِسِبِّي * إنّ سِبِّي من الرِّجال الكريمُ

والسِّب أيضا الخمار، وكذلك العمامة؛ قال المُخَبَّل السَّعدى :

* يَحُجُّون سِبَّ الزِّبرقان المُزَعْفَرَا *

والسِّبّ أيضا الحبل فى لغة هذيل؛ قال أبو ذؤيب :

تَدَلَّى عليها بين سِبٍّ وخَيْطَةٍ * بجَرْداءَ مثلِ الوَكْفِ يكبُو غُرابُها

والسُّبوب الحبال . والسِّب شُقّة كتّان رقيقة، والسبيبة مثله؛ والجمع السُّبوب والسبائب . قاله الجوهرى . وحَجّ الطبيبُ الشَّجةَ إذا سبرها بالميل؛ قال الشاعر :

* يَحُجُّ مَأمومةً[1] فى قعرها لَجَفُ *

اللجف : الخسف؛ تلجّفت البئر : انخسف أسفلها . ثم اختص هذا الاسم بالقصد الى البيت الحرام لأفعال مخصوصة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ أَوِ اعْتَمَرَ ﴾ أى زار . والعُمْرة : الزيارة؛ قال الشاعر :

لقد سما ابنُ مَعْمَرٍ حين اعْتَمَرْ * مَغْزًى بَعيدًا من بَعيد وضَبَرْ[2]

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ أى لا إثم . وأصله من الجنوح وهو الميل؛ ومنه الجوانح للأعضاء لاعوجاجها . وقد تقدّم تأويل عائشة لهذه الآية . قال ابن العربى : « تحقيق القول فيه أن قول القائل : لاجناح عليك أن تفعل؛ إباحة الفعل وقوله : لا جناح عليك ألا تفعل؛ إباحة لترك الفعل؛ فلما سمع عروة قول الله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ . قال : هذا دليل على أن ترك الطواف جائز، ثم رأى الشريعة مطبقة على أن الطواف لا رخصة فى تركه ، فطلب الجمع بين هذين المتعارضين .

---

(١) المأمومة : الشجة التى بلغت أم الرأس، وهى الجلدة التى تجمع الدماغ .

(٢) ضبر : جمع قوائمه ليثب .

فقالت له عائشة : ليس قوله : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ دليلا على ترك الطواف ، إنما كان يكون دليلا على تركه لو كان . «فلا جناح عليه ألا يطوف بهما» فلم يأت هذا اللفظ لإباحة ترك الطواف، ولا فيه دليل عليه ؛ وإنما جاء لإفادة إباحة الطواف لمن كان يتحرج منه في الجاهلية، أو لمن كان يطوف به في الجاهلية قصدا للأصنام التي كانت فيه؛ فأعلمهم الله سبحانه أن الطواف ليس بمحظور إذا لم يقصد الطائف قصدا باطلا » .

فإن قيل : فقد روى عطاء عن ابن عباس أنه قرأ « فلا جناح عليه ألا يطوف بهما » وهي قراءة ابن مسعود، ويروى أنه في مصحف أبي كذلك، ويروى عن أنس مثل هذا . فالجواب أن ذلك خلاف ما في المصحف، ولا يترك ما قد ثبت في المصحف الى قراءة لا يدرى أصحت أم لا . وكان عطاء يكثر الإرسال عن ابن عباس من غير سماع . والرواية في هذا عن أنس قد قيل : إنها ليست بالمضبوطة؛ أو تكون « لا » زائدة للتوكيد؛ كما قال :

وما ألُومُ البِيضَ ألّا تَسْخَرَا * لمّا رأيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدَرَا (1)

السابعة — روى الترمذي عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم مكة طاف بالبيت سبعا قرأ : ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . وصلى خلف المقام ، ثم أتى الحجر فاستلمه ثم قال : " نبدأ بما بدأ الله به " (2) فبدأ بالصفا وقال : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ . قال : هذا حديث حسن صحيح . والعمل على هذا عند أهل العلم أنه يبدأ بالصفا قبل المروة؛ فإن بدأ بالمروة قبل الصفا لم يجزه ويبدأ بالصفا .

الثامنة — واختلف العلماء في وجوب السعي بين الصفا والمروة؛ فقال الشافعي وابن حنبل : هو ركن ؛ وهو المشهور من مذهب مالك ؛ لقوله عليه السلام : " اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي " . خرّجه الدارقطني . فكتب بمعنى أوجب لقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ . وقوله عليه السلام : " خمس صلوات كتبهن الله على العبد " . وخرّج ابن ماجه عن أم ولد لشيبة قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى بين الصفا والمروة

---

(1) القبيح المنظر . (2) الذي في صحيح الترمذي : « نبدأ بما بدأ الله وقرأ ... الخ » .

وهو يقول : " لا يقطع الأبطح إلا شَدًّا "(١) فمن تركه أو شوطا منه ناسيا أو عامدا رجع من من بلده أو من حيث ذكر الى مكة ، فيطوف ويسعى ؛ لأن السعي لا يكون إلا متصلا بالطواف . وسواء عند مالك كان ذلك في حج أو عمرة وإن لم يكن في العمرة فرضا، فإن كان قد أصاب النساء فعليه عُمْرة وهَدْى عند مالك مع تمام مناسكه . وقال الشافعي: عليه هدىٌ، ولا معنى للعمرة اذا رجع وطاف وسعى . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والشعبي : ليس بواجب ، فإن تركه أحدٌ من الحاج حتى يرجع الى بلاده جبره بالدم لأنه سنة من سنن الحج . وهو قول مالك في العتبية(٢) . وروى عن ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين أنه تطوع ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ . وقرأ حمزة والكسائى «تطوّعْ» مضارع مجزوم ، وكذلك « فمن تطوّعْ خيرا فهو خير له » الباقون « تطوّعَ » ماض . وهو ما يأتيه المؤمن من قِبَل نفسه ؛ فمن أتى بشيء من النوافل فإن الله يشكره . وشكر الله للعبد إثابته على الطاعة؛ والصحيح ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى لما ذكرنا، وقوله عليه السلام : " خذوا عنّى مناسككم " فصار بيانا لمجمل الحج؛ فالواجب أن يكون فرضا؛ كبيانه لعدد الركعات ، وما كان مثل ذلك، إذا لم يتفق على أنه سنة أو تطوع . وقال طُلَيب : رأى ابن عباس قوما يطوفون بين الصفا والمروة فقال : هذا ما أورثتكم أمكم أم إسماعيل .

قلت : وهذا ثابت في صحيح البخارى، على ما يأتى بيانه في سورة إبراهيم .

التاسعة ــ ولا يجوز أن يطوف أحد بالبيت ولا بين الصفا والمروة راكبا إلا من عذر؛ فإن طاف معذورا فعليه دم ، وإن طاف غير معذور أعاد إن كان بحضرة البيت، وإن غاب عنه أهدى . إنما قلنا ذلك لأن النبي صلّى الله عليه وسلّم طاف بنفسه وقال : " خذوا عنى مناسككم" . وإنما جوّزنا ذلك من العذر؛لأن النبي صلّى الله عليه وسلّم طاف على بعيره واستلم

(١) شدا ، أى عدوا .

(٢) العتبية : كتاب لفقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي المتوفى سنة ٢٥٤ هـ ، في مذهب الامام مالك ، نسبت الى مؤلفها .

الركن بمحجنه[1]، وقال لعائشة وقد قالت له : إنى أشتكى . فقال: " طوفى من وراء الناس وأنت راكبة" . وفرق أصحابنا بين أن يطوف على بعير أو يطوف على ظهر إنسان؛ فإن طاف على ظهر إنسان لم يجزه ؛ لأنه حينئذ لا يكون طائفا، إنما الطائف الحامل . وإذا طاف على بعير يكون هو الطائف . قال ابن خويز منداد : وهذه تفرقة اختيار ، وأما الإجزاء فيجزئ؛ ألا ترى أنه لو أغمى عليه فطيف به محمولا، أو وقف به بعرفات محمولا كان مجزئا عنه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ . فيه سبع مسائل:

الأولى — أخبر الله تعالى أن الذى يكتم ما أنزل من البينات والهدى ملعون . واختلفوا من المراد بذلك؛ فقيل : أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلّى الله عليه وسلّم ، وقد كتم اليهود أمر الرجم . وقيل : المراد كل من كتم الحق؛ فهى عامة فى كل من كتم علما من دين الله يحتاج الى بثه. وذلك مفسّر فى قوله صلّى الله عليه وسلّم: "من سئل عن علم [يعلمه][2] فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار" . رواه أبو هريرة وعمرو بن العاص . أخرجه ابن ماجه . ويعارضه قول عبد الله بن مسعود : ما أنت بمحدّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة . وقال عليه السلام : " حدّث الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذّب الله ورسوله " . وهذا محمول على بعض العلوم؛ كعلم الكلام أو ما لا يستوى فى فهمه جميع العوام؛ فحكم العالم أن يحدّث بما يفهم عنه، وينزل كل إنسان منزلته؛ والله تعالى أعلم.

الثانية — هذه الآية هى التى أراد أبو هريرة رضى الله عنه فى قوله : لولا آية[3] فى كتاب الله تعالى ماحدّثتكم حديثا . وبها استدل العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق، وتبيان العلم على الجملة، دون أخذ الأجرة عليه؛ إذ لا يستحق الأجرة على ما عليه فعله، كما لا يستحق الأجرة على الاسلام . وقد مضى القول فى هذا .

---

(١) المحجن : عصا معوجة الرأس يتناول بها الراكب ما سقط له .

(٢) الزيادة عن سنن ابن ماجه .

(٣) الذى فى صحيح البخارى، وسنن ابن ماجه : «لولا آيتان» .

وتحقيق الآية هو أن العالم إذا قصد كتمان العلم عصى ، وإذا لم يقصد لم يلزمه التبليغ إذا عرف أنه مع غيره . وأما من سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية والحديث ، أما أنه لا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يسلم ، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحجاج ليجادل به أهل الحق، ولا يعلّم الخصم على خصمه حجة يقتطع بها ماله ، ولا السلطان تأويلا يتطرق به الى مكاره الرعية، ولا ينشر الرخص فى السفهاء فيجعلوا ذلك طريقا إلى ارتكاب المحظورات، وترك الواجبات ونحو ذلك . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ولا تضعوها فى غير أهلها فتظلموها" وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تعلقوا الدرّ فى أعناق الخنازير" . يريد تعليم الفقه من ليس من أهله . وقد قال سحنون : إن حديث أبى هريرة وعمرو بن العاص إنما جاء فى الشهادة . قال ابن العربى : والصحيح خلافه؛ لأن فى الحديث "من سئل عن علم" ولم يقل عن شهادة، والبقاء على الظاهر، حتى يرد عليه ما يزيله . والله أعلم .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ يعم المنصوص عليه والمستنبط لشمول اسم الهدى للجميع . وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد ؛ لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله . وقال : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟﴾ فحكم بوقوع البيان بخبرهم .

فإن قيل : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منهيا عن الكتمان ومأمورا بالبيان ليكثر المخبرون ويتواتر بهم الخبر . قلت : هذا غلط لأنهم لم ينهوا عن الكتمان إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليه، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتمان فلا يكون خبرهم موجبا للعلم . والله تعالى أعلم .

الرابعة ـ لما قال : ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ دلّ على أن ما كان من غير ذلك جائز كتمه، لاسيا إن كان مع ذلك خوف فإن ذلك آكد فى الكتمان ؛ وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال: حفظت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعاءين؛ فأما أحدهما فبثثته، وأما

الآخر فلو بثثته قُطع هذا البُلْعوم . أخرجه البخاري . قال أبو عبد الله[1] : البلعوم مجرى الطعام.
قال علماؤنا : وهذا الذي لم يبثّه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل، إنما هو مما يتعلق بأمر الفتن . والنصّ على أعيان المرتدين والمنافقين ونحو هذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى . والله تعالى أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ الكناية في «بيناه» ترجع إلى ما أنزل من البينات والهدى . والكتاب اسم جنس، والمراد جميع الكتب المنزلة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي يتبرأ منهم ويبعدهم من ثوابه ويقول لهم : عليكم لعنتي؛ كما قال للّعين : عليك لعنتي . وأصل اللّعن في اللغة الإبعاد والطرد. وقد تقدّم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ . قال قتادة والرّبيع : المراد باللاعنون الملائكة والمؤمنون . قال ابن عطية : وهذا واضح جار على مقتضى الكلام . وقال مجاهد وعكرمة : هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم . قال الزّجاج : والصواب قول من قال : اللاعنون ، الملائكة والمؤمنون ؛ فأما أن يكون ذلك لدواب الأرض فلا يوقف على حقيقته إلا بنصّ أو خبر لازم ولم نجد من ذينك شيئا .

قلت : قد جاء بذلك خبر رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى : ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ . قال : "دواب الأرض" . أخرجه ابن ماجه عن محمد بن الصباح أنبأنا عمار بن محمد عن ليث عن أبي المنهال عن زاذان عن البراء بإسناد حسن .

فإن قيل : كيف جمع من لا يعقل جمع من يعقل . قيل : لأنه أسند إليهم فعل من يعقل ؛ كما قال : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ؛ ولم يقل ساجدات ؛ وقد قال : ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ . وقال : ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ . ومثله كثير وسيأتي إن شاء الله تعالى .

(١) أبو عبد الله كنية البخاري رضي الله عنه .

وقال البراء بن عازب وابن عباس : اللاعنون كل المخلوقات ما عدا الثقلين : الجن والإنس؛ وذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " الكافر إذا ضُرب في قبره فصاح سمعه الكل إلا الثقلين ولعنه كل سامع" . وقال ابن مسعود والسّدى : هو الرجل يلعن صاحبه فترتفع اللعنة إلى السماء فترجع ثم تنحدر فلا تجد صاحبها الذى قيلت فيه أهلا لذلك، فترجع إلى الذى تكلم بها فلا تجده أهلا فتنطلق فتقع على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله تعالى ؛ فهو قوله : ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ فمن مات منهم ارتفعت اللعنة عنه فكانت فيمن بقى من اليهود .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ استثنى تعالى التائبين الصالحين لأعمالهم وأقوالهم المنيبين لتوبتهم . ولا يكفى فى التوبة عند علمائنا قول القائل : قد تبت؛ حتى يظهر منه فى الثانى خلاف الأول؛ فإن كان مرتدا رجع إلى الاسلام مظهرا شرائعه، وإن كان من أهل المعاصى ظهر منه العمل الصالح، وجانب أهل الفساد والأحوال التى كان عليها . وإن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه . وسيأتى بيان التوبة وأحكامها فى النساء إن شاء الله تعالى . وقال بعض العلماء فى قوله : ﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ أى بكسر الخمر وإراقتها . وقيل : بينوا يعنى ما فى التوراة من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلّم ووجوب اتباعه . والعموم أولى على ما بيناه، أى بينوا خلاف ما كانوا عليه؛ والله تعالى أعلم . ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . تقدّم والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ الآية . فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ الواو واو الحال . قال ابن العربيّ : قال لى كثير من أشياخى إن الكافر المعيّن لا يجوز لعنه؛ لأن حاله عند الوفاة لا تعلم، وقد شرط الله تعالى فى هذه الآية فى إطلاق اللعنة : الوفاة على الكفر؛ وأما ما رُوى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه لعن أقواما بأعيانهم من الكفار فإنما كان ذلك لعلمه بمآلهم . قال ابن العربىّ : والصحيح عندى جواز لعنه لظاهر حاله ولجواز قتله وقتاله؛ وقد روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " اللّهم إن عمرو بن العاص هجانى وقد علم أنى لست بشاعر فالعنه واهجه عدد

ماهجانى" . فلعنه و إن كان الإيمان والدين والإسلام مآله . وآنتصف بقوله : "عدد ماهجانى" ولم يزد ليعلّم العدل والإنصاف، وأضاف الهجو إلى الله تعالى فى باب الجزاء، دون الابتداء بالوصف بذلك؛ كما يضاف إليه المكر والاستهزاء والخديعة . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرا .

قلت : أما لعن الكفار جملة من غير تعيين فلا خلاف فى ذلك؛ لما رواه مالك عن داود ابن الحصين أنه سمع الأعرج يقول : ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة فى رمضان . قال علماؤنا : وسواء كانت لهم ذمة أم لم تكن، وليس ذلك بواجب، ولكنه مباح لمن فعله؛ لجحدهم الحق وعداوتهم للدين وأهله . وكذلك كل من جاهر بالمعاصى كشرب الخمر وأكل الربا ، ومن تشبّه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء، الى غير ذلك مما ورد فى الأحاديث لعنه .

الثانيـة — ليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر؛ بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره، كان الكافر ميتا أو مجنونا . وقال قوم من السلف : إنه لا فائدة فى لعن من جُنّ أو مات منهم، لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر، فإنه لا يتأثر به .

والمراد بالآية على هذا المعنى أن الناس يلعنونه يوم القيامة ليتأثر بذلك ويتضرر ويتألم قلبه ؛ فيكون ذلك جزاء على كفره ؛ كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ . ويدلّ على هذا القول أن الآية دالّة على الإخبار عن الله تعالى بلعنهم، لا على الأمر. وذكر ابن العربى أن لعن العاصى المعيّن لا يجوز إتفاقا ؛ لما رُوى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه أُتى بشارب خمر مرارا ، فقال بعض من حضره : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ! فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم" فجعل له حرمة الأخوّة ؛ وهذا يوجب الشفقة، وهذا حديث صحيح .

قلت : خرّجه البخاريّ ومسلم . وقد ذكر بعض العلماء خلافا في لعن العاصي المعيّن ؛ قال : وإنما قال عليه السلام : "لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم" . في حق نعيمان(١) بعد إقامة الحدّ عليه ؛ ومن أقيم عليه حدّ الله تعالى فلا ينبغي لعنه ، ومن لم يقم عليه الحدّ فلعنته جائزة سواء سُمّي أو عيّن أم لا ؛ لأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا يلعن إلا من تجب عليه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة للعن ؛ فاذا تاب منها وأقلع وطهره الحدّ فلا لعنة تتوجه عليه . ويبيّن هذا قوله صلّى الله عليه وسلّم : "اذا زنت أَمَة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يثرّب" . فدل هذا الحديث مع صحته على أن التثريب واللّعن إنما يكون قبل أخذ الحدّ وقبل التوبة . والله تعالى أعلم .

قال ابن العربي : وأما لعن العاصي مطلقا فيجوز إجماعا لما روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده" .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ ﴾ أي إبعادهم من رحمته . وأصل اللعن الطرد والإبعاد ؛ وقد تقدم . فاللعنة : من العباد الطّرد ، ومن الله العذاب ، وقرأ الحسن البصري «والملائكة والناس أجمعون» بالرفع . وتأويلها أولئك جزاؤهم أن يلعنهم الله ويلعنهم الملائكة ويلعنهم الناس أجمعون ؛ كما تقول : كرهت قيام زيدٍ وعمروٌ وخالدٌ ؛ لأن المعنى : كرهت أن قام زيد . وقراءة الحسن هذه مخالفة للمصاحف .

فإن قيل : ليس يلعنهم جميع الناس لأن قومهم لا يلعنونهم . قيل عن هذا ثلاثة أجوبة ؛ أحدها ـ أن اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها لعنة الناس تغليبا لحكم الأكثر على الأقل . الثاني ـ قال السّدي : كل أحد يلعن الظالم ، وإذا لعن الكافر الظالم فقد لعن نفسه . الثالث ـ قال أبو العالية : المراد به يوم القيامة يلعنهم قومهم مع جميع الناس ؛ كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ . ثم قال جلّ وعزّ :

(١) نعيمان (مصغر) هو ابن عمرو بن رفاعة ، شهد العقبة وبدرا والمشاهد بعدها . وكان كثير المزاح ، يضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم من مزاحه . (عن أسد الغابة) .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ يعنى فى اللعنة، أى فى جزائها . وقيل : خلودهم فى اللعنة أنها مؤبدة عليهم. ﴿ وَلَاهُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى لا يؤخرون عن العذاب وقتا من الأوقات . وخالدين نصب على الحال من الهاء والميم فى عليهم؛ والعامل فيه الظرف من قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ لأن فيها استقرار اللعنة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لما حذر تعالى من كتمان الحق بين أن أوّل مايجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان ، وعلم طريق النظر، وهو الفكر فى عجائب الصنع؛ ليعلم أنه لا بدّ له من فاعل لا يشبهه شيء . قال ابن عباس رضى الله عنهما : قالت كفار قريش : يا محمد آنسب لنا ربك؛ فأنزل الله تعالى سورة الاخلاص وهذه الآية . وكان للشركين ثلثمائة وستون صنما فبين الله أنه واحد .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نفى وإثبات، أوّلها كفر وآخرها إيمان، ومعناه لا معبود إلا الله . وحكى عن الشبلى رحمه الله تعالى أنه كان يقول : الله . ولا يقول: لا إله ؛ فسئل عن ذلك فقال : أخشى أن آخذ فى كلمة الجحود ولا أصل الى كلمة الإقرار .

قلت : وهذا من علومهم الدقيقة، التى ليست لها حقيقة؛ فإن الله جلّ اسمه ذكر هذا المعنى فى كتابه نفيا وإثباتا وكرره، ووعد بالثواب الجزيل لقائله على لسان نبيّه صلّى الله عليه وسلّم ؛ خرّجه الموطأ والبخارىّ ومسلم وغيرهم . وقال صلّى الله عليه وسلّم : "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة" . خرّجه مسلم . والمقصود القلب لا اللسان؛ فلو قال : لا إله ومات ومعتقده وضميره الوحدانية وما يجب له من الصفات لكان من أهل الجنة باتفاق أهل السنة . وقد أتينا على معنى اسم الواحد ، ولا إله إلا هو الرحمن الرحيم فى الكتاب « الأسنى، فى شرح أسماء الله الحسنى » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الى قوله : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى ـ قال عطاء : لما نزلت ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ قالت كفار قريش : كيف يسع الناس إله واحد ! فنزلت ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . رواه سفيان عن أبيه عن أبي الضحى قال : لما نزلت ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ قالوا : هل من دليل على ذلك؟ فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فكأنهم طلبوا آية فبيّن لهم دليل التوحيد وأن هذا العالم والبناء العجيب لا بدّ له من بانٍ وصانع . وجمع السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى . ووحد الأرض لأنها كلها تراب؛ والله تعالى أعلم .

فآية السموات ارتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها؛ ودل ذلك على القدرة وخرق العادة . ولو جاء نبيّ فتحدّى بوقوف جبل فى الهواء دون علاقة كان معجزا . ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة، نيّرة وممحوّة آية ثانية .

وآية الأرض بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها .

الثانيــة ـ قوله تعالى : ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ قيل: اختلافهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر من حيث لا يعلم . وقيل : اختلافهما فى الأوصاف من النور والظلمة والطول والقصر . والليل جمع ليلة؛ مثل تمرة وتمر ونخلة ونخل . ويجمع أيضا ليالى وليالٍ بمعنًى، وهو مما شذ عن قياس الجموع ؛ كشَبه ومَشابه وحاجة وحوائج وذكر ومذاكر؛ وكأن ليالى فى القياس جمع ليلاة . وقد استعملوا ذلك فى الشعر قال :

* فى كل يوم وكل ليلاه *

وقال آخر :

فى كلّ يوم ما وكلّ لَيْـلاهْ * حتى يقول كلُّ راءٍ إذ رآهْ

* يا وَيْحَه من جَمَل ما أشْقاهْ *

قال ابن فارس فى المجمل : ويقال إن بعض الطير يسمّى ليلا؛[1] ولا أعرفه . والنهار يجمع نُهُر وأنهرة . قال أحمد بن يحيى ثعلب : نَهَرٌ جمع نُهُر وهو جمع للنهار . وقيل : النهار اسم

(١) فى لسان العرب أن الليل فرخ الكروان .

مفرد لم يجمع لأنه بمعنى المصدر؛ كقولك : الضياء ؛ يقع على القليل والكثير . والأول أكثر ؛ قال الشاعر :

لو لا الثّريدان هلكنا بالضُّمُرْ * ثَرِيدُ لَيْـلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُـرْ

قال ابن فارس : النهر معروف، والجمع نهر وأنهار . ويقال : إن النهار يجمع على النُّهُـر . والنهار ضياء ما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس . ورجل نَهِرٌ صاحب نهار . ويقال : إن النهار فرخ الحُبارى . قال النضر بن شميل : أول النهار طلوع الشمس، ولا يعد ما قبل ذلك من النهار . وقال ثعلب : أوله عند العرب طلوع الشمس؛ واستشهد بقول أُميّـة بن أبى الصلت :

والشمس تطلع كلّ آخرِ ليلة * حمراءَ يصبح لونهـا يتورّدُ

وأنشد قول عدىّ بن زيد :

وجاعلُ الشمس مِصرًا[1] لاخفاء به * بين النهار وبين الليل قد فَصَلا

وأنشد الكسائىّ :

إذا طلعت شمس النهار فإنها * أمارة تسليمى عليك فسلّمى

قال الزجاج فى كتاب الأنواء : أول النهار ذرور الشمس . وقسّم ابن الأنبـارىّ الزمن ثلاثة أقسام: قسما جعله ليلا محضا؛ وهو من غروب الشمس الى طلوع الفجر . وقسما جعله نهارا محضا ؛ وهو من طلوع الشمس الى غروبها . وقسما جعله مشتركا بين النهار والليـل ؛ وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل ومبادئ ضوء النهار .

قلت : والصحيح أن النهار من طلوع الفجر الى غروب الشمس ؛ كما رواه ابن فارس فى المجمل . يدل عليه ما ثبت فى صحيح مسلم عن عدىّ بن حاتم قال : لمـا نزلت ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ قال له عدىّ : يا رسـول الله ، إنى أجعل تحت وسادتى عقالين : عقالا أبيض، وعقالا أسود أعرف بهما الليل من النهار . فقال

(١) المصر الحاجز بين الشيئين .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "إن وسادك لعريض إنما هو سواد الليل وبياض النهار".
فهذا الحديث يقضي أن النهار من طلوع الفجر الى غروب الشمس ؛ وهو مقتضى الفقه في الأيمان، وبه ترتبط الأحكام . فمن حلف ألّا يكلم فلانا نهارا، فكلمه قبل طلوع الشمس حنث . وعلى الأول لا يحنث . وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الفيصل في ذلك والحَكَم .
وأما على ظاهر اللغة وأخذه من السّعة، فهو من وقت الإسفار إذا اتسع، وقتَ النهار، كما قال:

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها * يرى قائم من دونها ما وراءها

وقد جاء عن حذيفة ما يدل على هذا القول؛ خرّجه النسائي . وَسيأتي في آي الصيام إن شاء الله تعالى .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ الفلك : السفن، وإفراده وجمعه بلفظ واحد، ويذكر ويؤنث . وليست الحركات في المفرد تلك بأعيانها في الجمع ، بل كأنه بنى الجمع بناء آخر، يدلّ على ذلك توسط التثنية في قولهم : فُلْكان . والفلك المفرد مذكر، قال الله تعالى : ﴿ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ فجاء به مذكرا . وقال : ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ فأنث . ويحتمل واحدا وجمعا . وقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ فجمع، فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة الى المَركَب فيذكر، والى السفينة فيؤنث . وقيل: واحده فَلَك ؛ مثل أَسَد وأُسْد، وخَشَب وخُشْب .

وأصله من الدَّوران ؛ ومنه : فلك السماء الذي تدور عليه النجوم . وفَلَّكَت الجارية : استدار ثديها، ومنه فَلْكة المِغزَل . وسميت السفينة فُلْكا لأنها تدور بالماء أسهل دور .

ووجه الآية في الفلك تسخير الله إياها حتى تجري على وجه الماء ووقوفها فوقه مع ثقلها . وأوّل من عملها نوح عليه السلام كما أخبر تعالى، وقال له جبريل : اصنعها على جؤجؤ(1) الطائر، فعملها نوح عليه السلام وراثة في العالمين بما أراه جبريل . فالسفينة طائر مقلوب والماء في أسفلها نظير الهواء في أعلاها . قاله ابن العربي .

(1) الجؤجؤ : عظام صدر الطائر .

الرابعـة — هذه الآية وما كان مثلها دليـل على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة كان أو عبـادة ، كالحج والجهاد . ومن السّـنة حديث أبي هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : يارسول الله ، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ، الحديث. وحديث أنس بن مالك فى قصـة أمّ حرام ؛ أخرجهما الأئمة : مالك وغيره . روى حديث أنس عنـه جماعة عن إسحاق بن عبـد الله بن أبي طلحة عن أنس ، ورواه بشر بن عمر عن مالك عن إسحاق عن أنس عن أم حرام . جعـله من مسند أم حرام لا من مسـند أنس . هكذا حدّث عنـه به بندار محمـد بن بشار ؛ ففيه دليـل واضح على ركوب البحر فى الجهاد للرجال والنساء . وإذا جاز ركوبه للجهاد فركوبه للحج المفترض أولى وأوجب . وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبـد العزيز رضى الله عنهما المنع من ركوبه . والقرآن والسـنة يرد هـذا القول ؛ ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم الذين قالوا له : إنا نركب البحر . وهذه الآية وما كان مثلها نص فى الغرض وإليهـا المفزع . وقد تؤوّل ما روى عن العمرين فى ذلك : بأن ذلك محمول على الاحتياط وترك التغرير بالمهج فى طلب الدنيا والاستكثار منها . وأما فى أداء الفرائض فلا . ومما يدل على جواز ركوبه من جهة المعنى أن الله تعـالى ضرب البحر وسط الأرض وجعـل الخلق فى العُـدْوتين [1] ، وقسم المنافع بين الجهتين فلا يوصل إلى جلبها إلا بشق البحر لهـا ؛ فسهل الله سبيله بالفلك . قاله ابن العربى . قال أبو عمر : وقد كان مالك يكره للمرأة الحج فى البحر وهو للجهاد لذلك أكره . والقرآن والسنة ترد قوله ، إلا أن بعض أصحابنا من أهل البصرة قال : إنمـا كره ذلك مالك لأن السفن بالحجـاز صغار ، والنساء لا يقدرن على الاستتار عنـد الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيهـا ؛ وكان الطريق من المدينـة إلى مكة على البـر ممكنا ، فلذلك كره مالك ذلك . وأما السّفن الكبار نحو سفن أهل البصرة فليس بذلك بأس . قال : والأصل أن الحج على كل

(١) العدوة : شاطئ الوادي .

من استطاع اليــه سبيلا من الأحرار البالغين نساء كانوا أو رجالا إذا كان الأغلب من الطريق الأمن؛ ولم يخص بحرا من برّ .

قلت : فدل الكتاب والســنة والمعنى على إباحة ركوبه للمعنيين جميعا : العبادة والتجارة؛ فهى الحجة وفيها الأسوة ؛ إلا أنّ الناس فى ركوب البحر تختلف أحوالهم؛ فرب راكبٍ سَهُل عليه ذلك ولا يشق، وآخر يشق عليه ويضعف به؛ كالمـائد[1] المفرط الميد، ومَن لم يقدر معه على أداء فرض الصلاة ونحوها من الفرائض ؛ فالأوّل ذلك له جائز، والثانى يحرم عليه ويمنع منه . ولا خلاف بين أهل العلم وهى :

الخامســـة ــ إن البحر إذا ارتج لم يجز ركوبه لأحد بوجه من الوجوه فى حين ارتجاجه ولا فى الزمن الذى الأغلب فيه عدم السلامة . وإنمـا يجوز عندهم ركوبه فى زمن تكون السلامة فيه الأغلب؛ فان الذين يركبونه حال السـلامة وينجون لا حاصر لهم، والذين يهلكون فيه محصورون .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ بِمَـا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ أى بالذى ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التى تصلح بهـا أحوالهم . وبركوب البحر تكتسب الأرباح ، وينتفع من يحمل إليه المتاع أيضا . وقد قال بعض من طعن فى الدِّين : إن الله تعالى يقول فى كتابكم : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ فأين ذكر التوابل المصلحة للطعام من الملح والفلفل وغير ذلك . فقيل له فى قوله : ﴿ بِمَـا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ .

السابعــــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ يعنى بها الأمطار التى بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق، وجعل منه المخزون عُدّة للانتفاع فى غير وقت نزوله؛ كما قال تعالى : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ ﴾ .

الثامنــــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى فرّق ونشر؛ ومنه ﴿ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ . ودابة تجمع الحيوان كله . وقد أخرج بعض الناس الطير؛ وهو مردود، قال الله

(١) المائد : الذى ركب البحر فتغثى نفسه حتى يدار به و يكاد يغشى عليه .

تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فإن الطير يدب على رجليه فى بعض حالاته ؛ قال الأعشى :

* دَبِيبَ قطا البطحاء فى كل مَنْهل *

وقال علقمة بن عَبَدَة :

* صَــواعِقُها لطَــيْرِهنّ دَبِيب *

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ تصريفها إرسالها عقيما ومُلْقِحة وصرّا ونصرا وهلاكا وحارّة وباردة ولينة وعاصفة . وقيل : تصريفها إرسالها جنوبا وشمالا ودبورا وصبا ونكباء : وهى التى تأتى بين مهبى ريحين . وقيل : تصريفها أن تأتى السفن الكبار بقدر ما تحملها ، والصغار كذلك ؛ و يصرف عنهما ما يضربهما ، ولا اعتبار بكبر القلوع ولا صغرها ؛ فإن الريح لو جاءت جسـدا واحدا لصدمت القلوع وأغرقت . والرياح جمع ريح سميت به لأنهـا تأتى بالروح غالبا ؛ روى أبو داود عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "الريح من روح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسئلوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها"(١) . وأخرجه أيضا ابن ماجه فى سننه حدّثنا أبو بكر ابن أبى شـيبة حدّثنـا يحى بن سـعيد عن الأوزاعى عن الزهرى حدّثنـا ثابت الزرقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صـلّى الله عليه وسـلّم . "لا تسبّوا الريح فإنها من روح الله تأتى بالرحمة والعـذاب ولكن سـلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها" . وروى عن النبيّ صـلى الله عليـه وسـلم أنه قال : "لا تسـبوا الريح فإنها من نَفَس الرحمن" . المعنى أن الله تعالى جعل فيها التفريج والتنفيس والترويح ؛ والإضافة من طريق الفعل ، والمعنى : أن الله تعالى جعلها لذلك . وفى صحيح مسـلم عن ابن عباس عن النبيّ صـلى الله عليه وسـلّم أنه قال : "نُصِرْتُ بالصبـا وأُهلِكتْ عاد بالدبور" . وهـذا معنى ماجاء فى الخبر أن الله

(١) كذا ورد فى سنن أبى داود . والذى فى الأصـول : « الريح من روح الله . قال سلمة : فروح الله عزوجل تأتى ... الخ » . وسلمة أحد من روى عنهم أبو داود هـذا الحديث ، قال أبو داود : حدّثنا أحمد بن محمد المروزى وسلمة يعنى ابن شبيب قالا ... الخ .

سبحانه وتعالى فرج عن نبيه صلى الله عليه وسلم بالريح يوم الأحزاب ؛ فقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ . يقال : نفّس الله عن فلان كربة من كرب الدنيا ، أى فرج عنه . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : " من نفّس عن مسلم كُربة من كُرب الدنيا نفّس الله عنه كُربة من كرب يوم القيامة " . أى فرج عنه .

وقال الشاعر :

كأن الصَّبا ريح إذا ما تنسّمت * على قلب مهموم تجلّت همومها

قال ابن الأعرابى : النسيم أوّل هبوب الريح . وأصل الريح روح؛ ولهذا قيل فى جمع القلة : أرواح . ولا يقال : أرياح؛ لأنها من ذوات الواو، وإنما قيل : رياح من جهة الكثرة وطلب تناسب الياء معها . وفى مصحف حفصة « وتصريف الأرواح » .

العاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى « الريح » على الإفراد ، وكذا فى الأعراف والكهف وإبراهيم والنمل والروم وفاطر والشّورى والجاثية . لا خلاف بينهم فى ذلك . ووافقهما ابن كثير فى الأعراف والنمل والروم وفاطر والشورى . وأفرد حمزة « الريح لواقح » . وأفرد ابن كثير « وهو الذى أرسل الريح » فى الفرقان . وقرأ الباقون بالجمع فى جميعها سوى الذى فى إبراهيم والشورى فلم يقرأهما بالجمع سوى نافع . ولم يختلف السبعة فيما سوى هذه المواضع . والذى ذكرناه فى الروم هو الثانى « الذى يرسل الرياح » . ولا خلاف بينهم فى « الرياح مبشرات » . وكان أبو جعفر يزيد بن القعقاع يجمع الرياح إذا كان فيهما ألف ولام فى جميع القرآن؛ سوى «تهوى به الريح» و « الريح العقيم» . فان لم يكن فيه ألف ولام أفرد . فمن وحّد الريح فلأنه اسم جنس يدل على القليل والكثير . ومن جمع فلاختلاف الجهات التى تهب منها الرياح . ومن جمع مع الرحمة ووحّد مع العذاب فإنه فعل ذلك اعتبارا بالأغلب فى القرآن ؛ نحو : « الرياح مبشرات » و « الريح العقيم » فجاءت فى القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب؛ إلا فى يونس فى قوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا هبت الريح : " اللهم

اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا ». وذلك لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد ، وريح الرحمة لينة متقطعة فلذلك هي رياح . فأفردت مع الفلك في يونس ؛ لأن ريح إجراء السفن إنما هي ريح واحدة متصلة ثم وصفت بالطيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب .

الحادية عشرة — قال العلماء : الريح تحرك الهواء ، وقد يشتد ويضعف . فاذا بدت حركة الهواء تجاه القبلة قيل لتلك الريح : «الصبا» . واذا بدت حركة الهواء من وراء القبلة ذاهبة الى تجاه القبلة قيل لتلك الريح : « الدبور » . وإذا بدت حركة الهواء عن يمين القبلة ذاهبة إلى يسارها قيل لها : « ريح الجنوب » . وإذا بدت حركة الهواء عن يسار القبلة ذاهبة الى يمينها قيل لها : « ريح الشمال » . ولكل واحدة من هذه الرياح طبع فتكون منفعتها بحسب طبعها ؛ فالصبا حارة يابسة ، والدبور باردة رطبة ، والجنوب حارة رطبة ، والشمال باردة يابسة . واختلاف طباعها كاختلاف طباع فصول السنة ؛ وذلك أن الله تعالى وضع للزمان أربعة فصول مرجعها إلى تغير أحوال الهواء ؛ فجعل الربيع الذي هو أول الفصول حارا رطبا ، ورتب فيه النشء والنمو فتنزل فيه المياه ، وتخرج الأرض زهرتها وتظهر نباتها ، ويأخذ الناس في غرس الأشجار وكثير من الزرع ، وتتوالد فيه الحيوانات وتكثر الألبان . فإذا انقضى الربيع تلاه الصيف الذي هو مشاكل للربيع في إحدى طبيعتيه وهي الحرارة ، ومباين له في الأخرى وهي الرطوبة ؛ لأن الهواء في الصيف حار يابس فتنضج فيه الثمار وتيبس فيه الحبوب المزروعة في الربيع . فاذا انقضى الصيف تبعه الخريف الذي هو مشاكل للصيف في إحدى طبيعتيه وهي اليبس ، ومباين له في الأخرى وهي الحرارة ؛ لأن الهواء في الخريف بارد يابس فيتناهى فيه صلاح الثمار وتيبس وتجف فتصير إلى حال الادخار فتقطف الثمار وتحصد الأعناب وتفرغ من جمعها الأشجار . فاذا انقضى الخريف تلاه الشتاء وهو ملائم للخريف في إحدى طبيعتيه وهي البرودة ، ومباين له في الأخرى وهو اليبس ؛ لأن الهواء في الشتاء بارد رطب فتكثر الأمطار والثلوج وتهمد الأرض كالجسد المستريح

فلا تتحرك إلى أن يعيد الله تبارك وتعالى إليها حرارة الربيع ؛ فاذا اجتمعت مع الرطوبة كان ذلك عيد النشء والنمو بإذن الله سبحانه وتعالى . وقد تهب رياح كثيرة سوى ما ذكرنا إلا أن الأصول هذه الأربعة . فكل ريح تهب بين ريحين فحكمها حكم الريح التى تكون فى هبوبها أقرب الى مكانها وتسمى «النكباء» .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ سُمى السحاب سحابا لانسحابه فى الهواء . وسحبت ذيلى سحبا . وتسحّب فلان على فلان : اجترأ . والسَّحْب شدّة الأكل والشرب . والمسخر : المذلل ؛ وتسخيره بعثه من مكان الى آخر . وقيل : تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق ؛ والأول أظهر . وقد يكون بماء وبعذاب ؛ روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا فى سحابة اسق حديقة فلان فتنحّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حَرّة فإذا شَرْجة(١) من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماء كلّه فتتبّع الماءَ فإذا رجل قائم فى حديقته يحوّل الماء بمسحاته فقال له يا عبد الله ما اسمك قال فلان للاسم الذى سمع فى السحابة فقال له يا عبد الله لِمَ تسألنى عن اسمى فقال إنى سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع [فيها](٢) قال أما اذ قلتَ هذا فإنى أنظر الى مايخرج منها فأتصدّق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثا وأردّ فيها ثلثه " . وفى رواية " وأجعل ثلثه فى المساكين والسائلين وابن السبيل " . وفى التنزيل : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ وقال : ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ . وهو فى التنزيل كثير . وخرج ابن ماجه عن عائشة أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا رأى سحابا مقبلا من أفق من الآفاق ترك ما هو فيه وإن كان فى صلاة حتى يستقبله فيقول : " اللّهم إنا نعوذ بك من شر ما أرسل به " فان أمطر قال : " اللّهم سَيْبا نافعا " مرتين أو ثلاثا ، وإن كشفه الله ولم يمطر حمد الله على ذلك . أخرجه مسلم بمعناه عن عائشة زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالت : كان رسول الله صلّى

(١) الحرة : أرض ذات أحجار سود . والشرجة : طريق الماء ومسيله . (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

الله عليه وسلم إذا كان يوم الريح والغيم عُرِف ذلك فى وجهه وأقبل وأدبر؛ فاذا مَطَرت سُرّ به وذهب عنه ذلك . قالت عائشة : فسألته فقال : "إنى خشيت أن يكون عذابا سُلّط على أمتى" . ويقول اذا رأى المطر : "رحمة" فى رواية فقال : "لعله يا عائشة كما قال قوم عاد فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا" . فهذه الأحاديث والآى تدل على صحة القول الأوّل وأن تسخيرها ليس ثبوتها؛ والله تعالى أعلم .

فإن الثّبوت يدل على عدم الانتقال. فإن أريد بالثّبوت كونها فى الهواء ليست فى السماء ولا فى الأرض فصحيح لقوله : ﴿ بَيْنَ ﴾ وهى مع ذلك مسخرة محمولة . وذلك أعظم فى القدرة كالطير فى الهواء؛ قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾. وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ﴾.

الثالثة عشرة — قال كعب الأحبار : السحاب غربال المطر ، لولا السحاب حين ينزل المـاء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض ؛ رواه عبد الله بن عباس . ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ عن معاذ بن عبد الله بن خُبيب الجهنىّ قال : رأيت ابن عباس مرّ على بغلة وأنا فى بنى سلمة فمرّ به تُبَيع ابن امرأة كعب فسلّم على ابن عباس فسأله ابن عباس : هل سمعت كعب الأحبار يقول فى السحاب شيئا ؟ قال : نعم؛ قال : السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل المـاء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض . قال : سمعتَ كعبا يقول فى الأرض تنبت العام نباتا وتنبت عاما قابلا غيره؟ قال : نعم، سمعته يقول : إن البذر ينزل من السماء . قال ابن عباس : وقد سمعت ذلك من كعب .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات تدلّ على وحدانيته وقدرته؛ ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ليدل بها على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه وذكر رحمته ورأفته بخلقه . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ويل لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها" أى لم يتفكر فيها ولم يعتبرها .

فإن قيل : فما أنكرت أنها أحدثت أنفسها . قيل له : هـذا محال؛ لأنها لو أحدثت أنفسها لم تخـل من أن تكون أحدثتها وهي موجودة أو هي معدومة . فان أحدثتها وهي معدومة، كان محالا؛ لأن الإحداث لا يتأتى إلا من حيّ عالم قادر مريد ، وما ليس بموجود لا يصح وصفه بذلك . وإن كانت موجودة فوجودها يغني عن إحداث أنفسها . وأيضا فلو جاز ما قالوه لجاز أن يحدث البناء نفسه؛ وكذلك النجارة والنسج . وذلك محال وما أدّى الى المحال محال . ثم أن الله تعالى لم يقتصر بها في وحدانيته على مجرد الاخبار حتى قرن ذلك بالنظر والاعتبار في آي القرآن؛ فقال لنبيه صلى الله عليه وسلّم : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ ﴾. والخطاب للكفار؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يعني بالملكوت الآيات . وقال : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يقول : أو لم ينظروا في ذلك نظر تفكّر وتدبّر حتى يستدلوا بكونها محلا للحوادث والتغييرات على أنها محدثات والمحدث لا يستغني عن صانع يصنعه وأن ذلك الصانع حكيم عالم قدير سميع بصير متكلم؛ لأن لو لم يكن بهذه الصفات لكان الإنسان أكمل منه وذلك محال . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ يعني آدم عليه السلام . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾ أي جعلنا نسله وذريته ﴿ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ تُبْعَثُونَ ﴾ . فالإنسان إذا تفكّر بهذا التنبيه بما جعل له من العقل في نفسه رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرّفة . كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظما ؛ فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال ؛ لأنه لا يقدر على أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل التي هي كمال عقله وبلوغ أشدّه عضوا من الأعضاء، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة؛ فيدله ذلك على أنه في حال نقصه وأوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز، وقد يرى نفسه شابا ثم كهلا ثم شيخا وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلى حال الشيخوخة والهرم ، ولا اختاره لنفسه ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ويراجع قوة الشباب؛ فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعا صنعه وناقلا نقله من حال الى حال ؛

ولولا ذلك لم تتبدّل أحواله بلا ناقل ولا مدبّر . وقال بعض الحكماء : إن كل شيء فى العالم الكبير له نظير فى العالم الصغير الذى هو بدن الانسان؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وقال : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . فحواس الانسان أشرف من الكواكب المضيئة، والسمع والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر فى إدراك المدركات بها ، وأعضاؤه تصير عند البلى ترابا من جنس الأرض. وفيه من جنس الماء العرق وسائر رطوبات البدن . ومن جنس الهواء فيه الروح والنفس . ومن جنس النار فيه المرّة الصفراء . وعروقه بمنزلة الأنهار فى الأرض . وكبده بمنزلة العيون التى تستمدّ منها الأنهار؛ لأن العروق تستمد من الكبد. ومثانته بمنزلة البحر؛ لانصباب ما فى أوعية البدن إليها كما تنصب الأنهار الى البحر . وعظامه بمنزلة الجبال التى هى أوتاد الأرض . وأعضاؤه كالأشجار كما أن لكل شجر ورقا أو ثمرا فكذلك لكل عضو فعل أو أثر . والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض . ثم إن الإنسان يحكى بلسانه كل صوت حيوان ويحاكى بأعضائه صنيع كل حيوان؛ فهو العالم الصغير مع العالم الكبير مخلوق محدث لصانع واحد؛ لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَنْدَادًا ﴾ الآية . لما أخبر الله سبحانه وتعالى فى الآية قبل ما دلّ على وحدانيته وقدرته وعظم سلطانه أخبر أن مع هذه الآيات القاهرة لذوى العقول من يتخذ معه أندادا . وواحدها نِدّ . وقد تقدم . والمراد الأوثان والأصنام التى كانوا يعبدونها كعبادة الله مع عجزها؛ قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ أى يحبون أصنامهم على الباطل كحب المؤمنين لله على الحق؛ قاله المبرد . وقال معناه الزجاج ، أى أنهم مع عجز الأصنام يحبونهم كحب المؤمنين لله على الحق مع قدرته. وقال ابن عباس والسدّى : المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون؛ يطيعونهم فى معاصى الله. وجاء الضمير فى «يحبونهم» على هذا على الأصل، وعلى الأول جاء ضمير الأصنام ضمير من يعقل على غير الأصل . وقال ابن كيسان والزجاج أيضا : معنى « يحبونهم كحب الله » أى يسوّون بين الأصنام وبين الله تعالى فى المحبة . قال أبو إسحاق : وهذا القول الصحيح؛

والدليل على صحته : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ وقرأ أبو رجاء « يحبونهم » بفتح الياء . وكذلك ما كان منه فى القرآن ؛ وهى لغة ؛ يقال : حببت الرجل فهو محبوب . قال الفراء : أنشدنى أبو تراب :

أحبّ لحبها السودان حتى * حببت لحبها سود الكلابِ

ومَنْ، فى قوله :﴿ مَنْ يَتَّخِذُ ﴾ فى موضع رفع بالابتداء. ويتخذ على اللفظ، ويجوز فى غير القرآن « يتخذون » على المعنى . ويحبونهم على المعنى، ويحبهم على اللفظ ، وهو فى موضع نصب على الحال من الضمير الذى فى يتخذ ، أى محبين . وإن شئت كان نعتا للأنداد، أى محبوبة . والكاف من « كحب » نعت لمصدر محذوف ، أى يحبونهم حبا كحبّ الله . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ أى أشدّ من حب أهل الأوثان لأوثانهم والتابعين لمتبوعهم . وقيل : إنما قال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ لأن الله تعالى أحبهم، أو لأنهم أحبوه . ومن شهد له محبوبه بالحب كانت محبته أتم؛ قال الله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ . وسيأتى بيان حبّ المؤمنين لله وحبه لهم فى سورة آل عمران إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ قراءة أهل المدينة وأهل الشام بالتاء ، وأهل مكة وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء؛ وهو اختيار أبى عبيد . وفى الآية إشكال وحذف؛ فقال أبو عبيد : المعنى لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه أن القوة لله جميعا . و « يرى » على هذا من رؤية البصر . قال النحاس فى كتاب «معانى القرآن» له : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير. وقال فى كتاب «إعراب القرآن» له : وروى عن محمد بن يزيد أنه قال : هذا التفسير الذى جاء به أبو عبيد بعيد وليست عبارته فيه بالجيدة؛ لأنه يقدر : ولو يرى الذين ظلموا العذاب؛ فكأنه يجعله مشكوكا فيه وقد أوجبه الله تعالى . ولكن التقدير وهو قول الأخفش : ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله . ويرى بمعنى يعلم، أى لو يعلمون حقيقة قوة الله عز وجل وشدة عذابه . فيرى واقعة على أن القوة لله ، وسدّت مسدّ المفعولين . والذين فاعل يرى . وجواب لو محذوف ، أى تبينوا ضرر

آتخاذهم الآلهة؛ كما قال عز وجل . ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ ولم يأت للو جواب . قال الزهرى وقتادة : الإضمار أشد للوعيد؛ ومثله قول القائل : لو رأى فلان فلانا والسياط تأخذه ! ومن قرأ بالتاء فالتقدير : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم واستعظامهم لأقروا أن القوة لله . فالجواب مضمر على هذا النحو من المعنى وهو العامل فى أن . وتقدير آخر : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعا . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم علم ذلك، ولكن خوطب والمراد أمته؛ فان فيهم من يحتاج إلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هذا . ويجوز أن يكون المعنى : قل يا محمد للظالم هذا . وقيل : أنَّ فى موضع نصب مفعول من أجله ، أى لأن القوة لله جميعا . وأنشد سيبويه :

وأغفرُ عوراءَ الكريم ادّخارَه * وأعرِضُ عن شتم اللئيم تكرّما

أى لادخاره، والمعنى : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال ولاستعظمت ما حلّ بهم . ودخلت « إذ » وهى لما مضى فى إثبات هذه المستقبلات تقريبا للأمر وتصحيحا لوقوعه . وقرأ ابن عامر وحده « يرون » بضم الياء ، والباقون بفتحها . وقرأ الحسن ويعقوب وشيبة وسلام وأبو جعفر « إن القوة ، وإن الله » بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف أو على تقدير القول؛ أى ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب يقولون إن القوة لله . وثبت بنص هذه الآية القوة لله بخلاف المعتزلة فى نفيهم معانى الصفات القديمة؛ تعالى الله عن قولهم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا ﴾ يعنى السادة والرؤساء تبرءوا ممن اتبعهم على الكفر؛ عن قتادة وعطاء والربيع . وقال قتادة أيضا والسّدى : هم الشياطين المضلون تبرءوا من الإنس . وقيل : هو عام فى كل متبوع . ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعنى التابعين والمتبوعين؛ قيل : بتيقنهم له عند المعاينة فى الدنيا . وقيل : عند العرض والمساءلة فى الآخرة .

قلت : كلاهما حاصل فيهم ، يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان ، وفي الآخرة يذوقون أليم العذاب والنكال .

قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ أى الوُصُلات التى كانوا يتواصلون بها فى الدنيا من رَحِم وغيره . الواحد سبب ووصلة . وأصله الحبل يشد بالشيء فيجذبه ؛ ثم جعل كل ما جَرّ شيئا سببا . وقال السدى وابن زيد : إن الأسباب أعمالهم . والسبب الناحية ؛ ومنه قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه * ولو رام أسبابَ السماء بسُلّم

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ أنّ فى موضع رفع ، أى لو ثبت أن لنا رجعة ﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ جواب التمنى . والكرّة : الرجعة والعودة إلى حال قد كانت ، أى قال الأتباع : لو رُددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحا ونتبرأ منهم كما تبرءوا منا . أى تبرءوا كما ؛ فالكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف . ويجوز أن يكون نصبا على الحال ، تقديرها متبرئين ؛ والتبرؤ الانفصال .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الكاف فى موضع رفع ، أى الأمر كذلك . أى كما أراهم الله العذاب كذلك يريهم الله أعمالهم . و﴿ يُرِيهِمُ اللَّهُ ﴾ قيل : هى من رؤية البصر ؛ فيكون متعديا لمفعولين ، الأولى الهاء والميم فى يريهم ، والثانى أعمالهم ؛ فيكون « حسرات » حال . ويحتمل أن يكون من رؤية القلب ؛ فتكون «حسرات» المفعول الثالث . ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قال الربيع : أى الأعمال الفاسدة التى ارتكبوها فوجبت لهم بها النار . وقال ابن مسعود والسّدى : الأعمال الصالحة التى تركوها ففاتتهم الجنة . ورويت فى هذا القول أحاديث . قال السّدى : ترفع لهم الجنة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله تعالى ، ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يندمون . وأضيفت هذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها ، وأما إضافة الأعمال الفاسدة إليهم فمن حيث عملوها . والحسرة واحدة الحسرات ، كتمرة وتمرات ، وجفنة وجفنات ، وشهوة وشهوات ؛ هذا إذا كان اسما ، فإن نعتّه سكّنت ، كقولك :

ضخمة وضخمات، وعبلة وعبلات . والحسرة أعلى درجات الندامة على شيء فائت . والتحسر التلهف. يقال : حسرت عليه بالكسر أحسر حسرا وحسرة . وهى مشتقة من الشيء الحسير الذى قد انقطع وذهبت قوته كالبعير . وقيل : هى مشتقة من حسر إذا كشف؛ ومنه الحاسر فى الحرب الذى لا درع معه؛ فالانحسار الانكشاف .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ دليل على خلود الكفار فيها وأنهم لا يخرجون منها . وهذا قول جماعة أهل السنة؛ لهذه الآية ولقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ . وسيأتى .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ فيه أربع مسائل .

الأولى — قوله : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الآية . قيل: إنها نزلت فى ثقيف وخزاعة وبنى مدلج فيما حرموه على أنفسهم من الأنعام . واللفظ عام . والطيب هنا الحلال؛ فهو تأكيد لاختلاف اللفظ؛ وهذا قول مالك فى الطيب . وقال الشافعى : الطيب المستلذ؛ فهو تنويع ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر . وسيأتى بيان هذا فى الأنعام والأعراف إن شاء الله تعالى .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ حلالا حال . وقيل مفعول . سمى الحلال حلالا لانحلال عقدة الحظر عنه . قال سهل بن عبد الله : النجاة فى ثلاثة؛ أكل الحلال، وأداء الفرائض، والاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم . وقال أبو عبد الله الساجى واسمه سعيد ابن يزيد: خمس خصال بها تمام العلم؛ وهى معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال؛ فإن فقدت واحدة لم يرفع العمل . قال سهل : ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون المال حلالا حتى يصفو من ست خصال : الربا والحرام والسحت وهو اسم مجمل والغلول والمكروه والشبهة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ﴾ نهى ﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ خطوات جمع خطوة وخطوة بمعنى واحد . قال الفراء . خطوات جمع خطوة بالفتح . وخطوة بالضم : ما بين القدمين . وقال الجوهرى : وجمع القلة خطوات وخطوات وخطوات، والكثير خطا .

والخطوة بالفتح المرة الواحدة ، والجمع خطوات (بالتحريك) وخِطاء ؛ مثل رَكْوة ورِكَاء ؛ قال امرؤ القيس :

لها وَثَبات كَوَثْب الظِّباءْ * فوادٍ خِطاءٌ ووادٍ مَطَـرْ

وقرأ أبو السَّمَّال(١) وعبيد بن عمير « خطوات » بفتح الخاء والطاء . وروى عن على ابن أبى طالب وقتادة والأعرج وعمرو بن ميمون والأعمش « خطؤات » بضم الخاء والطاء والهمزة على الواو . قال الأخفش : وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطيئة من الخطأ لا من الخطو . والمعنى على قراءة الجمهور : ولا تقفوا أثر الشيطان وعمله ؛ وما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان . قال ابن عباس : أعماله . مجاهد : خطاياه . السدى : طاعته . أبو مجلز : هى النذور فى المعاصى .

قلت ـ والصحيح أن اللفظ عام فى كل ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصى . وتقدم القول فى الشيطان مستوفى .

الرابعة ـ قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أخبر تعالى بأن الشيطان عدو ، وخبره حق وصدق ؛ فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذى قد أبان عداوته من زمن آدم ، وبذل نفسه وعمره فى إفساد أحوال بنى آدم ؛ وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال جلّ من قائل : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ . ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وقال : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ وقال : ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ وقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . وهذا غاية فى التحذير ، ومثله فى القرآن كثير . وقال عبد الله

---

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام) هو قعنب بن أبى قعنب العدوى البصرى ؛ له اختيار فى القراءات شاذ عن العامة ؛ ذكرها فى الأصول وفيا مضى مختصرا .

ابن عمر : إن إبليس موثق فى الأرض السفلى ، فإذا تحرك فإن كل شرّ فى الأرض بين اثنين فصاعدا من تحركه . وخرّج الترمذىّ من حديث أبى مالك الأشعرى وفيه : " وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدوّ فى أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله " الحديث . وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى . ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ سمى السّوء سوأ لأنه يسوء صاحبه بسوء عواقبه . وهو مصدر ساء يسوء سوأ ومساءة إذا أحزنه . وسؤته فسىء إذا أحزنته فحزن ؛ قال الله تعالى : ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . وقال الشاعر :

إن يك هذا الدهر قد ساءنى * فطالما قد سرّنى الدهر

الأمر عندى فيهما واحد * لذاك شكر ولذاك صبر

والفحشاء أصله قبح المنظر؛ كما قال :

* وجيد كجيد الرّيم[1] ليس بفاحش *

ثم استعملت اللفظة فيما يقبح من المعانى ، والشرع هو الذى يحسن ويقبح ؛ فكل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء . وقال مقاتل : إن كل ما فى القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنا إلا قوله : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ فإنه منع الزكاة .

قلت : فعلى هذا قيل : السوء ما لاحدّ فيه ، والفحشاء ما فيه حدّ . وحُكى عن ابن عباس وغيره ؛ والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الطبرى : يريد ما حرموا من البحيرة والسائبة ونحوها مما جعلوه شرعا . وأن تقولوا ، فى موضع خفض على قوله تعالى : بالسوء والفحشاء .

---

(١) الريم : الظبي الأبيض الخالص البياض .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ يَهْتَدُونَ ﴾ . فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ يعنى كفار العرب . ابن عباس : نزلت فى اليهود . الطبرى : الضمير فى «لهم» عائد على الناس من قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا ﴾ وقيل : هو عائد على «من» فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أى بالقبول والعمل . ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ ألفينا : وجدنا . وقال الشاعر :

فألفيتـه غير مستعتب * ولا ذاكر الله إلا قليلا

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ ﴾ الألف للاستفهام ، وفتحت الواو لأنها واو عطف ، عطفت جملة كلام على جملة ؛ لأن غاية الفساد فى الالتزام أن يقولوا : نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون ؛ فقرّروا على التزامهم هذا ، إذ هى حال آبائهم .

مسـألة — قال علماؤنا : وقوة ألفاظ هـذه الآية تعطى إبطال التقليد ، ونظيرها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ الآية . وهـذه الآية والتى قبلها مرتبطة بما قبلهما ؛ وذلك أن الله سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تحكمت فيه بآرائها السفيهة فى البحيرة والسائبة والوصيلة ؛ فاحتجوا بأنه أمرٌ وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم فى ذلك ، وتركوا ما أنزل الله على رسـوله وأمر به فى دينه : فالضمير فى «لهم» عائد عليهم فى الآيتين جميعا .

الثالثة — تعلّق قوم بهذه الآية فى ذمّ التقليد لذمّ الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم فى الباطل واقتدائهم بهـم فى الكفر والمعصية ؛ وهذا فى الباطل صحيح . أما التقليد فى الحق فأصل من أصول الدين ، وعصمة من عِصَم المسلمين يلجأ إليها الجاهل المقصّر عن درك النظر .

واختلف العلماء فى جوازه فى مسائل الأصول على ما يأتى ؛ وأما جوازه فى مسائل الفروع فصحيح .

الرابعة — التقليد عند العلماء حقيقته قبول قول بلا حجة ؛ وعلى هذا فمن قَبِل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير نظر فى معجزته يكون مقلدا ، وأما من نظر فيها فلا يكون مقلدا .
وقيل : هو اعتقاد صحة فُتيا من لا يعلم صحة قوله . وهو فى اللغة مأخوذ من قلادة البعير ؛ فإن العرب تقول : قلدت البعير إذا جعلت فى عنقه حبلا يقاد به ؛ فكأن المقلد يجعل أمره كله لمن يقوده حيث شاء ؛ وكذلك قال شاعرهم :

وقلِّدوا أمركم لله دَرّكُمُ * ثَبْتَ الجَنان بأمر الحرب مضطلعا

الخامسة — التقليد ليس طريقا للعلم ولا موصلا له ، لا فى الأصول ولا فى الفروع ؛ وهو قول جمهور العقلاء والعلماء ؛ خلافا لما يحكى عن جهال الحشوية والثعلبية من أنه طريق إلى معرفة الحق ، وأن ذلك هو الواجب ، وأن النظر والبحث حرام . والاحتجاج عليهم فى كتب الأصول .

السادسة — فرض العامى الذى لا يشتغل باستنباط الأحكام من أصولها لعدم أهليته ، فيما لا يعلمه من أمر دينه ويحتاج إليه ، أن يقصد أعلم من فى زمانه وبلده فيسأله عن نازلته فيمتثل فيها فتواه ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وعليه الاجتهاد فى أعلم أهل وقته بالبحث عنه ، حتى يقع عليه الاتفاق من الأكثر من الناس وعلى العالم أيضا فرض أن يقلد عالما مثله فى نازلة خفى عليه فيها وجه الدليل والنظر ، وأراد أن يجدد الفكر فيها والنظر حتى يقف على المطلوب ، فضاق الوقت عن ذلك ، وخاف على العبادة أن تفوت ، أو على الحكم أن يذهب سواء كان ذلك المجتهد الآخر صحابيا أو غيره ؛ وإليه ذهب القاضى أبو بكر وجماعة من المحققين .

السابعة — قال ابن عطية : أجمعت الأمة على إبطال التقليد فى العقائد . وذكر فيه غيره خلافا كالقاضى أبى بكر بن العربى وأبى عمرو عثمان بن عيسى بن درباس الشافعى . قال ابن درباس فى كتاب «الانتصار» له : وقال بعض الناس يجوز التقليد فى أمر التوحيد ؛ وهو خطأ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ . فذمهم بتقليدهم آباءهم وتركهم اتباع

الرسل؛ كصنيع أهل الأهواء فى تقليدهم أباءهم وتركهم اتباع محمد صلى الله عليه وسلم فى دينه؛ ولأنه فرض على كل مكلف تعلم أمر التوحيد والقطع به ؛ وذلك لا يحصل إلا من جهة الكتاب والسنة كما بيناه فى آية التوحيد، والله يهدى من يريد .

قال ابن درباس : وقد أكثر أهل الزيغ القول على من تمسك بالكتاب والسنة أنهم مقلدون، وهذا خطأ منهم بل هو بهم أليق و بمذاهبهم أخلق؛ إذ قبلوا قول ساداتهم وكبرائهم فيما خالفوا فيه كتاب الله وسنة رسوله و إجماع الصحابة رضى الله عنهم؛ فكانوا داخلين فيمن ذمهم الله بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ كَبِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ ثم قال لنبيه : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ثم قال لنبيه عليه السلام: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ الآية . فبيّن تعالى أن الهدى فيما جاءت به رسله عليهم السلام . وليس قولُ أهل الأثر فى عقائدهم: إنا وجدنا أئمتنا وآباءنا والناس على الأخذ بالكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح من الأمة ، من قولهم : إنا وجدنا آباءنا وأطعنا سادتنا وكبراءنا ، بسبيل ؛ لأن هؤلاء نسبوا ذلك إلى التنزيل وإلى متابعة الرسول . وأولئك نسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل، فازدادوا بذلك فى التضليل؛ ألا ترى أن الله سبحانه أثنى على يوسف عليه السلام فى القرآن حيث قال : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾. فلما كان آباؤه عليه وعليهم السلام أنبياء متبعين للوحى وهو الدين الخالص الذى ارتضاه الله ، كان اتباعه آباءه من صفات المدح . ولم يجئ فيما جاءوا به ذكر الأعراض وتعلقها بالجواهر وانقلابها فيها؛ فدل على ألا هدى فيها ولا رشد فى واضعيها .

قال ابن الحصار : و إنما ظهر التلفظ بها زمن المأمون بعد المائتين لما ترجمت كتب الأوائل وظهر فيها اختلافهم فى قدم العالم وحدوثه، واختلافهم فى الجوهر وثبوته، والعرض وماهيته ؛ فسارع المبتدعون ومن فى قلبه زيغ إلى حفظ تلك الاصطلاحات، وقصدوا بها

الإغراب على أهل السنة، و إدخال الشبه على الضعفاء من أهل الملة؛ فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البدعة، وصارت للمبتدعة شيعة، وآلتبس الأمر على السلطان، حتى قال الأمير بخلق القرآن، وجبر الناس عليه، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك .

فانتدب رجال من أهل السنة كالشيخ أبى الحسن الأشعرى وأبى عبد الله بن كُلّاب وابن مجاهد والمحاسبي وأضرابهم ، فخاضوا مع المبتدعة فى اصطلاحاتهم، ثم قاتلوهم وقتلوهم بسلاحهم . وكان من درج من المسلمين من هذه الأمة متمسكين بالكتاب والسنة، معرضين عن شبه الملحدين، لم ينظروا فى الجوهر والعرض . على ذلك كان السلف .

قلت : ومن نظر الآن فى اصطلاح المتكلمين حتى يناضل بذلك عن الدين فمنزلته قريبة من النبيين. فأما من يهجن من غلاة المتكلمين طريق من أخذ بالأثر من المؤمنين، ويحض على درس كتب الكلام، وأنه لا يعرف الحق إلا من جهتها بتلك الاصطلاحات فصاروا مذمومين لنقضهم طريق المتقدمين من الأئمة الماضين . والله أعلم . وأما المخاصمة والجدال بالدليل والبرهان فذلك بيّن فى القرآن . وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾ شبّه تعالى واعظ الكفار وداعيهم وهو محمد صلّى الله عليه وسلّم بالراعى الذى ينعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تفهم ما يقول . هكذا فسره ابن عباس ومجاهد وعكرمة والزجاج والفرّاء وسيبويه ؛ وهذه نهاية الإيجاز . قال سيبويه : ولم يشبّهوا بالناعق إنما شبهوا بالمنعوق به . والمعنى : ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التى لا تفهم؛ فحذف لدلالة المعنى . وقال ابن زيد : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلهة من الجماد كمثل الصائح فى جوف الليل فيجيبه الصدى؛ فهو يصيح بما لا يسمع، ويجيبه ما لا حقيقة فيه ولا منتفع . وقال قطرب : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم ما لا يفهم، يعنى الأصنام، كمثل الراعى إذا نعق بغنمه وهو لا يدرى أين هى . قال الطبرى : المراد مثل الكافرين فى دعائهم آلهتهم كمثل الذى ينعق بشيء بعيد فهو لا يسمع من أجل البعد؛ فليس للناعق من ذلك إلا النداء الذى يتعبه

وينصبه . ففى هذه التأويلات الثلاثة يشبه الكفار بالناعق الصائح، والأصنام بالمنعوق به .
والنعيق : زجر الغنم والصياح بها؛ يقال : نعق الراعى بغنمه ينعق نعيقا ونعاقا ونَعقانا أى صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

انعــق بضأنك يا جرير فإنما * منّتك نفسُك فى الخلاء ضلالا

قال القُتَبى : لم يكن جرير راعى ضأن، وإنما أراد أن بنى كُلَيب يُعيَّرون برعى الضأن، وجرير منهم؛ فهو فى جهلهم . والعرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهل ويقولون : «أجهل من راعى ضأن» . قال القُتَبى : ومن ذهب الى هـذا فى معنى الآية كان مذهبا ، غير أنه لم يذهب إليه أحد من العلماء فيما نعلم .

والنداء للبعيد، والدعاء للقريب؛ ولذلك قيل للأذان بالصلاة نداء لأنه للأباعد . وقد تضم النون فى النداء والأصل الكسر . ثم شبّه تعالى الكافرين بأنهم صمّ بكم عمى . وقد تقدّم فى أوّل السورة .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ هذا تأكيد للأمر الأوّل ، وخص المؤمنين هنا بالذكر تفضيلا . والمراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه . وقيل : هو الأكل المعتاد . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "[أيها الناس](١) إنّ الله تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلّا طَيِّبًا . وإنّ الله امر المؤمنين بما أمر به المُرسلين قال الله تعالى يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وقال يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ثم ذكر الرَّجُلَ يُطِيلُ السفر أَشْعَثَ أغبر يمدّ يديه الى السماء يا ربِّ يا ربِّ ومطعمه حرام وملبسه حرام [وغُذِى بالحرام](١) فأنّى يُسْتَجابُ لذلك" . ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ تقدّم معنى الشكر فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فيه أربع وثلاثون(٢) مسئلة :

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . كتاب الزكاة . (٢) الذى سيأتى ثلاث وثلاثون مسئلة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ إنما ، كلمة موضوعة للحصر تتضمن النفي والإثبات ، فتثبت ما تناوله الخطاب وتنفي ماعداه . وقد حصرت هاهنا التحريم لا سيما وقد جاءت عقيب التحليل في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ . فأفادت الإباحة على الإطلاق ، ثم عقبها بذكر المحرم بكلمة « إنما » الحاصرة فاقتضى ذلك الإيعاب للقسمين ؛ فلا محرم يخرج عن هذه الآية . وهي مدنية وأكدها بالآية الأخرى وهي التي روى أنها نزلت بعرفة : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ إلى آخرها ؛ فاستوفى البيان أولا وآخرا . قاله ابن العربي . وسيأتي الكلام في تلك في الأنعام إن شاء الله تعالى .

الثانية — الميتة . نصب بحرم . وما كافة ، ويجوز أن تجعلها بمعنى الذي ، منفصلة في الخط ، وترفع الميتة والدم ولحم الخنزير على خبر « إن » وهي قراءة ابن أبي عبلة . وفي حرم ضمير يعود على الذي ؛ ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ . وقرأ أبو جعفر بضم الحاء وكسر الراء ورفع الأسماء بعدها ، إما على ما لم يسم فاعله ، وإما على خبر إن . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع أيضا « الميِّتة » بالتشديد . الطبري : وقال جماعة من اللغويين التشديد والتخفيف في مَيْت ومَيِّت لغتان . وقال أبو حاتم وغيره : ما قد مات فيقالان فيه ، وما لم يمت بعد فلا يقال فيه ميت بالتخفيف ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ . وقال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميْت * إنما الميْت ميِّت الأحياء

ولم يقرأ أحد بتخفيف ما لم يمت إلا ما روى البزي عن ابن كثير « وما هو بميْت » والمشهور عنه التثقيل ؛ وأما قول الشاعر :

إذا ما مات ميْتٌ من تميم * فسرك أن يعيش فجيء بزاد

فلا أبلغ في الهجاء من أنه أراد الميتة حقيقة . وقد ذهب بعض الناس إلى أنه أراد من شارف الموت ؛ والأول أشهر .

الثالثة ــ الميتة ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يذبح . وما ليس بمأكول فذكاته كموته؛ كالسباع وغيرها، على ما يأتى بيانه هنا وفى الأنعام إن شاء الله تعالى .

الرابعة ــ هذه الآية عامة دخلها التخصيص بقوله عليه السلام : " أحلت لنا ميتتان الحوت والجراد ودمان الكبد والطحال " . أخرجه الدارقطنى. وكذلك حديث جابر فى العنبر يخصص عموم القرآن بصحة سنده . خرجه البخارى ومسلم مع قوله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ . على ما يأتى هنالك إن شاء الله تعالى .

وأكثر أهل الفقه يجيزون أكل جميع دواب البحر حيها وميتها؛ وهو مذهب مالك . وتوقف أن يجيب فى خنزير الماء وقال : أنتم تقولون خنزيرا . قال ابن القاسم : وأنا أتقيه ولا أراه حراما .

الخامسة ــ وقد اختلف الناس فى تخصيص كتاب الله بالسنة، ومع اختلافهم فى ذلك اتفقوا على أنه لا يجوز تخصيصه بحديث ضعيف . قال ابن العربى : وقد يستدل على تخصيص هذه الآية أيضا بما فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبى أوفى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه . وظاهره أكله كيف ما مات بعلاج أو حتف أنفه؛ وبهذا قال ابن نافع وابن عبد الحكم وأكثر العلماء . وهو مذهب الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما . ومنع مالك وجمهور أصحابه من أكله إن مات حتف أنفه؛ لأنه من صيد البر . ألا ترى أن المحْرِم يجزيه اذا قتله ، فأشبه الغزال . وقال أشهب: إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل؛ لأنها حالة قد يعيش بها وينسل. وسيأتى لحكم الجراد مزيد بيان فى الأعراف عند ذكره، إن شاء الله تعالى .

السادسة ــ واختلف العلماء هل يجوز أن ينتفع بالميتة أو بشىء من النجاسات . واختلف عن مالك فى ذلك أيضا؛ فقال مرة : يجوز الانتفاع بها؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم مر على شاة ميمونة فقال : "هلا أخذتم إهابها" الحديث . وقال مرة : جملتها محرم فلا يجوز الانتفاع بشىء منها، ولا بشىء من النجاسات على وجه من وجوه الانتفاع؛ حتى

لا يجوز أن يسقى الزرع ولا الحيوان الماء النجس، ولا تعلف البهائم النجاسات، ولا تطعم الميتة الكلاب والسباع، وإن أكلتها لم تمنع. ووجه هذا القول ظاهر قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ ولم يخص وجها من وجه ، ولا يجوز أن يقال : هذا الخطاب مجمل؛ لأن المجمل مالا يفهم المراد من ظاهره، وقد فهمت العرب المراد من قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ . وأيضا فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا تنتفعوا من الميتة بشيء". وفي حديث عبد الله بن عُكَيم "لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب" . وهذا آخر ما ورد به كتابه قبل موته بشهر؛ وسيأتي بيان هذه الأخبار والكلام عليها في النحل إن شاء الله تعالى .

السابعة — فأما الناقة إذا نحرت ، أو البقرة أو الشاة إذا ذبحت، وكان في بطنها جنين ميت فجائز أكله من غير تذكية له في نفسه، إلا أن يخرج حيا فيذكى، ويكون له حكم نفسه؛ وذلك أن الجنين إذا خرج منها بعد الذبح ميتا جرى مجرى العضو من أعضائها. ومما يبين ذلك أنه لو باع الشاة واستثنى ما في بطنها لم يجز، كما لو استثنى عضوا منها، وكان ما في بطنها تابعا لها كسائر أعضائها . وكذلك لو أعتقها من غير أن يوقع على ما في بطنها عتقا مبتدأ . ولو كان منفصلا عنها لم يتبعها في بيع ولا عتق . وقد روى جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن البقرة والشاة تذبح، والناقة تنحر فيكون في بطنها جنين ميت؛ فقال : « إن شئتم فكلوه لأن ذكاته ذكاة أمّه » . خرجه أبو داود بمعناه من حديث أبي سعيد الخدريّ وهو نص لا يحتمل . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة المائدة إن شاء الله تعالى .

الثامنة — واختلفت الرواية عن مالك في جلد الميتة هل يطهر بالدباغ أولا؛ فروى عنه أنه لا يطهر وهو ظاهر مذهبه . وروى عنه أنه يطهر؛ لقوله عليه السلام : « أيما إهاب دبغ فقد طهر» . ووجه قوله : لا يطهر؛ بأنه جزء من الميتة لو أخذ منها في حال الحياة كان نجسا، فوجب ألّا يطهره الدباغ قياسا على اللحم . وتحمل الأخبار بالطهارة على أن الدباغ يزيل الأوساخ عن الجلد حتى ينتفع به في الأشياء اليابسة وفي الجلوس عليه، ويجوز أيضا أن ينتفع به في الماء بأن يعمل سقاء؛ لأن الماء على أصل الطهارة مالم يتغير له وصف .

على ما يأتى من حكمه فى سورة الفرقان . والطهارة فى اللغة متوجهة نحو إزالة الأوساخ كما تتوجه إلى الطهارة الشرعية . والله تعالى أعلم .

التاسعة ـ وأما شعر الميتة وصوفها فطاهر؛ لما روى عن أم سلمة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا بأس بمَسْك الميتة إذا دبغ وصوفها وشعرها إذا غسل". ولأنه كان طاهرا لو أخذ منها فى حال الحياة فوجب أن يكون كذلك بعد الموت، إلا أن اللحم لما كان نجسا فى حال الحياة كان كذلك بعد الموت؛ فيجب أن يكون الصوف خلافه حال الموت كما كان خلافه حال الحياة استدلالا بالعكس . ولا يلزم على هذا اللبن والبيضة من الميتة؛ لأن اللبن عندنا طاهر بعد الموت، وكذلك البيضة؛ ولكنهما حصلا فى وعاء نجس فتنجسا بمجاورة الوعاء لا أنهما نجسا بالموت . وسيأتى مزيد بيان لهذه المسئلة والتى قبلها وما للعلماء فيهما من الخلاف فى سورة النحل إن شاء الله تعالى .

العاشرة ـ وأما ما وقعت فيه الفأرة فله حالتان : حالة تكون إن أخرجت الفأرة حية فهو طاهر، وإن ماتت فيه فله حالتان : حالة يكون مائعا فانه ينجس جميعه . وحالة يكون جامدا فينجس ما جاورها، فتطرح وما حولها، وينتفع بما بقى وهو على طهارته؛ لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الفأرة تقع فى السمن فتموت؛ فقال عليه السلام : "إن كان جامدا فاطرحوها وما حولها وإن كان مائعا فأريقوه". واختلف العلماء فيه إذا غسل؛ فقيل : لا يطهر بالغسل؛ لأنه مائع تنجس فأشبه الدم والخمر والبول وسائر النجاسات . وقال ابن القاسم : يطهر بالغسل؛ لأنه جسم تنجس بمجاورة النجاسة فأشبه الثوب . ولا يلزم على هذا الدم لأنه نجس بعينه، ولا الخمر والبول لأن الغسل يستهلكهما ولا يتأتى فيه .

الحادية عشرة ـ فاذا حكمنا بطهارته بالغسل رجع إلى حالته الأولى فى الطهارة وسائر وجوه الانتفاع؛ لكن لا يبيعه حتى يبين؛ لأن ذلك عيب عند الناس تأباه نفوسهم، ومنهم من يعتقد تحريمه ونجاسته؛ فلا يجوز بيعه حتى يبين العيب كسائر الأشياء المعيبة . وأما قبل الغسل فلا يجوز بيعه بحال؛ لأن النجاسات عنده لا يجوز بيعها، ولأنه مائع نجس فأشبه

الخمر، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن ثمن الخمر فقال: «لعن الله اليهود حرّمت عليهم الشحوم فجَمَلوها(١) فباعوها وأكلوا أثمانها» . وإن الله إذا حرّم شيئا حرّم ثمنه . وهذا المائع محرّم لنجاسته فوجب أن يحرم ثمنه بحكم الظاهر .

الثانية عشرة — واختلف إذا وقع فى القدر حيوان، طائر أو غيره؛ [فمات] فروى ابن وهب عن مالك أنه قال : لا يؤكل ما فى القدر، وقد تنجس بمخالطة الميتة إياه . وروى ابن القاسم عنه أنه قال : يغسل اللحم ويراق المرق . وقد سئل ابن عباس عن هذه المسألة؛ فقال : يغسل اللحم ويؤكل . ولا مخالف له فى المرق من أصحابه؛ ذكره ابن خويز منداد .

الثالثة عشرة — فأما أنفحة الميتة ولبن الميتة؛ فقال الشافعيّ : ذلك نجس لعموم قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ . وقال أبو حنيفة بطهارتهما ، ولم يجعل لموضع الخلقة أثرا فى تنجس ما جاوره مما حدث فيه خلقة قال : ولذلك يؤكل اللحم بما فيه من العروق ، مع القطع بمجاورة الدم لدواخلها من غير تطهير ولا غسل إجماعا . وقال مالك نحو قول أبى حنيفة : إن ذلك لا ينجس بالموت ، ولكن ينجس بمجاورة الوعاء النجس وهو مما لا يتأتى فيه الغسل . وكذلك الدجاجة تخرج منها البيضة بعد موتها؛ لأن البيضة لينة فى حكم المائع قبل خروجها، وإنما تجمد وتصلب بالهواء .

قال ابن خويز منداد فان قيل : فقولكم يؤدّى إلى خلاف الإجماع، وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعده كانوا يأكلون الجبن وكان مجلوبا إليهم من أرض العجم ، ومعلوم أن ذبائح العجم وهم مجوس ميتة، ولم يعتدّوا بأن يكون مجمدا بأنفحة الميتة أو المذكى . قيل له : قدر ما يقع من الأنفحة فى اللبن المجبن يسير . واليسير من النجاسة معفوّ عنه إذا خالط الكثير من المائع . هذا جواب على إحدى الروايتين . وعلى الرواية الأخرى انما كان ذلك فى أوّل الإسلام ولا يمكن أحداً أن ينقل أن الصحابة أكلت الجبن المحمول من أرض العجم، بل الجبن ليس من طعام العرب؛ فلما انتشر المسلمون فى أرض العجم بالفتوح صارت الذبائح

(١) جمل الشحم وأجمله : اذا أذابه .

لحم ؛ فمن أين لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والصحابة أكلت جبنا فضلا عن أن يكون محمولا من أرض العجم ومعمولا من أنفحة ذبائحهم .

وقال أبو عمر : ولا بأس بأكل طعام عبدة الأوثان والمجوس وسائر من لا كتاب له من الكفار مالم يكن من ذبائحهم ولم يُحتج إلى ذكاة إلا الجبن لما فيه من أنفحة الميتة. وفى سنن ابن ماجه «الجبن والسمن» حدثنا إسماعيل بن موسى السدى حدثنا سيف بن هارون عن سليمان التّيمى عن أبى عثمان النّهدى عن سلمان الفارسى قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمن والجبن والفراء . فقال : "الحلال ما أحل الله فى كتابه والحرام ما حرم الله فى كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه" .

الرابعة عشرة ـ قوله تعالى : ﴿ وَالدَّمَ ﴾ اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به . قال ابن خويز منداد : وأما الدم فمحرم مالم تعم به البلوى، ومعفوّ عما تعم به البلوى. والذى تعم به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه . ويسيره فى البدن والثوب يصلى فيه . وإنما قلنا ذلك لأن الله تعالى قال : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ . وقال فى موضع آخر : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ فحرم المسفوح من الدم . وقد روت عائشة رضى الله عنها قالت : كنا نطبخ البُرْمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلوها الصفرة من الدم فنأكل ولا ننكره ؛ لأن التحفظ من هذا إصْر وفيه مشقة . والإصر والمشقة فى الدين موضوع . وهذا أصل فى الشرع : أن كلما حَرِجت الأمة فى أداء العبادة فيه وثقل عليها سقطت العبادة عنها فيه . ألا ترى أن المضطر يأكل الميتة ، وأن المريض يفطر ويتيمم فى نحو ذلك .

قلت : ذكر الله سبحانه وتعالى الدم هاهنا مطلقا وقيده فى الأنعام بقوله : ﴿ مَسْفُوحًا ﴾. وحمل العلماء ها هنا المطلق على المقيد إجماعا . فالدم هنا يراد به المسفوح ؛ لأن ما خالط اللحم فغير محرم بإجماع، وكذلك الكبد والطحال مجمع عليه. وفى دم الحوت المزايل له اختلاف؛

وروى عن القابسي أنه طـاهر، ويلزم على طهارته أنه غير محرم . وهو اختيار ابن العربي، قال : لأنه لو كان دم السمك نجسا لشرعت ذكاته .

قلت : وهو مذهب أبي حنيفة في دم الحوت؛ سمعت بعض الحنفية يقول : الدليل على أنه طاهر أنه اذا يبس ابيض بخلاف سائر الدماء فانه يسود . وهذه النكتة لهم في الاحتجاج على الشافعية .

الخامسة عشرة — قوله تعـالى ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ خص الله تعالى ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه ذكّى أو لم يذكّ، وليعم الشحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها .

السادسة عشرة — أجمعت الأمة على تحريم شحم الخنزير . وقد استدل مالك وأصحابه على أن من حلف ألا يأكل شحما فأكل لحما لم يحنث بأكل اللحم . فان حلف ألا يأكل لحما فأكل شحما حنث؛ لأن اللحم مع الشحم يقع عليه اسم اللحم ؛ فقد دخل الشحم في اسم اللحم ولا يدخل اللحم في اسم الشحم . وقد حرّم الله تعالى لحم الخنزير فناب ذكر لحمه عن شحمه؛ لأنه دخل تحت اسم اللحم . وحرّم الله تعـالى على بني إسرائيـل الشحوم بقوله : ﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ فلم يقع بهذا عليهم تحريم اللحم ولم يدخل في اسم الشحم ؛ فلهذا فرّق مالك بين الحالف في الشحم والحالف في اللحم؛ إلا أن يكون الحالف نيته في اللحم دون الشحم؛ والله تعالى أعلم . ولا يحنث في قول الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي إذا حلف ألا يأكل لحما فأكل شحما . وقال أحمد : إذا حلف ألا يأكل لحما فأكل الشحم لا بأس به إلا أن يكون أراد اجتناب الدسم .

السابعة عشرة — لا خلاف أن جملة الخنزير محرّمة إلا الشعر فانه يجوز الخرازة به . وقد روى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخرازة بشعر الخنزير، فقال : "لا بأس بذلك" ذكره ابن خويز منداد . قال : ولأن الخرازة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت، وبعده موجودة ظاهرة، لا نعلم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنكرها ولا أحد من الأئمة بعده . وما أجازه الرسول صلّى الله عليه وسلّم فهو كابتداء الشرع منه .

الثامنة عشرة ــ لا خلاف في تحريم خنزير البرّ كما ذكرنا . وفي خنزير الماء خلاف؛ وأبى مالك أن يجيب فيه بشيء . وقال : أنتم تقولون خنزيرا . وقد تقدّم . وسيأتي بيانه في «المائدة» إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة ــ ذهب أكثر اللغويين إلى أن لفظة الخنزير رباعية . وحكى ابن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خزر العين ؛ لأنه كذلك ينظر ، واللفظة على هذا ثلاثية . وفي الصحاح : وتخازر الرجل إذا ضيّق جفنه ليحدّد النظر . والخزر : ضيق العين وصغرها . رجل أخزر بيّن الخزر . ويقال : هو أن يكون الإنسان كأنه ينظر بمؤخرها . وجمع الخنزير خنازير . والخنازير أيضا علّة معروفة ، وهي قروح صُلْبة تحدث في الرقبة .

الموفية عشرين ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ﴾ أي ذكر عليه اسم غير الله تعالى ، وهي ذبيحة المجوسيّ والوثنيّ والمُعَطِّل . فالوثنيّ يذبح للوثن ، والمجوسيّ للنار ، والمعطل لا يعتقد شيئا فيذبح لنفسه . ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسي لناره ، والوثني لوثنه لا يؤكل ، ولا تؤكل ذبيحتهما ، عند مالك والشافعي وغيرهما ، وإن لم يذبحا لناره ووثنه ؛ وأجازهما ابن المسيّب وأبو ثور إذا ذبح لمسلم بأمره . وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى في سورة « المائدة » . والإهلال : رفع الصوت ؛ يقال : أهلّ بكذا ؛ أي رفع صوته ؛ قال ابن أحمر يصف فلاة :

يُهِلّ بالفَرْقد رُكبانُها ✽ كما يُهِلّ الراكبُ المُعتمِرْ

وقال النابغة :

أو درة صدفية غوّاصها ✽ بَهِجٌ متى يرها يُهِلّ ويسجد

ومنه إهلال الصبيّ واستهلاله ، وهو صياحه عند ولادته . وقال ابن عباس وغيره : المراد ما ذبح للأنصاب والأوثان ، لا ما ذكر عليه اسم المسيح ؛ على ما يأتي بيانه في سورة «المائدة» إن شاء الله تعالى . وجرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحة ، وغلب ذلك في استعمالهم حتى عبّر به عن النية التي هي علة التحريم . ألا ترى أن عليّ بن أبي طالب رضي

الله عنه راعى النيــة فى الإبل التى نحرها غالب أبو الفرزدق فقال : إنها مما أهلّ لغير الله به ؛ فتركها النــاس . قال ابن عطية : ورأيت فى أخبار الحســن بن أبى الحسن أنه ســئل عن امرأة مترفة صنعت للُعَبها عرسا فنحرت جزورا ؛ فقال الحسن : لا يحـل أكلها فانها إنما نحرت لصنم .

قلت : ومن هــذا المعنى ما رويناه عن يحيى بن يحيى التميمى شيخ مســلم قال : أخبرنا جرير عن قابوس قال : أرســل أبى امرأة إلى عائشــة رضى الله عنها وأمرها أن تقرأ عليها السلام منه ، وتسألها أيّة صلاة كانت أعجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدوم عليها . قالت : كان يصلى قبــل الظهر أربع ركعات يطيل فيهن القيام ويحسن الركوع والسجود ، فأما ما لم يدع قط : صحيحا ولا مريضا ولا شــاهدا ركعتين قبل صلاة الغداة . قالت امرأة عند ذلك من الناس : يا أم المؤمنين ، إن لنا أظآرا من العجم لا يزال يكون لهم عيد فيهدون لنــا منه ، أفنأ كل منه شــيئا ؟ قالت : أما ما ذبح لذلك اليــوم فلا تأكلوا ولكن كلوا من أشجارهم .

الحــادية والعشرون ــ قوله تعــالى : ﴿فَمَنِ ٱضْـطُرَّ﴾ قرئ بضم النوــ للإتباع ، وبالكسر وهو الأصل لألتقاء الساكنين . وفيه إضمار ، أى فمن اضطر إلى شئ من هذه المحرمات أى أحوج إليها ؛ فهو افتعل من الضرورة . وقرأ ابن محيصن « فمن اطّر » بادغام الضاد . وأبو السّمال «فمن اضـطِر» بكسر الطاء . وأصــله اضطرر فلمــا أدغمت نقلت حركة الراء إلى الطاء .

الثانية والعشرون ــ الاضطرار لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم، أو بجوع فى مخمصة . والذى عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء فى معنى الآية هو من صيّره العُدْم والغَرَث وهو الجوع إلى ذلك ؛ وهو الصحيح . وقيل : معناه أكره وغلب على أكل هذه المحرمات . قال مجاهد : يعنى أكره عليه كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على لحم الخنزير وغيره من معصية الله تعــالى . إلا أن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه .

وأما المخمصة فلا يخلو أن تكون دائمة أو لا ؛ فان كانت دائمة فلا خلاف فى جواز الشبع من الميتة، إلا أنه لا يحل له أكلها وهو يجد مال مسلم لا يخاف فيه قطعا، كالتمر المعلق وحريسة(1) الجبل، ونحو ذلك مما لا قطع فيه ولا أذى . وهذا مما لا اختلاف فيه؛ لحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينا نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر إذ رأينا إبلا مصرورة بعضاه الشجر فثبنا اليها فنادانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعنا اليه فقال : "إن هذه الإبل لأهل بيت من المسلمين هو قوتهم ويمنهم(2) بعد الله أيسركم لو رجعتم الى مزاودكم فوجدتم ما فيها قد ذهب به أترون ذلك عدلا " قالوا : لا؛ فقال : "إن هذا كذلك" . قلنا : أفرأيت إن احتجنا الى الطعام والشراب؟ فقال: "كل ولا تحمل واشرب ولا تحمل" . خرجه ابن ماجه رحمه الله،وقال : هذا الأصل عندى . وذكره ابن المنذر قال : قلنا يا رسول الله ، ما يحل لأحدنا من مال أخيه إذا اضطر اليه ؟ قال : " يأكل ولا يحمل ويشرب ولا يحمل" قال ابن المنذر : وكل مختلف فيه بعد ذلك فمردود الى تحريم الله الأموال . قال أبو عمر : وجملة القول فى ذلك أن المسلم إذا تعين عليه رد رمق مهجة المسلم ، وتوجه الفرض فى ذلك بألا يكون هناك غيره قضى عليه بترميق تلك المهجة الآدمية . وكان للمنوع منه ماله من ذلك محاربة من منعه ومقاتلته ، وإن أتى ذلك على نفسه . وذلك عند أهل العلم إذا لم يكن هناك إلا واحد لا غير ؛ فحينئذ يتعين عليه الفرض . فان كانوا كثيرا أو جماعة وعددا كان ذلك عليهم فرضا على الكفاية . والماء فى ذلك وغيره مما يرد نفس المسلم ويمسكها سواء . إلا أنهم اختلفوا فى وجوب قيمة ذلك الشىء على الذى ردت به مهجته ورمق به نفسه؛ فأوجبها موجبون، وأباها آخرون . وفى مذهبنا القولان جميعا . ولا خلاف بين أهل العلم متأخريهم ومتقدميهم فى وجوب رد مهجة المسلم عند خوف الذهاب والتلف بالشىء اليسير الذى لا مضرة فيه على صاحبه وفيه البلغة .

(1) الحريسة : الشاة تسرق ليلا . وفى الحديث " لا قطع فى حريسة الجبل " . أى ليس فيما يحرس بالجبل قطع؛ لأنه ليس بحرز .

(2) كذا فى سنن ابن ماجه؛ أى بركتهم وخيرهم . وفى الأصول : « قيمتهم » .

الثالثة والعشرون — خرّج ابن ماجه أنبأنا أبو بكر بن أبى شيبة أنبأنا شبابة وحدّثنا محمد ابن بشار ومحمد بن الوليد قالا حدّثنا محمد بن جعفر حدّثنا شعبة عن أبى بشر جعفر بن إياس قال: سمعت عبّاد بن شرحبيل —رجلا من بنى غُبَر— قال: أصابنا عام مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطًا(١) من حيطانها فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلته فى كسائى؛ فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى؛ فأتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبرته؛ فقال للرجل: "ما أطعمته إذ كان جائعا أو ساغبا ولا علّمته إذ كان جاهلا" فأمره النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فردّ اليه ثوبه، وأمر له بوَسْق من طعام أو نصف وسق .

قلت : هذا حديث صحيح اتفق على رجاله البخارىّ ومسلم؛ إلا ابن أبى شيبة فانه لمسلم وحده . وعباد بن شرحبيل الغبرى اليشكرى لم يخرج له البخارى ومسلم شيئا، وليس له عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم غير هذه القصة فيما ذكر أبو عمر رحمه الله، وهو ينفى القطع والأدب فى المخمصة . وقد روى أبو داود عن الحسن عن سمرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "اذا أتى أحدكم على ماشية فان كان فيها صاحبها فليستأذنه فان أذن له فليحتلب وليشرب وان لم يكن فيها فليُصَوِّت ثلاثا فان أجاب فليستأذنه فان أذن له وإلا فليحتلب وليشرب ولا يحمل" . وذكر الترمذى عن يحيى بن سليم عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من دخل حائطا فليأكل ولا يتخذ خُبْنَة" . قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن سليم . وذكر من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبىّ صلى الله عليه وسلّم سئل عن الثمر المعلق؛ فقال : "من أصاب منه من ذى حاجة غير متخذ خُبْنة فلا شىء عليه" . قال فيه : حديث حسن . وفى حديث عمر رضى الله عنه : "اذا مرّ أحدكم بحائط فليأكل منه ولا يتخذ ثِبَانًا" . قال أبو عبيد قال أبو عمرو : وهو الوعاء الذى يحمل فيه الشىء . فإن حملته بين يديك فهو ثِبَانٌ؛ يقال : قد تَثَبَّنت ثِبانا . فان حملته على ظهرك فهو الحال؛ يقال منه : قد تحوّلت كسائى اذا جعلت فيه شيئا ثم حملته على ظهرك.

(١) الحائط : البستان من النخيل ونحوه اذا كان عليه جدار .

فان جعلته فى حضنك فهو خُبْنة . ومنه حديث عمرو بن شعيب المرفوع "ولا يتخذ خبنة".
يقال فيه : خَبَنْت أَخْبِن خَبْناً . قال أبو عبيد : وإنما يوجّه هذا الحديث أنه رخّص فيه
للجائع المضطر الذى لا شىء معه يشترى به ألّا يحمل إلا ما كان فى بطنه قدر قوته .

قلت : لأن الأصل المتفق عليه تحريم مال الغير إلا بطيب نفس منه ؛ فان كانت هناك
عادة بعمل ذلك كما كان فى أوّل الاسلام ، أوكما هو الآن فى بعض البلدان ، فذلك جائز .
ويحمل ذلك على أوقات المجاعه والضرورة ، كما تقدّم والله أعلم .

وإن كان الثانى[1] وهو النادر فى وقت من الأوقات ؛ فاختلف العلماء فيها على قولين :
أحدهما ـ أنه يأكل حتى يشبع ويتضلّع[2] ، ويتزوّد إذا خشى الضرورة فيما بين يديه من مفازة
وقفر ، وإذا وجد عنها غنى طرحها . قال معناه مالك فى موطأه . وبه قال الشافعىّ وكثير
من العلماء . والحجة فى ذلك أن الضرورة ترفع التحريم فيعود مباحا . ومقدار الضرورة انما هو
فى حالة عدم القوت الى حالة وجوده . وحديث العنبر نص فى ذلك ؛ فإن أصحاب النبىّ صلى
الله عليه وسلّم لما رجعوا من سفرهم وقد ذهب عنهم الزاد ، انطلقوا الى ساحل البحر فرفع
لهم على ساحله كهيئة الكثيب الضخم ؛ فلما أتوه اذا هى دابة تدعى العنبر ؛ فقال أبو عبيدة
أميرهم : ميتة . ثم قال : لا ، بل نحن رُسُلُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفى سبيل الله ،
وقد اضطررتم فكُلُوا . قال : فأقمنا عليها شهرا ونحن ثلثمائة حتى سَمِنّا . الحديث . فأكلوا
وشبعوا ـ رضوان الله عليهم ـ مما اعتقدوا أنه ميتة وتزوّدوا منها الى المدينة ، وذكروا ذلك
للنبىّ صلى الله عليه وسلم فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه حلال وقال : "هل معكم من لحمه شىء
فتطعمونا" . فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله . وقالت طائفة . يأكل
بقدر سدّ الرمق . وبه قال ابن الماجشون وابن حبيب . وفرق أصحاب الشافعىّ بين حالة
المقيم والمسافر فقالوا : المقيم يأكل بقدر ما يسدّ رمقه ، والمسافر يتضلع ويتزوّد ؛ فاذا وجد

(١) يريد بالثانى أحد فرضى المخمصة الذى تقدم فى المسئلة « الثانية والعشرين » وهو غير الدائمة .

(٢) تضلع : امتلأ شبعا أو ريا .

غنى عنها طرحها ، وإن وجد مضطرا أعطاه إياها ولا يأخذ منه عوضا ؛ فان الميتة لا يجوز بيعها .

الرابعة والعشرون — فان اضطر إلى خمر فان كان بإكراه شرب بلا خلاف ، وإن كان بجوع أو عطش فلا يشرب . وبه قال مالك فى العتبية قال . ولا يزيده الخمر إلا عطشا . وهو قول الشافعى ؛ فان الله تعالى حرّم الخمر تحريما مطلقا ، وحرّم الميتة بشرط عدم الضرورة. وقال الأبهرى : إن ردّت الخمر عنه جوعا أو عطشا شربها ؛ لأن الله تعالى قال فى الخنزير «إنه رجس» ثم أباحه للضرورة . وقال تعالى فى الخمر «إنها رجس» فتدخل فى إباحة الخنزير للضرورة بالمعنى الجلىّ الذى هو أقوى من القياس ؛ ولا بدّ أن تروى ولو ساعة، وتردّ الجوع وإن مدة .

الخامسة والعشرون — روى أصبغ عن ابن القاسم أنه قال : يشرب المضطر الدّم ولا يشرب الخمر . ويأكل الميتة ولا يقرب ضوالّ الإبل . وقاله ابنُ وهب . ويشرب البول ولا يشرب الخمر ؛ لأن الخمر يلزم فيها الحدّ فهى أغلظ . نصّ عليه أصحاب الشافعىّ .

السادسة والعشرون — فإن غَصّ بلقمة فهل يسيغها بخمر أو لا ؛ فقيل : لا ، مخافة أن يدعى ذلك . وأجاز ذلك ابن حبيب ؛ لأنها حالةُ ضرورة . ابن العربى : «أما الغاص بلقمة فإنه يجوز له فيما بينه وبين الله تعالى، وأما فيما بيننا فان شاهدناه فلا تخفى علينا بقرائن الحال صورة الغصة من غيرها ؛ فيصدق إذا ظهر ذلك، وإن لم يظهر حددناه ظاهرا وسلم من العقوبة عند الله تعالى باطنا . ثم إذا وجد المضطر ميتة وخنزيرا ولحم ابن آدم أكل الميتة؛ لأنها حلال فى حال . والخنزير وابن آدم لا يحل بحال . والتحريم المخفف أولى أن يقتحم من التحريم المثقل؛ كما لو أكره أن يطأ أخته أو أجنبية وطئ الأجنبية لأنها تحل له بحال. وهذا هو الضابط لهذه الأحكام. ولا يأكل ابنَ آدم ولو مات . قاله علماؤنا؛ وبه قال أحمد وداود. احتج أحمد بقوله عليه السلام : "كسر عظم الميت ككسره حيّا" . وقال الشافعى : يأكل لحم ابن آدم ، ولا يجوز له أن يقتل ذمّيا لأنه محترم الدم، ولا مسلما، ولا أسيرا لأنه مال الغير.

فإن كان حربيا أو زانيا محصنا جاز قتله والأكل منه . وشنّع داود على المزنى بأن قال : قد أبحت أكل لحوم الأنبياء ! فغلب عليه ابن شريح بأن قال : فأنت قد تعرّضت لقتل الأنبياء اذ منعتهم من أكل الكافر . قال ابن العربى : الصحيح عندى ألا يأكل الآدمى إلا إذا تحقق أن ذلك ينجيه ويحييه . والله أعلم .

السابعة والعشرون — سئل مالك عن المضطر إلى أكل الميتة وهو يجد مال الغير تمرا أو زرعا أو غنما؛ فقال : إن أمن الضرر على بدنه بحيث لا يعد سارقا ويصدق فى قوله أكل من أى ذلك وجد ما يرد جوعه ولا يحمل منه شيئا ، وذلك أحب الىّ من أن يأكل الميتة . وقد تقدّم هذا المعنى مستوفى . وإن هو خشى ألا يصدّقوه وأن يعدوه سارقا فإنّ أكل الميتة أجوز عندى، وله فى أكل الميتة على هذه المنزلة سعة .

الثامنة والعشرون — روى ابو داود قال حدّثنا موسى بن إسماعيل قال حدّثنا حماد عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة أن رجلا نزل الحرّة ومعه أهله وولده؛ فقال رجل: إن ناقة لى ضلت فإن وجدتها فأمسكها؛ فوجدها ولم يوجد صاحبها فمرضت؛ فقالت امرأته : انحرها؛ فأبى فنفقت . فقالت : اسلخها حتى نقدّد شحمها ولحمها ونأكله؛ فقال : حتى أسأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأتاه فسأله؛ فقال : " هل عندك غنًى يُغنيك " قال : لا؛ قال : " فكلوها " قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر؛ فقال : هلا كنت نحرتها ! فقال : استحييت منك . قال ابن خويزمنداد : فى هذا الحديث دليلان : أحدهما — أن المضطر يأكل من الميتة وإن لم يخف التلف؛ لأنه سأله عن الغنى ولم يسأله عن خوفه على نفسه . والثانى — يأكل ويشبع ويدّخر ويتزوّد؛ لأنه أباحه الادخار ولم يشترط عليه أن يشبع . قال أبو داود : وحدّثنا هارون بن عبد الله قال حدثنا الفضل بن دكين قال أنبأنا عقبة بن وهب بن عقبة العامرى قال: سمعت أبى يحدّث عن الفُجَيْع العامرىّ أنه أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : ما تحل لنا الميتة ؟ قال : " ما طعامكم " قلنا : نَغْتَبِق ونصطبح . قال أبو نعيم : فسره لى عقبة قدح غدوة وقدح عشية قال : ذاك، وأبى الجوع . قال : فأحل لهم الميتة

على هــذه الحال . قال أبو داود : الغَبوق من آخر النهــار والصَّبوح من أوّل النهــار . وقال الخطابى : الغبوق العشاء، والصبوح الغداء، والقدح من اللبن بالغداة، والقدح بالعشى يمسك الرمق ويقيم النفس وإن كان لا يغذى البدن ولا يشبع الشبع التام . وقد أباح لهم مع ذلك تناول الميتة؛ فكان دلالته أن تناول الميتة مباح الى أن تأخذ النفس حاجتها من القوت . وإلى هذا ذهب مالك وهو أحد قولى الشافعى . قال ابن خويزمنداد: إذا جاز أن يصطبحوا ويغتبقوا جاز أن يشبعوا ويتزودوا . وقال أبو حنيفة والشافعى فى القول الآخر: لا يجوز له أن يتناول من الميتة إلا قدر ما يمســك رمقه . وإليه ذهب المزنىّ . قالوا : لأنه لو كان فى الابتــداء بهــذه الحال لم يجز له أن يأكل منها شيئا؛ فكذلك إذا بلغها بعــد تناولها . ورُوِى نحوه عن الحسن . وقال قتــادة : لا يتضلّع منها بشىء . وقال مقاتل بن حيان : لا يزداد على ثلاث لقم . والصحيح خلاف هذا؛ كما تقدّم .

التاسعــة والعشرون ــ وأما التّداوى بها فلا يخلو أن يحتاج إلى استعمالها قائمة العين أو محرقة ؛ فإن تغيرت بالاحراق فقال ابن حبيب : يجوز التــداوى بها والصــلاة . وخفّفه ابن المــاجشون بناء على أن الحرق تطهير لتغير الصفات . وفى العتبية من رواية مالك فى المَرْتَك(١) يصنع من عظام الميتة اذا وضعه فى جرحه لا يصلى به حتى يغسله .

وإن كانت الميتة قائمة بعينها فقد قال سحنون : لا يتداوى بها بحال ولا بالخنزير؛ لأن منها عوضا حلالا بخلاف المجاعة . ولو وُجد منها عوض فى المجاعة لم تؤكل . وكذلك الخمر لا يتداوى بها؛ قاله مالك، وهو ظاهر مذهب الشافعىّ، وهو اختيار ابن أبى هريرة من أصحابه . وقال أبو حنيفة : يجــوز شربها للتداوى دون العطش ؛ وهو اختيار القاضى الطبرى من أصحاب الشافعىّ، وهو قول الثورى . وقال بعض البغداديين من الشافعية : يجوز شربها للعطش دون التداوى؛ لأن ضرر العطش عاجل بخلاف التداوى . وقيل : يجوز شربها للأمرين جميعا . ومنع بعض أصحاب الشافعىّ التداوى بكل محرّم إلا بأبوال الإبل خاصة؛ لحديث العُرَنِيِّين .

(١) المرتك (كمقعد) : ضرب من الأدوية .

ومنع بعضهم التداوى بكل محرم؛ لقوله عليه السلام : « إن الله لم يجعل شفاء أمتى فيما حرم عليهم » . ولقوله عليه السلام لطارق بن سُوَيد وقد سأله عن الخمر فنهاه أوكره أن يصنعها فقال : إنما أصنعها للدواء؛ فقال : «إنه ليس بدواء ولكنه داء» . رواه مسلم فى الصحيح . وهذا يحتمل أن يقيد بحالة الاضطرار فإنه يجوز التداوى بالسم ولا يجوز شربه . والله أعلم .

الموفية ثلاثين ــ قوله تعالى : ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ غير ، نصب على الحال . وقيل : على الاستثناء . وإذا رأيت " غير " يصلح فى موضعها " فى " فهى حال ، وإذا صلح موضعها " إلا " فهى استثناء ، فقس عليه . وباغ ، أصله باغى ثقلت الضمة على الياء فسكنت والتنوين ساكن فحذفت الياء والكسرة دالة عليها . والمعنى فيما قال قتادة والحسن والربيع وابن زيد وعكرمة : غير باغ فى أكله فوق حاجته ، ولا عاد بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحة ويأكلها . وقال السدى : غير باغ فى أكلها شهوة وتلذذا ، ولا عاد باستيفاء الأكل إلى حد الشبع . وقال مجاهد وابن جبير وغيرهما : المعنى غير باغ على المسلمين ولا عاد عليهم ؛ فيدخل فى الباغى والعادى قطاع الطريق والخارج على السلطان والمسافر فى قطع الرحم والغارة على المسلمين وما شاكله . وهذا صحيح ؛ فإن أصل البغى فى اللغة قصد الفساد ؛ يقال : بَغَت المرأة تبغى بِغاء إذا فجَرَت ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ . وربما استعمل البغى فى طلب غير الفساد . والعرب تقول : خرج الرجل فى بُغاء إبل له ، أى فى طلبها ؛ ومنه قول الشاعر :

لا يمنعَنّك من بُغا * ء الخير تَعقاد الرّتائم
إن الأشائم كالأيا * من والأيامن كالأشائم

الحادية والثلاثون ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أصل عاد عائد؛ فهو من المقلوب كشاكى السلاح وهار ولاث . والأصل شائك وهائر ولائث من لُثت العمامة . فأباح الله فى حالة الاضطرار أكل جميع المحرمات لعجزه عن جميع المباحات كما بينا ؛ فصار عدم المباح شرطا فى استباحة المحرم .

الثانية والثلاثون — واختلف العلماء إذا اقترن بضرورة معصية، بقطع طريق وإخافة سبيل؛ فحظرها عليه مالك والشافعي في أحد قوليه لأجل معصيته ؛ لأن الله سبحانه أباح ذلك عونا ، والعاصي لا يحل أن يعان ؛ فإن أراد الأكل فليتب وليأكل . وأباحها له أبو حنيفة والشافعي في القول الآخر له، وسويا في استباحته بين طاعته ومعصيته . قال ابن العربي : وعجبا ممن يبيح له ذلك مع التمادي على المعصية ، وما أظن أحدا يقوله ، فإن قاله فهو مخطىء قطعا .

قلت : الصحيح خلاف هذا ؛ فإن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وهذا عام، ولعله يتوب في ثاني حال فتمحو التوبة عنه ما كان . وقد قال مسروق : من اضطر إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل حتى مات دخل النار، إلا أن يعفو الله عنه . قال أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا : وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة بل هو عزيمة واجبة، ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصيا، وليس [تناول](١) الميتة من رخص السفر أو متعلقا بالسفر بل هو من نتائج الضرورة سفرا كان أو حضرا ، وهو كالإفطار للعاصي المقيم إذا كان مريضا، وكالتيمم للعاصي المسافر عند عدم الماء . قال : وهو الصحيح عندنا .

قلت : واختلفت الروايات عن مالك في ذلك ؛ فالمشهور من مذهبه فيما ذكره الباجي في المنتقى : أنه يجوز له الأكل في سفر المعصية ولا يجوز له القصر والفطر . وقال ابن خويزمنداد : فأما الأكل عند الاضطرار فالطائع والعاصي فيه سواء ؛ لأن الميتة يجوز تناولها في السفر والحضر، وليس بخروج الخارج إلى المعاصي يسقط عنه حكم المقيم بل أسوأ حالة من أن يكون مقيما؛ وليس كذلك الفطر والقصر لأنهما رخصتان متعلقتان بالسفر. فمتى كان السفر سفر معصية لم يجز أن يقصر فيه؛ لأن هذه الرخصة تختص بالسفر؛ ولذلك قلنا : إنه يتيمم إذا عدم الماء في سفر المعصية؛ لأن التيمم في الحضر والسفر سواء . وكيف

(١) الزيادة عن كتاب «أحكام القرآن» للكيا الهراسي .

يجوز منعه من أكل الميتة والتيمم لأجل معصية ارتكبها ، وفى تركه الأكل تلف نفسه ، وتلك أكبر المعاصى ، وفى تركه التيمم إضاعة الصلاة . أيجوز أن يقال له : ارتكبت معصية فارتكب أخرى ؟ أيجوز أن يقال لشارب الخمر : ازن ، وللزانى : اكفر ؟ أو يقال لهما : ضيّعا الصلاة ؟ ذكر هذا كله فى أحكام القرآن له . ولم يذكر خلافا عن مالك ولا عن أحد من الصحابة .

وقال الباجى : وروى زياد بن عبد الرحمن الأندلسى أن العاصى بسفره يقصر الصلاة ، ويفطر فى رمضان . فسوّى بين ذلك كله ، وهو قول أبى حنيفة . ولا خلاف أنه لا يجوز له قتل نفسه بالإمساك عن الأكل ، وأنه مأمور بالأكل على وجه الوجوب . ومن كان فى سفر معصية لا تسقط عنه الفروض والواجبات من الصيام والصلاة ، بل يلزمه الإتيان بكلها ؛ فكذلك ما ذكرناه . ووجه القول الأوّل أن هذه المعانى إنما أبيحت فى الأسفار لحاجة الناس اليها ؛ فلا يباح له أن يستعين بها على المعاصى وله سبيل الى ألا يقتل نفسه . قال ابن حبيب : وذلك بأن يتوب ثم يتناول لحم الميتة بعد توبته . وتعلق ابن حبيب فى ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ . فاشترط فى إباحة الميتة للضرورة ألا يكون باغيا . والمسافر على وجه الحرابة أو القطع ، أو فى قطع رحم أو طالب إثم ، باغ ومعتد ؛ فلم توجد فيه شروط الإباحة . والله أعلم .

قلت : هذا استدلال بمفهوم الخطاب ، وهو مختلف فيه بين الأصوليين . ومنظوم الآية أن المضطر غير باغ ولا عاد لا إثم عليه ، وغيره مسكوت عنه ، والأصل عموم الخطاب ؛ فمن ادّعى زواله لأمر ما فعليه الدليل .

الرابعة والثلاثون[(١)] ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى يغفر المعاصى ؛ فأولى ألا يؤاخذ بما رخّص فيه ، ومن رحمته أنه رخّص .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ ﴾ . يعنى علماء اليهود كتموا ما أنزل الله فى التوراة من صفة محمد صلّى الله عليه وسلّم وصحة رسالته . ومعنى أنزل : أظهر ؛

---

(١) هى الثالثة والثلاثون كما يتبين من عد المسائل المتقدمة .

كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى سأظهر . وقيل : هو على بابه من النزول ، أى ما أنزل به ملائكته على رسله . ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ﴾ أى بالمكتوم ﴿ ثَمَناً قَلِيلًا ﴾ يعنى أخذ الرشاء . وسماه قليلا لانقطاع مدته وسوء عاقبته . وقيل : لأن ما كانوا يأخذونه من الرشاء كان قليلا .

قلت : وهذه الآية و إن كانت فى الأحبار فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختارا لذلك بسبب دنيا يصيبها . وقد تقدم هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ فِي بُطُونِهِمْ ﴾ ذكر البطون دلالة وتأكيدا على حقيقة الأكل إذ قد يستعمل مجازا فى مثل : أكل فلان أرضى ونحوه . وفى ذكر البطون أيضا تنبيه على جشعهم وأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذى لا خطر له . ومعنى « إِلَّا النَّارَ » أى إنه حرام يعذبهم الله عليه بالنار ؛ فسمى ما أكلوه من الرشاء نارا لأنه يؤديهم الى النار . هكذا قال أكثر المفسرين . وقيل : أى إنه يعاقبهم على كتمانهم بأكل النار فى جهنم حقيقة ؛ فأخبر عن المآل بالحال ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ أى أن عاقبته تؤول الى ذلك ؛ ومنه قولهم :

* لِدُوا للموت وابنوا للخراب *

قال :

* فللموت ما تلد الوالدة *

آخر :

* ودورنا لخراب الدهر نبنيها *

وهو فى القرآن والشعر كثير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ عبارة عن الغضب عليهم و إزالة الرضا عنهم ؛ يقال : فلان لا يكلم فلانا إذا غضب عليه . وقال الطبرى : المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه . وفى التنزيل : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ . وقيل : المعنى ولا يرسل اليهم الملائكة بالتحية . ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أى لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم . وقال الزجاج : لا يثنى عليهم خيرا

ولا يـنميهم أزكياء و« أليم » بمعنى مؤلم ؛ وقد تقـدّم . وفي صحيح مسـلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر اليهم ولهم عذاب أليم شَيْخ زانٍ ومَلِك كذّاب وعائل مستكبر" .

و إنما خص هؤلاء بأليم العذاب وشـدة العقوبة لمحض المعاندة والاستخفاف الحامل لهم على تلك المعاصي؛ إذ لم يحملهم على ذلك حاجة ولا دعتهم اليـه ضرورة كما تدعو من لم يكن مثلهم . ومعنى « لا ينظر اليهم » لا يرحمهم ولا يعطف عليهم . وسـيأتي في آل عمران إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ تقدّم القول فيه . ولما كان العـذاب تابعا للضلالة وكانت المغفرة تابعـة للهدى الذى اطرحوه دخلا في تجوّز الشراء .

قوله تعالى : ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ مذهب الجمهور، منهم الحسن ومجاهد، أن «ما» معناه التعجب؛ وهو مردود إلى المخلوقين؛ كأنه قال : اعجبوا من صبرهم على النار ومكثهم فيهـا ؛ وفي التنزيل : ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ و ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ . وبهذا المعنى صـدر أبو علي . قال الحسن وقتادة وابن جبـير والربيع : مالهم والله عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على النـار! وهي لغة يمنية معروفة . قال الفراء : أخبرني الكسائي قال : أخبرني قاضي اليمن أن خصمين اختصما اليه فوجبت اليمين على أحدهمـا فحلف؛ فقال له صاحبه : ما أصبرك على الله . أي ما أجرأك عليه . والمعنى : ما أشجعهم على النار إذ يعملون عملا يؤدّي اليها . وحكى الزجاج أن المعنى ما أبقاهم على النـار ؛ من قولهم : ما أصبر فلانا على الحبس ! أي ما أبقاه فيه . وقيل : المعنى فما أقل جزعهم من النار ؛ فجعـل قلة الجزع صبرا . وقال الكسائي وقطرب : أي ما أدومهم على عمل أهل النار . وقيل : ما استفهام معناه التوبيخ؛ قاله ابن عباس والسـدّي وعطاء وأبو عبيدة معمر بن المثنى، ومعناه : أي أيّ شيء صبرهم على عمل أهل النار ؟ ! وقيل هذا على وجه الاستهانة بهم والاستخفاف بأمرهم .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ ذلك في موضع رفع، وهو إشارة إلى الحكم؛ كأنه قال: ذلك الحكم بالنار . وقال الزجاج : تقديره الأمر ذلك ، أو ذلك الأمر أو ذلك العذاب لهم . قال الأخفش : وخبر ذلك مضمر، معناه ذلك معلوم لهم . وقيل : محله نصب، معناه فعلنا ذلك بهم . ﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن في هذا الموضع ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق . وقيل بالحجة . ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ يعني التوراة؛ فادعى النصارى أن فيها صفة عيسى، وأنكر اليهود صفته . وقيل : خالفوا آباءهم وسلفهم في التمسك بها . وقيل : خالفوا ما في التوراة من صفة محمد صلّى الله عليه وسلّم واختلفوا فيها . وقيل : المراد القرآن . والذين اختلفوا كفار قريش؛ يقول بعضهم : هو سحر . وبعضهم يقول : أساطير الأولين . وبعضهم : مفترى؛ إلى غير ذلك . وقد تقدّم القول في معنى الشقاق والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ إلى قوله :﴿الْمُتَّقُونَ﴾ فيه ثمان مسائل:

الأولى — قوله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ اختلف مَن المراد بهذا الخطاب ؛ فقال قتادة : ذكر لنا أن رجلا سأل نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم عن البر ؛ فأنزل الله هذه الآية ؛ قال : وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله ؛ ثم مات على ذلك وجبت له الجنة ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال الربيع وقتادة أيضا : الخطاب لليهود والنصارى لأنهم اختلفوا في التوجّه والتولّي ؛ فاليهود إلى المغرب قِبَل بيت المقدس، والنصارى إلى المشرق مطلع الشمس . وتكلّموا في تحويل القبلة وفضّلت كل فرقة توليتها ؛ فقيل لهم : ليس البر ما أنتم فيه، ولكن البر من آمن بالله .

الثانيــة — قرأ حمزة وحفص « البرّ » بالنصب؛ لأن ليس من أخوات كان، يقع بعدها المعرفتان فتجعل أيهما شئت الاسم أو الخبر؛ فلما وقع بعد ليس « البر » نصبه؛ وجعل « أن تولوا » الاسم ، وكان المصدر أولى بأن يكون اسما لأنه لا يتنكّر، والبرّ قد يتنكر والفعل أقوى في التعريف . وقرأ الباقون بالرفع على أنه اسم ليس، وخبره « أن تولوا » تقديره : ليس البر توليتكم وجوهكم ؛ وعلى الأوّل ليس توليتكم وجوهكم البر ؛ كقوله : ﴿مَا كَانَ

حجتهم إلا أن قالوا ﴾ . ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا ﴾ ﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار ﴾ وما كان مثله . ويقوى قراءة الرفع أن الثانى معه الباء إجماعا فى قوله : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ ولا يجوز فيه إلا الرفع ؛ فحمل الأول على الثانى أولى من مخالفته له . وكذلك هو فى مصحف أبيّ بالباء « ليس البر بأن تولوا » وكذلك فى مصحف ابن مسعود أيضا ، وعليه أكثر القراء ، والقراءتان حسنتان .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ البر هاهنا اسم جامع للخير ، والتقدير: ولكن البر برّ من آمن ؛ فحذف المضاف كقوله تعالى : ﴿ واسئل القرية ﴾ . ﴿ وأشربوا فى قلوبهم العجل ﴾ . قاله الفراء وقطرب والزجاج . وقال الشاعر :

* فإنما هى إقبال وإدبار *

أى ذات إقبال وذات إدبار . وقال النابغة :

وكيف تواصل من أصبحت * خلالته كأبى مرحب

أى كخلالة أبى مرحب ؛ فحذف . وقيل : المعنى ولكنّ ذا البر ، كقوله تعالى : ﴿ هم درجات عند الله ﴾ أى ذوو درجات . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة وفرضت الفرائض وصرفت القبلة الى الكعبة وحدّت الحدود أنزل الله هذه الآية فقال : ليس البر كله أن تصلوا ولا تعملوا غير ذلك ، ولكنّ البر أى ذا البر من آمن بالله الى آخرها ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وعطاء وسفيان والزجاج أيضا . ويجوز أن يكون « البر » بمعنى البار والبرّ ، والفاعل قد يسمى بمعنى المصدر ؛ كما يقال : رجل عدل ، وصوم وفطر . وفى التنزيل : ﴿ إن أصبح ماؤكم غورا ﴾ أى غائرا . وهذا اختيار أبى عبيدة . وقال المبرّد : لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت « ولكن البرّ » بفتح الباء .

الرابعة ـ قوله تعالى : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين ﴾ فقيل : يكون « الموفون » عطفا على « من » لأن من فى موضع جمع ومحل رفع ، كأنه قال : ولكنّ البر المؤمنون والموفون ؛ قاله الفراء والأخفش . والصابرين ، نصب على المدح ، أو بإضمار فعل .

والعرب تنصب على المدح وعلى الذم، كأنهم يريدون بذلك إفراد الممدوح والمذموم ولا يتبعونه أول الكلام، وينصبونه . فأما المدح فقوله : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ . وأنشد الكسائى :

وكلّ قوم أطاعوا أمر مرشدهم * إلا نُميرًا أطاعت أمرَ غاويها
الظاعنين ولمّا يُظْعِنوا أحدًا * والقائلون[1] لمن دار نُخليها

وأنشد أبو عبيدة :

لا يَبْعَدَنْ قومى الذين هُمُ * سَمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزرِ
النازلين بكل مُعْتَرَكٍ * والطيبون معاقدَ الأُزُرِ

وقال آخر :

* نحن بنى ضَبّة أصحاب الجَمَل *

فنصب على المدح . وأمّا الذم فقوله تعالى : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ الآية . وقال عروة ابن الورد :

سَقَوْنى الخمر ثم تكنّفونى * عُداةَ الله من كَذِب وزورِ

وهذا مَهيع[2] فى النعوت لا مطعن فيه من جهة الإعراب موجود فى كلام العرب كما بيّنا .

وقال بعض من تعسّف فى كلامه : إن هذا غلط من الكُتّاب حين كتبوا مصحف الإمام ؛ قال : والدليل على ذلك ما روى عن عثمان أنه نظر فى المصحف فقال : أرى[3] فيه لحنا وستقيمه

(١) راجع كتاب سيبويه وتوجيه الاعراب فيه . (٢) المهيع : الطريق الواسع البين .

(٣) هـذا القول من أخبث ما وضع الوضاعون على عثمان رضى الله عنه ، وقد أنكر العلماء صحة نسبته إليه . على أن عثمان لم يستقل بجمع المصحف بل شاركه كبار الصحابة فى جمعه وكتابته ولم ينشروه بين المسلمين حتى قابلوه على الصحف التى جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر رضى الله عنه ، فلم يتداوله المسلمون إلا وهو بإجماع الصحابة موافق تمام الموافقة للعرضة الأخيرة التى عرض فيها النبى صلى الله عليه وسلم القرآن على جبريل عليه السلام . وهل يظن ظان أن عثمان رضى الله عنه وهو ثالث الخلفاء الراشدين يرى فى المصحف لحنا يخالف ما أنزل الله ويتركه و يقول ستقيمه العرب بألسنتها ، وكيف يعقل أن يقول ذلك فى حضرة الصحابة ولا يقفون فى وجهه و يردون عليه قوله وهم أنصار الدين وحماته . وممن أنكر نسبة هـذا القول الى عثمان المصنف والزمخشرى وأبو حيان والآلوسى فى سورة النساء عند قوله تعالى : (والمقيمين الصلاة) فراجع ذلك إن شئت .

العرب بألسنتها . وهكذا قال فى سورة النساء ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ . وفى سورة المائدة ﴿ وَالصَّابِئُونَ ﴾ . والجواب ما ذكرناه . وقيل : الموفون رفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره وهم الموفون . وقال الكسائى : والصابرين عطف على «ذوى القربى» كأنه قال : آتى الصابرين . قال النحاس : «وهذا القول خطأ وغلط بيّن؛ لأنك إذا نصبت «والصابرين» ونسقته على «ذوى القربى» دخل فى صلة «مَن» وإذا رفعت «والموفون» على أنه نسق على «من» فقد نسقت على مَنْ من قبل أن تتم الصلة، وفرقت بين الصلة والموصول بالمعطوف» . وقال الكسائى : وفى قراءة عبد الله «والموفين والصابرين» . وقال النحاس : «يكونان منسوقين على « ذوى القربى » أو على المدح . قال الفراء : وفى قراءة عبد الله فى النساء « والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة»[(1)] . وقرأ يعقوب والأعمش «والموفون والصابرون» بالرفع فيهما . وقرأ الجحدرى «بعهودهم» . وقد قيل : إن « والموفون » عطف على الضمير الذى فى آمن؛ وأنكره أبو علىّ وقال : ليس المعنى عليه؛ إذ ليس المراد أن البر بر من آمن بالله هو والموفون، أى آمنا جميعا؛ كما تقول : الشجاع من أقدم هو وعمرو؛ و إنما الذى بعد قوله « من آمن » تعداد لأفعال من آمن وأوصافهم .

الخامســة — قال علماؤنا : هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة : الإيمان بالله و بأسمائه وصفاته . وقد أتينا عليها فى الكتاب « الأسنى » والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار . وقد أتينا عليها فى كتاب «التذكرة» والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من عندالله، كما تقدم، والنبيين و إنفاق المال فيما يعنّ من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم وتفقد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك، ومراعاة ابن السبيل؛ قيل : المنقطع به ، وقيل : الضيف . والسؤال وفكّ الرقاب . وسيأتى بيان هذا فى آية الصدقات . والمحافظة على الصلاة و إيتاء الزكاة والوفاء

(١) كذا فى كتاب «إعراب القرآن» للنحاس، وما يدل عليه سياق الكلام فى البحر المحيط لأبى حيان فى سورة « النساء » . وفى الأصول : «والمقيمين ... والمؤتين» .

بالعهود والصبر فى الشدائد . وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب . وتقدم التنبيه على أكثرها، ويأتى بيان باقيها بما فيها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

واختلف هل يعطى اليتيم من صدقة التطوع بمجرّد اليتم على وجه الصلة وإن كان غنيا أولا يعطى حتى يكون فقيرا ؛ قولان للعلماء . وهذا على أن يكون إيتاء المال غير الزكاة الواجبة على ما بيّنته آنفا .

السادسة — قوله تعالى : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ استدل به من قال: إن فى المال حقّا سوى الزكاة وبها كال البر . وقيل : المراد الزكاة المفروضة ، والأول أصح ؛ لما خرّجه الدارقُطنى عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن فى المال حقا سوى الزكاة ثم تلا هذه الآية ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآية" . وأخرجه ابن ماجه فى سننه، والترمذىّ فى جامعه وقال : «هذا حديث ليس إسناده بذاك، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعّف . وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبى هذا الحديث وهو أصح » .

قلت : والحديث وإن كان فيه مقال فقد دل على صحته معنى ما فى الآية نفسها من قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ فذكر الزكاة مع الصلاة، وذلك دليل على أن المراد بقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ ليس الزكاة المفروضة ؛ فإن ذلك كان يكون تكرارا . والله أعلم . واتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها. قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم. وهذا إجماع أيضا، وهو يقوّى ما اخترناه . والموفق الإله .

السابعة — قوله تعالى : ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ الضمير فى «حبه» اختلف فى عوده؛ فقيل : يعود على المعطى للمال، وحذف المفعول وهو المال. ويجوز نصب «ذوى القربى» بالحب؛ فيكون التقدير على حب المعطى ذوى القربى . وقيل : يعود على المال ؛ فيكون المصدر مضافا إلى المفعول . قال ابن عطية : ويجيء قوله : ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ اعتراضا بليغا أثناء القول .

قلت : ونظيره ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا ﴾ فإنه جمع المعنيين : الاعتراض وإضافة المصدر إلى المفعول ، أى على حب الطعام . ومن الاعتراض ﴿ قَوْلُهُ الحَقُّ ﴾ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ ﴾ . وهذا عندهم يسمى التتميم وهو نوع من البلاغة ، ويسمى أيضا الاحتراس والاحتياط ، فتمم بقوله ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ وقوله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ، ومنه قول زهير :

من يلق يوما على عِلاته هَرِمًا ، يلق السَّماحةَ منه والنَّدى خُلقا

وقال امرؤ القيس :

على هيكل يعطيك قبل سؤاله * أفانين جرى غير كَزٍّ ولا وان

فقوله : «على علاته» و «قبل سؤاله» ؛ تتميم حَسَن ؛ ومنه قول عنترة :

أثنى على بما علمت فإننى * سهل مخالقتى إذا لم أُظلم

فقوله : « اذا لم أظلم » ؛ تتميم حسن . وقال طرفة :

فسقى ديارَك غيرَ مفسدِها * صوبُ الربيع وديمةٌ تهمى

وقال الربيع بن ضَبيع الفزارى :

فنيت ومايفنى صنيعى ومنطق * وكل امرئ إلا أحاديثه فان

فقوله : « غير مفسدها » ، و « إلا أحاديثه » ؛ تتميم واحتراس .

فافنى الردى أرواحنا غير ظالم * وأفنى الندى أموالنا غير عائب

فقوله : « غير ظالم » ، و« غير عائب » ؛ تتميم واحتياط . وهو فى الشعر كثير . وقيل : يعود على الإيتاء ؛ لأن الفعل يدل على مصدره ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أى البخل خيرا لهم . فإذا أصابت الناس حاجة أو فاقة فإيتاء المال حبيب إليهم . وقيل : يعود على اسم الله تعالى فى قوله : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ . والمعنى المقصود أن يتصدق المرء فى هذه الوجوه وهو صحيح شحيح يخشى الفقر ويأمل البقا .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ أى فيما بينهم وبين الله تعالى وفيما بينهم وبين الناس ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ البأساء : الشدّة والفقــر . والضراء : المرض والزمانة؛ قاله ابن مسعود . وقال عليه السلام : "يقول الله تعالى أيما عبد من عبادى ابتليته ببلاء فى فراشه فلم يشك إلى عوّاده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فان قبضته فإلى رحمتى و إن عافيته عافيته وليس له ذنب" قيــل : يا رسول الله، ما لحم خير من لحمـه ؟ قال : "لحم لم يذنب" قيل : فما دم خير من دمه ؟ قال : "دم لم يذنب" . والبأساء والضراء اسمــان بنيا على فعلاء ، ولا فعــل لهما ؛ لأنهما اسمان وليسا بنعت . ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ . أى وقت الحرب .

قوله تعــالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وصفهم بالصدق والتقوى فى أمورهم والوفاء بهــا، وأنهم كانوا جادّين فى الدين ، وهــذا غاية الثناء . والصدق خلاف الكذب ،و يقال : صدقوهم القتال. والصِّدّيق الملازم للصدق؛ وفى الحديث: "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البرّ و إن البر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصدُق و يتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدّيقا " .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . فيه سبع عشرة مسئلة :

الأولى — روى البخارىّ والنسائى والدّارقطنى عن ابن عباس قال : « كان فى بنى إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية ؛ فقــال الله لهذه الأمة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ . فالعفو أن يقبل الدّية فى العمد : ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ يتبع بالمعروف و يؤدّى بإحسان ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ . ممــا كتب على من كان قبلكم . ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قتل بعــد قبول الدية » . هــذا لفظ البخارى : حدّثنا الحميدى حدثنا سفيان حدّثنا عمرو [قال] سمعت مجاهــدا [قال] سمعت ابن عباس . وقال الشّعبىّ فى قوله تعالى :

﴿ الحُرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى ﴾ . قال : أنزلت فى قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا فقالوا : نقتل بعبدنا فلان ابن فلان، و بأمتنا فلانة بنت فلان . ونحوه عن قتادة .

الثانيــة ــ قوله تعــالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ ﴾ . كتب معناه فرض وأثبت ؛ ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

كتب القتل والقتــال علينا * وعــلى الغانيات جرّ الذيول

وقد قيــل : إن كتب هنا إخبــار عما كتب فى اللوح المحفوظ وسبق به القضاء . والقصاص مأخوذ من قص الأثر وهو اتّبــاعه ؛ ومنــه القاصّ لأنه يتبع الآثار والأخبــار . وقصّ الشعر اتباع أثره ؛ فكأن القاتل سلك طريقا من القتل فقُصّ أثره فيها ومُشّيَ على سبيله فى ذلك ؛ ومنه ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ . وقيل : القصّ القطع ؛ يقــال : قصصت ما بينهما ؛ ومنه أخذ القصاص لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به ؛ يقال : اقتص الحــاكم لفلان من فلان وأباء به فأمثله فامتثل منه أى اقتص منه .

الثالثــة ــ صورة القصاص هو أن القاتل فُرض عليه إذا أراد الولىّ القتل الاستسلام لأمر الله والانقياد لقصاصه المشروع ، وأن الولىّ فرض عليه الوقوف عنــد قاتل وليّه وترك التعدى الى غيره ؛ كما كانت العرب تتعدّى فتقتل غير القاتل ؛ وهو معنى قوله عليــه السلام : " إن من أعتى النــاس على الله يوم القيامــة ثلاثة رجل قتل غير قاتله و رجل قتــل فى الحرم و رجل أخذ بذحول الجاهلية (١) " . قال الشّعبى وقتادة وغيرهما : إن أهل الجاهلية كان فيهم بغى وطاعة للشيطان ؛ فكان الحىّ إذا كان فيه عزّ ومَنَعة فقتل لهم عبد قتــله عبد قوم آخرين ، قالوا : لا نقتل به إلا حُرّا ، وإذا قتلت منهم امرأة قالوا : لا نقتــل فيها الا رجلا ، وإذا قتل لهم وضيع قالوا : لا نقتل به إلا شريفا . و يقولون : "القتل أوقى للقتل" ، بالواو والقاف . و يروى أبقى ، بالبــاء والقاف . و يروى أنفى ، بالنون والفــاء . فنهاهم الله عن البغى فقال :

(١) الذحل : الثأر وطلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أو جرح ، ونحو ذلك .

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ الآية، وقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ . وبين الكلامين فى الفصاحة والجزل بون عظيم .

الرابعة — لا خلاف أن القصاص فى القتل لايقيمه إلا أولو الأمر، فرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود وغير ذلك؛ لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعا أن يجتمعوا على القصاص؛ فأقاموا السلطان مقام أنفسهم فى إقامة القصاص وغيره من الحدود . وليس القصاص بلازم إنما اللازم ألا يتجاوز القصاص الى الاعتداء؛ فأما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح، على ما يأتى بيانه .

فإن قيل : فإن قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ معناه : فرض وألزم؛ فكيف يكون القصاص غير واجب ؟ قيل له : معناه إذا أردتم . فأعلم أن القصاص هو الغاية عند التشاح . والقتلى جمع قتيل ، لفظ مؤنث تأنيث الجماعة ، وهو مما يدخل على الناس كرها ؛ فلذلك جاء على هذا البناء كجرحى وزمنى وحمقى وصرعى وغرقى، وشبههن .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ الآية . اختلف فى تأويلها؛ فقالت طائفة: جاءت الآية مبينة لحكم النوع إذا قتل نوعه؛ فبينت حكم الحر إذا قتل حرا ، والعبد إذا قتل عبدا، والأنثى إذا قتلت أنثى . ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر؛ فالآية محكمة وفيها اجمال يبينه قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾. وبينه النبي صلى الله عليه وسلم بسنته لما قتل اليهودي بالمرأة؛ قاله مجاهد . وذكره أبو عبيد عن ابن عباس . وروى عن ابن عباس أيضا أنها منسوخة بآية المائدة ؛ وهو قول أهل العراق .

السادسة — قال الكوفيون والثورى : يقتل الحر بالعبد ، والمسلم بالذمى ، واحتجوا بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ فعم ، وقوله : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ قالوا : والذمى مع المسلم متساويان فى الحرمة التى تكفى فى القصاص وهى حرمة الدم الثابتة على التأبيد ؛ فإن الذمى محقون الدم على التأبيد ، والمسلم

كذلك ، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام » . والذى يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمى ، وهذا يدل على أن مال الذمى قد ساوى مال المسلم ؛ فدلّ على مساواته لدمه إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه . واتفق أبو حنيفة والثورى وابن أبى ليلى وأصحابه على أن الحر يقتل بالعبد كما يقتل العبد به ؛ وهو قول داود وروى ذلك عن علىّ وابن مسعود رضى الله عنهما ، وبه قال سعيد بن المسيّب وقتادة وابراهيم النخعى والحكم بن عيينة . والجمهور من العلماء لايقتلون الحرّ بالعبد ؛ للتنويع والتقسيم فى الآية . وقال أبو ثور : لما اتفق جميعهم على أنه لاقصاص بين العبيد والأحرار فيما دون النفوس كانت النفوس أحرى بذلك . ومن فرق منهم بين ذلك فقد ناقض . وأيضا فالإجماع فيمن قتل عبدا خطأ أنه ليس عليه إلا القيمة ، فكما لم يشبه الحر فى الخطأ لم يشبهه فى العمد . وأيضا فإن العبد سلعة من السلع يباع ويشترى ويتصرف فيه الحر كيف شاء ، فلا مساواة بينه وبين الحرّ ولا مقاومة

قلت : هذا الإجماع صحيح ، وأما قوله أولا : ولما اتفق جميعهم إلى قوله : فقد ناقض ؛ فقد قال ابن أبى ليلى وداود بالقصاص بين الأحرار والعبيد فى النفس وفى جميع الأعضاء . واستدل داود بقوله عليه السلام : " المسلمون تتكافأ دماؤهم " فلم يفرق بين حر وعبد . وسيأتى بيانه فى « النساء » إن شاء الله تعالى

السابعة ــ والجمهور أيضا على أنه لايقتل مسلم بكافر ؛ لقوله صلّى الله عليه وسلّم " لايقتل مسلم بكافر " أخرجه البخارى عن علىّ بن أبى طالب . ولا يصح لهم مارووه من حديث ربيعة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قتل يوم خيبر مسلما بكافر لأنه منقطع ، ومن حديث ابن البيلمانى وهو ضعيف عن ابن عمر عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم مرفوعا . قال الدارقطنى : « لم يسنده غير ابراهيم بن أبى يحيى وهو متروك الحديث والصواب عن ربيعة عن ابن البيلمانى مرسل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وابن البيلمانى ضعيف الحديث لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث ، فكيف بما يرسله » .

قلت : فلا يصح فى الباب إلا حديث البخارى؛ وهو يخصص عموم قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ الآية . وعموم قوله : ﴿ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ .

الثامنة — روى عن على بن أبى طالب والحسن بن أبى الحسن البصرى؛ أن الآية نزلت مبيّنة حكم المذكورين ، ليدل ذلك على الفرق بينهم وبين أن يقتل حرّ عبدا أو عبد حرّا أو ذكر أنثى أو أنثى ذكرا، وقالا : إذا قتل رجل امرأة فإن أراد أولياؤها قتلوا صاحبهم ووفوا أولياءه نصف الدية، وإن أرادوا استحيوه وأخذوا منه دية المرأة . وإذا قتلت امرأة رجلا فإن أراد أولياؤه قتلها قتلوها وأخذوا نصف الدية، وإلا أخذوا دية صاحبهم واستحيوها . وإذا قتل الحر العبد، فإن أراد سيّد العبد قتل وأعطى دية الحرّ إلا قيمة العبد، وإن شاء استحيا وأخذ قيمة العبد . هذا مذكور عن على والحسن . وقد أنكر ذلك عنهم أيضا . روى هذا الشعبى عن علىّ ، ولا يصح ؛ لأن الشعبى لم يلق عليًّا . وقد روى الحكم عن علىّ وعبد الله قالا : إذا قتل الرجل المرأة متعمدا فهو بها قَوَد . وهذا يعارض رواية الشعبى عن على . وأجمع العلماء على أن الأعور والأشل إذا قتل رجلا سالم الأعضاء أنه ليس لوليّه أن يقتل الأعور، ويأخذ منه نصف الدية من أجل أنه قتل ذا عينين وهو أعور، وقتل ذا يدين وهو أشل . فهذا يدل على أن النفس مكافئة للنفس، ويكافئ الطفل فيها الكبير .

ويقال لقائل ذلك : إن كان الرجل لا تكافئه المرأة ولا تدخل تحت قول النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "المسلمون تتكافأ دماؤهم" فلِمَ قتلت الرجل بها وهى لا تكافئه ثم تأخذ نصف الدية ، والعلماء قد أجمعوا أن الدية لا تجتمع مع القصاص ، وأن الدية إذا قبلت حرم الدم وارتفع القصاص ؛ فليس قوله هذا بأصل ولا قياس ؛ قاله أبو عمر رحمه الله .

التاسعة — وأجمع العلماء على قتل المرأة بالرجل والرجل بها . والجمهور لا يرون الرجوع بشىء . وفرقة ترى الاتباع بفضل الديات . قال مالك والشافعى وأحمد وإسحاق والثورى .

وأبو ثور : وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس . وقال حماد بن أبي سليمان وأبو حنيفة : لا قصاص بينهما فيما دون النفس وإنما هو في النفس بالنفس . وهما محجوجان بالحاق ما دون النفس بالنفس على طريق الأحرى والأولى ، على ما تقدّم .

العاشــرة ــ قال ابن العربي : « ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا : يقتل الحر بعبد نفسه . ورووا في ذلك حديثا عن الحسن عن سَمُرة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : " من قتل عبده قتلناه " . وهو حديث ضعيف ، ودليلنا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ﴾ والوليّ ها هنا السيد ، فكيف يجعل له سلطان على نفسه » . وقد اتفق الجميع على أن السيد إذا قتل عبده خطأ أنه لا تؤخذ منه قيمته لبيت المال . وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلا قتل عبده متعمدا فجلده النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ونفاه سنة ومحا سهمه من المسلمين ولم يقده به .

فإن قيل : فإذا قتل الرجل زوجته لِمَ لَمْ تقولوا : ينصب النكاح شبهة في درء القصاص عن الزوج ، إذ النكاح ضرب من الرق ، وقد قال ذلك الليث بن سعد . قلنا : النكاح ينعقد لها عليه ، كما ينعقد له عليها ، بدليل أنه لا يتزوج أختها ولا أربعا سواها ، وتطالبه في حق الوطء بما يطالبها ، ولكن له عليها فضل القوامة التي جعل الله له عليها بما أنفق من ماله ، أي بما وجب عليه من صداق ونفقة ، فلو أورث شبهة لأورثها في الجانبين .

قلت : هذا الحديث الذي ضعّفه ابن العربي وهو صحيح ، أخرجه النسائي وأبو داود . وتتميم متنه "ومن جدعه جدعناه ومن أخصاه أخصيناه" . وقال البخاري عن عليّ بن المديني : سماع الحسن من سَمُرة صحيح . وأخذ بهذا الحديث . وقال البخاري : وأنا أذهب إليه . فلو لم يصح الحديث لما ذهب إليه هذان الإمامان . وحسبك بهما . ويقتل الحر بعبد نفسه . قال النخعي والثوريّ في أحد قوليه : وقد قيل : إن الحسن لم يسمع من سمرة إلا حديث العقيقة والله أعلم . واختلفوا في القصاص بين العبيد فيما دون النفس ؛ هذا قول عمر بن عبد العزيز وسالم

ابن عبد الله والزهرى وقُزان (١) ومالك والشافعى وأبو ثور . وقال الشّعبى والنخعى والثورى وأبو حنيفة : لا قصاص بينهم إلا فى النفس . قال ابن المنذر : الأول أصح

الحادية عشرة — روى الدارقُطنى وأبو عيسى الترمذى عن سراقة بن مالك قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقيد للأب من ابنه ، ولا يُقيد للابن من أبيه . قال أبو عيسى : هذا حديث لانعرفه من حديث سراقة إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بصحيح . رواه اسماعيل بن عياش عن أبى المُثَنّى بن الصبّاح ، وأبو المثنى يضعف فى الحديث . وقد روى هذا الحديث أبو خالد الأحمر عن الحجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روى هذا الحديث عن عمرو بن شعيب مرسلا ، وهذا الحديث فيه اضطراب . والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأب إذا قتل آبنه لايقتل به ، وإذا قذفه لايحد » . وقال ابن المنذر : اختلف أهل العلم فى الرجل يقتل ابنه عمدا ؛ فقالت طائفة : لا قود عليه وعليه ديته ؛ وهذا قول الشافعى وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى ، وروى ذلك عن عطاء ومجاهد . وقال مالك وابن نافع وابن عبد الحكم : يقتل به . قال ابن المنذر : وبهذا نقول لظاهر الكتاب والسنة ؛ فأما ظاهر الكتاب فقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ » . والثابت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم" ولا نعلم خبرا ثابتا يجب به استثناء الأب من جملة الآية . وقد روينا فيه أخبارا غير ثابتة . وحكى الكيا الطبرى عن عثمان البَتّى أنه يقتل الوالد بولده ؛ للعمومات فى القصاص . وروى مثل ذلك عن مالك ، ولعلهما لايقبلان أخبار الآحاد فى مقابلة عمومات القرآن .

قلت : لا خلاف فى مذهب مالك أنه إذا قتل الرجل آبنه متعمدا ، مثل أن يَضْجَعه ويذبحه أو يَصْبِره (٢) مما لا عذر له فيه ولا شبهة فى ادعاء الخطأ ، أنه يقتل به قولا واحدا . فأما

(١) قزان (بضم أوله وتشديد الراء) بن تمام الأسدى ، توفى سنة إحدى وثمانين ومائة .

(٢) كذا فى نسخة من الأصل . وصبر الإنسان وغيره على القتل : أن يحبس ويرمى حتى يموت . وفى سائر الأصول : « أو يضربه » .

إن رماه بالسلاح أدبا أو حنقًا فقتله، ففيه فى المذهب قولان : يقتل به، ولا يقتل به وتغلظ الدية . وبه قال جماعة العلماء . ويقتل الأجنبي بمثل هـذا . آبن العربي[١] : «سمعت شيخنا فخر الإسلام الشاشي يقول فى النظر : لا يقتل الأب بابنه ؛ لأن الأب كان سبب وجوده، فكيف يكون هو سبب عدمه . وهذا يبطل بما إذا زنا بابنته فانه يرجم، وكان سبب وجودها وتكون هي سـبب عدمه . ثم أيّ فقه تحت هـذا ، ولم لا يكون سبب عدمه اذا عصى الله تعالى فى ذلك . وقد أثروا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقاد الوالد بولده" . وهو حديث باطل، متعلقهم أن عمر رضى الله عنه قضى بالدية مغلظة فى قاتل آبنه ولم ينكر أحد من الصحابة عليه ؛ فأخذ سائر الفقهاء رضى الله عنهم المسئلة مُسْجلة[٢] ، وقالوا : لا يقتل الوالد بولده . وأخذها مالك محكمة مفصّلة فقال : إنه لو حذفه بالسيف وهذه حالة محتملة لقصد القتل وعدمه ، وشفقة الأبوة شـبهة منتصبة شاهدة بعدم القصد للقتل تسقط القَوَد . فاذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فالتحق بأصله» . قال آبن المنذر : وكان مالك والشافعيّ وأحمد و إسحاق يقولون : إذا قتل الآبن الأب قتل به .

الثانية عشرة — وقد استدل الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية على قوله : لا تقتل الجماعة بالواحد، قال : لأن الله سبحانه شرط المساواة ولا مساواة بين الجماعة والواحد . وقد قال تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ . والجواب أن المراد بالقصاص فى الآية قتل من قتل كائنا من كان، ردًّا على العرب التى كانت تريد أن تقتل بمن قُتِل من لم يقتل ، وتقتل فى مقابلة الواحد مائة ؛ افتخارا واستظهارا بالجاه والمقدرة ؛ فأمر الله سبحانه بالعدل والمساواة، وذلك بأن يقتل من قتل ، وقد قتل عمر رضى الله عنه سبعة برجل بصنعاء وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعا . وقتل عليّ رضى الله عنه الحَرُورِية[٣] بعبد الله

---

(١) أثبتنا كلام ابن العربي هنا كما ورد فى كتابه «أحكام القرآن» . وقد ورد فى الأصول بنقص وتحريف من النساخ . (٢) مرسلة مطلقة .

(٣) الحرورية : طائفة من الخوارج نسبوا الى حروراء (موضع قريب من الكوفة) لأن أوّل مجتمعهم وتحكيمهم فيها .

ابن خبّاب . فإنه توقّف عن قتالهم حتى يُحدثوا فلما ذبحوا عبد الله بن خبّاب كما تذبح الشاة ، وأخبر عليّ بذلك قال : الله أكبر، نادوهم أن أخرجوا إلينا قاتل عبد الله بن خبّاب . فقالوا : كلّنا قتلناه ثلاث مرات ؛ فقال عليّ لأصحابه : دونكم القوم ؛ فما لبث أن قتلهم عليّ وأصحابه . خرّج الحديثين الدارقُطني في سننه . وفي الترمذيّ عن أبي سعيد وأبي هريرة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبّهم الله في النار" . وقال فيه : حديث غريب . وأيضا فلو علم الجماعة أنهم إذا قتلوا الواحد لم يقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك في قتلهم وبلغوا الأمل من التشفي . ومراعاة هذه القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ . والله أعلم . وقال ابن المنذر : وقال الزهري وحبيب ابن أبي ثابت وابن سيرين : لا يقتل اثنان بواحد. روينا ذلك عن معاذ بن جبل وابن الزبير وعبد الملك. قال ابن الزبير : وهذا أصح ، ولا حجة مع من أباح قتل جماعة بواحد . وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه .

الثالثة عشرة — روى الأئمة عن أبي شريح الكعبيّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " ألا إنكم يا معشر خزاعة قتلتم هذا القتيل من هُذيل وإني عاقله فمن قتل له بعد مقالتي هذه قتيل فأهله بين خيرتين أن يأخذوا العقل أو يقتلوا " . لفظ أبي داود . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . وروى عن أبي شريح الخزاعي (١) عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " من قتل له قتيل فله أن يقتل أو يعفو أو يأخذ الدية " وذهب إلى هذا بعض أهل العلم، وهو قول أحمد وإسحاق .

الرابعة عشرة — اختلف أهل العلم في أخذ الدية من قاتل العمد ؛ فقالت طائفة : وليّ المقتول بالخيار إن شاء اقتص وإن شاء أخذ الدية وإن لم يرض القاتل . يروى هذا عن سعيد ابن المسيّب وعطاء والحسن ، ورواه أشهب عن مالك ؛ وبه قال الليث والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور . وحجتهم حديث أبي شريح وما كان في معناه ، وهو نص في موضع

(١) أبو شريح الخزاعي : هو أبو شريح الكعبي . واختلف في اسمه ، والمشهور أنه خويلد ابن عمرو بن صخر أسلم يوم الفتح .

الخلاف؛ وأيضا من طريق النظر فإنما لزمته الدية بغير رضاه؛ لأن فرضا عليه إحياء نفسه، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ أي ترك له دمه في أحد التأويلات ورضي منه بالدية ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي فعلى صاحب الدم اتباع بالمعروف في المطالبة بالدية ، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان، أي من غير مماطلة وتأخير عن الوقت ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي أنه من كان قبلنا لم يفرض عليهم غير النفس بالنفس؛ فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضي بها وليّ الدم؛ على ما يأتي بيانه . وقال آخرون : ليس لوليّ المقتول إلا القصاص ، ولا يأخذ الدية إلا إذا رضي القاتل . رواه ابن القاسم عن مالك وهو المشهور عنه ، وبه قال الثوريّ والكوفيون . واحتجوا بحديث أنس في قصة الربيع حين كسرت ثنيّته المرأة. رواه الأئمة ، قالوا : فلما حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلم بالقصاص وقال : " القصاص كتاب الله، القصاص كتاب الله " ولم يخيّر المجنى عليه بين القصاص والدية ثبت بذلك أن الذي يجب بكتاب الله وسنة رسوله في العمد هو القصاص، والأول أصح؛ لحديث أبي شريح المذكور. وروى الربيع عن الشافعيّ قال : أخبرني أبو حنيفة ابن سماك بن الفضل الشهابي قال : وحدّثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال عام الفتح : " من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود". فقال أبو حنيفة : فقلت لابن أبي ذئب : أتأخذ بهذا يا أبا الحارث ؟ فضرب صدري وصاح عليّ صياحا كثيرا ونال مني وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : تأخذ به ؛ نعم آخذ به ، وذلك الفرض عليّ وعلى من سمعه، إن الله عزّ وجلّ ثناؤه اختار محمدا صلّى الله عليه وسلّم من الناس فهداهم به وعلى يديه، واختار لهم مااختاره له وعلى لسانه؛ فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك . قال : وما سكت عني حتى تمنيت أن يسكت .

الخامسة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ اختلف العلماء في تأويل « من » و « عفي » على تأويلات خمس :

أحدها — أن «من» يراد بها القـاتل. و «عفى» تتضمن عافيا هو ولى الدم . والأخ هو المقتول و «شيء» هو الدم الذى يعفى عنه و يرجع إلى أخذ الدية ؛ هذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد و جماعة من العلماء . والعفو فى هذا القول على بابه الذى هو الترك . والمعنى أن القاتل إذا عفى له ولى المقتول عن دم مقتوله وأسـقط القصاص فانه يأخذ الدية ويتبع بالمعروف، و يؤدى اليه القاتل بإحسان .

الثانى — وهو قول مالك أن «من» يراد به الولى «وعفى» يُسّر، لا على بابها فى العفو. والأخ يراد به القـاتل و « شيء » هو الدية، أى أن الولى إذا جَنَح إلى العفو عن القصاص على أخذ الدية فان القاتل مخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه؛ فمرة تُيسّر ومرة لا تيسر . وغير مالك يقول : إذا رضى الأوليـاء بالدية فلا خيار للقاتل بل تلزمه . وقد روى عن مالك هذا القول، ورجحه كثير من أصحابه .

وقال أبو حنيفة : إن معنى « عفى » بذل . والعفو فى اللغة : البـذل؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أى ما سهل . وقال أبو الأسود الدؤلى :

* خُذِى العفو منّى تستديمى مودّتى *

وقال صلى الله عليه وسلم أوّل الوقت رضوان الله وآخره عفو الله يعنى شهد الله على عباده . فكأنه قال : من بذل له شيء من الدية فليقبل وليتبع بالمعروف .

وقال قوم : وليؤد اليـه القاتل باحسان فندبه تعالى الى أخذ المـال اذا سهل ذلك من جهة القاتل وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة كما قال ذلك عقب ذكر القصاص فى سورة المـائدة ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ فندب الى رحمـة العفو والصدقة وكذلك ندبه فيما ذكر فى هـذه الآية الى قبول الدية اذا بذلها الجانى باعطاء الدية ثم أمر الولى باتبـاع وأمر الجانى بالأداء بالاحسان، وقد قال قوم إن هـذه الألفاظ فى المعينين الذين نزلت فيهم الآية كلهـا وتساقطوا الديات فيما بينهم مقاصة . ومعنى الآية : فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من تلك الديات، ويكون « عفى » بمعنى فضل .

روى سفيان بن حسين بن شوعة عن الشعبي قال كان بين حيين من العرب قتال فقتل من هولاء وهولاء وقال أحد الحيين لا نرضى حتى يقتل بالمرأة الرجل و بالرجل المرأة فارتفعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام القتل سواء فاصطلحوا على الديات ففضل أحد الحيين على الآخر فهو قوله كتب الى قوله فمن عفى له من أخيه شيء يعني فمن فضل له على أخيه فضل فليوده بالمعروف فأخبر الشعبي عن السبب في نزول الآية، وذكر سفيان العفو هنا الفضل وهو معنى يحتمله اللفظ .

وتأويل خامس — وهو قول عليّ رضى الله عنه والحسن في الفضل بين دية الرجل والمرأة والحر والعبد، أي من كان له ذلك الفضل فاتباع بالمعروف؛ «وعفى» في هذا الموضع أيضا بمعنى فضل .

السادسة عشرة — هذه الآية حضّ من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب، وحسن القضاء من المؤدي؛ وهل ذلك على الوجوب أو الندب؛ فقراءة الرفع تدل على الوجوب؛ لأن المعنى فعليه اتباع بالمعروف . قال النحاس : فمن عفى له، شرط والجواب فاتباع ، وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه اتباع بالمعروف . ويجوز في غير القرآن «فاتباعا، وأداء» يجعلهما مصدرين . قال ابن عطية : وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة « فاتباعا » بالنصب ، والرفع سبيل للواجبات؛ كقوله تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ . وأما المندوب اليه فيأتي منصوبا؛ كقوله : ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قود ولا دية؛ فجعل الله تعالى ذلك تخفيفا لهذه الأمة؛ فمن شاء قتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ ﴾ شرط وجوابه؛ أي قتل بعد أخذ الدية وسقوط قاتل وليه ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . قال الحسن: كان الرجل في الجاهلية إذا قتل قتيلا

فر إلى قومه فيجيء قومه فيصالحون بالدية ، فيقول ولي المقتول : إني أقبل الدية ، حتى يأمن القاتل ويخرج ، فيقتله ويرمي إليهم بالدية .

واختلف العلماء فيمن قتل بعد أخذ الدية ، فقال جماعة من العلماء منهم مالك والشافعي : هو كمن قتل ابتداء ، إن شاء الولي قتله وإن شاء عفا عنه وعذابه في الآخرة . وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم : عذابه أن يقتل البتة ، ولا يمكن الحاكم الولي من العفو . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أعفى[1] من قتل بعد أخذ الدية " . وقال أبو الحسن : عذابه أن يرد الدية فقط ويبقى إثمه الى عذاب الآخرة . وقال عمر بن عبد العزيز : أمره الى الإمام يصنع فيه ما يرى . وفي سنن الدارقطني عن أبي شريح الخزاعي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أصيب بدم أو خبل — والخبل عرج — فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فان أراد الرابعة فخذوا على يديه بين أن يقتص أو يعفو أو يأخذ العقل فان قبل شيئا من ذلك ثم عدا بعد ذلك فله النار خالدا فيها مخلدا " .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ هذا من الكلام البليغ الوجيز كما تقدم ، ومعناه : لا يقتل بعضكم بعضا ، رواه سفيان عن السدي عن أبي مالك . والمعنى : أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه ازدجر من يريد قتل آخر مخافة أن يقتص منه فحييا بذلك معا . وكانت العرب اذا قتل الرجل الآخر حمي قبيلاهما وتقاتلوا ، وكان ذلك داعيا الى قتل العدد الكثير ، فلما شرع الله القصاص قنع الكل به وتركوا الاقتتال ، فلهم في ذلك حياة .

الثانية — اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان ، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ، وإنما ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك ، ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدي الناس بعضهم عن بعض .

(١) أعفى ، من عفا الشيء اذا كثر وزاد . وهذا دعاء عليه ، أي لا كثر ماله ولا استغنى .

الثالثة ــ وأجمع العلماء على أن على السلطان أن يقص من نفسه إن تعدّى على أحد من الرعية، إذ هو واحد منهم وإنما له مزيّة النظر لهم كالوصي والوكيل، وذلك لا يمنع القصاص، وليس بينهم وبين العامة فرق فى أحكام الله عزّ وجلّ؛ لقوله جلّ ذكره : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ وثبت عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال لرجل شكا اليه أن عاملا قطع يده : لئن كنت صادقا لأقيدنّك منه . وروى النسائى عن أبى سعيد الخدرى قال : بينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقسم شيئا إذ أكبّ عليه رجل، فطعنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعرجون كان معه، فصاح الرجل؛ فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "[تعال] فاستقد" . قال : بل عفوت يا رسول الله . وروى أبو داود الطيالسى عن أبى فراس قال : خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ألا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلىّ أقيده منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين، لئن أدّب رجل منا رجلا من أهل رعيّته لتقصّنه منه ؟ قال : كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقص من نفسه . ولفظ أبى داود السجستانى عنه قال : خطبنا عمر بن الخطاب فقال : إنى لم أبعث عمّالى ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، فمن فعل ذلك به فليرفعه إلىّ أقصه منه . وذكر الحديث بمعناه .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تقدّم معناه، والمراد هنا تتقون القتل فتسلمون من القصاص ، ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى فى غير ذلك ؛ فان الله يثيب بالطاعة على الطاعة . وقرأ أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الربعى «ولكم فى القصص حياة» . قال النحاس : قراءة أبى الجوزاء شاذة . قال غيره : يحتمل أن يكون مصدرا كالقصاص . وقيل : أراد بالقصص القرآن، أى لكم فى كتاب الله الذى شرع فيه القصص حياة، أى نجاة .

قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ إلى قوله : ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .
فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ هذه آية الوصية، وليس في القرآن ذكر الوصية إلا في هذه الآية وفي النساء «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ» وفي المائدة «حِينَ الوَصِيَّةِ» . والتي في البقرة أتمها وأكملها، ونزلت قبل نزول الفرائض والمواريث على ما يأتي بيانه . وفي الكلام تقدير واو العطف ، أي وكتب عليكم ؛ فلما طال الكلام أسقطت الواو ؛ ومثله في بعض الأقوال : ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ، أي والذي؛ فحذف . وقيل : لما ذكر أن لولي الدم أن يقتص ؛ فهذا الذي أشرف على أن يقتص منه هو سبب الموت فكأنما حضره الموت ، فهذا أوان الوصية . فالآية مرتبطة بما قبلها ومتصلة بها فلذلك سقطت واو العطف . وكتب معناه فرض وأثبت، كما تقدم. وحضور الموت: أسبابه، ومتى حضر السبب كنّت به العرب عن المسبب؛ قال شاعرهم :

يأيها الراكبُ المُزْجي مطيَّته * سائلْ بني أسَد ما هذه الصَّوتُ

وقل لهم بادروا بالعذر والتمسوا * قولا يبرئكم إني أنا الموت

وقال عنترة :

وإن الموت طوع يدي إذا ما * وصلت بنانها بالهندوان

وقال جرير في مهاجاة الفرزدق :

أنا الموت الذي حدّثت عنه * فليس لهارب مني نجاء

الثانية — إن قيل : لم قال كتب ولم يقل كتبت ، والوصية مؤنثة . قيل له : إنما ذلك لأنه أراد بالوصية الإيصاء . وقيل : لأنه تخلّل فاصل؛ فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث ؛ تقول العرب: حضر القاضي اليوم امرأة . وقد حكى سيبويه قام امرأة . ولكن حسن ذلك إنما هو مع طول الحائل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ و « إن » شرط وفي جوابه لأبي الحسن الأخفش قولان : قال الأخفش : التقدير فالوصية، ثم حذفت الفاء؛ كما قال الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها * والشر بالشر عند الله مثلان

(١) الصوت مذكر، وإنما أنثه هاهنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة، على معنى الصيحة . عن اللسان .

والجواب الآخر أن الماضي يجوز أن يكون جوابه قبله و بعده ، فيكون التقدير الوصية للوالدين والأقربين إن ترك خيرا . فإن قدّرت الفاء فالوصية رفع بالابتداء، وإن لم تقدّر الفاء جاز أن ترفعها بالابتداء وأن ترفعها على ما لم يسم فاعله ، أى كتب عليكم الوصية . ولا يصح عند جمهور النحاة أن تعمل الوصية فى إذا؛ لأنها فى حكم الصلة للصدر الذى هو الوصية وقد تقدّمت، فلا يجوز أن تعمل فيها متقدّمة. ويجوز أن يكون العامل فى إذا كتب، والمعنى : توجه إيجاب الله إليكم ومقتضى كتابه إذا حضر؛ فعبر عن توجه الإيجاب بكتب لينتظم الى هذا المعنى أنه مكتوب فى الأزل . ويجوز أن يكون العامل فى إذا الإيصاء يكون مقدّرا دل على الوصية، المعنى : كتب عليكم الإيصاء إذا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ خَيْرًا ﴾ الخير هنا المال من غير خلاف ، واختلفوا فى مقداره ؛ فقيل : المال الكثير ؛ رُوى ذلك عن علىّ وعائشة وابن عباس وقالوا فى سبعمائة دينار إنه قليل . قتادة عن الحسن : الخير ألف دينار فما فوقها . الشعبي : ما بين خمسمائة دينار الى ألف . والوصية عبارة عن كل شي يؤمر بفعله ويعهد به فى الحياة وبعد الموت . وخصصها العرف بما يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت، والجمع وصايا كالقضايا جمع قضية . والوصىّ يكون الموصى والموصى إليه ، وأصله من وصى مخففا . وتواصى النبت تواصيا إذا اتصل . وأرض واصية : متصلة النبات . وأوصيت له بشيء وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك . والاسم الوِصاية والوَصاية بالكسر والفتح . وأوصيته ووصيته أيضا توصية بمعنًى . والاسم الوَصاة . وتواصى القوم أوصى بعضهم بعضا . وفى الحديث : " استوصوا بالنساء خيرا فانهنّ عوانٍ[1] عندكم" . ووصيت الشيء بكذا إذا وصلته به .

الخامسة — اختلف العلماء فى وجوب الوصية على من خلف مالا ، بعد إجماعهم على أنها واجبة على من قبله ودائع وعليه ديون . وأكثر العلماء على أن الوصية غير واجبة على من ليس قبله شيء من ذلك، وهو قول مالك والشافعي والثوري، موسرا كان الموصى أو فقيرا. وقالت

(١) فى بعض النسخ عوار .

طائفة : الوصية واجبة على ظاهر القرآن؛ قاله الزهرى وأبو مجلز؛ قليلا كان المال أو كثيرا. وقال أبو ثور : ليست الوصية واجبة الا على رجل عليه دين أو عنده مال لقوم ؛ فواجب عليه أن يكتب وصيته ويخبر بما عليه . فأما ما لا دين عليه ولا وديعة عنده فليست بواجبة عليه الا أن يشاء . قال ابن المنذر : وهذا حسن ؛ لأن الله فرض أداء الأمانات الى أهلها ؛ ومن لا حق عليه ولا أمانة قبله فليس واجب عليه أن يوصى . احتج الأولون بما رواه الأئمة عن ابن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "ما حقّ امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيّته مكتوبة عنده" . وفى رواية "يبيت ثلاث ليال" وفيها قال عبد الله بن عمر : ما مرّت علىّ ليلة منذ سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال ذلك إلا وعندى وصيتى . احتج من لم يوجبها بأن قال : لو كانت واجبة لم يجعلها الى إرادة الموصى ولكان ذلك لازما على كل حال ، ثم لو سُلِّم أن ظاهره الوجوب فالقول بالموجب يردّه، وذلك فيمن كانت عليه حقوق للناس يخاف ضياعها عليهم؛ كما قال أبو ثور، وكذلك إن كانت له حقوق عند الناس يخاف تلفها على الورثة؛ فهذا يجب عليه الوصية ولا يختلف فيه .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ وكتب بمعنى فرض؛ فدل على وجوب الوصية . قيل لهم : قد تقدّم الجواب عنه فى الآية قبلُ، والمعنى : اذا أردتم الوصية . والله أعلم . وقال النّخعى : مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولم يوص، وقد أوصى أبو بكر؛ فإن أوصى فحسن، وإن لم يوص فلا شيء عليه .

السادسة — لم يبين الله تعالى فى كتابه مقدار ما يوصى به من المال ، وإنما قال : ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير المال؛ كقوله : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ . فاختلف العلماء فى مقدار ذلك؛ فروى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه أوصى بالخمس. وقال علىّ رضى الله عنه من غنائم المسلمين بالخمس. وقال معمر عن قتادة : أوصى عمر بالربع. وذكره البخارى عن ابن عباس . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : لأن أوصى بالخمس أحب الىّ من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب الىّ أن أوصى بالثلث .

واختار جماعة لمن ماله قليل وله ورثة ترك الوصية ؛ روى ذلك عن علىّ وابن عباس وعائشة رضوان الله عليهم أجمعين . روى ابن أبى شيبة من حديث ابن أبى مليكة عن عائشة قال لها رجل : إنى أريد أن أوصى . قالت : كم مالك؟ قال : ثلاثة آلاف . قالت : فكم عيالك ؟ قال : أربعة . قالت : إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ وهذا شىء يسير فدعه لعيالك فانه أفضل لك .

السابعة — ذهب الجمهور من العلماء الى أنه لايجوز لأحد أن يوصى بأكثر من الثلث إلا أبا حنيفة وأصحابه فانهم قالوا : إن لم يترك الموصى ورثة جاز له أن يوصى بماله كله . وقالوا : إن الاقتصار على الثلث فى الوصية إنما كان من أجل أن يدع ورثته أغنياء؛ لقوله عليه السلام : " إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " . الحديث رواه الأئمة . ومن لا وارث له فليس ممن عُنى بالحديث ؛ روى هذا القول عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة ومسروق، واليه ذهب اسحاق ومالك فى أحد قوليه، وروى عن علىّ . وسبب الخلاف مع ما ذكرنا، الخلاف فى بيت المال هل هو وارث أو حافظ لما يجعل فيه؛ قولان .

الثامنة — أجمع العلماء على أن من مات وله ورثة فليس له أن يوصى بجميع ماله . وروى عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة لابنه عبد الله : إنى قد أردت أن أوصى؛ فقال له : أوص ومالك فى مالى؛ فدعا كاتبا فأملى؛ فقال عبد الله فقلت له : ما أراك إلا قد أتيت على مالى ومالك، ولو دعوت إخوتى فاستحللتهم .

التاسعة — وأجمعوا أن للانسان أن يغير وصيته ويرجع فيما شاء منها، الا أنهم اختلفوا من ذلك فى المُدَبَّر ؛ فقال مالك رحمه الله : الأمر المجمع عليه عندنا أن الموصى اذا أوصى فى صحته أو مرضه بوصية فيها عتاقة رقيق من رقيقه أو غير ذلك، فانه يغير من ذلك ما بدا له ويصنع من ذلك ما شاء حتى يموت ، وان أحب أن يطرح تلك الوصية ويسقطها فعل، الا أن يُدبِّر فان دبّر مملوكا فلا سبيل له الى تغيير ما دبر؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال "ماحق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده".
قال أبو الفرج المالكي : المدبَّر في القياس كالمعتق الى شهر؛ لأنه أجل آت لا محالة . وأجمعوا ألّا يرجع في اليمين بالعتق والعتق الى أجل فكذلك المدبر؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعيّ وأحمد وإسحاق : هو وصية لإجماعهم أنه في الثلث كسائر الوصايا. وفي إجازتهم وطء المدبَّرة ما ينقض قياسهم المدبَّر على العتق الى أجل، وقد ثبت أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم باع مدبرا، وأن عائشة دبّرت جارية لها ثم باعتها . وهو قول جماعة من التابعين . وقالت طائفة : يغيّر الرجل من وصيته ما شاء إلا العتاقة، وكذلك قال الشعبيّ وابن سيرين وابن شبرمة والنخعيّ، وهو قول سفيان الثوريّ .

العاشرة — واختلفوا في الرجل يقول لعبده : أنت حر بعد موتي وأراد الوصية، فله الرجوع عند مالك في ذلك. وإن قال : فلان مدبر بعد موتي، لم يكن له الرجوع فيه . وإن أراد التدبير بقوله الأول لم يرجع أيضا عند أكثر أصحاب مالك. وأما الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور فكل هذا عندهم وصية؛ لأنه في الثلث، وكل ما كان في الثلث فهو وصية؛ إلا أن الشافعيّ قال : لا يكون الرجوع في المدبر إلا بأن يخرجه عن ملكه ببيع أو هبة . وليس قوله : "قد رجعت" رجوعا؛ وإن لم يخرج المدبر عن ملكه حتى يموت فانه يعتق بموته . وقال في القديم : يرجع في المدبر كما يرجع في الوصية . واختاره المزنيّ قياسا على إجماعهم على الرجوع فيمن أوصى بعتقه . وقال أبو ثور : إذا قال قد رجعت في مدبري فقد بطل التدبير، فإن مات لم يعتق . واختلف ابن القاسم وأشهب فيمن قال : عبدي حر بعد موتي . ولم يرد الوصية ولا التدبير؛ فقال ابن القاسم : هو وصية. وقال أشهب : هو مدبر وإن لم يرد الوصية.

الحادية عشرة — اختلف العلماء في هذه الآية هل هي منسوخة أو محكمة ؛ فقيل : هي محكمة، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدين وفي القرابة غير الورثة؛ قاله الضحاك وطاوس والحسن، واختاره الطبري . وعن الزهري أن الوصية واجبة فيما قل أو كثر . وقال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على

أن الوصية للوالدين اللذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة . وقال ابن عباس والحسن أيضا وقتادة : الآية عامة، وتقرر الحكم بها برهة من الدهر، ونسخ منها كل من كان يرث بآية الفرائض . وقد قيل: إن آية الفرائض لم تستقل بنسخها بل بضميمة أخرى وهى قوله عليه السلام : "إن الله قد أعطى لكل ذى حق حقه فلا وصية لوارث". رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذى وقال: هذا حديث حسن صحيح . فنسخ الآية إنما كان بالسنة الثابتة لا بالإرث على الصحيح من أقوال العلماء . ولولا هذا الحديث لأمكن الجمع بين الآيتين بأن يأخذوا المال عن المورث بالوصية، وبالميراث إن لم يوص، أو ما بقى من الوصية؛ لكن منع من ذلك هذا الحديث والإجماع . والشافعى وأبو الفرج وإن كانا منعا من نسخ الكتاب بالسنة فالصحيح جوازه بدليل أن الكل حكم الله تبارك وتعالى ومن عنده وإن اختلفت فى الأسماء، وقد تقدم هذا المعنى. ونحن وإن كان هذا الخبر بلغنا آحادا لكن قد انضم اليه إجماع المسلمين أنه لا تجوز وصية لوارث . فقد ظهر أن وجوب الوصية للأقربين الوارثين منسوخ بالسنة وأنها مستند المجمعين . والله أعلم .

وقال ابن عباس والحسن : نسخت الوصية للوالدين بالفرض فى سورة «النساء» وثبتت للأقربين الذين لا يرثون . وهذا مذهب الشافعى وأكثر المالكيين وجماعة من أهل العلم . وفى البخارى عن ابن عباس قال: كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين؛ فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع .

وقال ابن عمر وابن عباس وابن زيد : الآية كلها منسوخة، وبقيت الوصية ندبا . ونحو هذا قول مالك رحمه الله ، وذكره النحاس عن الشعبى والنخعى . وقال الربيع بن خثيم (١) : لا وصية . قال عروة بن ثابت : قلت للربيع ابن خثيم أوص لى بمصحفك ؛ فنظر الى ولده وقرأ ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ . ونحو هذا صنع ابن عمر رضى الله عنه .

(١) خثيم، بضم أوله وفتح ثانيه، كذا فى التقريب . وفى الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية .ا كتبه .

